منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية

(٢٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الخامس

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زيدان ، محمد حسين

الأعمال الكاملة ./ محمد حسين زيدان .- جدة ١٤٢٦هـ

(٧ مج٤٥٧٦ص) الجزء الخامس ٦٦٨ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٢٤)

ردمك ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-٧٤٤-٤٧-٩٩٦٠ (ج٥)

١ - زيدان ، محمد حسين ٢ - التاريخ الاسلامي

٣- الأدب العربي-مجموعات أ- العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٦/٢٠٣٢

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٣٢

ردمك : ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-٧٤٤-٤٧-٩٩٦٠ (ج٥)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

النثر .....

حصاد عمر وثمرات قَلم .....

بسم اللّه الرحمن الرحيم .....

تقديم المؤلف .....

العرب وجزيرتهم .....

الإسلام والحضارة .....

أثر الأسس الفكرية والنفسية في بناء الحضارات .....

مكة الإسلام والحج .....

الحج في الماضي والحاضر .....

ذكريات عن الحج .....

صبغة الأممية.. ما أخذت وما أعطت .....

الفاروق عمر بن الخطاب (١) .....

الفاروق عمر بن الخطاب (٢) .....

الفاروق عمر بن الخطاب (٣) .....

الفاروق عمر بن الخطاب (٤) .....
رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية .....
الجوانب العسكرية لحيَاة الملك عبد العزيز آل سعود .....
بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة .....
المنهج المثالي لكتابة تاريخنا .....
جمال الدين الأفغاني .....
جمال الدين الأفغاني .....
لا حضارة لليهود .....
أشياخ ومقالات .....
الإهـداء .....
الشهيد فيصل العظيم .....
الفيصل هو الجائزة .....
عبد الحَق الهاشمي .....
الشيخ محمّد العلي التركي .....
الشيخ محمَّد الطيب الأنصاري .....
الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني .....
صالح بن عثيمين .....
حَمـد الجَاسـِر .....
المقـالات .....
الإسـلام .....

سياسة .....
العرب بين الإرهاص والمعجزة .....
وقالها طليحة . . فصدقها خالد .....
الجنرال فرانكو .....
تاريخ وذكريات .....
أدب .....
عزاء . . وكلام عن النقد .....
علم .....
طب .....
صناعة .....
أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط .....
أقرأ الورقة من الخلف .....
قلعة صفد .....
هل عاد جي موليه؟ .....
الفرص والوقت مع إسرائيل .....
استرخاء موسكو وتوتر واشنطن .....
لمسات ورفعنا لك ذكراً .....
بولندا بعد بغداد .....
منحة التوقيت . . نعمة التوفيق .....
تجارة السلاح . . بلطجة .....

الـدوامــة .....
الحقــد . . لا الغضــب .....
قالــوا . . وقلــت .....
هل العرب أمة .....
ازدواج السلوك . . ..
الإرهــاب .....
واستقــام التـاريـخ .....
هل امرأة ثالثة .....
مؤتمر القمة . . والإمبراطوريتان .....
الإنسان يعيش مرحلة الغضب .....
الأمن . . العقدة الجديدة .....
أوروبا وعقدة الذنب .....
رسالتان وخبران .....
الفن ملكة . . والتوحيد امتلاك .....
بين انفراد الزعامة وانشطارها .....
من الشرم إلى بغداد إلى هايد بارك .....
من المؤامرة إلى المغامرة .....
الجولان يتهم سهل البقاع .....
بالمبادرة أهتم . . ولها أهتم .....
هيئة الأمم . . لا ديمقراطية ولا ميثاق .....

الإسكندر هيج .....
تفريغ الأرض.. والأحلاف .....
ما زال الصراع عبشمياً.. هاشمياً .....
تحذير بكين ونصيحة تونس .....
من الإرهابي.. ومن القاتل..؟ .....
البترول.. قوة طاغية .....
الفيتـــو.. ومـاليـه .....
التاريخ دراية لا رواية وأجمل الحب تزينه الرحمة .....
فهرس المحتويات .....

النثر

حصاد عمر وثمرات قَلم

محاضرات عن التاريخ والثقافة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

شكـــر وإهـــداء

لا أدري كيف أتقدم بالشكر إلى صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية، ذلك أن الشكر لفظ ينتهي بمجرد النطق به، لكن العمل المسجل في تاريخ الثقافة شكر تنطق به الأيام. فكأنما سمو الأمير وقد تفضل بطبع هذه المحاضرات على نفقته يدعو الثقافة والكاتب والقارئ إلى أن يستمر كل منهم في إعطاء الشكر حقه. وسمو الأمير أحمد بن عبد العزيز عرفته طالباً في الولايات المتحدة، وفي لوس أنجلوس بالذات يعطي لنفسه من الوقار، ويعطينا من التقدير ما نحمده عليه ـ فحين سعيت إليه أن يتفضل بطبع هذه المحاضرات استجاب سموه تقديراً منه للثقافة وتسجيلاً لصداقة الكاتب له ليعتز بالصداقة سائلاً الله أن يحفظ سمو الأمير طالب علم ـ ناشر علم ـ حفيظاً على الأمن.

محمد حسين زيدان

تقـديـم المـؤلـف

ما أشرف هذه الأمة في بداية هذا التاريخ لها ـ فلقد بدأ تاريخها بالكلمة القرآنية.. تنزل بها الروح الأمين على محمد الأمين.. الرسول النبي سيد ولد آدم ولا فخر، فعلى حراء وما أحلى أن سمي جبل النور نزلت هذه الآية:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ. ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ. ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ١ ـ ٤).

علم الإنسان كل الإنسان.. ثم جاءت الرحمة للإنسان العربي يعلمه الله ما لم يعلم.. علمه القرآن.. علمه البيان ـ دينه الإسلام.. علمه الإيمان فإذا هو الفاتح للهداية، والناشر لرحمة الإنسان يعلمه كيف يرحم نفسه حين يخرجها من الظلمات إلى النور. في هذه المحاضرات أنشرها في كتاب.. هي برهان فكري ونور ثقافتي وثبات اعتقادي، وما كنت معتزماً نشرها، وقد نشرت منجمة.. لولا أن بعض ولدي في كلمة راحمة منه شدتني بكل العواطف بين الابن وأبيه أن أنشر ذلك، فتعاصيت على هواي، ولكن هوى البنوّة غالب على أمري.

أنشرها لعلّي أفوز بشيء من الرضا أول ما أرغبه منه سكينة النفس بما تصنع، ودعوة صالحة من قارئ.. إن وجد فيها ما أفاده.

فمعذرة إن ظن ظان أنني أتزين بها، أو حتى أتزود منها.

فالحمد لله على توفيقه، وأرجو أن أكون من التابعين الذين يعملون بهاتين الآيتين ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

والآية الثانية ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥) فمن الرحمة للأبناء أن سمعت النصح منهم، ومن الشكر للأوفياء أن أذكرهم فأشكرهم، فشكراً لدار النشر الناشئة «عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع» على ما بذلت من جهد ـ كما هو الشكر للصديق الباحث الأستاذ/محمد أبو الفتوح الخياط على جمع المحاضرات وتنسيقها والإشراف على طباعتها وإخراجها بصورة طيبة.

أما جزيل الشكر فقد تقدمت به إلى صاحب السمو الملكي الأمير أحمد ابن عبد العزيز نائب وزير الداخلية ـ كان من التشريف لهذه المجموعة أن صدرت بكلمة شاكرة مع صورة سموّه.

والله ولي التوفيق

محمد حسين زيدان

العـرب وجزيرتهم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين سيدنا محمد بن عبد الله، راعي الغنم، معلم البدو، معلم الإنسانية.. هاديها بقرآن وسنّة، بلسان عربي مبين.. حمله هؤلاء البدو الذين تعلموا من محمد ﷺ.

سامعيّ الكرام.. سادة.. أساتذة، طلاباً، رجالاً واعين.. قبل أن أتكلم عن موضوع المحاضرة أريد أن أرسم لها شكلاً بمقدمة عن المركز الثقافي.

المركز الثقافي.. سواء كان تحت سماء في هذا العراء لا يسئمنا حره.. في أسد أو سنبلة.. ولا يتعبنا برده.. في جدي أو دلو وسواء كان في قاعة مهندمة مكندشة أو مكيفة على الأرائك تسمعون.. سواء كان هذا أو ذاك فإنه ينبغي أن يكون مع هذه الحلية والزركشة والصون، ينبغي أن يكون فيه جوهر ليصبح اسماً على مسماه ثقافة.. وعياً.. هدفاً.. تقدماً.. تلقى فيه المحاضرات. تعقد فيه الندوات ليكون دار ندوة. فقد كان عند أجدادكم من قريش البدو دار ندوة، كانوا حضراً في ظاهر ما يدعون.. في واقع ما يتصرفون بينهم وبين من يسكن الصحراء، ولكنهم في نظري الأكاسرة والقياصرة والنجاشي والأذواء لم يكونوا إلا بدواً.. تعقد في هذا

المركز الندوات، يكون فيها الحوار هادفاً إلى خير.. لا يعدل عن حق، يريد الحق. يقهر به الباطل. ينير طريقاً. ليصل إلى هدف.

سادتي.. ليس الرجل الأول في هذا المركز هو المحاضر.. أو وزير المعارف.. أو أي ضيف شرف. أو مدير التعليم.. الرجل الأول فيه كل سامع منكم.. كل سامع يسأل حيناً.. يعترض حيناً آخر. ينكر.. يناقش، يستزيد، فلا قيمة لمحاضرة، لحديث، لندوة، لا يكون السامع هو صاحب الكلمة الأولى فيها. إن امتلكها المحاضر بحق الإعداد والإلقاء، وإن امتلكها المركز بحق التهيئة والتقديم فإن السامع هو مالكها بحق الانتفاع.. هذا لا أغالي حينما أسمع منكم أنه مبدأ.. نسير عليه.. والأكبر من كل ذلك، أن تكون بيننا وبينكم الثقة لا تأتي من الإعجاب والإعزاز، وإنما ينبغي أن تأتي من الحب، الحب ينير الطريق. لا ليعطل عمل العقل ولكن ليجعل من أسلوب العقل أسلوباً رقيقاً، لأنه الرفيق في زمالة الكلمة مع إذن السامع.

سادتي، الكلمة عن البدو، عن البادية والعلم لا أريدها أن تقتصر على ما هو واقع الآن من انتشار التعليم فيهم. ولا أريدها أماني أو اقتراحات عما نريده جميعاً لهم.

أريد أيها السادة أن أتوسع في شرح نعرف منه هذا القبيل من الأمة العربية، عمر جزيرة العرب، في حجازها، ونجدها، وتهائمها، فمن هم العرب؟ هل نختصر الكلام فنقول التعريف السائر هم البائدة.. العاربة.. المستعربة؟ إن هذا التعريف لا يكفي لأنه يعرب عن نهاية التكوين للأمة العربية. أما البداية التي تثبت عراقة هؤلاء البدو، رسخت أقدامهم في أغوار التاريخ البعيد، فينبغي أن نستعير مقتبسين من الأستاذ العملاق، عالم

الكتاب، وكاتب العلماء، عباس محمود العقاد، رحمه الله، ننقله من كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوروبية».. ننقل فاتحة الكتاب بعنوانه ونصه ـ من هم العرب؟ـ

هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم.. لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي الذي تفرع منه الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون، وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة، وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين.

فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية، ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي الذي انفردت به بين لغات العالم بأسره.. وتشابه الضمائر والمفردات وكثير من الجذور والمشتقات، فضلاً عن التشابه في ملامح الوجوه. وخصائص الأجسام قبل أن يكثر التزواج بينها وبين جيرانها من الأمم الآسيوية أو الإفريقية.

وإذا كان لهذه الأمم جميعاً أصل واحد.. فأرجح الأقوال وأدناها إلى التصور أن يرجع هذا الأصل إلى الجزيرة العربية لأسباب كثيرة.

منها أن التحول من معيشة الرعاة إلى معيشة الحرث والزرع والإقامة في المدن طور من أطوار التاريخ، وليس من أطواره المعهودة أن يتحول الناس إلى معيشة الرعاة الرحل في بوادي الصحراء بعد الإقامة في الحواضر والبقاع المزروعة.

ومنها أن الجزيرة العربية ـ في عزلتها المعروفة ـ أشبه المواقع بالمحافظة على أصل قديم، وهي كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء على سكانها فيهجرونها إلى أودية الأنهار القريبة.

ومنها أن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة، وأقربها ما حدث بعد الإسلام في وقت واحد، من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في عهد الخليفة الصديق. وليس مديناً ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلاً على التاريخ القديم، ولا سيما إذا خلا التاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية تومئ إلى هجرة النهرين وسكان الأودية إلى الجزيرة العربية في زمن بعيد أو قريب. فإن السمريين سكان ما بين النهرين الأقدمين كانوا هنالك قبل عشرة آلاف سنة، ولم يصل إلينا قط خبر عن هجرتهم إلى مكان في الجزيرة العربية، كائناً ما كان موقعه من تلك البلاد، بل ثبت على التحقيق أن الساميين هم الذين هجروا مواطنهم إلى ما بين النهرين حيث قامت العواصم التي تسمى بالأسماء السامية كمدينة بابل «باب الله» أو «باب أيل». أما الرأي الآخر الذي يرجح أن الأمم السامية نشأت في بقعة من الأرض غير الجزيرة العربية فأشهر القائلين به هو الأستاذ «جويدي الكبير» العالم الإيطالي المعروف في القاهرة، وأقوى الحجج التي يستند إليها مستمدة من مضاهاة اللغات السامية وكثرة أسماء النبت والأمواه في لهجاتها الأولى، وعنده أن اشتراك اللغات السامية في هذه المفردات مما يدل على أرومة نشأت في بلاد مخصبة كثيرة الزروع والأنهار ولم تنشأ في صحراء العرب، وما شابهها من البقاع.

وهذا الرأي ضعيف لا يقوم بالحجة الناهضة ولا تؤيده حالة الجزيرة العربية قبل الكشوف الحديثة بزمن طويل، فضلاً عن حالة الجزيرة التي تدل عليها تلك الكشوف في طبقات الأرض وعوارض الجو وعلم الأجناس.

فالمروج الفيحاء، والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قط في جنوب

الجزيرة، ولا في جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادي اليمامة، وهي البقاع التي مر بها المهاجرون من قديم الزمن تارة من اليمن إلى البحرين بداءة إلى ما وراءها من المشارف الشمالية، ولم تزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الإسلام مشهورة بالمراعي الواسعة والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة والمروج المعشبة التي تخلفت مما هو أخصب منها وأعمر بالإنسان والحيوان في أقدم الأزمان، وقد لاحظ الرحالة الألماني «شوينفرت» أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها الآبدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق.

وتبين من الكشوف العلمية في العهد الأخير أن الجزيرة العربية تعرضت لأدوار الجفاف وطوارئ الزلازل منذ عصور موغلة في القدم فكان القفر فيها يجور على الخصب في أدوار طويلة بعد أدوار أخرى على التدريج، قبل أن تجور الصحراء على معظمها في عصور التاريخ.

فحالة الجزيرة العربية كافية لتفسير التشابه بين لغات الساميين في ألفاظ الخصب والثمرات والأمواه ولكن الرأي الآخر ـ رأي الأستاذ جويدي ـ لا يفسر لنا الفرض القائل بهجرة العرب ممثلاً مما بين النهرين، أو من الشام، إلى قفار الصحراء.. وهو فرض لا دليل عليه من الروايات القديمة ولا من الأحوال المرجحة على حسب التقدير المعقول ولا من السوابق المألوفة كما رأينا الأمثلة جلّها من التاريخ الحديث. وعلى هذا يصح أن نعتبر أن سلالة العرب الناشئين في جزيرتهم الأولى قد سكنت أواسط العالم المعمور منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير، وأن كل ما استفاده الأوروبيون من هذه البقاع في هذه العصور، هو تراث عربي، أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد..

وليس هذا التراث بقليل.. لأنه يشتمل على كل أصل عريق، عند

الأوروبيين، فـي شؤون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة وهي (١) العقائد السماوية، و (٢) آداب الحياة والسلوك و (٣) فنون التدوين والتعليم و(٤) صناعات السلم والحرب وتبادل الخبرات والثمرات.

انتهى كلام العقاد، وليس هذا حشواً مني أن أنقله، وإنما هو التعريف بهذا البدوي أريد له العلم، فلئن كان العرق العربي قد انتشر في العصور السحيقة من هذه الجزيرة، من جنوبها ووسطها، شرقاً إلى شمال، ويتجه غرباً إلى شمال فإن هذا البدوي بإسلامه، بلغته، قد انتشر فاتحاً في أول الأمر، ناشراً للإسلام، وقد انتشر ثانياً بهجرة عربية، عربت شمال إفريقيا كله، ورسخت العروبة في مصر. ليرجع دعاة الفرعونية إلى أصل عربي حتى بفرعونيتهم.

هذا البدوي هو العربي، في أعراقه حضارة، في دمائه علم، في قلبه عقيدة، لم يعش يوماً واحداً دون عقيدة.. صابئياً عابد كوكب إبراهيمياً حنيفياً، مشركاً عابد صنم، مسلماً موحداً بالله.. لم يتقبل هذا كله، الضال والهادي إلا بقلب حضاري رغم هذه البداوة فيه تكلموا معه الآن، لتتعلموا منه اللغة، ليست المقررات فحسب، وإنما الأسلوب، الأسلوب الفصيح، الراقص، المهندم.

الجزيرة العربية، مهد العرب، لم تكن في الماضي السحيق كما لمح إليه العقاد صحراء جدباء، فهم كنسل سام عاشوا في الجزيرة العصر المطير، فلا يعني وجود النهر في العراق أو النهير في الشام أنهم نشأوا هناك، لأن في لغتهم لغة الزراع، لقد نشأوا في أرض كانت ممرعة، مزهرة، سموه الأسماء المائة، لو لم يعرفوه، لو لم يعاشروه، لما سموه، لما وصفوه.

ليزر واحد منكم «عشة» في جيزان فإنه سيجفل حينما يدخل الحوش، فيه البقرة، فيه رائحة الروث، ولكنه حينما يدخل العشة يجدها نظيفة يجدها، مدوكره، فيها حلية، أخذت شكل ديكور، طائر معلّق، عود، صحن، صورة، هذه الجيزانية التي تعنى بالعشة، تضع فيها الزينة، لا شك أنها وإن تبدت اليوم فإن في قلبها حضارة..

لو شاهدتم ما يصنعون من زهر الفل لعجبتم من الذوق الحضاري، أساور، تيجان، عقود، وربى، إنها لجميلة تنبئ عن حضارة.

البداوة لديكم ظاهرة.. تشعرون بها من عدم الامتزاج بين المدينة والقرية، بين من يزعم أنه حضري وبين من هو بدوي، ولكنها في لبنان مثلاً مندمجة، فالقيمة للبناني أنه متحضر إلى حد بعيد وفي الوقت نفسه بدوي إلى حد بعيد. ومثله السوري تقريباً.. ومثله الجزائري، والمغربي، كل هؤلاء من أصل بدوي. من هنا، لا يشعر بدوي في غربة من حضري هناك. أما لدينا فالبدوي لا يزال يشعر ببعض الغربة إن خفت حدتها الآن بوحدة الكيان الكبير، بالرعاية الكاملة بالمواصلات السريعة، فإنها كانت من قبل حادة إلى درجة الانفصال.

وهنا، أرجو أن يقفل المايكرفون لئلا نسجل هذه الكلمة، ألم نكن نقول «يا واد حجز» «يا واد بدو» «سيبوا هاذا شرقي» «يا باوليد» «يا باحضرم» كنا نقولها ألفاظاً لا أدري بماذا أصفها، أما اليوم فقد انمحت.. كلنا إخوة.. كلنا أهل. سادتي.. ليس هؤلاء البدو الذين ترون جماعة من الناس يحسبون في البدائيين.. ليست البداوة لدينا تمثل البدائية.. البدو لدينا عندهم حضارة يمثلون جزءاً من شعب.. جزءاً من أمة، الأمة العربية، ذات الحضارة العريقة، فلنتفق أولاً على الحضارة، هل هي استعمال أم

طبيعة؟ إن كانت هي الاستعمال، لهذا البهرج من أدوات المدينة، أو هذا الإنتاج له، والتعامل معه صناعة وبيعاً وشراء واستهلاكاً، فكلنا من حضري في المدينة أو بدوي في الصحراء كلنا شعب بدوي.. وإن كانت الحضارة استعداداً وطبيعة وفكراً وثقافة فليس هذا البدوي بالإنسان البدائي وإنما هو إنسان متحضر لديه الاستعداد لأن يتعلم، لقد نجحوا في المدارس، وفي الجامعات بصورة رائعة.. فأكثر العشرة الأوائل منهم، لقد نجح من نزح منهم إلى المدينة مهندس تلفونات، سائق دركتر، مهندس كهرباء، مهندس سيارات، وما إلى ذلك، أما الطبيعة طبيعته فليس المظهر الذي ترون من خشونة الملبس والمطعم إلا شيئاً عارضاً لعوامل أخرى كالجدب، كالبعد، كعدم الرعاية، أما وقد بدأ يزول كل ذلك حيث يجد البدوي ما يغنيه عن الكلأ، ما يقربه إلى المدينة، ما يحوطه بالرعاية.. فإنكم ترون الرقة وحسن السلوك، والفهم، والرعاية، يفسر ذلك موقف علي بن الجهم.

والفكر.. ما دليله؟ ما إنتاجه؟ أليس في هذا الشعر. في الكلمة الشاعرة.. من اللغة الشاعرة.. في المعرفة لأمته، فكر كل الفكر؟

والثقافة.. أنا معكم أن البدوي غير متعلم.. وأرجو أن تكونوا معي تعترفون بأنه المثقف.. البدوي.. والبدوية، كل منهما مثقف، يعرف ما حواليه، ومن حواليه، ينسج بيته من الشعر، من الغزل، من خدمة الصوف، ينسج العباءات البيتية، والبيدي، ينسج المصانف، يدبغ الجلد، يصنع منه السعن، القربة، النرب، القلص، الحوض، الأحذية قد لا يعرف أن يطبب نفسه، ولكنه طبيب ماهر لماشيته، ثقف الخيل، ذلل الجمال، عسف الحمير، رعى الشياه، وأكثر من ذلك، لديه ثقافة زراعية ممتازة، يعرف أوان ما يزرع، وكيف يزرع، وماذا يزرع سواء كان ما يزرعه عشرياً أو

مسقيًّا.. مارس الطب، بالكي، وبالعقاقير.. يعرف مطالع النجوم لعلاقة ذلك بأوقات الزرع ما لم يعرفه العلماء. كل الفرق أنه بعد عن المدينة، وتباعدت المدينة عنه.

سادتي.. لقد كان هذا البدوي مصدر العلم، علم اللغة كل أئمتنا الرواد جمعوا اللغة ألفاظاً تلقنوها عن البادية.. كان الإمام عمرو بن العلاء أحد الأئمة القراء السبعة شيخ الأئمة في البصرة، جالساً وبين يديه طلاب العلم فسأله أحدهم.. مم اشتق اسم الخيل؟ فقال: لا أدري.. انتظروا قليلاً.. وبينما هم ينتظرون طلع عليهم أعرابي من هؤلاء الذين يزحفون على العراق من نجد، زحفوا في الأول فاتحين، هادين، بناة دولة، وتوالى زحفهم ناشري لغة، يصدرون العجمي. فلولا الزحف من نجد على العراق لاستعجم عراقكم من زحف الشمال والشرق، للزحف الأول الفاتح قالوا، قبائل نجد صخار الإسلام وفي الزحف الثاني المعلم المعرب، من هؤلاء البدو قالوا: نجد ولود والعراق داية.. بينما هم ينتظرون طلع عليهم الأعرابي، فاستوقفه الإمام يسأله مم اشتق اسم الخيل؟ ولم يقف الأعرابي، شمخ بأنفه، وقال لهم وهو يسير، من السير، ولم يفهم الطلاب فقال لهم عمرو بن العلاء، أفهمتم؟ قالوا ما فهمنا شيئاً، قال الإمام لقد اشتق اسم الخيل من سيرها، من الخيلاء.. ألا ترونها تمشي العرضنة تيهاً وخيلاء.. هم بكل ذلك، بكل زحف، حملوا مشاعل العلم والمعرفة حيثما وجدوا من يلتقط العلم والمعرفة، وليست الثقافة أو العلم أو المعرفة أحمالاً وأكداساً، يكفي من المعرفة القليل ليكون منه الكثير، حينما وجد الجامع لهذا القليل صيره كثيراً.

سادتي، لم يكن هذا مقصوراً على العصر الأول، إنه في هذه الأيام

ولكن الذاهبين إلى البادية ليتعلموا اللغة لا يوجدون.. أنا الماثل أمامكم ما كنت أعرف ذلك قبل أن أصطدم به.

خذوا ألفاظاً تعلمتها من بعض البادية.

كنت بعد ظهيرة أجلس في «مقعد» في القرارة فإذا ببدوي هذلي يقف علينا ويقول، مسترفداً لنا، البدوي من كبر نفسه، لا يسمي هذا الاستعطاء تسولاً وإنما يسميه «رفداً» رقّت مشاعره، فرقّت ألفاظه، قال هذا البدوي وهو يسترفد، أو على حد تعبيركم «يتسول» «ثوبي تهتر يا ولد» وسرقتني كلمة «تهتر» فأنا المتعلم.. الأستاذ كما تسمعونني لا أعرف أن المهاترة هي ترديد الكلام، تشقيقه، وفيما لا ينفع. ذهب البدوي إلى حاله.. ورجعت إلى اللسان فإذا بي أجد «تهتر» في الأصل تعني «تمزق».. كان هذا البدوي أستاذي في هذه الكلمة.. هو مثقف بطبيعته، وأنا متعلم منه.

وبدوي من حضرموت، كان سائق سيارة عندي وصف شارع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال.. «هذا شارع نفيس» وقلت أي نفاسة في هذا الشارع؟ لقد تبادر إلى فهمي أن النفيس بمعنى الغالي الثمين، النادر وسألته، ماذا تعني بكلمة نفيس، قال الواسع.. وعرفتها في الحال، كأنما هي الأصل النفيس يعني الواسع، حيث جاء منه، النفس، المتنفس، النفساء، النفس، وبدوي آخر من بدو حضرموت قلت له.. وهو سائق سيارتي أيضاً، لماذا لم تأكل البيض؟ قال إن البيض رث لا أستطيع أكله، وسألته ماذا يعني بالرث.. نحن المتعلمين نعرف أن الرث هو البالي، القديم، أما أنه الفاسد المتعفن فهذا شيء جديد علي.. أحسب أنه الأصل في كلمة «رث».

سادتي، من عجيب أمر هؤلاء أنهم قد أودع الله فيهم قوة صبروا فيها

على كل المهلكات، ليمدوا الأمة العربية في جميع أقطارها بما ملأ هذه الأقطار.

إن الفتح الأول لم يرسخ العروبة في مصر، في ليبيا، في تونس، في الجزائر، إنما الذي رسخه وقضى على ما عداه هو زحف هذا البدوي جهنياً يشكل دولة في جنوب مصر وشمال السودان، هلالياً، سليمياً، يبتلع صعيد مصر ليكون عربياً، يهضم ليبيا لتكون العربية، يطحن الأعاجم والأعجمية في تونس، الجزائر ليجد الرديف قبله في المغرب، وفي موريتانيا، يتصافح معه، بيد عربية، بسماحة عربية، بلسان عربي مبين، يتوج بالإسلام.

ولقد أنصفنا هذا البربري الصنهاجي صاحب اللسان العربي، زعيم الإسلام في الجزائر عبدالحميد بن باديس يرحمه الله، قالها كلمة وهو سليل الملوك الذين سلب ملكهم بنو هلال قال بإنصاف يصف بني هلال.. لئن قيل إنهم خربوا، فقولوا لهم إنهم عربوا.. وي.. كان عمر بن الخطاب ينظر بعين الغيب، كأنه ينظر إلى انتشار أمته هذا الانتشار.. قالها وهو المحدث، قالها عبقري هذه الأمة، قالها في عام الرمادة، وقد أجدبت الأرض، وأمسكت السماء فجاء هؤلاء البدو إلى المدينة يلجأون إليه، لم يتركهم، عاشرهم، عاش معهم، لم يطعم في بيته طعام، ما أكل سمناً ولا زبدة، ما دسّ في قعر داره عيشاً ناعماً.. بل كان يأكل معهم زيتاً وخبز شعير، صبر عليهم، وصبر من أجلهم. كتب إلى ولاته يطلبهم المدد عيشاً لهؤلاء.. كتب إلى عمرو بن العاص وهو في مصر يقول له.. «من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص يالكع بن لكع. لا تُبَالِ أن تعيش أنت ومن معك لأهلَك أنا ومن معي، فكتب إليه عمرو بن العاص: «لبيك ثم لبيك هذه العير أولها عندك وآخرها عندي» وأكل هؤلاء أكل قوم

عمر، أمة محمد، قالها عمر وهو يستغيث.. «اللَّهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي»..

عجيب، هؤلاء البدو أمة محمد، آلاف وهم هذه الملايين، نعم كان عمر ينظر بعين الغيب، كان أولئك أمة محمد لأنهم آباؤهم اليوم، أعاشهم الله. أبقاهم الله. لتكون منهم الزحوف. ولتكون منهم أمة محمد اليوم.

سادتي، هؤلاء البدو سكان الجزيرة ورثوا تراث حضارة من قديم، أنظروا إلى آثارها الآن إن لم تتضح فستحمل لكم الكشوف الأثرية غداً العجب العجيب وكما هم ورثة حضارة، روّاد حضارة. مؤسسو عمران، منظمو دول، أفلا ينبغي لنا أن نلتفت إليهم؟ إن هذه الوحدة في الكيان الكبير كله، لا أحسبها إلا إرهاصاً لعمل كبير تأتي به هذه الأمة من بدوها وحاضرتها، إذا ما تم الإعداد توجيهاً والاستعداد إرشاداً وتعليماً.

سادتي. إن الدولة.. في شخص كل وزارة، المعارف، الصحة، الزراعة، المواصلات، الشؤون الاجتماعية، تسير سيراً حثيثاً في تعليم الشعب، في تعليم البادية ولكن، ورغم انتشار هذه المدارس وتحديد المناهج، فإني أرجو من وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الصحة ووزارة المعارف أن يتفقوا على تنسيق العمل بينهم.

إن بعض هؤلاء يحتاج إلى كساء، ثوبين في الصيف، وجاكتة أو بالطو في الشتاء تصرف لكل تلميذ، رعاية لصحته. إغراء له ولأمثاله بالدوام على الدراسة، إن هذا لا يكلف كثيراً. وشيء من التمر أو العدس، كوب شربة عدس في الصباح يعطى لهذا الطالب يشربه ليتغذى به، عشر تمرات أو قطعة من العجوى إن لم يكن العدس، يأكلها هذا الطالب يتغذى بها. إن كوباً من العدس أو عشر تمرات عماد لمقاومة ضعف الغذاء، وضعه حافظ

عفيفي يرحمه الله في كتابه «على هامش السياسة» كمخطط لتغذية أبناء الريف لمقاومة السل. كوب العدس. بضع تمرات. حفنة فول سوداني، الفول السوداني لا لزوم له عندنا فالتمر متوافر وهو يغني عنه.

وشيء آخر ألفت إليه نظر وزارة المعارف، فإني أرجو التقليل من فخامة بناء المدارس في القرى.. إن بناء مدرسة فاخرة في قرية كل بيوتها من اللبن أو بيوت الشعر أمر يضر بالتلميذ، وأقل أضراره كراهيته لبيته حتى إذا كبر ترك قريته وطلب المدينة التي فيها هذا البيت الكبير. إن مدارس في رابغ بنيت حديثاً أحسن بكثير من بعض المدارس التي بنيت في مدن كبيرة. حبذا أن يكون البناء قوياً ونظيفاً لا بهرج فيه ولا زينة ولا غير ذلك. القصد منه عدم وجود الفوارق بين بيت الطالب ومدرسته، وأعني بالفوارق الفوارق الكبيرة!

سادتي. هناك نوع من التصرف الحضاري سبقت به الأمة العربية كل الأمم، وأعني به عملية الهضم، هضم كل من عايشهم وساكنهم، هضمت القحطانية العدنانية، وهضم العرب الموالي والحلفاء كل من ساكن قبيلة وعايشها صار منها. هذه العملية لا تأتي إلا لفكر حضاري ونفس متحضرة، الأمثلة على ذلك كثيرة. العرب سبقوا فيها الولايات المتحدة، الولايات المتحدة تهضم كل المهاجرين، والعرب هضموا كل المتعايشين معهم والمساكنين لهم.

ولأضرب لكم أمثلة:

سادتي. لقد دللت على هذا الهضم في حديثي عن السودان نشرته في جريدة البلاد أقتبس منه هذه الفقرات.

وهذه هي الفقرات المنشورة بعدد البلاد رقم ١٩٧٥/الصادر بتاريخ ٧ ربيع الثاني ١٣٨٥هـ.

ولا ينبغي أن ننسى أنكم في السودان تتبعون تقاليد عربية ليست غريبة علينا حتى في هذا «الجعل» اتخذته قبيلة الجعليين تدخل كل عربي فيها (قد جعلناكم منا).

فليس هذا بدعاً جاءت به قبيلة في السودان، بل هو الأصل في الأمة العربية، هضم قحطانيها عدنانيها. فابتلع عدنانيها جرهمها. حتى صار السيد فيها لغة وقيمة وقيادة تحقق هذا في جاهلية جهلاء.

وبعد إسلام وبالإسلام (الولاء لمن اعتنق) (مولى القوم منهم) الدم. الدم. والهدم. الهدم. يشمل المولى والحليف والأصيل.

ولقد كان بلال جمحياً قبل أن يعتقه أبو بكر فصار تيمياً بعد أن أعتقه (سلمان منا أهل البيت) تفعل هذا العربية في كل حين. جعلت من أبي حنيفة والحسن البصري والبخاري الأئمة في إسلامها كالأئمة من أعراقها، وجعلت من سيبويه مهندس نحوها. قانون لغتها وجعلت من الجرجاني والزمخشري والتفتازاني المهندمين لبيانها. ومن الجاحظ وابن المقفع المقاييس للكاتب المبين، وجعلت من أبي نواس وبشار ومهيار وابن الرومي المزخرفين لشعرها، والزينة الحلوة في لغتها الشاعرة.. وجعلت وجعلت.. جعلت من شوقي أمير شعرائها.. وستجعل وستجعل. ما دام هذا القول قائماً فيها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وستجعل ما دام هذا الأثر الكريم يروى عن النبي الكريم ﷺ (ليست العربية بأم أحدكم ولا بأبيه.. كل من تكلم العربية فهو عربي).

سادتي.. إنا حينما نعنى بالبادية إنما نعمر أرضنا، نصون أنفسنا، فهم الأكثرية فينا، والمعول عليهم في بناء أمتنا. ولعلّكم تعرفون أكثر مني أن وحدة المشاعر كوحدة القبيلة، كوحدة الأرض، فيهم صنعت لنا الشيء

الكثير، قد يشعر أي حضري أنه غريب في مدينة أخرى يذهب إليها. أما هذا البدوي فإنه لا يشعر بغربة حيث ما رحل في هذه الجزيرة، فلا الدوسري يشعر بغربة عند الجهني، ولا العجمي يشعر بغربة عند الحربي، ولا الغامدي يشعر بغربة عند الدوسري.

عجيب فيهم وحدة المشاعر.

عجيب فيهم احترام التعاون.

عجيب فيهم عمق الصلات.

ولأضرب لكم الأمثلة:

سادتي. لقد أطلت عليكم، ولكنها إطالة أرجو أن جعلتنا نزرع شجرة من الحب لكل فرد فينا في هذا الكيان الكبير، أقام بناءه عبد العزيز ويحرس قيامه خالد بن عبد العزيز ليكون منه وإليه عمل جديد.. بناء جديد.. خير وفير.. وإلى مستقبل أفضل، مبعثه التفاؤل يصنعه العمل.. يقيمه الإخلاص. يدعمه الحب تزينه الرحمة، يكلأ كل ذلك العلم. والسلام عليكم.

الإسلام والحضارة

تحرص جامعة الملك فيصل بالمنطقة الشرقية على إقامة أسبوع ثقافي بحرم الجامعة كل عام. ويجيء هذا الأسبوع ضمن نشاطها في مجال نشر العلم والمعرفة في مختلف النواحي.

وقد تلقيت دعوة سعادة الدكتور محمد سعيد القحطاني وكيل الجامعة لأشارك في موسم هذا العام ١٣٩٧هـ.

وقد لبيت الدعوة حيث ألقيت محاضرة بعنوان «الإسلام والحضارة» بمقر الجامعة بالدمام.

وفيما يلي نص المحاضرة..

أساتذتي.. إخواني،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وأما بعد..

فما كنت معداً نفسي لهذه المحاضرة عن الإسلام والحضارة.. ذلك لأني لم أفتقد في نفسي أثر الإسلام وتأثيره وإيثاره في تقدم الإنسان وهدايته.

فالكلمة القانون في نفسي لقيمة الإنسان في الإسلام ولتقييم الإنسان في الحياة هي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ولا أتصور أن يكون الإسلام رحمة على الإنسان كل الإنسان إلا برحمة الأرض، يرحمها بالعمل لترحمه بالإنتاج.. فالعمل والإنتاج حضارة.

ولا أتصور رحمة بالإنسان دون تربية، دون تعلم.. والتربية والتعلم حضارة.

ولا أتصور رحمة بالإنسان دون بناء للحياة بكل ألوان البناء.. بكل وسائل البناء حتى السلم والحرب.. فالسلم بيئة الحضارة.. والحرب العادلة حماية الحضارة.. كما أن الحرب المدمرة تقتل حضارة وأجدني مرغماً لا أقول تصنع حضارة جديدة.

لو أن الإنسان عاش دون صراع لما وجد في نفسه مصارعة تتحرك به نحو مطالبه.. فالفرق بين البدائي والحضري هو الفرق بين السكون والحركة.. وما دام الإسلام حركة بالقلب والجوارح والعمل.. فهو أيضاً تحريك.. ولا يمكن أن نتصور أي حركة وأي تحريك دون صراع.. دون انتصار.. دون هزائم.

بقي أن نسأل (هل الحضارة ملكة أم امتلاك؟).

ـ هل الحضارة بيئة؟

ـ هل الحضارة هبة أم اكتساب؟

ـ هل طبيعة أم تطبع؟

أسئلة تكررت في العدد بينما المراد واحد.. إنها ملكة في الإنسان كل الإنسان.. طبيعة الإنسان كل الإنسان.. وإنها امتلاك وتطبع واكتساب في بيئات أخضعت جوانب الحياة لمطالب الحياة.. فهي ليست ملكة في جيل معين من الناس.. ولكنها امتلاك في جيل تحرك بعوامل من الهداية ينير الله

بها القلوب كالوحي للأنبياء أو هي بالتهدي ألهمه الله للإنسان. كامنة في الذات من وحي المطالب.. فالذين يملكون تحقيق المطالب.. هم الذين تملكهم النوازع والوازع.. يتحركون بالاندفاع لتتحقق مطالبهم بعوامل قوة البيئة، رخائها، سلطانها.. وقوة البيئة أيضاً في طرد الشظف وقتل العزلة.. فالحضارة ليست عزلة.. أما البداوة فعزلة، وأما الاستكانة في بيئات متحضرة وهي لا تصنع جديداً فإنه الاعتزال والانفراد.

العزلة تكتب على البداوة بعوامل قسرية.. والاعتزال يكتب على المدينة بعوامل قسرية أيضاً.. ولكن القسر على البداوة من عامل الزمن.. من عوامل الجدب.. من عوامل أوجدها الله في الطبيعة.. تطغى على بيئات فتحكمها بالعزلة.. أما الاعتزال فقد يكون من صناعة الإنسان لنفسه.. أو من صناعة إنسان آخر فرض الاعتزال عليه.

فالعزلة في البداوة والاعتزال في الحضر لم يكونا من هذا الإسلام ولن يكونا له.. إنه متصل وهذب ثقافة البداوة وأثرى ثقافة المدينة.. فهو غير معزول ولا معتزل، وإنما هو يدق كل الأبواب.. ينادي كل الإنسان.. ليس فيه عزلة اليهودية وليس فيه قسوة الإلحاد.. وليس فيه استرخاء المذاهب الأخرى.. إنه الصلب في ذاته.. السهل في تناوله.. المرن في تعامله.. الحي في كل حي.. القاتل لكل مميت.. الرافع لمن يستأهل الرفعة.. الطارد لكل خسيس.. إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.. إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره دنيئها وسفسافها.. واليد العليا خير من اليد السفلى.. المغزل بيد المرأة خير من الرمح بيد المجاهد.. اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة؟؟

الإسلام عربي الكيان.. إنساني الكينونة.. لسانه عربي.. ثقافة

الداخلين فيه عربية.. صبغها الإسلام بصبغة الأممية.. صبغة الأممية ثقافة العقل الجديد في هذا الإنسان المسلم من كل لون وجنس.. إن جعلته إنساناً ذا مروءة.. ذا كبرياء بلا طغيان.. لا يتعنصر.

فالشعوبية ليست منه. ليست من تعاليمه.. والعنصرية تندحر بها فضائله.. علم العربي أن يكون إنساناً للناس.. وعلم الإنسان أن لا يكون غريباً عن الناس.

الإسلام جعل مفهوماً جديداً للحضارة.. لا أريد أن آتي بشيء من عندي وإنما سأنقل لكل هذا التقنين من كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها للأستاذ عبد الرحمن حبنكة».

أثر الأسس الفكرية والنفسية في بناء الحضارات

لكل حضارة من الحضارات الإنسانية أسس فكرية ونفسية كانت لها من القوة الدافعة والموجهة والمحددة لخط سيرها.

ولذلك لا بد أن تكون المظاهر الحضارية لكل أمة نتائج ملائمة لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد والعوامل النفسية المهيمنة عليها. يشهد لهذه الحقيقة الأمثلة التالية:

أولاً: كانت الأسس الفكرية عند اليونان الإغريق قائمة على تمجيد العقل، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس إذ أثمرت لهم خلال قرون علوماً فلسفية ورياضية ونفسية وطبية وفنوناً جمالية مختلفة.

ولما كانت أسسهم الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية.

ثانياً: وكانت الأسس الفكرية عند الرومان قائمة على تمجيد القوة والرغبة ببسط السلطان الروماني على الشعوب، لذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ـ إذ أثمرت لهم خلال قرون أعداداً أحياء قوية.. وجيوشاً متقنة البناء حسنة الاستعدادات والتدريبات الحربية وأورثتهم هذه القوة سلطاناً ممتداً في الأرض على شعوب كثيرة

غلوها واستعمروها واستغلوا خيراتها كما أثمرت لهم أيضاً استزراع مجموعة من القوانين والتنظيمات المدنية والعسكرية.

ولما كانت أسسهم الفكرية والنفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية.

ثالثاً: وكانت الأسس الفكرية عند الفرس قائمة على تمجيد اللذة الجسدية والسلطان والقوة الحربية ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس إذ أثمرت لهم خلال قرون قصوراً فخمة ومجالات كثيرة للترف المفرط، وجيوشاً حربية ذات بأس، بسطت سلطانهم على شعوب كثيرة غلوها واستعمروها، واستغلوا خيراتها.

ولما كانت أسسهم الفكرية والنفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية.

رابعاً: وكانت الأسس الفكرية عند الهنود قائمة على تمجيد القوى الروحية وتنميتها بقهر مطالب الجسد وكبت غرائزه، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس، إذ أثمرت لهم خلال قرون مجموعة كبيرة من التعاليم الروحية التي أخذت بتطاول الأمد صيغة ملل ونحل وديانات. ووجهتهم للتعلق بالعلوم الروحية المختلفة كالسحر «وفنون الحيلة الخادعة للحواس» التي تعتمد على التلاعب بها والتأثير على النفوس من ورائها، ومنحتهم مهارات مختلفة في التأثير على الأحياء الشرسة. فكثر فيهم حواة الثعابين والحيات والعقارب ونحو ذلك من الهوام السامة المؤذية. ولما كانت أسسهم الفكرية والنفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية.

خامساً: أما حضارة القرون الحديثة التي بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد واستمرت في نموها المادي تمتد وتنتشر من مهدها في أوروبا إلى كثير من بلاد العالم فأسسها قائمة على تمجيد العلوم المادية والاستفادة من جميع الطاقات الكونية الكمينة والظاهرة لخدمة الجسد ومنحه وافر الرفاهية والمتعة واللذة واختصار الزمن له وتقريب المسافات وتخفيف الجهد عنه ودفع الآلام الجسدية، وقائمة أيضاً على الرغبة ببسط السلطان على الشعوب واستغلال خيراتها وإعداد القوة الكفيلة بتحقيق ذلك بدءاً واستمراراً.

ولذلك نلاحظ أن مظاهر هذه الحضارة الحديثة ذات صلة وثيقة بهذه الأسس، إذ أثمرت لإنسان هذه القرون الحديثة ولمن يأتي من بعده مجموعة كبيرة جداً من العلوم المادية المتطورة المتقدمة ومجموعة ضخمة من المبتكرات والمخترعات التي أفادت الإنسان في مختلف نواحي مطالبه المادية السلمية والحربية ومجموعة ضخمة من النظم والتشريعات الوضعية التي ساهمت في تنظيم علاقات الناس أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً ودولاً، كما أثمرت له ذخائر كبيرة جداً من القوى الحربية الدفاعية والهجومية.

ولا بد من أن يلاحظ الباحثون المنصفون في هذه الحضارة الحديثة أن أسسها الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها، وذلك لإهمالها جوانب مهمة من حياة الإنسان الروحية والخلقية والسلوكية ولاستهانتها بالجوانب الفكرية العليا المتصلة بمنشأ الإنسان ومعاده وإبقائه من وجوده.

من أجل ذلك فإن هذه الحضارة الحديثة لن تستطيع أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية وربما يكون تقدمها الباهر في وسائل الرفاهية وأعتدة القوة سبباً من أسباب دمارها المذهل إن عاجلاً أو آجلاً.

سادساً: وأما الحضارة الإسلامية فهي الحضارة الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها من مختلف جوانبها الفكرية الروحية والنفسية والجسدية والمادية الفردية والاجتماعية ومن جميع المجالات العلمية والعملية، لذلك فهي جديرة بأن تمنح الأمم التي تلتزم بها وتسير في منهجها سيراً قويماً للصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية.

وقد استطاعت أسس هذه الحضارة ووسائلها ومناهجها أن تدفع الأمة الإسلامية في حقبة من الدهر للارتقاء في سلم الحضارة المجيدة المثلى على مقدار التزامهم بأسسها ووسائلها ومنهجها السديد. وكانت نسبة الارتقاء الذي أحرزته هذه الأمة نسبة مدهشة إذا قيست بالزمن والطاقات التي تيسرت لهم حينئذ. واستمروا في ارتقائهم المدهش حتى أدركوا الوهن والانحراف عن أسس الحضارة الإسلامية الصحيحة ووسائلها الفعّالة ومنهجها السديد.

ويظل ارتقاء قمم الحضارة المثلى أبد الدهر رهناً بالتزام أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ومنهجها.

ولكن أعداء هذه الحضارة يوجهون قوى شتى خفية وظاهرة لمنعها من أن تسير في منهجها الإنساني القويم. لذلك فهي في صراع مستمر مع عوامل التهدم والشر والإفساد في الأرض، الأمر الذي يعوق تقدمها ويعرقل سبيلها باستمرار.

نشدان الحقيقة

اقترن الدفع الإسلامي إلى مجد القمم الحضارية بنشدان الحقيقة أنى كانت وطرح الخرافات والأباطيل من أي جهة صدرت وتبصير الناس بالطرق المنطقية السليمة التي تهدي إلى الرشد حقاً كان أو خيراً أو جمالاً. فهو إذ

يعرض على الناس الحقائق العلمية والاعتقادية يقدمها إليهم مقترنة بأدلتها المنطقية، وحينما ينكر على الناس خلافاتهم وأباطيلهم الاعتقادية أو غيرها يقيم الأدلة المنطقية على بطلانها ويطالبهم بالأدلة المثبتة لها إن كان لهم أدلة عليها ويناقشهم ضمن الأسس المنطقية السليمة، ومع ذلك فهو لا يعفي أدلته من مناقشات الناس الحرة المنطقية السليمة أيضاً إذا كانت لهم مناقشات حولها.

ويرى أن من كان الحق بيده فإنه لا يخشى عليه من أي بحث أو مناقشة بريئين من الاحتيال والمكر والتضليل والتشويه.

ولذلك نجد في القرآن العظيم حشداً كبيراً من الأدلة المنطقية المثبتة للحقائق والعقائد الإسلامية وحشداً كبيراً من المناقشات والمجادلات للمشركين والكافرين وسائر ذوي المعتقدات المخالفة للحق والجافية للصواب. ويعلم القرآن العظيم المسلمين أن يقولوا لمخالفيهم لدى بحث أي موضوع من الموضوعات الإسلامية «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» وذلك ليشعرهم بالنزاهة التامة في طلب الحقيقة والبحث عنها، وليهونوا عليهم التنازل عن عصيانهم وتقاليدهم وموروثاتهم الفكرية القديمة ويضعوا ما لديهم منها على منصة البحث والنقد وتمييز الحق من الباطل. ويتضمن هذا الأسلوب الإسلامي الرباني تمجيداً رائعاً للعقل الإنساني ومحرراً له من رواسب الخرافات أو الأباطيل وسائر الموروثات الفاسدة سواء كانت اعتقادية أو عملية أو خلقية أو تربوية أو سلوكية فردية أو اجتماعية.

أسماء أنواع الأدلة.

ومن الأسماء التي سمى القرآن بها أنواع الأدلة التي تقدم لإثبات فكرة ما الأسماء التالية:

الاسم الأول: الحجة.

قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩) وقال فيها أيضاً ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (الأنعام: ٨٣) ويطلق اسم الحجة على أي دليل يقدمه صاحب الدعوى سواء كان دليلاً صحيحاً أو دليلاً فاسداً.

ومن أمثلة الحجج الفاسدة حجة منكري البعث إذ قالوا فيما حكى الله عنهم في سورة الجاثية ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (الجاثية: ٢٥).

وظاهر أن الاحتجاج على إنكارهم للبعث بعدم إثبات الرسل بآبائهم احتجاج فاسد لا تقوم به حجة صحيحة. فإثبات الرسل للبعث قائم على أدلة منطقية مسندة إلى قدرة الله القادر على كل شيء وإخباره فيما أنزل للناس عن طريق الوحي. وهؤلاء المنكرون لم يستطيعوا أن ينقضوا أدلة الإثبات ولا أن يعارضوها وإنما جاءوا باحتجاج فاسد.

الاسم الثاني: البرهان.

ويطلق لفظ البرهان في القرآن على الدليل القاطع المثبت للحقيقة الذي لا يحتمل النقض.

(أ) قال الله تعالى في سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).

فالبرهان الذي جاء من عند الله دليل قاطع لا يحتمل النقض.

(ب) وقال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧).

فمن المعروف أن الذين يدعون مع الله إلهاً آخر لهم حجج ولكنها حجج فاسدة. والمطلوب منهم أن يقدموا براهين والبراهين هي الحجج القاطعة التي لا تحتمل النقض، ولن يستطيعوا ذلك لأن الحقيقة على خلاف ما يدعون.

(ج) وقد أمر الله رسوله محمداً صلوات الله عليه بأن يطالب اليهود والنصارى ببرهانهم على بعض ما يدعون مما هو مخالف للحقيقة بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) ولن يستطيعوا أن يقدموا البرهان على هذا القول.

(د) وكذلك فعل بالنسبة إلى مزاعم المشركين الذين يثبتون مع الله إلهاً آخر قال الله في سورة الأنبياء ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

الاسم الثالث: السلطان.

ولفظ السلطان حينما يراد به الدليل المثبت يطلق غالباً على النصوص الإخبارية أو التعليمية المنزلة من عند الله لأنها منزلة من عند من له هيبة وسلطان على الحقائق كلها الغيبية والمشهودة فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٥١). فالمراد من السلطان هنا الدليل الشرعي المنزل من عند الله

المثبت لما يدعون، ولن يستطيعوا الإتيان به لأن الله لم ينزل شيئاً من ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله في سورة غافر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (غافر: ٥٦). فهؤلاء الذين يجادلون في آيات الله إذ يجادلون بحجج باطلة ولن يستطيعوا أن يجادلوا بسلطان جاءهم من عند الله لأن الله لم ينزل شيئاً من ذلك ينقض به دلائل آياته.

أعجبني ما كتبه الأستاذ في هذا المرجع فنقلته إليكم.

وإن هذه المقدمة التي تقدمت بها ليست إبداعاً ولا بدعة.. وإنما هي لمحات صوّرتها المراجع فلم يفتني تصورها لأقوم بدوري في تصويرها.. فلست من السراق.. ولست من الذين يحملون الأوراق فلا يذوقون منها الترياق. بين هذه المراجع:

ـ فجر الحضارة في الشرق الأدنى، لمؤلفه هنري فرانكفورت ترجمة ميخائيل خوري.

ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية لمؤلفه المرحوم عباس محمود العقاد.

ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية (نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة) لمؤلفه الأستاذ جلال مظهر.

هذه المراجع هي التي سأدعها تتكلم.. وليكن مفهوماً أن لفظة العربي الواردة بالنسبة للحضارة لا تعني إلا الإنسان الوسيط حامل الدين الوسط من أمة وسط لا تعني إلا المسلم.. وإن كانت وبالتحديد لا تحرمه من صناعة

الحضارة في أجيال سحيقة.. فإنسان هذه الأرض هو العربي لا غيره.. لعلّه لم يكن أول من صنع الحضارة.. وإن كان الأول في الأولين من صناعها.. صنعها في وسط هذه الأرض جزيرة العرب.. وحملها المنتشرون من أبناء هذه الأرض.. فالانتشار بالإسلام وله لم يكن جديداً.. فقد انتشر العربي بالإسلام في القرون البعيدة.. صنع الحضارة عادياً.. ثمودياً. طسمياً. جديسياً. نبطياً. رسياً. فينيقياً. كلدانياً. آرامياً.. بابلياً. فرعونياً وحتى بربرياً.

وكتب هنري فرانكفورت في مقدمة كتابه «فجر الحضارة في الشرق الأدنى»:

لو أردنا وصف مولد الحضارة في الشرق الأدنى وصفاً تاماً شاملاً لما كفانا سفْر يبلغ بضعة أضعاف هذا الكتاب، غير أننا ركزنا البحث حول التجديدات والتغيرات الاجتماعية والسياسية التي يتضح فيها التطور العظيم الذي حصل.

ومع أن هذه التغيرات تؤثر تأثيراً مباشراً فعّالاً في القضايا التي تنشأ عن ظهور المجتمعات المتحضرة الأولى إلا أنها قد نالت اهتماماً دون ما نالته التغيرات الملازمة لها في ميادين التقنية والفنون ومظاهر الدين أو اختراع الكتابة.

ولأن التطورات التقنية والفنية تلقي كثيراً من الضوء على الأحوال الاجتماعية والسياسية فإننا قد أخذناها بعين الاعتبار، لكننا لم نحاول وصفها بالتفصيل وإنما أبقينا موضوعنا ضمن إطار محدود لأننا عُنينا في الدرجة الأولى بتفسير كلمة الحضارة تفسيراً دقيقاً، ذلك أنه إن صح اعتبار كلمتي «الحضارة» والثقافة مترادفتين في الاستعمال العام وعليه يصبح كل تفريق

بينهما تفريقاً كيفياً، فإن هنالك أسباباً لغوية للتفريق في استعمالها. إن كلمة ثقافة بما فيها من تأكيدات على شيء لا يمكن تبريره، شيء نما من نفسه ولم يصنع، هي الكلمة المفضلة الأثيرة عند الذين يدرسون الشعوب البدائية.. أما كلمة حضارة فتروق لأولئك الذين يعتبرون الإنسان مخلوقاً سياسياً بالدرجة الأولى. وبهذا المعنى نود نحن أن يفهم موضوعنا.

هنالك سؤال يتعلق بالمنشأة، بأصل الحضارة، وهذا سؤال تركناه بغير إجابة. وسيرى القارئ أننا لم نُعن كثيراً بقضية المنشأ والأصل، بل حاولنا أن نكشف عن جذوع حضارتي مصر وما بين النهرين لا عن جذورهما.. إلى أي حد يمكننا أن نتعرف إلى جذورهما وما هي القوى التي أوجدتهما؟.. أعتقد أن على المؤرخ أن يعتبر هذا السؤال سؤالاً تستحيل الإجابة عنه، فإن محاولة الإجابة عنه لا بد من أن تؤدي به نحو تأملات شبيهة بالتأملات والتخمينات الفلسفية أو أن تغرر به ليعطي أجوبة غير علمية. ومثل هذه الأجوبة الخاطئة هي التي سببت الأذى الأكبر.. ففي كل مرة كانت تحدث تغيرات وتطرأ تجديدات كالزيادة في إنتاج الطعام أو التحسينات التقنية (وكلاهما في الواقع حدث في الزمن الذي أخذت تظهر فيه الحضارة) كنا نفترض أن هذه التغييرات تفسر لنا كيف أصبحت الحضارة ممكنة. ومثل هذا الرأي الخاطئ يقطع الطريق على فهم أكثر عمقاً وشمولاً. وهذه كلمات هويتهيد تنطبق على الماضي والحاضر معاً. يقول هذا الفيلسوف: «في كل عصر من العصور التي تتميز بنشاط كبير نجد أن من بين العوامل التي دفعت بالإنسان إلى بلوغ الذروة نظرة كونية عميقة يؤمن بها الناس إيماناً عميقاً. وهذه النظرة الكونية الشاملة لها أثرها في الدوافع والحوافز التي تسيّر الناس. إن هذه النظرة الكونية الشاملة يعبَّر عنها تعبيراً جزئياً، أما تفاصيل هذا التعبير فتظهر في شكل أسئلة معينة.. تخفي

وراءها اتفاقاً عاماً على مبادئ أولية تكاد تكون من الوضوح بحيث لا يُحتاج للتعبير عنها، ومن الشمول والإحاطة بحيث لا يمكن التعبير عنها. وفي كل فترة نجد شكلاً عاماً لنُظُم التفكير، وهذا الشكل شفاف وعام وضروري جداً كالهواء الذي نستنشقه حتى أننا لا نستطيع التنبه له إلا بعد جهد متناه. هذا هو الجهد الذي لا يستطيع المؤرخ أن يتنصل منه، كما أنه لا وسيلة مختصرة لفهم الماضي القريب بدونه، لكنني أعتقد أن الدراسة المقارنة للمظاهر المتوازية تؤدي بكل تأكيد إلى توضيح الشكل الظاهر والضمني».

أما ما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد في «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» فهو ما يلي:

«الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات. فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة».

إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوروبيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع.. وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ـ ولو كانت شرقية يملكها الإبداع والتفكير الحر ولا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة، لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوروبي في أصوله الأولى وهي الدعوى التي يسوغ بها سيادته على أمم العالمين.

إلا أن القول بأن العرب الذين وفدوا إلى بلادهم لم يبدعوا شيئاً غير ما أبدعه السمريون هو محض تخمين وتظنين لأن العالم لم يتلق عن السمريين

أثراً من آثار حضارتهم في حينها، ولما اتصلت العلاقة بين بلادهم وما جاورها كانت السمات العربية ظاهرة في معدن اللغة وعادات الاجتماع ومزايا التفكير. فلا موضع هنا للجزم بأن العرب نقلوا ولم يبدعوا وأن السمريين قبلهم أبدعوا ولم ينقلوا، مع جهلنا كل الجهل بما أبدعوه وما نقلوه.

أما في العهد الإسلامي فقد اشتركت الأمم الأعجمية حقاً في أمانة الثقافة، وكان لفضلائها قسط عظيم في مختلف العلوم والدراسات، ولكنها لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة.

وليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربياً محضاً في الأصول والفروع. ولكن حسبها أن لم ينقطع على أيديها فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها. وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات ومن طلب إليها أن تلتقي كل ما تقدمها، أو هو قد طلب إليها ما يناقض الحضارة في فضيلتها الكبرى وهي فضيلة السماحة والحرص على تراث بني الإنسان».

أما الأستاذ جلال مظهر فقد أورد هذه الحقائق التاريخية في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» أنقلها في الذي يلي:

«بلاد العرب كما عرفها المؤرخون القدماء هي الامتداد الشاسع من الأراضي المترامية من سوريا وبلاد ما بين النهرين في الشمال إلى اليمن وحضرموت في الجنوب.. وهذه المنطقة العظيمة من الأرض المختلفة المناخ والبيئات أنبتت حضارات قديمة كثيرة سواء في الشمال أم في

الجنوب وكان لهذه الحضارات شأن وأي شأن في تاريخ التقدم الإنساني أما الشعوب التي سكنت تلك البقاع الشاسعة المترامية وأقامت تلك الحضارات المختلفة مقومات حضاراتها. ولقد أطلق الكتاب على هذه الشعوب تسمية جزافية فسموها بالشعوب السامية أو الجنس السامي نسبة إلى سام بن نوح معتمدين على ما جاء في التوراة. والحق أنه لا ينبغي لنا نحن العرب أن نستمر في إطلاق هذه التسمية على تلك الشعوب. ذلك أن هذه التسمية لا تؤدي في الواقع إلا إلى بلبلة تاريخية، ونحن الآن أحوج ما نكون إلى الكشف عن ذاتنا أو معرفتها وتحقيق أثرها التاريخي تحقيقاً صحيحاً وخاصة فيما يتعلق بالشعوب التي تعتبر الأرومة الأساسية في وجودنا كشعوب عربية نحن الاستمرار الطبيعي التاريخي لها، وإذن ينبغي أول شيء أن نضع حداً لهذه التسمية التي لا تتلاءم لا مع الواقع ولا مع أمانينا القومية».

أما إذا رفضنا هذه التسمية فأي تسمية إذن ينبغي أن نطلقها على تلك الأقوام؟ أعتقد ـ وأعتقد أني مصيب ـ مع من يعتقدون بأن تسميتهم بالجنس العربي إنما هي أقرب شيء للصواب وأن ذلك هو الأنسب قطعاً من الوجهة التاريخية ونحن إذا ألقينا نظرة على تاريخ هذه الأمة القديم لوجدنا أن شعوباً كثيرة خرجت من بلاد العرب سواء من قلب الجزيرة ذاتها أم من الصحراء السورية شماليها ـ وهذه الصحراء كانت تعتبر دائماً جزءاً لا يتجزأ من بلاد العرب ـ وكونت حضارات كثيرة أخذت أسماء مختلفة.

موقف الإسلام من العمل الصناعي والعمراني والاختراع والابتكار للعمل الصناعي والعمراني المتقدم المتطور بالاختراع والابتكار أركان أربعة:

الركن الأول:

العلم الذي يعتمد على وسائل الاختبار والتجربة والاستنباط، وموقف

الإسلام منه ـ كما سبق ـ موقف التعريض والحث وفتح كل مجالات المعرفة أمام المسلمين الملتزمين بإسلامهم إلا ما كان من هذه المجالات مزلقاً من مزالق الشر والأذى كالسحر.

الركن الثاني:

التخيل الذي يرتبط به الابتكار والاختراع والتخيل أفق من آفاق البحث العلمي الذي من شأنه أن يتناول الأشياء الموجودة بالدراسة والأشياء غير الموجودة من الممتلكات العقلية بقوة التخيل من جهة، وبمعالجة الأشياء بالتحليل والتركيب والجمع والتفريق والامتحان والاختبار من جهة أخرى وموقف الإسلام من هذا الركن موقف الدفع والتحريض.

الركن الثالث:

اعتبار كل ما تصل إليه القدرات الإنسانية في هذا الكون الواسع الأرجاء مسخراً لمنفعة الناس ومباحاً لهم، وهذا الركن مما أعلنه الإسلام وحرص عليه.

ولا ضرر يكون منه ولا شر يخالطه كان من شأن النصوص الإسلامية أن تحمل دلالات قوية وصريحة تكشف هذه الخطة توضحها للناس.

إن إعلان تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً للإنسان يتضمن بشكل قوي الدافع البالغ للعمل الصناعي الانتفاع من هذه المشجرات ـ لأنه لا يستطاع الانتفاع بكل هذه المشجرات الكبرى، ما لم تدخل فيها يد العمل بالجني، أو بالاستنتاج، أو بالتعمير أو بالتصنيع أو بالتحليل أو التركيب والجمع والتفريق والاختبار والتجربة ـ والتخيل والاستنباط ـ والاختراع والابتكار ونحو ذلك.

ثم نجد في النصوص ما هو أكثر صراحة مما سبق.

١ ـ أليس في قول الله لنوح عليه السلام فيما قصه علينا في سورة هود ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا..﴾ (هود: ٣٧) أمر من الله لرسول من رسله لصياغة مخترع جديد لم يكن الناس على علم به، وقد أحاطت هذا المخترع الجديد عناية الله ورافقه وحي منه، يدل على هذا قوله تعالى ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ فإنه دعوة للاختراع والابتكار والعمل الصناعي أقوى من هذه الدعوة؟

ولقد كان الملأ من قوم نوح يمرون عليه وهو يصنع الفلك فيسخرون منه. قال تعالى في سورة هود ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ (هود: ٣٨).

٢ ـ وقوله تعالى في سورة الحج ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحج: ٦٥).

٣ ـ وقوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢ ـ ١٣).

وفي هاتين الآيتين نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد ذكر طائفة من المسخرات للناس في الطبيعة وذلك في قوله ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الحج: ٦٥) وقوله ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ (الجاثية: ١٢) وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ (الجاثية: ١٣)، وذكر طائفة من المسخرات التي دخلت فيها يد الصناعة الإنسانية في قوله ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾

(البقرة: ١٦٤) وذلك لأن هذه المصوغات ما كانت لتستطيع تأدية وظائفها لولا القوانين والسنن الدائمة التي طبع الله الأشياء عليها وجعلها مسخرة لينفع بها الإنسان. وفي هذه النصوص ونظائرها نلمح مبلغ الدفع الإسلامي السديد إلى العمل الصناعي والعمراني والاختراع والابتكار.

والعمل الذي يرتبط به الإنتاج الصناعي والعمراني والمستند إلى العلم وتحريض عوامل الإنتاج والاختراع والابتكار هو الركن التطبيقي الذي لا يتم التقدم المادي والحضاري إلا به.

ولما كانت خطة الإسلام التي رسمها الله للناس محتوية على فسح مجالات التقدم المادي والحضاري الخير، الذي لا إثم فيه، ولا ضرر ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (هود: ٣٩) وبهذا نلاحظ أن نقطة البداية بناء السفن الحربية قد كانت وحياً إلهياً لرسول من رسل الله ـ وهداية ربانية للناس دفعهم الله بها إلى طريق العمل الصناعي الضخم لركوب البحار والابتغاء من فضل الله على فنونها. وما يعرضه القرآن من أحوال الرسل وما أوحاه إليهم مما لم ينسخه بحكم جديد إنما يعطي الله به صورة للإسلام والحق الذي اصطفاه الله للناس أجمعين والذي بدأه بما أنزله على آدم عليه السلام وختمه بما أنزله على محمد صلوات الله عليه.

٢ ـ أليس في قوله تعالى في معرض الحديث عن داود عليه السلام في سورة الأنبياء ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ. وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠) بيان واضح من الله أن اختراع دروع الحرب وصناعتها قد كانا بتعليم من الله لداود عليه السلام بتحريض له على أن يصنعها بيديه

وهو نبي من أنبيائه لتكون حصناً للمؤمنين من بأس الكافرين.

ولـم يكتف الله تبارك وتعالى بذلك، ولكنه أمر داود عليه السلام أن يتقن صناعته ويحكمها فقال له كما قص علينا في سورة سبأ ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ . أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا..﴾ (سـبـأ: ١٠ ـ ١١).

الركن الرابع:

العمل الذي يرتبط به الإنتاج الصناعي والعمراني والاختراع والابتكار وهذا الركن مما حرص عليه الإسلام أيضاً.

وبقليل من التأمل في نصوص الإسلام نجد أنه قد حرض القدرات الإنسانية على أن تستفيد من كل ما في هذا الكون وحض على العلم والاختبار والتجربة والاستنباط والاختراع والابتكار والعمل الذي يرتبط به الإنتاج الصناعي. وحين ننظر إلى الركن الثالث، وهو اعتبار كل ما تصل إليه القدرات الإنسانية في هذا الكون مسخراً لمنفعة الناس ومباحاً لهم بشيء من التفصيل، نجد أن الأدلة عليه من النصوص الإسلامية كثيرة منها النصوص التالية:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة ممتناً على الناس ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (البقرة: ٢٩).

ففي هذا النص دليل واضح على أن جميع ما في الأرض مسخر بإرادة الله وإذنه لمنفعة الناس. وحينما يحرم الإسلام على الناس بعض الأشياء فإنما يحرم عليهم أن يستعملوها لأنها تضرهم فالإسلام بهذا الحديث الصحيح هو «لا ضرر ولا ضرار». أما إذا استعملوها في أمور أخرى نافعة غير ضارة فلا تحريم ولا منع ومن أمثلة ذلك الكحول، فقد حرم الإسلام

شربها ولم يحرم استعمالها في تحليل المواد الكيميائية وغير ذلك من أمور كثيرة تنفع الكحول فيها ولا تضر، وعلى هذا أصر الأستاذ السلفي محمد رشيد رضا صاحب المنار.

* * *

١ ـ الحج في الماضي والحاضر .

٢ ـ العرب وجزيرتهم .

٣ ـ مكة الإسلام والحج .

نماذج مختلفة لمحاضرات ألقيتها مشاركة مني لمناسبات في حياتنا لها أهميتها . وعلى الصفحات التالية نصها كما ألقيت في حينه .

مكة الإسلام والحج

أبونا إبراهيم عليه السلام، سماكم المسلمين، فالتوحيد عقيدته، والإسلام ملته الحنيفية، ترك تعاليمها لابنه إسماعيل، في هذا البلد «مكة» وحينما رفع القواعد من البيت، إنما رفعه وأقامه، لتقام فيه شعائر الله، ومنها مناسك الحج، في المشاعر الحرام.

– الحج سنة إبراهيم... قام به بنوه بعده، أجيالاً تقيم سنته على ما حدد، وأجيالاً حرفت وبدلت حتى علقت بالحج شوائب.. أكبرها ضلالاً الشرك، وأكثرها تضليلاً الجاهلية الحمقاء. وجاء الإسلام فأقر ما دعت إليه ملة إبراهيم من مناسك الحج، وألغى الشوائب التي علقت بسنته.. من فعل المشركين الذين حرفوا وبدلوا شرعة إبراهيم.. وأسس للتوحيد قواعده، بهدم الأصنام التي كانوا يعبدون. وشرعة إبراهيم رسالة رسول من أولي العزم. قد أثرت في دنيا الإنسان تأثيراً كبيراً وفي كل مكان.. كل مسيحي، وكل يهودي، وكل مسلم، ينزع إلى إبراهيم بمنزع من أصل ومن دين.. بعضهم على الحق، وبعضهم بدَّل الحق، وتبع الباطل، تبعوا باطل الرهبان، وهمزات الشيطان: فالرسالتان، رسالة محمد ورسالة إبراهيم، لهما أكبر الأثر في الإنسانية سعة وقوة وتطوراً. أثر لم يحدث من ديانة أخرى. والدعامة التي قام على أسسها بناء الرسالتين، هي عقيدة التوحيد.. التوحيد

عقيدة المسلم، وهي بعد عقيدة الإنسان الكامل، يرتفع بها من ذل العبد للصنم، للراهب، للكاهن، للشيطان، للخوف، فلا شيء يبعث العزة في هذا الإنسان، إلا أن يرفع رأسه، وإلى السماء يعبد الواحد الأحد، لا واسطة، ولا مشرف ولا صكوك غفران، ولا الإسلام في المعركة حينما نشأ وبعدما ارتفع، وبعدما تشتت شمل المسلمين، أنه في حرب مع الشرك مع التحريف والتبديل والتأويل، الأعزل، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ (الأنفال: ٣٩).. ومع الصليب في كل مكان ـ يحرص مبشرو النصرانية على تنصير المسلم الضعيف الجاهل لينقص عدد المسلمين، أكثر من حرصهم على تنصير الوثني لأنهم في أنانية الرجل الأبيض المبشر بالنصرانية، لا يريد أن يضيف لعدد المسيحيين عدداً آخر، وإنما هو يغمض عينيه عن هذه الإضافة ما دام فيها نقص لعدد المسلمين. فالإسلام في أكثر من معركة قد رد كيدهم وحطم غرورهم.

وهذا البيت الحرام، وهذه مكة وهذا الحج، حاجز كبير قهر الصليب بهذا الحشد المتجمع من المسلمين، الحج قوة قاهرة ترد المبشر، إن هو اتخذ مكاناً للدعاية للإسلام. وقد عرف الصليب ذلك، فهو جد حريص على الكيد للإسلام، يقعد له كل مرصد يريد تعطيل الحج، ولكن.. ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).. فليهون الصليب على نفسه. وليغمض المتقاعسون أعينهم، فإنهم سيفتحونها على عزة الإسلام. وانتشار الإسلام.

وأول العوامل في سبيل ذلك هو الحج، فالأرقام التي توضح عدد المسلمين في العالم كله، في الهند، في إندونيسيا، في إفريقيا، وفي الولايات المتحدة نفسها، أرقام مذهلة، جعلت الغرب يقف مشدوهاً حتى

إن قلم الاستخبارات في الدول الغربية، وفي الولايات المتحدة وقف حائراً أمام هذا الانتشار للإسلام، وفي المواطنين الزنوج، يسلمون ابتغاء الحق يجدونه في الإسلام، وابتغاء العزة، يجدونها في الكلمة النورانية، (وأنتم الأعلون) لا أنتم الزنوج الأسفلون لسوادكم، وما فعله البابا من غسل رجلي الكاهن الزنجي، إنما هو ضرورة، حتمت عليهم هذه المداجاة عليهم يصرفون الزنوج عن الإسلام.. إبراهيم رفع قواعد البيت، ليكون ساكنو البيت ناشري عقيدة التوحيد، فهل فعلوا ذلك؟ ولهذا كانت مكة مكان البيت، فالإعداد لرسالة محمد ﷺ قد جعل منها مصدر الإشعاع ولو كره الصليب، ولو تحامق الجاهلون.

مكـــة:

قالوا: إن إبراهيم أمر أن يذهب بزوجه هاجر وولده إسماعيل إلى جبال «فارات» إلى جبال مكة، فهل كانت مكة قاعاً صفصفاً؟ أم كان فيها البيت من قبل؟

هناك أقوال تشير إلى وجود البيت من قبل، فليكن بنَتْه الملائكة والأنبياء. فإنما جُعل كذلك لتخرج للناس العقيدة الصحيحة، عقيدة الله والنبي، التوحيد ولكن الإنسان يطول عليه الأمد فيحرف الحق، وينحرف إلى الباطل، ومن هنا جاء قولهم أن مكة قبل إبراهيم، وفي الفترة بينه وبين من قبله كانت بيتاً للقمر، يعبد فيها هذا الكوكب.. عقيدة الصابئين الذين نشأ فيهم إبراهيم فحطم آلهتهم، وأنكر عبادة الآفلين من الكواكب التي كانوا يعبدون.

ودليل هؤلاء أن كلمة مكة مركبة من لفظتين.. ماه، وكاه.. أي قمر، وإلا فما معنى مشق القمر، كاسم من الأسماء المعروفة على حرف من قبيس؟..

وهذه الأصنام التي كانت في جوف الكعبة، هل هي أحجار أقيمت هكذا لا ترمز لشيء!. لا. إن الصابئين الذين عبدوا الكواكب، كانوا أكثر بني الإنسان: اليونان، الرومان، الفينيقيون، البابليون، الآشوريون، كلهم عبدة الكواكب.. يتخذون منها آلهة، فلا يبعد أن هذه العقيدة الصابئة، انتشرت في جزيرة العرب، في معركتها مع ملة إبراهيم..

وهل كانت بلقيس ملكة سبأ غير أحد العابدين للكواكب «الشمس»! إنها في عهد سليمان بعد عهد إبراهيم، هذا هبل كبير آلهتهم يرمز للكوكب هو المريخ، مارس «إله الحرب» عند الأمم الأخرى، ولعلّه يرمز إلى أبولون «إله الشعر» عند الإغريق ولعلّ وضع المعلقات على الكعبة كان في الأصل تقريباً لهبل، ثم صار له معنى الفخار.

فلعلّ اللاَّت والعزى، وما إليها، ترمز إلى كواكب وآلهة أخرى لم يصلنا خبرها فقد لا يستسيغ الباحث بعض التعاليل لأسماء هذه الأصنام التي قام بها شراح العرب.

والزُّهرة في أدب العربية، لها معنى الرمز للجمال والحب كما هو في آداب وديانات الأمم الأخرى، فهي عشتروت عند الفينيقيين، وهي هاتور عند قدماء المصريين، وهي فينوس عند الإغريق. فهل جاءت لجزيرة العرب نقلاً عن جيرانهم؟ كما دخلت المسيحية شمال الجزيرة وجنوبها الشرقي، واليهودية شمالها وجنوبها الغربي؟

هي معركة التوحيد انتصر فيها ولا يزال ينتصر على البقية التي تتعاطى استشارة النجوم وما إلى ذلك، مما يتبعه بعض الجاهليين، سواء كانوا من كبار شهوانيين أو من صغار الفاشلين، والعرب كانوا يعرفون عقيدة الصابئة، لهذا كانوا يذمون من خالف عقيدتهم بأنه صابئي.. حتى إنهم سموا

المسلمين بالصابئين وحتى إنهم استعملوا كلمة صبأت بمعنى تركت.

وهناك لمحة أخرى ضمن أسماء مكة. التي سميت بها. وجاء نصها في الكتاب المبين كلمة (بكة) فما معناها؟ هل هو كما قال شراح اللغة، إنها مشتقة من البك، الإهلاك والقطع لأنها تبك الجبابرة؟ قد يكون هذا صحيحاً ولكني أميل وأمام الصراع مع عقيدة التوحيد ولأن فيها بيت الله الحرام ـ إلى شرح آخر لمعناها. فبكة معناها البيت، فشراح اللغة يشرحون كلمة (بعلبك) أنها مركب مزجي من كلمتين بعل ـ وبك. فبعل اسم لصنم وبك بيت أي بيت بعل. فلماذا لا تكون كلمة «بكة» تعني البيت أي بيت الله؟ هذا رأي يؤيده استقراء التاريخ، وتتبع حوادث الصراع مع عقيدة التوحيد وما ذكره شراح اللغة من الفرق بين اسمي (مكة) تدل على الحرم جميعه و (بكة) تدل على البيت.

إبراهيم يؤسس قواعده ويأتي خلف بعده يحرفون ويبدلون حتى إذا بعث محمد أرسى القواعد للتوحيد، فانتشر وعم دنيا الإنسان ولا يزال قائماً ومنتشراً ومنتصراً إلى يوم يبعثون. إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ، سيعود منتصراً من هذا الحرم.. من هذه الأرض المقدسة بهذه الجموع المسلمة تحج البيت الحرام وتدين بعقيدة التوحيد، لا يتاجر بها أحد ولا يحتكرها أحد لأنها العبادة الخالصة للواحد الأحد، وفي الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» وإن الإيمان ليعقل من الحجاز معاقل الأروية من رؤوس الجبال.

واليوم أصبح الحج إلى مكة رخاءً في أمن تحت حماية دولة وحد كيانها الكبير الملك البطل المرحوم عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـ فكأنما هذه الوحدة في هذا الكيان الكبير أول البشائر لمصداق هذين

الحديثين أمن وسلام، ووحدة في الأرض والدولة بعد توحيد العقيدة. وما أجمل ما قال محمد حسين كاشف الغطاء إمام الشيعة في النجف في خطبته في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس في أوائل الأربعينيات، فقد قال:

«إن توحيد الكلمة وكلمة التوحيد هما ركنا الإسلام».

الحج في الماضي والحاضر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين سيدنا محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها الإخوة المسلمون،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

الإخوة المسلمون نداء أدعوكم به، أتعمد أن أثير حوله ما يرغبكم فيه وما يبعدكم عن أي نداء آخر تدعون به كلما قام خطيب أو محاضر أو متحدث في ندوة. أو في راديو. أو على كرسي أستاذ.

تعودتم أن تسمعوا من يناديكم بغير هذا النداء.

آنساتي سيداتي سادتي.. تقليد للغرب، فهل أنتم في ندائكم الآنسات والسيدات قبل الرجال تسلكون مع المرأة مسلك الغرب أم هو مجرد التقليد في النداء فقط؟. احترام المرأة ليس في تقديمها على الرجل ولا في مساواتها بالرجل وإنما هو في إنصافها من الرجل وفي إنصاف الرجل منها.

ضرب من الغطرسة انساق إليه المضللون أو هو ضرب من الغطرسة ساقتنا إليه المقلدات.. حتى إذا سئمها العقاد ـ جاء يتغطرس على أسلوبه فلا ينادي إلا: أيها السادة أيها السيدات، حتى لقد حسب نفسه جريئاً في ذلك كل الجرأة. والواقع هو ليس بالجبان، إنه كان في ذلك جريئاً، لا

على المجتمع، ولا على الذين فتنهم، ولكن الجرأة منه كانت من حسبانه أنه انتزع من المرأة تقديمها على الرجل.

أناديكم أيها الإخوة المسلمون بهذا النداء أتعمد أن أثير حوله ما يدعو إلى الانتباه إليه ليكون شعاراً من شعارات الدعوة إلى الإسلام.. من شعارات رابطة العالم الإسلامي.

أدعو إليه، لأنه الحق وأكرر ذلك كثناء على الرابطة حينما نجدها الداعية إليه.

وليس في كلمتي هذه خروجٌ عن المحاضرة، حدد موضوعها بعنوانها: «الحج في الماضي والحاضر». لأن في آداب الحج، الركن الخامس للإسلام، أن تتسم معاملاتنا بسمات الإسلام، ثم هو في منافعه التي نشهد أقوى ما يكون وأجدر ما ينبغي حينما يدعو إلى الأخوة الإسلامية «إنما المؤمنون إخوة» «المسلم أخو المسلم».

هذه الأخوة الإسلامية تبدو في مظهرها الرابع في وحدة المشاعر.. في النفوس في وحدة هذه المشاعر للحج، كأنما مشاعر الحج أمكنة في أزمنة هي قوة التمكين لمشاعر الناس، وكأنما شعائر الحج هي قوة الإعلان والثبات لشعارات الحجيج. فما هو الحج؟

أيها الإخوة المسلمون..

كلكم تعرفون ما هو الحج، الركن الخامس في الإسلام، وكلكم تعرفون طريقة أدائه ومشاعر تأديته وشعائر حرمته. فلست إلى هذا كله أتطرق، فمنكم أتعلم.. ليس ما أقوله درساً أو محاضرة، وإنما هو الحوار والمذاكرة.

الحج فيما أحس ـ وأعني به بناء هذا البيت ـ الكعبة ـ المسجد

الحرام، أعني أن هذا البيت رفع القواعد منه إبراهيم باليد القوية منه، بقوة الوحي، واليد المطواعة من إسماعيل، بصدق الطاعة أطاع يعاون في البناء، وأطاع يقدم الفداء، يرى أبوه في المنام أنه يذبحه فيرتفع بإسماعيل حينما يرضخ للذبح إلى قمة شامخة هي إحدى الذرى التي كانت من الأسس القوية في بناء البيت.. فالكعبة ليست هذه الأحجار الكريمة، ولكنها هذه الكرامة بالعبادة.. بالتوحيد.. بالمناسك.. بالرحمة.. بالأخوة.. بالزحف للهداية.. بالعمل لوحدة الكلمة وتوحيد الجماعة.

أيها الإخوة المسلمون..

أي مكان هذا.. صحراء.. جرداء، أبوكم إبراهيم سماه وادي غير ذي زرع فما الذي رغبه فيه؟ سؤال سخيف.. من الذي رغبه فيه؟. سؤال في الصميم. كان لا يرغب فيه أحد، فإذا هو بهذا البيت مهوى الأفئدة رغبة كل واحد.

كان إبراهيم يتلفت في كل حركة فلا يلتفت إلا ليحطم صنماً حطم الفكرة لعبادة الله، حطم الصورة لعبادة الكوكب.. حينما حطم الأصنام تتناثر أمام الجبارين.. كل جبرهم أن أوقدوا النار ليحرقوه، ولكن جبروت الله عليهم من رحمة الله له جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم. برداً عرفناه، سلاماً رأيناه ولكن.. ألا نلتمس في هذا السلام على إبراهيم سلاماً أكبر.. سلاماً أجمع وأشمل؟

نعم.. كان السلام على إبراهيم هو السلام بإبراهيم.. حينما جعل هذا السلام عليه ومنه في هذه الحنيفية ملته هو سماكم المسلمين. يعني المستسلمين لله المسالمين للحكمة ناشري السلام.

إن هذا السلام الأكبر كان الإرهاص له والبشارة به، أول ما كان في

بناء هذا البيت لا يتعبد فيه الفرد وحده وإنما تعبدت به الأمة التي حوله، لتعيش في سلامه حتى لو شذت عن إسلامه.. أعني إسلام إبراهيم. أما من يشذ عن الإسلام اليوم فلا يقرب المسجد الحرام، من ذلك العام عام حجة الوداع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

كان المتحنفون والشاذون والمشركون يتعبدون حول البيت يعيشون في السلام الذي دعا وأسس، والسلام من البيت لم يكن في داخله فحسب بل كان في هذه الأشهر الحرم تنشر السلام في الجزيرة كلها.

ثلاثة أشهر متتالية فيها فسحة الحج وانفساح العودة ينتشر فيها السلام، وشهر في نصف العام رجب قريش يستجم فيه العرب من أهوال الفتن إلى هناء السلام.

أيها الإخوة المسلمون:

الحج سنّة إبراهيم ودعوته لأنه رفع القواعد من البيت فأوجب حجه على بنيه. الحج إلى البيت الحرام كان جامعة للعرب كما هو مصدر السلام لهم يحجون إليه. وكان أغلب أتباعه من ولده إسماعيل. هؤلاء العدنانيون في حجازهم ونجدهم.

هو سنّة إبراهيم ولكنه اليوم فريضة جاء بها محمد. السنّة لإبراهيم والفريضة بالبلاغ المحمدي كلها بأمر الله. غير أنا يسعدنا أن نجد من المشابهة أو المفارقة ما يشعرنا بكرامة هذا البيت أكثر وأكثر.

إبراهيم بناه، بأمر الله.. إبراهيم سنّ حجّه على بنيه.. التابعين ملته. فحجه المخالفون ملته لأنهم بنوه، لم يتعصبوا لملته لأن التضليل أعماهم، وتعصبوا لبنوته لبنائه لأن الفخار أسماهم.

أسماهم فخراً بهذا البيت وأسماهم بالسمات طبعها في نفوسهم علماً عليهم لأنهم سدنة هذا البيت.. والسدانة وما إليها لم تكن لقريش وحدها بل كانت لإخوتهم جميعاً. هم كانوا المباشرين لها، والإخوة الآخرون في المدر والوبر كانوا مؤيدين لهم، الفاخرين بهم، التابعين لهم.

وجاء محمد عليه الصلاة والسلام.. عربياً عدنانياً.. قرشياً.. هاشمياً.. رسولاً نبياً. فأقر بهذا الإسلام كل القيمة لهذا البيت كما كانت له من قبل، لم يبدل مما يعلي شأنه أستغفر الله بل زاد.

بل زاد حينما وسع رقعة الحرم، لم يقف في المشعر الحرام كما كانت تظن قريش لينتهي الحد بالمزدلفة، بل امتد بالحد ولو ليوم واحد حينما جعل عرفات موقفاً حرماً في يوم الحج. بل زاد حينما لم يلغ المشعر الحرام، وصل إليه حط رجله فيه كأنما جمع بينهما، حدد من موقف عرفات وبين المشعر الحرام بل زاد حينما قال: «الحج عرفه» لا أحسبه ـ وأرجو أن يصدق ظني قد أراد فيما أراد أن يحدد قيمة الأداء للحج كما يعلمنا الفقهاء وإنما أسأل الله أن يحسن ظني حينما أقول: إنه أراد أيضاً المعنى الاجتماعي بهذا التكريم لعرفات حدد للفقه أداء الحج، وحدد للمجتمع قيمة المكان.

أهذا كلما زاده محمد يرفع به القيمة لمكة؟ لا. لا تنسوا تقلّب وجهه في السماء يفتش عن القبلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۖ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤).

بل زاد جعلها القبلة. إن هو إلا وحي يوحى كرَّمه الله بذلك حينما كرَّم الله أحب المواطن إليه.

أيها الإخوة المسلمون:

كانوا في الجاهلية يعظمون حرمات هذا البيت. وإني لأستحي أن أقول: إنهم كانوا في بعض الحالات أكثر تعظيماً منا له. ولا أريد أن أزيد فالأمر واضح لا غبار عليه.

كانوا يطعمون الحجاج.. يفتحون بيوتهم فلا تغلق في وجه أحد.. العلية منهم يسقون الحاج من حفيرة عبد المطلب زمة هاجر.. غوث إسماعيل.. برة.. البركة.. زمزم..

قالوا في تفسيرهم للآية الكريمة ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر: ١١): إنها نزلت في الوليد بن المغيرة ذلك الذي فكر وقدر فَقُتِلَ كيف قدر أنه أبو الرضى المرضي سيف الله أبو سليمان خالد بن الوليد.

نزلت فيه سماه ربنا الوحيد وكانت تسميه قريش العدل لماذا؟ لأنه كان يطعم الحجاج عاماً وتطعمه قريش عاماً. ولأنه كان يكسو الكعبة عاماً وكانت قريش تكسوها عاماً.

هو الوحيد في ذلك لأنه العدل يعدل قريشاً كلها. لم ينفعه ذلك لأنه لم ينتفع بالإسلام.

أيها الإخوة المسلمون:

ذهب الإبراهيميون. ذهب الجاهليون. متحنفون ومبصرون ومشركون. وسطع نور الإسلام فأعز الله مكة ودعم به الحج وجعل البيت الحرام قبلة. هو.. المثابة والأمن لكل الناس.

المثابة والأمن لمن هم فيه، لمستقبليه. إنه حق واضح لنا جميعاً. ولكن لماذا لا يتضح لنا معنى الناس، المضمون الأشمل والأعم؟!

أريد أن أعبر فلا أطيق لأني أخشى أن لا أطاق. لماذا لا يكون كل الناس، كل الناس، كل الإنسان في كل الدنيا. المعنى الجهير الذي أطيق الجهر به يكمن في هذه القبلة، في هذا الإسلام، وفيه النجاة والأمن لكل الناس. ولست إلى هذا أهدف، فهذا واضح يطاق، وإنما الذي أهدف إليه وأرجو أن تطيقوه، هو في مادة الأرض.. في تكوينها أستكنهه من هذا الأثر. أنتم تعرفونه.

لقد دحيت الأرض من مكان البيت حتى قال بعضهم إن الكعبة مركز الأرض بل مركز الكون. الأمن من قيمة البيت، من مكانه المكين بهذا المعنى بما أفهم تأتي المثابة.. أعني الحياة.. الامتداد.. الأمن من قيمة البيت من مكانه المكين لأنه «البرتول» المركزي الذي تجمعت ودارت حوله كل الإلكترونات.

ليس هذا تجديفاً ولا خطرفة ولكنه الإيمان بقيمة هذا الأمن والمثابة للناس.

أيها الإخوة المسلمون:

حج النبي وحج الخلفاء، وكل هذا معروف. لا بالقراءة، ولا بالتعلم. وإنما هو بالتعبد. فحجكم الذي تؤدون حينما تؤدونه.. على سنّة من حج النبي وسنن من حج من الخلفاء، فماذا جرى بعد هؤلاء؟ لعلّ هذا فيه من الطرف ما نذكر به لنتعظ.

وتولى معاوية وحج بالناس عدة سنين يحافظ على سنة وتخلف في السنة الخامسة والأربعين فحج بالناس مروان بن الحكم.. ولا أدري في أي سنة حج المغيرة بن شعبة نيابة عنه.. وقد كان الناس في مكة أجمعوا أمرهم بحسب رؤيتهم للهلال فحددوا اليوم التاسع وفي الناس عبد الله بن

عمر فلم يشعروا إلا والمغيرة بن شعبة قد انحدر إليهم من الطائف يحج باسم معاوية فيجعل يوم التروية اليوم الثامن هو اليوم التاسع.. ويحج الناس معه لا يختلفون عليه. رغم أن الثابت لديهم غير ما ثبت لديه.

كان ذلك أمر الإمام وكانت تلك طاعة الأمة.. ولو شاؤوا لجادلوه بما ثبت لديهم.. ولكن الطاعة فيهم كانت هي الحجة عليهم.

وحج بالناس عبد الله بن الزبير عندما استقل عن الأمويين ثماني حجج كان معه فيها أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان. حتى إذا غلب على أمره حينما قتله الحجاج أيام عبد الملك، وفي هذه السنين النكدة أهدرت كرامة البيت فلم يطف من حج من الحجاج بالبيت، منعوا عنه.. حاربوا ابن الزبير، احترقت الكعبة في سنة ٦٤هـ، تركها ابن الزبير على حالها يشنع على غزاته، فلما مات يزيد جمع الناس ابن الزبير وفيهم عبد الله بن عباس وقال ما معناه: أرأيتم ما حدث للكعبة. فهل أرمم أم أعيد بناءها على قواعد إبراهيم؟

كان مراده أن يعيد بناءها على قواعد إبراهيم أخذا بحديث خالته عائشة «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم».

كان مراده ذلك فقام إليه ابن عباس يقول له: «دع بيتاً أسلم عليه الناس وأحجاراً آمن عليها الناس». كلام تقـي ورأي صادق نصح به ابن العباس «الحديث في مسلم». ولا أدري لماذا لم يحتج به مالك بن أنس على حفيد ابن عباس هارون الرشيد حينما أراد أن يصنع بالكعبة ما صنع ابن الزبير. لعلّه لم يسمعه. أو لم يتذكره أو لعلّ الرواة أسقطوه. فإن إجابة مالك كانت كإجابة ابن عباس: «لا تجعل البيت ألعوبة بين الملوك يا أمير المؤمنين».

ولم يسمع ابن الزبير رأي ابن عباس فبناها على قواعد إبراهيم.. اجتهاد لأن يصيب أجره من الله، ولكنه وضع لم يبقه الله. فهدها عبد الملك وردّها على قواعد قريش كما هي الآن. أحسب أن ذلك ـ وأرجو أن يصدقني ظني ـ هو الصواب وإلا لم يبقه الله.

إن هذه الكعبة القبلة ركيزة الذكر قبلة الصلاة. مثابة الناس للحج فلها حكم الذكر المحفوظ يحفظها الله. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) وإن الذكر ليحفظ بحفظ هذا البيت، بحفظ هذه القبلة. لأن الصلاة هي حفظ الذكر.

وحج عبد الملك بن مروان في خلافته حجتين..

وكذلك حج الوليد بن عبد الملك فعمّر وأصلح. طرقاً وآباراً ومساجد.

وحج سليمان.. وحج هشام بن عبد الملك.. ولم يحج من بعد هشام أحد من بني أمية وتولى بنو العباس وحج أبو جعفر المنصور.. فجمع المتناقضات، قسا على أبناء عمومته وخضع للعلم والعلماء.. وحج المهدي فلما قدم مكة نزع الكسوة عن الكعبة التي كانت عليها لأن السدنة أخبروه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكساوى.. كسوة فوق كسوة. لقد وجدوا عليها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين الثمين وكانت الكسوة لا تنزع، يضعون الجديد على سابقه.

كان الجاهليون يكسونها بالأنطاع وكساها النبي بالثياب اليمانية وكساها عمر بالقباطي يعني القماش المصنوع بأيدي الأقباط.. أما معاوية فقد كساها كسوتين القباطي والديباج، الديباج يوم عاشوراء والقباطي آخر رمضان.

والمهدي أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة وأصلح وعمّر، فهو في العباسيين كالوليد في الأمويين.

وحج هارون الرشيد، وكان يغزو سنة ويحج سنة فجمع تسع حجج.. ولم يحج بعد الرشيد خليفة عباسي من خلفاء بغداد.

أما العباسيون في مصر على كثرتهم. فلم يحج منهم إلا الحاكم بأمر الله العباسي ثاني الخلفاء العباسيين بالقاهرة وهو غير الحاكم بأمر الله الفاطمي.

ولم يعرف من حج ماشياً من الخلفاء والملوك المسلمين إلا هارون الرشيد.. كانت تساق النجائب بين يديه.

أما من المسيحيين الملوك.. فقد حج هرقل بن هرقل بن أنطونيوس من حمص إلى بيت المقدس ماشياً.. ووافاه كتاب رسول الله في رحلته هذه يدعوه إلى الإسلام. وهناك رواية تذكر أن زبيدة حجت ماشية أيضاً.

وما دمنا بذكر هارون الرشيد أجدني مسوقاً لأن أحدثكم بحديث فيه عظمة وفيه عبرة..

قال الجاحظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «حلية الأولياء» بالسند إلى الفضل بن الربيع، قال: حج أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر إلى رجل أسأله، فقلت: ها هنا سفيان ابن عيينه، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ قلت أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين، قال نعم قال: أبا عباس اقضِ دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى عني صاحبك! انظر لي رجلاً أسأله قلت ها هنا عبد الرازق بن همام، قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير

المؤمنين، لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال: خذ لما جئناك له، فحادثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، قال: أبا عباس اقضِ دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى عليَّ صاحبك شيئاً. انظر لي رجلاً أسأله، قلت: ها هنا الفضيل بن عياض. قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها فقال: اقرع الباب، فقرعت الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. قال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عزّ وجلّ فقلت في نفسي ليكلّمَنّه الليلة بكلام من قلب تقي، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاءً وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فَصُمِ الدنيا وليكن إفطارك الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فوقّر أباك وأكرم أخاك وتحنّن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت. وإني أقول لك بأني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هذا أو من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟

ثم أفاق هارون فقال له زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر: يا ابن أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من نعمة الله إلى عذاب الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز، فقال له ما أقدمك؟ فقال: خلعت بكتابك لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله.

فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ قال: يا رسول الله أمّرني على إمارة فقال له النبي ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل.

فبكى هارون بكاءً شديداً وقال زدني رحمك الله، فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عزّ وجلّ عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك كان النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة.

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. قال: إنما أعني دين العبادة، قال: إن ربي عزّ وجلّ لم يأمرني بهذا وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨).

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها في عيالك وتقوَّ بها على عبادتك، فقال: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك.

ثم صمت الفضيل فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا سيد المسلمين. فدخلت عليه امرأة من نسبائه فقالت: يا هذا، قد ترى ما نحن فيه من ضيق فلو قبلت هذا المال فتفرّجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه. فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيب، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله، قال: فانصرفنا.

أيها الإخوة المسلمون:

أما الخلفاء في الأندلس والفاطميون في المغرب ومصر فلم يحج منهم أحد فلماذا؟!

الأمويون في الأندلس والفاطميون في المغرب كانوا منقطعين وبعيدين لا يجدون الطريق، فلهم عذرهم كأنما هم لا يستطيعون إلى الحج سبيلاً.

كل المشكلة في الفاطميين الذين كانوا يشرفون على الأرض المقدسة كانت لهم السيطرة على الحجاز.. ما هو السبب الذي منعهم عن الحج؟ هل مذهبهم الباطني؟! أغلب الظن أنه ذلك.. وقد كان في بدء الحماسة له.. فبعض هؤلاء لا يحج إلى الآن. أما بعض الذين انشقوا عنه ومالوا إلى الاعتدال فهم يحجون.

وليتهم إذ تركوا الحج لم يسخروا منه.. أتعرفون بركة الحاج في مصر، في القاهرة؟! لقد اتخذ المستنصر أبو تميم من هذه البركة مسرحاً للخزايا والرزايا كأنما يُشْهِد الحاجين على مدى سخريته.

كان يركب النجب ومعه النساء والحشم إلى جب عميره، وكان يتنزه فيه ويعلن أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة يحمل معه الخمر ويشربها ويسقيها من معه حتى لقد أنشد أمامه الشريف العقيلي مرة يوم عرفة هذه الأبيات الفاجرة الكافرة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تُضَحِّ ضحى إلا بصهباء
وادرك حجيج الندامى قبل نفرهمو إلى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعد إلى مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والناي

هكذا كانوا يصفون بالحج سخرية من تصرفهم في أنفسهم بينما هم يغدقون على الحجيج النفقات. لا غرابة فالفاطميون قد جمعوا المتناقضات.

أما المماليك ومن إليهم فقد حج كثير منهم يضيق المقام عن ذكرهم ولهم مواقف محمودة في حماية الحجيج وغير ذلك. ومن يطالع ابن جبير و ابن بطوطة أو المقريزي يجد الطيب السار. ويجد المكفهر المسيء، أما داهية الدواهي فهي فيما جرى من القرامطة.

أيها الإخوة المسلمون:

وافى مكة عدو الله أبو طاهر القرمطي في ٧ ذي الحجة سنة ٣١٩هـ بجيشه الجرار وأعمل سيفه في الطائفين والمصلين وفي مكة وفي شعابها وقتل هو وجيشه ما يربو على ثلاثين ألفاً.

وفي الكامل أنه دفن كثيراً منهم في بئر زمزم وفي المسجد الحرام بغير

غسل ولا تكفين ولا صلاة ونهبوا أموال الحجيج وأهل مكة.

وركض أبو طاهر وهو سكران شاهر سيفه راكب فرسه ودخل المطاف فبالت فرسه وراثت وطلع إلى باب الكعبة وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وقد أقام بمكة أحد عشر يوماً وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر من مكانه وذهب به إلى بلاد هجر وبقي موضعه خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك، وفي يوم النحر سنة ٣٣٩هـ وافى بالحجر سنبر ابن الحس القرمطي وقد شد بالفضة من شقوق حدثت فيه بعد قلعه ووضعه بيده في مكانه وشده الصانع بجص أحضره معه سنبر وقال:

أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله وكان وضع الحجر قبل حضور الناس من منى فكانت مدة بقائه بيد القرامطة ٢٢ سنة إلا أربعة أيام.

وقد بذل مدبر الخلافة ببغداد للقرامطة خمسين ألف دينار ليردوا الحجر إلى موضعه فأبوا وقالوا أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر وكان مما فعلوا أن قلعوا باب الكعبة وأخذوا كسوته.

ومن القرامطة علي بن الفضل القرمطي ظهر بصنعاء اليمن سنة ٢٩٣هـ وارتكب المحظورات وأحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات وسائر المحرمات، وكان عنوان كتابه:

من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان، وكان يؤذن في مجلسه: أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وكان ينشد على المنبر بصنعاء:

خذي الدف يا هذه واضربي وغني هذا ذيك ثم اطربي

تـولـى نـبـي بـنـي هـاشـم وهـذا نـبـي بـنـي يـعـرب
أحـل الـبـنـات مـع الأمـهـات ومـن فـضـلـه زاد حـل الـصـبـي
وقـد حـط عـنـا فـروض الـصـلاة وحـط الـصـيـام ولـم يـتـعـب
إذا الـنـاس صـلـوا فـلا تـنـهـضـي وإن أمـسـكـوا فـكـلـي واشـربـي
ولا تـطـلـبـي الـسـعـي عـنـد الـصـفـا ولا زورة الـقـبـر فـي يـثـرب
ولا تـمـنـعـي نـفـسـك الـنـاكـحـيـن مـن الأقـربـيـن أو الأجـنـبـي
فـلـم ذا حـلـلـت لـهـذا الـغـريـب وصـرت مـحـرمـة لـلأب
ألـيـس الـفـراش لـمـن ربـه وأسـقـاه فـي الـزمـن الـمـجـدب
ومـا الـخـمـر إلا كـمـاء الـسـمـاء حـلال فـقـدسـت مـن مـذهـب

وهي قصيدة طويلة حلل فيها سائر المحرمات لعنه الله وقد هلك مفصوداً مسموماً سنة ٣٠٤هـ ومدة محنته وكفره ١٩ سنة، وقد قويت شوكة القرامطة وسلطانهم وظلمهم فنهبوا قوافل الحجاج وقتلوا الأطفال والنساء ونهبوا وزنوا وفسقوا وعصوا أمر ربهم.

أيها الإخوة المسلمون:

لقد عمدنا إلى ذكر القرامطة لأن بعض العرب كاتبين وخطباء قد جعلوا من القرامطة أناساً صالحين فمجدوا ثورتهم لأنها ثورة الصعاليك، لأنها ثورة الشعب، فلئن كانت ثورة القرامطة ضلالاً فإن فيما يصنعه هؤلاء من تمجيدها كل التضليل. وتعمدنا ذكر المثالب كما ذكرنا المناقب. المناقب لا تكفي، إن فيها الاقتداء ولكن المثالب فيها العبرة. آفة التاريخ والمؤرخين. احفر وادفن وجامل وتستر مع أن الحق يقضي أن نقولها صريحة في بيان المثالب والمناقب.

والماضي القريب، كان تباعداً، ونهباً وشقة وسلباً، وإتاوات اختلف في جواز الحج معها وبها بعضهم أجاز إعطاءها، وبعضهم أسقط الحج حين تكون.

أما الحاضر فتكلموا عنه أنتم.. أمن، سلام، عمار، رعاية. مواصلات، حدب، حياء، وقار، نعمة، كل النعم في هذه الوحدة في الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، في هذا الأمن، في هذا الخير، كل ذلك صفة منه أرجوكم الدعاء له، رحمه الله هو عبد العزيز بن عبد الرحمن، أرجوكم الدعاء له بالرحمة شكراً لله منكم ثم شكراً له ليكون بعد الدعاء لابنه فيصل يكمل البناء ويدعم الأمن ويسير بدعوة الإسلام إمام الله، والسلام.

أيها الإخوة المسلمون:

إن الحج دعوة جامعة من هذا الإسلام. وإنه عمل كالدعوة من يَمَنِها عن طريق بحرينها، من تهامتها عن طريق البحر يتجه للدين، عمل لا يكفي فيها القول..

والسلام..

إن القول الصريح هو في الحمد لهذه النعمة التي أنتم فيها.. نعمة الأمن والتطلع إلى الخير والدعوة إلى التجمع والوفاق فاللَّهم اْهدنا سواء السبيل والسلام.

ذكريات عن الحج

طلبت وزارة الحج والأوقاف «وكالة الوزارة لشؤون الحج» من المؤلف موافاتها ببعض المعلومات والذكريات عن الحج خلال الفترة التي عمل بها وأسهم فيها في أعمال الحج منذ أن تكون للحج إدارة رسمية ترعى شؤونه، وشرحت الوزارة في خطابها الخاص للمؤلف اعتزامها إعداد أرشيف كامل كمنطلق للنشر في مجلة التضامن الإسلامي، وما تصدره الوزارة من كتل وثائقية عن أعمال الحج.

وفيمـا يلـي نص التقرير الذي أعده المؤلف بعنوان «ذكريات عن الحج»:

منذ اللحظة الأولى التي أتم الله بها النعمة على هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، وامتد نطاق الأمن لم تعد المشكلة في العناية بالحجيج هي كيف يرحل، كيف يتم الضمان لأمنه ـ فألغيت الأخاوات (أي الضرائب التي تعطى للخوي) والإتاوات التي فرضتها الحكومات.

فمثلاً يحجز الحجيج حتى المحمل المصري ومعه قوة من الجيش عند خشم المساجيد ليسلم ما فرضه الأمير محمد علي لقبيلة الأحامدة ـ يؤكد ذلك صورة من خطاب سعد بن خيري ـ شيخ الأحامدة ـ تجدون منشوراً في كتاب «مرآة الحرمين» تعريف إبراهيم باشا رفعت هذا نصه:

أذكره بمعناه:

«من سعد بن خيري إلى إبراهيم باشا رفعت ـ قد سمحنا لكم بالمرور»، لأنهم أعطوا ما هو مقرر لهم.

ثانياً: وقد صعب الأمر على المحمل فترك النزول إلى ميناء ينبع لأنه يضطر بذلك للوصول إلى المدينة ـ إلى التوقف في المساجيد ـ لأنه رغم أن الحسين بن علي محمد ولد محمد بن عون الذي عينه محمد على حسين عزل غالب، فلأسرته علاقة بمصر حتى إن أملاكهم لم تكن في الأناضول، وإنما كانت في مصر، وحين يضيق على أحدهم الوضع في الحجاز يلجأ إلى مصر ـ رغم ذلك فقد تعكرت العلاقات بين الحسين ومصر، ولعلّ ذلك بعد حج عباس الخديوي عام ١٩٢٨.

ومن ناحية عدم رضى الدولة العثمانية عن اتصاله بالحسين ـ يضاف إليه عدم رضا الإنجليز عن هذا الاتصال ـ فالموقف في المسيجيد الضاغط على المحمل لعلّه بتشجيع من الحسين فاضطرت مصر إلى العدول عن ميناء ينبع ـ إلى ميناء الوجه واتفقت مع سليمان باشا بن رفادة لحماية المحمل ـ مقابل عطايا ـ فيخرج المحمل من الوجه ـ أي من اليلوية إلى الجهنية لا يمر بالحربية ـ يصل إلى المدينة ـ عن طريق بسواط، والذين هم من حرب كولد محمد لم يكن لهم غرض بالتعرض للحجيج ـ فلم يتم إغراء لهم بإتاوات ولم تفرض لهم عطايا ـ فأصبح المحمل يصل بحماية ابن رفادة لا تعارضه جهينة لأن جهينة ولي قبيلة واحدة هي قضاعة، تحمي كل منهما الأخرى.

ثالثاً: وحتى الحاج العراقي والإيراني الذي يصل عن طريق نجد، لا تتعرض له قبائل نجد بأي سوء حتى إذا وصل إلى حائل كان في حماية النواحل ـ بطن من الأحامدة أصبحوا من حرب نجد فيصل به خلف بني

ناحل أو أخوه صلف بن ناحل إلى المدينة ـ فلا يدخلها حتى يسلم الإخاوات والإتاوات إلى من يحضر لاستلامها من الأحامدة، وأنا أعرف أن أحمدياً منسوباً إلى الصمدة بلقب الصميدي يتسلم الإتاوات فيدخل الحاج إلى المدينة لم يذهب في إتيان هذه الإتاوات إلى مكة.

رابعاً: وظهرت عقابيل في سبيل هذا الحاج العراقي الإيراني وكان الأمير علي بن الحسين أمير المدينة حينذاك قبل أن يصبح ملكاً قد عز عليه هذا الأمر وليس عنده من المال ما يرضي الأحامدة، وحضر لديه أحد أشياخهم من عائلة ابن خيري واسمه فيصل ـ فأفهمه الأمير علي ـ ولعلّه شدد عليه، فقام هذا الأحمدي ليقول للأمير علي (اسمع يا صفيران يا طويل الآذان ـ دونها خشم المساجيد) أي إنه شتم الأمير شتيمة مقزعة يصفه باللون المصفر، وبطول الأذن يعني بهذا اللفظ المقزع الطافح بسوء الأدب، وطول الأذن وصف للحمار، وخشم المساجيد المضيق تمر منه قوافل الحجيج.

إن هذا كله من سيئات الأمير محمد علي حسين، أعطى الأحامدة هذا الامتياز لأنهم كانوا أنصاره في حملته على الإمام سعود. فحرب المراوحة بقيادة بن مضيان مع الإمام سعود، وحرب الميمون مع محمد علي، وكلاهما ـ المراوحة والميمون ـ قسمان يضع كل قسم أفخاذاً عدة يجتمعان تحت اسم (بني سالم)، كما أن قبيلة حرب كلها تنقسم إلى قسمين هما:

بنو سالم، ومروح ـ منتشرون كلهم في الحجاز وفي القصيم. وما زالت حرب نجد من أنصار آل مسعود من عهد بن مضيان إلى عهد بن تحيل وعبد المحسن القرى والزوربي ومن إليهم.

خامساً: من هذه المقدمة يتضح الموقف فيما قبل عهد الملك عبد العزيز (يرحمه الله) فلا أمن ولا تنظيم حتى إن كثيراً من الفقهاء قد أجازوا

الإتاوات فاعتبروها خفارة (أي حراسة) حرصاً على مواصلة الحج، ولكن المغاربة والمصريين بدون محمل لم ينقطعوا عن الحج لأن حرب تحترمهم لا تأخذ منهم إتاوات باعتبارهم من عزوتهم (شيابة)، فعزوة حرب وعتيبة حلفهم تحت هذه القروة شيابة، وشيابة هي أم قيس عيلان بن إلياس بن مضر. كما أن خندف (هي أم مدركة لابن قريش وتميم) أيضاً هي امرأة إلياس بن مضر.

سادساً: ولتنظيم الحج أسست الحكومات السعودية لجنة الحج العليا، ولعلّ من رؤسائها عبد الله المشيبي وأسست لجنة التمييز لقضايا المطوفين، وكان يرأسها آخر الأمر الشيخ محمد لبني، وفصلت وقسمت المطوفين إلى ثلاث طوائف.

أ ـ المطوفون: وكان آخر رؤسائها د. حامد هرساني خلفاً لأبيه محمد هرساني.

ب ـ مطوفو الهند: (فيما بعد الباكستان والهند) يرأسها الشيخ عبد الرحمن مضهمة.

ج ـ طائفة مشايخ الجاوة: يرأسها الشيخ حامد عبد المنان ثم ابنه صدقة عبد المنان، واسم الجاوة يشمل إندونيسيا كلها، والفلبين والهند الصينية ومالزيا وسنغافورة كلهم جاوة، وحتى مسلمي اليابان وهم يتبعون المطوفين ـ قد ضمت إلى مشايخ الجاوة وكانت مصدر نزاع بين الطائفتين، وقد جاء ضمها لأن الشيخ محمد علي بتاوي عميد بيت البتاوي قد منح تقرير مسلمي اليابان.

سابعاً: وقبل إلغاء الخراجة والبوامة كانت بطون أم الحرب جمالة ـ ومقومين ومخرجين.

الجمال يحمل الحجيج.

والمقوم يقدر الحمولة.

والمخرج يسعى لإخراجها وحميليتها ـ فالجمالة من الحوازم والرحلة وصلح والحجلة والسرداده وبعض عوف من مسروج كانوا حماة للحجيج ـ يكفيهم رزقهم من عملهم، فلا إتاوة لهم ولا ضرائب، وأكثر المخرجين من الحوازم، ولم نشهد عليهم أي إساءة للحج ـ ثم ألغيت الخراجة والبوامة وتوليت أنا أمر هذا الإلغاء وصرف التعويضات لهم بينما كنت مديراً عاماً مساعداً للحج ـ لأن السيارات قد أصبحت هي الوسيلة فذهب الجمل والجمال والمقوم والمخرج.

ثامناً: واضطرت الحكومة السعودية أن تعطي تصاريح لسفر الحجاج إلى المدينة باسم الكواشين ـ كان يرأس هذا القسم بوزارة المالية بأجياد الشيخ عبد الله سجيني يعطي التصريح مقابل رسم يُدفع.

تاسعاً: في عام ١٣٤٦هـ كثر الحجيج الجاوي، فقد رأيت بياناً في مكتب رئيس مشايخ الجاوة الشيخ حامد عبد المنان يحتوي على رقم ١٠٤ ألف جنيه ذهباً (مائة ألف وأربعة) سلمها لوزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ففرح بها وبشر بها الملك عبد العزيز يرحمه الله.

ومن الطرائف كما حدثني الشيخ صدقة عبد المنان وقد كان مساعداً لأبيه، وكنت رئيساً لمكتب مشايخ الجاوة حين وصلت من المدينة لمكة ـ قال لي:

«لقد تقاضيت من شركة السهاله ١٢,٠٠٠ جنيه (اثني عشر ألف جنيه ذهباً) حيث ساعدتها في ركوب اثني عشر ألف حاج جاوي ـ تقاضيت عمولة جنيه عن كل حاج».

عاشراً: وقد كان الجزاء صارماً على التلاعب بالكواشيم حتى إن أحد مشايخ جاوة عبد الله أزهري قد أمسك الشنقيشي في جرول بكوشان مزوّر غرموه من أجله أربعين جنيهاً ذهباً، وبعد أكثر من اثني عشر عاماً صدر أمر للنيابة في مكة بإرجاعها إليه بقرار من مجلس الشورى، وألزم مدير الأمن العام مهدي بك الشيخ حامد بتسليم المبلغ فاتصل ابنه صدقة ـ الشيخ حمد السليمان وكيل وزير المالية حينذاك فتلفن حالاً إلى خليل عبد الجبار مدير الخزينة بمكة بأن يسلم لمديرها العام الأربعين جنيهاً لأن وزارة المالية هي التي قرضتها وهي التي سلمتها وهي التي تسلمها.

حادي عشر: وفي عام ١٣٥٨، وفي يوم ١٣٥٨/٦/٦هـ وصلت إلى مكة من المدينة بالاتفاق مع الأخ صدقة عبد المجيد ليعمل مدير المكتب رئيس مشايخ الجاوة وكان واسطة الاتفاق الصديق لي ولوالدي الشيخ حسن موسى ـ عملت مديراً لهذا المكتب. وفي رجب من هذا العام اشتعلت الحرب العالمية الثانية فلم تصل من جاوة إلا باخرة واحدة وانقطع الحج الجاوي بعد ذلك طيلة الحرب، ولكن جلالة الملك عبد العزيز يرحمه الله قد أعان مشايخ الجاوة بقرض لم يؤدوه كان العطاء وقدره ٣٥,٠٠٠ ريال «خمسة وثلاثون ألف ريال» وزعت عليهم حسب قرار رئيس مشايخ الجاوة وهيئة الأمناء.

وقد كان نائباً لرئيس مشايخ الجاهة باختيار الرئيس الشيخ عبد الشكور وكان رجلاً خيراً يعد من الأخيار من أهل مكة.

ثاني عشر: وفي هذه الباخرة الوحيدة حدثت حادثة طريفة وعميقة فقد سأل أربعة من الحجاج عن الشيخ المطوف باسم (أحمد مقلان) وهو ليس شيخاً، منح الطوافة وإنما هو ابن الشيخة ميمونة مجلان أخت الشيخ محمد

مجلان ـ سأل هؤلاء الحجاج عن اسم الابن، وفي الوقت والنظام السؤال عن ابن المطوف يعطى السائل للمطوف لكن نقيب مشايخ الجاوة الشيخ محمد نور جوختدار قد اتصل لأمر أو لآخر برئيس مشايخ الجاوة، وكانت المصادفة أن هيئة الأمناء كانت مجتمعة وكنت أقوم بالسكرتارية حين اتصل النقيب بالشيخ قال الحجاج الأربعة لميمون مقلان فالسؤال عن الابن لأمه، وعن الصبي لعمه ـ فأبلغه الشيخ حامد بهذا الأمر وقال أرسلهم إلينا، فلما وصلوا جعلهم تحت رقابة الكاتب الثاني في مكتب مشايخ الجاوة عبد الله سمباوه فاشتكى محمد مقلان وكانت قضية ـ فأصدر مجلس الشورى قراراً بأنه لا يخالف النظام، فسؤال الابن لأمه ولكن الحجاج الجاويين لا يفرقون بين اسم أحمد ومحمد فحين نطقوا بالاسم وأبرز باسم أحمد ـ قد أبرزوا البطاقة باسم محمد فقدم تعريفهم وأبرز البطاقة يعطي الحجاج لمحمد مقلان.

جاء هذا القرار فجزع الشيخ حامد وقال سأذهب الآن إلى السيد علي كتبي وعبد الحميد الخطيب وهما عضوان في مجلس الشورى ليكتبا الرد فقلت له:

ما هما موقعان على هذا القرار ـ وبدون أن تخسر جعلا محاضر لهذه الخدمة، أنا مدين للشيخ عبد الله بن عمر في المدينة بقيمة مشلح قدرها أربعة جنيهات سلمت الأربعة جنيهات وأنا أضع الرد. وضحك الشيخ وقال أنت تقدر؟

ها هي الأربعة جنيهات حتى أشوف ـ اجمع يا صدقة هيئة الأمناء ـ هيا يا أستاذ حضر الرد.

وأخذت أكتب الرد خلاصته أن هذا القرار من مجلس الشورى قد

عرض ٦٠ مليون مسلم إلى الخروج عن نص الشهادتين، فهم أغنى الجاويين كلهم قد دخلوا الإسلام باسم محمد ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ـ يؤذّنون باسم محمد ـ يقيمون الصلاة باسم محمد ـ يصلون على النبي محمد ـ فلا يقبل الدخول في الإسلام لا إله إلا الله وأن أحمد رسول الله، لم يقبل إسلامه، وهم يدعون المحمديين مقابل المسيحيين فلو عدلوا عن اسم أحمد إلى اسم محمد لكانت الحجة لمجلس الشورى، ولكنهم عدلوا عن الاسم المعروف لديهم ـ محمد إلى اسم أحمد ولا غيره بالبطاقة قبل النطق أو بعده ورفع القرار إلى النيابة وأحيل لمجلس الشورى فإذا مجلس الشورى يعدل عن قراره لأن الحجة كانت قوية، ويطلب أن يحل الأمر صلحاً بقسم الحجاج الأربعة بين الأخت وأخيها ـ كان موقفاً طريفاً وسعته عقول الرجال ـ فلم تأخذ مجلس الشورى أي غضبة علي وهم يعرفون أني كاتب ـ كانوا رجالاً ولم يكونوا أطفالاً.

ثالث عشر: وجاء سؤال من النيابة بناء على شكوى أبناء الشيخ سعيد شطا يحتجون على تصرف الشيخ حامد ـ يشجع إرسال الحجاج للتسمية عند عيد اروس البار يرحمه الله، فقد كان ابنه صهر الشيخ حامد بينما التسمية تقرير باسم الشيخ سعيد شطا.

فقد تعود الحجاج الجاويون أن يسميهم شيخ مرضي لديهم باسم غير اسمهم الأول ويدفعون لذلك أجراً، ولهذا تجد أسماء كثيرة من أسماء أئمة الشافعية كالغزالي وابن حجر وغيرهما يسمى بها الحاج الجاوي.

جاء سؤال النيابة فتلكأ الشيخ حامد وذهب للشيخ عيد اروس يستشيره ليكتب الرد بصورة تعارض التقرير ـ فلما جاء بما كتب قلت له أنت أكبر من ذلك وللمحافظة على قيمتك إما أن يعطي جواباً بواقع ما نص عليه

التقرير كما هو مدوّن بالسجلات، أو أرجوك أن تقبل استقالتي فراجع ما اعتزم عليه وأرسلنا الإجابة بما قرره الواقع.

رابع عشر: ولقد عرض لنا حرج وكنا في الصيف بالطائف، وذلك أن أحمد صالح دمنهوري كان مديناً لأحد الذين يتعاطون التعامل بدين مشايخ الجاوة. وقعت المعاملة وقد أصبحت كأنها إكبارة كبيرة بمذكرة أشرح فيها الوضع، ومضت مدة وإذا سؤال من النيابة، وكان القائم برئاسة الديوان الشيخ محمود أديار في غياب الشيخ إبراهيم السليمان يسأل عن المعاملة ـ لماذا تأخر الجواب؟

وكان الرد هو أنها رفعت إلى المقام السامي برقم وتاريخ وجاء خطاب يحمل التوبيخ هكذا ـ لم تصل المعاملة يظهر أن قيودكم غير مضبوطة فحالاً أرسلوها وإلا نزلنا من الطائف أنا وصدقة عبد المنان. وفي بيت الشيخ عباس خياط أخذنا سجلات القيد، أنا أملي وعبد الله سمباوة يكتب بخط جميل كل مذكرات المعاملة من أولها لآخرها ـ فقد كان الشيخ حامد وكأنه قد ألهم بما سيجري ـ قد حكم الأمر على عبد الله سمباوة ألا يقيد في دفتر الواردة خلاصة المذكرة بل ينقلها حرفياً، ولم يحن العصر إلا وقد كانت المعاملة وفي أكثر من خمسين ورقة جاهزة نصاً كاملاً ـ فرفعناها إلى المقام السامي نؤكد أن المعاملة رفعت لكم برقم وتاريخ.. ولكن احتراماً للأمر وأيضاً لقيدنا المضبوط نبعث لكم المعاملة كاملة، وهذا لو وجدتم المعاملة وأمرتم بمقارنتها أي مقارنة الأصل مع هذه الصورة، وذهبت المعاملة وقضت الدين وانتهى الحرج بانتصار الدقة التي حرص على أن تكون الشيخ حامد يرحمه الله.

خامس عشر: واعتزلت العمل من مشايخ الجاوة لأنه لم يعد في طاقة الشيخ حامد أن يعطيني راتباً ١/٤ خفض من خمسة جنيهات لجنيه لضيق

ذات اليد لديه، وهذا من عجائب الأمور، فقد كان الرجل متهماً بالثراء ولكني علمت بعد خروجي من عنده وبتصديق الشيخ محمد سرور الصبان أن الشيخ كان في قلة من المال ـ فأين ذهب؟ تلك قصة طويلة كان لها موقف الشرف فيها ولم يكن موقف الخذلان سلم ما عنده عوناً لأمر هام ثم لم يعد إليه لأنه لم يطالب به، ولأن الذي أخذه نسي أن يرده إليه وإلا فالآخذ والمعطي كلاهما أقرب من الآخر.

سادس عشر: وبعد العمل في وزارة المالية وفي الخرج تشكلت مديرية للحج بأسلوب جديد ـ شكلت تحت إشراف الشيخ محمد سرور الصبان عيّن الشيخ صالح قزاز مديراً عاماً لها ـ وعينت سكرتيراً لها ثم مديراً مساعداً وعين عابد قزاز مديراً للمحاسبة.

سابع عشر: وكيف تشكلت إدارة الحج على هذا الأسلوب؟ لم يعد العمل بالكواشين مريحاً وصدرت عدة رجاءات وملاحظات بتعديل هذا الوضع ولحق المؤتمر الاقتصادي في القاهرة ـ برئاسة إسماعيل صدقي باشا وكان مندوب السعودية الشيخ محمد سرور الصبان وكان عبد الرحمن عزالي باشا وسيطاً يسدد ويعاون فتقرر تشكيل إدارة عامة للحج واستبدلت الكواشين بالبطاقات قيمة كل بطاقة ٣٥ جنيهاً كرسوم وعوائد بما فيها رسم الكارنيه.

يأتي الحجاج وقد دفعوا القيمة فيراجع الوكيل ببيان الأسماء يعطي لكل اسم بطاقة، واقتضى ذلك أنه انتقل إلى العمل بجدة لمباشرة هذه العملية، وكان معي مكتب عابد قزاز برئاستي وكنا نصرف البطاقات للوكلاء يحملها الحاج بدون معارضة من أي باب، فألغيت الكواشين ومركزها بالطريق وفي المدينة ومكة.

ثامن عشر: وبعد اجتماع سنوي وقد حسنت العلاقات مع مصر كثر الحجيج المصري فأمرنا أن نقابلهم بالترحاب وحدثت مفارقات وتراضٍ:

أ ـ تلفن إلينا الشيخ محمد سرور:

«اصعد اِنتَ وعبد السلام غالي لمقابلة البعثة الطبية».

صعدنا إلى الباخرة فقابلناهم بالترحيب وكان يرأسها الدكتور عباس عمار، وهيأنا لهم كل وسائل الراحة وحين وصلت إلى المكتب بعد ذلك وجدت الأخ عابد قزاز يرحمه الله واضعاً رأسه على المكتب يبكي فسألته فقال:

«الآن تكلم معي الشيخ يوسف ياسين وسبَّني وقال لماذا لم تقابلوا البعثة الطبية ـ هذا إهمال في الأوامر» وأخذت التلفون أطلب الشيخ يوسف ياسين كنت أعرفه وكان لا يعرفني فإذا الأخ فريد بصراوي سفيرنا في بون الآن، وكان سكرتيراً للشيخ يوسف رحمة الله عليه، فقلت له ـ لقد قابلنا البعثة الطبية أنا وعبد السلام غالي وقمنا بإكرامهم، وكاذب كل الكذب من بلغ الشيخ يوسف أنَّا لم نقابلهم ـ أرجو إبلاغه ذلك فقال: خليك على التلفون، وبلغ الشيخ يوسف، وبعد مدة وجيزة اتصل بي الأخ فريد وقال إيه الشيخ يوسف يبلغك الشكر ويأسف لأن البلاغ الكاذب كان من القائم بأعمال السفارة المصرية الأستاذ/أحمد جبر ـ فقلت له فضلاً ليسمع الأخ عابد ذلك منك وأعطيت التلفون للأخ/ عابد فسمع الكلام بنفسه.

ب ـ وفي المساء نزل الشيخ محمد سرور من الحوية وقد كان في معية الشيخ عبد الله السليمان ـ في خدمة المرحوم جلالة الملك عبد العزيز هنا وإذا الأستاذ أحمد جبر يأتي معتذراً للشيخ محمد سرور يقول «سواها فينا الصديق زيدان».

ج ـ وفي يوم ١٣٦٥/١٢/٨هـ وبعد العصر كان لدينا في جدة ثلاثة عشر ألف حاج بدون سيارات تصل بهم إلى مكة ـ فتلفت لي الشيخ محمد سرور من مكة ـ كم عدد الحجاج لديكم؟

قلت ثلاثة عشر ألف حاج ـ مصريون وسوريون ومغاربة وغيرهم ـ فقال الآن تفضل الأمير منصور بن عبد العزيز فأرسل لكم خمسين سيارة (اف دبليو) تحمل الحجاج قلت إذن لا بطاقات ـ ينصرف المراقب من باب جدة يطلع الشيخ محمد هرساني كسلة ـ حساب الشركة يتم على أساس بيانات مدير الجوازات صالح نور فقال افعل ما تراه على مسئوليتي.

فبلغني منتظر طرابزوني أن يترك المراقبة في ذلك الوقت وأن يطلع الهرساني إلى مكة والبطاقات تعطى بعد الحج حتى يمكن زيارة المدينة، وجاءت السيارات حجزتها في الجراج وطلبت من الوكلاء أن يأتوا بالحجاج خفافاً تحملهم السيارات، ولم يأت منتصف الليل إلا والحجاج كلهم في مكة وفي عرفات.

د ـ في هذا الوقت العصيب اتصل بي الشيخ يوسف ياسين تلفونياً وقال يا زيدان عندك حجاج سوريون ركبهم أول، فقلت لو غيرك قالها يا بو عبيده ـ لا يمكن عمل ذلك لئلا تحدث فوضى بين الحجاج ـ قال ملاحظة جيدة أحسنت ـ قلت اطمئن فقد وفر لنا سمو الأمير منصور بن عبد العزيز سيارات.

هـ ـ وأخذت بعد العصر ولم يكن على رأسي غطاء في سيارة صغيرة ألتقط بعض العابرات القادمة من المدينة، وذهبت لمكتب عبد الله بقش نقيب الوكلاء فوجدت عندهم رجلاً ورفاقاً سلمت فقلت حيث عرفت الرجل من الصور التي نشرت له: عبد الحميد شومان؟ قال نعم.

أريد سيارة ـ قلت الآن سأذهب إلى باب شريف أفتش لك عن سيارة، ومن حسن الحظ لم أكد أصل للباب حتى وجدت سيارة بوكس وكان معي جندي بعثه إلي الشيخ خليل مدير شرطة جدة ـ فأخذت البوكس ـ وسلمته لعبد الحميد شومان وبعد العشاء ـ ونحن بالمكتب نراقب الترحيل، وقد ساعدنا في ذلك الشيخ عبد الله بحيري يرحمه الله ـ يوافينا بأخبار الترحيل، وإذا الشيخ محمد سرور يتصل تلفونياً ـ يسأل ـ ماذا صنعتم لعبد الحميد شومان ـ قلت سافر إلى مكة بسيارة بوكس ـ قال شكراً شكراً.

لقد تكلم عبد الحميد شومان مع الأخ يوسف زيفل فلم يتصل بكم ـ اتصل بمعاون قائمقام جدة الشيخ عبد الله علي طه والشيخ علي طه لم يتصل بي.

اتصل به الشيخ عبد الله السليمان، وعبد الله السليمان أرسل لكم أتوبيس ـ قلت كم يحمل الأتوبيس؟

هل يحمل ثلاثة عشر ألف حاج؟

بلغ معاليه أن الحجاج قد رحل أكثرهم، وأن عبد الحميد شومان هو الآن في مكة، وأقسم لك أن هذا الأتوبيس سيصير معي في الضحى من يوم الوقفة خالياً لا يحمل أي حاج من جدة لأنه لا حاج فيها ـ فإذا وجدنا أحد المشاة من الأهالي، حملناه فيه ـ فضحك الشيخ محمد وقال سامحكم الله.

تاسع عشر: وصدر إلينا أمر عن طريق وزارة الخارجية بأن نستقبل الأمير إسماعيل داوود ابن عم الملك فاروق، وكنا نصعد إلى بواخر الحجاج نلاحظ إنزالهم في الأفوات فلم يكن ميناء جدة أسس بعد ـ الباخرة تقف بعيداً والحجاج ينزلون في الأفوات، وكنا في أي باخرة نسأل عن الأمير إسماعيل داود سكرتير السفارة المصرية. الأستاذ إبراهيم

السبكي يقول تعال. هناك النبيل سليمان داود أخو إسماعيل ولكن أنت في مقامه ـ أرجوك أن تتأخر دقائق انزل إلى الميناء لتهيئة وسائل الترحيب له.

قال إن شاء الرحمن ـ وكأنها لازمة يرددها دائماً ـ فكم من مرة يجيب بها.

ونزلت مسرعاً باللنش فوجدت الشيخ صائم الدهر ومحمد هرساني وبالمصادفة مدير شرطة جدة خليل هجان، وطلبت من خليل هجان أن يقابله هو والهرساني وصائم الدهر ولفيف من الوكلاء ـ وأخذت التلفون أطلب سراج زهراني لإحضار سيارة يستقلها النبيل، وأخذنا في الاستعداد فإذا هو مع سكرتير السفارة يصل على اللنش فأدى فيه بعض الجنود التحية، وصافحه خليل هجان والمستقبلون، وبعد ذلك سأله الشيخ الهرساني (من اسم المطوف اللي يطوفك) ـ فقال النبيل إن شاء الرحمن وكرر الهرساني السؤال.

كالتقليد الجاري العمل به. فلم يجب النبيل عن الاسم بل قال إن شاء الرحمن، فتدخلت أقول للنبيل إيه هذا تقليد معمول به لِمَ يستثنى منه الخديوي عباس حلمي والأمير محمد علي ـ كلهم كان لهم مطوف.

والتفتُّ إلى الهرساني أقول له كالتعبير التقليدي (قيدوا ـ قلت) وكلمة قلت على قسوتها كتعبير للموظفين عن الحاج الذي لا يسأل عن المطوف.

وليس هو من بلد ذات التقرير ـ فاعتمد الهرساني ذلك وقيده باسم حسن سرور الصبان ابن الشيخ محمد سرور الصبان.

ولم نكد نخرج من منطقة السؤال حتى وجدنا سيارة كاديلاك أعدها سراج زهران ـ لم ننتظر أمراً من وزير المالية ولم أنتظر توجيهاً من أحد، وبدون فخر كنا رجالاً نحمل المسئولية ونحسن التصرف.

وأنزلناه في أوتيل، وبعد المغرب نزل محمد سرور من الحوية فاستقبله وأبرق إلى بيت الخزيمي بالمدينة ليستقبلوه ضيفاً على الحكومة.

عشرون: ومضت أشهر أو سنوات وكنت مكلفاً بإدارة الحج لسفر الأستاذ أحمد قنديل للعلاج كلفني بذلك باختيار الشيخ عبد الله السليمان، وبعد العصر في عرفات تلفن إلينا من جده الشيخ علي طه وكان الملك سعود حاجاً سنتها وكان الأمير فيصل لا يفتر يمر بالسيارة يفتش عن راحة الحجاج، والأمير عبد الله الفيصل يقف في غرة لمراقبة المرور.

تلفن إلي علي طه يسأل عن الشيخ محمد سرور قلت له إنه لا يأتي إلا في الليل، فقال: عندي مسلم إنجليزي كبير السن لديه شهادات بإسلامه من سنغافورة تثبت أنه أسلم من مدة ١١ عاماً. يريد الطلوع إلى عرفة ـ كان الحديث في آخر نهار الوقفة، قلت اتصل بجلالة الملك سعود ـ قال لا أستطيع ـ قلت اتصل بسمو الأمير فيصل، قال لا.

فتأزم الأمر في نفسي ـ هو مسئول أن يتصل بهم ـ فكيف الحل؟

ولكن المسئولية وتحملها وصادق النية وحسن التصرف حسبني أقول له خليك على التلفون سأرسل للأمير عبد الله الفيصل ـ وفي الحال كتبت ورقة أشرح فيها الوضع لسمو الأمير عبد الله الفيصل مع صالح سنبل ـ نحن بإدارة الحج والأمير في مسجد نمرة وليست المسافة طويلة.

فقرأ الأمير الورقة وقال قل لزيدان يتصرف.

بلغ علي طه بما يراه، وكان علي طه على التلفون ـ فقلت له إن سمو الأمير عبد الله الفيصل يأمر بصعود هذا الحاج برفقة جندي بكتاب منه ويسلم لإدارة الحج ليكمل حجه. سمع علي طه ونفذ الرأي ـ وفي ليلة الثالث من منى جاء هذا الحاج المسلم ـ ومعه الجندي ومعه الوكيل سليمان

عزايا وشيخ الجاوة أخو فتح الله المضمون ـ فعاتبهم على تأخره ثم كتب للمطوف والوكيل مذكرة في الحال فكلفهم بأمر الحاج ـ فذهبوا. فإن كان أحد يعلم عما تم في ذلك، فإنك تعلم أنت ـ ولم يسألني أحد عن ذلك، كان أمراً ارتاح له ضميري ـ وأسأل الله منه الجزاء.

واحد وعشرون: ونظراً لرجاء الحجاج بتكريم المملكة العربية السعودية إلى كثير منهم خصوصاً من أهل البلدان ذات التقارير لا يريدون أن يقيدوا بالمطوف صاحب التقرير ـ توالت عدة رجاءات كانت كلها تصل إلى الشيخ محمد سرور الصبان فاستجمع أمره وشرح الوضع للمغفور له الملك عبد العزيز فأصدر مرسوماً بأن يكون الحاج حراً في السؤال عن أي مطوف بشرط أن يبقى حكم التقارير، بحيث إذا أعطى الحاج للمطوف الذي يسأل عنه ليعطي صاحب التقرير عن كل حاج عشرة ريالات من مصلحة المطوفين والتي كانت ٥١ ريالاً، وصل المرسوم إلى إدارة الحج وأصبح من وثائقها ولكنه لم ينفذ لأن تنفيذه لم يصل عن طريق المقام السامي بالنيابة وإنما سلمه محمد سرور إلى وزير المالية حينذاك الشيخ عبد الله السليمان كأمر إليه يصدر به أمراً إلى إدارة الحج ورؤساء المطوفين.

لم ينفذ هذا المرسوم لأن رئيس المكتب الخاص لمعالي وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان وهو الأخ أحمد موصلي وقف دون أن تمد يده بالحاج على عبد الله السليمان لأن أحمد موصلي قد منح تقرير (آشام) في البنجالا، وحرصاً على بقاء التقرير سليماً عطل هذا المرسوم.

لم يعقب عليه محمد سرور ولم يناقشه أحد ولو نفذ لكان أساساً في التعديلات التي أدخلها حينذاك محمد عمر توفيق.

اثنان وعشرون: حبذا لو أن وزارة الحج تطلب صوراً من هذه التقارير

سواء تقارير الطوافة أو الأداء، ففيها جغرافية لكثير من البلدان وإحاطة تاريخية تتضح فيها الأسماء القديمة والأسماء المحدثة. إنها سجل تاريخي وثقافي ـ فمثلاً لنأخذ إيران، فإن هناك تقريرين أحدهما قد قرر شيعة إيران إلى السيد/حسن عطار والد السيد مصطفى عطار وتقرير الأهواز (الأحواز) التي كانت تحت سلطان عربي هو السلطان خذعل، وقد ضمها أحمد شاه والد الإمبراطور رضا بهلوي ١٩٢٦م إلى امبراطورية إيران كلها، فأهلها سنّة وأكثرهم من قبائل عربية يعرفون أنفسهم للآن ـ هذا التقرير وقد قسمت به إيران لقسمين: الشيعة لحسن عطار، والسنّة لمحمد سعيد حواله.

ومن أهل الأهواز (بيت العوضي) وبيت (زيفل واللاري).

وهناك حادثة، كنت في الهند ١٣٥٢هـ ـ فقرأت في دائرة المعارف التي ترجمها الجامعيون تعليقاً لأحمد زكي الباشا الملقب بشيخ العروبة ومن أوائل أصدقاء المملكة العربية السعودية فقد كان أول الحاضرين يوم الاحتفال بذكرى جلوس الملك عبد العزيز الذي كان يقام في ١٧ الجدي ـ كان تعليقه على اسم جزائر (مالديف) قال رحمه الله إن جزائر مالديف اسمها العربي جزائر الهن فهي تسمى بالعربية (مهليبا).

قرأت ذلك كمعلومة، ولما رجعت إلى المدينة وجدت قضية معروضة على مجلس الإدارة أي على الإمارة محمولة إلى مجلس الإدارة. كان ذلك لأن هذا التقرير اسم جزائر (ذيبا) هو للسيد مكي بافقيه جد السيد حسين بافقيه من كبار رجال وزارة الخارجية الآن ووجد أحد أهل المدينة اسم مالديف فطلب تقرير هذا الاسم له فصدر الأمر بالتقرير له، وعند مجيء الحجاج كانت الخصومة من أجل ذلك بين صاحب التقرير الأصلي السيد عبد الله بافقيه بن السيد مكي، وبين من منح التقرير باسم جزائر مالديف.

واستثنى مجلس الإدارة معتمد المعارف حينذاك أستاذنا السيد أحمد مصطفى صقر فأجابهم بأنه لا يجد إلا جزائر مالديف على الخريطة ولم يجد اسماً لذيبا ـ كلّ ما وجده على الخريطة كهذا الاسم ذيب على ساحل فرنسا الغربي.

وبالمصادفة ومع صديقنا السيد إبراهيم عطاس صهر البافقيه أخبرته بأن مالديف هي ذيب فطلب إليَّ تقريراً بذلك وكان من حسن المصادفة أن لدينا في مكتبة المدرسة هذا الجزء من دائرة المعارفة فكتبت التقرير مستنداً إلى النص وبهذا حسمت الخصومة ورجع التقرير إلى صاحبه الأصيل.

ثلاثة وعشرون: وفي أوائل الثمانينات وقد كان عبد الله السليمان ومحمد سرور في بيروت فصدر أمر المرحوم الملك عبد العزيز وكان مفاجأة سارة، فألغى الرسوم التي كانت تتقاضاها الحكومة على الحجاج فلم يبق إلا أجور الخدمات، ومن يومها لا تتقاضى الحكومة أي رسم على الحاج ـ كان رحمة من جلالته تضاف إلى الأمن يسر بها الحج وأكثر بها الحجيج، ورغم المحاذير من كثرة الحجيج فلا زال الأمر مستمراً لا تضع الحكومة قيداً على عدد الحجاج، ولكن من المرغوب فيه أن يدرس مؤتمر وزراء الخارجية للدول الإسلامية (والذي عقد في الثالث عشر من شهر جمادى الثاني ٩٩) هذا الوضع لتتولى كل حكومة مسلمة تحديد عدد الحجاج حرصاً على راحتهم ـ أما أمنهم وسلامتهم فقد أكرمنا الله به ـ بهذا السلطان الآمن أسسه الملك عبد العزيز يرحمه الله ولا زال قائماً ونسأل الله الدوام له.

وختاماً أرجو الاطلاع على ذلك ـ وكما قدمت، لكم الحق في اختيار ما ترون نشره، ولكنه جزء من تاريخ هذا البلد كجزء من أقدس المقدسات لدينا. وأسأل الله التوفيق.

صبغة الأممية.. ما أخذت وما أعطت

.. إخوتي الأبناء.. الأساتذة الآباء:

لعلّي لم أغرب بهذا العنوان، فالحوار المبسط ينبغي أن يكون واضحاً.. لا إغراب فيه. ما هي الصبغة؟

هي في التعريف المفسر لها: الدين، الفطرة، أو هي كل ما يتقرب به إلى الله.

وهي في الفهم الواقع الآن: الطابع.. ينطبع عليه الإنسان في تحركه الذاتي وفي حركته نحو البناء الحضاري.. فالإنسان المتكلم أو الضاحك قد أخذ من الكلام ومن الضحك إشراقة النفس.. تتطلع إلى شيء جديد دائماً.

فالحضارة.. ارتقاء الإنسان من بيئة بدائية.. سواء كان واحداً في كوخ، أو قبيلة في قرية. فالقبيلة إلى شعب صناعة حضارية، والشعب مع شعوب أخرى تسكن أرضه.. تتكلم لغته في مصير واحد تتكوّن أنه صانع حضارة، فبكل ذلك تتكوّن الأمم.. من قبائل إلى شعوب.. إلى أمم، ويعني ذلك أن الحضارة تلقائية الحوافز كصبغة.. كطابع، فالكلمة تدعو إليها.. تبرز الحوافز.. تتطلب أن تبرز واقعاً، والضحك صبغة على

الحضارة.. أعني التلوين لها كإبداع في الفن، أو هي فن الإبداع.

إن العلم ليس تمرداً، ولكنه تطوير.. نظرية تلغي نظرية. أما الفن فتمرد يصنع الجديد زخرفاً على القديم، فليس من الفن إلغاء الفن.. فالعلم تطور والفن تجديد.

فأدبنا اليوم في هذه البساطة أحسبه شيئاً جديداً.. تعبيراً عن حضارته الحاضرة، ولكنه التكامل مع ماضيه.. لأن العلم صناعة لوسائل الحضارة والفن صانعها.

إن الفن ـ أدباً وشعراً وزخرفاً ـ صانع الحضارة لأنه التعبير عن الحوافز، والتجسيد للآمال، والإعراب عن الواقع.. فالفن صانع الحضارة تأخذ منه وهي تعطيه، ولكنها ـ وإن لم تلغ ما انتهى إليه ـ فإن تلقائية الحوافز تتطلب صناعة فن جديد.

من هنا.. تطور الفن إلى أشكال ليس فيها الرديء، وليس فيها الباطل لأن الفن تحتضنه الحضارة حتى إذا انتشى جاءت الحضارة بكل النشوة فيها إنشاء جديد لفن جديد.

.. إخوتي: من هنا نبدأ في تحليل العنوان.. ما دمنا قد قعدنا قاعدة في هذه المقدمة.

أنتم اليوم في كيانكم الكبير شعب عربي، وأنتم فيما سبق حتى في الجاهلية الجهلاء كنتم شعباً له خصائصه.. لكن حاضركم وماضيكم جعل منكم الآن، وأنتم الشعب فيما مضى وفيما هو الآن، صناعة أمة عربية وصناع أمة إسلامية.

فالعرب البائدة، والعرب فيما بعدهم.. لم تحرموا أن تكونوا منهم،

ولم تحرموا أن تكونوا لهم.. حتى لو اختلفت عقائدهم.. فاختلاف العقائد لم يقض على روابط الأممية لأن اللغة.. لأن الأرض.. لأن المصير أخضع ما صنعته العقائد المختلفة من خلاف.. كما أن الحروب التي شنت على الأمة العربية في أحقاب التاريخ، والكوارث، والعذاب.. كلها لم تلغ الأمة العربية.. لأن الارتباط بكل المقومات لأي أمة قد ربطكم.

انظروا إلى الأرض العربية الآن، وانظروا إلى الأرضين الأخرى التي هي من أرض الأمة الإسلامية، فإنكم ستجدون أن كل من سكن الأرض العربية هو من صناعة أرضها، ولغتها، ومصيرها.. بينما الأرض المسلمة، وقد كاد أكثرها أن يتغرب، جاءت طبيعة كل الشعوب وحتمية ما تصنعه الأرض مبعداً عن العروبة، وإن لم يستطع ذلك إبعادها عن الأمة الإسلامية.

فالإنسان العربي مطبوع على الأممية بطبيعة الأرض واللغة وبالإسلام أصبح طابعه أن يصبغ الأرضين التي فتحها الإسلام.. لصبغة الأممية وهو بها، ولها، ومعها.. صانع الأممية المسلمة.

.. إخوتي: ماذا أخذت منكم الأممية الإسلامية؟

لقد أخذت منكم أن كانوا مسلمين.. أصبحوا قرآنيين.. أبدلهم الله بالمسجد، والمدرسة بدلاً عن الهيكل والكنيسة والبيعة والكهوف.. أي إنكم وقد حملكم الله نشر دينه، وشرفكم بأن بعث رسوله من أنفسكم وأنزل قرآنه بلغتكم.. حملكم الله ذلك حين أهَّلكم لها.. للدعوة الإسلامية.

فلو لم تكونوا الأهل لها بالأهلية الواعية.. لساناً عربياً مبيناً.. سيفاً في يد الفارس.. منها للدين الجديد.. جهاداً وإيماناً.. وتطلعاً.. كما قال

خالد بن الوليد في غزوة ذات الخنافس:

(والله لو لم نحاربهم على الدين لحاربناهم على هذا الريف)..

فسلطان الرسالة قمة الأمة، والخلافة ذروتها.. بهذا الوعي مسلماً وعربياً.. صنعت الأمة الإسلامية الحضارة الوسيط على الأرض بحوافزها التلقائية، وبدعوة الإسلام قبل كل شيء.. فالإسلام هو في هذا التعريف: إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس أطيب من أن يتفوق المسلم في عقيدته، وسلوكه، وحضارته.. فالحضارة هي الكيان وهي السياج.. حضارته الوسيط كوّنت إشراقة النور على الإنسان كله.. تلقَّفها الغرب فجاءت حضارته الجديدة.

عطاء كبير كان بذله من بلدكم هذا.. من إنسانكم. هذا ما أخذوه، ولكن، ماذا كان عطاؤهم لكم؟

هل أنبش التاريخ فأقول: أعطيتم إمبراطورية أميّة في دمشق، فإذا هي لا تعبأ بكم، وأنتم أعرف بما جرى. وأعطيتم إمبراطورية العباسيين فما أعطتكم شيئاً.. كأرض. تعرب عطاء الإمبراطوريتين كان عطاء للإمبراطورية الإسلامية عطاء للاعبه.

فمن هذا الاعتبار.. حرماننا من العطاء كعرب.. هو وجداننا العطاء منهم كمسلمين.. لأن هذا البلد ـ أعني أنتم ـ قد حفظتكم الأممية الإسلامية كشعب من شعوبها، وإن لفظكم سلطان الحكم كأرض في حاجة إلى بناء حضارة جديدة.

.. إخوتي: الأممية الإسلامية أخذت منكم أن لا ينسب إليكم أي إمام منكم.. كما أخذتم أنتم أن لا ينسب إليهم ـ أي إلى شعوبهم ـ أي إمام مسلم. لقد تبادلنا الأخذ والعطاء.

فمالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والخليل بن أحمد، وجابر بن حيان، والمتنبي، وأبو تمام والبحتري.. أئمة وشعراء من الأمة الإسلامية.. هذا أخذهم.. أما أخذنا فلن نقبل إلا أن يكون أبو حنيفة، والبخاري ومن إليهما، وابن الرومي ومهيار، وابن سيناء والفارابي.. والخوارزمي، إلا أنهم عباقرة عرب.. فالعرق فيهم قد ألغته اللغة، وازدهرت الإسلامية في لسان هؤلاء، وتآليفهم.. منهم كأقرانهم من العرب رجال العروبة.. علماء الإسلام..

لست في هذا أتنكر للأممية، وإنما أريد أن نكون على أمر واضح في بنائنا الحضاري.. نعتز بالأمة المسلمة على صورة من التضامن.. كما أنه لا ينبغي أن ندعو إلى إلغاء عروبتنا، فهذا البلد وطنيته الإسلام لأنه ليس صاحب مقام كريم إلا بالإسلام، وإن وطنيته أيضاً هي العروبة، ولا ازدواجية في ذلك. وكما قلنا من قبل: إن قالوا نحن العرب فإننا على السنام، وإن قالوا نحن المسلمون فإننا على الذروة.

أرجو ألا نبخل بالعطاء.. فعطاؤنا الجزيل فيما سبق هو أخذ الأمة الإسلامية وأخذنا من الأمة الإسلامية هو عطاؤهم لنا، وعطاؤنا لأنفسنا.

بالحب قلت ذلك، ولن تكون حضارة إلا بالحب، ولن يكون فن إلا بالحب، ولن تسود جماعة إلا بالحب، ولن تسعد أسرة إلا بالحب.

الفاروق عمر بن الخطاب

(١)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حديث ما أحبه إلي أخضع عليه طواعية لأنه الحديث عن عمر الفاروق، فقد كان موضوع المحاضرة بينكم فيما حدد لها من وقت وما تحدد لها من موضوع، كان موضوعاً عن غير عمر، وكأنما اليقظة في جهاز الرابطة قد حرص ألا يكون تكراراً في المواضيع، فأوصاني أن أعدل عن موضوعي الأول لأقترح موضوعاً غيره، فكان من التوفيق أن يكون الحديث عن أبي حفص. والحديث عن عمر في هذه الأيام أحسبه لازماً ومؤكداً، فعمر أعز الله به الإسلام يوم أن آمن، يوم أن هاجر، يوم أن نصر حتى إذا تولى الخلافة جاء الإسلام مطبّقاً على يديه نظام حياة، سياسة دولة، قوانين إصلاح، تنظيم حكم، تأسيس شريعة، نشر عدالة، فالمثل في حياة النبي هو الوحي، إن هو إلا وحي يوحى، هو الأمر من الله لا جدل حوله، وإن

(*) أولى سلسلة المحاضرات التي ألقاها المؤلف بمكة المكرمة والتي تقدمها رابطة العالم الإسلامي، وكان عنوان هذه السلسلة (الخليفة الثاني عمر بن الخطاب).

كان هناك جدل فبين مؤمن به وكافر به، ولا خطورة في هذا الجدل، أو لا مدخل لتأويل أو خدعة لخادع أو فتنة، والمثل في حياة أبي بكر قد يضيق الجدل حوله كما هو متسع من عمل عمر، فعمر البشر لا وحي عليه ولا إلهام يقبل منه، فقد جفت الصحف بعد وفاة رسول الله، فجاء عمر يطبق ما تلقاه وما يلقاه في قرآن وسنّة ورأي يجمع عليه الصحابة.

إن هذا التطبيق من عمر للشريعة الإسلامية يقيم عليها كل الحياة ويستقيم عليها أمر الأحياء، فيها البرهان والدليل القاطع على صلاح هذا الإسلام دين حياة ومعاد تستقيم به حياة الإنسانية في كل الأزمان، هذا ما يأخذه المؤيدون للإسلام الداعون له حجة لهم، ومن ناحية أخرى يأخذ دعاة المذاهب من شيوعيين واشتراكيين أو حتى رأسماليين دليلهم من عمل عمر، كل يطبق ما يجده في حياة عمر على هواه، بينما الأمر ليس كذلك، فالإسلام في روحه وفي تعاليمه كل طبقه عمر وليس هو أجزاء يأخذ منها من يريد دليله لما يشتهي، فمن هنا طاب لي أن أتحدث عن عمر أترجم له، أستنير بسيرته أذكّركم بها، فالذكرى تنفع المؤمنين كأنما بنا إذ نتلو ذاكرين ومذكرين سيرة هذا الخليفة الراشد الإمام العادل نقول لبعضنا: هيا بنا نؤمن ساعة، فلعمري إنكم لتجدون في سيرة هذا الرجل ما يزيد الإيمان، ما يذكّر بالرحمن، ما يستقيم به روح مؤمن في إنسان يود أن يخشى الله كما كان يصنع عمر. إن عمر برهان يستضيء به المسلم سواء كان صاحب سلطان أم مجرد إنسان.

صاحب السلطان إذا ما أراد النجاة واستقامة الحياة سار على نهج عمَريّ.. والإنسان ـ مجرد الإنسان ـ إذا ما رفع رأسه بهذا الإسلام وجد العزة في نفسه لا تطفيه فتنة ولا تضعه في براثن ظلم، لأن الحق المتقد

وإن لم يجد نفاذاً فإنه يكفي أن يكون نافذاً في النفس، تستقيم به وإن لم يستقم لها بعض ما تريد.

فعمر حينما عرف الحق استقام به إنساناً مؤمناً تابعاً للنبي لا يسير إلى فتنة ولا يتعرض لهوى، بل هو كان في كل أمر وبما يملك من قوة الإنسانية فيه.. وقوة الإيمان، يقمع الفتنة، يُخضِع الباطل.. ينصر الحق.. فحينما استقام ذلك في نفسه فإنه به قد استطاع أن يستقيم به صاحب سلطان يقوّم النفوس عليه، فالعزة التي غرسها في الأمة كانت مطلبه في نفسه لنفسه فأصبحت أمته عزيزة له يعتز بها دينه ينتصر بها الفتح العظيم بعد الفتح المبين.

فعمر بهذه العزة لم ينل قومه ولا الأرض المفتوحة بسيوفهم بشيء يذلهم. قد أنصف الفقير، وأعطى الحق لصاحبه، أي إنه أشاع العدالة الاجتماعية إشاعة بين جميع الطبقات، لا تشيعاً لطبقة الفقير أخذ حقه، والغني لم يسلب ذلك الحق. إنما هي عدالة التوزيع من بيت المال، فالجميع في كفالة الدولة أي في كفالة الخليفة، أي في كفالة عمر، صاحب حق يأخذه، ومالك حق لا يسلبه برهانه في ذلك: نحن قسمنا بينهم معيشتهم.

على الصورة الأولى قال الاشتراكيون: نحن عمريون. وعلى الصورة الثانية قال الرأسماليون نحن عمريون، مع أن الأحرى بهم جميعاً أن تخرّجهم من هذه العمرية التي هي الإسلام ليست جزأين يأخذ كل فريق جزأه، إنما هي كل واحد تتمايز فيه الطبقات ويكون فيه الفاضل والمفضول وليس فيه الهاضم والمهضوم، فلا الشيوعية ولا الاشتراكية ولا الرأسمالية إذا ما أصبح كل منها سلطاناً وحيداً في المجتمع يرهق ويسلب ويستغل، ليس هؤلاء، إذا ما كانوا كذلك، من العمرية بشيء.

من هو عمر؟ هو عمر بن نفيل بن عبد العزة بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمه بنت هاشم بن المغيرة وقيل بنت هشام بن المغيرة، ولكن الأصح أنها بنت هاشم، فهو من قريش في عزة آبائه بني عدي وعزة أخواله بني مخزوم.

فلقد كان من حظه في التقسيم القرشي للمسؤوليات التي نشأ عليها المجتمع في مكة، كان من حظه أن انتهت إليه السفارة في هذا المجتمع القرشي أي إنه كان وزير الخارجية في هذه الحكومة ذات الرئاسة في السلم وذات الرئاسة في الحرب.. وذات المسؤوليات في أكثر من شأن، ولا أدري ـ وهذا مكانه ـ كيف يُنَظر إليه أنه لم يكن في المكان العزيز في قريش حتى إن بعض من كتبوا التاريخ يتعلمه أبناؤنا ينسب عمر إلى أنه غير العزيز في قومه فيقول إنه ليس بذي خطر ولا يؤبه له لأن أباه الخطاب كان فظاً غليظاً عليه يكلفه برعاية الإبل. لقد أخذ الأستاذ هذا الكلام قاله عمر نفسه فاستنبط منه أن عمر لم يكن عزيز الجانب وهذا خطأ منه. فإن ما قاله عمر كان يتواضع به فلا ينبغي أن نصفه ضعة عليه هو عمر مر بضجنان فوجده أصحابه مكاناً معشباً فقال لهم عمر: لقد كنت والله أرعى للخطاب إبله وكان فظاً غليظاً. كنت أرعاها في هذا المكان فأحتطب عليها أو أختبط، يعني يضرب شجرات السمر أي السلم يتساقط ورقها يجمعه خبطاً تأكله الإبل كما يفعل أعرابنا اليوم، فالخبط طعام الإبل. قال ذلك عمر يتواضع ويحمد الله. ثم أردف: «وها أنا اليوم يضرب الناس بجنباتي أميراً عليهم». فأي ضعة أن يكون الخطاب غليظاً على ابنه؟ هل من عزة الابن ألا يرضخ لأبيه؟ وهل إن كان عمر راعياً للإبل نصفه بالضعة ولا نأبه له.. لا يكون له خطر في قوم كل أبناء العلية في العرب يرعون الإبل والبهم،

فهذا محمد وليس أعز منه ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي المجمع الابن نبي هذه الأمة، سيد الخلق كان يرعى الغنم. أفلأنه كان يرعاها نصفه ـ حاشاه ـ بما وصف به هذا المؤلف عمر؟ إن الإسلام أكبر وأرفع وأعز من أن نبذل ثناء عليه بذم الذين نصروه. فلو لم يكن العرب له أهلاً لما نزل فيهم، بل إن الحط من قيمة العرب هو وضع لشأنهم وبالتالي انتقاص مما قاموا به وأعزوا به، هذا الإسلام، إذا عز العرب عز الإسلام، أما أن يخطئ عربي اليوم يتعصب لعنصرية فتجر أذاه كدفعه لصب الأذى على الذين أحسنوا إلينا.. فالجاهلية في العرب لم تكن ضد العلم، فقد كانوا العالمين بكثير من شؤون الحياة.

فالأستاذ سليم الجندي وتلميذه ظافر القاسمي يشرحان معنى الجاهلية أنها ضد العلم، ضد التغيير، ضد التوحيد.. ويرحم الله سيد قطب، فقد أشار إلى ذلك في تسميته للوضع القائم الآن بجاهلية القرن العشرين، فلم يسبق قرن هذا القرن بشيء من العلم الذي انتشر في هذا القرن.

فواضح أن سيد قطب لا يعني جاهلية العلم وإنما يعني جهل الهداية. الجهل بهذا الإسلام، وإلا فكيف استطاع الخيار في الجاهلية أن يكونوا أخياراً في الإسلام دون علم؟ لقد كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وأبو عبيدة كلهم علماء تعلموا في الجاهلية صناعة الحياة، كل في اختصاصه، وتعلموا من الإسلام هداية الأحياء ليصنعوا بها حياة جديدة أقاموها على أثبت الأسس، خياركم في الجاهلية خياركم للإسلام إذا فقهوا.

فالإسلام كمادة تشريع وتهذيب لم يتوسع في تعليمهم أساليب الحرب وتنظيم الجيوش وتخطيط المدن وقيادة المعارك، الروح نظمها الإسلام واليد والذكاء، كان على علم بذلك وعلى استعداد لإدراك ذلك، ولو استقرأتم

حال هؤلاء لوجدتموه الكثرة القارئة، فمجتمع مكة كان مجتمعاً قارئاً يعرف من أحوال الأمم والشعوب الشيء الكثير، فكان عوناً لهؤلاء القادة أن ينتصروا على هذه الأمم.. في الأسرى السبعين في بدر وجد القارئون الكاتبون الذين كان ثمن الفداء لهم أن يعلم الواحد منهم عشرة صبية من صبيان المدينة. فليست إذاً جاهليتهم جاهلية العلم وإنما هي جاهلية الحلم جاهلية العناد، فعمر كان جاهلياً بالعناد جاء ليقتل محمداً فرحمه العلم لأنه كان قارئاً، فحينما قرأ سورة طه أخضعه العلم لأن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فذهب ليسلم فكان في إسلامه العزة للمسلمين! فإنسانٌ هذا شأنه لم يكن في الجاهلية يؤبه له، وإن سبب إسلامه لعجيب.. عناد في السلوك عبقرية في الطاعة.. أريد أن أترك كل مصدر لأتناول ذلك من مصدر واحد هو ابن سعد.

قال ابن سعد في صفحة (٢٦٧) من المجلد الثالث من الطبقات الكبرى تحت هذا العنوان.

«إسلام عمر رحمه الله»:

قال أخبرنا اسحق بن يوسف الأزرق قال: أخبرنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك قال: خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهرة قال: أين تقصد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمداً. قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟ قال فقال عمر: ما أراك إلا صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه. قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه. قال: فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب، قال: فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت فدخل عليهما

فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكما؟ قال وكانوا يقرأون طه، فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا، فقال: فلعلّكما قد صبوتما. قال: فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ قال: فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الذي عندكم فأقرأه. قال: وكان عمر يقرأ الكتب فقالت أخته: إنك نجِس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم واغتسل أو توضأ. قال: فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى إلى قوله ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه: ١٤) قال فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تنال دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللَّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام. قال: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، قال: وعلى باب الدار حمزة وطلحة وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر، قال حمزة: نعم، فهذا عمر، فإن يرد الله بعمر خيراً يسلم ويتبع النبي ﷺ. وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً. قال: والنبي عليه السلام داخل يوحى إليه، قال: فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال: أما أنت منته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة؟ اللَّهم هذا عمر بن الخطاب: اللَّهم أعز الدين بعمر بن الخطاب. قال: فقال عمر أشهد أنك رسول الله.. فأسلم وقال: أخرج يا رسول الله.. قال أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبه عن داود بن الحصين

قال: وحدثني لعمر عن الزهري قال: أسلم عمر بن الخطاب بعد أن دخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وبعد أربعين أو نيف وأربعين بين رجال ونساء قد أسلموا قبله، وقد كان رسول الله ﷺ. قال بالأمس: اللَّهم أيد الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام، فلما أسلم عمر نزل جبريل فقال: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.. قال: أخبر محمد بن عبد الله عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: أسلم عمر بعد أربعين رجلاً وعشر نسوة، فما هو إلا أن أسلم عمر فظهر الإسلام بمكة.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني علي بن محمد عن عبيد الله بن سلمان الأغر عن أبيه عن صهيب بن سنان قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعا إليه علانية وجلسنا حول البيت حلقاً وطفنا بالبيت وانتصفنا ممن غلظ علينا ورددنا عليه بعض ما يأتي به.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني محمد بن عبد الله عن أبيه قال: أسلم عمر بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة. قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ولدت قبل الفجار الأعظم الآخر بأربع سنين. وأسلم في ذي الحجة السنة السادسة من النبوة وهو ابن ست وعشرين سنة قال: وكان عبد الله بن عمر يقول: أسلم عمر وأنا ابن ست سنين قال: أخبرنا عبد الله بن نمير ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

قال محمد بن عبيد في حديثه: لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت

حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي.

قال: أخبرنا يعلى ومحمد ابنا عبيد وعبد الله بن موسى والفضل بن دكين ومحمد بن عبد الله الأسدي قالوا: أخبرنا مسفر عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قال عبد الله بن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إِمارته رحمة، فقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن صالح بن كيسان قال: قال ابن شهاب: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قالوا لعمر الفاروق وكان المسلمون يؤثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن ابن عمر قال ذلك إلا لعمر كان فيما يذكر من مناقب عمر الصالحة ويثني عليه. قال: وقد بلغنا أن عبد الله بن عمر كان يقول: قال رسول الله ﷺ: اللَّهم أيد دينك بعمر بن الخطاب.

قال: أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي المكي قال: أخبرنا عبد الرحمن ابن حسن عن أيوب بن موسى قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه هو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل. قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا أبو ضررة يعقوب بن مجاهد عن محمد بن إبراهيم عن أبي عمرو دكوان قال: قلت لعائشة من سمى عمر الفاروق؟ قالت: النبي عليه الصلاة والسلام.

من هو عمر؟

قال محمد بن سعد: سألت أبا بكر بن محمد بن أبي مرة المكي وكان عالماً بأمور مكة، عن منزل عمر بن الخطاب الذي كان في الجاهلية بمكة فقال: كان ينزل في أصل الجبل الذي يقال له اليوم جبل عمر، وكان اسم

الجبل في الجاهلية فنسب إلى عمر بعد ذلك وبه كانت منازل بني عدي بن كعب.

قال: أخبرنا يزيد بن هارون وعفان بن مسلم وعارم بن الفضل قالوا: أخبرنا حماد بن زيد قال: أخبرنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار قال: مر عمر بن الخطاب بضجنان فقال: لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطَّاب في هذا المكان. وكان والله ما علمت فظاً غليظاً ثم أصبحت إلى أمر أمة محمد ﷺ. ثم قال متمثلاً: لا شيء فيما نرى إلا بشاشته. يبقى الإله ويودى المال والولد، ثم قال لبعيره حوب.

قال: أخبرنا سعيد بن عامر وعبد الوهاب بن عطاء قالا: أخبرنا محمد ابن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: أقبلنا مع عمر بن الخطاب قافلين من مكة حتى إذا كنا بشعاب ضجنان وقف الناس فكان محمد يقول: مكاناً كثير الشجر والأشب قال: فقال لقد رأيتني في هذا المكان وأنا في إبل للخطاب وكان فظاً غليظاً أحتطب عليها مرة وأختبط عليها أخرى. ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتي ليس فوقي أحد. قال ثم مثل بهذا البيت: لا شيء فيما نرى إِلا بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد.

قال: أخبرنا عبد الملك بن عمرو وأبو عامر العقدي قال: أخبرنا خارجة بن عبد الله عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: اللَّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام. قال: فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب.

قال: أخبرنا عفان بن مسلم قال: أخبرنا خالد بن الحارث قال: أخبرنا عبد الرحمن بن حرملة عن سعلاد بن المسيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا

رأى عمر بن الخطاب أو أبا جهل بن هشام قال: اللَّهم اشدد دينك بأحبهما إليك، فشدد دينه بعمر بن الخطاب. قال: أخبرنا محمد ابن عبد الله الأنصاري قال: أخبرنا أشعث بن سوار عن الحسن عن النبي ﷺ قال: اللَّهم أعز الدين بعمر بن الخطاب وهذه العزة في عمر. أظهر جليه حينما ذهب إلى أبي جهل يعلنه بالكلمة الصارمة الصاعقة يقول: يا خال: لقد أسلمت واتبعت محمداً، فيصعق أبو جهل ولا يستطيع أن يصنع شيئاً، يخشى أن يُفْعَل بعمر شيءٌ خوفاً من هزيمة الفرقة حفاظاً على دم الخؤولة فيعلن عمر أنه المجير له: أنت في جواري منذ اليوم، فيقبل عمر هذا الجوار أولاً حتى إذا استفاق عمر من هذه الصدمة يرسلها على أبي جهل يقف بين الملأ وهو عمر العزيز الجانب الشجاع المؤمن ليعلن رد هذا الجوار لئلا تكون لمشرك يد عليه ولو كان خاله، كأنما هو يعلن الحرب بالإسلام وبالعزة، فما زال يضرب الناس ويضربونه حتى أذن النبي في الهجرة، كهذا النص من طبقات ابن سعد.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري عن سالم عن أبيه، وأخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عمر بن أبي عاتكة وعبد الله بن نافع عن ابن عمر قال: لما أذن رسول الله ﷺ للناس في الخروج إلى المدينة جعل المسلمون يخرجون أرسالاً يصطحب الرجال فيخرجون. قال عمر وعبد الله قلنا لنافع مشاة أو ركبانا؟ قال: كل ذاك، أما أهل القوة فركبان ويعتقبون وأما من لم يجدوه ظهراً فيمشون.

قال عمر بن الخطاب: قلت قد اعتدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاص بن وائل التناضب من إضاءة بني غفار وكنا إنما نخرج سراً فقلنا: إيكم ما تخلف عن الموعد فلينطلق من أصبح عند الإضاءة.

قال عمر: فخرجت أنا وعياش بن أبي ربيعة واحتبس هشام بن العاص ففتن فيمن فتن. وقدمت أنا وعياش فلما كنا بالعتيق عدلنا إلى العصبة حتى أتينا قباء فنزلنا على رفاعة بن المنذر فقدم على عياش بن أبي ربيعة أخواه لأمه أبو جهل والحارث ابنا هشام بن المغيرة وأمهم أسماء ابنة مخربة من بني تميم والنبي ﷺ بعد بمكة لم يخرج فأسرعا السير فنزلا معنا بقباء فقالا لعياش: إن أمك قد نذرت ألا يظلها ظل ولا يمس رأسها دهن حتى تراك، قال عمر: فقلت لعياش والله إِن يرداك إلا عن دينك فاحذر على دينك قال عياش: فإن لي بمكة مالاً لعلي آخذه فيكون لنا قوة وأبر قسم أمي، فخرج معهما فلما كانوا بضجنان نزل عن راحلته فنزلا معه فأوثقاه وربطاه حتى دخلا به مكة فقالا: كذا يا أهل مكة فافعلوا بسفهائكم ثم حبسوه.

قال: أخبرنا محمد بن عمر حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتاده قال محمد بن عمرو أخبرنا عبد الله بن جعفر عن سعد بن إبراهيم قالا: آخى رسول الله ﷺ بين عمر ابن الخطاب وعويم بن ساعدة قال: أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أبي عون قال: آخى رسول الله ﷺ بين عمر بن الخطاب وعتيان بن مالك: قال محمد بن عمر ويقال بين عمر ومعاذ بن عفراء.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا محمد بن عبد الله الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبه قال: منزل عمر بن الخطاب بالمدينة خطة من رسول الله ﷺ. قالوا: شهد عمر بن الخطاب بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وخرج في عدة سرايا وكان أمير بعضها،

قال: أخبرنا أسامة بن زيد بن أسلم عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال: بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب سرية في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة في شعبان سنة سبع من الهجرة.

قال: أخبرنا روح بن عبادة قال: أخبرنا عوف عن ميمون أبي عبد الله عن عبد الله بن بريده عن أبيه بريده الأسلمي قال: لما كان حيث نزل رسول الله ﷺ بحضرة أهل خيبر أعطى رسول الله ﷺ اللواء عمر بن الخطاب.

قال: أخبرنا محمد بن عبد الله الأسدي قال: أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن سالم عن ابن عمر قال: استأذن عمر النبي ﷺ في العمرة فقال: يا أخي أشركنا في صالح دعائك ولا تنسنا.

قال: أخبر هشام أبو الوليد الطيالسي وسليمان بن حرب قالا: أخبرنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله عن أبيه عن عمر أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له فقال له النبي: لا تنسنا يا أخي من دعائك. قال سليمان في حديثه قال لي كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا. قال سليمان: قال شعبة ثم لقيت عاصماً بعد المدينة فحدثته فقال قال أشركنا يا أخي في دعائك.

قال أبو الوليد هكذا في كتابي عن ابن عمر قال أخبرنا سعيد بن محمد الشقفي عن المغيرة بن زياد الموصلي عن الوليد بن أبي هشام قال: استأذن عمر بن الخطاب النبي ﷺ في العمرة وقال: إني أريد المشي فأذن له قال: فلما ولى دعاه فقال: يا أخي شيئاً بشيء من دعائك ولا تنسنا.

قال: حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر في عمر وصاحبة موسى حين قالت استأجره وصاحبة يوسف.

كيف عمر؟

ولا أريد أن أقصي شيئاً من مناقب عمر من كتاب وكتاب إنما هي مناقبه آخذها من الجامع الصحيح للإمام البخاري أورد في مناقبه قال:

مناقب عمر بن الخطاب:

وقد سبق البخاري خمسة عشر حديثاً في ذلك..

١ ـ قال النبي ﷺ: رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة.. وسمعت خشفة فقلت من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت لمن هذا؟ فقال لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إِليه فذكرت غيرتك فقال هذا عمر بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟

٢ ـ قال رسول الله ﷺ: بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ بجانب عمر فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر فذكروا غيرته فوليت مدبراً فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟.

٣ ـ قال رسول الله ﷺ بينما أنا نائم شربت (يعني اللبن) حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري أو في أظافري، ثم ناولت عمر فقالوا فما أوَّلته؟ قال: العلم.

٤ ـ قال النبي ﷺ: رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً فلم أر عبقرياً يفري فرية حتى روى الناس وضربوا بعطني.

٥ ـ استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر قمن فبادرن

الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ يضحك فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ فقلن: نعم. أنت أفظ وأغلظ من رسول الله فقال رسول الله ﷺ: أبها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك.

٦ ـ قال عبد الله: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

٧ ـ قال ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وُضِع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي فإذا بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وحسبت أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر.

٨ ـ صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله وقال: أتيت فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد.

٩ ـ سأل ابن عمر عن بعض شأن أبيه فقال زيد بن أسلم عن أبيه: ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله ﷺ من حين قبض كان أجد وأجود حتى انتهى من عمر بن الخطاب.

١٠ ـ سأل رجل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال النبي عليه السلام: وماذا أعددت لها؟ قال لا شيء.. إلاّ أني أحب الله ورسوله. فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس، فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس: أحب النبي وأبا بكر وعمر وأرجو أن

أكون معهم بحبي إياهم وإِن لم أعمل بمثل أعمالهم.

١١ ـ قال رسول الله ﷺ: لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر.

١٢ ـ قال النبي ﷺ: لقد كان فيمن قبلكم من بني إِسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر.

١٣ ـ قال رسول الله ﷺ: بينما راع في غنمه عدا الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتى استنقذها، فالتفت إِليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع ليس لها راعٍ غيري، فقال الناس: سبحان الله، فقال النبي ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر.

١٤ ـ قال رسول الله ﷺ: بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم فمضى منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك. وعرض على عمر وعليه قميص اجتره. قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله؟ قال: الدين.

١٥ ـ قال المسور بن مخرمة: لما طعن عمر جعل يألم فقال ابن عباس وكأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راضٍ. ثم صحبتهم فأحسنت صحبتهم ولئن فارقتهم لتضار منهم وهم عنك راضون.. قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإن تلك من الله تعالى منّ بها علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذلك من منّ الله جل ذكره من به علي، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك ومن أجل أصحابك. والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه.

الفاروق عمر بن الخطاب

(٢)

ولا أجدني في حاجة إِلى التذكير بالمثل العليا ضربها عمر. . فأنتم تعرفونها تعيش في أذهانكم غير أن التذكير بها لازم.

يقول بعضهم: إن مفتاح شخصية عمر العبقرية. وغيره يقول: الشجاعة، والآخر العزة والقوة، وهي عندي لا هذه ولا تلك، إِنما هي الخوف من الله، خاف الله عَمرُ فلم يكف البصر، خاف الله فاعتزّ بالأمن في نفسه وفي أمته، وخشيه الرجال عادلاً وراحماً، فاعتزوا بالاستقامة والرحمة.

لهذا أسوق هذه الأمثلة طبق فيها روح الإسلام نظام حكم، سيرة بين الناس لم يبخس ذا حق حقه، ولم يطلق السراح ليأخذ كل من يشتهي غير مأهوله الحق أراد وعن الحق دافع والحق نصر فانتصر أولاً على نفسه على أهله فانتصرت به العدالة نهج حياة للأمة.

وإِليكم بعض الأمثلة ومن طبقات ابن سعد.

(*) الجزء الثاني من محاضرات المؤلف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

ـ أخبرنا جرير بن حازم قال: سمعت حميد بن هلال قال: أخبرنا من شهد وفاة أبي بكر الصديق فلما فرغ من دفنه نفض يده من تراب قبره ثم قام خطيباً مكانه فقال: إِن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني ولا يتغيب عني قالوا فيه عن الجزء والأمانة ولئن أحسنوا لأحسنن إِليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم، قال رجل: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا.

ـ أخبرنا يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال قال عمر بن الخطاب: ليعلم من ولّي هذا الأمر من بعدي أن سيريده عنه القريب والبعيد، إِنني لأقاتل الناس عن نفسي قتالاً، ولو علمت أن أحداً من الناس أقوى عليه مني لكنت أقدم فتضرب عنقي أحب إِلي من أن آليه.

ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض عن محمد بن سيرين عن الأحنف قال: كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا: سرية أمير المؤمنين فقالت:

ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما أحل له: إِنها من مال الله، فما هو الأقدر أن بلغت رجاء الرسول فوعدنا فأتيناه فقال: ماذا قلتم؟ قلنا لم نقل بأساً، مرت جارية فقلنا: هذه سرية أمير المؤمنين فقالت ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له، إِنها من مال الله فقلنا: ماذا يحل له من مال الله؟ فقال: أن أخبركم بما استحل منه يحل لي حلتان حلة في الشتاء، وحلة في القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم.

ـ عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر بن الخطاب: إني أنزلت نفسي

من مال الله منزلة مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف. قال وكيع في حديثه: فإن أيسرت قضيت، وفي رواية أخرى أنزلت مال الله مني بمنزلة اليتيم، من كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف.

ـ عن عروة بن عمر قال: لا يحل لي من هذا المال إلا ما كنت آكلاً من صلب مالي.

ـ أخبرنا عمران أن عمر كان إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما يأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر وربما خرج عطاؤه فقضاؤه.

ـ عن ابن المبزاء بن معرور أن عمر خرج يوماً حتى أتى المنبر وقد كان اشتكى شكوى قدمت فنعت له العسل وفي بيت المال بمكة فقال إن أذنتم لي فيها أخذتها وإلا فإنها عليّ حرام فأذنوا له فيها.

ـ عن عاصم بن عمر قال: أرسل إليَّ عمر يرفأ فأتيته وهو في مصلاه عند الفجر أو عند الظهر قال فقال: والله ما كنت أرى هذا المال يحل لي من قبل أن آتيه بحقه. وما كان قط أحرم منه إذ وليته فعاد أمانتي وقد أبقيت عليك شهراً من مال الله ولست بزائدك ولكني معيذك بثمر مالي بالغابة فأحدده فبعه ثم ائت رجلاً من قومك من تجارهم فقم إلى جنبه فإذا اشترى شيئاً فاستشركه فاستنفق وأنفق على أهلك.

ـ عن الحسن أن عمر رأى جارية تطيش هزالاً فقال عمر: من هذه الجارية؟ فقال عبد الله: هذه إحدى بناتك، فقال وأي بناتي هذه؟ قال ابنتي. قال ما بلغ بها ما أرى؟ قال: عملك. لا تنفق عليها إني والله ما أغرك من ولدك أيها الرجل.

ـ عن مصعب بن سعد قال: قالت حفصة بنت عمر لأبيها: يا أبت:

إِنه قد أوسع الله الرزق، وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير، فلو طعمت طعاماً ألين من طعامك ولبست لباساً ألين من لباسك، فقال: سأخأصمك إِلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش؟ قال: فما زال يذكرها حتى أبكاها ثم قال: إِنني قد قلت لك إنني والله لئن استطعت لأشاركنها في عيشها الشديد لعلّي ألقى معها عيشها الرخيّ قال يزيد بن هارون: يعني رسول الله وأبا بكر.

ـ قال الحسن إن عمر أبى إِلا شدة على نفسه وحصراً وقد بسط الله في الرزق. فليبسط في هذا الفيء فيما شاء منه وهو في حل من جماعة المسلمين، فكأنها قاربتهم في هواهم. فلما انصرفوا من عندها دخل عليها عمر فأخبرته بالذي قال القوم فقال لها عمر: يا حفصة بنت عمر: نصحت قومك وغششت أباك، إِنما حق أهلي في نفسي ومالي، فأما في ديني وأمانتي فلا.

ـ وعن الحسن قال: كلموا حفصة أن تكلم أباها أن يلين من عيشه شيئاً، فقالت يا أبتاه أو يا أمير المؤمنين: إِن قومك كلموني أن تلين من عيشك فقال غششت أباك ونصحت لقومك.

ـ عن إبراهيم أن عمر بن الخطاب كان يتجر وهو خليفة، قال يحيى في حديثه: وجهز عيرا إِلى الشام فبعث إِلى عبد الرحمن بن عوف وقال الفضل: فبعث برجل من أصحاب النبي عليه السلام، قالا جميعاً يستقرضه أربعة آلاف درهم فقال للرسول، قل له يأخذها من بيت المال ثم ليردها، فلما جاءه الرسول فأخبره بما قال شق ذلك عليه فلقيه عمر فقال: أنت القائل ليأخذها من بيت المال!! فإن مت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له وأوخذ بها يوم القيامة. لا، ولكن أردت أخذها من

رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها قال يحيى من ميراثي، وقال الفضل من مالي.

ـ عن يسار بن نمير قال: سألني عمر. كم أنفقنا في حجتنا هذه؟ قلت: خمسة عشر ديناراً.

ـ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج ثم رجعنا فما ضرب لنا فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به إنما كان يلقي نطعاً أو كساء على شجرة فيستظل تحته.

ـ حدثنا الحسن فقال: قدم أبو موسى في وفد أهل البصرة على عمر قال: فقالوا كنا كل يوم وله خبز ثلاثة فربما وافقناها مأدومة بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة حتى دقت ثم أغلي ما بها، وربما وافقنا اللحم الفريض وهو قليل فقال لنا يوماً: أيها القوم إنني والله لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامي، وإنني والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأرفعكم عيشاً، أما والله ما أجهل عن كراكر وأسنمه وعن صلا وصناب وصلائق، ولكنني سمعت الله جل ثناؤه غير قوماً بأمر فعلوه، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠). وإن أبا موسى كلمنا فقال: لو كلمتم أمير المؤمنين يفرض لنا من بيت المال أرزاقنا فوالله ما زال حتى كلمناه فقال: يا معشر الأمراء أما ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسي؟ قال: قلنا يا أمير المؤمنين: إن المدينة أرضٌ العيشُ فيها شديد ولا نرى طعامك يعشى ولا يؤكل وإنَّا بأرض ذات ريف. وأن أميراً يعشى وأن طعامه يؤكل فكنت في الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: فنعم فإنني قد فرضت لكم كل يوم من بيت المال شاتين وجريبين، فإذا كان بالغداة فضع إحدى الشاتين على أحد الجريبين فكل

أنت وأصحابك ثم ٱدع بشرابك فاشرب ثم اسق الذي عن يمينك ثم الذي يليه ثم قم لحاجتك، فإذا كان بالعشي فضع الشاة الغابرة على الجريب الغابر فكل أنت وأصحابك ثم ٱدع بشرابك فاشرب، ألا وأشبعوا الناس في بيوتهم وأطعموا عيالهم فإن تحفينكم للناس لا يحسن أخلاقهم ولا يشبع جائعهم والله مع ذاك ما أظن رستاقاً يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريبان إلا يسرعان في خرابه.

ـ عن حميد بن هلال أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام عمر فكان لا يأكل، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال إن طعامك حشب غليظ وإنّي راجع إلى طعام لين قد صنع لي فأصيب منه. قال: أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى شعرها وآمر بدقيق فينخل في خرقة ثم آمر به فيخبز خبزاً رقاقاً وآمر بصاع من زبيب فيقذف في سمن ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال: إنني لأراك عالماً بطيب العيش، فقال: أجل والذي نفسي بيده لولا أن تنتقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم.

ـ عن الربيع بن زياد الحارثي أنه وفد إلى عمر بن الخطاب فأعجبته هيبته ونحوه فشكا عمر طعاماً غليظاً أكله، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لين لأنت، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال؟ أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها إلا مقاربتي، إن كنت لأحسب أن فيك ويحك، هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ قال: وما مثلك ومثلهم؟ قال: سئل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم فقالوا له أنفق علينا فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: فكذلك مثلي ومثلهم، ثم قال عمر: إنني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا

أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ليرفعها إِليّ حتى أقصه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، وكتب عمر إلى أمراء الأجناد لا تضربوا المسلمين فتزلوهم ولا تحرموهم فتكفروهم. ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الفياض فتضيعوهم.

ـ قالوا: إِن رسول الله ﷺ لما توفي واستخلف أبو بكر الصديق كان يقال له خليفة رسول الله ﷺ، فلما توفي أبو بكر رحمه الله واستخلف عمر بن الخطاب قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ، فقال المسلمون فمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله عليه السلام فيطول هذا ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يُدْعَ به من جاء من بعده من الخلفاء فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعي عمر أمير المؤمنين، فهو أول من سمي بذلك، وهو أول من كتب التاريخ في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة فكتبه عن هجرة الرسول من مكة إِلى المدينة، وهو أول من جمع القرآن الكريم في الصحف، وهو أول من سنّ قيام شهر رمضان وجمع الناس على ذلك وكتب به إلى البلدان وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة، وجعل للناس في المدينة قارئيْن: قارئاً يصلي بالرجال، وقارئاً يصلي بالنساء، وهو أول من ضرب بالخمر ثمانين واشتد على أهل الريب والتهم وأحرق بيت رويشد الثقفي وكان خانوتاً وغرب ربيع بن أمية ابن خلف إِلى خيبر وكان صاحب شراب فدخل أرض الروم فارتد، وهو أول من عسّى في عمله بالمدينة وحمل الدُّرة وأدب بها، ولقد قيل بعده: لدرة عمر أهيب من سيفكم. وهو أول من فتح الفتوح وهي الأرضون والدول التي فيها الخراج والفيء فتح العراق كله

السواد والجبال وأذربيجان وكور والبصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا اجنادين فإنها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق رحمه الله، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية، وقتل رحمه الله وخيله على الري وقد فتحوا عامتها، وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جماجم أهل الذمة في ما فتح من بلدان، فوضع على الفتى ثمانية وأربعين درهماً، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهماً، وعلى الفقير اثني عشر درهماً وقال: لا يعوز رجلاً منهم درهم في شهر. فبلغ خراج السواد والجبل على عهد عمر رحمه الله مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف وألوف درهم ودانقين ونصف، وهو أول من مصر الأمصار. الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصَّر والموصل وأنزلها العرب، وخط الكوفة والبصرة خططاً للقبائل، وهو أول من استقضى القضاء في الأمصار، وهو أول من دوّن الديون. وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الفيء وقسّم القسوم في الناس، وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الإسلام، وهو أول من حمل الطعام في السفن من مصر في البحر حتى ورد البحر ثم حمل من الجار إلى المدينة.

الفاروق عمر بن الخطاب

(٣)

وكان عمر رضي الله عنه، إذا بعث عاملاً له على مدينة كتب ماله. وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله. منهم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة، وكان يستعمل رجلاً من أصحاب رسول الله عليه السلام. مثل عمرو بن العاص.. ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة. ويدع من هو أفضل منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ونظراءهم لقوة أولئك على العمل والبصر به، ولإشراف عمر عليهم وهيبتهم له، وقيل له: مالك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول الله، عليه السلام، فقال: أكره أن أدنسهم بالعمل.

واتخذ عمر دار الرقيق، وقال بعضهم الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بمعسكره، ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء وهدم عمر مسجد رسول الله، ﷺ، وزاد

(*) الجزء الثالث من محاضرات المؤلف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

فيه وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيما زاد، ووسعه وبناه لما كثر الناس بالمدينة، وهو أخرج اليهود من الحجاز وأجلاهم من جزيرة العرب إلى الشام. وأخرج أهل نجران وأنزلهم ناحية الكوفة. وكان عمر خرج إلى الجابية في صفر سنة ست عشرة فأقام بها عشرين ليلة يقصد الصلاة، وحضر فتح بيت المقدس، وقسم الغنائم بالجابية، وخرج بعد ذلك في جمادى الأولى سنة سبع عشرة يريد الشام فبلغ سرغ فبلغه أن الطاعون قد اشتعل بالشام فرجع من سرغ، فكلمه أبو عبيدة بن الجراح وقال: أتفر من قدر الله؟! قال: نعم، إلى قدر الله.

وفي خلافته كان طاعون عمواس في سنة ثماني عشرة، وفي هذه السنة كان أول عام الرمادة، أصاب الناس محل وجدب ومجاعة تسعة أشهر، واستعمل عمر على الحج بالناس أول سنة استخلف، وهي سنة ثلاث عشرة، عبد الرحمن بن عوف فحج بالناس تلك السنة ثم لم يزل عمر بن الخطاب يحج بالناس في كل سنة خلافته كلها فحج بهم عشر سنين ولاء، وحج بأزواج النبي عليه السلام في آخر حجة حجها بالناس سنة ثلاث وعشرين، واعتمر عمر في خلافته ثلاث مرات، عمرة في رجب سنة سبع عشرة. وعمرة في رجب سنة إحدى وعشرين وعمرة في رجب سنة اثنتين وعشرين وهو آخر المقام إلى موضعه اليوم كان ملصقاً بالبيت.

ـ عن الحسن أن عمر بن الخطاب مصر الأمصار: المدينة والبصرة والكوفة والبحرين ومصر والشام والجزيرة.

ـ وعن الحسن أن عمر قال: هان شيء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير.

ـ عن محمد بن سيرين قال: قال عمر بن الخطاب: لأعزلن خالد بن

الوليد والمثني مثنى بني شيبان حتى يعلما أن الله إنما كان ينصر عباده وليس إياهما كان ينصر.

ـ عن عبد الله بن إبراهيم قال: أول من ألقى الحصي في مسجد رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديهم فأمر عمر بالحصي فجيء به من العقيق، فبسط في مسجد النبي ﷺ.

ـ عن عبد الرحمن بن عجلان أن عمر بن الخطاب مر بقوم يرتمون فقال أحدهم: أسيت، فقال عمر: سوء اللحن أسوأ من سوء الرمي.

ـ عن نافع قال: قال عمر: لا يسألني الله عن ركوب المسلمين البحر أبداً.

ـ عن زيد بن أسلم قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأله عن ركوب البحر، قال فكتب عمرو إليه يقول: دود على عود فإن انكسر العود هلك الدود. قال فكره عمر أن يحملهم على البحر، قال هشام ابن سعد وقال سعيد بن أبي هلال: فأمسك عمر عن ركوب البحر.

ـ عن عبد الله بن بريدة الأسلمي قال: بينا عمر بن الخطاب يعس ذات ليلة إذا امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها؟

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج؟

هو من أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً، فأمره عمر أن يطم شعره ففعل. فخرجت جبهته فازداد حسناً، فأمره عمر أن يعتم ففعل. فازداد حسناً، فقال عمر: لا والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أنا بها فآمر له

بما يصلحه وسيره إلى البصرة.

ـ وعن ابن بريدة الأسلمي قال: خرج عمر بن الخطاب يعس ذات ليلة فإذا هو بنسوة يتحدثن. فإذا هن يقلن: أي أهل المدينة أصبح؟! فقالت امرأة منهن: أبو ذئب فلما أصبح سأل عنه فإذا هو من بني سليم، فلما نظر إليه عمر إذا هو من أجمل الناس فقال له عمر: أنت والله ذئبهن، مرتين أو ثلاثاً. والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أنا بها! قال: فإن كان لا بد من مسيرتي فسيرني حيث سيرت ابن عمي معين نصر بن حجاج السلمي فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة.

ـ عن محمد أن بريداً قدم على عمر فنثر كنانته فبدرت صحيفة فأخذها فقرأها فإذا فيها.

ألا أبلغ أبا حفص رسولا ... فدى لك من أخي ثقة إزاري
قلائصنا، هداك اللَّه أنا ... شغلنا عنكمُ زمن الحصار
فما قلص وجدن معقلات ... قفا سلع بمختلف البحار
قلائص من بني سعد بن بكر ... وأسلم أو جهينة أو غفار
يعقلنهن جعدة من سليم ... معيداً يبتغي سقط العذار

فقال: ادعو إليّ جعدة من سليم، قال فدعوا به فجلد مائة معقولاً فنهاه أن يدخل على امرأة مغيبة.

ـ عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يحب الصلاة في كبد الليل يعني وسط الليل.

ـ عن محمد بن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب قد اعتراه نسيان في الصلاة فجعل رجلاً خلفه يلقنه، فإذا أومأ إليه أن يسجد أو يقوم فعل.

ـ عن الزهري قال: قال عمر بن الخطاب في العام الذي طعن فيه: أيها الناس إني أكلمكم بالكلام فمن حفظه فليحدث به حيث انتهت به راحلته، ومن لم يحفظه فأحرج بالله على امرئ أن يقول عليّ ما لم أقل.

ـ وعن الزهري قال: أراد عمر أن يكتب السنن. فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال: ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله.

ـ قال: عن راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك.

ـ قال: عن عكرمة أن حجّاماً كان يقص عمر بن الخطاب وكان رجلاً مهيباً، فتنحنح عمر فأحدث الحجام، فأمر له عمر بأربعين درهماً، والحجام هو سعيد بن الهيلم.

ـ وعن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال في ولايته: من ولي هذا الأمر بعدي فليعلم أن سيريده عنه القريب والبعيد، وأيم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسي قتالاً.

ـ عن معمر بن محمد عن أبيه محمد بن زيد قال: اجتمع علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد، وكان أجرأهم على عمر عبد الرحمن بن عوف، فقالوا: يا عبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين للناس فإنه يأتي الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجة حتى يرجع ولم يكلمك، قال: يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا؟ فقال: اللَّهم نعم. قال: يا عبد الرحمن والله

لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة فأين المخرج؟ فقام عبد الرحمن يبكي.. يجر رداءه يقول بيده: أف لهم بعدك، أف لهم بعدك!

ـ عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب كلما صلَّى صلاة جلس للناس، فما كانت له حاجة نظر فيها فصلى صلوات لا يجلس فيها، فأتيت الباب فقلت: يا يرفا، فخرج علينا يرفا، فقلت، أبأمير المؤمنين شكوى؟ قال: لا. فبينا أنا كذلك إذ جاء عثمان فدخل يرفا ثم خرج علينا فقال: قم يا ابن عفان، قم يا ابن عباس، فدخلنا على عمر وبين يديه صبر من مال، على كل صبرة منها كتف، فقال: إني نظرت فلم أجد بالمدينة أكثر عشيرة منكما، خذا هذا المال فاقسماه بين الناس، فإن فضل فضل فردا، فأما عثمان فجثا وأما أنا فجئت لركبتي فقلت: وإن كان نقصاناً رددت علينا!؟ فقال: شنشنة من أخشن، قال سفيان: يعني حجراً من جبل، أما كان هذا عند الله إذ محمد ﷺ وأصحابه يأكلون القد؟! قلت بلى، ولو فتح عليه لصنع غير الذي تصنع. قال! وما كان يصنع؟! قلت إذا لأكل وأطعمنا، قال: فرأيته نشج حتى اختلفت أضلاعه وقال: لوددت أني خرجت منه كفافاً منه لا علي ولا لي.

ـ عن سعيد بن المسيب قال: أصيب بعير من المال زعم يحيى بن سعيد من الفيء فنحره عمر وأرسل إلى أزواج النبي منه ووضع ما بقي فدعا عليه من المسلمين وفيهم يومئذ العباس بن عبد المطلب. فقال العباس: يا أمير المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا فأكلنا عندك وتحدثنا، فقال عمر: لا أعود لمثلها إنه مضى صاحبان لي (يعني النبي ﷺ وأبا بكر) عملا عملاً وسلكا طريقاً وإني إن عملت بغير عملهما سلك بي طريق غير طريقهما.

ـ قال: عن زيد بن أسلم قال: إن عمر بن الخطاب خرج فقعد على المنبر فتاب الناس إليه حتى سمع به أهل العالية فنزلوا فعلمهم حتى ما بقي وجه إلا علمهم، ثم أتى أهله وقال: قد سمعتم ما نهيت عنه وإني لا أعرف أن أحداً منكم يأتي شيئاً مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب ضعفين، أو كما قال.

ـ عن سالم بن عبد الله قال: كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحداً وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة.

ـ عن عروة قال: كان عمر إذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال: اللَّهم أعنّي عليهما، فإن كل واحد منهما يريدني عن ديني.

ـ عن محمد بن سيرين قال: قال عمر بن الخطاب: ما بقي فيَّ شيء من أمر الجاهلية إلا أني لست أبالي إلى أي الناس نكحت وأيهم أنكحت.

ـ عن أبي العاص الثقفي قال: كنت قاعداً مع عمر بن الخطاب فأتاه رجل فسلم عليه فقال له عمر: بينك وبين أهل نجران قرابة؟ قال الرجل: لا، قال عمر: بلى، قال الرجل: لا، قال عمر: بلى والله، أنشد الله كل رجل من المسلمين يعلم أن بين هذا وبين أهل نجران قرابة لما تكلم، فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين بلى بينه وبين أهل نجران قرابة من قبل كذا وكذا، فقال له عمر: مه فإنا نقفو الآثار.

ـ عن زياد بن حدير قال: رأيت عمر أكثر الناس صياماً وأكثرهم سواكاً.

ـ أخبرنا زهير بن معاوية قال: قال عمر بن الخطاب: لو كنت أطيق مع الخليفي لأذنت.

ـ عن يحيى بن أبي جعدة قال: قال عمر بن الخطاب: لولا أن أسير

في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر لأحببت أن أكون قد لحقت بالله.

ـ أخبرنا عمر بن سليمان بن أبي حثمة عن أبيه قال: قالت الشفاء ابنة عبد الله، ورأت فتياناً يقصدون في المشي ويتكلمون رويداً فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نسّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً.

ـ عن المسور بن مخرمة قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع.

ـ عن يحيى بن سعيد قال: قال عمر: ما أبالي إذا اختصم إلي رجلان لأيهما كان الحق.

ـ عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ، قال: أشد أمّتي في أمر الله عمر.

ـ عن العلاء بن أبي عائشة أن عمر بن الخطاب دعا بحلاق فحلقه بموسى، يعني جسده، فاستشرف له الناس فقال: أيها الناس، إن هذا ليس من السنة ولكن النورة من النعيم فكرهتها.

ـ عن قتادة قال: كان الخلفاء لا يتنورون، أبو بكر وعمر وعثمان.

ـ عن عمر بن عبد العزيز أنه قال رأيت النبي، ﷺ في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فقال لي: يا عمر إن وليت من أمر الناس شيئاً فخذ بسيرة هذين.

ـ عن سالم قال: كان عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر لا يعرف فيهما البر حتى يقولا أو يفعلا، قال قلت يا أبا بكر ما تعني بذلك؟ قال: لم يكونا مؤنثين ولا متماوتين.

ـ عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود قال: كان البر لا يعرف في عمر ولا في ابنه حتى يقولا أو يفعلا.

ـ قال معن: إن عمر بن الخطاب كان يسير ببعض طريق مكة، وقال عبد الله بن مسلمة عن عمه أنه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راعٍ في جبل فعدل إليه فلما دنا منه صاح: يا راعي الغنم فأجابه الراعي فقال: يا راعيها، فقال عمر: إني قد مررت بمكان هو أخصب من مكانك وإن كل راع مسؤول عن رعيته. ثم عدل صدور الركاب.

ـ عن أبي الحتيكة قال: سئل عمر عن شيء فقال: لولا إني أكره أن أزيد في الحديث أو أنتقص منه لحدثتكم به.

ـ عن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب يوماً وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله بني الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك.

ـ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: إن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أيمتهم وهداتهم.

ـ عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رتع الإمام رتعوا.

ـ عن زيد بن أسلم قال: أخبرني أسلم أبي أن عبد الله بن عمر قال: يا أسلم أخبرني عن عمر، قال: فأخبرته عن بعض شأنه فقال عبد الله: ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله ﷺ من حين قبض كان أجد ولا أجود حتى انتهى من عمر.

ـ عن عاصم قال: سمعت أبا عثمان النهدي يقول: والذي لو شاء أن تنطق قناتي نطقت لو كان عمر بن الخطاب ميزاناً ما كان فيه ميط شعرة.

ـ أخبرنا أبو عمير الحارث بن عمير عن رجل أن عمر بن الخطاب رقي المنبر وجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني وما لي من أكل يأكله الناس إلا أن لي خالات من بني مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب. قال ثم نزل عن المنبر فقيل له: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ إني وجدت في نفسي شيئاً فأردت أن أطأطئ منها.

ـ قال سفيان بن عيينه: قال عمر بن الخطاب: أحب الناس إلي من رفع إليَّ عيوبي.

ـ عن أنس بن مالك أن الهرمزان رأى عمر مضطجعاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال: هذا والله الملك الهنيء.

ـ عن زيد بن أسلم قال: رأيت عمر بن الخطاب يأخذ بأذن الفرس ويأخذ بيده الأخرى أذنه ثم ينزوي على متن الفرس.

ـ عن عطاء قال: كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافقوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم. فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟! قم فاقتنص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه، قال: فدعنا فلنرضه، قال:

دونكم فأرضوه. فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينار.

ـ عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال: كان عمر بن الخطاب يعس المسجد بعد العشاء فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه إلا رجلاً قائماً يصلي.. فمر بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم أبي بن كعب فقال: من هؤلاء؟! قال أبي: نفر من أهلك يا أمير المؤمنين. قال: ما خلفكم بعد الصلاة؟! قال: جلسنا نذكر الله، قال فجلس معهم ثم قال لأدناهم إليه.. خذ، قال فدعا فاستقرأهم رجلاً رجلاً يدعون حتى انتهى إلي وأنا إلى جنبه فقال: هات: فحصرت وأخذني من الرعدة أفكل حتى جعل يجد مس ذلك مني، ولو أن تقول اللَّهم اغفر لنا، اللَّهم ارحمنا، قال ثم أخذ عمر فما كان في القوم أكثر دمعة ولا أشد بكاء منه ثم قال: أيها الآن فتفرقوا.

ـ عن الزهري قال: كان عمر بن الخطاب يجلس متربعاً ويستلقي على ظهره ويرفع إحدى رجليه على الأخرى.

ـ وعن الزهري قال: قال عمر بن الخطاب: إذا أطال أحدكم الجلوس في المسجد فلا عليه أن يضع جنبه فإنه أجدر أن لا يمل جلوسه.

ـ وعن محمد بن سيرين قال: قتل عمر ولم يجمع القرآن.

ـ عن جبير بن الحويرث بن نقيد أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال له علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسمع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنوداً، فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم

وكانوا من نساب قريش فقال: اكتبوا على منازلهم، فكتبوا فبدأوا ببني هاشم ثم أتبعوه أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا ولكن ابدأوا بقرابة النبي ﷺ، الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

ـ عن زيد بن أسلم قال: رأيت عمر بن الخطاب حين عرض عليه الكتاب، وبنو تميم على أثر بني هاشم، وبنو عدي على أثر بني تيم فأسمعه يقول: ضعوا عمر موضعه وابدأوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ، فجاءت بنو عدي إلى عمر فقالوا: أنت خليفة رسول الله ﷺ، أو خليفة أبي بكر وأبو بكر خليفة رسول الله، عليه السلام، قالوا: وذاك فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم، قال: بخ بخ عدي.. عدي أردتم الأكل على ظهري لأن أذهب حسناتي لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن أطبق عليكم الدفتر، يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس، إن لي صاحبين سلكا طريقاً فإن خالفتهما خولف بي، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على ما عملنا إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب، إن العرب شرفت برسول الله، ولو أن بعضنا يلقاه إلى آباء كثيرة وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفاقه إلى آدم إلا أباء يسيرة مع ذلك، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة ويعمل لما عند الله، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه.

ـ قالوا: لما أجمع عمر بن الخطاب على تدوين الديوان وذلك في المحرم من سنة عشرين بدأ ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ. فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ، قدم أهل

السابقة حتى انتهى إلى الأنصار فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال عمر: ابدأوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ، وفرض عمر لأهل الديوان ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، وكان أبو بكر الصديق قد سوى بين الناس في القسم فقيل لعمر في ذلك فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه.. فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم لقرابته برسول الله ﷺ.

ـ قال: وقد روى بعضهم أنه فرض له سبعة آلاف درهم، وقال سائرهم: لم يفضل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ، فإنه فرض لكل امرأة منهن إثني عشر ألف درهم، جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي فيهن، هذا المجتمع عليه، وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة آلاف درهم، وفرض لمسلمي الفتح لكل رجل منهم ألفين وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمي الفتح، وفرض لعمر بن أبي سلمة أربعة آلاف درهم فقال محمد بن عبد الله بن جحش: لِمَ تفضل عمر علينا فقد هاجر آباؤنا وشهدوا؟ فقال عمر: أفضله لمكانه من النبي ﷺ، فليأت الذي يستعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم فقال عبد الله بن عمر: فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة في أربعة آلاف وقد شهدت ما لم يشهد أسامة، فقال

عمر: زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله عليه السلام منك وكان أبوه أحب إلى رسول الله عليه السلام من أبيك. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل، وفرض للمحررين معهم، وفرض لأهل اليمن وقيس وبالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة لم ينقص أحداً من ثلاثمائة. وقال: لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألف لسفره وألف لسلاحه وألف يخلفها لأهله وألف لفرسه وبغله، وفرض لنساء مهاجرات، فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم، ولأسماء ابنة عميس ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم، وقد روي أنه فرض للنساء المهاجرات ثلاثة آلاف درهم لكل واحدة، وأمر عمر فكتب له عيال أهل العوالي فكان يجري عليهم القوت، ثم كان عثمان فوسَّع عليهم في القوت والكسوة، وكان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده، وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيراً ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال.

ـ عن حزام بن هشام الكعبي عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي.

ـ عن محمد بن زيد قال: كان ديوان حمير على عهد عمر على حده.

ـ عن جهم بن أبي جهم قال: قدم خالد بن عرفطة العذري على عمر فسأله عما وراءه فقال: يا أمير المؤمنين تركت من ورائي يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم ما وطئ أحد القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة.. وما من مولود يولد إلا ألحق على مائة وجريبين كل شهر ذكراً كان أو أنثى وما يبلغ لنا ذكر إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام، فما ظنك به؟! فإنه لينفقه في ما ينبغي وفي ما لا ينبغي، قال عمر: فالله المستعان إنما هو حقهم أعطوه وأنا سعيد بأدائه إليهم منهم بأخذه، فلا تحمدني عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه ولكني قد علمت أن فيه فضلاً ولا ينبغي أن أحبسه عنهم، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العريب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها فإني، ويحك يا خالد بن عرفطة، أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لا يعد العطاء في زمانهم مالاً، فإن بقي أحد منهم أو أحد من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتكئون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم، قال رسول الله ﷺ، من مات غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنة.

ـ عن الحسن قال: كتب عمر إلى حذيفة أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتبت إليه: إني قد فعلت وبقي شيء كثير، فكتب إليه عمر أنه فيؤهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، إقسمه بينهم.

ـ عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: والذي لا إله إلا هو، ثلاثاً، ما من الناس أحد إلا له في هذا المال حق أُعطِيه أو مُنِعه، وما أحد بأحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدهم

ولكنَّا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه، قال إسماعيل بن محمد: فذكرت ذلك لأبي فعرف الحديث.

ـ عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ما على الأرض مسلم لا يملكون رقبته إلا له في هذا الفيء حق أُعطيه أو مُنِعه، ولئن عشت ليأتين الراعي باليمن حقه قبل أن يحمر وجهه، يعني في طلبه.

ـ عن أبي هريرة أنه قدم على عمر من البحرين، قال أبو هريرة: فلقيته في صلاة العشاء الآخرة فسلمت عليه فسألني عن الناس، ثم قال لي: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم، قال: ماذا تقول؟ قلت: مائة ألف، مائة ألف، مائة ألف، حتى عددت خمساً قال: إنك ناعس فارجع إلى أهلك فنم فإذا أصبحت فأْتني فقال، أبو هريرة: فعدوت إليه، فقال: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمائة ألف درهم قال عمر: أطيب؟ قلت: نعم لا أعلم إلا ذلك. فقال للناس: إنه قد قدم علينا مال كثير فإن شئتم أن نعد لكم عدداً وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً يعطون الناس عليه، قال: فدون الديوان وفرض للمهاجرين الأولين في خمسة آلاف خمسة آلاف، وللأنصار في أربعة آلاف أربعة آلاف ولأزواج النبي عليه السلام، في اثني عشر ألفاً.

ـ عن برزة بنت رافع قالت: لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب

بنت جحش بالذي لها، فلما دخل عليها قالت: غفر الله لعمر! غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني، فقالوا هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب، قالت صبوه واطرحوه عليه ثوباً، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمها وأيتامها فقسمته حتى بقية تحت الثوب فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين! والله لقد كان لنا في هذا حق.. فقالت: فلكم ما تحت الثوب.. قالت: فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللَّهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا فماتت.

ـ عن أبي عمر قال: قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلّى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك، إني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟! قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، إني أريغه عن الفطام فيأبى قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطم، قال: وكم له: قالت! كذا وكذا شهر، قال: ويحك لا تعجليه! فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسنا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين! ثم أمر منادياً فنادى ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنَّا نفرض لكل مولود في الإسلام. وكتب بذلك إلى الآفاق.. أنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال استشارهم عمر في العطاء بمن يبدأ

فقالوا: ابدأ بنفسك. قال فبدأ بالأقارب من رسول الله ﷺ قبل قومه.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحداً.

ـ وعن زيد بن أسلم عن أبيه أنه سمع عمر بن الخطاب قال: لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم.

ـ عن عمر قال: لئن عشت حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف، ألف لكراعه وسلاحه، وألف نفقة له، وألف نفقة لأهله.

ـ عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: لو قد علمت نصيبي من هذا الأمر لأتى الراعي بسروات حمير نصيبه وهو لا يعرق جبينه فيه.

ـ عن عمرو قال: قسم عمر بن الخطاب بين أهل مكة مرة عشرة عشرة فأعطى رجلاً فقيل: يا أمير المؤمنين إنه مملوك، قال: ردوه، ردوه، ثم قال: دعوه.

ـ عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال، قال عمر: إني لأرجو أن أكيل لهم المال بالصاع.

ـ عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف بعير، يحمل الرجل إلى الشام على بعير ويحمل الرجلين إلى العراق على بعير، فجاءه رجل من أهل العراق قال: احملني وسحيماً فقال عمر: أنشدك الله أسحيم زق؟ قال نعم.

ـ عن عائشة قالت: كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأخطائنا حتى من الرؤوس والأكارع.

ـ عن عبد الله بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب لأزيدنهم ما زاد المال، لأعدنه لهم عداً، فإن أعياني لأكيلنه لهم كيلاً، فإن أعياني حثوته بغير حساب.

ـ أخبرنا الحسن قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى: أما بعد فأعلم يوماً في السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحاً حتى يعلم الله أني قد أديت إلى كل ذي حق حقه، قال الحسن: فأخذ صفوها وترك كدرها حتى ألحقه الله بصاحبيه.

ـ قال ابن عباس: دعاني عمر بن الخطاب فأتيته فإذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثا، قال: يقول ابن عباس، أخبرنا زهير، هل تدري ما حثا؟ قال قلت: لا، قال: التبر، قال: هلم فأقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه عليه السلام، وعن أبي بكر فأعطيته لخير أعطيته أو لشر، قال فأكببت عليه أقسم وأزيل، قال فسمعت البكاء، قال فإذا صوت عمر يبكي ويقول في بكائه: كلا والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه عليه السلام وعن أبي بكر إرادة الشر لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له.

ـ عن محمد بن سيرين أن صهراً لعمر بن الخطاب قدم على عمر فعرض له أن يعطيه من بيت المال فانتهره عمر وقال: أردت ألقى الله ملكاً خائناً، فلما كان بعد ذلك أعطاه من صلب ما له عشرة آلاف درهم.

ـ عن سالم أبي عبد الله قال: فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحداً من الناس إلا فرض له حتى بقيت بقية لا عشائر لهم ولا موالي ففرض لهم ما بين المائتين وخمسين إلى ثلاثمائة.

ـ عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب فرض لأهل بدر من المهاجرين من قريش والعرب والموالي خمسة آلاف. خمسة آلاف وللأنصار ومواليهم أربعة آلاف، أربعة آلاف.

ـ عن مصعب بن سعد أن عمر أول من فرض الأعطية، فرض لأهل بدر والمهاجرين والأنصار ستة آلاف ستة آلاف. وفرض لأزواج النبي عليه السلام، ففضل عليهن عائشة، فرض لها في اثني عشر ألفاً ولسائرهن عشرة آلاف عشرة آلاف غير جويرية وصفية فرض لهما في ستة آلاف ستة آلاف، وفرض لمهاجرات الأول: أسماء بنت عميس وأسماء بنت أبي بكر وأم عبد، أم عبد الله بن مسعود ألفاً ألفاً.

ـ روي عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر: لئن عشت لأجعلن عطاء المسلمين ثلاثة آلاف.

ـ قال عمر: لئن عشت لأجعلن عطاء سفلة الناس ألفين.

ـ عن عبد الله بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب: والله لأزيدن الناس ما زاد المال، لأعدن لهم عداً فإن أعياني كثرته لأحثون لهم حثواً بغير حساب، هو مالهم يأخذونه.

ـ عن حارثة بن مضر أن عمر أمر بجريب من طعام فعجن ثم خبز ثم ثرد، ثم دعا عليه ثلاثين رجلاً فأكلوا منه، ثم فعل في العشاء مثل ذلك، ثم قال، يكفي الرجل جريبان كل شهر، فرزق الناس جريبين كل شهر، المرأة والرجل والمملوك جريبان كل شهر.

ـ عن ابن المسيب عن عمر أنه قال: أيما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته.

ـ عن الزهري عن عمر قال: إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه.

ـ عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب عن أبيه عن عمر قال: لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه.

ـ عن أبي وجزة عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب يحمي النقيع لخيل المسلمين ويحمي الربذة والشرف لإبل الصدقة، يحمل على ثلاثين ألف بعير في سبيل الله كل سنة.

ـ عن زيد بن شريك الغزاري قال: علقت عمر بن الخطاب يحمل على ثلاثين ألف بعير كل حول في سبيل الله، وعلى ثلاثمائة فرس، وكانت الخيل ترعى في النقيع.

ـ عن السائب بن زيد قال: رأيت خيلاً عند عمر بن الخطاب رحمه الله موسومة في أفخاذها: حبيس في سبيل الله.

ـ وعن السائب أيضاً قال: رأيت عمر بن الخطاب السنة يصلح أداة الإبل التي يحمل عليها في سبيل الله برادعها وأقتابها، فإذا حمل الرجل على البعير جعل معه أداته.

ـ عن عبد الله بن المزني عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب استأذنه أهل الطريق يبنون ما بين مكة والمدينة فأذن لهم وقال: ابن السبيل أحق بالماء والظل.

ـ عن أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب أنه كان يغزي الأعزب عن ذي الحليلة، ويغزي الفارس عن القاعد.

ـ عن خارجة بن كعب عن أبيه عن عمر بن الخطاب أنه كان يعقب بين الغزاة وينهى أن تحمل الذرية إلى الثغور.

ـ عن سفيان بن أبي العوجاء قال: قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك، فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم، قال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً، قال ما هو؟! قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق، فأنت بحمد الله كذلك.

ـ عن ابن عمر أن عمر أمر عماله فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقاص، فشاطرهم عمر أموالهم فأخذ نصفاً وأعطاهم نصفاً.

ـ عن الشعبي أن عمر كان إذا استعمل عاملاً كتب ماله.

ـ عن أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: مكث عمر زماناً لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه في خصائصه، وأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فاستشارهم فقال: قد شغلت نفسي في هذا الأمر، فما يصلح لي منه، فقال عثمان بن عفان: كل وأطعم، قال: وقال ذلك سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل، وقال لعلي: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداء وعشاء، قال: فأخذ عمر بذلك.

ـ عن سعيد بن المسيب أن عمر استشار أصحاب النبي ﷺ: فقال والله لأطوقنكم من ذلك طوق الحمامة، ما يصلح لي من هذا المال؟ فقال علي: غداء وعشاء. قال: صدقت.

ـ عن ابن عمر قال: كان عمر يقوت نفسه وأهله ويكتسي الحلة في الصيف، ولربما خرق الإزار حتى يرقعه فما يبدل مكانه حتى يأتي الإبان وما من عام يكثر فيه المال إلا كسوته فيما أرى أدنى من العام الماضي فكلمته في ذلك حفصة فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين وهذا يبلغني.

ـ حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله وأنه أنفق في حجته ثمانين ومائة درهم.

ـ عن ابن الزبير قال: أنفق عمر ثمانين ومائة درهم فقال: لقد أسرفنا في هذا المال.

ـ عن ابن عمر أن عمر أنفق في حجته ستة عشر ديناراً فقال: يا عبد الله بن عمر أسرفنا في هذا المال، قال: وهذا مثل الأول على صرف اثني عشر درهماً بدينار.

ـ عن عائشة قالت: لما ولي عمر أكل هو وأهله من المال واحترف في مال نفسه.

ـ عن ابن عمر قال: أهدى أبو موسى الأشعري لامرأة عمر عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل طنفسة أراها تكون ذراعاً وشبراً فدخل عليها عمر فرآها فقال: أنّى لك هذه؟ فقالت: أهداها لي أبو موسى الأشعري، فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى فغص رأسها ثم قال: علي بأبي موسى الأشعري وأتعبوه. قال فأتى به قد أتعب وهو يقول: لا تعجل علي يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ما يحملك على أن تهدي لنسائي، ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال.. قال لي عمر: يا أسلم أمسك على الباب ولا تأخذن من أحد شيئاً، قال: فرأى علي يوماً ثوباً جديداً فقال: من أين لك هذا؟! قلت: كسانيه عبيد الله بن عمر، فقال: أما عبيد الله فخذه منه، وأما غيره فلا تأخذن منه شيئاً، قال أسلم: فجاء الزبير وأنا على الباب فسألني أن يدخل فقلت: أمير المؤمنين مشغول ساعة. فرفع يده فضرب خلف أذني ضربة صيحتني، قال: فدخلت على عمر فقال: مالك؟ فقلت: ضربني الزبير، وأخبرته خبره، قال فجعل عمر يقول: الزبير والله أرى، ثم قال أدخله، فأدخلته على عمر فقال عمر: لم ضربت هذا الغلام؟ فقال الزبير: زعم أنه سيمنعنا من الدخول عليك، فقال عمر: هل ردك عن بابي قط؟ قال: لا، قال عمر: فإن قال لك اصبر ساعة فإن أمير المؤمنين

مشغول لم تعذرني، إنه والله إنما يدمي السبع للسباع فتأكله.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت: إنه نائم، فقال: يا أسلم كيف تجدون عمر؟! فقلت: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم.. فقال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه.

ـ عن عبد الله بن عون بن مالك الدار عن أبيه عن جده قال: صاح علي عمر يوماً وعلاني بالدرة. فقلت أذكرك بالله، قال فطرحها وقال: لقد ذكرتني عظيماً.

ـ عن ابن عمر قال: ما رأيت عمر غضب قط فذكر الله عنده أو خوف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما كان يريد.

الفاروق عمر بن الخطاب

(٤)

حدثني حزام بن هشام عن أبيه قال: لما صدر الناس عن الحج سنة ثماني عشرة أصاب الناس جهد شاق وأجدبت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا حتى كان الناس يرون يشتفون الرمة ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها.

ـ عن عوف بن الحارث عن أبيه قال: سمي ذلك العام عام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت بالرماد وكانت تسعة أشهر.

ـ عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص عام الرمادة: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلام عليك. أما بعد أفتراني هالكاً ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا عوناه، فلاناً. قال فكتب إليه عمرو بن العاص. بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد أتاك الغوث فلبت لبت، لأبعثن إليك بعيراً أولها عندك وآخرها عندي. قال فلما قدم

(*) الجزء الرابع من محاضرات المؤلف عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

أول الطعام كلم عمر بن الخطاب الزبير بن العوام فقال له: تعترض للعير فتمليها إلى أهل البادية فتقسمها بينهم، فوالله لعلّك ألا تكون أصبت بعد صحبتك رسول الله ﷺ، شيئاً أفضل منه. قال وأقبل رجل من أصحاب النبي ﷺ، فقال عمر: لكن هذا لا يأبى، فكلمه عمر ففعل وخرج فقال له عمر: أما ما لقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية، فأما الظروف فاجعلها لهم يلبسونها وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحمون من ودكها ولا تنتظر أن يموتوا ننتظر بها الحياة، وأما الدقيق فيصطنعون ويحررون حتى يأتي أمر الله لهم بالفرج. وكان عمر يصنع الطعام وينادي مناديه. من أحب أن يحضر طعاماً فيأكل فليفعل ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله مبات فليأخذه.

ـ حدثني موسى بن طلحة قال: كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن أبعث إلينا بالطعام على الإبل وابعث في البحر، فبعث عمرو على الإبل فلقيت الإبل بأقواد الشام فعدل بها رسله يميناً وشمالاً ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق ويكسون العباء. وبعث رجلاً إلى الجار إلى الطعام الذي بعث به عمرو من مصرفي البحر فحمل إلى أهل تهامة يطعمونه.

ـ حدثني حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت رسل عمر ما بين مكة والمدينة يطعمون الطعام من الجار، وبعث إليه يزيد بن أبي سفيان من الشام بطعام، قال ابن سعد: هذا غلط، يزيد أبن أبي سفيان كان قد مات يومئذ، وإنما كتب إلى معاوية، فبعث إليه من يتلقاها بأفواه الشام يصنع به كالذي يصنع رسل عمر ويطعمون الناس الدقيق وينحرون لهم الجزر ويكسونهم العباء وبعث إليه سعد بن أبي وقاص من العراق بمثل ذلك، فأرسل إليه من لقيه بأفواه العراق فجعلوا ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق ويكسونهم العباء حتى رفع الله ذلك من المسلمين.

ـ حدثني عبد الله بن عون المالكي عن أبيه عن جده قال: كتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره أن يبعث إليه من الطعام، فبعث عمرو في البر والبحر وكتب إلى معاوية: إذا جاءك كتابي هذا فابعث إلينا من الطعام بما يصلح من قبلنا فإنهم قد هلكوا إلا أن يرحمهم الله، قال ثم بعث إلى سعد يبعث إليه فبعث إليه، قال فكان عمر يطعم الناس الثريد، الخبز يأدمه بالزيت قد أفير من الفور في القدور وينحر بين الأيام الجزور على الثريد، وكان عمر يأكل مع القوم كما يأكلون.

ـ حدثني عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر. قال فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً فأطعمها الناس، وعرفوا له طيبها فأتى به فإذا قدر من سنام ومن كبد فقال: أنّى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليوم، قال بخ بخ بئس الوالي إن أنا أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام، قال فأتى بخبز وزيت، قال فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرفا! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم.

ـ حدثني عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول: اللَّهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي.

ـ قال: سمعت السائب بن يزيد يقول: ركب عمر بن الخطاب عام

الرمادة دابة فراثت شعيراً فرآها عمر فقال: المسلمون يموتون هولاً وهذه الدابة تأكل الشعير؟ لا والله لا أركبها حتى يحيا الناس.

ـ عن محمد بن يحيى بن حبان قال: أتى عمر بن الخطاب بخبز مقتوت بسمن عام الرمادة فدعا رجلاً بدوياً فجعل يأكل معه، فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الودك، فقال: أجل ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت أكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم، فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس أول ما أحيوا.

ـ عن ابن طاؤوس عن أبيه قال: لم يأكل عمر بن الخطاب سمناً ولا سميناً حتى أحيا الناس.

ـ عن أنس بن مالك قال: تقرقر بطن عمر بن الخطاب وكان يأكل الزيت عام الرمادة، وكان حرم عليه السمن، فنقر بطنه بإصبعه، قال: تقرقر. تقرقرك إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس.

ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لتمرنن أيها البطن على الزيت ما دام السمن يباع بالأواق.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: أصاب الناس عام سنة فضلا فيها السمن وكان عمر يأكله فلما قل قال: لا آكله حتى يأكله الناس.. فكان يأكل الزيت، فقال: يا أسلم أكسر عني حره بالنار، فكنت أطبخه له فيأكله فيتقرقر بطنه عنه فيقول تقرقر لا والله لا نأكله حتى يأكله الناس.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب حرم على نفسه اللحم عام الرمادة حتى يأكله الناس، فكان لعبيد الله بن عمر بهمة فجعلت في التنور فخرج على عمر ريحها فقال: ما أظن أحداً من أهلي اجترأ علي،

وهو في نفر من أصحابه، فقال: اذهب فانظر فوجدتها في التنور فقال عبيد الله: استرني سترك الله! فقال: قد عرف حين أرسلني أن لن أكذبه، فاستخرجها ثم جاء بها فوضعها بين يديه وأعتذر إليه أن تكون كانت بعلمه، وقال عبيد الله: إنما كانت لابنتي اشتريتها فقرمت إلى اللحم.

ـ سمع أبو هريرة يقول: يرحم الله ابن حنتمة، لقد رأيته عام الرمادة، وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أين يا أبا هريرة..؟ قلت؟ قلت: قريباً قال فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى إصرار فإذا صرم نحو من عشرين بيتاً من محارب فقال عمر: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، قال اخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كانوا يسفونها فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاءه بأبعرة فحملتهم حتى رفع الله ذلك.

ـ حدثني حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مر على امرأة وهي تعصد عصيدة لها فقال: ليس هكذا تعصدين ثم أخذ المسوط فقال: هكذا، فأراها.

ـ عن هشام بن خالد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا تذرين إحداكن الدقيق حتى يسخن الماء ثم تذره قليلاً وتسوطه بمسوطها فإنه أريع له وأحرى ألا يتقرد.

ـ عن عياض بن خليفة قال: رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض، فتقول: مم ذا: فيقول: كان رجلاً عربياً وكان يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرمها حتى يحيوا فأكل بالزيت فغير لونه وجاع فأكثر.

ـ حدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كنا نقول: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين.

ـ قال: حدثني يزيد بن فراس الديلي عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب ينحر كل يوم على مائدته عشرين جزوراً من جزر بعث بها عمرو بن العاص من مصر.

ـ عن عيسى بن عبد الله بن مالك الدار عن أبيه عن جده قال: كما كتب عمر إلى عمرو بن العاص يبعث الطعام في البر والبحر بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك. وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق. وبعث إليه عمرو بن العاص بخمسة آلاف كساء. وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق.

ـ عن عيسى بن معمر قال: نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هارباً وبكى فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك فقالوا اشتراها بكف من نوى.

ـ قال: عن عجوز من جهينة أدركت عمر بن الخطاب وهي جارية قالت: سمعت أبي وهو يقول: سمعت عن عمر بن الخطاب وهو يطعم الناس زمن الرمادة يقول: نطعم ما وجدنا أن نطعم فإن أعوزنا جعلنا مع اهل كل بيت ممن يجد عدتهم ممن لا يجد إلى أن يأتي الله بالحيا.

ـ عن ابن عمر أن عمر قال: لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بحيا فعلت، فإنهم لن يهلكوا عن أنصاف بطونهم.

ـ عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول بعدما رفع الله المحل في الرمادة: لو لم يرفعه الله لجعلت مع كل أهل بيت مثلهم.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كان عام الرمادة تجلبت العرب من كل ناحية فقدموا المدينة فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم فكان يزيد ابن أخت النمر، وكان المسور بن مخرمة، وكان عبد الرحمن بن عبد القاري، وكان عبد الله بن عتيبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فيخبرونه بكل ما كانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكان الأعراب حلول فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة محدقون بالمدينة، فسمعت عمر يقول ليلة وقد تعشى الناس عنده أحصوا من تعشى عندنا، فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل. أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان. فاحصوا فوجدهم أربعين ألفاً. ثم مكثنا ليالي فزاد الناس فأمرهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفاً، فما برحوا حتى أرسل الله السماء، فلما مطرت رأيت عمر قد وكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحيتهم يخرجون إلى البادية ويعطونهم قوتاً وحملاناً إلى باديتهم. ولقد رأيت عمر يخرجهم هو بنفسه. قال أسلم: وقد كان وقع فيهم الموت فأراه مات ثلثاهم وبقي ثلث، وكان قدور عمر يقوم إليها العمال في السحر يعملون الكركور حتى يصيحوا ثم يطعمون المرضى منهم ويعملون العصائد، وكان عمر يأمر بالزيت فيغار في القدور الكبار على النار حتى يذهب حمته وحره ثم يثرد الخبز ثم يؤلم بذلك الزيت، فكانت العرب يحمون من الزيت، وما أكل عمر في بيت أحد من ولده ولا

بيت أحد من نسائه ذواقاً زمان الرمادة إلا ما يتعشى مع الناس حتى أحيا الله الناس أول ما أحيوا.

ـ عن بشير بن أوس بن الحدثان قال: لما كان عام الرمادة قدم على عمر قومي مائة بيت فنزلوا بالجبانة فكان عمر يطعم الناس من جاءه ومن لم يأت أرسل إليه بالدقيق والتمر والأدم إلى منزله. فكان يرسل إلى قومي بما يصلحهم شهراً بشهر وكان يتعاهد مرضاهم وأكفان من مات منهم، لقد رأيت الموت وقع فيهم حين أكلوا الثقل. وكان عمر يأتي بنفسه فيصلي عليهم، قد رأيته صلَّى على عشرة جميعاً، فلما أحيوا قال: أخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم في البرية.. فجعل عمر يحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم.

ـ عن عبد الله بن عمر قال: رأيت عمر بن الخطاب يتحلب فوه فقلت له: ما شأنك: فقال اشتهي جراداً مقلياً.

ـ عن ابن عمر قال: ذكر لعمر جراد بالربذة فقال: لوددت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين فنأكل منه.

ـ وعن ابن عمر قال: سمعت عمر يقول على المنبر.. وددت أن عندنا خصفة أو خصفتين من جراد فأصبنا منه.

ـ عن أنس بن مالك قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذٍ أمير المؤمنين يطرح له من صاع من تمر فيأكلها حتى يأكل حشفها.

ـ قال: حدثنا أنس أنه رأى عمر أكل صاعاً من تمر بحشفه، وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر مثل ذلك.

ـ عن عاصم بن عبد الله بن عاصم أن عمر كان يمسح بنعليه ويقول: إن مناديل آل عمر نعالهم.

ـ عن السائب بن يزيد قال: ربما تعشيت عند عمر بن الخطاب فيأكل الخبز واللحم ثم يمسح يده على قدمه ثم يقول: هذا منديل عمر وآل عمر.

ـ عن أنس قال: كان أحب الطعام إلى عمر الثفل وأحب الشراب إليه النبيذ.

ـ عن الحسن قال: ما أدهن عمر بن الخطاب حتى قتل إلا بسمن أو إهالة أو زيت مقتت.

ـ عن الأحوس بن حكيم عن أبيه قال: أتى عمر بلحم فيه سمن فأبى أن يأكلها وقال: كل واحد منهما أدم.

ـ عن أبي حازم قال: دخل عمر بن الخطاب على حفصة ابنته فقدمت إليه مرقاً بارداً وخبزاً وصبت في المرق زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد لا أذوقه حتى ألقى الله.

ـ عن الحسن أن عمر دخل على رجل فاستسقاه وهو عطشان. فأتاه بعسل فقال: ما هذا؟

ـ قال: عسل، قال: والله لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة.

ـ عن السائب بن يزيد عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ، زمان الرمادة وهو يقول: اللَّهم لا تهلكنا بالسنين وارفع عنا البلاء، يردد هذه الكلمة.

ـ عن يسار بن نمير قال: ما نخلت لعمر الدقيق قط إلا وأنا له عاص.

ـ عن السائب بن يزيد قال: رأيت على عمر بن الخطاب إزاراً في زمن

الرمادة فيه ست عشرة رقعة ورداؤه خمس وشبر، وهو يقول: اللَّهم لا تجعل هلكة أمة محمد على رجلي.

ـ عن عبد الله بن ساعدة قال: رأيت عمر إذا صلَّى المغرب نادى: أيها الناس استغفروا ربكم ثم توبوا إليه وسلوه من فضله واستسقوا سقيا رحمة لا سقيا عذاب. فلم يزل كذلك حتى فرج الله ذلك.

ـ حدث عبد الله بن يزيد من حضر عمر بن الخطاب عام الرمادة وهو يقول: أيها الناس ادعوا الله أن يذهب عنكم المحل، وهو يطوف على رقبته درة.

ـ عن الشعبي أن عمر خرج يستسقي فقام على المنبر فقرأ هذه الآيات: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ (نوح: ١٠)، ويقول: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ (هود: ٣)، ثم نزل فقيل: يا أمير المؤمنين ما منعك أن تستسقي؟ فقال: قد طلبت المطر بمجاديح السماء التي ينزل بها القطر.

ـ عن أبي وجزة السعدي عن أبيه قال: رأيت عمر خرج بنا إلى المصلى يستسقي فكان أكثر دعائه الاستغفار حتى قلت لا يزيد عليه. ثم صلَّى فدعا الله وقال: اللَّهم اسقنا.

ـ عن عبد الله بن نياز الأسلمي عن أبيه قال: لما أجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل عنهم. قال وخرج لذلك اليوم عليه برد رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع، وجعل الناس يلحون فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مداً رداءه وجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين. ثم مد يديه وجعل يلح في الدعاء، وبكى عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته.

ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه أن عمر صلَّى بالناس عام الرمادة ركعتين قبل الخطبة وكبر فيها خمساً وسبعاً.

ـ قال عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب: يا أبا الفضل كم بقي علينا من النجوم؟ قال العواء، قال: كم بقي منها؟ قال: ثمانية أيام قال عمر: عسى الله أن يجعل فيها خيراً، وقال عمر للعباس: اغد غداً إن شاء الله. قال فلما ألح عمر بالدعاء أخذ بيد العباس ثم رفعها وقال: اللَّهم إنَّا نتشفع إليك بعم نبيك أن تذهب عنا المحل وأن تسقينا الغيث. فلم يبرحوا حتى سقوا وأطبقت السماء عليهم أياماً. فلما مطروا وأحيوا شيئاً أخرج العرب في المدينة وقال: ألحقوا ببلادكم.

ـ عن السائب بن يزيد قال: نظرت إلى عمر بن الخطاب يوماً في الرمادة غدا مبتذلاً متضرعاً عليه برد لا يبلغ ركبتيه، يرفع صوته بالاستغفار.. وعيناه تهراقان على خديه، فدعا يومئذٍ وهو مستقبل القبلة رافعاً يديه إلى السماء وعج إلى ربه فدعا ودعا الناس معه، ثم أخذ بيد العباس فقال: اللَّهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك، فما زال العباس قائماً إلى جنبه ملياً والعباس يدعو وعيناه تهملان.

ـ قال: عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: رأيت عمر أخذ بيد العباس فقام به فقال: اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك.

ـ عن سليمان بن يسار قال: خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة فقال: أيها الناس اتقوا الله في أنسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد أبليت بكم وابتليتم بي فلندع الله يصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنا المحل. قال فرئي عمر يومئذٍ رافعاً يديه يدعو الله، ودعا الناس وبكى وبكى الناس ملياً، ثم نزل.

ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر يقول: أيها الناس إني أخشى أن تكون سخطة عمتنا جميعاً فاعتبوا ربكم وانزعوا وتوبوا إليه وأحدثوا خيراً.

ـ وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كنا في الرمادة لا نرى سحاباً فلما استسقى عمر بالناس مكثنا أياماً ثم جعلنا نرى قزع السحاب وجعل عمر يظهر التكبير كلما دخل ويكبر الناس حتى نظرنا إلى سحابة سوداء طلعت من البحر ثم تشاءمت فكانت الحياة بإذن الله.

ـ عن أبي وجزة السعدي عن أبيه قال: كانت العرب قد علمت اليوم الذي استسقى فيه عمر وقد بقيت غبرات منهم فخرجوا يستقون كأنهم النسور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله.

ـ حدثنا سعيد بن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن جده قال: رأيت عمر بن الخطاب حين وقع المطر عام الرمادة يخرج الأعراب يقول: اخرجوا اخرجوا الحقوا ببلادكم.

ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر أخر الصدقة عام الرمادة فلم يبعث السعاة، فلما كان قابل، ورفع الله ذلك الجدب، أمرهم أن يخرجوا فأخذوا عقالين فأمرهم أن يقسموا عقالاً ويقدموا عليه بعقال.

ـ عن حوشب بن بشر الغزاري عن أبيه قال: رأيتنا عام الرمادة وحصت السنة أموالنا فيبقى عند العدد الكثير الشيء الذي لا ذكر له فلم يبعث عمر تلك السنة السعاة. فلما كان قابل بعثهم فأخذوا عقالين فقسموا عقالاً وقدموا عليه بعقال، فما وجد في مبنى فزارة كلها إلا ستين فريضة، فقسم ثلاثون وقدم عليه بثلاثين، وكان عمر يبعث السعاة فيأمرهم أن يأتوا الناس حيث كانوا.

ـ عن كردم أن عمر بعث مصدقاً عام الرمادة فقال: أعط من أبقت له السنة غنماً وراعياً ولا تعط من أبقت له السنة غنمين وراعيين.

ـ قال: سمعت يزيد بن شريك الغزاري يقول: أنا في زمن عمر بن الخطاب أرعى البهم، قلت: من كان يبعث عليكم؟ قال: مسلمة بن مخلد، وكان يأخذ الصدقة من أغنيائنا فيردها على فقرائنا.

ـ عن زر بن حبيش قال: رأيت عمر بن الخطاب خرج مخرجاً لأهل المدينة رجل آدم، طويل، أعسر، أيسر، أصلع وملبب برداً له قطرياً، يمشي حافياً مشرفاً على الناس كأنه راكب على دابة، وهو يقول: يا عباد الله، هاجروا ولا تهجروا واتقوا الأرنب أن يحذفها أحدكم بالعصا أو يرسلها بالحجر ثم يقوم بأكلها ولكن ليذك لكم الأسد الرماح والنبل.

ـ سئل عاصم عن قوله هاجروا ولا تهجروا فقال: كونوا مهاجرين حقاً ولا تشبهوا بالمهاجرين ولستم منهم.

ـ قال محمد بن عمر: هذا الحديث لا يعرف عندنا، إن عمر كان آدم إلا أن يكون رآه عام الرمادة فإنه كان تغير لونه حين أكل الزيت.

ـ عن عياض بن خليفة قال: رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فيقال مم ذا؟ فيقول: كان رجلاً عربياً وكان يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرمها فأكل الزيت حتى غير لونه وجاع فأكثر.

ـ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر رجلاً أبيض أمهق، تعلوه حمرة، طوالاً، أصلع.

ـ عن القاسم بن محمد قال: سمعت بن عمر يصف عمر يقول رجل أبيض تعلوه حمرة طوالاً. أصلع أشيب.

ـ عن سالم بن عبد الله قال: سمعت بن عمر يقول: إنما جاءتنا الأدمة من قبل أخوالي وأم عبد الله بن عمر زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن جذافة بن جمح، قال والخال انزع شيء، وجاءني البضع من أخوالي فهاتان الخصلتان لم تكونا في أبي، رحمه الله، كان أبي أبيض لا يتزوج النساء لشهوة ألا يطلب الولد.

ـ أخبرنا حزام بن هشام عن أبيه قال: ما رأيت عمر مع قوم قط إلا رأيت أنه فوقهم.

ـ عن عبيد بن عمير قال: كان عمر يفوق الناس طولاً.

ـ عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: كان عمر رجلاً أيسر.

ـ سمع أبو التياح يحدث في مجلس الحسن قال: لقي رجل راعياً فقال له أشعرت أن ذاك الأعسر الأيسر أسلم؟ يعني عمر فقال: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ قال: نعم، قال: أما والله ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شراً.

ـ أخبرنا مسلمة بن قحيف، قال رأيت عمر رجلاً ضخماً.

ـ عن هلال قال: رأيت عمر رجلاً جسيماً كأنه من رجال بني سدوس.

ـ عن هلال بن عبد الله قال: كان عمر يسرع ويعني في مشيته وكان رجلاً آدم كأنه من رجال بني سدوس وكان في رجليه روح.

ـ عن نافع بن جبير بن مطعم قال: صلع عمر فاشتد صلعه.

ـ عن أسلم قال: رأيت عمر إذا غضب أخذ بهذا، وأشار إلى سبلته فقال بها إلى فمه ونفخ فيه.

ـ عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن عمر بن الخطاب أتاه

رجل من أهل البادية فقال: يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا علينا في الجاهلية وأسلمنا عليها في الإسلام ثم تحمى علينا؟ فجعل عمر ينفخ ويفتل شاربه.

ـ عن عبد الله قال: ركب عمر فرساً فانكشف ثوبه عن فخذه فرأى أهل نجران بفخذه شامة سوداء فقالوا: هذا الذي نجد في كتابنا أنه يخرجنا من أرضنا.

ـ عن أبي مسعود الأنصاري قال: كنا جلوساً في نادينا فأقبل رجل على فرس يركضه يجري حتى كاد يوطئنا قال: فارتعنا لذلك وقمنا قال: فإذا عمر بن الخطاب، قال فقلنا: فمن بعدك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما أنكرتم؟ وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته.

ـ عن أنس بن مالك قال: خضب عمر بالحناء.

ـ وعن أنس أيضاً قال: كان عمر يرجل بالحناء.

ـ وله أيضاً: كان عمر يخضب بالحناء.

ـ قال أنس بن مالك: رأيت عمر بن الخطاب يرمي من جمرة العقبة وعليه إزار مرقوع بفرو، وهو يومئذٍ وال.

ـ وعن أنس قال: كان بين كتفي عمر بن الخطاب ثلاث رقاع.

ـ عن أنس قال: لقد رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع في قميص له.

ـ وعن أنس بن مالك قال: كنا عند عمر بن الخطاب وعليه قميص في ظهره أربع رقاع فقرأ فاكهة وأباً فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب.

ـ عن أبي عثمان قال: أخبرني من رأى عمر يرمي الجمرة عليه إزار قطري مرقوع برقعة من أدم.

ـ عن أبي محصن الطائي قال: رمي على عمر بن الخطاب وهو يصلي إزار فيه رقاع بعضها من أدم، وهو أمير المؤمنين.

ـ عن أبي عثمان النهدي قال: رأيت إزار عمر بن الخطاب قد رفعه بقطعة أدم.

ـ عن أنس بن مالك قال: رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت عليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأديم أحمر.

ـ عن عبيد بن عمير قال: رأيت عمر يرمي الجمار عليه إزار مرقع مقعدته.

ـ عن الحسن أن عمر بن الخطاب كان في إزاره اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. وهو أمير المؤمنين.

ـ عن عمرو بن ميمون قال: رأيت على عمر بن الخطاب يوم أصيب إزاراً أصفر.

ـ عن أبي الأشهب أن النبي ﷺ رأى على عمر قميصاً فقال: أجديد قميصك أم لبيس؟ فقال لا بل لبيس، فقال: إلبس جديداً وعش حميداً وتوف شهيداً وليعطيك الله قرة عين الدنيا والآخرة.

ـ أخبرنا أبو الأشهب عن رجل من مزينة أن رسول الله ﷺ، رأى على عمر ثوباً فقال: أجديد ثوبك هذا أم غسيل؟ قال فقال: يا رسول الله غسيل، فقال: يا عمر البس جديداً وعش حميداً وتوف شهيداً ويعطيك الله قرة عين في الدنيا والآخرة.

ـ عن عمر بن ميمون قال: أمنا عمر بن الخطاب في بت.

ـ وعن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر، لما طعن، عليه ملحفة

صفراء قد وضعها على جرحه وهو يقول: كان أمر الله قدراً مقدوراً.

ـ أخبرنا عبد العزيز بن أبي جميلة الأنصاري قال: أبطأ عمر بن الخطاب جمعة بالصلاة فخرج، فلما أن صعد المنبر اعتذر إلى الناس فقال: إنما حبسني قميصي هذا لم يكن لي قميص غيره، كان يخاط له قميص سنبلاني لا يجاوز كمه رسغ كفيه.

ـ عن بديل بن ميسرة قال: خرج عمر بن الخطاب يوماً إلى الجمعة وعليه قميص سنبلاني فجعل يعتذر إلى الناس وهو يقول: حبسني قميصي هذا.. وجعل يمد يده، يعني كميه، فإذا تركه رجع إلى أطراف أصابعه.

ـ قال: حدثني يناق بن سلمان دهقان من دهاقين قرية يقال لها كذا قال: مرّ بي عمر بن الخطاب فألقى قميصه فقال: اغسل هذا بالأشنان، فعمدت إلى قطريتين فقطعت من واحدة منهما قميصاً ثم أتيته فقلت: إلبس هذا فإنه أجمل وألين، قال: أمن مالك؟ قال قلت: من مالي، قال: هل خالطه شيء من الذمة؟ قال قلت: لا إلا خياطه، قال: أعزب، هلم إلي قميصي، قال فلبسه وأنه لأخضر من الأشنان.

ـ حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن جده قال: رأيت على عمر وهو خليفة إزاراً مرقوعاً في أربعة مواضع فوق بعض، وما علمت له إزاراً غيره.

ـ عن أنس بن مالك قال: رأيت على عمر إزاراً فيه أربع عشرة رقعة أن بعضها لادم، وما عليه قميص ولا رداء، معنم، معه الدرة يطوف في سوق المدينة.

ـ قال: أخبرنا حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت عمر يتزر فوق السرة.

ـ قال: أخبرني عامر بن عبيدة الباهلي قال: سألت أنساً عن الخز فقال: وددت أن الله لم يخلقه. وما أحد من أصحاب النبي ﷺ، إلا وقد لبسه ما عدا عمر وابن عمر.

أيها السادة..

لقد قتل عمر شهيداً مصداقاً لحديث النبي.. قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان مجوسياً، بعضهم حسبها المؤامرة، وبعضهم الحقد من الغلام المجوسي.

وقتل عمر يعيش فينا بالمثل.. خليفة راشداً شعاره.. اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة.. والسلام.

رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية

تمهيد:

قام قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الرياض بالدعوة لإقامة ندوة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية كل سنتين، وتعقد بمدينة الرياض، وقرر القسم أن تكون أول حلقة «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» خلال الفترة من ٢٣ ـ ٢٨ إبريل ١٩٧٧م.

وقد دعيت للمشاركة في هذه الحلقة باعتبار مجلة الدارة مجلة متخصصة تعنى بتراث وفكر المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية والعالم الإسلامي.

تناولت الندوة في مجموعها ستة مواضيع، وكان بحثي عن «رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية» يدخل ضمن البند الثالث وهو «الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين».

وقد عقدت الحلقة بمقر جامعة الرياض، وشارك فيها أكثر من ثمانين عالماً وأستاذاً متخصصاً في تاريخ الجزيرة العربية من بينهم لفيف من المستشرقين من كل أنحاء العالم. حيث تجاوبوا مع الدعوة التي وجهت

لهم.. وكأنها تلبية لنداء التاريخ.. من أعماق التاريخ ليتحدثوا عن مصادر التاريخ في أرض التاريخ.

وقدموا جميعاً بحوثاً جيدة تم طبعها وتوزيعها تعميماً لفائدتها العلمية.

وفيما يلي نص البحث الذي ألقيته بالندوة عن رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية.

مقـدمـة:

جزيرة العرب العريقة في التاريخ أم الإنسان الحضاري هي المعلوم في كل ثبت وبكل الإثبات، وهي المجهول فيما بعد. كانت في علم الإنسان وضعت طابعها على الدنيا كلها، بحضارة قوم عاد وثمود والأنباط وإمبراطورية ذي القرنين المصعب بن الحارث ثم جاءت الرسالة المحمدية بالقرآن الكريم، وبالفتح المبين، والفتح العظيم. تهدي الإنسان إلى الخير.. تشرع لهذا الإنسان شريعة القرآن صالحة لكل زمان ومكان. لا تضيق بإصلاح وترفض كل فساد حتى إذا عرفت بالرسالة والخلافة وحتى إذا أعطت من بينها الأباطرة في إمبراطورية العباسيين في بغداد والدولة العظيمة في الأندلس.. أشرقت بكل ذلك على أوروبا شمس المعرفة تأخذها أوروبا من الأستاذ والكتاب بينما الأصل الأصيل الممد من جزيرة العرب قد ساهم في أن تكون هذه الجزيرة مجهولة أبناؤها أمويون.. انصرفوا عنها.. وعباسيون أسرفوا عليها، فإذا أوروبا تأخذ علمها بينما هي تجهله كأنها لم تكن المصدر الأول الذي أمدها بالمعرفة، لكن رجالاً من الغرب أرادوا أن يعرفوا مصدر المعرفة في هذه الجزيرة.. حجازها ونجدها ويمنها.. فأرسلوا أنفسهم باحثين عن معرفة لهم جديدة عن تعريف لهذه الأرض كانوا به حريصين على أن يعرفوا وكانوا به أكثر حرصاً على أن نعرف.. فقد

عشنا جهلا لهذه الجزيرة حتى أن الذين كتبوا الأمهات عن الأماكن قد أخذنا منهم العلم بالمكان ولم نأخذ منهم العلم بالإمكان، ولأن قدسنا المكانة بالمعرفة للحرم.. القبلة والمسجد.. في دار الهجرة، فإنا قد جهلنا أن نذوق ما مكن لهذه الأرض من الأصالة تبقى راسخة رغم كوارث الغزو لها كوارث الطبيعة عليها، وشظف الصحراء فيها، والرجعة إلى البداوة.. وكل هذا أعطاني فكرة عن موضوع كمحاضرة أشرح فيها جهد المستشرقين.. أرفض هذه التسمية فأسميهم المستعربين، وقد نتحايل على القول والرفض فنسميهم الرحالة.

أضع بعض التوضيح عنهم في ملامح كدليل.. لعلّي أجد من هو أكثر علماً مني أو تعمقاً.. أن يعطي هذا الأمر حقه.. ولم يفتني أن هؤلاء الرحالة، مع قصدهم إلى المعرفة، كانوا رسلاً للسياسة، يعطون الإمبراطوريات المستعمرة كل التفاصيل، فالرحلات كانت ذات وجهين: رحلة للعلم هي التي بقيت ننتفع منها، ورحلة للسياسة انتفعوا بها زمناً طويلاً.. وكان من تمام المعرفة لنا عرفاننا لهذا الغرض ثم زال ما أعطوا للسياسة وبقي ما منحوه للعلم.

لا نجرحهم بما أخذوه منا للسياسة، ومن حق العلم أن نحترم النتيجة العلمية، فقد ذهب مفعول السياسة وبقي فعل العلم.

كانت شبه الجزيرة العربية مكاناً مجهولاً بالنسبة للأوروبيين حتى مطلع القرن التاسع عشر، تحيط بها الأساطير وأفكار العصور الوسطى.. ولم تكن هناك معلومات جغرافية إلا ما هو مستمد من كتب الجغرافيين والرحالة القدامى، وكان قد مضى عليهم أربعة قرون من الزمن.

ولذلك فإنه لما نشطت حركة الاكتشافات الجغرافية في أوروبا منذ

القرن السادس عشر، أخذ عدد من الرحالة الأوروبيين يتطلع إلى ارتياد شبه الجزيرة لاكتشافها والكتابة عنها، ففي سنة ١٧٥٩ فكر جماعة من الأوروبيين في إرسال بعثة علمية لاكتشاف شبه الجزيرة، ويبدو أن صاحب الفكرة كان هو ميكايليس جوتنجن الذي عرض الفكرة على فريدريك الخامس ملك الدانمرك. فجهزت سفينة حربية عليها خمسة أشخاص كل واحد منهم متخصص في فرع علمي معين.

ورحلت السفينة إلى اتجاه الشرق في ٧ يناير ١٧٦١ وكانت تحمل الأشخاص الآتية أسماؤهم:

ـ بيتر فورسكال ـ طبيب سويدي وله معرفة متخصصة بالنبات.

ـ كرستيان شارلس كرامر ـ جراح وعالم بالحيوان.

ـ فريدريك كريستيان فون هاقن ـ عالم باللغات ومستشرق.

ـ وليم بورنفيد ـ فنان.

ـ كارستن نيبوهر ـ مهندس ورياضي.

ولقد شاء الله ألا يعود من هؤلاء الرجال الذين نزلوا إلى البر العربي في اليوم الأول من أكتوبر سنة ١٧٦٢ إلا رجل واحد هو نيبوهر رغم أنه لم تكن هناك أيّ فاجعة. وقد كان رأى نيبوهر الذي بقي عن تحملهم المشاق في زيارة البلاد دون أن يحسبوا حساب الحرارة المحرقة.

وقد وصف لنا نيبوهر في كتابه الذي أخرجه بعنوان «رحلات في بلاد العرب» بعض مراحل رحلتهم وكيف استقبلهم الإمام في صنعاء باللطف ثم طريق عودتهم إلى المخا وسفرهم إلى الهند. وقد نشرت قصة هذه الرحلات باللغة الألمانية في سنة ١٧٧٢ ونشرت باللغة الفرنسية في السنة التالية أتبعت بطبعة ثانية سنة ١٧٧٩ ثم صدرت منها طبعة نهائية باللغة الألمانية سنة ١٨٣٧.

وعلى الرغم من أنه كان من المقرر أن تمكث البعثة ثلاث سنوات في شبه الجزيرة فإن نيبوهر لم يمكث سوى اثني عشر شهراً ولم يزر إلا جزءاً صغيراً منها.

ولكن هذه الرحلة التي لم يشعر بها الناس في حينها زادت في المعلومات التي لدى الأوروبيين عن شبه الجزيرة زيادة عظيمة إن لم يكن في الكم ففي النوع.

فلقد كان هؤلاء الرحالة يلاحظون كل شيء يمرون عليه ويدونون ملاحظاتهم، وقد جمعوا معلومات شتى تنتقل بين نقل بعض النقوش إلى وصف الجمال وتجهيزها إلى الرياح الصحراوية إلى أسراب الجراد وعندما قرأ الأوروبيون كتاب نيبوهر اطلعوا منه على الكثير من شؤون العرب: أنسابهم وطبقاتهم والخلافات المذهبية القائمة بين الشيعة والسنة وهم لم يكونوا في ذلك الوقت يعرفون الكثير عنها وعرفوا كذلك بعض العادات مثل عادة الثأر للدم التي كانت السبب في كثير من النزاع بين العشائر وعادات المأكل والمسكن والاستقبال والتحية والزواج. كما عرفوا الكثير عن منتجات شبه الجزيرة من المعادن والحجارة والأشجار والنباتات والزراعة وغير ذلك.

وكان أهم من ذلك كله الخرائط التي رسمها للمناطق التي زارها.

ولا شك في أن نيبوهر قد عرف اليمن أكثر من غيرها، فقد أظهرها بمناطقها المزروعة والفقيرة ودساكرها وأسواقها وقلاعها وقراها الزراعية.

أما عن شبه الجزيرة فقد أعطى نيبوهر فكرة واضحة من المعلومات التي جمعها عن حضرموت وعشائر البدو المستقلة فيها ومدنها وبخورها وتجارتها. كما زار مسقط في عمان وتحدث عن الخليج العربي وعن

المشيخات الصغيرة المنتشرة على ساحل الخليج وعن صيد اللؤلؤ في سواحله.

وتحدث كذلك عن الأحساء وعن الساحل الفارسي للخليج إلى غير ذلك من المعلومات التي أتيحت معرفتها لأول مرة عن طريق كتابه، ثم عاد مرة أخرى للحديث عن نجد فتحدث عن الدرعية وعن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وأصبح كتاب نيبوهر هو المثل الذي اقتدت به الجمعية العلمية الفرنسية عندما عهد نابليون وهو في طريقه إلى مصر بتشكيل فرقة من العلماء لتصحبه في حملته.

ولقد كانت نتائج رحلة نيبوهر العلمية.. أن كل المجامع العلمية في أوروبا أخذت تشكل برامج أسئلتها بالنسبة للاكتشافات طبقاً لمجموعة المعلومات التي أوردها في كتابه، وبذلك يعتبر رائداً للتفكير العلمي عند الأوروبيين عندما أرادوا اكتشاف شبه الجزيرة، وعلى الرغم مما حققته رحلته فإن الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية كانت لا تزال مجهولة وكان لا بد من ارتيادها للحصول على معلومات صحيحة عنها.

ولقد كانت رحلة الحج ودخول الأماكن المقدسة من أكثر الأمور استثارة لرغبة الأوروبيين في معرفتها ولكن دخول مكة والمدينة كان محظوراً على غير المسلمين ورغم أن رحالة آخر هو جيمس بروس قام برحلته البحرية إلى الحبشة ووصف بعض سواحل الحجاز وكذلك قام إيليس اروين في سنة ١٧٧٧ باكتشاف طريق البحر الأحمر لحساب شركة الهند الشرقية فإن المعلومات التي أوردها كانت قليلة وقد جمعها من الاستقصاء وليس عن طريق المشاهدة.

ولكنه في سنة ١٨٠٧ وصل إلى مكة شخص يسمي نفسه «علي بك العباس» ومعه مجموعة كبيرة من الخدم وآلات علمية كثيرة وكان يحيط نفسه بمظاهر السيادة ويبسط الخدم أمامه سجادة الصلاة ولم يدر في خلد أحد في ذلك الوقت أن هذا الحاج المسلم الشريف النسب سليل العباسيين الذي يتقن عدة لغات أوروبية منها الفرنسية والإيطالية والإسبانية هو نفسه الرحالة الإسباني دمينجو باديا ليبليش الذي كان قد رحل من قادس في إسبانيا سنة ١٨٠٣ بعد أن استشار كثيراً من الشخصيات البارزة في باريس ولندن في اتجاه مراكش ومنها إلى الإسكندرية.

واعتقد بعض الباحثين فيما بعد أن علي بك كان جاسوساً للإمبراطور نابليون الثالث ولم يكن ذلك بالأمر المستبعد إذ إن نابليون الثالث كان يود معرفة شيء عن موقف مسلمي الشرق الأدنى من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأنه وإن خرج نابليون الأول من مصر فقد عاد نفوذ نابليون الثالث إلى الشرق بواسطة قناة السويس، ولكن المهم أن علي بك العباس هذا كان يحمل أجهزة علمية دقيقة جداً منها مقياس للرطوبة الجوية وآلات أخرى فلكية تمكنه من الحصول على معلومات علمية دقيقة عن مستوى البحر عند جدة وينبع، وتمكنه من تحديد مواقع المدن بالنسبة لخط الاستواء، كما تمكنه من الوصف الجيولوجي للجبال ووصف النباتات والحيوانات والحشرات (لم يحدد مدار السرطان في أبحاثه وكان المشهور أنه يمر بالمدينة).

ولقد قام علي بك العباس بنشر قصة رحلته للمرة الأولى في باريس سنة ١٨١٤ وفي لندن سنة ١٨١٦. وغادر دمشق سنة ١٨١٨ ليعود إلى مكة ثانية، ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق.

ولقد أثير تساؤل شديد حول حقيقة اعتناقه للإسلام، فقد كان يؤدي الفرائض خلال رحلته، ويظهر التعظيم لكل الشعائر الإسلامية إلا أن بعض العبارات التي أوردها في كتابه أثارت الشك حول صحة عقيدته.

ومهما يكن من أمر إسلامه فإن الفضل يرجع إليه بعد الله في أنه قدم للغرب أول تقرير علمي دقيق مفصل عن الحج إلى مكة الذي رآه وعاش فيه كأحد المسلمين وكان وصفه للمسجد الحرام مطابقاً تماماً للواقع فقد وصف أبوابه ومصابيحه كما وصف بئر زمزم والسعي بين الصفا والمروة.

وكانت تلكم الأوصاف أول ما عرفه الأوروبيون بصورة مفصلة عن مناسك الحج.

ولقد كان لقصة رحلة علي بك فائدة أخرى هي أنه وصف للمرة الأولى عيشة أتباع الدعوة السلفية التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ووصف دخول جيوش الدرعية إلى مكة للحج وعلى رأسهم الإمام سعود وأبو نقطة، ووصف جمالهم وأحمالهم وبيارقهم والعلم المنقوش عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وإذا كان الأوروبيون قد اهتموا بمعرفة كل شيء عن المدينتين المقدستين مكة والمدينة، فإن منطقة أخرى من شبه الجزيرة العربية أخذت تفرض على الأوروبيين الالتفات إليها في أوائل القرن التاسع عشر لا على رجال السياسة فحسب وإنما على أعضاء الجمعيات العلمية والأدبية.. تلك هي المنطقة المعروفة باسم «البتراء» «سلع» «ومدائن صالح» الحجر وقد وصل رحالتان إلى شواطئ سورية بالتتابع هما سيتزن في سنة ١٨٠٢ وبور كهاردت في سنة ١٨١٠ بقصد الدخول إلى هذه المنطقة وكان سيتزن مستشاراً في إحدى الإمارات الألمانية الصغيرة التابعة آنئذٍ لقيصر روسيا

ولكنه كان يحلم دائماً بأن يصير مكتشفاً فجد في تحصيل المعلومات وحصل على الثقافة اللازمة وتضلع في اللغة العربية ثم غادر ألمانيا في سنة ١٨٠٢ متوجهاً إلى سوريا وفي سنة ١٨٠٦ وجد دليلاً من البدو كان معتنقاً للنصرانية ـ وقد سبق أن عاش ثلاثين عاماً بين قبائل عنزة فسأله سيتزن عن أحوال البدو في المنطقة كلها. وكانت محادثاته مع ذلك البدوي مثمرة، حيث إنه عاد إلى القاهرة نشر كتاباً بعنوان «بحث يصلح للتعرف على قبائل البدو العربية في سورية والبتراء».

ولقد تجول سيتزن مع دليله في المنطقة الواقعة إلى ما وراء البحر الميت، وبلغ حدود شبه الجزيرة العربية، حيث كان يريد اكتشاف موقع مدينة البتراء القديمة إلا أنه على الرغم من قربه منها لم يتمكن من الاهتداء إليها.

ولكي نفهم الصعوبة التي تعترض الرحالة في هذه المنطقة في مثل ذلك الزمن لا بد لنا من أن ندرك طبيعة البدو الموجودين في تلك المناطق ومدى استطاعة الدليل الذي يصحب الرحالة التفاهم معهم.

وعاد سيتزن إلى مصر عن طريق سيناء ثم السويس وأعلن أنه اعتنق الإسلام وأنه يريد أن يتم دينه فاستطاع أن يرافق رحلة الحجاج وبلغ المدينة التي لم يصل إليها علي بك العباسي ثم رحل إلى اليمن وهناك مات مسموماً وضاعت معظم الدفاتر التي دوّنها والتي كانت تحتوي على تسجيلات لمشاهداته.

أما بوركهاردت فإنه غادر إنجلترا في مارس سنة ١٨٠٩ متوجهاً إلى سورية لمحاولة اكتشاف شمال شبه الجزيرة وكان قد أعد نفسه لذلك بأن أخذ يدرب نفسه على حياة البدو كما درس القرآن وتفاسيره إلى درجة أنه

لم يستطع إقناع الناس بأنه الشيخ إبراهيم المسلم فحسب، بل بأنه أحد علماء المسلمين الأفذاذ. وقضى بوركهاردت عامين على الحدود السورية العربية يجمع المعلومات وعلى غرار الكتاب الذي أصدره سيتزن أصدر بوركهاردت كتابه الذي سماه «ملاحظات عن البدو والوهابيين».

على أنه يجب أن نلاحظ أن بوركهاردت قد أوغل في البحث أبعد مما ذهب إليه سيتزن، فقد تمكن من أن يقدم صورة عن المجموعات القبلية والمميزات السياسية الخاصة بكل منها وعن حالتها الاقتصادية وتنظيمها الاجتماعي ومبادئها الأخلاقية وعاداتها.

ولقد زار بوركهاردت البتراء وإن كان لم يستطع أن يقدم معلومات علمية عنها لأن البدوي المرافق له شك في أمره عندما حاول استعمال أجهزته العلمية.

وإذا كان سيتزن وبوركهاردت قد اجتازا الحدود الشمالية لشبه الجزيرة، فإن المنطقة الداخلية إلى شمال جبلي شمر (آجا وسلمى) كانت لا تزال مجهولة لدى الأوروبيين.

وكان يستثير اهتمامهم بها عوامل شتى وإن كان أهم ما أشار إليه المؤرخون أنه مع مطلع القرن التاسع أخذ آل الرشيد يوطدون سلطانهم في تلك المنطقة.. فكان هذا دافعاً لكثير من القوى على الاتصال بهم لمعرفة مدى قوتهم ونفوذهم وأدى ذلك إلى أن يبعث محمد علي بشاب فنلندي كان يدرس في القاهرة ليقوم برحلة عبر شمال الجزيرة.

فقد كان هذا الفنلندي ويدعى أغسطس والآن قد حصل على منحة للدراسة من جامعة هلسنكي، فقضى سبع سنوات متنقلاً ما بين الفرس والعراق وسورية واستقر أخيراً في مصر وعزم على اكتساب ثقافة عربية

تمكنه من التنقل بحرية في شبه الجزيرة.

ويبدو أن محمد علي قد بعث به إما ليشتري له خيولاً من نجد أو ليستطلع أحوال جبل شمر.. وقد قام والان برحلتين إلى حائل عاصمة جبال شمر.. وقد استطاع أن يفعل ذلك نتيجة دراسة لعادات البدو وعقليتهم واكتساب القدرة على كسب ثقتهم وقد وصلت لنا كل هذه العادات.. فيما بعد وعلى الأخص ما وصفه من رسم «الخوة» وهي تلك الإتاوة التي تدفعها كل قرية أو مدينة لتقاوم هجمات البدو. كما وصف لنا علاقة التحالف بين القبائل وبعضها، كما لاحظ والان أنواعاً من العشائر البدوية بعضها يسرح في البادية مع قطعانه أثناء موسم الرعي في الربيع، وأثار دهشته أن أفراد عشيرة المعازة الذين يشغلون المنطقة الممتدة من معان حتى الحدود المصرية يجهلون دينهم الإسلامي أشد الجهل.. ولا يكاد واحد منهم يعرف شيئاً عن شعائر الإسلام.

وأوغل والان في شمال شبه الجزيرة بصحبة ثلاثة من قبائل الشرارات حتى وصل إلى وادي السرحان ثم دخل مدينة الجوف وكان وصف والان لهذه المدينة فريداً في نوعه إذ كان من الدقة بحيث وصف أحياءها ومنازلها.

ثم رحل والان من الجوف بصحبة البدو مخترقاً صحراء النفود حتى وصل إلى قرية «جبة» ثم وصل إلى حائل عاصمة جبلي شمر التي وصفها وصفاً مفصلاً كما وصف قصر عبد الله آل الرشيد.. وتبع والان رحالة إيطالي هو كارلو جوارماني.. ولقد كان لدى جوارماني الاستعداد الطيب لاختراق نجد نتيجة لصلاته الوطيدة مع البدو إذ كان قد أقام لسنين طويلة في القدس وهو يعمل كوكيل لشركات النقل البحرية الإمبراطورية الفرنسية

وإنشاء علائق مع العشائر الرحل في تلك المناطق.

وقد استدعاه وزير الزراعة الفرنسي إلى باريس في سنة ١٨٦٣ ليعهد إليه بشراء خيول للإصطبل الإمبراطوري. وقد بدأ جوارماني رحلته في ٢٦ يناير سنة ١٨٦٢ مرتدياً زي بدوي واخترق المناطق الشمالية من شبه الجزيرة حتى وصل إلى تيماء، وكان والان قد زارها من قبل، ثم دخل إلى منطقة حرة خيبر، ووصفها بعض الوصف.. وإن كان وصفه لهذه المنطقة أقل في مجموعه من بقية الأوصاف التي أوردها.. مما دعا بعض الباحثين الأوروبيين المتأخرين إلى الشك في صحة روايته عن زياراته لحرة خيبر، ولقد راع جوارماني أن يجد جميع سكان منطقة خيبر من السود حتى ظن أنه انتقل إلى السودان، وغادر جوارماني منطقة خيبر إلى منطقة يقطنها فخذ من عتيبة يعرف «بالروقة» فلحق بهم وسار معهم ولكنهم كانوا في حالة حرب مع الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود وحضر جوارماني معركة وقعت بين قوات الأمير وأفراد هذه القبيلة.

ثم سار جوارماني حتى دخل مدينة «عنيزة» ووصف أسواقها والخيل فيها، ثم سار إلى بريدة ثم إلى حائل وأميرها طلال بن الرشيد، وهناك زار جوارماني على أنه المسؤول عن إصطبل فؤاد باشا التركي وأن اسمه هو خليل أنما.. فرحب به الأمير وأجلسه معه في مجلس القضاء ورأى كيف كان يقضي الأمير في القضايا بسرعة وكيف كان يفرض الأحكام والعقوبات الصارمة إذ كان يحكم بالقتل على القتلة وعلى الكذابين وشهود الزور بحرق لحاهم.

ولا شك في أن جوارماني كان أفضل من وصف الخيل العربية في هذه المنطقة، إذ إنه كان خبيراً بالخيول وكان يعرف عنها الشيء الكثير.

وكانت الخريطة التي رسمها لرحلته من أهم الخرائط التي استفاد منها من تبعه من الرحالة.

وإذا ضربنا صفحاً عن رحلته بالجريف وما أحاط بها من شكوك فإننا ننتقل إلى رحلة الليدي بلندت وزوجها ويلفريد اللذين اخترقا صحراء النفود ووصلا إلى حائل وأعطيا وصفاً كاملاً للمناطق التي مرا بها وتميزت كتابتهما بأنها أكثر إنسانية وأبعد في وصف بعض المواقف التي لم يكن لتتاح لغيرهما لأنه لأول مرة تخترق سيدة أوروبية مناطق البدو وكانت فرصتها فريدة أن تدخل إلى الحريم وتتعرف على أحوال النساء في مختلف المناطق التي زارتها وتعطي بذلك وصفاً فريداً ما كان ليتمكن القارئ الأوروبي من الاطلاع عليه لولا رحلتها.

تلك هي بعض اللمحات عن رحلات الرحالة الأوروبيين خلال فترة من الزمان.. كان الجهل يخيم فيها على كثير من بقاع شبه الجزيرة، ولم تكن الحضارة الحديثة بكل إمكاناتها قد تقدمت ليحدث الاتصال بين معطيات تلك الحضارة وبين القبائل الضاربة في الصحراء ولذلك فإن عالم هذه القبائل كان يختلف كلياً عن العالم الذي يعرفه الأوروبي، وكانت الرحلة لا شك بالنسبة إلى أي أوروبي مخيفة وكان على الرحالة الذي يخترق تلك الجهات أن يكون على دراية واسعة بأحوال أهلها وعاداتهم وأن تكون له القدرة الكافية للتعبير عن نفسه باللغة العربية وباللهجة البدوية حتى لا ينكشف أمره.

ولذلك رأينا أن معظم هؤلاء الرحالة قد ارتدى رداء الإسلام ظاهراً، وإن كان في باطنه لا يزال يضمر الولاء لدينه.. وتلك الخطة هي التي سيتبعها الأوروبيون دائماً تحقيقاً لمصالحهم.

الجوانب العسكرية
لحيَاة الملك عبد العزيز آل سعود

يجدر بنا ونحن نتحدث عن الاستراتيجية العسكرية للمغفور له الملك عبد العزيز يرحمه الله، أن نتفهم معنى ومفهوم كلمة الاستراتيجية فهي تعبير مشتق من الكلمة اليونانية «استراتيجوس» وتعني فن قيادة القوات، هذا التعريف قديم أعقبته عدة تعاريف لمفهوم الاستراتيجية بمعناها العصري الذي فرضه علينا واقع اليوم. ووراء كل تعريف صاحب مدرسة أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

كلاوزفيتز: حيث يعرفها بأنها نظرية استخدام الاشتباك كوسيلة للوصول إلى هدف الحرب.

فردريك موريس: يفسرها بأنها قيادة الجنود حتى تصل لمرحلة الاشتباك.

ريمون آرون: يؤكد أن الاستراتيجية قيادة مجمل العمليات العسكرية ـ أما الدبلوماسية فهي توجيه العلائق مع الدول الأخرى وهو بذلك يفصل الاستراتيجية عن السياسة ويجعلها عسكرية فقط وهذا ما تفاداه أندريه بوفر حين فسرها بأنها فن استخدام القوة للوصول إِلى هدف السياسة.

والحقيقة أن مفهوم الاستراتيجية قد تعدد بتعدد المدارس والأكاديميات في عالم اليوم.

طالما تحدثنا عن مفهوم الاستراتيجية كما تناوله بعض المتخصصين فيها.. فلنا أن نعلم أن هناك خمسة مجالات هامة وضرورية لرسم الاستراتيجية وهي على سبيل الإيجاز:

١ ـ أهمية عسكرية تعتمد على القوى البشرية والمستوى الفني لها، واستقرار الجبهة الداخلية (مادياً ومعنوياً) وكذلك القدرة على الإنتاج الحربي ومستوى كفاءة القيام بالخدمات المختلفة التي تتطلبها العمليات الحربية.. يدخلها في ذلك أيضاً قرب أو بعد القواعد العسكرية.

٢ ـ أهمية سياسية تعتمد على مدى الاستقرار السياسي للدولة.

٣ ـ أهمية سياسية تعتمد على مدى توافر الموارد والخامات والأيدي العاملة من حيث الكم والكيف.

٤ ـ أهمية المواقع: من حيث القرب أو البعد من البحر والمواصلات.

٥ ـ أهمية معنوية: تعتمد أساساً على جهود الدولة في مجالات التوعية والدعاية على أسس سليمة وهادفة.

هذه المجالات هي التي تحدد لنا خصائص الاستراتيجية العسكرية.

استراتيجيتنا السعودية:

في المملكة العربية السعودية ترتبط استراتيجيتنا دائماً بأهمية وضعنا الديني للعالم الإسلامي كله.

فلقد كان المنطلق الحقيقي بفكرنا الاستراتيجي المعاصر. هو ذلك اللقاء المبارك الذي ضم الإمام محمد بن سعود والشيخ المجدد محمد بن

عبد الوهاب عام ١١٥٧هـ.. لقاءً للدعوة والدولة.. فكان ذلك بدءاً جديداً لفكر استراتيجي جديد.. تميز هذا الفكر بجوانب هامة كثيرة من حيث القوى البشرية وزيادة معدل الكفاءة للمقاتل السعودي نتيجة لارتباطه وتأثره بمبادئ الدعوة، وتفانيه في نشر مبادئ الدين الإسلامي والجهاد في سبيل الله وأيضاً الجانب الاقتصادي حيث توافدت على البلاد وفود من اليمن وعمان والعراق والشام وحتى الحجاز نفسها وارتبط بذلك نشاط تجاري من وإلى الدرعية، والأهم من ذلك كله تألق آل سعود على الساحة العربية وفي الجزيرة بخاصة مما أكسبهم نفوذاً وقوة عسكرية بالنسبة إلى ما حولهم وتجلى ذلك على مدى تاريخ الدولة السعودية الأولى ثم الثانية.

استراتيجية الملك عبد العزيز :

مع السنوات الأولى للقرن الرابع عشر الهجري تبدأ في بلادنا مرحلة جديدة ومجيدة لفكرنا الاستراتيجي الذي أعده ونفذه المغفور له الملك عبد العزيز رحمه الله.

فتى العشرين كما قال عنه المؤرخون، يتحرك بفكر جديد ورأي جديد نتج منه توحيد الجزيرة وتنظيم لوائها تحت راية التوحيد، هذا الفكر الجديد من أجل استرجاع الرياض بلده وليس لغزو الغير أو إثارة الذعر بين الذين يجب لهم الأمان والأمن من قومه أو البحث عن احترام كاذب ترويه الدماء.

ويسجل المؤرخون والمحللون العسكريون حقيقة نذكرها بالفخر والاعتزاز وهي أن مجرد نجاح الملك عبد العزيز في تحقيق الوحدة والاستقرار لبلده نبذ أسلوب الحرب نهائياً واتجه لتطبيق الشريعة الإسلامية وإرساء دعائم العدل والأمن والطمأنينة في كل ربوع الجزيرة العربية وكان الملك عبد العزيز يستطيع

أن يوسع ملكه ويسيطر على الكثير من الإمارات المجاورة. ولكنه كان صاحب فكر استراتيجي ملهم لا ينخدع بظواهر الأمور. فأوقف الحرب واتجه للبناء والتعمير وتنمية قوى البلاد البشرية والإصلاح الاجتماعي والديني.

وهذا ما ساقه المؤرخون والمحللون كحقيقة تميز بها الفكر الاستراتيجي للملك عبد العزيز رحمه الله.

وأحمد الله أنني لست محللاً عسكرياً.. وإلا لكنت قضيت الساعات الطوال لأتحدث تفصيلاً عن تلك الجوانب العسكرية الهامة في حياة موحد الجزيرة وصانع هذا الكيان الكبير.. ولكنني أتناولها من زاوية التاريخ فقط.

فتح الرياض:

ما من شك في أن فتح الرياض أول تجربة عملية عاشها الملك عبد العزيز.. وهي بحق أكبر عملية استطلاع مسلح سجلها الملك عبد العزيز وطبقها بوعي وبصيرة وإيمان.. سجل بوعيه وإدراكه سلوك خصمه وعاداته واستقلاله في توزيع رجاله القلائل عدة وعدداً. والكثيرين كفاءة وإيماناً.. ثم خفة الحركة واستخدام الحرب الخاطفة ثم حرب الإزعاج مع القبائل الموالية لعدوه.. ثم توحيد قواته ورفع معنوياتهم وتوعيتهم بأهدافه وأسلوبه، واقترابه المتخفي لمركز قيادة عدوه.. «قصر عجلان» ثم القضاء عليه بعد دراسة دقيقة لسلوكه وطباعه وما تعود أن يفعله يومياً.

والملك عبد العزيز ليس خريج كلية عسكرية، وهذا هو سر المعجزة التي أذهلت المؤرخين والباحثين العسكريين. فكثير منهم تناول جانب اهتمام الملك عبد العزيز بالنواحي المعنوية والاقتصادية لجنوده كما تناول آخرون اختياره للوقت واستغلاله الدعائي والإعلامي لما شهدته معركة «روضة مهنا» من تعدٍّ على الشيوخ وكبار السن حتى إِن كثيراً من الخبراء الألمان كانوا

يقارنون أسلوبه بما حققه مصطفى كامل في مصر حين استغل حادث دنشواي لوصف بشاعة الاستعمار الإنجليزي.

وخلاصة قولي إن الملك عبد العزيز كان يدرس بأسلوبه المتواضع وطبيعته الواضحة والصريحة أربعة عوامل هامة هي اليوم في نظر المحللين والمؤرخين قمة في العبقرية.

هذه العوامل هي:

أ ـ عامل الوقت المتيسر حتى بدء المعركة.

ب ـ المسافة بين الخصمين.

ج ـ المقارنة بين قوات الطرفين.

د ـ قرار بدء المعركة.

هذه العوامل الأربعة تمثل قمة التكامل للاستراتيجية العسكرية المعاصرة.

إن الملك عبد العزيز لم يدرس فناً عسكرياً أو استراتيجية معاصرة في أكاديميات متخصصة... ولكنه درس في أرض الواقع واستوعب تاريخ بلده فانطلق بإلهام عسكري فطري وراثي يهبه الله عباده الصالحين ليحقق ما حققه من خير واستقرار وأمان وغيره لبلده وشعبه.

ولقد كان ضرورياً أن أشير مفصلاً لمعارك الملك عبد العزيز لنقف على إيجابية كل معركة وسلبياتها.. ولنعرف كيف كان يقيم كل عمل أقدم عليه ليتجنب السلبيات ويضاعف من الإيجابيات.. وكان ضرورياً كذلك أن نقارن لنعرف حقيقة هامة وهي أن حجم النجاح والتوفيق الذي لاقاه الملك عبد العزيز كان يتضاعف مع كثرة الأحداث والمعارك فكان لذلك أثر صادق

وحبيب في ازدياد عامل الثقة في النفس والتطلع الجاد لاستكمال الهدف وتوحيد البلاد ثم الاتجاه بكل الإخلاص والاعتماد على الله في توفير المتطلبات الضرورية وبناء الدولة السعودية على أساس من الإيمان بالله وتمديد أهداف استراتيجية جديدة يحقق من خلالها التوازن لتدعيم الكيان الاستراتيجي للمملكة العربية السعودية وإجراء مسح شامل لقدراتنا العسكرية والاقتصادية كأساس لبناء الدولة العصرية العربية.

ولعلّي قد جئت بالقليل من مواهب العبقري هذا وقد أنعم الله عليه بالحظ. أول الحظ والصبر والأناة والعفو. فقد كسب من العفو صداقة الأعداء وصدق الأوفياء.

بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة

تمهيـــد:

دعت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد إلى عقد مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية بقطر، وكان من المقرر عقد هذا المؤتمر في شهر ديسمبر من عام ١٩٧٦م إلا أنه تأجل نظراً لعقد مؤتمر الأوبك في الدوحة في نفس الفترة.

لذلك قامت الأمانة العامة بالدعوة مجدداً للمؤتمر خلال الفترة من ٢ ـ ٨ ربيع الآخر ١٣٩٧هـ الموافق ٢١ ـ ٢٧ مارس ١٩٧٧م.

وقد شارك في هذا المؤتمر أكثر من خمسين باحثاً وأستاذاً متخصصاً في التاريخ العربي والإسلامي، ومثل المملكة وفد رسمي على مستوى عالٍ، ضم كلاً من:

الأستاذ محمد حسين زيدان.

الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

الدكتور عبد الرحمن الأنصاري

الدكتور عبد الله العثيمين

الأستاذ عبد الله الماجد

وكان بحثي لهذا المؤتمر عن «بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة».. عن الملحمة.. تلك الموجة الهلالية التي طبعت أرضنا العربية في مصر، وفي ليبيا، وفي شمال إفريقيا بالطابع العربي عرقاً ولغة..

فنحن نحمد الأسطورة كعاطفة، ولا نجمد أمام الحقيقة التي كان هذا أثرها وتأثيرها.. فهناك من التونسيين فريق يضع بني هلال في الحضيض قائلاً إنهم خربوا.. وآخر من الجزائريين ينظرون إليهم، وإلى ما عمروا من بناء اللغة وقوة العصبية.. فزعيم الجزائر شيخها الأستاذ الكبير المجاهد عبد الحميد بن باديس.. الصنهاجي قد طرح العصبية للبربر لأن إيمانه بعظمة اللغة العربية جعلته ينسى خراب الدور فلا يتذكر إلا عمران الصدور فقال كلمته المشهورة (رداً على الذين نسوا التعمير للغة، وما زالوا يذكرون التخريب).

قال بن باديس:

(لئن قيل إنهم خربوا.. فلنقل إنهم عربوا) فالفتح الأول لشمال أفريقيا لم يعربها كل هذا التعريب، وإنما كل التعريب لبني هلال وسليم كأنما بن باديس يسير هو وشوقي في حلبة واحدة.

فشوقي لا ينكر الظلم الذي بنيت فيه الأهرامات، وبن باديس لا ينكر العسف الذي جرى على يد بني هلال.. قال كلمته تلك.. كما قال شوقي بيته هذا:

هي (يعني الأهرامات)

هي من بناء الظلم إلا أنه

يبيض وجه الظلم منه ويشرق

وفيما يلي نص البحث الذي ألقيته بهذا المؤتمر:

لـم أكـن أدري عـن بـني هـلال شيئاً غـير مـا هـو مكـتـوب في القـصـة الملحمة، تنشد أشعارها وتروي أخبارها على الربابة في كل الأقطار العربية، وفي بلد قد لا تكون فيه الربابة ـ مع أنها كانت نابعة منه حول باديته كالمدينة المنورة، كان هناك قصاص يقرأها على الناس منغمة.. نسمعها منه فإذا بنا نحفظ ونستوعب ما يقرأ علينا كما حفظنا منه ما قرأه من ذات الهمة، وعنترة، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن.. الخ هذه الأساطير، أو هي القصص، نغليها فنعليها فنسميها ملحمة، ويرخصها الجفاء عن البطولة فلا يرى فيها إلا عبثاً ـ لكن الكثير ممن يسمونه عبثاً أو أسطورة هو مائدة الأديب يشرق بها شعره من إشراق البطولة في مشاعره حتى عم وانتشر اسم أبو زيد.. زيدان.. ذياب.. العلام والزناتي.. عزة.. يونس.. مرعي ـ الجازية، كثرت هذه الأسماء في مصر، وإفريقية، أعني شمال إفريقيا العربية، وحتى في لبنان أكثر من الأقطار العربية الأخرى، فغريب أن لا تكثر هذه الأسماء في الموطن الأول الجزيرة العربية، وتكثر في المواطن الثانية، طبيعة النزوح من الموطن الأول، وطبع الرسوخ في المواطن التي تناسل فيها هؤلاء، أو هي التي شهدت آثارهم وتأثيرهم وبقاءهم.

لم أكن أعرف غير هذا.. حتى طلب مني أستاذنا ظافر بن جمال الدين القاسمي، أن أعد خلاصة عنهم وعن مواطنهم يرسلها إلى الأستاذ البروفسور جاك بيرك، فماذا يريد جاك بيرك؟

لا بد من أنه يريد غير الأسطورة.. غير الملحمة، فأخذت أفكر عن هؤلاء الهلاليين السليميين الغطفانيين القيسيين المضريين فهل رحلوا

للنجعة.. قذفت بهم المجاعة في الصحراء إلى الريف؟. أم هناك أسباب أخرى تسير به موجة عربية من نجد ومشارف الحجاز إلى مواطن عربية أخرى.

مصر ثم في الطريق إلى ليبيا.. في المقر.. تونس.. في الانتشار.. الجزائر والمغرب.. فوجدتني أصل إلى رأي لا أصر على أنه كل الحقيقة، ولا أقبل أن يصر أحد أنه كل الباطل، وجدتني أرى أن جدب الصحراء والشظف كثيراً ما حمل على الانسياح. جماعة ليست بكثرة الجيش، ولا بالموجة الهائلة، فما هو السبب الآخر؟

إن في الجزيرة العربية، وبالذات في نجدها وحجازها.. تطاولت إلى العظمة في الجاهلية.. هذه القبائل الأربع العدنانية: قريش، قيس عيلان.. وبما تناسل منه من غطفانها وهوازنها وعامرها وهلالها وعبسها وذبيانها وفزارتها وأشجعها ومحاربها وسليمها.. وكلها جاءت الأخبار عنها أو عن بعضها كحرب الفجار وداحس والغبراء، وأيام أخرى.

والثالثة أسد ساقها الطموح لأن تصنع الحلف الأعظم مع غطفان أي مع قيس عيلان يسودها الملك آكل المرار ثم إلى أن وصلت إلى زعامة طليحة الأسدي يشاركه في زعامة الحلف الأعظم عيينة بن حصن الفزاري بعد أن هلك زهير بن جذيمة العبسي وابنه قيس نظموا له الخرزات ملكاً على الحلف الأعظم حتى إن زهيراً هذا قد مالأه أو هو مالأ النعمان بن المنذر يكون ردءاً له أو مصدراً لتطويع قبائل الجزيرة في الشمال كبكر وتغلب أبناء وائل ومن إليهم من ربيعة، وكانت القربى بين النعمان وزهير هذا الغطفاني السابق لطموح بني هلال وسليم أن تزوج النعمان المتجردة بنت زهير التي جاء ذكرها في شعر النابغة ابن عمها الذبياني فهي التي عناها

في هذا البيت:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

أسد كانت الثالثة، أما الرابعة التي كادت أن تنتزع البيت من قريش فهي تميم المضرية.. أبوها مضر.. أمها خندف لأن قيس عيلان ليس ابن خندف ـ وإن كان ابن مضر، وإنما هو ابن شبابة.

ومن البديع عن رسوخ الوراثة أن قبائل العرب في جزيرتنا خندفي وشبابي.. كما أن شبابة العزوة لحرب وعتيبة ومن إليها في الجزيرة.. هي العزوة في الشمال الإفريقي، فالجزائري والمغرب شبابي حتى الآن، وهذا من ميراث بني هلال هناك. كما أن ليبيا ورثت عزوة أخرى من بني هلال هي عزوة ساكن موطنهم علياء نجد ـ القصيم ـ هذه العزوة في ليبيا والقصيم أولاد علي.

هذه القبائل جاء الإسلام وهي في القمة.. كأنما إرهاص الإسلام قد أوجدها كذلك لا يغشاها جدب مدة طويلة فتعيش تتحارب ويعيش الشبع فيها شعراً جاهلياً، وبياناً مبيناً عربياً نما في الأسواق فتم له الاتساق.. ولكن أمية وخؤولة عامر للمروانيين خفضت قريشاً وجعلت من تميم الدعم لنشر العربية في مربدي الكوفة والبصرة.. قريش.. هزمت من قريش، وعامر بقبائل غطفان كان لها نوع من السيادة، وأسد تأخرت وتميم كما قلنا كانت مدرسة التعريب والتقنين للبصري والكوفي.. أعني أنها قد حازت أن تكون معلمة اللغة ولا أنكر أن رجالاً من قبائل أخرى كانوا على مثال من تميم.

إن الأمويين قد أفرطوا إن كانوا قوميين جعلوا للعربي كل الشأن.. كل

التوسع في الفتح، فقد مكثوا تسعين عاماً لم يكن لغير العربي حولٌ أو سلطان فقامت الشعوبية ضد العرب تهدم في بني أمية حتى سلمت الأمر للعباسيين.. فالعباسيون كان العون لهم الشعوبيون.. فأقصي العرب من أول يوم من عام ١٣٢هـ عن الحول والسلطان وسلبوا السلاح.. فعادت القبائل العربية تحتمي في جزيرتها إلى شعرها وبيت شعرها.. تعبث بأمن الطريق، وتناصر كل تحرك على العباسيين فناصروا القرامطة وكانوا المأوى للدولة العلوية الشيعية.. دولة بنو الأخيضر، كما ذكر لك في الجمهرة ابن حزم في نسب هؤلاء وكما أفاض به ابن خلدون في صفحة (١٢) وصفحة (١٣) وصفحة (١٤) إلى تمام الموضوع في الصفحات بعد من المجلد السادس.. حتى جرد العباسيون وأعني المعتصم الأفشين وبدأ قائداه التركيان يطئان نجداً فإذا الحملة تهلك أشجع ومحارب وتمحو بني عامر إلا من انحاز منها إلى شرق الجزيرة على الخليج ومن ذاب وهتم في شمال المدينة المنورة الشرقي على الحرة بين خيبر والمدينة فأغلب الظن أن قبيلة هتيم هي من هذه البقايا. فيهم العبشي والأشجعي والمحاربي والعامري.. ترسبوا في الحرة فلم يكونوا مع بني هلال وسليم في رحلتهم غير أنهم ملؤوا السودان بكثرة كاثرة هم بنو رشيد الآن ومن أسماء هتيم بنو رشيد رحلوا إلى السودان للنجعة فوجدوا الريف فعمروا هناك من جهينة والجعليين..

هذه العضة من العباسيين جعلت نوعاً من التكتل في الجزيرة يبغي المخرج. فمتى كان؟ وأين كان؟

تميم منعت بديارها في نجد في الواحات وبمسير بعضها إلى العراق ولتميم المنة على حفظ العربية في العراق.. تعليماً كما ذكرنا من قبل وصوناً فيما بعد، من هنا قالوا:

(نجد ولود والعراق داية).

فلولا هذه الرحلات لتميم ومن إليها ثم من جاء بعدها من شمر وعنزة والمنتفق لاستعجم عراقنا. فبنو هلال ومن إليهم، ولولا بنو هلال لما تعرب شمال إفريقيا.. وقد عدوا بني هلال في عداد الشيعة، سواء أتمذهبوا بالمذهب أم كانوا أنصاراً لمن يحارب العباسيين. هذا الضوء أعطاني ألا أسير مع القائلين بأنهم هبوا إلى النجعة.. يريدون المرعى في الريف.. بل كانوا أنصاراً لبني الأخيضر كما كانوا أنصاراً للقرامطة حرباً على العباسيين، ويقيني أنهم ذهبوا عوناً للفاطميين حين استتب لهم الأمر في مصر، ولعلّ المعز الفاطمي ومن بعد قد ناشدوهم الحضور يؤيدون ملكهم في مصر أول الأمر ينتقمون لملكهم في إفريقية الذي حازه الصنهاجيون بقيادة المعز الصنهاجي، كأنما المعز الفاطمي ومن إليه جيشوا هؤلاء الهلاليين السليميين يحاربون المعز الصنهاجي. وقد يكون السفراء بين الفاطميين وهؤلاء الهلاليين ممن سبق للنجعة أو الالتجاء ففاوضهم الفاطميون ليجلبوا ربعهم، قبائلهم في الجزيرة العربية.

فمسيرة بني هلال قد يكون أولها للنجعة.. أما تكتلها كموجة عربية ثالثة هبت إلى موطن عربي هو مصر فإنه عمل سياسي، الحافز إليه حرب العباسيين أو النجاة من العباسيين ومناصرة من تشيعوا ضدهم.

إن ابن خلدون يصف المعز بأنه سني حين سقط من حصانة نادى اسم الشيخين أبي بكر وعمر كأنه على طريقة غير سنية في الأصل بهذه الاستغاثة ولكنها كانت إعلاناً منه لحرب الشيعة هناك ـ الشتامين لأبي بكر وعمر.

فقامت العامة تناصر المعز وتقتل الشيعة.. فجاء الغضب للشيعة أنصار الفاطميين كما جاء الانتقام للملك المفقود بالعزيمة جعلت الفاطميين

يجيشون بني هلال وسليم ومن إليهم من زغابة يحاربون الملك الصنهاجي بن باديس المعز فيستغولون في الشمال الإفريقي.

في إفريقية العربية نظرتان إلى بني هلال، فبعض التونسيين قد تأثروا باستطراد ابن خلدون وقد كان حرباً على الأعراب حتى صار حرباً على العرب. هذا الفريق يضع بني هلال في الحضيض.. يقول إنهم خربوا.

وفريق آخر وهم الجزائريون يرفعون بني هلال إلى السماء.. لا ينظرون إلى ما خربوا من عمران ـ وإنما نظرتهم إلى ما عمروا من بناء اللغة وقوة العصبية.. فزعيم الجزائر شيخها الأستاذ الكبير المجاهد عبد الحميد بن باديس.. الصنهاجي قد طرح العصبية للبربر لأن إيمانه بعظمة اللغة العربية جعلته ينسى خراب الدور فلا يتذكر إلا عمران الصدور فقال كلمته المشهورة:

(رداً على الذين نسوا التعمير للغة وما زالوا يذكرون التخريب).. فقال بن باديس وهو نسل الملوك الصنهاجيين كلمته المجنحة المشهورة (لئن قيل إنهم خربوا.. فلنقل إنهم عربوا) ذلك أن الفتح الأول لم يعرب شمال إفريقيا كل هذا التعريب وإنما كل هذا التعريب لبني هلال وسليم كأنما ابن باديس يسير هو وشوقي في حلبة واحدة، فشوقي لا ينكر الظلم الذي بنيت فيه الأهرامات، وابن باديس لا ينكر العسف الذي جرى على يد بني هلال. قال كلمته تلك.. كما قال شوقي بيته هذا:

هي (يعني الأهرامات)

هي من بناء الظلم إلا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق

فالعروبة في إفريقيا من مفاخرنا، والأهرامات في مصر من مفاخرنا.

قلت بنو هلال الموجة الثالثة.. أعدل عن هذا فأقول الرابعة.

الموجة الأولى: الفراعين وصلوا إلى مصر من قرية بون في اليمن تسجل ذلك الحرب البونية أو هو مسجل تحت مادة بومنت أو هو في السجل الجامد الناطق مكتوب على حجر يقول:

نحن الفراعين والفينيقيين والكنعانيين قد رحلنا من قرية بون في اليمن.. كما أكد هذا النص أستاذنا الشيخ معروف الدواليبي في بحث له طبعه في كتاب.

الموجة الثانية: الهكسوس.. لا أستسيغ إطلاق كلمة المستعمر على الهكسوس، فإن هذا رائحة الإقليمية البحتة لمصر، أو هو شعوبية من طراز قديم فالهكسوس قبيل عربي أراد الانسياح في أرض عربية، لم يقبله قبيل عربي.. هو المواطن العربي في مصر لم يقبله فأجلاه أو أفناه.. كأمر عادي جرى في أكثر من وطن عربي وفي كثير من الحالات في أرض العرب.. شأن القبلية.

الموجة الثالثة: موجة الفتح الإسلامي.. ليس هو الاستعمار كما يحلو لبعضهم أن يضيف الفاتحين المسلمين إلى الهكسوس.

الموجة الرابعة: موجة بني هلال.. فالفراعين أعطوا لمصر مجد السلطان والحضارة والفن، مجد التاريخ كله.. والهكسوس ذهبوا ولكنهم أحدثوا لمصر تمسكها ووحدتها.. فهم وإن ذهبوا أو ذابوا كانوا بموقفهم السلبي بناة الموقف الإيجابي، والفاتح المسلم أعطى لمصر عظمتها في حماية الإسلام وحفظ القرآن ومجد الأزهر واستمرار التاريخ عربياً.. عربياً لا أكثر ولا أقل.

وموجة بني هلال هي: عمار مصر بأكثر من ثمانين في المائة من ذراريهم.. فصعيد مصر هو من أنسالهم.. سيلين وسليم والحميدات

والهوارة ومن لف لف هؤلاء.. كلهم من هلال وسليم وأولاد علي في الفيوم والصحراء الغربية هم هلاليون نسلاً وعزوة.

لقد طبعت هذه الموجة الهلالية أرضنا العربية في مصر وفي ليبيا وفي شمال أفريقيا بالطابع العربي عرقاً ولغة.. فهم بهذا الحقيقة لا الأسطورة، لكن الحقيقة لم تعد غذاء الشعب العربي.. هي قد تكون علم المثقف.. لكن الأسطورة كانت ولا زالت غذاء العاطفة العربية.. كل الشعب من فلاحين وكل العامة من غير الفلاحين يعرفون البطل في بني هلال يعشقون عزة والجازية.

إننا نحمد الأسطورة كعاطفة، ولا نجمد أمام الحقيقة التي كان هذا أثرها وتأثيرها.

بقي أن نقول إن جزيرتكم العربية هي الجديرة بأن نسميها الأرض الأم، ولعلّ الأمومة ستعلو عندما تأتي الكشوف تبين لنا وحدة الأثر، كان نحتاً في الجبل.. في الحجر والبتراء فاستعاض العربي الفرعوني عن الجبل لا يجده في مصر.. فصنع الأهرامات جبالاً.

أحسست أن هذا دليل على وحدة الأثر والمؤثر وأبو الهول عندكم شامخاً في ظل الأهرامات ولدينا في وادي القرى تمثال أبي الهول.

فأيهما كان الأقدم؟

تجدون ذلك في ما كتبه عبد الله فيلبي (أو جون فيلبي) في كتابه «أرض الأنبياء».

إن وحدة الأثر ستعطينا البرهان على وحدة الأمة.. تعطينا القضاء على كل الشعوبية التي تريد الانسلاخ من العربية بدعوى الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية.

أفليس من الإقليمية والشعوبية أن نضع هانيبال أكبر في التاريخ من عمر بن الخطاب أو حتى من أبي زيد الهلالي؟..

مع أن هانيبال فينيقي عربي، ويعجبني الأستاذ العقاد يرحمه الله حينما يعربه كذا (هانئ البال).

إن الحقيقة في بني هلال أنهم هم الآن الحقيقة في مصر والحقيقة في شمال أفريقيا، وإن ضاع اسمهم في جزيرتهم.. فلم تبق لهم إلا الأسطورة تعزو كل بناء فني من الآبار المنحوتة بالإزميل من صنع أصحاب الرس أي أصحاب البئر الأنباط العرب.. يقولون في جزيرتنا عن كل هذه الآثار.. إنها من صنع بني هلال.. خلط عليهم الأمر فلم يفرقوا بين ما صنعه العماليق والأنباط والثموديون فيضعونه لبني هلال.. مع أن بني هلال ليس لديهم من كفاءة الفن ما يصنعون به هذه الآثار.

وأخيراً فإن هذا الاستطراد أعطاني ضوءاً من الحقيقة التي أسلفت عن بني هلال وسليم ومن إليهم فقد ضيقت عليهم القبائل الموالية للعباسيين والحملات العباسية.. فوجدوا الفرصة في أن يرحلوا إلى مواطن عربية يجدون فيها الأمن حين وجدوا من يقبل وصولهم وتوطينهم في عزة وسلام.

وقد توطنوا.. صانوا لها العزة.. فحفظت لهم المعزة، وقد نالوا عزة في تونس حين صاهرهم المعز الصنهاجي، زوج أبناءه بناتهم طلباً للسلام معهم ونزوعاً إلى الحماية بهم.

فأي حقيقة أكبر من بقائهم في مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب؟ فمنهم من ساد وعظم في هذه الأقطار، فأصبحوا في عداد أهلها كأنهم لم يكونوا الجدد على هذه الأوطان.

أي حقيقة أكبر من صنع الدعامة لهذه الأمة العربية بهذا اللسان العربي المبين.. لسان اللغة الشاعرة كما هي تسمية الأستاذ عباس محمود العقاد يرحمه الله؟.

قد يكون هذا بحثاً ظريفاً.. أو طريفاً من حصيلة قارئ كل ما يعتد به أنه عربي يشعر بمشاعر الأمة الواحدة.. يرفض الشيوعية كما يرفض الشعوبية ـ بل إن الشعوبية أشد خطراً.. فالشيوعية إفساد من الخارج تغلبنا عليه.. أما الشعوبية ففساد من الداخل ما أصعب أن نتغلب عليه.

المصادر:

١ ـ إحسان عباس: تاريخ ليبيا.

٢ ـ عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي.

٣ ـ عبد اللطيف محمود البرغوثي: تاريخ ليبيا الإسلامي.

٤ ـ إبراهيم رزقانه: الجغرافيا التاريخية لشرق الدلتا.

٥ ـ ابن الأثير.

٦ ـ ابن خلدون.

٧ ـ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ـ الجزء الأول.

هذه المصادر جمعتها، وقد استفدت منها، وإن كان لي بعض التخريج أيضاً من لمحات وردت بها ليس لي في ذلك جهد إلا الإبراز بحقيقة القوة العربية.. تكمن في رحلة قبائلها وموجاتها.. فما ارتضته هذه المصادر.. هو موضع الرضا وأرجو ألاَّ يكون ما خرجت به موضع الإغضاب.

المنهج المثالي لكتابة تاريخنا

إخواني الأساتذة وأبنائي الطلاب..

أود أن أعرب في مستهل حديثي عن خالص شكري وتقديري لسعادة عميد كلية العلوم الاجتماعية فضيلة الشيخ محمد بن عرفة على تفضله بدعوتنا للتحدث إليكم.

ولقد اخترت لحديثي موضوع «المنهج المثالي لكتابة تاريخنا» متأثراً بدعوتكم الكريمة.. فكلية العلوم الاجتماعية حريصة على تحقيق أهدافها العلمية والنهوض برسالتها بكل السبل ـ فإضافة إلى أسلوب الدراسة الأكاديمي حرصت الكلية على دعوة من تراهم أهلاً للتحدث في موضوعات ذات طابع ثقافي خدمة للطلاب والباحثين ورواد الثقافة والفكر.

وبكل معاني الشكر والتقدير سرني أن أكون من المتحدثين إليكم، وسرني أكثر أن يكون موضوع حديثنا «المنهج المثالي لكتابة تاريخنا».

إخواني..

لقد تميز القرن الأخير والذي نعيش نهايته بشدة الوعي التاريخي

---

(١) نص المحاضرة التي ألقاها سعادة الأستاذ محمد حسين زيدان رئيس تحرير مجلة الدارة لطلاب كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ بمقر الكلية بالناصرية يوم الأحد ١٠ ربيع الآخر ١٣٩٨هـ ـ الموافق ١٩ مارس ١٩٧٨م.

وتصاعد مستواه، وملاحقة التطورات في حياتنا نحن البشر.. تلك التطورات السريعة التي شملت كل جانب من جوانب الفكر والعمل، والتغيرات المتعددة في مجالات حياتنا.

هذا الوعي التاريخي صاحبه تقدم في أساليب البحث والاستقراء والتحليل.. كما صاحبه كذلك اتجاهات جديدة في تحليل الأحداث والظواهر الطبيعية والإنسانية، وبذلك اتسع مجال علم التاريخ حتى أصبح اليوم يشمل كل مظاهر الحياة ـ يربط ماضيها بحاضرها، ويتتبع مسارها ويستخلص الحقائق حتى يستوعب فهم الماضي والحاضر فهماً شاملاً وجامعاً، فلقد ابتلع تاريخ الأبطال ما سجله المؤرخون بينما الأوضاع في عالمنا اليوم تحتم أن يكون الإنسان كل الإنسان مجالاً للبحث التاريخي، وكل ما في الحياة من تطور وتقدم واستحواذ وطغيان ـ أصبح موضوع التاريخ ـ كما أن لكل مذهب من اليمين أو اليسار ـ آثاراً ظاهرة على حركة تدوين التاريخ، وهناك حقيقة أخرى هي تطور الأسلوب التاريخي وتحوله من مجرد سرد أدبي إِلى تحقيق علمي، ومن هذا المنطلق الجديد لتدوين التاريخ، أود أن أوضح أن غاية المؤرخين في الماضي كانت جمال الأسلوب وتوافر الصفات الأدبية ليجذب المستمع ويشد انتباهه.

لكن الصورة اختلفت الآن وأصبح المؤرخ العالم يحرص بكل أمانة على توفير الجانب العلمي لعلم التاريخ، وأصبح بذلك تاريخاً ومؤكداً دون تعلق بالشكليات واللفظيات ـ فالموضوع في نظري ينبغي أن يقسم إِلى جزأين:

ـ استقراء التاريخ تدويناً، وكل هذا ما يشكر عليه المؤرخون الأوائل، وأما فقه التاريخ تحليلاً وإبرازاً وتسجيل التبعات كتسجيل المناقب، فهذه

مسؤولية مؤرخي اليوم، وهكذا يتم الدور. فمؤرخ اليوم لا نلومه إذا ما استقرأ الأحداث دون فقه ليأتي بعده.. أو حتى معاصره بالفقه تحليلاً وتعليلاً.

والحقيقة أن موضوع تطور علم التاريخ موضوع شائق ومتعدد الجوانب، وأخشى أن يصرفنا عن الموضوع الذي أردناه في حديثنا هذا، وهو تسجيل تاريخنا العربي والإسلامي.

في القرن الهجري الأول شهدنا اهتمام العلماء والمؤرخين وحرصهم على جمع التراث العربي من مصادره الأصلية في البادية والنجوع وأعماق القرى، وأخذوا من أفواه الأعراب ـ لأن بوادي الأعراب كانت المصدر الصادق للغة السليمة. فلم يتأثر الأعراب بالحضارات الوافدة، ولم يختلطوا بالأعاجم.

ولقد تمثل حرص العلماء في القيام برحلات عديدة للبادية ليجمعوا اللغة والشعر والأخبار من أفواه فصحائها وعادوا من تلك الرحلات بحصيلة من الثروة اللغوية كان لها رواج عظيم في أسواق العلم والأدب ـ في مربد البصرة، ومربد الكوفة، وغيرها، وكانت الأساس فيما ورثناه من المعاجم اللغوية ليس أولها كتاب العين للخليل وكتاب سيبويه، وليس آخرها لسان العرب ومغني اللبيب، وما إلى ذلك من كتبه.

من أمثال هؤلاء الذين قاموا بتلك الرحلات عمرو بن العلاء وأبو زيد الأنصاري والأصمعي وأبو عمرو الشيباني وغيرهم ممن جمعوا اللغة والأدب من طريق مشافهة الأعراب والأخذ عنهم، فهناك حكاية أوردها السيوطي في المزهر قال: جلس عمرو بن العلاء وبنوه من طلاب العلم لديه فسألهم مم اشتق اسم الخيل؟

قالوا.. لا ندري، وسكت فلم يجبهم حتى إذا مر أعرابي (من عرب جزيرتنا الأم للغة والدين) سأله الإمام..

قال.. مم اشتق اسم الخيل؟

فأجابه العربي: من السير. وذهب فلم يعرف الطلبة ما أراد.

فقال عمرو بن العلاء:

ماذا فهمتم؟

قالوا: لم نفهم شيئاً: قال إنه يقول من السير أي من الخيلاء.. ألا ترونها تمشي (العرضدنا) تيهاً وخيلاء.. من هنا وصف بنو مخزوم بالتيه لأنهم كانوا أصحاب الأعنة في قريش.

دامت محاولات العلماء هذه أكثر من قرنين وزادت أعدادهم وتنوعت أهدافهم بتنوع البواعث إلا أنهم جميعاً وعلى مدى القرنين الثاني والثالث الهجريين بذلوا جهوداً طيبة لجمع التراث العربي وتدوينه.

كان ذلك منطلقاً لأجيالنا الإسلامية لتقبل على التأليف في علوم أخرى كالتفسير والحديث والفقه والعقائد والفلسفة وتاريخ الإسلام والنظم الإسلامية وتراجم الإعلام والرياضيات والطب والفلك وتركوا لنا تراثهم الخصب في علوم الإسلام حتى كان العصر العباسي الذي وصلت فيه الحركة الثقافية والمعارف الإسلامية إلى ذروتها وأنتجت لنا رجال الفكر والأدب وأئمة الفقه والعلوم بأنواعها وإن المؤرخين المنصفين قد أكدوا حقيقة هامة وهي أن حركة نشر العلم والثقافة التي دعا إليها الإسلام ورعاها الخلفاء وجند العلماء أنفسهم منذ صدر الإسلام إلى نهاية العصر العباسي.. كانت أكبر حافز على ما أنتجته العقلية العربية الإسلامية من رحلات علمية

ودوائر معارف ونظريات في كل مجالات الفكر والأدب والتراث.

هذا وإذا أضفنا حقيقة أخرى هي مدى التشجيع الذي لقيه رجال العلم والأدباء، وإنشاء أولى جامعات العالم في بغداد والقاهرة وقرطبة وفاس، فقد هيأت هذه الأسباب للخلفاء العباسيين أن يثروا الفكر العربي عن طريق تشجيع الترجمة ونشر الثقافات المتعددة من عربية إلى فارسية ويونانية وهندية ونقلوا بذلك أهم الأعمال العلمية والأدبية إِلى العربية.

ـ كما بعث الخلفاء أيضاً بالنساخ إِلى مكتبات الدول ذات الميراث الحضاري لينسخوا لهم ما عرفت الدنيا من كتب وبحوث ذات قيمة ونفع، وإذا كانت الحضارة بمعناها العام تعني مدى ما وصلت إِليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي والفني ـ فإننا نجد أن الأبعاد الكاملة والشاملة للحضارة الإسلامية تحقق لنا هذا المعنى، تلك الحضارة التي بلغت قمة المجد والازدهار في العلوم والفنون والآداب وأصبح العرب المسلمون بحق أساتذة العالم في زمنهم.

كانت بغداد في العراق، ودمشق في الشام، والقاهرة في مصر، والقيروان في شمال إفريقيا، وقرطبة في الأندلس، ومرو في خراسان وصقلية في البحر المتوسط مراكز إشعاع للعلوم والفنون في كل أنحاء العالم.. أقام المسلمون حضارتهم على الدين الإسلامي السمح وعلى لغتهم العربية التي اتسعت لكل أغراض الحضارة، فالقرآن الكريم كما هو واضح تناول الكثير من العلوم التاريخية والجغرافية والفلكية ـ علاوة على حث المسلمين في طلب العلم والدراسة والبحث والتأمل، ولا تزال آياته الكريمة إِلى اليوم تنطق بإعجازه في مختلف أنواع العلوم والفنون ـ فاتسعت آفاق الفكر العربي وتجددت معارفهم، وانفتح أمامهم السبيل لإقامة أعظم حضارة

إنسانية عرفها التاريخ.. انظروا إلى هذه الآية في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢ ـ ١٤) أفاد العرب كذلك بأنهم اقتبسوا الكثير من علوم هذه البلاد، وهنا أقول:

إن الحضارة الإسلامية.. بهذه الصفة تميزت بمعالم ذات جوانب متعددة انفردت بها بين الحضارات الإنسانية الأخرى.

ـ فهل قمنا.. أو وصفنا منهاجاً علمياً لكتابة تاريخ العرب والإسلام؟

ـ وهل استطاعت الجامعات والمراكز الأكاديمية المتخصصة والمتعددة أن تخطو أيّ خطوة في هذا المجال؟

هل لنا أن نسلك ما سلكه السلف من جهود بناءة لجمع التراث وتسجيله؟

في مصر أسس الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥هـ) مكتبة القاهرة، فقد كان شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها، والإكثار منها، وبذل الأموال الطائلة لها، ويذكر المؤرخون أرقاماً ضخمة لرصيد المخطوطات التي كانت تضمها هذه المكتبة.

في بلاد الأندلس أسس المنتصر بالله مكتبة قرطبة الكبرى في قصر الزهراء المشهور، وكان يبعث التجار إلى الأقاليم ليشتروا له المخطوطات ويودعها المكتبة ـ كما كان يتبع حركة التأليف، والجديد من المؤلفات، ونوادر المخطوطات ليودعها في مكتبة الزهراء كما جمع النساخ والخطاطين والمجلدين والمترجمين لنقل نفائس التراث من العربية إلى الأسبانية واللاتينية.

ويحدثنا التاريخ عن مكتبات أخرى كثيرة كان لها نفس الدور والاهتمام مثل مكتبة سيف الدولة في حلب، والمكتبة الظاهرية في دمشق، ومكتبة جامعة الزيتونة في تونس ومكتبة جامع القرويين في فاس إِلى جانب اهتمامات المغرب العربي ـ ففي تونس اهتم التونسيون منذ أقدم العصور بجمع المخطوطات وجمع نسخ منها ووضعوها في بيت الحكمة، وفي المغرب اهتم الملوك الذين حكموا المغرب بمئات الألوف من المخطوطات النادرة والكتب النفيسة وإيداعها خزائن الدولة، وجهود كثيرة ليس هذا مجال حصرها، ولكن نكتفي بالإشارة إِلى بعضها كتأكيد لظاهرة الحرص التي تميز بها أجدادنا على تراثنا وتاريخنا.

إِن تاريخ المكتبات هو البرهان القاطع على الكذبة التي اتهمتنا بإحراق مكتبة الإسكندرية ـ فالذين حثهم دينهم وحفزهم فكرهم إِلى تأسيس هذه المكتبات ـ لا يمكن أن يتصور أن يحرقوا مكتبة.

ولكننا في عصرنا الحالي وبرغم ما نعيشه من وعي ظاهر وثقافات متعددة وجامعات ومعاهد ونشاطات علمية لا أستطيع حصرها. ورغم كل ذلك فإن مهمة كتابة تاريخنا العربي والإسلامي كتابة سليمة بعيدة عن النزاعات الإقليمية والأهواء الشخصية.

أقول لا تزال هذه المهمة صعبة.

إِن لجاناً كثيرة وندوات متعددة، ومؤتمرات مختلفة ـ عقدت وتعقد للنظر في مشروع إِعادة كتابة تاريخنا العربي والإسلامي ـ ربما أهم هذه اللجان تلك اللجنة التي شكلتها الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية، والتي بدأت اجتماعاتها منذ عام ١٣٩٤هـ، واستطاعت في أكثر من جلسة أن تحدد بعض القواعد كأساس لإعادة كتابة هذا التاريخ وهي:

١ ـ وحدة الشعوب الإسلامية جميعاً وإن اختلفت الدول ونظم الحكم.

٢ ـ ترابط الأمة الإسلامية العامة خصوصاً في حالات تعرضها أو جانب منها لخطر خارجي يستهدف الإسلام أو سلامة الوطن العربي أو الإسلامي أو جزءًا منها.

٣ ـ وحدة التيارات التاريخية العامة التي مرت ببلاد الإسلام كلها.

٤ ـ إظهار العطاء الحضاري الإسلامي العربي للحضارة العالمية وبيان استمراره وفاعليته وقيمته الرفيعة.

٥ ـ الالتزام بالخط الإسلامي العربي العام وتجنب كل لفظ أو إشارة يمكن أن تمس شعور العرب والمسلمين.

٦ ـ تجنب مشاعر التعصب والتفريق بين جماعات إِسلامية وأخرى وتحاشي تيارات التعصب التقليدية الشائعة في بعض مؤلفات التاريخ المتداولة في البلاد العربية واعتبار المسلمين أمة واحدة واعتبار غير المسلمين من سكان الوطن العربي والإسلامي جزءاً من الأمة الإسلامية تراعي عقائدهم وتحترم مشاعرهم ويبين في وضوح وإنصاف ما قاموا به من مساهمات كبرى في الحضارة الإسلامية والعربية وذلك لأن الإسلام دين تسامح ومساواة وإِخاء ومودة، ولأن العالم العربي ملك لكل سكانه من العرب مهما اختلفت أديانهم.

٧ ـ تحري الدقة التامة في كتابة هذا التاريخ والاهتمام بإبراز الحقائق وحدها على اعتبار أن تاريخ أمة الإسلام حافل بالمفاخر والأمجاد وليس في حاجة إِلى أيّ مبالغة.

هذه القواعد كان الهدف منها أن تكون أساساً ومنطلقاً لكتابة تاريخنا

بروح عربية إِسلامية تقوي أواصر التضامن والتآلف بين العرب والمسلمين مع مراعاة تجنب كل ما عساه أن يمس مشاعر عربية أو إِسلامية أو يميل إِلى ناحية مذهبية أو عصبية لأنه يكتب لكل العرب والمسلمين ليخدمهم ويقرب بينهم ويؤكد وحدتهم في الماضي والحاضر ويحفزهم بذلك على التمسك بالوحدة في المستقبل.

فقد قلت من قبل إِن الإِسلام توحيد والعروبة وحدة، والحضارات واحدة، والمصير واحد.

فالتاريخ واحد ولا يغيره الانفراد بالمفاخر التاريخية في غيبة من الأممية في التاريخ ـ فلئن أبقت الظروف تراث الثموديين في حجر ثمود، وتراث الأنباطيين في سلع البتراء، وتراث الفراعين في مصر ـ فإن ظروفاً طرأت.. قد طمست في الأرض حضارة الفينيقيين والكنعانيين والآراميين والعاديين ومن هم مثلهم قبلهم وبعدهم.. لأن الانفراد بتاريخ شعب هو جزء من الشعوب العربية يعني ٱدعاء التفوق على الشعوب الأخرى التي لها نفس هذا التراث، فقد قلنا من قبل إن الذين نحتوا الجبل في حجر ثمود، ونحتوا الجبل في البتراء سلع.. في البلقاء الأردن هم آباء أو إِخوان الذين بنوا الجبل أهرامات في مصر.

وكان الرأي لكل المشاركين من رجال التاريخ أن يكون تاريخنا في مجموعه تاريخاً حضرياً.. فلا يكون تركيزنا في ذكر تفاصيل التاريخ السياسي بل يكون التركيز الفعلي وفي المقام الأول بيان أحوال المجتمع في حياته العادية وتطوره وحرصه على الترابط وحرص شعوبنا العربية على الترابط والتماسك والمحافظة على الإِطار العربي الإِسلامي العام.

وأذكر أن هناك توصيات عديدة صدرت عن هذا المؤتمر ونشرها

بالتفصيل في مجلة الدارة ـ العدد الثاني من السنة الأولى.

وكان حرص المجلة على تتبع مسار عمل هذه اللجان ولا يزال نابعاً من حقيقة نؤمن بها ونعمل من أجلها وهي أن يكون لتاريخنا في جملته طابع واحد عام من ناحية الاتجاه والأسلوب وأن نتجنب ما عساه أن يقع من متناقضات بين الآراء المعروضة في المجلدات المقترحة لكتابة التاريخ والتي يبلغ عددها ٣٩ مجلداً كما يتناول حرصنا أيضاً.. توعية الذين سيكون لهم شرف تنفيذ تلك المهمة المقدسة ألا يتخذوا تلك المجلدات معرضاً للدفاع عن نظريات وآراء خاصة بهم، ولا بد من دليل أو مرشد يلتزم به حتى يكون الطابع العام واحداً في كل المجلدات تقديراً لهذا المشروع العلمي العربي المشترك.

إن الأمل كبير في أن يتعاون مؤرخو الأمة العربية كل بحسب تخصصه في تنفيذ هذا المشروع الذي نحن في أمسّ الحاجة إِليه أكثر من أي وقت مضى بعيداً عن اللجان والروتين، وأرجو للكلية كل التوفيق في أن تبادر من كونها معهداً أكاديمياً متخصصاً وتضم خيرة من الأساتذة الذين يعنيهم هذا الأمر أن تسرع في استكشاف مدى ما وصلت إليه المحاولات في هذا المجال حتى نستطيع أن نقدم بكل الإخلاص فكرنا ورأينا ومشورتنا انطلاقاً من إِحساس بأهمية هذا الجهد وضرورة التعاون من أجل أن يحقق هدفه السليم.

وأخيراً وكما قلنا من قبل إن الأمة تقوم على الحب.. فالتاريخ ينبغي أن يكون الحب، وهذا الحب لا يعني طغيان العاطفة على العقل.. ولا طغيان العقل على العاطفة وإِنما أن تكون العاطفة دليل العقل.. فالحب في التاريخ هو الذي حمل أستاذنا.. أستاذ الجزائر الشيخ عبد الحميد بن

باديس على أن يقول الكلمة المجنحة رداً على ما يجري على ألسنة بعض التونسيين تبعاً لابن خلدون الذي أرهق العاطفة بالعقل.

فابن خلدون الحضرمي العربي المغربي المصري قد سار مع العقل فأجحف بالعرب إجحافاً كان متعة الشعوبية ضد العرب ـ أما بن باديس فجاء على النقيض منه مع أن بن باديس صنهاجي من نسل ملوك البربر أزال ملكهم هؤلاء العرب الذين وصفهم ابن خلدون ويصفهم بعض المغاربة بالتخريب قال بن باديس: لئن قيل إنهم خربوا فلنقل إنهم عربوا. ويعني ذلك أنكم أيها المغاربة قواقع أصبحتم عرباً صنع ذلك هؤلاء الذين تعبوا.

إِن التعصب قد جعل على ألسنة بعض هؤلاء أن قرطاجة أبقى من القيروان وأن هانيبال أعظم من عمرو وكأنما أستاذنا العقاد قد أراد: قصد أم لم يقصد الرد على هؤلاء حين عرب عطيل باسم عطاء الله، واسم هانيبال باسم هانئ البال.

أيها الإخوة: أشكر لكم حسن استماعكم.

وأسأل الله أن يوفقنا لما فيه صلاح أمرنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرياض ١٣٩٨/٤/٥هـ

جمال الدين الأفغاني

نص المحاضرة التي ألقيت بمقر نادي جدة الأدبي ١٣٩٧هـ

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

إخوتي رواد هذا النادي والقائمين من أمر هذا النادي على أمر..

تحية لكم وبعد:

فقد وعدت إدارة ناديكم أن ألقي محاضرة بعد محاضرة الأستاذ راضي صدوق، واخترت أول ما اخترت حوادث لبنان الدامية.. أن يكون الموضوع نصارى العرب ما لهم وما عليهم.. ثم وجدتني أتحرج من ذلك لأن ما لهم من الوئام والصدق، وخوض المعارك لحماية الأرض.. قد لا يكون مقبولاً اليوم بما عليهم في هذه الأيام فخشيت على المجد أن يطوى إلى لحد: مجد العربي بلسان ينحرف عن هذا اللسان وعن الأعراق والأرض إلى تصرف بقلب عربي ووجدان عربي إلى لحد عربي يتكلم اللسان العربي ثم هو لهذا كله ينبغي أن نكون على مستوى ما يأمر به الدين خير أمة أخرجت للناس. تحرجت من ذلك فأبدلت موضوع المحاضرة إلى موضوعها اليوم.

«جمال الدين الأفغاني»

إِخواني:

إن إسلامكم الدين الحنيف وأنتم في هذه الأرض المقدسة هو كما هو الدين لكم هو الدين لأمتكم المسلمة.. لكن كل الشعوب المسلمة مع شدة تمسكها بالدين لها وطنية باسم آخر.. أما أنتم أهل هذا البلد فالإسلام وطنيتكم.. الإسلام وطنية هذا البلد كما هو في الدرجة الأولى دينه وفي الدرجة الثانية وطنيته.

وليس في ذلك ازدواجية.. بل هو الوحدة بين الإسلام.. الدين والإسلام الوطن. فالوحي والهجرة والفتح والقبلة والحج كلها مشرق الدين.. وجهة الدين هي في الوقت نفسه إشراقة الوطنية.. حتمية الوطنية.

فمن حسن الحظ أن تعقد في الرياض الموطن التي نهضت منه العقيدة الصادقة ندوة الشباب الإسلامي.. هذا الحوط كتب عليه كمواكبة لم أكن أتعمدها وإنما هي كأنها تلقائية قد ألهمتها أن أحاضر عن بطل من أبطال الإسلام السيد جمال الدين إبان انعقاد ندوة الشباب الإسلامي.

أيها الإخوة:

نشأت شاباً أطلب العلم.. فوجدت المسجد على فريقين.. فريق لا يرضى أن يشتم جمال الدين الأفغاني، وفريق جعل ورده ليل نهار الرائية ليوسف النبهان، والرائية الصغرى كال فيهما الشتائم والاتهامات المحرجة المحترجة إلى الثلاثة السلفيين يسميهم الوهابيين جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وكانت الحملة على الوهابية شديدة.. تغذيها قوى كبيرة، سخرت هؤلاء العلماء أن يجعلوا مسبة جمال الدين حرباً على السلفية يسمونها الوهابية.. العلماء المغاربة في المسجد، والكبار من أهل

المدينة الأصلاء.. لا يتحرقون عن جمال الدين، أما الآخرون فمن بعض المغاربة الذين يتولون مشيخة الطريق ويتباهون برواية الحديث ولا يدرسون درايته، وبعض من أهالي الشام، كيوسف النبهاني، وعبد القادر الشلبي، وبعض علماء الهند من غير أهل الحديث ومن غير أهل ديوبنذ كانوا ألباً على جمال الدين.

نشأت في هذا الوسط ولما أدرك الفرق بين ما يعتقد هؤلاء ويزعم أولئك.. لم أدرك الفرق وإنما أدركني حب البطولة أن أكون من الفريق المنصف لجمال الدين.

ولعلّ أثر العلماء المقربين المنصفين وقد تأثر به أشياخي كان البصيص من البرهان يضاف إلى حب البطولة.. جعلني أكون كذلك.

إخوتي:

لقد اشتعلت الحرب على جمال الدين.. شنها عليه رجلان: شيخ الإسلام في استنبول (حسين فهمي) ورجل السلطان عبد الحميد.. الرجل الأول لديه أبو الهدى الصيادي، فقد جند كل منهما أعوانه ولا أظن أن النبهاني أشرس من حمل جمال الدين إلا رجلا أبو الهدى الصيادي.. كلاهما شامي.. كلاهما طرقي. فأبو الهدى الشيخ المتوج على جميع أتباع السيد أحمد الرفاعي عن الرفاعية والسيد أحمد الرفاعي بريء مما يصنعون، فقد كان إماماً من أئمة الحنابلة.. لا مشعوذاً.

فكل الحشوية طعنوا على جمال الدين بأنه وهابي مجسد لا يحب رسول الله.. نسمع هذا منهم.. فنغضب لجمال الدين، وفي يوم من الأيام قال شيخنا عبد القادر الشلبي الطرابلسي هذا القول:

«إن جمال الدين لا يحب رسول الله».

ولا أدري كيف نهض أستاذنا السيد أحمد صقر وهو من الذين يعظمون الشيخ عبد القادر فقال:

عندي يا مولانا شهادة تبرئ جمال الدين مما ذكرته. لقد رأيت بعيني رأسي كتاباً بخط السيد جمال الدين الأفغاني.. أرسله إلى السيد الصافي الجفري.. يقول فيه لقد منّ الله علي بأداء فريضة الحج، وحبسني ما ترى من عدم الأمن أن أقوم بزيارة المدينة فأرجوك أن تقف تسلم على سيدي رسول الله. وتقول إن خادمك جمال الدين يقرئك السلام. رأيت هذا الكتاب فلا أستطيع بعده أن أسمع اتهاماً لجمال الدين، وسكت الشيخ كأنه لا يريد إطالة الجدل في ذلك خشية أن يشيع أمر هذا الكتاب وحفظت قول السيد أحمد صقر، وأخذت أجري وراء الكتاب فلم أجده عند آل الصافي.

الصافي الجفري من أعيان المدينة كان الرجل الأول عند السلطان عبد المجيد هناك تعارف مع جمال الدين.

فالقبوريون.. الحشويون جندهم أبو الهدى لحرب جمال الدين، وسلطان الدولة العثمانية يشجع ذلك لأن الحرب ضد السلفية نتيجتها الحرب ضد آل سعود في نجد.

إِخوتي:

هذه مقدمة أتبعها بإيضاح تاريخي عن كل ما ذكرت.. عن كل ما لجمال الدين.

مولده ونشأته:

ولد السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى

الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية. ثم درج في بيئة تمتاز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة. ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشرعية والعقلية على منهاج محيط شامل. ثم حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث. ثم أخذ يطوف ما شاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب. ثم كان رضي الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبى الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات ـ كما قال ـ إلا سكينة القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول[1]. ومن امتزاج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وامتد أمامه الأفق، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرق الإنساني كله، فجعل قصده، ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شر المستبد.

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة، والقتل شهادة[2].

(١) خاطرات جمال الدين، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنه قصر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة، والواقع الذي لا شك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم.

جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م)

حالة العالم الإسلامي في حياة جمال الدين:

تفتحت أعين جمال الدين على الدنيا في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وفي العالم الإسلامي أربع دول كبيرة هي: الدولة العثمانية التركية، والدولة الفاجارية بفارس، ودولة السعديين بمراكش، ودولة محمد علي باشا بمصر. وأما الدولة المغولية بالهند فكانت قبل مولده بثلاث وثلاثين سنة قد انتهت على يد شركة الهند الإنجليزية بدهاء رجال هذه الشركة ومكر سياستهم واستغلالهم لجهل ملوك الهند وتفرقهم، ثم لم تلبث الحكومة الإنجليزية أن حلت محل شركة الهند الإنجليزية عام ١٢٧٤هـ ـ ١٨٥٧م وجمال الدين في حوالى العشرين من عمره، وهكذا شهد جمال الدين في شبابه الباكر زوال أكبر دولة إسلامية بعد الدولة العثمانية التركية على يد الاستعمار البريطاني.

ولنعد الآن إلى هذه الدول الإسلامية الأربع لنرى ما كان من حالها:

كانت الدولة العثمانية التركية قد عرفت بين دول أوروبا وقتها باسم

«الرجل المريض» وكانت الدول الأوروبية القوية قد اتفقت على اقتسامها إلا أن تضارب الأطماع فيما بينها كان له فضل بقاء هذه الدولة وإن كانت قد بقيت مريضة لا يرجى شفاؤها فدول أوروبا كانت تشغلها بالحروب المتوالية وتعمل على إثارة الفتن الداخلية فيها وخصوصاً بين الطوائف المسيحية فيها.

وكانت الدولة العثمانية قبل مولد جمال الدين بحوالى ثمانية أعوام قد فقدت الجزائر باستيلاء فرنسا عليها. وكان السلطان محمود الثاني الذي كان على رأس تلك الدولة وقت ولادة جمال الدين قد حاول أن يصلح من حال الجيش وينظم الفرق الانكشارية على النظم الحديثة إلا أنها ثارت على هذا النظام وأذعن لهم السلطان محمود وأمر بإلغاء النظام الحديث المفروض عليهم.

وكان السلطان محمود قد انشغل بالحرب التي أشعلها ضد الدولة السعودية الأولى ثم بثورة اليونانيين ضد الدولة العثمانية، فلما نجحت الجنود المصرية النظامية بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا في إخمادهم قرر السلطان محمود الثاني إلغاء الإنكشارية والقضاء عليها، إلا أن السلطان لم يعش طويلاً بعدها لتأسيس جيش حديث إذ توفي عام ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م وتولى بعده السلطان عبد المجيد وكان جمال الدين بعد رضيعاً وكانت أحوال الدولة في غاية الاضطراب وقد كثرت الفتن بين طوائفها المختلفة، وصارت دول أوروبا تهددها بالتدخل لحماية المسيحيين من رعاياهم وإنصافهم، ووضع السلطان عبد المجيد منهاجاً لإصلاح الإدارة وحفظ الأمن وتنظيم جباية الخراج وتنظيم الجندية وتنظيم القضاء وتنظيم حقوق الملكية وتنظيم حقوق الطوائف وتنظيم مجلس الأحكام العدلية.

لكن السلطان عبد المجيد لم يكد يضع هذا المنهاج حتى شغل عنه بالحرب التي أعلنتها روسيا على دولته فانصرف عنه بتوالي الفتن في الدولة.

وتولى بعد السلطان عبد المجيد السلطان عبد العزيز عام ١٢٧٧هـ ـ ١٨٦١م الذي دعا إلى تأليف كتاب في المعاملات الفقهية يضبط مسائلها ويجمع الأقوال المختارة دون غيرها، ويرتَّب ترتيباً يسهّل استخراج الأحكام منه فيصير مرجعاً للمحاكم الشرعية من أقوال الحنفية الموثوق بها دون أن يتجاوز ذلك إلى فتح باب الاجتهاد الذي ظل محرماً نحو عشرة قرون.

إلا أن السلطان عبد العزيز عارض أحمد مدحت باشا حين طالبه بأن تصبح الأمة شريكة له في الحكم، وانتهى الأمر بعزل السلطان وسجنه في أحد القصور حيث وجد مقتولاً بعد بضعة أيام من سجنه.

ثم تولى مراد الخامس فلم يلبث أن ظهر عليه اضطراب عصبي فعزل عن الملك بعد قليل من توليه. وتولى بعده السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م فعين أحمد مدحت باشا رئيساً للوزارة ومنح الأمة دستوراً وأمر بتأليف مجلس للنواب تختار الأمة أعضاءه ومجلس للأعيان تختار الحكومة أعضاءه فيكون لهما السلطة التشريعية، إلا أنه لم يمر شهران حتى عزل السلطان عبد الحميد أحمد مدحت باشا بالقول بأنه كان يسعى في فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وأمر السلطان بنفيه، ولما اجتمع المجلسان وأخذا ينتقدان أعمال الحكومة غضب السلطان عبد الحميد عليهما وأمر بتأجيل اجتماعهما إلى أجل مسمى وكان هذا التأجيل في حكم إلغائهما.

وفي هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية التركية ونعني بها فترة حياة السيد جمال الدين الأفغاني ظلت مساوئ الدولة على ما كانت عليه،

فالسلاطين لا يأمنون على عروشهم تحيط بهم المؤامرات وكثيراً ما كان يعزل بعضهم ويفشل، والجيش رفض الإصلاح الحديث، والوزراء بعضهم من أصول أجنبية لا يهمهم مصلحة الدولة، وكان الولاة على الأمصار لا يقلون سوءاً، وإذا رغب أحدهم في إصلاح فلم يكن يجد الوقت الكافي بسبب التبديل المستمر فيهم خشية أن يدبروا الاستقلال عن الدولة وكان همّ الوالي وكبار موظفيه ورؤساء جنده هو جمع أكبر قدر من المال في أقصر وقت ليرسلوا (صرة) السلطان إلى استنبول ويكتنزوا الباقي في جيوبهم على حساب الشعوب التي حرمت من الخدمات وفرضت عليها الضرائب الباهظة من فلاحين وحرفيين فتردّى حالهم إلى أسوأ من الجهل وشظف العيش.

ومع أن الدولة كانت سنية وكان القضاء الرسمي على مذهب أبي حنيفة، إلا أن أهل السنة كانوا مختلفين في المذهب، ومع ذلك فإن التشيع كان سائداً في بعض أملاك الدولة كما كانت الحال في بعض أجزاء العراق، وكان الشيعة بدورهم فرقاً مختلفة.

وكانت الدولة العثمانية تؤيد التصوف جملة في مختلف طرائقه وتناهض التشيع، وكانت الطرائق الصوفية قد انتشرت في أرجاء الدولة انتشاراً كبيراً جداً وكان التصوف قد بعد عما كان عليه أصحابه الأوائل مجرد زهد أو عبادة لله تعالى، بل كانت قد دخلته الشطحات وبعض النزاعات والفلسفات الغربية عن الإسلام وأصبح في بعض جوانبه أشبه بنظام الكهنوت في المسيحية الكاثوليكية فيه وسطاء بين العبد والرب.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني في محاولة منه لاستغلال فكرة الجامعة الإسلامية في إخضاع المسلمين تحت لوائه لستر حكمه الفردي

المطلق قد ضم إليه مشايخ الطرائق وأغدق عليهم العطايا من أموال الأوقاف وبنى لهم التكايا والزوايا في كل مدينة وقرية، وكانت قد راحت عليه خزعبلات «محمد بن حسن وادي» المعروف باسم أبي الهدى الصيادي الرفاعي فقلده مشيخة المشايخ في المملكة العثمانية ومنحه ثقته الكبرى ليجمع الناس حول عرشه ويروج لسياسة الجامعة الإسلامية. وكانت البدع الدينية منتشرة في أرجاء الدولة وخصوصاً بعد أن كانت الدولة العثمانية بجيوش محمد علي قد قوضت الدولة السعودية الأولى بإسقاط عاصمتها الدرعية عام ١٨١٨م عاصمة الدعوة السلفية. وكان كبار الحكام أنفسهم خاضعين لبعض الدجالين من المتصوفة فضلاً عن أن العامة كانوا يتبركون ببعض القبور التي يقام على ساكنيها من الأولياء القباب وهكذا.. أما الدولة القاجارية بفارس فكانت تعاني من الفساد في تلك الفترة مثلما كانت تعاني الدولة العثمانية التركية، وكان لدولتي روسيا وإنجلترا أطماع في بلادها، فقامت حروب بينها وبينهما بسببها، وكانت هذه الحروب تنتهي بفوزهما عليها، وقد جعلها هذا تفكر في الأخذ ببعض الإصلاحات الحديثة، ولا سيما في عهد ناصر الدين شاه ـ كما سنرى عندما نعرض لسيرة السيد جمال الدين الأفغاني ـ لكن هذه الإصلاحات كانت ناقصة مثل الإصلاحات التي قامت في الدولة العثمانية التركية.

وأما دولة السعديين بمراكش (المغرب) فإنها في هذا القرن كانت في حال أسوأ من حال الدولتين العثمانية والقاجارية، لأن فرنسا فصلت بينها وبين باقي بلاد المغرب باستيلائها على الجزائر عام ١٨٣٠م ثم تونس عام ١٨٨١م.

والدولة الرابعة الأخيرة هي دولة محمد علي باشا بمصر ونحن نسميها

دولة مع أنها كانت شكلاً تابعة للدولة العثمانية التركية إلا أن حاكمها قد تمتع باستقلال شبه تام، وكانت الدولة قد نشأت عام ١٢٢٠هـ ـ ١٨٠٥م وكان محمد علي ـ وأصله من مقدونيا ـ قد جاء إلى مصر ضمن الفرق العسكرية التي جاءت لإخراج الفرنسيين من مصر، وتحبب إلى شعب مصر وقادته من المشايخ حتى اختاروه والياً. ووضع نصب عينيه أن ينشئ له دولة قوية حديثة بمصر، فقام فيها بإصلاحات مدنية تمكن بها من إنشاء دولة قوية حديثة بمصر. ثم انتهز فرصة حدوث خلاف بينه وبين والي الشام وشنها حرباً على الدولة العثمانية حتى كاد يستولي في هذه الحرب على بلادها فحالت دول أوروبا وخصوصاً إنجلترا وفرنسا بينه وبين الوصول إلى هذا الغرض فعقد صلحاً بينه وبين الدولة بموجبه تركت جيوشه ما استولى عليه من هذه البلاد عام ١٨٤٠ وجمال الدين عمره عام واحد تقريباً، وإن كانت قد جعلت مصر له ولذريته من بعده، وكانت هذه الحرب بينه وبين الدولة العثمانية عاملاً من عوامل ضعفهما معاً كقوى إسلامية، واستفاد الأوروبيون من هذا الضعف، كما كانت الحرب التي شنها للقضاء على الدولة السعودية الأولى من أخطائه الفادحة أيضاً التي أضعفت المسلمين عموماً. وكانت إصلاحاته في مصر قد ذهبت بموته عام ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩م في عهد توفيق باشا بحجة حماية السلطة الشرعية من الثورة الشعبية ضدها، وبهذا انتصرت إنجلترا في منافسة فرنسا على مصر مما ستراه بشيء من التفصيل عما نعرض لسيرة جمال الدين.

نبذة عن سيرة السيد جمال الدين الأفغاني:

هو محمد جمال الدين بن صفتر، وينتسب إلى الترمذي المحدث المعروف الذي يرتقي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي، ولد بأشن أباد من

أعمال كابل عاصمة أفغانستان سنة ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٩م[١]. انتقل والده إلى كابل وهو في الثامنة من عمره، فدرس فيها علوم العربية والتاريخ والإنشاء والعلوم الشرعية والعقلية، كما درس في إيران وتعلم الفارسية والتركية. ثم تعلم اللغة الإنجليزية في الهند فجمع بهذا بين الثقافة القديمة والحديثة. وكانت زيارته ومقامه في الهند فرصة لتعرفه على خطر الاستعمار الأوروبي على البلاد الإسلامية، إذ رأى كيف سقطت حكومة الهند الإسلامية قبل ذلك بسنوات فتشبعت نفسه بفكرة تبصير المسلمين بالخطر المحدق بهم ورأى أن أحسن مكان لذلك هو مكة في موسم الحج فوصلها عام ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م، وهو العام الذي اشتعلت فيه ثورة الهند التي كان من جراء فشلها أن حلت الحكومة الإنجليزية في حكم الهند مباشرة محل شركة الهند الإنجليزية. وفي مكة أنشأ جمعية سماها جمعية أم القرى وكان أعضاؤها من جميع الأقطار الإسلامية وأنشأ لها مجلة أم القرى لتبصير المسلمين.

ثم عاد إلى أفغانستان وجعله محمد علي أعظم رئيساً لوزرائه لينهض بأفغانستان وهو أمر لم يرض إنجلترا فعملت على إثارة الفتن ونجحت في أن ترى أعظم معزولاً وتولي أميراً آخر ترضى عنه، فبدأ جمال الدين يعمل على إثارة الشعب الأفغاني على الإنجليز. والأمراء المستبدين الذين يتآمرون معاً عليه. ولم يكن قد بلغ سنه الثلاثين بعد. ثم أراد أن يجعلها ثورة إسلامية عامة على الإنجليز وغيرهم من الطامعين في المسلمين، وكأن الله قد أعده لقيادة هذه الثورة بما منحه من لسان فصيح، وقلب قوي، وثقافة

(١) يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «الإسلام في القرن العشرين» أنه يقال إنه ولد في «أسد أباد» في حوار محمدان من بلاد فارس ثم انتقل إلى الأفغان وتعمد إخفاء نسبته الفارسية بعد دعوته الإصلاحية حتى لا يطالب شاه العجم بتسليمه.

واسعة، فرحل إلى الهند وأخذ يدعو إلى الإصلاح الديني والسياسي والعلمي والاجتماعي بين أهلها حتى ضاق الإنجليز به وأحاطوه بجواسيسهم في كل حركاته وسكناته فاضطر أن يرحل من الهند إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ ـ ١٨٧٠م.

وأقام في القاهرة نحو أربعين يوماً كان يتردد فيها على الأزهر ويتصل ببعض أساتذته وطلابه ومنهم الشيخ محمد عبده.

ثم دعاه السلطان عبد العزيز إلى استنبول، وعينه عضواً في مجلس المعارف، فقام فيه بإصلاحات تنبه المسلمين من غفلتهم، فثار عليه بعض رجال الدين من الجامدين هناك وطعن شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي في عقيدته، ولتهدئة الفتنة أمرته الحكومة بالرحيل عن استنبول فرحل عنها إلى مصر سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م.

وفي مصر احتفل به الخديوي إسماعيل ووزيره رياض باشا ومكنا له من القيام بدعوته إلى الإصلاح ذلك لأن نفوذ الأجانب كان قد بدأ يتوغل في مصر حتى طغى على نفوذ إسماعيل عن طعن جمال الدين في الحكم الاستبدادي الذي كان طابع حكمه وعن تأليف جمال الدين لحزب سماه الحزب الوطني يقوم بما يعمل على تخليص البلاد من النفوذ الأجنبي، وعلى إصلاح الحكم وكان جمال الدين يرى مقدمات وقوع مصر تحت حكم الإنجليز كما حدث للهند من قبل فأخذ يخطب في تلاميذه من محبي الوطنية والحرية من الأزهريين بخاصة، إلا أن الأجانب كانوا قد سعوا لدى السلطان حتى حملوه على عزل إسماعيل باشا وتولية ابنه توفيق باشا.

ولم يلبث توفيق باشا أن أصدر أمره بنفي جمال الدين من مصر ورحل إلى الهند في عام ١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٩م بعد مقام نحو ثماني سنوات وترك

فيها رجالاً يقومون بها بعده. وقد قال جمال الدين لمودعيه حين خرج من مصر: إنني خرجت من الديار المصرية وما ألفت كتاباً، ولكني تركت لكم أثراً يغني عن جميع الكتب وهو محمد عبده، وكفى به لمصر عالماً. وكان أمل جمال الدين أن يجعل مصر هي الدولة الإسلامية البادية بالنهوض. ورحل جمال الدين من مصر إلى الهند فأقام بها ثلاث سنوات، وألّف في هذه المدة كتاب «الرد على الدهريين» وقد كتبه بالفارسية. والأساس الذي بنى عليه هذه الرسالة هو أن الدين ضرورة بشرية لازمة للإنسان لزوم الهواء والماء وأن كل حضارة وكل رقي بشري في الأرض إنما أساسه الدين، وعني في هذه الرسالة برد المطاعن الحديثة التي توجه للدين، فقد تنبه جمال الدين لخطر غزو الاستعمار الأوروبي الروحي لعقول الشباب الشرقي باعتبار لا ثقافة إلا عن طريق الغرب ولغته. ثم ضيق عليه الإنجليز في الهند عندما أحسوا بما يقوم به لشغلهم عن احتلال مصر بإشعال ثورة في الهند. وكانوا قد تمكنوا من القضاء على ثورة عرابي في مصر ونفوا الشيخ محمد عبده إلى بيروت.

فقصد جمال الدين فرنسا وأقام في باريس ودعا إليه الشيخ محمد عبده فذهب إليه سنة ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٤م وقاما بإنشاء جمعية في باريس[١] من مسلمي الأقطار المختلفة وسمياها ـ جمعية العروة الوثقى ـ وأنشآ مجلة سمياها ـ مجلة العروة الوثقى ـ لتدعو المسلمين إلى النهوض في دينهم ودنياهم. وهنا تبدأ صفحة جديدة من صفحات جهاد هذا الرجل الحديدي الإرادة. فبدلاً من أن يستكين بعد أن نفي مرتين أنشأ جريدة «العروة الوثقى» التي كان من ورائها جمعية سرية منبثة في جميع الأقطار الإسلامية

(١) يقول عباس محمود العقاد أنه قد تعلم الفرنسية.

اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين الغيورين على دينهم كانوا يتبرعون بما يستطيعون لتدعيم تلك الجريدة التي لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً على مدى ثمانية أشهر ظهر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ ـ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م وظهر العدد الأخير في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ ـ ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤م وقد تشددت حكومة مصر في منع دخول هذه الجريدة إلى البلاد أيما تشدد كما تشددت حكومة الهند في ذلك.

وأمام هذه الرقابة الصارمة توقفت الجريدة عن الصدور وانتهت مرحلة أخرى من مراحل جهاد السيد مدتها ثلاث سنوات أقامها في باريس تعلم خلالها اللغة الفرنسية وقابل في أثناء ذلك الفيلسوف الفرنسي رنيان وجرت بينهما محاورات.

كما دعاه بعض ساسة الإنجليز للذهاب إلى إنجلترا فأرسل السيد تلميذه الشيخ محمد عبده إلى هناك ذلك لأن هؤلاء الساسة أحسوا بوطأة حملة العروة الوثقى على الاستعمار الإنجليزي أرادوا أن يتفاهموا مع القائمين على أمرها على سبيل جس نبضهم لعلّهم يقبلون التعاون أن يتهاونوا في هذه الدعوة.

ولكن السيد نشر في العدد الرابع عشر من الجريدة صيغة المحادثات التي جرت بين الشيخ محمد عبده ولورد هرتنكتن، وزير الحربية البريطاني، والذي سأل فيه وزير الحربية ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن كافتهم لا يفرقون بين حاكم أجنبي وحاكم مصري؟

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن المصريين يحبون أوطانهم كما يحب الإنجليز بلادهم وأنه لا سبيل إلى قبولهم سلطان أي حكم أجنبي عليهم.

وهكذا نرى أن السيد ليس يدعو إلى استبدال سيد بسيد فهو لا يشير إلى فساد حكم الدولة العثمانية حتى إذا لاح حكم الإنجليز أسرع بالموافقة عليه لا بل هو يريد نهضة الأمة لتحكم نفسها ويعود مجدها.

وإن جريدة العروة الوثقى على قصر المدة التي ظهرت خلالها كان لها أبعد الأثر في تهييج شعور المسلمين والشرقيين ضد الحكم الأجنبي فقد كتبت في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية.

ومكث جمال الدين في أوروبا ليقوم بنفسه بما كانت تقوم به المجلة، ثم دعاه ناصر الدين شاه سلطان فارس فسافر إليه سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م وعينه وزيراً للحربية فقام بدعوته الإصلاحية في فارس حتى كثر أنصاره فيها، وقوي سلطانه على نفوس المثقفين من أبنائها، فخاف منه ناصر الدين شاه على سلطانه وخاف منه الجامدون من العلماء على سلطانهم.

واستأذن جمال الدين من ناصر الدين شاه أن يرحل في سياحة إلى روسيا، ونشر في جرائدها مقالات تردد في عالم السياسة صداها، ونشأ عن نشاطه إصلاح بعض شؤون المسلمين الخاضعين لروسيا كالإذن لهم بطبع الصحف والكتب الدينية والسماح بتوزيعها وانتشارها.

ثم انتقل إلى فرنسا وفيها تعرف بالفيلسوف الفرنسي رنيان وناقشه حول محاضرته التي ألقاها بجامعة السوربون عن «علاقة العلم بالإسلام» وزعم فيها أن الإسلام يعادي العلم ويحارب العلماء وأن العرب ليسوا أهل

حضارة. . فرد عليه جمال الدين رداً علمياً رضياً أثبت فيه أن ما وقع من مقاومة العلم والعلماء في بعض فترات تاريخ الإسلام لم يكن ناشئاً عن طبيعة الإسلام الذي يجل العلم ويكرم العلماء، وإنما منشأ ذلك سوء فهم بعض العلماء له. كما أثبت فيه حضارة العرب وأياديهم البيض على الحضارة الإنسانية بوجه عام. وقد كان لهذه المحاضرة والرد عليها دوي كبير في باريس وأرجاء العالم الإسلامي وقال عنه رنيان: كنت إذا تحدثت إليه فكأنما أتحدث إلى ابن سيناء أو ابن رشد[1].

وفي فرنسا تقابل مع ناصر الدين شاه الذي كان قد جاء في رحلة وألح عليه في العودة معه إلى فارس فرجع ولكنه قوبل بمقاومة شديدة من أعداء الإصلاح ومن ناصر الدين شاه نفسه عندما طلب منه جمال الدين أن يجعل حكومته قائمة على الشورى ونفاه ناصر الدين من فارس فقصد العراق.

وأنشأ في إنجلترا مجلة سماها ـ ضياء الخافقين ـ نهج فيها منهج مجلة العروة الوثقى، وحمل فيها على ناصر الدين شاه، وأخذ يؤلب عليه الأحرار من أبناء فارس، وكان لهذه الحملة أثرها إذ قتل. ثم دعاه السلطان عبد الحميد بعد هذا سنة ١٣١٠هـ ـ ١٨٩٢م إلى استنبول، فقربه منه وجعل يستشيره في شؤون دولته، ولم يقصد من هذا إلا أن يراقب حركاته، وسكناته، وهو قريب منه، فيعيش في جواره وكأنه في سجن إذ يحيطه بجواسيسه في غدواته وروحاته، ولا يمكنه أن يفارقه إلى بلد آخر[2]. . مع أن هذه الفترة التي دعا فيها جمال الدين إلى فكرة الجامعة الإسلامية، التي كان يعمل من أجلها السلطان عبد الحميد فقد كان جمال الدين ـ رغم علمه

(١) عدد مجلة الهلال «حضارات من الشرق» يونيو ١٩٧٦م.

(٢) عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام.

ببعض نواحي فساد الحكم داخل الدولة العثمانية التركية ـ يؤمن أن اجتماع المسلمين تحت راية واحدة ـ وهي راية الخلافة العثمانية وقتها ـ هو السبيل إلى قوة المسلمين وبالتالي نجاتهم من الخضوع تحت وطأة الاستعمار الأوروبي الذي كان يمهد لنفسه بتفتيت قوى المسلمين ومن ثم الاستيلاء عليها واحدة واحدة.. وبعد بقائه في الآستانة أربع سنوات يزفر فيها زفرات الأسى على جهوده الطويلة المضنية التي بذلها بالإصلاح دون أن يبدو أمل في نجاح مساعيه، مات في التاسع من مارس عام ١٨٩٧م متأثراً بالسرطان ـ كما قيل أو مسموماً في مؤامرة ـ كما هو المتوقع، وشيعت جنازته كما تشيع جنازة غريب مجهول لم يسر خلفها إلا أفراد قلائل من الذين علت عليهم الجرأة والإخلاص لذكراه الطيبة.

وبإسلام جمال الدين الأفغاني الروح طويت صفحة واحدة من أعظم رجالات الإسلام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

حركة جمال الدين الإصلاحية:

بتأخر الشرق الحضاري في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي بالنسبة لأوروبا ظهر نهر من التفكير لمجابهة ذلك التأخر.

وإذاً فبعد العرض الذي عرضناه لحياة جمال الدين وظروف حياته يتبين لنا أنه اتخذ من الدين أساس دعوته الإصلاحية جاعلاً هدفه الأسمى إيقاظ الروح ـ في وقت ساد فيه اليأس أو كاد بلاد المسلمين ـ ومقاومة طغيان المادة ومحاربة النزعات الإلحادية الهدامة التي كان يراها مصدراً لكل ما أصاب البشرية من ويلات وشرور عبر تاريخها الطويل، معيداً إلى العقل السليم مكانته في الإصلاح والتوحيد، ودرس القضايا الإنسانية العامة أو الخاصة على ضوء الدين الإسلامي.

وعلى الرغم من أن جمال الدين لم يكن في حركته الإصلاحية يفرق بين الدين والسياسة شأن كل عالم مسلم صحيح النظر فإنه يمكننا أن ندرس عمله في سبيل الإصلاح الديني من الجانبين التاليين:

١ ـ الجانب السياسي:

ويتلخص في السعي لإقامة حكم إسلامي نظيف، فقد دعا المسلمين إلى أن يتحدوا في مقاومة الخصوم من المستعمرين حتى يردوا الزحف الغاشم عليهم وعلى أوطانهم وأن يسعوا إلى الوحدة التي تحفظ كيانهم وتزودهم قوة، وأن يدعموا أسس الأخوة والتعاون بينهم على أن يبدأوا بتكوين روابط أخوية في شكل حلف يجمع شتات المسلمين تحت راية القرآن ورسول الإسلام، وفي نطاق تعاليمه الداعية إلى الأخوة والتعاون والاعتصام بحبل الله المتين.

٢ ـ الجانب العقائدي والاجتماعي:

(أ) وقد بينا من قبل كيف أنه في رسالة الرد على الدهريين قد أوضح كيف أن الدين ضرورة بشرية.

(ب) العروة الوثقى كأساس لوحدة المسلمين كما أوضحنا عند الحديث عن جمعية العروة الوثقى ومجلتها.

(ج) كما دعا علماء المسلمين إلى الاجتهاد وإِعمال الرأي فيما يعرض لهم من نصوص الدين قائلاً: «ما معنى: باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد؟ وأي إمام قال: لا يصلح لمن جاء بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه؟

فكان كثيراً ما يردد لا بد من حركة إصلاح ديني تزيل ما رسخ في عقول العوام وبعض الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي كفهم بعضهم للقضاء والقدر على نحو يجعلهم لا يتحركون لطلب مجد ولا للتخلص من الذل، حركة تخلص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ويذكر العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشرون بينهم ما أثبته الأئمة.. من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرعي منا في العمل لا في البطالة والكسل وما أرادنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين، فمن هذا نفهم أن حركته تقوم على إحياء أمجاد السلف الصالح والسير على منهجهم القويم كما تقوم على تحطيم الأوهام والخرافات في عقول العامة.

حركة جمال الدين الأفغاني ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية:

أوضحنا أن حركة جمال الدين كانت في أساسها حركة سلفية تدعو إلى تنقية الإسلام مما علق به من شوائب والعودة إلى فعل ما كان يفعله السلف الصالح وتخليصه من البدع التي شوهت عقيدة التوحيد، وإعمال العقل والاجتهاد بشرط عدم الخروج عن الكتاب والسنة. إلا أن ظروف جمال الدين الأفغاني كانت مختلفة، فهو قد زار عديداً من البلاد الشرقية والأوروبية وتعلم عدة لغات غير العربية منها اللغة الإنجليزية والفرنسية مما جعله يدخل في مناقشات مع بعض الأوروبيين من الذين هاجموا الإسلام. وربما كانت ولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في إقليم نجد المنعزل مما جعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يستطيع غير زيارة بعض البلاد المجاورة للدراسة، والثابت أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يعرف

العربية وحدها وإن كان قد تعمق تعمقاً كبيراً في المذاهب الفقهية وخصوصاً الفقه الحنبلي. وكان جمال الدين حنفياً. وربما كان لقرب الأفغان مسقط رأس جمال الدين من الهند ومن فارس ما جعله يزورهما ويتعلم الإنجليزية والفارسية.

إخوتي:

لعلّي لم أسرد في استعراض السيرة لجمال الدين لكن في الختام ينبغي أن أقول لكم إن المدرك لي في الأساس هو ما سمعته من حملة بعض المنحرفين الذين جندوا أنفسهم ليحاربوا كل بطل.. هؤلاء سمعتهم يقولون عن جمال الدين إنه يهودي صهيوني.. إن الإسراف في بعض الألسنة تصنع كل بطل من بني الإنسان يهودياً.. ثم صهيونياً لأنه يهودي يعطي المجد لإسرائيل.. قد يكون بعض هؤلاء مناصراً لإسرائيل أو منحازاً إلى الصهيونية لكن هذا لا يعني أنه يهودي.. فزعم هؤلاء يستند إلى قول مؤلفة أمريكية محدثة.

إن هذا الاتهام ليس حرباً على جمال الدين في هذا الوقت.. وإنما هو حرب على الإسلام.. حرب على التضامن الإسلامي.

وخذوا إسرافاً لا مثيل له فيما ذكره العقاد عن الأستاذ حسن البنا، فقد تسادى العقاد في خصومة ضد حسن البنا إلى أن اتهمه بأنه يهودي، لماذا؟ لأن أجداده هاجروا من المغرب وأصبحوا صناع الساعات في مصر ولا يحترف الصناعات الدقيقة في المغرب إلا اليهود.. وفات العقاد أن الصناع في خان الخليلي يصنعون مثل هذه الأشياء الدقيقة وهم مصريون عرب وليسوا يهوداً.

هذا إسراف يجب على العقاد يرحمه الله.

إن اتهامه باليهودية لا أساس له من الصحة، واتهامه بالإلحاد طعن من القبوريين والعشويين.. فهل يكون ملحداً من كتب رسالة يرد على الدهريين؟

إخوتي:

أريد أن أختم محاضرتي بكلمات مجنحة لجمال الدين وعن جمال الدين.

حين نفاه الخديوي توفيق أرسل له قدراً من الذهب يعينه على السفر فرفض السيد ذلك العطاء، وقال.. ردوها عليه لا يعدم الأسد فريسته أينما ذهب.

وحين أرادوا حمل حوائجه قالوا أين حقائبه؟ فقال السيد عن أي الحقائب تسألون؟

حقيبة الملابس أم حقيبة الكتب؟

قالوا عن كل منهما نسأل.. فقال: حقيبة الكتب هنا وأشار إلى رأسه وإلى مكتبه، وحقيبة الملابس هي هذه وأشار إلى ما يلبس ولا غيره.

أما الكلام عنه فكلمة مسيو رنياند فيلسوف فرنسا فقد اجتمع مع جمال الدين في باريس وتحدثا طويلاً.. فلما انتهى الحديث وخرج جمال الدين سألوا الفيلسوف الفرنسي كيف رأيت السيد؟ قال: لقد نقلني إلى العصور الوسطى.. عصور الإشراق للحضارة الإسلامية فكأنما كنت أتحدث مع ابن سيناء والفارابي، واجتمع في لندن مع الفيلسوف البريطاني هربرت سمنيسر فسأله الفيلسوف قائلاً لجمال الدين ما هو العدل؟ فقال العدل أن تتعادى قوى، وقال إسعاف النشاشيبي لسعد زغلول أيام كان النشاشيبي في القاهرة يلقي كلمته في يوبيل شوقي.

قال لسعد..

يا سعد.. لقد نهضت في الشرق أمتان اليابان وجمال الدين..

وخلاصة القول إن رجلاً ترك ثبتاً من الرجال الكبار يحملون فكرة ويحسبون نهضة الشرق لجدير بأن يسقط كل اتهام عليه.

فإليكم أسماء هؤلاء الرجال:

محمد عبده

سعد زغلول

عبد الكريم سليمان

إبراهيم الهلباوي

شكيب أرسلان

رشيد رضا

والرديف لهؤلاء أبو خطوة حمدي ناصف ـ محمد عبد القادر الكيلاني وغيرهم حتى سامي البارودي وموسى الجار الله وعبد الرشيد إبراهيم وأيضاً حافظ إبراهيم، والذين عاشوا معه والذين تعايشوا مع فكره كثيرون، وما أكثرهم في الهند وعلى رأسهم أبو الكلام أزاد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

لا حضارة لليهود

كلمتان كثيراً ما تلوكها الألسنة.. هما الحب والحضارة.

فالحب كلمة شاعت وذاعت حتى أصبح وكأني أراها سقيمة تعاني ليس من مرض في ذاتها، ولكن من هؤلاء المرضى، ومرضهم ليس منها ـ يتذرعون بها ليس في مغازلة الحبيب، وإنما في ممارسة كل الانحرافات ـ فالمذاهب الهدامة يدعي أصحابها أنها الحب للشعوب والطغيان المدمر يرسل كلمة الحب وسيلة لمن يتعامل معه من الذين يجرمون بالخيانة ـ يمارسون خدمة للطغاة باسم الحب وهكذا انحدرت كلمة الحب الغالية والعالية إلى الحضيض فهل أقول؟

(كم من جرائم) ترتكب باسمك أيها الحب؟

والحضارة انحدرت كالحب ينطق بها من يعرف ومن لا يعرف ويدعيها الذين لا حضارة لهم ـ فباسم الحضارة كان الاستعمار ـ يدعون أنه للتحضير والتمدين، وباسم الحضارة الزائفة والمكذوبة تهدم الحضارة العتيدة والعميقة.

ولقد تكلم زعماء العالم العربي وتبعهم آخرون يقولون إن إسرائيل تغزو بحضارتها الحضارة العربية وهم بذلك يعطون إسرائيل القيمة الحضارية كأن اليهود شعب حضاري، وهذه أكذوبة روجتها اليهودية والصهيونية وتجرعها رجال في الغرب إما مجاملة لليهود وإما خوفاً منهم أو تدجيلاً على العرب،

وكل هذا واقع في هؤلاء الرجال الذين جرعوا بعض مثقفينا هذه الأكذوبة.

إن اليهود وتمثلهم إسرائيل في طغيانها واحتلالها لأرض عربية ليس لهم أي حضارة قامت في التاريخ.

إن الحضارة كيان ـ مجتمع، واليهود ليس لهم كيان، ولا يعيشون في مجتمع خاص بهم ـ إنهم المشردون تجدهم في كل الشعوب ـ يعيشون على حضارة هذه الشعوب، وحتى ما بناه ملك داود وسليمان عليه السلام من الهيكل وما إليه لم يكن من صنع اليهود بأيديهم وإنما هم صناع من شعوب أخرى خدموا ملك داود وسليمان عليهما السلام ـ حتى إذا ورث الشعب اليهودي ذلك، بعثر هذا البناء الحضاري لأنهم وأعني اليهود أصحاب وجدان حضاري ـ إنهم مجتمع صحاري جاءوا إلى مصر على العير ـ أعني الجمال، وخرجوا منها يركبون العير أعني الحمار، والمجتمع الحماري ما كان ولن يكون حضارياً ـ مثلهم مثل الغجر والنور والصلب والغز يعيشون على هامش المجتمعات الحضارية.

فطغيان إسرائيل في الأرض العربية في فلسطين أرض الأنبياء التي عاشت المسيحية في الغرب على حضارة الشرق بهؤلاء الذين بشروا بها في الغرب فالزي الحضاري في الكنائس والبناء فيها والطعام المعد في الأعياد مثل من أمثلة حضارة الأرض العربية والإنسان العربي.

وحين اعترفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ومن إليهم بدولة إسرائيل ـ كتبت مقالاً أشرح فيه أن الذين صوتوا لتأسيس هذه الدولة أو الذين اعترفوا بعضهم قد تناسى حضارته تحقيقاً لمطامعه وبعضهم لا حضارة له لأنهم من الدول الحديثة ـ أما الذين لم يصوتوا ولم يعترفوا كالهند واليونان وإسبانيا ولحقت بعدهم الصين حتى الآن كانوا دولاً في شعوب

حضارية لم يسقطوا من أنفسهم الاعتراف والتقدير لحضارة العرب وأسقطوا في عملهم المضاد لوجود إسرائيل الاعتراف بها والتصويت لها لأنها ليست ممثلة لأي حضارة، وقد قرأ الأستاذ محمد التابعي يرحمه الله هذا المقال حين زار محمد سرور الصبان يرحمه الله فقال: «إن هذا الكاتب قد جعلني أنكر على نفسي ألا أتصور هذه النقطة ـ فلا حضارة لليهود».

والكلام ليس تحاملاً على ما هو واقع من ادعاء الحضارة لليهود وأن تحايل بعضهم أن بعضنا قد مارس التحامل في الأفكار على الذين يزعمون أن لليهود حضارة ـ فحين نتحامل لسنا من الحمق أن نمارس التحايل أو الحملة على ما هو حق ـ فالذين يعتقدون أن لليهود حضارة يريدون بها الحرب على حضارتنا ـ إنما هم قلدوا غيرهم أو تقلدوا الدفاع عن فكرة خاطئة أو عن إنسان قال مثل ذلك أحسب أن فيه إعطاء الحق لشعب حضاري أن يفرض حضارته.

فالاعتداء من أي أحد مهما كبر مقامه أو قدس غيرنا قيمته لا ينبغي لنا إلا أن نقول كلمة الحق الذي نعتقده دفاعاً عن أمتنا عن حضارتنا عن أخلاقنا.

إن الحرب بين العرب وإسرائيل دفاع عن السلام.. عن السلام.. عن الأرض.. وفوق ذلك عن الدين وعن الحضارة.. وعن الحياة، فالقول بأنها حرب حضارة ضد حضارة ـ دعوة تسترخي عضل الشعوب وتخرب وجدان الشعوب ـ إن هذه الحرب الانتصار فيها يحدد مستقبل الأمة العربية كلها.. بل وأكثر من ذلك مستقبل الإسلام في أي مكان.

فإسرائيل اليهودية الصهيونية صليبية في ثوب جديد ـ توسعية تريد أن تحقق أحلام الاستعمار الجديد.

لا حضارة لليهود لأن الحضارة كيان وليس لليهود كيان فهم شعب

مشرد صنع التخريب واحترف التدمير في كل كيان أضافه.

ولعلّي قد قلت في نداء كان في حلم صادق أقول ابشروا أيها المسلمون إنه لا ملك لإسرائيل فدعوة سليمان عليه السلام «وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي» هي دعاء له ـ متعه الله بالملك العظيم وهي دعاء على إسرائيل بالذات لا يكون لها ملك، وقد تحقق هذا الدعاء عليهم ـ فبعد سليمان لم يكن لهم ملك، وإنما كان لهم التشريد. ولئن سألني بعضهم عن العباقرة من اليهود كنيوتن وانشتاين وابن النفيس وإميل لوفيج واستفان دي فيج، وحتى ابن السموأل.. لئن سألني أحد عن هؤلاء وهم يهود حضاريون كيف أنكر عليهم الحضارة؟

والإجابة قد كتبتها من قبل في المقال الذي قرأه التابعي هكذا. إن نيوتن لم يكن في ثبت الحضارة اليهودية، وإنما هو في ثبت الحضارة الإنجليزية، واينشتاين لم يكن في ثبت اليهود حضارياً، وإنما في ثبت ألمانيا وفي حضانة الولايات المتحدة، وإميل لوفيج وستيفان دي فيج حضارة نمساوية.

أما السموأل شاعرنا صاحب الأبلق في تيماء فهو من شعراء العرب في ثبت الحضارة العربية، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية هو في ثبت الحضارة العربية نشآ في تلك المواطن ـ كتبا بلغاتها اجترتهما شعوبها أذاعا ما صنعا ـ فليس من الحق الادعاء بأنهما من حضارة اليهود وإن كانا يدينان باليهودية.

وأخيراً فإن الحضارة طبيعية في الشعوب ذات الكيان أما ما هو موجود عند إسرائيل الآن فتمدن لم تصنعه فهو استعارة من مدينة الغرب. وفرق كبير بين الحضارة الطبع والمدنية المصنوعة.

وأخيراً فالحضارة زمان وكيان وإنسان بإيحاء الوجدان.. واليهود ليس لهم كيان وليس فيهم وجدان الإنسان.

أشياخ ومقالات

الإهـداء

والهدية لا تكافئ المهدى إليه وإنما هي تنم عن الشكر يتقدم به عربي سعودي إلى هذا الإنسان الكبير هبة الله النعمة والتوفيق ليكون كل نجاح تم على يديه هو الهبة من الله أنعم بها علينا جميعاً. فصاحب السمو الملكي ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء الأمير فهد بن عبد العزيز كان ولا يزال هبة من الله لشعبه، تولى وزارة المعارف فإذا المعرفة تنتشر وتنتصر في المدينة والقرية، في السهل وعلى ذروة الجبل حتى مست المعرفة مشاعر البداوة في الصحراء. ففي عام من أعوام الغيث وفي المنطقة الشرقية نادى الغيث المستغيثين فإذا هم يخرجون إلى الحماد والصماد والنفود، ولكن كيف يخرجون والأبناء في المدارس، فإذا المجال المتسع والوراثة الراسخة تدعو طلاب الكلأ أن يأخذوا أبناءهم ويأخذوا المعلمين ينصبون الخيام وبيوت الشعر فصولاً في مدارس حرصاً على ألا يفوت التلميذ يوم من أيام المدرسة.

ظاهرة حضارية انتمت إلى عرق أتاحها وأعطاها المدد وزير المعارف فهد بن عبد العزيز.

وانتشار المعرفة دعا إلى تأسيس الجامعات فإذا هبة الله تعطي هذا الإنسان الهبة لشعبه هبة شامخة ألا وهي أن كان رئيس المجلس الأعلى

للتعليم، أقام بناء الوحدة أبوه ورسخ الوحدة أبوه فإذا هو الأمير فهد بن عبد العزيز يمشي على الأثر يتم البناء في جامعة الملك سعود في جامعة الملك فيصل في الجامعة الإسلامية، في الجامعات الأخرى حتى أذن الله فأنعم على الملك خالد بن عبد العزيز أن يؤسس جامعة أم القرى.

فبناء الصناعة في الجبيل على ساحل الخليج كبناء الصناعة في ينبع على ساحل البحر والجامعة في اليمامة كالجامعة في تهامة، لا يعني كل ذلك إلا الترسيخ لوحدة الكيان الكبير، أفلا أجد نفسي وأنا من جيل التجربة جيل الحمد أن أكون لهذا الأمير ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء من الشاكرين أتقدم إليه بهذا الإهداء. فلولا أني آمنت به ونعمت بفضله لما استطعت أن أرعف القلم أكتب حروفاً سوداء على قرطاس أبيض لا يسود به وجهي ولن أزعم أني أحد الذين أعطوا القرطاس بياضاً على بياضه.

أشكر له الفضل والمنة أن أتاح لي الفرصة أن أطبع هذه المقالات وأسأل الله أن يصون بالملك خالد وبهذا الأمير وبكل إخوانه وبكل شعبه أن يصون علينا نعمة الأمن وأن يحفظنا بعقيدة التوحيد وتوحيد الكلمة.

الشهيد فيصل العظيم

ـ سمعت عقول الرجال الخبر.. فاسترجعوا يرتلون قوله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) وسمعت القوم الخبر فأرسلوا الدموع، صامتة تتكلم، تسأل نفسها، تضع أمام عينها مناقب العظيم، صنع لهم الحفاظ على الأمن والإيمان، ورفع لهم قدراً من الدنيا كلها كأنما هو وهو ابن هذا التراب وابن هذه الأرض مآزر الإسلام ومعاقله ومسار الإسلام ومحافله قد أراد أن يعيد لنا كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، مجدها العظيم، لم يعد الإسلام فيها غريباً وكان كل مسلم أخاً قريباً، وكان كل عربي صديقاً حبيباً..

الأمهات والبنات، في القصر، كل قصر.. صرخن يقلن: واحزناه!! والأمهات والجدات والبنات في القفر، في كل بقعة من الصحراء صرخن يقلن (وافري حبيبي فرياه)..

كل أم كانت أمه، في جنان الآملين له طول الحياة، كل بنت كانت بنته آملات الصعود إلى فوق طموحهن يصنعن به الحياة!

والأطفال في المدارس، في كل قرية بين صخار الحرار في كل واحة يسألون اليوم الرحمة لهذا الشهيد..

لقد كان الشهيد الملك فيصل روحاً مسلمة سيره الإيمان إلى مكان يصل لنصرة الإيمان.

قادته الروحانية التي تقمصت وجدانه إلى ما هداه إليه من العمل.. عرفت هذه الروحانية من رؤى صادقة صدقها الواقع فمن الأمانة وقد كتمت نشرها من قبل أن أنشرها برهاناً على روحانية الشهيد.

في ليلة قبل ثلاث سنوات على مائدة العشاء وكان على المائدة سمو الأمير فهد بن عبد العزيز فأخذ الملك يتحدث عن رؤيا حدثت له وقال وعلى وجهه نور:

لقد جاء أحد الرجال (من الجربا) يطلب مقابلتي فأذنت له، فأخذ يحدثني ليقول: لقد منّ الله على أن أرى رسول الله في العام مرة ـ ﷺ ـ فرأيته قبل أيام في عامي هذا يقول لي عليه الصلاة والسلام:

(بشر الملك فيصل بالنصر.. وأخبره أن يستعد..).

سمعناه وهو يتحدث ـ تغمده الله برحمته ـ فدعونا له الخير وسألنا أنفسنا عن الاستعداد وكانت الإجابة في أيام العبور ثم في بقاء المعركة حينما أعلن سلاحه.. سلاح البترول.. قلت لجلالته بعد ذلك وبعد العبور:

لقد كنا نسأل عن الاستعداد، نستبعد أن يكون سلاحاً يحمله الجنود فإذا أنت تفاجئ بسلاح تدفعه من أرضك الطهر، سلاح البترول.

في الليلة الثالثة والعشرين من شهر شعبان قبل رمضان العبور وقبل أن يزور جيشنا في تبوك رأيت هذه الرؤيا فجفلت أن «أقولها له.. ولكني صبح نهارها قلتها لأصدقائه أشدهم على روايتها اليوم. رأيتني أدخل مكة

في ظلمة من ظلام.. فإذا أنا بسواد من الناس يقف بينهم الشيخ عادل كردي ابن الشيخ ماجد كردي يتكلم بصوت منخفض، فقلت له:

لا أريدك. أريد أخاك طاهر كردي.. وقد عرفت عادل وإخوته.. لا طاهر لم أعرفه وقد مات.. فخرج من ظلة كأنها قبة رجل أبيض طوال مرسلة بيضاء.. ناصعة البياض.. فهرولت نحوه أقبل صدره.. فلما رجعت إلى وراء أقبل رجل لا أعرفه.. لباسه لباس البادية، يتشمغ بشماغ أزرق فأقبل علي يعانقني ويقبلني على صدري وهو يجهش بالبكاء فنظرت إليه فإذا هو عبد الحكيم عامر.. فجفلت أتأخر فناداني الشيخ طاهر في موقفه المرهب والمطمئن في الوقت نفسه يقول لي: بشرة بالنصر.. فإن وراء رجلكم رجالكم الملك فيصل..

ولم تمض أيام النصر حتى كان هو رجل النصر.

ورؤيا أخرى أخبرته بها همساً بيني وبينه أخبرني بها السيد ياسين طه.. وأخبرت بها الصديق محمد عمر توفيق وزير المواصلات قال لي السيد ياسين طه:

آمنت بروحانية الملك فيصل، واسمع السبب:

حدثتني عجوز لا أسميها.. قالت:

لقد رأيت الملك فيصل واقفاً بين المقام والحجر الأسود وإخوانه بعيد ينتظرونه، فأقبل رسول الله ﷺ.. ومعه أبو بكر وعمر.. فقال له الرسول:

مرحبا بالأمين تقدم إلى مقام إبراهيم.

فقال فيصل:

هذا مقام الأنبياء يا رسول الله..

قال:

بارك الله عليك أنت الأمين حارس الحرمين..

وأخبرني السيد ياسين طه أيضاً عن هذه العجوز.. وأخبرت الشهيد عن ذلك همساً بيني وبينه..

قالت العجوز:

لقد رأيت فيصل يقبل على المدينة فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر يقبل عليهم الشهيد يسلم بكل الأدب فيقول الرسول ﷺ:

مرحباً بخادم الحرمين..

أقسم بالله ما كذبت في هذا كله. وقد عزوت كل خبر إلى صاحبه وإلى شاهديه.. ذكرت هذا كله برهاناً على روحانية المؤمن هداه الله إلى خير.. رحمة منه، فالله هو أرحم الراحمين..

نسأل الله أن يديم علينا نعمة التوفيق.. كفل أثر.. ونسير إلى صراط مستقيم..

التعزية لا تكفي فيها كلمة.. ولكن آداب السلوك تمليها.. وهي مني ومن كل الشعب ترفع إلى جلالة الملك وإلى ولي العهد سمو الأمير فهد.. وإلى إخوانه.. وإلى كل أبنائه أجزل الله لهم لما عزاء.. وأثاب الشهيد الرحمة والرضوان.

الفيصل هو الجائزة

ـ الملك فيصل الشهيد هو الجائزة، فحين أقاموا احتفالهم بتوزيع جائزته أعلنوها على الناس، ولم يكن ذلك تذكيراً لمآثر البطولة والرجولة، وإنما بمأثرة واحدة هو التذكير به ناشر علم، مؤسس جامعات، أول من أنشأ مدرسة لتعليم البنات. فبطولة الزعامة التي صان بها هذا الكيان الكبير، وبطولة الدعوة إلى التضامن الإسلامي إلى آخر ما هنالك من عمل الساسة، وتحركات الزعامة، لا أجد لدي متسعاً من الوريقات أكتب تاريخاً فذلك مجاله بعد، وإنما كل ما أريده هو أن أسجل أن هذا الملك فيصل الشهيد كان هو الجائزة تفضل الله بها علينا ثم جاءت على نهج قوي هو نهج أبيه، الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته. فقد كان عبد العزيز هو الذي أقام دعائم هذا الكيان الكبير، وقد جاء الفيصل صواناً لهذا الكيان الكبير لم يصنع بالدفاع عنه فحسب وإنما صانه بغراس أثمر تثبيتاً لقيمة النقد ـ الريال ـ إقصاءًا للتغالي بسعر الدولار وما إليه. تنمية وعمراناً على أساس من نشر المعرفة، ونشر لا تحسبوه أنه كان هيناً على الفيصل فما أكثر العراقيل من الذين لا يريدون مواكبة التطور ومن الفقر في الإنسان المعلم ومن القلة في البناء دار المدرسة دور الكليات، أفليس في كل هذا العطاء من فيصل هو الجائزة منه وإليه به وعنه. ولنا.

لكن الاحتفال بتوزيع الجائزة يعطي المعنى الكبير لمعاني التقدير ليس له كبطل وإنما له كوارث لدعوة السلف، وللسيف الذي نصر عقيدة السلف فأعطى العقيدة والسيف.. القوة قوة العلم والثقافة التي تصون العقيدة.. حتى إذا أمسكت بالسيف لم يبق حديدة في اليد وإنما حديد على الباطل، فالسيف لا يعني إلا أنه كل ما نستطيع من قوة التغيير كان ـ يرحمه الله ـ ينكره، والتطور كان يعانقه، فجائزته قد ارتفعت بالقيمة حين كان أبرع هداياها وأبرزها هي ما تعتز به حين شرف الملك خالد هذا الاحتفال وقبل الهدية ولن أقولها منحة فخالد بن عبد العزيز هو المنحة كأنما هو الجائزة الثانية من نعمة الله علينا ثم من عطايا عبد العزيز.

لقد توج الاحتفال بهذه الهدية كأنما المحتفلون بالجائزة قالوا للملك خالد: إنك بتقبل الهدية تمنح الجائزة قوة الاستمرار لها كما أنك أيها الملك قد وقفت في الموقف الوسط الخير، تزرع الإفراط ولا تبيح التفريط.

فالإفراط كما قلت أكثر من مرة ـ كان ميوعة نصرانية أحبت المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حتى تمادت فاتخذت منه ومن أمة الهين والتفريط عقيدة اليهودية وقسوتها أبغضت المسيح بن مريم فنصبت له الصليب.. أما دينك الإسلام أيها الملك وبنصوص القرآن ـ فقد أبطل التثليث شركاً يكفر به المؤمنون ونبذ الصليب ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، فحين أبطل الشك وقذف بالصليب إلى النار وبمن نصبوا الصليب من الذين غضب الله عليهم.. إلى الجحيم.. أعطى الذين يستأهلون الثناء من الرسل والأنبياء والصالحين ثناءً فقد كانوا عباداً صالحين فكل الثناء عليهم لأنهم أهل التوحيد فليس من الإفراط أن نذكر

المآثر لمن أحسنوا عملاً، وإن من التفريط ألا نذكر بمآثر الرجال الذين أخلصوا في أعمالهم.

فالاحتفال بجائزة الملك فيصل ليس ذكرى نتجاوز فيها إلى التفريط وإنما هو تذكير بمآثر الرجل أحسن العمل.

ولعلّي لا أنسى أن أذكر رجال الجائزة بشيء مهم فقد منحتهم الجائزة لمؤلفات فأين هم لم توزع علينا؟ وأين هي لم نجدها في كل مكتبة؟ وأين هي لا تكون مصدراً في الجامعات؟ ولئن منحتهم الجائزة لحياة الأحياء لقاء أعمال عظيمة فلماذا لا تتسع الجائزة لحياة أموات لا نقرظهم ولا نحتفل بهم وإنما نطبع آثارهم فمؤلفات كثيرة في عصرنا الحديث ألفت قبل الجائزة لعلّنا في حاجة إلى إعادة طبعها كالوحي المحمدي لرشيد رضا، وكالعبقريات للعقاد، وكتاريخ الأدب العربي للرافعي وكالمفصل لجواد علي، وكالقاموس المفهرس لآيات القرآن وغير ذلك مما أعتقد أن الدكتور الصديق أحمد الضبيب يعرفها فلعلّي أريد من جائزة الملك فيصل أن تكون غارسة لمكتبات أكاديمية لا تلقى فيها المحاضرات وإنما تعطي القارئين المحاضرات.

تهانينا للقائمين بها.. والحمد لله على توفيقه..

عبد الحَق الهاشمي

ـ ولعلّي لا أعذر نفسي، وقد ترجمت لبعض أشياخي أذكر بعض الذكريات.. وما قصدت من ذلك إلا التعريف به.. لعلّ بعض المحبين، يعنى بالترجمة أكثر وأكثر..

ـ ويعز علي ألا أترجم لثلاثة من المشايخ: الشيخ علي المالكي، عالم مكة في أيامه، والشيخ يحيى أمان، الفقيه الوقور، وشيخ الشيوخ عبد الحق الهاشمي. فالأولان سأسعى أطلب من بعض من عرفوهما في مكة أن يكونوا المدد لي، إذا ما ارتضوا أن يُتَرْجَمَ، أو أن يكونوا هم المترجمين.

ـ ولعلّي أعول كثيراً على الأستاذين: أستاذنا محمد علوي عباس مالكي الحسني، وأستاذنا الصديق، صاحب الثبات أحمد جمال.. أما الثالث، فقد طلبت من أستاذنا أبي محمد علي المشهور بأبي تراب الظاهري، أن يوافيني بترجمة والده وثبته في نقاط.. أضعها منسوبة إليه، تذكيراً بفضل الشيخ وشكراً لما كان يبلغني عنه من دعاء لي، فيه بعض الثناء على ما كتبت من السِّيرَ، بل إن الشكر ينبغي ألا يقتصر علي.. وإنما أنا حفيل به، باسم المسجد الذي عمره «المسجد الحرام» وباسم دار الحديث، في دار الأرقم بن الأرقم على الصَّفا، وباسم العلم «أعز الأسماء» وأجل الأسماء وإليكم ما كتب أستاذنا أبو تراب من سيرة والده، ولعلّ في هذا تشجيعاً للذين يعرفون بعض الأشياخ، فينشرون أو يرسلون إليّ، لأكتب وأنشر:

أبو محمد عبد الحق بن عبد الواحد بن محمد بن الهاشم الهاشمي العمري يتصل نسبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو الجد الرابع والأربعون له فهو من أولاد زيد بن عبد الله بن عمر، ارتحل آباؤه إلى الهند أيام محمد بن القاسم الثقفي، وتسمى قبيلته هناك قبيلة الشيوخ حتى اليوم.

ولد سنة ١٣٠٢هـ ومات عن اثنتين وتسعين سنة من العمر. تربى في حجر والديه وحيداً حيث مات إخوته فرباه تربية حسنة، تلقى تعليمه في الابتداء على يد والده فدرس علوم الآلة والأدب الفارسي وأتقن الصرف والنحو وحفظ القرآن، ودرس علوم العربية والشعر، ثم أمره والده بالخروج في طلب العلم فاتصل بأكثر من ثلاثين شيخاً أخذ عنهم مختلف العلوم ودرس عليهم مختلف الكتب، وكره علم المنطق والفلسفة في صغره وشرع في فروع الفقه ثم شغف بعلم الحديث وحبب إليه تفسير القرآن، فأقبل عليهما إقبال المتفاني، وترك التقليد ورفع راية الدعوة السلفية وأسس دار الحديث واشتغل بالتدريس في علوم القرآن والسنّة وحارب أهل الأهواء والبدع والشرك بالخطابة والكتابة، وأسلم على يده أناس كثيرون من الكفار وتاب آخرون على الشرك والنذور لأهل القبور كما كانوا على ذلك في بلاده التي عاش فيها.

وحارب القبوريين بالمناظرات والمباهلات فنصره الله وقامت مدرسته ببث علوم الإسلام في أنحاء البلاد، وتخرج على يده فيها مئات العلماء، من أكابرهم اليوم على قيد الحياة الشيخ سلطان محمود شيخ دار الحديث بجلال بور وكان سلفي الاعتقاد يحترم اجتهاد الأئمة ويقدم السنة على الرأي المجرد ولا يعترض على الأئمة المجتهدين، ويعمل بالكتاب والسنّة ويحملهما على ظواهرهما دون تأويل، وكان يجعل الحديث مفسراً لكتاب الله، وإذا لم يجد فيهما ما يريد أفتى بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم

من المجتهدين، ولا يبالي لومة لائم في القيام على هذا المنهاج، وكان يعظم الأئمة ولا سيما الإمام البخاري والإمام أحمد وثقبي بن مخلد والطبري وابن حزم، ويقدم من كتب الحديث الموطأ ثم الصحيحين على الكتب كلها، ونفر عنه بعض رفقائه لهجرة التقليد وقوله إذا ثبت الحديث يقيناً فالتقليد إشراك في الرسالة وكان شديد التحري في إثبات الصفات على ما جاء في الكتاب والسنة على ظاهرها وينكر على المؤلفين إنكاراً شديداً، ظهر هذا منه أيام الشريف حسين حينما حج واجتمع بعلماء الحرمين، فكان موضع إجلال في مناظراته معهم.

من أكابر مشايخه شيخ الكل السيد نذير حسين الدهلوي المحدث الذي انتهت إليه الرحلة في زمانه. والمحدث محمد حسين البثالوي، والشيخ أبو محمد الطنافسي وأحمد بن سالم البغدادي، والشيخ عبد الرب الغيطي، والشيخ حسين بن حيدر القرشي والشيخ أبو الفضل القنبري وغيرهم نحو أكثر من ثلاثين شيخاً. وكان رحمه الله خطيباً جهوري الصوت، إذا كان في الخلاء يسمع من نحو ثلاثة كيلومترات، خطب مرة في دار المهاجرين بالعتيبية فأسمع من بالبيبان بدون ميكرفون وهو شيخ كبير في حفل أقيم على شرف الأمير عبد الله بن سعود أيام تأسيس دار المهاجرين، وكان سريع الخط رديئه سريع المشي، مقداماً شجاعاً يجيد الفروسية والرمي والسباحة قام بتدريس الحديث بالهند قبل أن تكون باكستان أكثر من أربعين سنة، وقام بالتدريس بالمسجد الحرام ودار الحديث بمكة أكثر من خمس وعشرين سنة أخذ عنه إجازة الرواية مئات من العلماء والطلبة وعلى رأسهم بعض كبار المشايخ بنجد والبلد الحرام لأنه صاحب سند عال، وصاحب طرائق متعددة في الروايات واتصال الأسانيد، لذا تجد تلامذته في أنحاء الدنيا شرقاً وغرباً، أنجب خمسة وعشرين ولداً، تسعة منهم على قيد

الحياة، تزوج سبعاً من النساء في فترات مختلفة، أكمل شرح صحيح البخاري في عدة مجلدات، وتفسير القرآن في عدة أجزاء، وشرح المسند الحنبلي وأكمل منه أجزاء، وجمع رجال المسند في مجلد، وفهرسة المسند في مجلد، وله مسند الصحيحين في سبعة مجلدات ضخام أمر بطبعه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وله مصنف الصحيحين في ثمانية أجزاء سيطبع أيضاً على نفقة دار البحوث والإفتاء والإرشاد، وله شرح مقدمة صحيح مسلم، وأسماء رجال الصحيحين، في مجلد ضخم وشروح الألفيات في المصطلح، وشرح كتاب التوحيد للبخاري، وشرح تراجم أبواب البخاري في مجلدين إلى غير ذلك من الرسائل العلمية في مختلف المباحث، وكان صحيح البخاري لا يفارقه، ولا يند عنه حديث في السنن والمسانيد وكان حافظاً راوية. وكان زاهداً في الدنيا يحب نشر العلم، ولا يتقاضى على التدريس أجراً البتة اللَّهم إلا ما رتبت له الحكومة ودار الحديث في أخرياته. وكان هو أحد زعماء أهل الحديث بالهند ـ الباكستان حالياً ـ شهيراً بها فلما اتصل خبره بسماحة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة استصدر موافقة جلالة الملك عبد العزيز على استجلابه من هناك ليكون مدرساً بالمسجد الحرام، ولم ينقطع عن التدريس إلا أياماً مات بعدها ودفن بالبقيع بجوار الإمام مالك رحمه الله.

الشيخ محمّد العلي التركي

ـ وهذا الشيخ لم أتتلمذ عليه.. ولم أكن من حاضري حلقة للدرس.. فما أكثر فيما عرفته عنه مشافهة أتحفني بها أو مكاتبة راسلني بها أو حدباً وعوناً حتى الإغاثة أنقذني بها من مغرض لو أجريت الحساب فيما صنعته له أو فيما صنعه لي لكنت الراجح في إحسان إليه.. أعني هذا المغرض.. فقد ملك أن يلعب بمصيري.. ولكن الشيخ محمد العلي التركي قد أعان فإذا بي أعين أستاذاً في المدرسة ألقي الدروس على الذين كانوا زملاء التلمذة في فصول كان فصلي قبله.

ما كان أكثر هذا الشيخ محمد العلي التركي بهذا كله.. وما كان أقله في أن يأخذ مني ومن كل الذين صنع لهم المعروف أي جزاء.. وما كان أقله طلاباً في حلقته.. وما كان أجله متحدثاً إلى الكثيرين.. يطرح المشكلة ليدير الحوار كأنما هو قد عرف أن الحوار هو الأستاذ.. فمن يحترف الحوار يتعلم منه ويعلم به..

من هنا عرفت عنه الكثير.. رجل إصلاح.. جريئاً وصريحاً.. لا يداري ولا يماري.. لا يصانع الأقوياء.. ويخفض جناح الرحمة والعون للضعفاء.

وهذا الشيخ لما كنا نسمع به.. ولم نعرفه.. فمن بداية الثلاثينات إلى

أوائل الأربعينات ما كنا نعرف عنه شيئاً.. لأنه لم يكن قد وصل إلى المدينة حينذاك.. وفي بداية الأربعينات قبل أن يتم الضم لهذا الكيان الكبير فجأة وفي المسجد النبوي.. فبعد عصر يوم كنت وإخواني محمد سالم الحجيلي ومحمد إياس توفيق يرحمه الله ومحمد نيازي وعلي كماخي في حلقة الدرس أمام شيخنا وأستاذنا السيد محمد صقر.. نقرأ في النحو كتاب (قطر الندى) لابن هشام.. فإذا إنسان قد وقف على الحلقة يسمع الدرس.. رأيناه أبيض الثياب من قماش جيد يلبس عباءة من النوع المسمى (أبو شهر) من غزل فارس.. من وبر النوق.. كان أحلى المشالح وأغلاها.. من يومها عشقت هذا المشلح.. ذكرت هذا الترف في اللباس لأنه بعد ذلك ترك الترف ولبس الشظف.. الثوب من (الدوت) والمشلح من أقل الأنواع.. بل إنه في آخر الأمر ترك المشلح يتخفف منه كأنه قد زهد في أي زينة.. سألناه عنه فعرفنا اسمه.. وكان من دأبه أن يدور على حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف.. يقف على حلقة إبراهيم البري، والشيخ حميدة، والشيخ عبد القادر شلبي، والألفا هاشم.. يريد أن يعرف فقد كان يجل طلبة العلم والعلماء.. كان حنبلي المذهب.. ولم يكن أشعرياً ولا توريديا.. لكنه لم يغاضب أحداً ممن خالف مذهبه.. ولم يجف واحداً من هؤلاء.. سماحة خلق.. ونظافة وجدان.. وحين عرف أن من السياسة الحصيفة.. سياسة الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله.. أن جلالته كان الحريص ـ كل الحرص ـ على تقريب البعيد.. فما أكثر ما قرب من هؤلاء.. عبد العزيز بن عبد الرحمن.. فحين عرف الشيخ ذلك توسط في عودة من يعرف من علماء المدينة أو أعيانها.. كالشيخ عبد الحفيظ الكردي الكوراني جاء من العراق فتولى القضاء..

وكالشيخين الأخوين أبي بكر حماد وعمر حماد.. جاءا من موريس ومن الهند.. فقد كانا من قبل الأربعينات يبشران بالإسلام ويؤمان المصلين في المساجد.. رجعا إلى المدينة فتوليا القضاء.. وكالشيخ محمود عبد الجواد الذي كان رئيساً لبلدية المدينة جاء من إندونيسيا يسعد بأهله وأبنائه.. كانت هذه السياسة راحمة.. وكانت الشفاعة جالبة لتلك الرحمة.

وحين حضر الشيخ كامل القصاب الزعيم السوري ناشر العلم في دمشق.. يعرف قدر ذلك تلميذ مدرسة أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي حين حضر إلى المدينة جلس يسمع في حلقة الشيخ محمد العلي التركي فإذا هو يطريه كما يطري الشيخ حسن الشاعر يرحمه الله.. ونمت صداقة بين الشيخين القصاب ومحمد العلي التركي.. وفي أزمة مرت بين الشيخ محمد العلي التركي والأعيان من أهل عنيزة على بعض من الخلاف.. فالشيخ محمد العلي وأخوه إبراهيم التركي والد الصديق عبد الرحمن الإبراهيم التركي ووالد الصديق الدكتور منصور الإبراهيم العلي التركي مدير جامعة الرياض.. ومعهما ناصر العبد الله العقيل ومحمد الدغيثر.. فسمع القصاب بهذا الخلاف فقال لي: اسأل لي أين الشيخ؟ وكان ذلك في عيد شوال في أواسط الأربعينيات.. وسألت فإذا الجميع كلهم قد عيدوا في قباء في (بلاد) الشيخ عبد الله بن مسلم الحربي الميموني المحمادي والد صديقنا الشيخ حليت مسلم..

وذهبت إلى الشيخ القصاب أقول له: لا يحتاج الأمر إلى أن تذهب فالجميع كلهم في مكان واحد على طعام واحد.. قال: سأذهب.. فاستأجرت له عربة (كرو) وركبت أخدمه.. أدله الطريق.. فدخلنا قبل ظهيرة يوم.. فإذا هم محمد العلي التركي، إبراهيم العلي التركي، صالح

الإبراهيم القاضي، صالح العبد العزيز الميمان، عبد العزيز محمد الخريجي، ناصر العبد الله العقيل، محمد الدغيثر.. يجلسون في صفاء.. كأنما هم قد نظموا السلوك.. يقتلون الإشاعة عن الخلاف.. رجاحة العقول والحفاظ على الكرامة.. ولكن الشيخ القصاب أبى إلا أن يطرح السؤال عن الخلاف.. فإذا كل منهم يطرح رأيه.. ثم كلهم قالوا للقصاب.. إننا نحترم حضورك ونكبر مسعاك.. فقد انجلى الخلاف.

وكيف تأصلت علاقتي به؟ وذلك حين شكلت هيئة التفتيش والإصلاح أسسها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن برئاسة الشيخ حافظ وهبة وعضوية الشيخ محمد العلي التركي ومحمد سليمان التركي ومحمد وإبراهيم الصنيع وكلهم من القصيم.. وأحمد السبحي من مكة، وصالح نصيف من جدة.. فوصلوا إلى المدينة ليفتشوا ويصلحوا.. فعدلوا بعض الوظائف، وعينوا بعض الموظفين.. في مرحلة بعد مرحلة.. ثم زاروا المدرسة السعودية وكنت يومها خادماً عند الشيخ عبد القادر شلبي شريكاً معه في مدرسة خاصة لتلامذة خاصين.. كان قبل أن يعود إلى المدرسة يستقبل التلاميذ في المدرسة الجوهرجية وفيها رباط يسكنه طلاب علم.. ثم حين عاد إلى المدرسة بعد انتقال الشيخ أحمد كماخي إلى القضاء.. نقلنا هؤلاء التلامذة الخاصين وقد شكل منهم فصلان، فصل يلقي فيه الشيخ عبد القادر شلبي بعض الدروس، وفصل تكلفت بإلقاء الدروس فيه.. الجغرافيا والتاريخ ومبادىء الهندسة والحساب.. وكنت ساعتها ألقي الدرس ولم أدر أن هيئة التفتيش والإصلاح قد حضرت.. فإذا بي أرى صديقي محمد سالم الحجيلي قد أرسل إلي رسولاً يدعوني إلى الصعود إلى مكتب المعتمد..

فدخلت وسلمت على الجميع.. فإذا الشيخ محمد العلي التركي يرحمه

الله.. يقول للشيخ عبد القادر يسمعه ثناءً علي ويسمعه أعضاء الهيئة كلهم..

هذا الشيخ أستاذ علي حافظ وعثمان حافظ وأحمد العربي وأحمد النقشبندي وهذا ـ وقد أشار لي ـ محمد حسين زيدان.. ثم قال ـ وكأنه كلمته تسمع.. لا يقول له (لا) حتى حافظ وهبه ـ يأمر محمد سالم الحجيلي.. يعين الأستاذ محمد حسين زيدان أستاذاً في المدرسة.. ثم يسأل الشيخ عبد القادر: لماذا لم يعين السيد محمد صقر أستاذاً في المدرسة كما كان؟ أكتب يعين السيد محمد صقر أستاذاً في المدرسة.. وافق الجميع.. فقال الشيخ عبد القادر شلبي بلهجته اللبنانية: زيدان (أصبحت رجل.. غير لباسك.. غير زيك) وكنت أتزين بزي أولاد الحارة.. لفة شال وحزام كشمير.. ولم أغضب.. بل ابتسمت وقلت للشيخ عبد القادر: ولم أنت تعرف أن كل شيء يلبس.. الذهب والحرير.. ولكن الأصغرين لا يلبسان.. فقال الشيخ محمد العلي التركي يرحمه الله.. إنهما منحة الله.. فقلت: اللَّهم امنحنا إياها.. وإذا الشيخ حافظ وهبة يرحمه الله يقول لي: قف على الخريطة.. فوقفت وسأل عن بعض الأنهار والخلجان والجزر.. وكنت وما زلت ـ ولله الحمد ـ أستاذ جغرافيا.. هذان كانا تلميذين بالأمس.. واليوم أستاذان لكم وثقوا أن حكومة الملك عبد العزيز لا تلجأ إلى أجنبي ما دام فيكم الأكفاء..

وأعلنت مديرية المعارف عن الابتعاث إلى مصر لثلاثة أشخاص.. فكتبت للشيخ محمد العلي التركي وهو في مكة أستأذنه.. فكتب إلي: لا تذهب. تزوج واحفظ مكانتك ومكانك.. ولم أذهب.. فذهب الثلاثة السيد محمد شطا والسيد أحمد العربي والسيد ولي الدين أسعد.. سبقونا إلى الخير ونرجو أن نلحق بهم.

والخاتمة أنه كان ذوّاقاً للشعر.. كثير الإعجاب بالمتنبي طرح علي مرة هذا اللغز في بيتين من شعر المتنبي:

إن بعضاً من القريض هذاء ليس شيئاً وبعضه أحكام
منه ما يجلب البراعة والفضـ ـل ومنه ما يجلب البرسام

فوقفت كيف رفع البراعة والفضل وأمامه الفضل يجلب. وكذا البرسام. حسبت بالعجلة أن القريض تجلبه البراعة والفضل، وبعضه يجلب البرسام. فإذا الشيخ يقول لي: لا.. إن القريض يأتي مجلوباً من البراعة والفضل، كما الخسيس يأتي من ضعف العقول.. فالأصل ما تجلبه البراعة والفضل. يعني أن الفضل والبراعة هي الجالبة.

يرحمه الله فقد كان يعرف قدر نفسه فما أهدرها يوماً عن مجاملة أو مخافة.

وأخيراً فإن ملاك أمر الشيخ الذي أحكمه فحجبه عن الكراهية وبغضه في البغضاء هو من حكم هذه الآية الكريمة التي طالما يتلوها كثيراً ويرتلها ترتيلاً فإذا هو ينقاد لحكمها ويقتاده التذوق لبيانها، هذه الآية هي:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

هكذا كان يرحمه الله لا ينحرف مع الكراهية ولا يحترف البغضاء.

الشيخ محمَّد الطيب الأنصاري

ـ الشيخ محمد الطيب الأنصاري والمعروف عند كثيرين. (الطيب التنبكتي) نسبة إلى المدينة الزاهرة بالعلماء على نهر النيجر الذي يسمونه (الميز) هو أنصاري غربت بأجداده تغريب الأقربين.. حتى إذا عاد إلى المدينة كانت له القربى عند الخاصة، فقد كان يرحمه الله لا يسترخص قيمته يتسول عواطف العامة.. كما كان يفعل بعض الذين خاصموه.. وعجيب أمر هذا الشيخ الجليل.. كان من أواخر الذين سكنوا المدينة تنتظم به السلسلة الفضية من هؤلاء العلماء الذين عمروا المسجد النبوي من أوائل العشرينات إلى أوائل الأربعينات.. ولئن قدم المدينة أخيراً فقد أصبح أحد الأوائل فيها.. وليس من معرفتي أن أذكر نسبه سألزم بذلك ابنيه ابن التربية أستاذنا عبد القدوس الأنصاري وابن الصلب الدكتور عبد الرحمن الأنصاري، فأنا لا أطالب نفسي أترجم نسبه لأني لم أعرف.. وإنما ألزم نفسي بأن أشيد بحسبه.. وسببه. فالحب نظيف والسبب شريف. ولم يبطئ به نسبه وإنما أسرع به حسبه.. كان ملء السمع والبصر لدى عارفيه، ولدى الذين خاصموه.. فلو لم يكن ذا قيمة وعلى القيمة لما أتعبوا أنفسهم يستجدون عواطف العامة ضده.. ذلك أنه أتعبهم إذ لم ينالوا منه.. ولم يرحهم حينما استحوذ على الخاصة يعلمهم.. دروس في المسجد.. وأستاذ في دار العلوم الشرعية.. وأستاذ كلف أخيراً بتدريس عقيدة التوحيد على مذهب السلف في المدرسة السعودية.

سمعت عنه أول الأمر ولم أسمع منه.. سمعت ما كرهت أن يقال عنه.. ذلك أني لا أطيق أن يسب عالم أمامي.. مهما ذكروا عنه مما عابوه عليه.. لم أتعلق بجفوة نحوه وصحيح أن كل ذلك أبعدني عنه لا أكون من بين الخاصة الذين يتعلمون منه. لقد أنعم الله علي أن أحترم هذه الوصية التي أَوْصى بها زياد بن أبيه.. فقبل أن أسمعها و أقرأها كنت أعيش في نعماء.. قال زياد ـ وهو أمير ـ (أوصيكم بثلاثة.. بالعالم والشريف والشيخ ـ فإن جاؤني بشاب حقر شيخاً، أو وضيع أهان شريفاً، أو جاهل أهان عالماً لأسرعت بالعقوبة فأسرفت..).

من هذا كان إجلالي للشيخ الطيب الأنصاري.. لقد كان إماماً في النحو.. وفقيهاً في الفقه.. ولم يكن يتفنج. يتحلى بالتواضع.. يلبس الزهادة.. كأنه قد انفلت من عصر الزهاد إلى عصر قل فيه الزاهد.. فالزهادة علمته أن يصون لسانه.. فحين تعرفت عليه وعاشرته في زورة بعد أخرى لم أسمع منه معابة لأحد خصومه.. والزهادة أعطته ألا يرخص قيمة مع العامة فأعطته الاعتلاء حين احتفى به كل الخاصة ـ أصدقاء وتلامذة ـ فمن نعمة الله عليه أن كان له أصدقاء لم يعلنوا حمايته، وإنما عرفها الذين يخافون الأقوياء..

شيخ كريم هو إبراهيم البري له عمق العراقة في المدينة المنورة.. لم يتصد لجفوة الشيخ الطيب.. بل كان ابنه عمر البري أحد الذين جلسوا إلى الشيخ يتعلمون منه..

ومن تلامذته ـ وهم الخاصة ـ بقية الناس.. السيد عبيد مدني ـ وأستاذنا رئيس رابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن علي الحركان، والأستاذ الذي علمته «ألف باء»، ثم تعلمت منه (ألم) أبو حمزة ضياء الدين

رجب، ومن أهله ـ أعني الشيخ ـ أستاذنا عبد القدوس الأنصاري، ومحمد عبد الله ـ طيب الذكر يرحمه الله ـ والذي أبلغني وأنا في حوار معه، أنه قد ألف كتاباً سماه (الباز المنقض على من قال بكروية الأرض) فجرى حوار بيني وبينه لم أقتنع ولم يقتنع.. ومن تلامذة حلقة الأستاذ حمزة أضلني وغيرهم كثير..

وكان الشيخ الطيب ثالث ثلاثة تزينت بهم مدرسة العلوم الشرعية التي أسسها الشيخ أحمد الفيض أبادي.. لقد كان هؤلاء الثلاثة كباراً في علمهم وتعاملهم وحنانهم على التلاميذ.. والغريب أن كلهم أفارقة.. مغربيان هما الشيخ محمد الأمين الليبي الزاهد التقي. الواسع المعرفة.. كأنه قد أنتزع من ذلك العصر. عصر الموسوعيين.. هو الأستاذ الذي أهدانا الصديق محمد عمر توفيق.. والثاني هو الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني الخفي عن الكثير.. والبين كل الإبانة لدى من اختصه.. لقد كان تونسياً صديقاً لعبد العزيز الثعالبي، ومصرياً تلميذاً لمحمد عبده.. وتركياً قاضياً في أزمير.. ويونانياً رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في كريت.. ومدنياً أستاذاً في دار العلوم الشرعية.. أما الثالث فهو الشيخ الطيب الأنصاري وكان أكثر من هذين تلامذة وتأثيراً.

لا أريد أن أذكر من خاصموه. ولا من لح في ذلك الحاجة على مدرسة العلوم الشرعية.. لقد أسقطت هذا اللجاج، فإذا أنا لمدرسة العلوم الشرعية صديق وحامد..

وكيف عرفت الشيخ محمد الطيب الأنصاري، ذلك حين زار المدرسة السعودية، وكنت أحد الأساتذة بها، الشيخ رئيس القضاة، عبد الله بن حسن آل الشيخ.. فإذا هو يجد أن دروس التوحيد في متن السنوسية

والجوهرة للباقلاني.. فحزم أمره حين أقصى الشيخ عبد القادر الشلبي عن العمادة في المدرسة بعد جدل في موضوع يخالف ما عليه الشيخ عبد الله بن حسن، فأصر قاضي القضاة على أن تكون دروس التوحيد في المدرسة كلها بقسميها التحضيري والابتدائي.. فلا يدرس إلا كتابا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ كتاب الثلاثة الأصول والعقيدة الواسطية ـ وكلف الشيخ محمد الطيب الأنصاري أن يقوم بكل ذلك..

وجاء الشيخ الطيب ينفذ التكليف فرحب به المدير والأساتذة ترحيب المجاملة، وتركوا له أن يلقي الدروس في العقيدة على ثلاثة عشر فصلاً فأحرجوه.. إن ذلك يعطله عن دروسه في دار العلوم الشرعية.. وحتى عن حلقاته في المسجد.. وحين رأيت الحرج على الشيخ ـ وكنت حاضراً ـ أنعم الله علي بأن أكون معه لا يكلف بهذا التكليف.. فقلت دون أن أستأذن المدير والزملاء وأكثرهم أساتذتي.. ارفعوا عني دروس المحفوظات والتاريخ في القسم التحضيري.. فإني أستأذن الشيخ أن يلقنني كتاب الثلاثة الأصول أقوم بتدريسها في الفصول التي قررت فيها.. وهو يقوم بتدريس العقيدة الواسطية، وانفرجت أسارير الشيخ، وازورت بعض الوجوه.. وأعانني الله على ذلك.. من يومها عرفني الشيخ فحباني بعطفه.. فكنت أزوره لأسأله.. أو أسلم عليه.

ومرة وجد ابن الصديق الدكتور عبد الرحمن الأنصاري في القماط وهو بجانبه وقد كان وعكاً مصاباً ببعض الحساسية. فقلت للشيخ لعلّها الوراثة.. فقال الشيخ: (لا أؤمن بالوراثة) قلت: بل تؤمن بها (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) ولعلّه عرق انتزعه فقال بكل السماحة والرجاحة: أهذه هي الوراثة؟ قلت: نعم.. قال: آمنت بالوراثة..

وفي عصر يوم قبيل المغرب وفي المسجد النبوي ـ مر فوقف يسألني

عن كتاب في يدي. قلت إنه كتاب في الجغرافيا.. قال: وما الجغرافيا؟ قلت: اسأل ياقوت الحموي وتقويم البلدان.. قال: هات.. فأخذه مني وبعد أيام رده إلي فقال: كل ما فيه طيب.. الجبال والأنهار والقارات والجزر.. لكني لا أؤمن بكروية الأرض..

ورحلت من المدينة وتوفاه الله وأنا بعيد عنها في مكة.

ونعود إلى قواعدنا سالمين. بعد أن حبسنا حابس الفيل لا نخوض القال والقيل.. ولم يكن ذلك الحابس عن تعجيز الكرب النفسية. أو ما إلى ذلك.. من كسل الفصل.. وتطلع العقل إلى ما يحمد.. نعود إلى قواعدنا نكتب عن الأشياخ.. فحين كنا في المجاعة تحيط بنا الأمية والجهل، وجدنا الغوث عند هؤلاء الأشياخ، سواء كانوا من شيوخ الكتاتيب، أو من مشيخة الأساتذة المدرسين في المدرسة، أو من شيوخنا العلماء في المسجد النبوي.. فبعضهم كنا به ومعه وله، وكان بكل ما لديه لنا أباً ومعلماً، وبعضهم لم نكن به، وكان لزاماً أن نكون له، فطالب العلم ينبغي أن يحترم أستاذ العلم، ومن هؤلاء الأشياخ الذين سأكتب عنهم، والذين عمروا المسجد النبوي، فلعلّي قبل أن أبدأ باليسير من سيرة الشيخ محمد الطيب الأنصاري المعروف عند العامة (بالتنبكتي).

قبل أن أبدأ الكتابة عنه أسرد أسماء الذين عرفناهم أصحاب حلقات في المسجد، أحرض الذين تخرجوا من المسجد وشغلتهم شواغل أخرى، أن تكون لهم حلقات..

إن المسجد النبوي قد عمر بالعلماء وبكثرة وافرة، فمن أوائل العشرينات الهجرية إلى أواسط الثلاثينات كثر العلماء من كل الأقطار المسلمة.. سواء الذين أحبوا الإقامة في المدينة أو الذين هربوا من ظلم

الاستعمار في المغرب العربي وفي الهند.

إن هؤلاء الذين كثر وجودهم في المسجد من العلماء منهم من الذين ولدوا ومن أعراق قديمة فيها كالسيد أحمد البرزنجي وابنه السيد زكي البرزنجي، والشيخ إبراهيم البري وابنه عمر البري.. والشيخ عمر كردي الكوراني حفيد صاحب السند العالي إبراهيم الكردي الكوراني الذي اتصل به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أيام وجوده في المدينة المنورة.. وقبل هؤلاء كان العلامة الجليل عبد الجليل براده وصديقه وصفيه إبراهيم الأسكوبي.. أما الذين أصبحوا من أهل المدينة حقاً فأقاموا فيها يعمرون المسجد فأكثرهم من المغاربة ـ تونسيون وجزائريون ومراكشيون ـ أمثال شيخ الشيوخ حمدان بن الونيس الذي أخذ عنه الأمير شكيب أرسلان الكثير وأعجب به، ومن ذلك الحديث (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة) قالوا أمن قلة يا رسول الله؟ قال: بل غثاء كغثاء السيل.. إن ما يدرككم الوهن، قالوا وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الآخرة.. وفي رواية حب الحياة وكراهية الموت.. أو كما قال عليه الصلاة والسلام.. ذكر ذلك أبو غالب بن ماء السماء الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على الكتاب (حاضر العالم الإسلامي) ترجمه إلى العربية الكاتب العربي الدرزي عجاج نويهض، وقد امتلأ بتعليقات الأمير فإذا الكتاب يصبح مرجعاً.

ومن هؤلاء العلماء المغاربة عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعزيز بن الوزير شيخ شيخي السيد محمد صقر.. والشيخ الحبيب، وحميده، والبيضاوي، والشيخ محمد العمري.

ومن شنقيط الخضر بن مايا الجنكي والد صديقنا محمد الأمين سفير

الأردن سابقاً.. ومن أفريقيا السمراء (الألفا هاشم) ومحمد الطيب الأنصاري ومن لبنان وطرابلس الشيخ عبد القادر الشلبي.. ومن الهند الشيخ عبد الباقي الأنصاري والشيخ خليل أحمد (بذل المجهود) شرحاً على أبي داوود. والشيخ السيد حسين أحمد وهما من جامعة بيوباند وكانوا أهل حديث ينتصرون لمذهب أبي حنيفة على طريقة محمد بن الحسن والطحاوي.. فالسيد حسين أحمد هو الرجل الثاني من هؤلاء العلماء الذين أعجب بهم الأمير شكيب أرسلان، فالأمير ينبغي ألا يفوتنا أنه جاء ثالث ثلاثة.. عبد العزيز جاويش أحد أعلام الحزب الوطني ـ حزب مصطفى كامل.. وعبد القادر المغربي علامة دمشق، والأمير شكيب.. جاؤوا لتأسيس الكلية الإسلامية التي أقاموا قواعدها غرب التكية المصرية وشرق محطة القطار.. فعاجلتهم الحرب ولم تؤسس الكلية.. ولا أنسى الشيخين محمد العلي التركي وصالح الزغيبي من أعيان القصيم وأكابر مدينة عنيزة.. كل هؤلاء العلماء قد استنارت وجوههم في المسجد النبوي.

إن عبد الحميد بن باديس زعيم الثورة في الجزائر ومربي أجيالها عاد مسرعاً إلى الجزائر يحمد للسيد حسين أحمد (عم السيد حبيب) أنه قد نصحه حين قال له: لماذا هجرت الجزائر تقيم في المدينة؟ أتحسب أن هذا تصنع به استقلال الجزائر وتحارب به استعمار فرنسا؟ عد إلى الجزائر فالجهاد هناك.. سمعها بن باديس وعاد.. فكأنما السيد حسين أحمد قد نظم الخطة لجهاد الجزائر في المسجد النبوي..

هذه المقدمة وجدت لزاماً علي أن أذكرها كأنما أفهرس بها الأسماء التي سأكتب عنها بقدر ما أعرف أو بالقدر الذي أتعلمه من غيري إن وافاني أحدهم بما يفيد..

الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني

وهذا الشيخ ما كنا نعرفه في أوائل الخمسينيات ولا أدري هل وصل إلى المدينة المنورة في أواخر الأربعينيات. فتخفى عن طلبة العلم أم إنه وصل إليها بعد. ذلك أني وقد سافرت إلى الهند في جمادى الأخرى ١٣٥٢ هـ لم أكن أعلم أنه في المدينة ورجعت بعد ستة أشهر غبتها في الهند الإمبراطورية فإذا بي أجد إخواني وعلى رأسهم أستاذنا ماجد عشقي ملتفين حول هذا الشيخ، فالإخوان هم عبد الحق النقشبندي، عثمان حافظ. عبد الحميد عنبر يرحمه الله وفهمي الحشاني. وكانوا يسهرون كل ليلة عند واحد منهم يقرأون عليه مقدمة ابن خلدون. فانتظمت لأكون معه وابتدأنا أن نقرأ كتاباً آخر هو (الجمعيات السرية والحركات الهدامة) لأستاذنا المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان المصري. ولولعه بتاريخ الأندلس أنسبه أندلسياً. وكان هذا الكتاب جديداً عليه أغراني به ما تحدث إلى الشيخ الكيلاني فيه عن الماسونية. وبعده قرأنا كتاباً لعبد الله عنان اسمه (ديوان التحقيق) عن رزايا محاكم التفتيش في الأندلس التي مارسها التعصب الديني في تلك الأيام ولا أنسى أن هذه الكتب الجديدة يرجع الفضل في جلبها إلى المكتبة التي أسسها عبد الحق النقشبندي وعثمان حافظ. فلهما الفضل في جلب الكتاب والمجلة والجريدة نقرأ ذلك. نكسب من كل ذلك روافد ثقافية. عرفت الشيخ ببعض الفهم. وبكثير من التفهم له. نعرف بعض ما يعطينا

ولا نعرف عنه الكثير. فهو يتكتم كأنه قد خسر زعامة أو سقطت في يد عرفيه فضائل مساعيه. فالشيخ والداعية لا يخسر نفسه إلا أن يأتيه الخسران من الذين أعطاهم كل ما لديه من الخير فقابلوه بكل ما فيهم من الشر.

ومن هو الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني؟ هو تونسي تعلم في جمع الزيتونة فأصبح مصرياً تعلم في الأزهر، وعلى من؟ على الأستاذ الإمام محمد عبده. وجلس إلى جمال الدين الأفغاني فغلبت عليه عقلانية جمال الدين ومعقول محمد عبده فإذا هو على غير النهج الذي سار عليه العالم السلفي صاحب المنار الطرابلسي اللبناني المصري محمد رشيد رضا.

ولعلّ عمق المغاربة قد صانه ألا يكون على سطحية بعض المشارق. ولا أدري كيف رحل من مصر إلى تركيا. لعلّه لم يجد مجالاً فيها ولا صيالاً بها أو لعلّه يلحق بجمال الدين. فسافر إلى تركيا. وكانت الآستانة القسطنطينية استانبول، عاصمة الخلافة العثمانية مليئة بكبار من العرب ولا أعني بهؤلاء الكبار عزت العابد الدمشقي أبا الهدى الصيادي الشامي أو أحمد أسعد المدني أو الشيخ محمد ظافر المدني الليبي. فذلك عهد قد زال بزوال السلطان عبد الحميد، وإنما أعني الأمير شكيب أرسلان والخضر حسين وصالح الشريف ومن معه من بعض الضباط الكبار كمحمود شوكت بطل الانقلاب العثماني وهو عراقي بغدادي أخوه حكمت سليمان صاحب ثورة بكر صدقي بعد في العراق والأخوان ياسين الهاشمي وطه الهاشمي ومن إليهم كنور السعيد وأمين الحسين وحسني العلي المقدسي. كان هؤلاء وأكثر منهم في تركيا. بعضهم كالأمير شكيب من دعاة الجامعة الإسلامية ضد القومية العربية وبعضهم قوميون عرب كأثر الضباط الذين ذكرنا ومن أمثال شيخنا الكيلاني.

وكنا نسميه ابن خلدون حين قرأنا عليه المقدمة. فلا يعرف في المدينة

إلا بهذا الاسم. كان لا يرفضه لأنه يعتز بتونس وأبنائها وابن خلدون تونسي وكان أكثر ما يعتز بالتونسي العظيم الزعيم عبد العزيز الثعالبي إذا ما ذكر أمامه قال: «بخٍ بخٍ.. به به.. عزيز تونس الثعالبي» وحين عرفت أن القومية العربية شغله الشاغل قلت له ما أحرى أن نستبدل اللقب ليكون أبو خلدون لا ابن خلدون أعني ساطع الحصري. قال: لولا ابن خلدون وحماسة ساطع ضده لما عرف ساطع الحصري القيَم التي يدافع عنها في القومية العربية. لم يرض بتغيير اللقب. فالحب لتونس متعة الغريب عنها. فهو يقول عن تونس: نحن في تونس ورثنا حضارة الأندلس فعمق الحضارة الأندلسية في تونس وليس بغيرها وأصبح التونسي المصري تركي قاضياً في أزمير رئيساً للمجلس الإسلامي في جزيرة كريت.

وكان الشيخ ضنيناً بأن نعرف عنه. ولم يكن باخلاً في أن نعرف منه. فقد عرفنا منه الماسونية والنهالست قبل أن نقرأ لعنان. وعرفنا منه أن المسجد النبوي بهذه الهندسة الرائعة بني على طراز أيا صوفيا. ولتعصبه للعروبة كان يتمنى أن يبني المسجد النبوي على طراز عربي أندلسي. ومات قبل أن تتحقق أمنيته بهذه الإضافة التي بناها ورفع بنيانها الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله.

فالإضافة هذه تحققت بها أمنيته فهي على طراز عربي. كأنما المسجد النبوي الآن قد جمع شرف المعمار بطراز روماني وطراز عربي والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.

ويرحم الله السلطان عبد المجيد العثماني. كما هي الرحمة تتغشى المرحوم الملك عبد العزيز فقد صنع كل منهما مجد التاريخ لهما وتاريخ المجد لأمتهما المسلمة.

وللشيخ نظرات في الرجال عنيد في التباعد عن بعضهم، فهو لا يطيق شوقي ولا شكيب أرسلان. ويهتز لذكر حافظ إبراهيم وإذا ما ذكر واحد من الذين يعجبونه يقول: «به.. به عزام» يعني عبد الرحمن عزام.. به به محمد محمود.. به به الولد عفيفي. به به الولد رشدي أرص أصبح وزير خارجية تركيا فهل كان يعرف هؤلاء معرفة شخصية، حتى يبهبه لهم بهذه البخبخة؟ أنا لا أشك أنه كان لا يعرف حافظ باشا عفيفي وكان يعرف رشدي أرص. ولكني وفي ضحى يوم أمسكت بمجلة الفتح يصدرها السيد النبيل من بيت هو من أكابر بيوت دمشق. السلفي محب الدين الخطيب. وإذا في مجلة الفتح القصيدة التائية. رثاء أرسلان لأحمد شوقي يرحمه الله. طربت من هذه القصيدة فأنا أحب شوقي وأحب شكيب أرسلان. ولم تطغ على كراهية الأستاذ لهما فذهبت إلى مسكنه في مدخل الساحة «من كومة حشيفة إلى رباط مظهر» فقد كان الشيخ يسكن غرفة في الرباط ولأول مرة أدخلها ومعي مجلة الفتح. كان الزجاج كأساً لم أجده نظيفاً في مكان آخر كنظافته في يد الشيخ. والفراش حنبل مغربي. قد زانته الفتوق بالنظافة التي كانت عليه كأنما زرياب قد وضع طابعه على الشيخ. وجلست أقرأ له القصيدة. فتأبى أول الأمر أن يسمع شعر شكيب في رثاء شوقي قلت له: متعني أن تسمع. فقرأتها حتى إذا وصلت إلى هذا البيت:

كالسيف في إمضائه ووضائه والليث في وثباته وثباته

رفع الشيخ صوته يقول: به به أبو غالب. وبه أبو علي أحمد شوقي أحسنت إلي يا ولد. نزعت من صدري بعض الغل. ودمعت عيناه. فإذا هو يبهبه يبخبخ لشوقي ولشكيب. ذلك صفاء القلوب. يوم تحين ساعة الصفاء.

وكان جالساً أمام الرباط فإذا حاج من المغرب وقف عليه. وكأنما هو قد عرف مقامه في المدينة فدلوه عليه. فقال له: أأنت دعوتنا لمكافحة المواضي؟ فأسرع الشيخ يقول له: ليعلم أننا أبناء ماض.

دعتنا لمكافحة المواضي أجبناها وقد كانت نواض
نديـر رحاتنا بدماء قوم ليعلم أننا أبناء ماض
لعمر أبيك ما يجدي التوقي إذا كان الدفاع عن الحياض

ذكر المغربي الشيخ بهذه القصيدة التي ما حفظت منها إلا هذه الأبيات. وكانت تكريماً للمجاهد البطل عبد الكريم الريفي يوم كان يحارب الأسبان في المغرب.

وشقى الشيخ بالغربة. وإن أسعده الجوار بالمدينة فإذا هو يسعى للقمة العيش أستاذاً في دار العلوم الشرعية يتوارى عن الناس لا يعرفه إلا القلة. ويحفظ قيمته الأجلة وكان إذا ضاق يذهب إلى زورة أسبوعية. إلى بيت الصديق الحميم الابن الحبيب السيد إبراهيم الرفاعي يستقبله بكل الترحيب ليسمع أغنية لمحمد عبد الوهاب أو لأم كلثوم أو يسمع نغمات البشرف الجزائري على العود. فقد كان السيد ضارب عود ما أحسن أن نسمعه على الآلة الموسيقية التي نسميها المزيكا التي كانت لعبة الأطفال في الأعياد يسمونها «الزميرة» فأصبحت عدة الرجال يحبون الطرب فلا يجدون إلا الصفيح من التنك بدل الطارة وهذه الزميرة يجيدون العزف عليها بالنفخ بالفم. يحسنون كل الأنغام والبشارف. وفي يوم كنت جالساً في مكتبة النقشبندي وحافظ وهما جالسان فيها فإذا الشيخ وقد خرج من المسجد يدخل من باب الرحمة ويخرج إلى بيته من هذا الباب فالتفت فرآنا وكانت في يده باقة. حزمة من (الفاغية) (زهرة الحنة) توجت بثلاث وردات. فدنا

منا وأعطاني الباقة يقول لي: أنت تستأهلها. كأنما يريد أن يغيظ النقشبندي وحافظ فقد كانا لا يعرفان ما لديه كل المعرفة أو أنه كان ضنيناً عليهما. كنا الثلاثة الأصدقاء له السيد إبراهيم رفاعي وحسن خشيم يرحمه الله وكاتب هذه السطور يأنس بنا ونأنس به.

وفي يوم آخر، جلسنا في المكتبة وكان هو معنا. فإذا السيد إبراهيم رفاعي يمر مسرعاً لا يلتفت إلينا. فقال الشيخ هامساً يخاطبني:

رب إن الـمـلاح جـاروا عـلـيـنـا وتـعـدوا حـدودهـم فـأجـرنـا

لم يسمعها غيري فطربت لهذا البيت حفظته بعد ذلك وبعد صلاة جمعة. على مدخل كومة حشيفة وأمام دكان حسن خشيم يرحمه الله.

وقفت معه نتحدث فإذا الخضر حسين التونسي المصري شيخ الأزهر وعضو مجمع فؤاد صاحب المواقف المشرفة في الدفاع عن اللغة والإسلام وقد خرج من المسجد فحين نظر إلى الشيخ الكيلاني سمر رجليه على الأرض يتأنى كأنما يريد أن يقبل على الشيخ. وكنت أعرف أن الخضر حسين وابن خلدون هذا أبناء خالة. فقلت للشيخ الكيلاني انظر الخضر حسين. تأنى لعلّه يقبل عليك. فلم يلتفت وقال: دعه ثم نطق بكلمة مالك بن أنس يوم قالوا هذا ابن اسحق دعوه دجال من الدجاجلة وما كان الخضر يستأهلها منه. كما كان ابن إسحق يستأهلها من ابن مالك. موضوع حققه صيارفة الرواة عدلاً وتجريحاً. فإذا الخضر يمشي وعليه مسحة ألم. وبعده مر الشيخ صالح التونسي ابن الفضيل. وكان الخضر ضيفاً عليه والشيخ صالح التونسي كان زوجاً لابنة أخي الخضر. واسألوا الأستاذ عبد الرحمن التونسي عن ذلك. فإذا ابن الفضيل يقف يتأنى. قلت له: وهذا تونسي

آخر. أسألك بحب تونس أن تلتفت إليه. قال: دعه. واسمع يا ولد. إياك وأن تكون نهباً لبعض الأشياخ.

وكما قلت. كنا لا نعرف الكثير عنه. وعن طريق المصادفة ذهبت أنا والأستاذ الصديق عبد الحق النقشبندي إلى العنبرية نزور محمد أسد المستعرب النمساوي. وكان قد أعلن إسلامه وكنا نواصله قبل أن نفترق عنه. وكان محمد أسد ساكناً في بيت من بيوت الترجمان على مشارف بطحان وأمام دار الحكومة حينذاك فطرقنا الباب فإذا هو يفتح ويخرج منه رجال ثلاثة كأنما هم قد فوجئوا بطرق الباب. وهم: خالد أبو الوليد، والشيخ محمد الكيلاني والزعيم التركستاني (موسى جار الله) كبار من الرجال من الذي جمعهم. هل كانت المصادفة؟ أم كان الشيخ يعرف أبا الوليد حينما كان في تركيا ويعرف زعيم التركستان؟ أغلب الظن أن كلاً منهم يعرف الآخر وإلا فلا معنى أن يخرجوا دفعة واحدة حينما فوجئوا بطرق الباب.

وقد كانت صفاقة منا أن نزور رجلاً كهذا دون موعد. لكن الأدب منعنا أن نذكر ذلك إلا في هذه اللحظة.

ولعلّ الشيخ كان يتخفى أو يخفي بعض أسراره. فهناك حكاية وقعت بينه وبين المستشرق الإنجليزي «عبد الله فلبي» «جون فلبي» وكان حينذاك في المدينة وقد ذهب الشيخ إلى المستشفى وكنت أظن أنه لا يعرف الدكتور سعيد مصطفى ذهب ليزور الدكتور وكأني أتهم الشيخ بأنه على معرفة بالدكتور سعيد مصطفى عن طريق معرفته لأخيه قائد الجيش المرابض أيام الحرب العامة الثانية يوسف بك مصطفى وعن طريق عبد الرحمن باشا عزام. وحين دخل إلى مكتب الدكتور وجد الحاج عبد الله فلبي كما كان

يحب أن يذكر بهذا الاسم. فإذا عبد الله فلبي يدير حواراً مع الشيخ يقول له: أليس الإنسان من أكمل خلق الله فكيف أستطيع أن أقتنع بأن من الإنسان من يدخل الجنة. ومن الإنسان من يدخل النار؟ فقال الشيخ: إن من الإنسان من لا تدخل عليه إلا بإذن ومن إمبراطور لا تدخل عليه إلا راكعاً ومن الإنسان من يكنس الشارع وتنهره إذا ما قصر في خدمتك.

فقال فلبي: إجابة رصينة. لكني لا أقتنع.

فقل الشيخ: إن منجم الفحم يخرج منه نوعان من الفحم أسود يحترق ترمى نفاياه في الزبالة. وأبيض يبلور ألماساً تزين به التيجان وعود الجميلات. فكيف تم ذلك؟ الإنسان بالمعصية كالفحم الحجري. والإنسان بالطاعة والإيمان كالألماس.

قال فلبي: إجابة معقولة ولكني لم أقتنع.

قال الشيخ: إن الإسلام إذا ما درسته وجدت نفسك تقتنع فلا يوجد فيه كهنوت يفرض عليك القناعة لعطاء المغفرة. فالمغفرة من عطاء الله رحمة وغفراناً.

ومات الشيخ.. فشيعناه وعجزنا أن نعرف بناته وأبناءه في تركيا. فقد ذكر لنا ذلك وحرمنا أن نرسل تعازينا يرحم الله الشيخ فقد كان عالماً عقلانياً ومسلماً صحيح العقيدة ولا أنسى في آخر مرة قال لي: لديكم شعار ثمين كلمة التوحيد والسيف والنخلة. قلت كلمة التوحيد عرفناها. والسيف سلاح الجهاد والنخلة طعام المجاهد.

قال بخ بخ. لكني أعني كل ذلك وأجد في النخلة شيئاً آخر هو جريدها يجلد به الفساق والمجرمون فحين تحافظون على كلمة التوحيد وعلى ثمر النخلة وجريد النخلة؟ لا أخشى عليكم.

وعنه تلقيت هذا التعريف للزعامة. فقال: إن الزعامة روح الشعب يتطلبها لتحقيق آماله حفاظاً على ماضيه وبناءً لحاضره ومستقبله روح الشعب تصنع الزعامة ونجاح الزعامة لا يستقر إلا باقتناع الشعب. ثم قال: كنت في جزيرة كريت وجلست في مقهى أتحدث إلى الزعيم اليوناني فينسولوز وكان بعيداً عن الحكم فرفع صوته يقول ليسمعه فلاحون يونانيون جاؤوا من القرى على حميرهم وجلسوا قريباً منا في المقهى فقال فينسولوز إن اليونان لن يعيد بناءها ويصح أمرها إلا عودة فينسولوز إلى السلطان ولبثنا أياماً فإذا كل الشعب اليوناني يقول همساً وجهراً أعيدوا فينسولوز.

هكذا الشعوب الواعية حين تسمع ما تريد يتحقق لها ما تريد.

صالح بن عثيمين

ـ وما كدت أضع العنوان، أمليه على من يكتب لي، حتى قال لي: أله صورة في أرشيف الجريدة؟. قلت: لا.. فهو شيخ يكره التصوير.. فما عرفتني وقد نشرت له بعض ما كتب أتذكر أني قد وضعت له صورة.. وحتى إن التلفاز قد حرمنا من أحاديثه.. فالصورة له.. أو كل تصور عنه.. لم يك إلا من خلال التعريف به.. عالماً.. محدثاً.. سلفي العقيدة كاتب مقالات..

ـ فالشيخ صالح بن عثيمين.. كان من حسن حظي أن عرفته، فقد تعلمت منه الكثير، وعرفت به الكثير.. كان عالماً بحق قرأ الكتاب.. وأثرى من علم الكتاب.. لم يقتصر على بعض الكتب في الفقه، وإنما اعتصر من الأمهات صفوة سواء في التفسير أو الحديث وحتى اللغة نحواً وصرفاً.. وقليل هم الذين بذلوا جهداً في تعلم الصرف، وأقلهم من استقام لسانه على أن يحسن الإلقاء والإبانة.. بيان تشرق به اللغة الفصحى..

ـ عرفته حين زارني مراجعاً، لأصرف له بعض ما خصص له من راتب شهري، وأجرة بيت سنوية.. وتحدث إلي فإذا في العباءة عالم، وإذا في الخباء طالب علم.. أو أعسرته الدنيا.. لأسباب بعضها منه.. وبعضها عليه.. ولعلّه لا يحب أن أذكره بها، أو حتى أن تذكر عنه.. حتى لو كان فيها ما يزينه ولا يشينه..

ـ كان طالب علم في بريدة، وهو من أهلها.. وكلف بهذه الصفة أن يكون أحد الدعاة في الهجر.. ثم رحل إلى عمان تارة في مسقط وتارة فيما حولها.. ثم رحل إلى الهند.. يعب علم الحديث عباً.. فإلى عالم الحديث في الهند.. انتهى علم الحديث فيهم.. فاشتغلوا بالدراية والرواية. على عكس المشرق.. قل فيه أهل الدراية.. واستكثر فيه بعض أهل الرواية.. قل أمثال بدر الدين الحسني المغربي الدمشقي ورشيد رضا وأحمد محمد شاكر..

ـ وكانت «بهويال» مدينة العلم «كأمرت سر» و«ديوبنت» وما إليها.. حتى إذا اكتمل عوده.. وامتلأ جرابه، وجمع خزينته من الكتب.. عاد إلى مسقط رأسه مدينة بريدة.

ـ وكان اتساع ما جمع من العلم، أصابه ببعض الضيق.. فسكن مكة.. يعمل أول مرة بإصلاح الساعات وما إلى ذلك، حتى إذا عرفه «قدهي المحمد» و«عبد الله بن دخيل» و«عبد العزيز القنيعير» و«عبد الله السعد» كان في كل ذلك متنفساً له وعوناً..

ـ ثم عرفته بعد ذلك.. حتى إذا عرفه عبد الله بن عبيد.. خادم سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل، تغمده الله برحمته فاتصل بسموه خصوصاً في الطائف فوجد الإكرام عنده، وانفتح أمامه المجال، وتنفس يتحدث في الإذاعة ويكتب المقالات.

ـ وكان بيني وبينه حوار طويل، حتى إنه في بعض الحالات يتواضع إذا ما طرحت حديثاً في مجال علمي، يقول لي بتواضع الأكابر أجزني.. كبريائي، فأعتذر فيقول لي إن كثيراً من الأكابر يأخذ عن الأصاغر.. فأتشجع ولا أكتم عنه أبداً رؤيا رأيتها، أو معلومة حفظتها.. فيبشرني بخير، ويعلمني الصواب.. حتى حمدت أن أطرح الخطأ لأتعلم الصواب.

ـ أكتب ذلك أداء لواجب الوفاء.. لا بعامل الإطراء ولعلّي قد حرمت طويلاً من التمتع بحديثه.. حبسني حابس الفيل، فأسأل الله أن يمنحنا نعمة التوفيق فيما بقي لنا من العمر..

حَمـد الجَاسـِر

ـ وكما قلت من قبل، أريد أن أسجل بعض الذكريات عن الذين يستحقون بعض التذكير بهم؛ فقد فاتنا الكثير عن الكثير، فاليوم أسجل بعض الذكريات عن أستاذنا علامة الجزيرة حمد الجاسر. فمكانته العلمية معروفة لعلّه الوحيد ـ وبصورة أكبر ـ هو الذي انتشر اسمه خارج الحدود لم يستجد هذه المكانة، فما أكبر نفسه، وعف عن الاستجداء.. عضو في مجمع اللغة يراسله العلماء والباحثون والأدباء من عربيين من شرق السويس وغرب السويس وحتى الآسيويين والمستشرقين، أعني المستعربين من الغرب.. عف أن يدخل في الزحام ولكن ما انكف أن يكون حوله الزحام. بعيد أن يقول (أنا) وقريب أن يقول كل واحد منا، إذا ما احتضن حمد الجاسر، أن يقول بهم ومنه وله عنه (نحن حمد الجاسر)، فالأهل يعتزون بالفخار بواحد نابغة منهم.

عرفته ـ أول ما عرفته ـ ليس في مكة المكرمة التي احتضنته طالباً فيها، فلم أكن حينذاك قد شرفني الله بالسكنى فيها.

ولم أعرفه في المدينة المنورة، وإن كان أحد بنيها، فقد ابتعد عنها آباؤه فأنجدوا وأنجبوا، فهو من هذا القبيل، من قبيلة حرب، من مسروح، من بني علي، التي تفرعت فرعين، فرع في العالية (العوالي) وفرع في نجد

بزعامة شيخها فارس (أخو حسنة. عبد المحسن الغرم) فعلى هذا ـ أنا وهو ـ عزوة واحدة، فأنا نزيعة حيث ولدت في المدينة إلى حرب، فالمدينة من الغابة إلى اللابة حربية، قسمتها حرب إلى نصفين، فمن سوق الحبابة شمالاً إلى بني سالم، ومن نصفه الآخر جنوباً (مسروح) كأنما مسجد الغمامة مسروحي، ومسجد علي سالمي.

لم أعرفه في المدينة ولا في مكة كما قلت، وإنَّما عرفته في الخرج، حينما أنجدت موظفاً في معية عبد الله السليمان الحمدان، الوزير الكبير، والخادم المخلص لمليكه وأسرته، مليكه البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته.

فقد كان الجاسر أستاذاً حربياً أستاذاً خاصاً لأبناء عبد الله السليمان، كانت معرفة رؤية، لا معرفة صحبة وصداقة، فهو بعيد عن الفضول، بعيد عن الاحتكاك بالناس، ثم سمعت عنه أستاذاً في مدينة ينبع ثغرنا الحبيب، وقاضياً في ضبا، حتى إذا أخذ يبيع ما اقتنى من كتاب الأم ليعيش، فقد شبع من لقمة العيش، وإنما من الكتاب الأم، فقد مرت أيامه الأولى وفي ينبع بالذات، وقد بدأ به الولع بالدرس والتدريس، فإذا هو يعرف أن الأخذ من الكتاب الأم لا يعني إلا اليقظة.. يعرف الصواب ويوضح على تلامذته في ينبع، فإذا هو يذكر النص عن ياقوت الحموي عن جبل رضوى (هو جبل في طريق الشام) فإذا التلميذ الجهني ربيب السفح لرضوى المتطلع إلى شماريخ رضوى، يقول للشيخ (دوك.. رضوى) أي انظر.. هذا رضوى. فإذا الجبل المشمخر يراه الشيخ يحتضن وادي ينبع روافده تصب في وادي الحمراء.. فعرف الشيخ يومها أنه ليس قارئ التراث فحسب، وإنما ينبغي له أن يحقق هذا التراث فكان حمد الجاسر علامة الجزيرة، ما أكثر ما حقق

ودقق وكتب ونشر، فاليمامة مجلته، والعرب مجلته، ونحن تلامذته.

كانت هذه معرفتنا للعالم، وبقيت معرفتنا للإنسان، ورحلنا عن متن إحدى طائراتنا إلى الكويت، فتعثرنا بعوامل الجو، ألا نصل إلى الظهران إلا بعد أكثر من ست عشرة ساعة. أركب من جدة إلى المدينة ومن المدينة إلى الرياض فيمتنع على الطائرة النزول بعامل الجو، فنعود إلى جدة، حتى إذا صحا الجو عندنا إلى الرياض ومنها إلى الظهران ومنها إلى الكويت. فلم نصل إلى الكويت إلا بعد اثنتين وعشرين ساعة، وكنا لفيفاً من الصحفيين والأدباء، وحين نزلنا إلى مطار الظهران، كنا كالهلكى من النصب، فاسترخى كل واحد منا إلا حمد الجاسر، فذهب يركض إلى (البوفيه) يأتينا بالعصير، يسقينا كأننا أبناؤه، يخدمنا فكان بذلك سيدنا.

وفي الكويت كان هذا المنقبض على نفسه، الذي لا يتحرك لذاته، قد تحرك يتلفت بغضب، حيث لم نجد مكاناً ننزل فيه، فخاطب بعض المسؤولين فإذا الأوتيل يفتح لنا، كان فندقاً كبيراً نزلنا فيه.

إن حمد الجاسر قد حباني بكثير من الفضل، فرأيته في فندق اليمامة، وكنت في ريب من تصحيحه لخطأ وقع فيه حسن الكرمي بإذاعة لندن، في برنامجه (قول على قول) فقد سألوه: من قائل هذا البيت:

إن بالسفح الذي دون سلع لقتيل دمه ما يطل

فنسبه الكرمي إلى صاحبه (تأبط شراً) ولكنه قال: إن سلع الجبل، هو سلع البتراء بالبلقاء (شرق الأردن) فكتبت أعقب عليه مستبعداً أن يذكر تأبط شراً هذه الصفة لجبل في البلقاء، فلعلّه قد أراد سلعا الجبل في المدينة، حسبت أنه أعرابي لا يذكر إلا جبلاً حول الأرض يسكنها، وقد أرابني هذا

التعقيب، فسألت أستاذنا الجاسر فقال لي: لقد وقعت في خطأ كما وقع فيه الكرمي، إن تأبط شراً قد عنى جبله الذي في أرضه، ففي هذيل قبيله جبل اسمه سلع.

قلت له: هكذا أمتك العربية تستعذب أن تسمى أجبالها ومواطنها ومدنها بأسماء واحدة، حباً للقديم وتحبباً للجديد.

وزارني الجاسر في مجلة (الدارة) فإذا هو غاضب من الإجحاف، فواضع الأطلس التاريخي كما يقول الجاسر، قد أخذ ما وضع عن الجاسر، فما أنصف أن يذكر اسم المصدر، فقلت له: لماذا لم تكتب عن ذلك تفند الأخطاء وتوضح الواقع، كأنك تحترم دارة الملك عبد العزيز، مع أني أعتقد أن احترام (الدارة) هو أن تذكرها بالأخطاء وأن تهديها إلى الصواب، فالدارة ليست حكراً على أحد، وليست في منعة من الأخطاء والتصويب، بل إن مطلبها الأول والأخير أن تكون الدارة بك ولك، لا بعيدة عنك، فالمعهد الأكاديمي ينبغي أن يحظى بك ناقداً وموجهاً كما غيرك من أمثالك فليست هي برجاً عاجياً وإن ارتفع اسمها وعظمت غايتها بالنسبة إلى البطل المجمع لهذا الكيان الكبير، ولا أدري هل يفعل أم لا؟.

وبالأمس كنت في الرياض، سألت صديقه وصفيه الأخ عبد العزيز الربيعي عنه، قال: لم ألتق به إلى الآن.

إن حمد الجاسر ثروة وطنية لا أدري كيف لا تدعوه الجامعات كلها في أوقات تحدد بالتنسيق يكون فيها أستاذاً غير متفرغ يلقي محاضرات عن التراث ليس للطلبة فحسب، وإنما للدكاترة الذين ينبغي عليهم ألا يترفعوا عن التلمذة لأستاذ كبير.. لأنه لا يحمل لقب (دكتور) أم لماذا؟ المعنى في بطن الدكاترة.

المقـالات

الإسـلام

وبرز الإسلام للكفر كله

ـ وليس غريباً أو بدعاً أو عجيباً، أن يحتضن البلد القمة. القادة القمة. ليشن حرباً على العدوان القمة، كأنما مكة القبلة الكعبة، مشرق النور، دعت بنيها أن يحكموا أمرهم في مؤتمر كأنهم في صلاة جامعة، فالمؤتمر في مكة بعيد عن المؤامرة والمقامرة، فالإيمان شجاعة في الوجدان، يحارب الخوف، ويقتل المؤامرة والمقامرة، وكأنما مكة حين تحتضن بنيها تدعوهم إلى ما كانت تدعو إليه وما زالت تدعو إليه سرمدياً قائماً ما دام هذا القرآن، تدعوهم قائلة: ليست الكارثة أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة، وإنما الكارثة أن تدعو إلى الجهاد فلا تجيبوا، وأن ترسل المآذن النداء تدعوكم إلى التضامن فلا تتضامنوا، ولا أريد أن أقولها من عندي وإنما قالها سيدنا محمد ﷺ.. سأله أصحابه (أمن قلة يا رسول الله؟) فأجاب كأسلوبه في جوامع الكلم: إنما يدرككم الوهن.. وفسر الوهن بالخوف. حب الدنيا وكراهية الآخرة.

إن مكة تستقبل بنيها ليس فيهم كبير ولا صغير أمام دعوتها، وإنما كلهم سواء ألبستهم مكة بإيمانها الكبرياء، فالقادة والشعوب أمام مكة في

المسجد الحرام إخوة في أمة واحدة يصغر الكبير حين يستكبر، ويكبر الصغير حين يستقبل ولا يستدبر.

وهكذا برز الإسلام كله للكفر كله، فالصليبية كفر، والشيوعية كفر، واليهودية كفر تصنع كل يوم كفراً، تلك قوى امتد سلاحها من كل نوع على الأرض المسلمة، والعقيدة المسلمة، والتراث المسلم. إنها بكل ما تملك من قوة إذا ما انتزعنا الخوف من أفئدتنا فإنها تستحيل حتماً قوتهم إلى قوة لدينا فلن نُغْلب إذا كنا كلمة واحدة وجهاداً واحداً وسلاماً واحداً، ولكنا غلبنا حينما أصبح بأسنا بيننا، ليس هذا كلامي وإنما هو كلام رسول الله محمد ﷺ.

وبرز الإسلام كله فهل تصدق النيات وتنفذ القرارات ليكون المؤتمر الإسلامي تتحقق فيه هذه الكلمة (برز الإسلام كله للكفر كله)؟

إنكم اليوم في وضع كالوضع الذي جرت وقعة الخندق، (الأحزاب) تحزبت الأحزاب تريد أن تهدم البيضة، تقضي على الإسلام، تنتصر على محمد، فإذا النبي في سفح سلع، وإذا الخندق ـ يحجز الأحزاب، وإذا المسلمون ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلجأوا إلى الإيمان وقتلوا الخوف.. هكذا وصفهم الجواهري:

قلوب ننشد اليوم مثلها أبى دينها أن يجمع اللَّه والرعبا

كان الله معهم لأنهم كانوا له فلا خوف ولا رعب.

وبرز فارس يقفز على الخندق من ثغرة ضاقت، كان أحد فرسان العرب جميعاً، عدوه أحد أقران عنترة، فارس قريش اسمه عمرو بن وُدّ العامري، حتى إذا استقام على حصانه يسل سيفه، ويطلب البراز.. عجيبة

كيف تركه رسول الله يصول ويجول في الميدان يطلب البِراز؟ لماذا لا يكتنفه رجال من الصحابة يقتلونه حتى لا يعود إليها آخرون من المشركين، ولكن استمطر بعض الخبر، لو فعل النبي لربما كان قتله بالجمع يصنع حماسة في المشركين يتقاذفون على الخندق، فأحب النبي ألا يكون ذلك.

وصال وجال بن ود، فإذا النبي القائد العظيم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) يلتفت إلى أصحابه ـ أنصار أو مهاجرين ـ يقول لهم: من يبرز إليه؟ يريدها فارساً لفارس، فقال الشاب كريم الوجه، أبو الحسن، أبو تراب، حيدرة، علي بن أبي طالب: أنا أبرز إليه، فقال النبي ـ وكأنما يسبر غور علي أو يعلمه ألا يكون فيه شيء إلا للإيمان ـ قال عليه الصلاة والسلام (إنه عمرو...) وقال الفتى علي: وإن يكن عمراً. وأعادها النبي، ولباها على ثلاث مرات.

وبرز النبي يقول: الله أكبر.. برز الإسلام كله للكفر كله كأنما تلك اللحظة حين انتصر علي بنصر الله له، كان النصر للإسلام كله، إلى يومنا هذا.. فارس واحد يمثل الإسلام كله، وفارس واحد يمثل الكفر كله.. ذلك حتم الظروف جاء بعده حتم الزمان على كل الظروف.

وقال عمرو: ابن أبي طالب؟ لا يسخر منه وإنما حنين ابن العم.. ابن أبي طالب.. لا أريد أن أقتله.. فقال علي: ولكني أريد أن أقتلك.. انصفني.. فقد كان عمرو على فرس، وكان علي راجلاً، فإذا الشموخ في الفارس يلبي الدعوة يترجل، رجل لرجل، لا يمتطي كل منهما حصانه.. وتقعقعت السيوف.. فإذا اليد المؤمنة بالسيف ذي الفقار تقتل فارس المشركين، فكانت بوادر الهزيمة صدت كل فارس ألا يتصدى الخندق..

فارس واحد تمثل به الإسلام كله، وأنتم اليوم جمع واحد.. نسأل الله

وأنتم أمام الكعبة أن يتمثل بكم الإسلام يسألكم أن تنصروه في مثالية الأخلاق، وامتثال الدعوة إلى الجهاد، والرغبة في استشهاد، تقتلون (الأنا) لتحيا أمتكم بالكلمة (نحن).

صورة:

ومعذرة إلى قارئي أرجوه أن يغفر لي عزمي على اعتزال الكتابة، أستجم من بعض الأوضار، وأستجم للراحة بعض الوقت، أريد أن أرفع القلم ولما يجف المداد، لا عن العجز وإنما مطاوعة لبعض الحجز، ولست بهذا أقترف نذالة الإخلال بما يجب علي وإنما لأستريح من الذين يختزنون التوجيهات كأنها علم الأسرار فلا يتبرعون بإعطاء الكاتب لديهم هذه التوجيهات.. فالحكومة لم تفرض سلطانها على القلم، وإنما جاءت الحكمة بالتوجيه بينما بعض حملة التوجيهات يبخلون على كاتب أن يعرفها.. أعترف ولا أقترف فقد سئمت هذا القرف.

ولقد أرعفت الكلمة كثيراً فأخشى أن يصاب بفقر الدم.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾

ـ وسطع على الكون نور.. وأخمدت في مكانه النار.. ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (النور: ٣٥) فالرسالة من نور الله.. والنبوة من نور الله يهدي الله لنوره من يشاء.

سطع النور على حراء برسالة النور لهذه الدنيا.. أنار الله به قلب رسوله ونبيه خاتم الرسل سيدنا محمد بن عبد الله.

أشرق النور يوم ولد في كل الكون.. عرف أثره في الجماد ولم يتعرف على أثره الإنسان بعد.. حتى إذا أشرق النور في حراء بالنبوة على

الجبل وحتى إذا سلط على الإنسان في الصحف على الجبل عرف الإنسان المبتدئ معنى التوحيد أشرق في وجدانه نور القرآن.. فالقرآن نور على الأرض.. ومحمد رسول الله من نور الله في كل إنسان الأرض.. فهو إنسان الإنسان.. أرسله الله معلماً وهادياً.

ولي الصفا وحين سمع قساة القلوب الفارغة عقولهم قوة النذارة أظلمت أفئدتهم عن رؤية النور في البشارة.. فحين تكلم البشير النذير أشرقت وجوه مؤمنة وأظلمت أفئدة مشركة.

لكن الظلام لا يستطيع أن يخفي النور حتى ظلام الليل جاءت قوة النور تجلوه من نور الله فيما أودع هذا الكون من الكواكب والقمر.. كأنما الشمس ـ وهي من نور الله أبت أن يظلم ليل قوة أن تعطي نوراً إلى القمر.

والنور ـ نور الله على الأرض ـ بهذا الدين الإسلام.. الإسلام توحيد.. صلاة توبة.. في كل من هذه الثلاث أمسك الإنسان بالعزة لا يخضع إلى الوثن. يتقدم بالطاعة إلى الله.. لا يجعل بينه وبين الله وسيطاً يستعبده.

والنار شعبذة. وثن على صورة لا تحرق إلا نفسها حين تشتمل.. ويحترق بها الذين عبدوها من دون الله الخالق الباري.. أخمدها الله حين ولد النور.. وأزاحها الله حين أرسل النور نفسه يفتح الأرضين لتكون تربتها المسجد لا تبقى على ترابها أوثان ولو على صورة النار.

والإنسان كان في حجاب عن النور من عذاب الحيرة والشك فالفطرة فيه مسلمة وموحدة وتوابة.

والعوامل التي يسوقها سدنة الصنم ورجال الكهنوت هم الذين قتلوا الفطرة في الإنسان فبعث الله محمداً النبي الذي اختار الفطرة ليجلو الظلام

عن الفطرة.. فأول ما انجلى الظلام كان عن خديجة.. عن أبي بكر. عن زيد. عن علي.. عن خالد بن سعيد.. وعن وعن. حتى عن بلال الذي سواده سواد السؤدد.. سؤدد الفطرة في هذا العبد السيد.

الله أكبر.. أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا.. قالها عمر يغبط أبا بكر حين علم أن أبا بكر قد اشترى بلالاً من العذاب ليعتقه.. ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ. إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ١٩ ـ ٢١) ذلكم أبو بكر.. وكلمة الرسول لأبي بكر أعز وأغلى من كلمة عمر.. «الشركة يا أبا بكر» قالها النبي حين علم بما صنع أبو بكر.. تلك قيمة النور في بلال.. في أبي بكر.. في عمر.. نور الله في كلمة الرسول. فقد كان النبي لا يصدر إلا عن نور الله كان خلقه القرآن وصفت عائشة رسول الله بهذا. صلَّى الله على النبي ورضي الله عن الصحابة جميعاً.

إن النار والصنم والكواكب كلها كانت في اندفاع النفس نحو الفطرة جبروت الكاسبين.. فما أكثر إحساسنا لأنفسنا إذا ذكرنا هذا الدين.. أن نذكر السيد العظيم رسول الله محمداً بالصلاة والسلام عليه. فحب النبي ما كان ولن يكون إلا على هذا النبي جاء يهدي الإنسان إلى نور الله بنور الله.

روح الإسلام أم روح.. اليابان؟

هل يكتب الكاتب بدون هدف؟!.

لا الكاتب الناجح المقروء ولو لقلة من الناس هو من يكتب لهدف حتى لو كتب فناً للفن لكان هذا هدفاً يغري القارئين بمشاركته إحساساً بما كتب بالفهم أولاً والتفهيم حتى تبلغ بهؤلاء الحماسة تقبلاً أو رفضاً أن يستخرجوا ما هو أكثر من المعاني التي لم يردها الكاتب.

ولم يكن هذا صنيعهم بالاختيار أو بالتلقائية ولكنه بالاطّراد سيراً مع الهدف في حالة التقبل وسيراً ضد الهدف في حالة الرفض.

مقدمة لا بد منها.. نشرح بها كلاماً سمعناه عن روح اليابان نجادل به عن روح الإسلام.

فالهدف عند هؤلاء نسير معه لا نتقبله دون حوار ولا نرفضه دون نقاش.

قالوا.. إن الولايات المتحدة استفاقت على حين وهلة بما شعرت به نحو اليابان، زهوة الانتصار والخوف من النكسة حملت الجنرال «ماك أرثر» أن يخطط لقهر اليابان.. الهدم لروحها والتدمير لصناعتها.. ولكن الإغفاءة بعد النصر بحذر الانتصار قد فاق منها رجال في الولايات المتحدة يضعون خطاً آخر يسيرون عليه على العكس من خط «ماك أرثر».

رأوا الشيوعية تستغوي وتتفوق.. فخافوا على اليابان إذا ما هدمت روحها ودمرت صناعتها أن تسقط في أيدي الشيوعية.. فنزعوا ماك أرثر ممثل سياسة الضغط وفسحوا لليابان المجال لتعيش قوية لروحها وصناعتها.

كلام جميل عرفنا منه قوة الروح في اليابان ببقاء هذه الروح في شعب ينتصرون به على الشيوعية ولو على طريق غير مباشر.

فلماذا يقف بعضنا في الموقف نفسه الذي تقف فيه الشيوعية ضد روح الإسلام؟!.

فأي ضمان في أيدي هؤلاء لصد الشيوعية أقوى من قوة الإسلام..؟!.

في كل بلد شرقي وغربي وجدت الشيوعية مجاليها وأسست فيها أحزابها وارتفعت رؤوس تعتنق الشيوعية النظرية وفيها كل الخطر لأنها لن

تمارس التطبيق إلا بعد أن تنغمس في الدم.

في كل بلد وجدت الشيوعية مجالها إلا بلد المسجد.. إلا أرض الإسلام، فمن سفوح الهملايا إلى حدود الظلمات «الأطلنطي» تجد الشعوب المسلمة الرافضة للشيوعية.. الطاردة بالعمل وبالفكر وبالتأبي لكل شيوعي.

ولم يكن هذا الطرد بقوة العون الأمريكي ولا بأسلحة الأحلاف ولا بتخطيط الساسة.. وإنما هي قوة الكلمة المسلمة من العقيدة في الشعب المسلم.. في الأمم المسلمة.. حتى إنها تعيش اليوم في أزمة «القرف» من هذا السرف في تطلب العدالة الاجتماعية بوسائل.. وعن مذاهب ليس لها رصيد في قلب وعقل هذه الشعوب.. فهي بالحتم وبالاحتياط وبالحذر قد رفضت كل ذلك.

ولكنها في حاجة إلى توحيد الخط للدفاع ضد هذه المذاهب. لقد نجت من الشيوعية حتى الآن.. وهي تجارب الحرب غير المكشوفة على طريقة انفرادية ما كانت لتنتصر لولا قوة دينها.. قوة تراثها.. محافظتها على تقاليدها.

هذه هي روح الإسلام قد حفظت بالقوة ما صانت. فلماذا نحمد لليابان على صورة من الحمد للولايات المتحدة بقاء الروح اليابانية قوة تصد بها الشيوعية؟!

ولا نحمد لإخواننا عودة هذه الروح.. روح الإسلام على صورة جماعية في وحدة تضامن.. في تضامن زاحف.. في زحف يصد ويرد ويكتسب.

كل ما صنعه فيصل بن عبد العزيز هو الدعوة لروح الإسلام تعود قوية في المجتمع المسلم.. ولم يكن في ذلك بالدخيل ولا بالعميل.. وإنما هو

الأصيل.. جزاكم الله خيراً .. فقد أحسنتم إليه على صورتين:

أولاً: أشعرتموه بقوة الخطر منكم ومن الآخرين.. فسار بقوة وحذر حتى إنكم من حيث لا تشعرون قد جنبتموه مواطن الزلل. إن حملتكم هذه ليست الدليل على قوة تحمله.. وليس فيها الدليل على تحامله ولكنه سيأخذ منها البرهان يضعه أمامكم لتعرفوا أنه من غير المعقول أن يسير فيصل بهذه الدعوة العميل لأنه الأصيل أولاً ولأنه غير الدخيل الأمانات المقدسة في يديه تجعله بعيداً كل البعد على أن ينيلكم موقفاً تلجون من ثغراته لتعلنوا ما تجدون فيه مادة الوقود لمطامعكم.

والصورة الثانية وجزيتم خيراً من أجلها أكثر وأكبر فقد أصبحتم الدعاة داخل شعوبكم للدعوة الإسلامية. ما كان يستطيع فيصل أن يصل إلى مشاعر شعوبكم بوسيلة أحسن من هذه الوسيلة التي هي أنتم دعاة ضدها. دعاة لها فالسلب منكم إيجاب في حتمية التلقائية عند الشعوب المسلمة.

الحمد لروح اليابان عرض للتاريخ وعبرة للمؤرخين.. ولكن الدعوة لروح الإسلام تصنع وتعبر إلى ذرى عالية أفكار المؤرخين.

عجب أن نمجد في اليابان محافظتها على روحها والعجب الأكبر أن نحارب عودة الروح للمسلمين بالدعوة الإسلامية.

أهو ازدواج في السلوك أم هو الوصول إلى منطقة الإيمان كما يقول توفيق الحكيم؟.

إن توفيق الحكيم يقسم الإنسان إلى منطقتين: منطقة الانسراق.. ليسير صاحبها في الملذات.. وبما هو أكبر وأشر حتى إذا استفاق تكشفت له من داخله منطقة إيمانه لتجعله يتوب ويستغفر ولو بتمجيد روح اليابان. لعلّه بعد

يستفيق أكثر ليمجد روح الإسلام.. روح بلده.. روح آماله.. روح مستقبله..

بين الميوعة والجفاف

يقف المسلم العربي، القابض على دينه قبضة كف على جمر. حائراً حيناً.. وغاضباً حيناً آخر. ونادماً في كلتا الحالين.

فلا الحيرة ترشده إلى حل.. ولا الغضب يسير به إلى غاية.. وإنما الندم هو حاجز الحيرة.. أن لا تدوم ويمنع الغضب أن يفعل.

فالندامة انفعال. هما أول الطريق لوقوع الفعل إذا صحت النوايا وكانت الندامة توبة خالصة ما قصرت فيه.. أو ما تقاصرت عنه إلى عمل الجديد ترجع فيه إلى حياة عاطفة لا جفاف فيها ولا ميوعة الحيرة والغضب من هذه الضيعة ترتفع فيها القلوب وترتعد منها الأفئدة.. أو هي ترتوي من القلوب.. كل فريق بما لديهم فرحون.

الضيعة ليست من الفرقة نفسها. وإنما هي أساسها وهي أيضاً ليست البحث عن الإيمان.. والكلام في فروعه.. كما كانت هي شعارات الفرق فيما تقدم هي الأنكى من ذلك لأنها انصرفت عن العقيدة وعن فروعها إلى ضياع المعتقد فضياع المعتقدين.

ما هو السبب؟ يقولون زحمة العصر.. الغزو بوسائل المدينة.. قراءة الاستشراق بأسلوب الاستغراق.. وكثير من هذه الأسباب.. لكنني لا أنكر هذه الأسباب وإنما ما جاءت. ما ترسخت. ما صنعت أفاعيلها. ما أضاعت إلا بعاملين تعاونا معاً.. الجفاف في العاطفة المسلمة الدينية. والميوعة في هذه العاطفة. أي إنها الإفراط والتفريط.

الإيمانُ قلبٌ إنسانٌ عواطفهُ.. هذا أساسه ورفعة بنيانه بإعلانه. بالعمل به. هذا القلب المسلم أضاع عاطفته بالجفاف. لا يتعلم الحب للغواني في تاريخه.. يسرف بشيء من الجفاء صنع له هذا الوفاء.

التاريخ لا يدرس بعاطفة الحب، والسيرة لا تعلم في البيت. وحب رسول الله ﷺ لا يتلقنه الطفل التلقين الصحيح. لا يعرَّف ـ بتشديد الراء المفتوحة ـ أن رسول الله محمداً بن عبد الله هو عبد الله ورسول الله.. أرسله رحمة للعالمين.. صنعه على عينه جل جلاله على خلق عظيم. العبودية لله أشرف مقرراته، والرسالة من الله خصه بها أكمل مقاماته. لو تعلم الطفل هذا الحب على أساس صحيح من عقيدة التوحيد لا جفاف فيها ولا ميوعة.. لأنشأنا جيلاً شاباً لا نبكي منه، لا نبكي عليه.

الجفاف في العاطفة الضيعة.. الجفاف سمة اليهودية أضاعت يهود بها كل عاطفة نحو موسى. نحو سليمان. حتى قتلت نبيها. أعدت الصليب للنبي الرسول عيسى بن مريم. والميوعة إفراط. إفراط جعل من الحب رقصات. ومن الإيمان طقوساً تؤدي لضريح.. فضاعت العاطفة من هؤلاء نحو القمة الرسول محمد وأصحابه بهذه الفوضى في توزيع العاطفة الحب على من هب ودب.

فالإجلال والاحترام والحب كلها لا تعيش مع الجفاف.. وتضيع مع الميوعة. ولن نعود إلى العقيدة للأمة الوسط. إلا بوسط من الأمر. لا يحترق في الجفاف ولا يدوم في الميوعة.

البيت. قبل كل شيء لكن من يعلم سيد البيت؟.

لئن فاتته المدرسة فالمسجد هو المدرسة. إن عمار المسجد بالمصلين حسن. لكنه يزداد حسناً إذا ما عمره العلماء الذين ينشرون الحب الرطب

اللين. لا جفاف فيه ولا ميوعة لن تخسروا شبابكم حينما تجعلون من كل مسجد مدرسة.. من المسجدين الحرام والمحمدي النبوي جامعة.. فالمسجد هو حسنة هذا الإسلام.. بيت عبادة.. مدرسة علم.

المسجد اليوم لا يصنع لسيد البيت عاطفة يربي بها أولاده. يدخل للصلاة ثم يخرج ولا شيء قد ملأ فؤاده من معرفة ومن حب.

حينما كان المسجد جامعة.. كانت حضارة الإسلام هي المدد لكل الجامعات في الدنيا.. لا قيد فيه على داخل. لا شروط على متعلم. كل لا بروز للذين يثنون الركب على الحصير أمام الشيخ المعلم.

هذا البلد الأم لدعوة الإسلام. الأم للعرق العربي.. الأم لمدرسة الكوفة والبصرة.. الأم لعلم ابن عباس والعبادلة معه ومن المسيب وعطاء وعكرمة والنوري ومالك هذا البلد مطالب بأن يكون المسجد جامعة حتى إذا حرمت الأنظمة الحديثة شاباً من الجامعة وجد في المسجد الجامعة. ولقد وصلني هذا الكتاب أنشر فقرات منه عن اليلولة دون الانتساب للجامعة.

يقولون بعد المقدمة:

نحن مجموعة من الشباب الذين لديهم أعمال ووظائف ونحن برعاية أسرنا ولكن مع ذلك واصلنا تعليمنا ليلاً حتى حصلنا في عام ٨٨ ـ ٨٩ على شهادة الثانوية العامة ـ القسم الأدبي من مدرسة مكة الثانوية الليلية. ولما كانت ظروفنا المعيشية لا تسمح لنا بمواصلة دراستنا الجامعية كمنتظمين لجامعة الرياض، وكان الأمل يحدونا بأن الجامعة ستلبي طلبنا. ولكن جاء الجواب بعدم القبول بحجة العلامات المتحصلين عليها في استمارة التوجيهية لا تؤهلنا للانتساب.

وقد ضاع الأمل عن مواصلة الدراسة وذهبت سنة كاملة من عمرنا الدراسي. والحالة هذه تضع هذه المشكلة بين أيديكم.. علماً بأن وزارة المعارف الموقرة منعت الانتساب في الجامعات الخارجية لما يترتب عليه من أضرار.. الخ.

وقد وقعت الرسالة بأسماء مرسليها وهم: محسن سالم العمري. عبد الله إبراهيم عواد. محمود محمد تكروني. غنيم غانم الينبعاوي. محمد صالح باسلامة. يحيى مغربي سليمان العيوني. عوض مصلح.

من فرغانة.. إلى غانة!

هذه سجعة الحريري صاحب المقامات أوردها كأنه يحدد بها الأرض المسلمة. العالم الإسلامي وليست هي في نظري سجعة عارضة.. حكاية بيانية.. وإنما هي روح الإمام المسلم سواء كان الأديب الحريري أو الفقيه من كل جنس مسلم، أو الحدث أو الفيلسوف. فكل هؤلاء تأمرهم الروح المسلمة أن يفقهوا تاريخهم أرضهم إنسان هي روح الأمة الواحدة فهم يعرفون ويعتقدون ما تدعو إليه هذه الآية الكريمة.. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

فصدر هذه الآية خير.. لكنه الأمر بأن نكون الأمة الواحدة.. فإن التأكيد للخير إعلام بما هو واقع.. وإعلان عنه كواجب لن يقع غيره ولن يكون إلا هو.. وتمام هذه الآية وأتأدب فلا أقول عجزها، تمام هذه الآية هو الأمر بعبادة الإله الواحد لأن هذا البيان الرفيع فيها في قوله تعالى ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أثبت أنه الرب الخالق الذي يعرفون.. وأضاف إثباتاً بأمر آخر في قوله ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ إثباتاً لإله واحد كأنها جمعت ثلاثة أوامر.. وحدة

الأمة، والاعتراف بالرب توحيداً للربوبية، والعرفان لإله واحد توحيد الألوهية.

هذا التوحيد وهذه الوحدة هي التي دعت الحريري ومن إليه أن يحدد أرضه المسلمة بكل إنسانها أصخره وأسمره وأسوده وأبيضه.

فرغانة مكان وسط آسيا.. وغانة مكان جنوب الوسط كأنه الوسط في أفريقيا. وكأننا هنا لا نسعى إلا إلى هذا كله فعندنا البيت الحرام. القبلة المكان المركز في الكون. الوسط في الدنيا كلها يتجه إليها ساكن في فرغانة يتقابل في الاتجاه إليها مع ساكن غانة. كان الفرغاني والغاني قد استقبلا القبلة لا تحجز حب أحدهما للآخر وإنما هي الصلة الواصلة بالصلاة في هذا الاتجاه إلى هذه القبلة، فأي ضريبة ينبغي أن ندفعها نحن الذين شرفنا الله بالسكينة والسكنى حول هذه القبلة؟

الضريبة تشريف التكليف، وتكثيف التشريف نهض بهما عبد الله من أودع الله عنده أمانة الحفاظ على هذه القبلة الملك فيصل بن عبد العزيز.. فهو يدفع هذه الضريبة راضياً مختاراً في أحسن ما يسعى إليه.. وغير مخير في هذا الذي سعى إليه.. فذلك هو قدره منحه الله أن يقوم بأداء ما يجب.. وبالوفاء لما يستحق..

فحول فرغانة بعد شهور أقل من أربعة ينعقد في خراسان المؤتمر الإسلامي جامع شمل. موحد رأي في صدق ما ينهج.. وفي بر لما يعتزم عمله.

وفي القارة الإفريقية يسير بمسيرة الخير إلى الأرضين حول غانة يؤلف ويلتف ويعين ويبني.. يبني الخلق المسلم في إخاء المسلم لأخيه المسلم.

إن المؤتمر الإسلامي حول فرغانة سيقود التحرك البطيء في آسيا لكل

المسلمين فيها حتى يجد نفسه في تضامن وتكافل ومحبة مع المسلم في أفريقيا.. وإن التحرك الحثيث وأحسبه الأسرع في أفريقيا لما هي عليه من وحدة المذهب يجمعه الفيصل بهذا التجمع ليكون سنداً يسعى إليه المؤتمر الإسلامي كأنما الملك ـ وقد قارب المؤتمر أن ينعقد ـ أراد أن يسرع لألفة أفريقيا داعياً لهذا المؤتمر.

كل البيانات المشتركة ما أدركت أن أقرأه بعد صدوره قبل أن أكتب.. وما سيصدر بعد.. لا تدل إلا على شيء واحد هي قوله للمسلمين بما تعنيه هذه الكلمة (تآلفوا ولا تخالفوا، تعانقوا ولا تفارقوا فنحن إخوانكم العرب نسلم للضيم في أرضنا وإنسانها ومقدساتها من طغيان يهود.. يحتلون القدس يذبحون أبناءنا ويستحيون كل كرامة فينا كأنهم حين احتلوا الأرض قد شبعوا من انتهاك العرض).

نحن في أيامنا هذه في حاجة إلى كل عاطفة أفريقية مسلمة وإلى كل عقل أفريقي يحترم أرضه. تحرك سريع من جلالته ضم به فرغانة إلى غانة ضمة عاملة فنصرة لا سجعة مترفة قالها أديب.

أم القــرى

عبد الرحمن الكواكبي شيخ مسلم، عربي شامي، أحسبه قد نزع إلى عرق، إلى أصالة الأشياخ، كأنما هو قد وضع العز بن عبد السلام أمامه، وابن تيمية قدامه، وإمبراطورية أمية في حنينه، والشتات والفرقة والعجز الذي خيم كل منها على الإنسان المسلم والأرض المسلمة، ولا أقول الإسلام، فالإسلام أعز وأجل من أن يضام، ولو لم تبق له ومعه إلا الفئة التي حفظها الله به، وحفظ بها دينها وأرضها وإنسانها.

حين كان ذلك كذلك، أخذ الكواكبي يفكر لا بأحلام اليقظة ولا

بالتمني وإنما دعاه إسلامه ـ وقد تلفت إلى كل بقعة في الأرض المسلمة ـ فلم يجد مجالاً لجواره يصوره في صورة من مؤتمر ينعقد في أم القرى (مكة).

فأحلام الكواكبي وجمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان ورشيد رضا، التي كانت دعوة على قرطاس، أصبحت عملاً في مؤتمر قمة مسلمة يعقد هذه الأيام في مكة المكرمة أم القرى حلم خطه الكواكبي على القرطاس، وحققه عملاً الملك خالد بن عبد العزيز كأنما هو ـ وبهذه الحفاوة تكريماً للمؤتمرين قد أعطى دعوة أخيه ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز دعوة الجهاد.. القوة ينتظم لها وبها ومنها وعنها ميثاق، وتصدر توضيحاً للميثاق.. القرارات، فالمسألة في هذا المؤتمر هي أن يكون في وحدة ليست الإمبراطورية وإنما هي في التضامن وإسقاط الخلاف، والنظرة إلى المصير، يجتمعون دفاعاً عن المصير، للكل باتحاد الأجزاء، فحين يتخلف قطر عن التضامن والوحدة، لا يؤكل وحده وإنما تتآكل الأقطار بعده، فالفرقة قاتلة.

إن حلم الكواكبي وما دعا إليه جمال الدين ومحمد عبده في العروة الوثقى، وما انتصب له قلم شكيب أرسلان، ما هي إلا الكلمات المؤمنة، ما أحسن أن يبرز حقائقها في هذا المؤتمر.

وعجيب.. يدل على أصالة الشام أرضاً مباركة مسلمة عربية أن يكون الكواكبي شامياً، وأن يكون شكيب أرسلان شامياً، وأن يكون من الناحية الأخرى ساطع الحصري شامياً، والعجيبة الأخرى من أصالة الإسلام أن يكون جمال الدين أفغانياً مصرياً عثمانياً، وأن يكون محمد عبده مصرياً، فالشعوب المسلمة ما زالت بخير، وتمام الخير أن يكون الزعماء والقادة ساعين إلى الخير.

إن أحلام الكواكبي ومن إليه وبلا تهريج وتملق قد وضع الدعائم لها تبرز في هذا الكيان الكبير جزيرة العرب، تراث محمد.. الملك البطل. الإمام السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن.. وقد تتابع بنوه، ملوكاً وأمراء ـ ساروا على الطريق.

وحين ذكرت ساطع الحصري ـ وهو أكبر دعاة القومية العربية لم أقصد إلى المقارنة بينه وبين الكواكبي ومن إليه وإنما أردت أن أشهد له، فرغم تطرفه في القومية العربية لم يتطرف على الإسلام، بل ولم يتطرف ضده، وإنما التظرف والتطرف جاء من الذين لا يعرفون أن القومية العربية بلا إسلام لا شيء، وأن الإسلام بدون العرب ينقصه الشيء.

قصدت من ذكر الحصري الشامي الحلبي اليمني، العراقي المصري، كلمة قالها ـ وهو يؤرخ للقومية ـ فهو كعبد الرحمن الرافعي مؤرخ مصر وهو يمت إلى عرق شامي لبناني، والجبرتي مؤرخ مصر وكمحمد رفعت، كلهم قال هذه الكلمة التي أنقلها عن ساطع الحصري، فقد قال: واجتمع الجزار حاكم عكا، واليوسف حاكم دمشق، والشهبان بشير أمير لبنان، ليخططوا ثورة ضد الدولة العثمانية، وما كادوا يتدالون حتى جاؤهم الخبر بأن قبائل الجزيرة الوهابية قد وصلت إلى مشارف الشام، فارتاعوا وانفض جمعهم، فأنقذت هذه المسيرة النجدية الوهابية الدولة العثمانية.. يقول هذا بينما هو في كلمة أخرى كقول الذين ذكرنا من قبل، أن حرب محمد علي باسم الدولة العثمانية ضد دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يرحمه الله وضد تحرك آل سعود معه، قد أخر القومية العربية فهو كمن سبقه الجبرتي والرافعي ورفعت، يحمل محمد على تأخر القومية العربية، بينما نظرة شكيب أرسلان ومن إليه أن هذه الدعوة بسلطان العقيدة وبالسيف المسلم في يد آل سعود كانت يقظة إسلامية نواة لجامعة إسلامية.

وقد كان شكيب أرسلان حرباً على ثورة العرب نقيضاً ضد القومية العربية، ولكنه كان عقلاً يساير العاطفة فإذا هو بعد سقوط الدولة العثمانية والذي كان من أهل الحفاظ عليها وبعد تسلط الاستعمار على مصر من قبل، وعلى العراق وأرض الشام كلها، وعلى فلسطين وبالذات، لم يجد مجالاً إلا أن يكون مع قومه العرب، صديقاً لفيصل بن الحسين الذي كان يخاصمه إبان الثورة، وصديقاً صدوقاً مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن ومع الإمام يحيى.. لم يكن ذلك تقلباً وإنما هو انقلاب الفكر لأن يكون مع الواقع وكله أمل في أن تستقل العروبة المستعمرة في بعض أقطارها فشكيب أرسلان لا يفرق بين العروبة والإسلام.. هداه عقله وهو درزي الأعراق من العروبة في القمة ينتهي نسبه إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء أصالة في العرق وأصالة في الفكر، فالإسلام والعروبة تزاوج لا ازدواجية.

الأشيـاخ

وكثيراً ما تعلموا من العامة فقد يكون بعض أساتذتي سائق سيارة، وبالأمس كان أستاذي في الكلمة (جزار) هو أبو محمود اللبناني الجزار في بقالة القافلة بالبغدادية، وقفت أشتري لحماً فقال: أتعرف عز الدين القسام؟ قلت له: لقد عرفت هذا البطل حين قرأت ما كتبه عنه كامل القصاب الزعيم الشامي الدمشقي المسلم من قمة رأسه لأخمص قدمه.

فقال: طيب أنت ما تعرف يا أستاذ.. إن الذين يقودون الجهاد هم المشائخ العلماء فأين هم الآن؟.

قالها وأمسكت.. تدور الكلمة في رأسي فأخذت أجترها أسأل عن أبي الدرداء الشيخ في اليرموك، تحت قيادة الشيخ أبي عبيدة، وعن الشيخ

القائد سعد بن أبي وقاص في القادسية وعن الشيخ صلاح الدين ومعه الشيخ القاضي فاضل في حطين، وسألت عن الشيخ سلطان العلماء العز بن عبد السلام، الذي حرك الكلمة في عين جالوت (وا إسلاماه) على لسان العبد مرتين الملك مرتين صاحب هذه الكلمة، قائد النصر في عين جالوت تلميذ العز بن عبد السلام، الملك المظفر قطز.. وسألت عن الشيخ أحمد البدوي في حرب الصليبيين بقيادة لويس التاسع في المنصورة أسره الجيش الذي جيشه البدوي فحبسوه في دار ابن لقمان، أعني لويس التاسع إمبراطور فرنسا فالسيد البدوي عظيم في جهاده أرخص من قيمته هذا التعلق الطرقي أرادوا أن يعظموه فأنقصوه من قيمته، بينما هو في الجهاد صاحب قيمة، لا نبخسه حقه فأمرنا معه بلا تفريط وأمر الذين أرخصوا من عظمته إفراط.

وسألت عن الشيخ الإمام محمد بن واسع في جيش قتيبة بن مسلم يأخذ له بمجامع الطرق.. هكذا كان الأشياخ.. ولا أنسى الشيخ الإمام عطاء ابن أبي رباح شيخ العلماء في مكة كان يفضل الطواف على العمرة، يحب الإقامة بالمسجد، يصلي ويطوف ولكنه في كل عام يخرج مرابطاً في عسقلان فقد غلب حب الجهاد في وجدانه حب الإقامة في البلد الحرام.. ولا أنسى الشيخ الإمام ابن القاسم حامل علم مالك إلى الأمصار المغربية فقد سألوه بعد أن مات في رؤيا ماذا فعل الله بك؟

قال: لقد ذهب العلم والفقه ولم أنتفع إلا بركيعات ركعتها في الإسكندرية، ركيعات الرباط، فأين الأشياخ المرابطون؟.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهذه آثاره تدل عليه.. في الإمكان أن تخرج مساجدنا وجامعاتنا الأشياخ فمكنوهم أن يكونوا أشياخاً بحق،

وهذبوا الأمر بيننا وبينهم إلا أن يكون السبيل هو الحق ولا شيء غير الحق..

الحرب في دم العربي.. والسلام من مبادئه

ولأن الحرب في دم العربي.. ولأن السلام من مبادئه.. فقد أتخذ من هذين ركيزتين. ركيزة الاندفاع في تحطيم كل الأسوار التي تصد الإسلام وتطغى عليه. والأخرى إعداده واستعداده فارساً محارباً قبل الإسلام.. حتى إذا أشرقت شمس هذا النور.. اندفع يحارب الهداية فاندفعت تجره جراً إليها.. تنتصر عليه في كل معركة. وتجذبه إلى الخير في كل حركة.. فالحرب كتبت عليه يمارسها ويتدارس وسائلها مع سلاحها.

فهناك عاملان في أرض العربية ألزماه أن يتعلم الحرب، المكان والمكانة، فمكان العربي في ملتقى الطرق طرق القوافل، ومكانة العربي بهذه العزة الشامخة التي أرست وجدانه، حتمت عليه ألا تمس من الذين جاوروه في الإمبراطوريتين كسروية وقيصرية.

إن المكان والمكانة علمت العربي أن يحارب، وحتى حينما تمكنت الإمبراطوريتان من إقامة ركائز لها في الأرض العربية، الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة، بقي العربي في الجزيرة يدفع أي نفوذ يتسلط عليه من هذين فلم يصبح الغساني أو المنذري قادراً على التوسع في الجزيرة، ويفي ذلك أنهما أصبحا حاجزين لهذا العربي في الجزيرة ألا يتخطى الحدود يحارب مصالح الإمبراطوريتين.

إن الغساسنة كقحطانيين قد أخذوا يتألفون القحطاني في شمال الجزيرة، سواء كانوا قضاعة (جهينة وبلى) أو (كلب) كانوا يتزاورون، ويفاخرون، حتى أصبحت هذه المودة حاجزة للعربي القحطاني أن ينفر من

الغساسنة أو أن يغير على مصالحها، بهذا الأسلوب نفسه سار المناذرة في التواد مع شرق الجزيرة ووسطها يجاملون بكرا وتغلب وشيبان، يحاذرون من تميم، ويصاهرون غطفان، فالمتجردة بنت زهير تزوجها النعمان بن المنذر لعلّه حين استمال غطفان أن يتخذ منها ضاغطاً قوياً يشغل تميماً ويضم أسداً معه إلى الحلف الأعظم، ويكسر من شوكة بكر وتغلب ضد المناذرة.. لكن هذا التواد لم يترك العربي معه سلاحه احترافاً في أيام حروبهم القبلية، واعترافاً بحق السلاح يحمي أرضهم من توسع الإمبراطوريتين.. كل هذا التعامل مع السلاح أحسبه كما ذكرت من قبل إرهاصاً للنبوة.. واستعداداً للجهاد المسلم فحين سطع النور لم يجد برهان هذا النور نفسه في فراغ، بل وجد الفارس الممارس لشؤون الحرب، العاشق للسلاح، فهناك ـ وبتوفيق من الله ـ قد انتصر الإسلام على العربي بناصع من البيان في هذا القرآن، وبالكلمة البيانية ينطق بها رسول الله ﷺ، أتاه الله جوامع الكلم.

انتصر الإسلام على العربي بالبيان.. إن العربي كان صاحب بيان، وانتصر الإسلام بهؤلاء الذين تخرجوا من أيامهم المحاربة قبيلة تحارب قبيلة، سميت هذه الأيام، وهذه الحروب القبلية بالأكاديميات العسكرية. لنتصور أنه من السهل على فرسان الإسلام وقادته أن ينتصروا على القبائل المرتدة، كأن الحرب بينهم هي من نوع الحروب القبلية من قبل، لكن انتصارهم في حرب جيوش على الإمبراطوريتين ذات الجيوش أمر يحتاج إلى معرفة تستوعب قيمة المكان والإمكان والتعامل مع جيوش الإمبراطوريتين، كما سأوضحه بعد.

١ ـ اليرموك: فقد جهز أبو بكر أربعة جيوش مسلحة بقيادة ثلاثة

عدنانيين والرابع قحطاني، أبو عبيدة، عمرو بن العاص، يزيد أبي سفيان ثم شرحبيل بن حسنة.

كان التخطيط أولاً أن يذهب كل جيش إلى مقاطعة تفريقاً لجيش الروم ولكن الروم فطنوا إلى ذلك فاجتمعوا يحاربون بهذا التكتل الكبير، غيّر الروم خطهم فجاء الأمر من أبي بكر يحدد الاستراتيجية والتكتيك يقول: كونوا في مكان واسع المطرد، ضيق المهرب، فالطراد في المكان الواسع يبعثر الكثرة، والانسحاب من المكان الضيق يعطل التحرك السريع.. لكن ثغرة في هذه الخطة سببها أن القائد العام أبا بكر الصديق وكل أمر التنظيم للقواد الأربعة، فأصبح كل أمير على جيشه يقاتل مسانداً للجيوش الثلاثة، أي إنهم يقاتلون متساندين، متفرقي القيادة، حتى إذا وصل سيف الله خالد بن الوليد أنكر هذه الخطة فجعل الجيش واحداً وأقنع الأمراء بأن يتولى كل أمير منهم القيادة في يوم بعد يوم وطلب ابن الوليد أن يكون قائد المعركة في اليوم الأول.

إن هذا التكتيك في رسم الاستراتيجية أكسب العرب وحدة القيادة ووحدة الجيش، فكان النصر، وكيف تم النصر؟

تم النصر بلمحة خاطفة من خالد بن الوليد ميمون النقيبة، فحين رأى أن الميسرة توشك أن تحاصر الروم لم يفرح بهذه الحركة، بل قال: أفرجوا لهم.. أعطاهم الطريق ليفروا فسقطوا في الواقوصة لأنهم قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل.

إن هذا التخطيط في تعيين المكان وتوحيد الإمكان، ولماحية القائد بهذا الذكاء لا يمكن أن نعده أمراً بدائياً بدوياً، بل هو لا يخرج عن أسلوب عصري يفاخر المعاصرون بأنهم الفاهمون له، والقادرون عليه، حتى

قال قائد ألماني لقائد تركي: أخرج لهؤلاء الإنجليز الذين نحاصرهم الكرك، وقلّد في ذلك قائد الإسلام العظيم خالد بن الوليد.

٢ ـ وفي القادسية: جيش عربي ومسلم في تجمع واحد يخوض المعركة فإذا نسميه اليوم التكنولوجيا من الإعداد الفارسي يستعمل الفيلة فأجفلت خيل العرب.. ورجحت كفة الفرس، لا تنتهي الحرب في يوم واحد كما انتهت في اليرموك، وإنما تطول إلى ثلاثة أيام، فلا يأتي اليوم الرابع إلا والتكنولوجيا العربية تحوز النصر الساحق، فما هي تلك التكنولوجيا؟ إنها من عمل القائد العظيم القعقاع بن عمرو، فلقد جاء القعقاع مدداً يترك جيش الشام ـ وقد كان أركان حرب خالد ـ فرأى أن الغلبة كادت تكون للفرس.

قصة الحج إلى بيت اللّه الحرام

قصة طويلة وعريضة.. استطالت على مدى التاريخ.. تاريخ هذا الإنسان على الأرض، وأمكن لها بعد أن تكون محور التاريخ في هذا البلد.. شعباً وحكومات.. أمناً ومخافات.. تقلباً من حال إلى حال على امتداد العلاقات وثبات التعلق.. الحسن فيها معروف مدوّن.. والمسيء لها معروف مدوّن..

ولم يكد ينقضي عهد الفتح.. عهد الوحدة بين العرب بانتقال الخلافة والملك إلى بلد آخر كمؤثرين في سير التاريخ المسلم وكمتأثرين بواقعهما في هذا البلد.. ثم في غيرنا ثانياً..

لم يكد ينقضي ذلك حتى جاء التأثير والتأثر بالحج والحاجين يؤثرون بما يصنعون ويتأثرون بما نصنع ليكون التأثير إيجاباً من ناحية الحسن فيهما، وسلباً من ناحية المسيء إليهما!

قصة طويلة:

بدأت بترك الجزيرة تأكل نفسها بالترف.. حيناً، وبالقرف حيناً آخر لتحيا بالشظف!.. الترف المقرف كان برانياً، والشظف المترف كان جوانياً في دم نقي، ولم يكن هذا الشظف إلا الحرب ضد الترف.. كان الترف حول المدنية الحاضرة كأنه لا وجود لآباء وأمهات في الجزيرة كلها إلا في مدن ثلاث: مكة ـ المدينة ـ الطائف.. أما البقية فتعيش إلى رجعة من بداوة وجاهلية.. لولا أنها أمة صلدة سواحة.. زاحفة تواقة.. ممدة وممتدة لما بقي منها أحد!

كل عوامل الإبادة تسلطت عليها، ولكن ذخر الحياة وشظف الأحياء أحيا الحياة فيهم!.. الحج أعان على لقمة العيش.. يأتي بعض حين يترف إلى المدينة.. يعيش أكلها ـ وأكثرهم نئوم الضحى، ساهر ليل ـ كما أنه بما أثر قد وسع الانفصال بين المدينة الحاضرة، والأرومة الوالدة في الآباء والأمهات.. حول هذه المدن.. كلهم سواء.. سواء في بادية الحجاز، أو في السراة كلها، أو في نجد بأسرها حتى بحرينها وكاظمتها.. فمن حدود البصرة ـ أدنى حدود العرب كما هو كتاب عمر لعتبة بن غزوان رضي الله عنهما ـ حتى نهاية وادي القرى.. بل إلى حافة الأردن، ومن «حضن» يرى نجداً من رآه.. إلى شماريخ اليمامة حتى البحرين كلها.. كما هو كتاب أبي بكر إلى إبان بن سعيد بن العاص.. كما هو كتاب العلاء بن الحضرمي.. والي الربع الخالي.. كان كل هذا متروكاً لبيت من الشعر.. من الوبر.. أو الحجيرة من المدر إلى نخيلات وشياه!.

لكن التفوق في العرق والنظافة في الدم سارت إلى رحلة تسوح ـ إن لم تفتح ـ بل هي فاتحة بنوع آخر.. تنشر اللغة ليستعرب اللسان بها عراقة

العرب.. كأنما هو زحف الناقم لرد فعل جاء من إهمال الزحفين.. قد حف بالترف، والزحف بالشظف!

زحف الإهمال كاد يدمر.. وزحف العرق واللسان لم يسأل عن الترف.. بل كان عدته الشظف.. أنفي عوامل الحزم والعزم في انتشار الأصول لتنمو الفروع.. جعلت البحر الأحمر بحيرة عربية. والخليج العربي مضيقاً.. وجنوب البحر الأبيض كله مسبحاً عربياً، وسواحل بحر الظلمات أرض نور عربية!

ولا ينتهي الترف والقرف والشظف بالعربي إلا وهو قد تخطى المحيط الهندي. وجبال الصين حتى يصل إلى الجزر هناك. وإلى منشوريا.. يجعل من أهلها.. المسلمين.. فبالنقمة الترف كادت تهلك.

الترف جعل من الحجاز ـ مقر الحج ـ معهد موسيقى، وندوة ظرفاء.. بينما هو ما كان ولن يكون إلا نور نبوة، وبرهان يقين، وحلبة أبطال، ومنبع كلمة مليحة فصيحة شاعرة، ومحط رجال، ومناط آمال.. يستمد من روافده في عزومه ونجوده كل ما هو أصيل ليقاوم كل دخيل!..

والشظف أعان الثقة لتعود الثقة بجرعات الألم.. يحيا الأمل.. يطرد الهم بعزيمة الهمة.

خلاصة لا بد من تقديمها.. لتعرف مدى التأثر للحاج كما مدى تأثرهم.. حتى إذا علا صوت شوقي:

ضج الحجيج وضج الحل والحرم

تعالت أصوات تستنكر الخوف وتطلب الأمن!

لقد كانت الصورة من هذا البلد.. صورة مخيفة حتى الخوف من الجوع. والخوف من العطش. ثم أصبحنا الآن وقد زالت المخافة وأمن

الحاج.. أخذنا نتجه إلى بذل كل مجهود يرضى عنه الحاج.. فكأنما حالنا أصبحت كرد فعل لحال سبقت، ولكن قد تحقق معها قول بعض العامة: (يا طخه.. يا كسر مخه!).

لقد أسرفت مئات السنين في المخافة وعدم العناية، فأصبحنا نسرف الآن في كثير من الرعاية تكلفنا باهظاً!

إن واجبنا أن نرعى وأن نؤمن وأن نريح.. ولكن ينبغي أن يكون ذلك على أساس من التعامل والفهم والوعي.. لا على أساس التكليف لنا وحدنا.. ومن الغريب من هذا البلد كدولة وحتى كشعب يبذل كل ما في الطاقة وأكثر من الطاقة لإراحة الحاج حتى إذا رأوا خطأ أو زلة من واحد لم يغفرها أحد.. بل إن بعضهم ليشنع بها علناً!. أمام هذا كله أريد أن أتبسط مع هؤلاء الحاجين.. أعرض صوراً من صورهم.. راجياً العدول عنها في المستقبل، ومؤملاً الاعتدال لها ومنا كذلك:

قبل أكثر من عشرين عاماً كنت أسرح بفكرة عامية.. أحمل فيها النقد على أنفسنا بما أشعر أنه غير مريح للحاج، وتحدثت في ذلك مع الشيخ (نوري السعداوي) يرحمه الله.. فقال: لعلّك لم تنتبه إلى مستوى الحجاج.. إن هؤلاء أكثرهم غير واع لا يكاد يعرف أين يذهب.. أين ينام؟.. ماذا تصنع الدولة لهؤلاء الذين يغتسلون في الشوارع. وينامون في الطرقات وحتى بعضهم يسكن المساجد.. أعني الحاج الواعي أمثال هؤلاء الذين يسكنون البيوت ويؤدون قيمة الخدمات.. أحمل معك على الدولة، ولا تنسَ أن بعض المباشرين لهؤلاء الحجاج يغضون الطرف عن إهمال الحجاج لأنفسهم!

وأخذت الكلمة من «نوري بيك» كوعي أسير به في كل ما ألاحظه على

الحجاج.. حتى إذا سألني هذا العام أخي القادم من الدمام.. قال: كيف يذيع الأستاذ عبد الله عريف على رؤوس الأشهاد أنه لم يأته خبر عن شاة ملقاة في الطريق.. مع أني رأيت الكثير من ذلك؟! قلت له: إن عبد الله عريف ـ كأمين عاصمة ـ لا يمكنه أن يلقي.. كذبة بيضاء على المنبر.. فهو صادق حينما قال ذلك، ولكنه ماذا يصنع؟. هو وكل القوة التي لديه في هذا الكتيب من الحجاج أنفسهم.. لا تكاد الأوساخ من ناحية.. إلا وقد تراكمت في نواحٍ أخرى.. فكثير من الحجاج لعدم وعيهم.. لا ينظفون ما حولهم.. بل هم يزيدون الطين بلة.. إن القوة الخارجية من حدود الإنسان لا تستطيع أن تغير ما حواليه ما يستطيع هو التغيير!.

أكثر الحاجين لا يعنون بأنفسهم.. كأنهم لا يعرفون شيئاً.. قد يكونون كذلك، ونحن لا نستطيع في أيام محدودات أن نعلمهم.. فلماذا لا يزودهم الفاهمون من إخوانهم بزاد في المعرفة، وبنصح وإرشاد؟!.

إن هؤلاء الفاهمين أصبح من دأبهم التربص بالنقد لنا.. لا التخصص في إرشاد إخوانهم.. إن هذه الحال يمكن تحقيقها بالتفاهم على مستوى المسؤولية من رجال الفكر في الشعوب الإسلامية، أو حتى على مستوى الحكومات.

العـــرب

كثير من الاقتراحات قدمت إلينا، وطلباً للإرضاء، وعملاً بالإغضاء، وحباً في راحة الناس نفذت هذه الاقتراحات حتى إن بعضها ـ وقد أصبح نافذاً ـ قد أضر كثيراً بمصالحنا نحن القائمين بخدمات الحجاج.. بل إنه كلف الدولة الكثير الكثير!

بعض من الحجاج لا يبالي أن يصرف في رحلة سياحية الآلاف ولكن

أن يصرف هنا بضعة ريالات لأجرة مسكن أو مقابل خدمة.. فلو وعى الحجاج ما ينبغي عليهم أن يعملوه لأراحوا أنفسهم.

إن الحاج يأتي بالطائرة ومعه القراقيش والجبنة والزيت وحتى قوارير الماء.. وحينما سألهم بعضهم: ماذا يصنعون بقوارير الماء.. قالوا: هكذا سمعنا.. أنه قد يحدث عطش. لا ماء عندكم!. كأنما الكلام القديم لم يقض عليه جهد بذل في أكثر من خمسة وأربعين عاماً.. لكنه بخل الحاج عن الدعوة الحسنة يدعون بها الذين لم يحجوا!

في البلد وفرة من الغذاء والماء، فلماذا يأتي الحاج من أقصى الشرق أو أقصى الشمال، أو أقاصي الغرب بحفنة من خبز أو بجرة من ماء؟ إنه معذور حريص على حياته.. قد حرم العلم..

هما الخطآن: خطأ منا في نقص الدعاية. وخطأ منهم.. أي من إخوانهم.. في عدم التوعية! هذه مشكلة المشاكل ينبغي أن نجد لها علاجاً!

ومشكلات لا تزال لدينا يمكن أن نضع لها الحلول.. لا أستعرضها ناقداً، ولا أريد أن أزيد بها ذا علم، وإنما أطرحها كاقتراحات.. ألقي عن كاهلي بعض ما يثقله من شعور كل ما فيه أن لا يضيع كل ما بذلناه من جهد أمام مشاكل يمكن حلها.

حين ألغى الرسوم عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله تعلمت هذه الكلمة من الصديق إبراهيم إسلام.. قال: إن هذا الإلغاء سيكون سبباً في كثرة الحاجين من الفقراء.. كثرة ليس في طاقة هذا البلد استيعابها.. قد تضيق عليها بعض الأماكن وتكثر معها السيارات فتكون المشكلة!.. وحفظت هذه الكلمة لأجد مدى الصدق فيها.. فوجدتها الصحيحة.. لقد كثر الحجيج من الضعفاء والفقراء فأهلاً ومرحباً بهم. ولكن علينا أن نجهد

في هدايتهم الطريق.. في التوعية لهم.

ولقد ضاق المكان ـ على الأقل في منى ـ وكثرت السيارات، فتعسر المرور، فما هو الحل!. الحل في نظري: بالنسبة للسيارات، وقد زاده كثرة إصلاح طريق الرياض وما وراءه هو في هذين الأمرين:

أولاً: لنجرب الطلوع إلى عرفات في ردين بدل رد واحد.. لنخفف عدد سيارات النقابة إلى النصف.

ثانياً: لنبذل النصح للآهلين الذين حجوا مراراً أن يؤجلوا حجهم حتى يتسع لدينا التطبيق للتجارب، فلا يحج من أهلنا إلا من وجبت عليه الفريضة.. فسحة لا نجبر عليها وإنما نتطوع بها لتفريج كرب عن القادمين من أرض بعيدة، ولتخفيف الضغط من كثرة السيارات، ولتتسع منى.

أما منى فالحل في اتباع الشريعة.. وهي أن تكون منى سوحاً للمسلمين.. إما أن نأخذ بقسم من الفتوى.. نهدم جزءاً منها ويبقى الآخر بناءً شامخاً؟.. لتهدم منى كلها لتكون كلها سوحاً.. نعطي هذا السوح فراغاً في الفضاء قد يكون ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار.. ثم نبني فوق هذه السوح عمارات منسقة بتخطيط موحد.. لتكون سكناً للحاجين، وليستعمل السوح أماكن للسيارات.. دكاكين.. مجازر. مصحات.. منازل لبعض الفقراء.. ويؤجر هذا البناء بإيجار مخفض، وليكون هذا البناء وقفاً على المسجد الحرام، وعلى مرافق الحج.. تصلح به.. ولكي نهدم هذا البناء الموجود فإني أقترح أن تقوم قيمة البناء فقط، ولا تصرف لصاحبها.. بل تبقى القيمة أسهماً مؤقتة في شركة يقوم بها هذا البناء.. هذه الشركة التي أقترح أن تتكون من حصيلتين.. حصيلة بالمال الموجود لدى الأوقاف ليكون للأوقاف بهذا المال.. أو بما يضاف إليه أن نقص ٥١٪ من رأسمال

هذه الشركة المؤقتة، ويكون للمساهمين من سكان هذا البلد لا غير ٤٩٪..

من بينها قيمة هذه العمارات التي ستهدم في منى.. كل ونصيبه، ويحدد لهذه الشركة أجل.. إذا ما استوفت فيه نصيبها مما بذلته الأوقاف ودفعه المساهمون.. لتعود منى كلها وقفاً خاصاً على المسجد الحرام ومشاعر الحج.

أحسب أن مشكلة منى يمكن أن تحل بهذه الطريقة، ولا أظنني أخالف الفتوى التي قررت هدم منى كلها لتكون سوحاً..

الوعي.. والتوسعة قبل كل شيء. وقبل ذلك حل مشكلة حجاج البر بإيقاف السيارات عند حدودنا، ولدينا سابقة.. اتفاقياتنا الأولى مع سيارات العراق.. يمكن العمل على مثالها ليكون بذلك تخفيف عدد السيارات، والحفاظ على مصالح شعبنا، وليكون عملنا بعد ذلك بارزاً لا لبس فيه!

أسبوع المسجد

وليس بدعاً ولا غريباً، أن يحتضن جلالة الملك خالد العناية بالمسجد فيسبغ الرعاية على وزارة الأوقاف والحج.. أقامت أسبوعاً للعناية بالمسجد، من ناحية النظافة، وما إلى ذلك.. كأنما كل من جند لذلك.. قالوا له: أنت ابن المسجد.. هو يبني روحانيتك كما بناها لآبائك وأجدادك.. وأنت حين تبني النظافة في المسجد.. إنما تعلن عن نفسك، أنك قد امتثلت الأمر «خذوا زينتكم عند كل مسجد».

فالحكومة بكل مؤسساتها، ورعاية جلالة الملك والأبناء والآباء ومن حركوا أنفسهم للعناية بالمسجد، قد اتخذوا زينتهم.. فالزينة للمسجد ليست في اللباس، ولا في المظهر فحسب.. وإنما هي.. هي في المخبر..

فالمسجد أب الدعوة للإسلام.. مكان ركوع وسجود.. منبر وعظ وإرشاد.. محراب إمام.. جامعة للعلم فالمسجد في كل أدواره.. كل المدرسة والجامعة.

من هنا.. أرجو ألا يقتصر الأمر على أسبوع واحد.. وعناية بأمر واحد فحبذا لو أبقينا على المسجد الحرام والمسجد النبوي..

فقد كانا جامعتين أخرجا للناس ـ كل الناس ـ الأئمة العلماء.. والعلماء الأئمة.. فالواحد منهم.. يمكن لأي دارس أن يمنح لقب «الدكتوراه» في ناحية واحدة من علم الإمام..

فلقد قلت يوم أن كرمنا الفوج الأول من خريجي مدرسة تحضير البعثات «ليس الكثير منكم أن تنالوا شهادة الثانوية أو البكالوريوس أو ما يعادلها من شهادات عليا فإن بلدكم هذا من الساعة التي سطع فيها نور «اقرأ» على حراء.. نبغ فيه زمنه وبه «الدكاترة» ابن عباس.. ابن عمر.. ابن المسيب.. عطاء.. عكرمة.. مالك بن أنس.. الثوري.. الفضيل بن عياض.. مسلم بن الحجاج.. عروة بن أذينة.. ربيعة الرأي.. جعفر الصادق.. جابر بن حيان الشافعي.. وكثير كثير.. مع هؤلاء وبعد هؤلاء.. كالأئمة في العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس وخراسان.. كلهم أبوهم المسجد..».

فلماذا لا يكلف أنفسهم العلماء في جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية.. إلقاء الدروس في المسجدين وحبذا لو لم يقتصروا على الدروس الدينية.. فالمسجد في عهده الأول قد اتسع للدروس الدينية والدنيوية.. يجغرف لهم التاريخ.. أو تؤرخ لهم الجغرافية.. وينتقي من الأدب أحسنه وأكمله.. وحتى الطب.. فهل هناك ما يمنع أن تلقى دروس

في المسجد عن الطب الوقائي؟!

إن ذلك يحول دون انفصال الآباء عن الأبناء.. يعرف الآباء من دروس المسجد ما عند أبنائهم. حتى ليمكنهم أن يجروا الحوار فيما علموا.. يستزيد الأب من علم الابن.. يفرح الابن بعلم الأب..

وإذا بدا لبعض علمائنا ألا يكلفوا أنفسهم بذلك.. وإذا ما بدا للسلطان أن هذا أمر حسن.. فيكون التشريف للعلماء.. بالتكليف المأمور به لقاء مكافآت، ولعلّ المكافأة الأكبر.. الثواب من الله.. أكثر من ثواب المكافأة.. بل وأكثر منها شكر الآباء للعلماء..

أحسب أن بذل العلم في المسجد.. هو من الزينة التي يتزين بها المؤمن أمام المسجد وفي المسجد وللمسجد وإن من حسن المصادفة أن تكون المنحة من الله.. للشيخ صاحب الفضيلة والمعالي حسن بن عبد الله آل الشيخ فلعلّه الجدير بأن قاد هذا الأسبوع، وارث علم استحفظ على التراث وزيراً للتعليم العالي، ورئيساً لمجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز.. فهو المطالب مني بأن يكون معي بكل ما اتصف به.. أن يحبذ ويزكي، اقتراحي بتكليف العلماء، أن يتخذوا من المسجدين جامعتين..

اسمها رابطة العالم الإسلامي

وكاتب الحرف الملتزم لا يجد نفسه ملزماً بأن يكتب عن موضوع يوائم الموقف الذي ألزم به، أو يكتب عن موقف يناقض موقفه الذي ألزم به، والإلزام يعني الالتزام ليس بطابع التسخير بقوة قاهرة أو تعليمات صادرة، وإنما هو مع المسيرة نحو ما التزم به شعبه من مبادئ الدولة التي هي واحد من الجماعة لا يشذ عنها، والخضوع لرأي الأكثرية لأن الأقلية ـ وإن كان لها رأي الأكثرية ـ فإن الديمقراطية تلزم برأي الأكثرية وتسقط رأي الأقلية.

وهذه المقدمة أكتبها تاريخاً لرابطة العالم الإسلامي وما تفرع عنها وهو المؤتمر الإسلامي، فقد نبغت نابغة هذه الأيام جرت إليها حوادث الأفغان، وهذه النابغة لا نسأل عنها ولو لم تكن من مصر، فمصر في قرار لإحدى لجان الحزب الديمقراطي الاشتراكي، طلبت تأسيس الجامعة الإسلامية فهل رابطة العالم الإسلامي لا تمثل الجامعة الإسلامية، مع أنها، بالأمس ـ وحين كانت مصر تتولى أمانة المؤتمر الإسلامي المتفرع من الرابطة ـ لم تقترح مثل هذا الاقتراح؟ لأنه في واقع الأمر كان في نظرها حينذاك، أن رابطة العالم الإسلامي تمثل الجامعة الإسلامية، وأن المؤتمر الإسلامي يمثل الحكومات الإسلامية في إطار الجامعة الإسلامية رابطة العالم الإسلامي التي يمثل فيها رجال من كل الأمة المسلمة.

إن هذا الاقتراح قد واكبه تفريع ما كان أشد إعجابي به، لو لم يكن في هذا الوقت بالذات. ومن عجيب أن الوقت كما قلنا من قبل، يضفي على كلمة دقة الصواب لها، أو فشل الصواب منها، فالوقت يعطي دلالة الكلمة كل ما تعنيه أو يسلبها كل ما شعبت به.

وهذا التفريع قاله أستاذ يملك ناصية موضوعية، فهو يرى أن المؤتمر الإسلامي يمثل الدول أو الحكومات، فلا بد من إنشاء الجامعة الإسلامية لتمثيل الشعوب، رأي يعجب، لو لم تكن رابطة العالم الإسلامي موجودة، أفليست هي الآن تمثل الشعوب الإسلامية؟ فهذا الرأي لو طرح من قبل أن تؤسس الرابطة لكان توقيته يعطي الصواب له، ولكن غزو الأفغان ووجود رابطة العالم الإسلامي قد سلبه هذا الصواب، ولكن كيف تتغير المواقف التي تحتمها المبادئ بحوادث جانبية ومواقف عرضية؟ فإن مصر العظيمة في إسلامها وعروبتها كانت العضو الثالث للمؤتمر الإسلامي، الملك سعود أي

المملكة العربية السعودية ـ، غلام محمد أي دولة الباكستان، جمال عبد الناصر أي دولة مصر، وقد كان الأخ رئيس الحزب الوطني أنور السادات السكرتير للمؤتمر الإسلامي وحين طرأت مواقف تخلت مصر عن هذه العضوية، لا خروجاً على المبادئ، فمصر المسلمة لا يمكنها الخروج على المبادئ، وإن جانبتها في ظرف معين لغرض معين، وقد طرأ على هذا الخروج وضع البديل للمؤتمر الإسلامي، وهو تأسيس رابطة العالم الإسلامي جامعة إسلامية مثلت فيها كل الشعوب المسلمة وحتى مصر بالذات. فقد كان أحد الأعضاء المؤسسين مفتي مصر السابق الشيخ حسنين مخلوف أي إجراء يمنعه من عضوية رابطة العالم الإسلامي، كأنما الرئيس جمال عبد الناصر ـ يرحمه الله ـ قد رأى في تمثيل مصر في رابطة العالم الإسلامي خط الرجعة إليها.

إن الوضع في أفغانستان لا ينفع معه التشغيب ولا تفيد المماطلة بل إن الجريمة ـ كل الجريمة ـ في التخريجات والتفريعات والمماطلة كأنما كل دولة قد انتظمت في المؤتمر الإسلامي ملزمة كل الإلزام بألا تخرج علينا بكلام يمليه الخوف من الاتحاد السوفيتي، أو تنتكس به بمبادئ العروبة والإسلام، ولكنها أوضاع، فلقد قالوا من قبل إن الرابطة والمؤتمر الإسلامي، والتضامن الإسلامي تبعية للولايات المتحدة، وقد رأينا من العالم الحر ومن الولايات المتحدة بالذات الحرب تشن على الإسلام الممثل في الرابطة والمؤتمر والتضامن، مما يثبت أن هذه المؤسسات الإسلامية لم تكن تابعة للاستعمار القديم، واليوم تقول ألسنة عربية أن الولايات المتحدة تسخر المؤتمر الإسلامي لأغراضها.

واليوم تشغب دولة مسلمة برأي خلفي تريد به نسف رابطة العالم الإسلامي والمؤتمر الإسلامي.. حيرة سببها الاستقطاب، وأكبر أسبابها

الخوف، ولكنه عزيز ينتصر دائماً بشن الحرب عليه، وكما هو في الحديث الصحيح (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الكافر أو الرجل الفاجر) وكما قلت من قبل، فإن تخريج أبي السامي صاحب البيان المشرق أستاذنا مصطفى صادق الرافعي وهو ما أعتقده التخريج الصحيح لهذا الحديث، قرأته له في كتابه (تحت راية القرآن) في الرد على الدكتور طه حسين يقول الرافعي: إنه ليكفر الكافر، يحارب الإسلام، ويفجر الفاجر يحدث البدعة في هذا الإسلام، فتثور ثائرة المؤمنين تحارب الكافر، وتصد الفاجر لتنصر إيمانها، لينتصر إسلامها.

ليلة السبت.. جاعِلْمَنْ وراح!

أناشيد وأغان.. واعتزاز وفخار.. وحماسة تعتري وتنتحي.. وكلمات مجنحة.. وكلام سائر.. إلى غير ذلك مما يجري على الألسنة.. ألسنة قبل ذهب القتال من عقيدة.. أو ألسنة ذهبت على غير عقيدة.. أو على البطر والأشر.. في كل مواقع القبيلتين تجيء هذه الكلمات حتى إذا انتهى كل قبيل إلى مصيره نصراً أو هزيمة.. جاءت هذه الكلمات التي جرت على ألسنتهم برهاناً على ما نالوا من نصر.. أو ما لحقتهم من هزيمة.

ذكرت هذا كله وأنا في مدينة الملك فيصل ـ الخميس ـ كنت أتفرس وجوه الرجال وأسمع ما توحي به نظراتها إلى ما أعد لهم.. إلى ما هم معدّون لـ.. فوجدتني أسير مع هذا المحصل من نظراتي إليهم.. إلى سرد فيه المقارنة بين هذه الكلمات الحماسية الغنائية التي قدمتها في مطلع هذه الكلمة.

هذا القبيل المسلم في بدر تحفظ لأكثر من واحد هي قانون المعركة

المنتصرة.. وصارت هي في قوة القانون للذين يقدرون بها قولاً وعنها عملاً.

قبيل مشترك قال واحده كلمة كوّنت لدينا ضعف البصر وهزيمة الذين يقاتلون الفخر ولا يحوزون النصر.

الكلمة المسلمة التي قالها شهيدنا في بدر عمير بن الحمام هي: (بخ بخ وإنما بيني أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده الخ).. رازها في يده فتلقفها بوجدانه يقدم على القتال مجاهداً في سبيل إيمانه، دفاعاً عن قائده رسول الله ﷺ.. فيرزق الشهادة ليكتب هو ومن استشهد معه وبالناجين من رفاقه النصر الأكبر.

الكلمة التي قالها واحد المشركين أبو جهل عمر بن هشام هي: (والله لن نبرح الأرض حتى ترقد النار وننحر الجزر ونشرب الخمر) فتسمع العرب ما تضيف به العزة لقريش.

الكلمة الصادقة جاء بعدها العمل الصادق كانت سبيل النصر.. والكلمة المنتفجة لسان كله البطر أنالت أبا جهل الهزيمة حتى جندلته لا يقتله إلا أضعف الرجال. شابان لو لقياه في طريق لارتعدا هيبة منه.. بركا عليه كأن قوة الصنديد قد استطاعت لحظة أن تبرهن على وجودها أمام ضعف العضل في هذين الشابين.. لكن عضل الصنديد قد خار أمام قوة القلب في الشابين.. ولم يجهزا عليه.. فجاء دقيق الساق، نحيف البدن، رويع القلم ابن أم عبد.. عبد الله بن مسعود، يركب الصنديد كأن قوة القلب في هذا الضعيف أرادت أن تنهك قوة العضل في الصنديد..

كلمتان فيهما البرهان على دواعي النصر وعلى دافع الهزيمة. المسلمة انتصرت لأنها يقين عن يقين.. والكافرة انتحرت لأنها كاذبة عن كلب.

وتمضي السنون وحول بدر قريباً من الساحل في (مجز وجزان) يقوم قبيل عربي بقتال جيش فخري باشا ومن إليه فلا نسمع نشيدهم إلا هكذا (ليلة السبت جاعلمن وراح.. ركبت الخيل والسبع القبائل، والفرنجي على مشروبها) أي إنه يقول: إن الغاية هو هذا الفرنجي الجنيه أبو خيال.

وبعدها بشهر حول البئر.. البئر التي نسميها الآن (الفريش) أو بئر الماشي وآبار درويش.. كانت عرضة قال فيها رجل أعجب القوم المشاهدين والعرضين معه.

كان هذا الفارس العربي في أحد مشارف الحجاز وهو من قلب نبد قد عرض يغير على فرس كميت فحفظوا عنه قوله (نجم تهلهل من قرط السماء.. خيال الخيل وأناخو نوره) هو ناعس الذويبي يصف نفسه فاخراً بأنه النجم حل من قرط السماء لا ينكر هذا القول منه فخراً من فارس.. ولكن النكير أنها كلمة لا تنبئ عن يقين اليقين عن غاية واضحة.

سار هذا القبيل المحارب إلى قدره فانتهى إلى لا شيء.. وجاء بعد ذلك أهل ناهس وكل نجد يقرأون كلاماً آخر (هبت هبوب الجنة. وين أنت يابا غيها).

هذه الكلمة لا أحسبها إلا ترجمة لكلمة عمير بن الحمام. الكلمة الفاخرة من الفارس كانت ترجمة لما أراد أن يفخر به الصنديد.. وهنا الفرق بين الكلمتين كالفرق بين تلكما الكلمتين.. طالب الجنة أوصله يقين اليقين إلى النصر.. وطالب الفخر أوصله إلى هزيمة.

إن الكلمات ما هي إلا تعبير عن النفوس.. أو هي معبرة تخطو به النفوس إلى مصائرها. عرف ذلك جاهلي قالها في يوم من أيام داحس والغبراء هو حليفة بن بدر قال لأخيه حصن (إياك ومأثور الكلام).

واليوم نحن نعرف أن كثيراً مما قلناه من الكلام كان من أسباب تأليب العالم ضدنا. كلمة واحدة صادقة تقترن بعمل خير من الشدق بكلام فاخر ليس له أول وليس له آخر.. لا.. إن له آخراً هو ما يجري اليوم.

اليوم فتحت الجامعة أبوابها وذهب الكثير من حملة التوجيهية يؤدون امتحان المقابلة.. لكن بعضهم لم يأخذ استمارة النجاح من المدرس لأن نتيجة امتحان الدور الثاني لم تظهر.. هذا صعب وإن تلطفت الجامعة فقبلت الطلبات استناداً إلى جداول جاءتها من إدارة التعليم أفليس من الممكن كدواعي التنسيق. كإعطاء الفرصة لشبابنا أن يقول (الحمد لله) الإسراع بإعطاء النتيجة من التبكير بالامتحان في وقت يسع لإخراج الاستمارات؟. في العام الماضي استجابت كلية البترول مشكورة لهذه الملاحظة ولم تكن هذه مسؤوليتها وإنما مسؤولية التأخير من غيرها.

لست مجحفاً بأحد فأنا حفي بوزارة المعارف.. قائم بشكرها لما قدمت من خير لهذا البلد.. ولكن الملاحظة ما هي إلا تذكير ومن حق المسلم على المسلم أن يذكره بما هو خير.

العسل الذي شراه الأخ أحمد يوسف زينل من مدينة أبها وأهدانا منه مع الأسف لم يكن صائباً، كان مغشوشاً.. أتعرفون كيف يغشون العسل..؟ يأتون بالقرع الأصفر يغلونه على النار يغدقون عليه السكر.. يضعون هريسة من بذر البامية تعطيه عرقاً يقولون لك هذا هو العسل الأصفر. من غشنا ليس منا.

تحية لأفريقيا السؤدد!

وكثير هي النعم التي أتمها الله علينا في هذه الأيام.. فله الحمد سبحانه.. إنه ولي النصر واهب النعم.

ومن هذه النعم ذلك الانتصار تهديه لنا أفريقيا.. تقطع كل دولها علاقاتها مع إسرائيل.. اعترافاً بحق العرب.. وائتلافاً مع العرب.. وانطلاقاً من معرفة لما تنويه إسرائيل من سوء ظهر واضحاً ضد العرب واتضح للأفريقيين.

أقول.. كل أفريقيا.. فالكلية التي لا تستغرق الجميع.. إنما في هذا الجل الجلول فالدول الكبيرة في أفريقيا. والشعوب الكبيرة كلها معنا.. حتى ليبريا.. حتى جوموكينياتا. وما علينا من جنوب أفريقيا أو روديسيا.. فإن موقفهما ما هو إلا تحريض لأفريقيا على محاربة الاستعمار والعنصرية..

أفريقيا السؤدد أخذت مكانها في دنيا الإنسان اليوم. فالدول والشعوب ترسخ مكانتها وترتفع قيمتها بمعرفة الحق.. والنضال لنصرة الحق. أما الدولة اللامعة.. الدولة العميلة.. فشيء لا يقام له وزن.. كل ينكر وزنه حتى أفراد من شعبه ينكرون ذلك.. فتسقط الهيبة.. وترجع المكانة تحت أوضاع التبعية..

إن أفريقيا عربية مسلمة في الشمل.. ومسلمة مسيحية فيما بقي من القارة عرفت لنا إيمانها وسلامة مقاصدها.. وصداقتنا لها.. فاستهواها كل ذلك لأن تكون المؤمنة معنا ولنا.. ولتكون الآمنة بنا..

فلئن كسرنا شوكة العنصرية في إسرائيل فإنا نعطي القدرة لإفريقيا أن تكسر العنصرية في الجنوب.. وأن هذا الشذوذ ـ وأعني به استعمار البرتغال ـ فإن البرتغال كإسرائيل حثالة لا يقام لها وزن لولا العون ممن سخروا أنفسهم طغاة يعينون الطغيان.

أفريقيا السؤدد أحسبني في غبطة من أمري حين أزعم لنفسي أني من سنوات مضت وأنا أدعو لحسن العلاقة بأفريقيا.. فإذا بي أجدني على

صواب فيما دعوت إليه حينما أجد أفريقيا تكون معنا.. تكون لنا.. وتكون إلى غيرنا.

أفريقيا السؤدد أحسبها أرضاً مسلمة تحن إلى القبلة.. إلى بيت المقدس.. يجرها هذا الحنين لأن تكون لنا المعين. وقد سبق لي أن قلت الوحدة في العنصر.. والتوحد في الإيمان لن تكون إلا واحدة في اتجاه واحد.. وحدة المذهب فيها جعلتها لا تشذ عن مصادر مذهبها.. فالحجاز عنه أخذت مذهب مالك.. وحتى نصرانيهم يدين باتباع ذلك المولود في بيت لحم في فلسطين.. فليس عجيباً من أفريقيا أن تقدس أرض الأنبياء.. وتحمي أرض الأنبياء.. وإنما العجيب من هؤلاء الذين يدينون بدين المسيح ثم لا يحمون أرض المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.. بل إنهم ـ وهم نصارى ـ أصبحوا عوناً لقتلة الأنبياء الذين يفخرون كذباً أنهم صلبوا المسيح وليس الغريب من كذب اليهود وإنما الأغرب من أن يصدق النصارى الصلب.. ثم يكونوا مع طغيان الصالبين.

أفريقي السؤدد أحسبنا لا نفي بحق شكرها علينا فإنها قد أوضحت للدنيا أن القارة التي يسمونها المظلمة قد أصبحت بيت النور.. فالحق الذي عرفت وناصرت ما هو إلا نور ينقشع به ظلام أسدل سجفه استعمار مقيت.. وإلا فما أشد نور الشمس في غابات أفريقيا.. إنها قارة صهرتها الشمس فهي ليست في ظلام من نور الشمس هبة من الله على هذه الأرض.. وإنما كان من الظلم.

تحية لأفريقيا فهي تستأهل كل تحية.. أجل تحية.

سيـاسـة

الله رحمنا.. فغيّر نفوسنا!

في حكاية يرويها الذين يحبون أن يضحكوا من النكات.. أو الاحماضات.. تطرية في مجالسهم وسمرهم..

هذه الحكاية تقول.. إن جماعة من المسلمين العرب قد ركبوا سفينة شراعية فهبت زوبعة فخافوا الغرق فأخذ كل واحد منهم يصرخ هكذا.. يا سيدي فلان.. يا ستي فلانة.. وهكذا إلى آخر هذه النداءات.. وكان في السفينة شامي لم يصرخ ولم يدع بل جلس يسمع صراخهم واستغاثتهم بغير الله فرفع أخونا الشامي يديه إلى السماء يخاطب الله سبحانه وتعالى فيقول.. يا الله ما تغرق نسيوك!

هذه الحكاية تكاد تنطبق على حالنا نحن العرب والمسلمين.. في أكثر من موقف لجأنا إلى غير الله.. حبسنا إيماننا فلم ندعه ينتصر فينا.. وسرنا مسيرة الهوج. كان ذلك فيما مضى قبل العاشر من رمضان حتى كدت أخشى الوعيد في قوله «ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم».

أما اليوم العاشر فقد ألهمنا الله أن نكون له فكان معنا كأنه سبحانه وتعالى قد منَّ علينا فغيرنا تغييراً نطرد كل شيء غير الله فلا نلجأ إلا إليه.. كأنما هذه الآية منصبة علينا قبل العاشر من رمضان «وضاقت عليهم الأرض

بما رحبت وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه» لكنه سبحانه ألجأنا إليه.. لا تتنكروا لكلمة مؤمنة بل تنكروا لكل كلمة مثبطة كافرة..

فالمعجزة النعمة لم تكن في العبور فحسب، وإنما كانت في هذا الاعتبار.. نتوحد في كل اقطارنا كل شعوبنا أصبحت وحدة.. كل القادة ـ ملوكاً ورؤساء ـ انتظموا في سلك الوحدة الواحدة يخوضون المعركة الواحدة.. دول المواجهة ومن أعانهم من دولنا.. خاضت معركة السلام فانتصر السلاح.. ودول أخرى خاضت معركة لم يكن من مرادها الإهانة لأحد، وإنما كل مرادها رد الاستهانة بنا.. نأخذ حقنا.. ننقذ الأرض العرض ـ فإذا ما سلبت أرض من سكانها فإن ذلك سلب لعرض ساكنها.

غيّرنا الله فوحد قلوبنا نسير في المعركة بأسلحة متعددة كأنها السلاح الواحد.. فقذف الله الرعب في قلوب الطغاة.. وقذف الله التردد في أعوان الطغاة، وقذف الله الاعتدال في بيانات الذين كانوا بالأمس أنصار الطغاة.. فأصبحت إسرائيل في عزلة مقطعة اتصالاتها بكل الدول. ولعلّ هذا من معنى هذه الآية نزلت في وصف اليهود «وقطعناهم في الأرض أمماً» ـ الآية.

تقطعت بهم الأسباب فإذا هم يعيشون كما تعودنا منهم الخلاف في داخلهم.. حتى إيبان تنصل من الخطوط الآمنة.. وقذفها تهمة يتهم بها دايان مع أنها كانت من مفاخر إسرائيل، ومن الحتم في تعاملها مع قرارات هيئة الأمم.. حتى ضباطهم قد تخالفوا وتنابذوا وتنافروا.. كأني أتصورهم اليوم قد عادوا إلى ما بعد عهد سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ينشقون على بعضهم فيكون في هذا دمارهم كما كان بعد سليمان.

الله غيرنا حين كان الإيمان به سبحانه ملء قلوبنا.. وكلماته شعارنا حتى القتلى الشهداء لم تكن الحزانى عليهم.. ولم تكن الخزايا بهم، وإنما كما صاروا أصحاب المزايا فالحمد لله. حمد العائدين إلى الحق.. المنتصرين للحق وبالحق، ذلك فضل الله أنعم به علينا سبحانه.

العرب بين الإرهاص والمعجزة

سادتي..

لا أريد أن أقدم بحثاً عن دراسة شاملة.. فما زلت أعرف في أمثال عروبتي ـ ألا أحمل التمر إلى هجر، فأنتم رجال العلم والفكر مما كنا نسميكم المستشرقين، فرفضت هذه التسمية أسير بها كما سار بها البروفيسور جاك بيرك، والبروفيسور شارل بيلا، الفرنسيان المستعربان ـ فأقول أنتم المستعربون لا المستشرقون.

فالاستشراق يحرمني أنا العربي الاستحواذ عليكم والالتصاق بكم، وحصر ما صنعتم لأمتي العربية تقديراً لكم.. لا حرماناً للآخرين من عملكم، وبكل الصراحة، وبالصدق المكلف به طالب المعرفة.. أقر وأعترف أنا الموقع أدناه، أو بعبارة أخرى الناطق به أمامكم بأننا نحن العرب مدينون لكم بنشر تاريخنا والاحتفال بتراثنا والإشادة بحضارتنا، ليس من باب الإطراء لتاريخنا وآثارنا وحضارتنا، وإنما هو أدخل في باب إعلان الاعتراف منكم بعظمة هذا التاريخ وعظمة هذه الحضارة، والاغتراف منها.. فقد كانت أمة العرب أمة الإسلام الأمة الوسط، حاملة الحضارة الوسيط التي أفادتكم، فكانت الأساس والدعامة لما أنتم عليه الآن.

(*) نص المحاضرة التي ألقاها المؤلف في ندوة دراسات الشرق الأوسط بإنجلترا يوليو ١٩٧٦م.

من هذا المنطلق.. لا أتقدم بدراسة وبحث، وإنما أتقدم بخواطر..

فقد كانت حالة العرب وشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام موضوعاً لبحوث كثيرة ومتعددة في الشرق والغرب على السواء، كتبت بلغات مختلفة، وعكف عليها عدد كبير من الدارسين. ذلك لأن ظهور الإسلام كان حدثاً تاريخياً لا يشابهه حدث آخر في تاريخ البشرية كلها.. فلقد استطاع أتباع هذا الدين أن يغيروا وجه الأرض المعروفة في ذلك الوقت، تغييراً كلياً في فترة من الزمان لا تتجاوز الثلاثين عاماً ولا تزال البشرية كلها تعيش في آثار تلك التغيرات إلى يومنا هذا.

ومن هنا فقد أراد العلماء شرقاً وغرباً أن يستطلعوا أحوال ذلك الجنس العربي الذي تمكن من إبراز هذه المعجزة.. وأرادوا أن يعرفوا الخصائص التي ساعدتهم ومكنتهم من ذلك كله.. فكان لا بد من أن يرجعوا إلى الوراء قبل ظهور البعثة المحمدية، فدرسوا أحوال شبه الجزيرة من الناحية الجغرافية وموقعها، وأثر ذلك الموقع في قبول الإسلام.. كما درسوا أحوال القبائل العربية التي كانت تقطن شبه الجزيرة آنذاك من الناحية الاجتماعية، وتركيب هذه القبائل وعلاقة الفرد بها، وعلاقتها بالفرد.. والحروب الدموية التي كانت تقوم بينها وأسبابها.

كما درسوا الحالة الاقتصادية وأنواع المتاجر الداخلة إلى شبه الجزيرة والخارجة منها، والنقود التي استعملوها سواء أكانت دراهم فارسية أم دنانير بيزنطية.

ودرسوا حالة الطرق وأنواع القوافل. ولكن أهم الدراسات انصبت على الحياة العقلية ومظاهرها في اللغة والشعر والأنساب والقصص.

وكذلك الديانات التي كانت سائدة بين سكان شبه الجزيرة، فدرسوا

الوثنية وأصولها وأنواع الآلهة التي كانت تعبد هناك؛ ودرسوا انتشار اليهودية والنصرانية والأثر الذي أحدثته هاتان الديانتان في العقلية العربية، وخلصوا من ذلك كله إلى أن الأرض كانت موطن حضارات متعددة ومتقدمة.

فلقد كانت مدن الحجاز.. الطائف ومكة والمدينة.. تعيش عيشة الحرية والاستقلال فلا تقر بالطاعة لأحد.

أما في الشمال في بادية الشام، فقد خضع العرب لتيارات السياسة العالمية دون إخوانهم عرب الجزيرة بزمن طويل، فمنذ زمن الآشوريين كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف، تعاقبت على عرشها الملكات، وظلت خاضعة لنفوذ الآشوريين حتى عام ٦٦٩ ق.م. بل لقد جعل الملك البابلي نابونيدس (بختنصر) ٥٦٦ ـ ٥٣٩ ق.م. مقره فترة من الزمان في واحة تيماء التي كانت قاعدة لحملاته على الغرب.. ولقد وجد في هذه الواحة نقش آرامي يرجع إلى العهد الفارسي يدل على النظام الديني في تلك المدينة، وما ينطوي عليه من كهنة، وهياكل، وآلهة خاصة بكل منها. ثم نشأت دولة الأنباط بعد ذلك بزمن متأخر وسيطرت على تجارة القوافل، وكانت عاصمتهم سلع أو البتراء، وهي قلعة جبلية تقع على منتصف الطريق تقريباً بين البحر الميت ورأس الخليج العربي وهي الآن مقصد السياح الوافدين على الأردن.

ولا تزال آثار سلع الهامة والكتابات المختلفة التي نقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة على ما كان لها من حضارة زاهية. ولقد اصطنع الأنباط الذين ورثوا الثموديين في هذه النقوش.. اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية واقتبسوا ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين من الدول الهيلينية المجاورة.

ثم قضى الرومان على استقلال «سلع» سنة ١٠٦م، وضموها إلى إمبراطوريتهم وعرفت عندهم باسم «المقاطعة العربية».. وكانت تدمر التي خلفت دولة الأنباط أسعد حظاً من سابقتها، وكانت السيادة فيها للعرب.

ولقد خاضت تدمر حروباً ناجحة ضد الفرس، مكنت ملكها «أذينة» من بسط سلطانه على سوريا كلها.. ولما توفي «أذينة» سنة ٢٦٨م، تولت امرأته «زنوبيا» الذباء زينب أمر الحكم من بعده، وظلت تصرف شؤون المملكة حتى ٢٧٣م، عندما دمر الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر. وكانت نهاية الملكة «زنوبيا» الفاجعة موضوعاً بعيد الأثر في نفوس عرب الصحراء، وظلت سيرتها الأولى بعد أن اكتسبت طابعاً أسطورياً.

وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدولة العربية المستقلة في الشمال، ومنذ ذلك الحين صار الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون قادرين دائماً على أن يتخذوا بعض العرب صنائع لهم على تخوم البادية، يستعينون بهم على صد غارات البدو ضد غارات العدو على المناطق المتحضرة. والواقع أنهم اصطنعوا الغساسنة في الشام، وكان إليهم حكم المناطق الواقعة شرق الأردن.. وأشهر ملوك هذه الأسرة الحارث الخامس، وكانت له سلطة مطلقة على العرب في شمال سوريا، إلا أنه بعد وفاته لم يتمكن ملك من ملوك الغساسنة أن يخضع هؤلاء جميعاً لحكمه إلا قبيل الفتح الإسلامي.

واتبع الفرس أعداء الرومان التقليديون نفس السياسة نحو العرب، والمفروض أن سابوراً الأول ذا الأكتاف نفسه هو الذي عيّن عمرو بن عدي من بني لخم ملكاً على العرب في العراق. وقد وجد النقش المحفور على قبر امرىء القيس في النمارة جنوب شرقي دمشق وعرف عند علماء الدراسات التاريخية باسم نقش النمارة ولا يزال أحد المصادر الرئيسية في

دراسة أصل الخط العربي.

أما خلفاؤه فقد جعلوا مقرهم بوصفهم عمالاً للفرس في الحيرة الواقعة على نحو عشرة أميال جنوب بابل.. ولقد كان هؤلاء في حرب دائمة مع الغساسنة الذين استولى ملكهم المنذر على الحيرة حوالى سنة ٥٧٥م ودمرها. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ. فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الـــروم: ١ ـ ٤) أشارت إلى الحرب بين الإمبراطوريتين «غلبت الروم ثم غلبت ـ فجزع المسلمون لانتصار الوثنيين الفرس على الكتابيين الرومان حتى إذا انتصروا مهدوا بإضعاف الفرس للانتصار في القادسية».

وعلى ذلك فإننا نرى أن أجناساً كثيرة وجدت في شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام.

ولقد اعتاد النسابون أن يقولوا إن عرب الشمال من نسل إسماعيل بن إبراهيم وعرب الجنوب من نسل قحطان، وتبعاً لهذه الرواية نعرف فروقاً بين القبيلتين:

أولاً: أن القسم الجنوبي كان يعيش عيشة استقرار وتغلب على الحضارة، ولقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ (سبأ: ١٥). أما أهل الشمال فكانت تغلب عليهم البداوة والبعد عن الاستقرار.

ثانياً: أنهم مختلفون في اللغة، فكانت لغة اليمن تخالف لغة الحجاز.. فاللغة اليمنية أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكادية.. ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية.

ثالثاً: إنهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعاً لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية. وتبعاً لاختلافهم في اللغة والأمم التي كانوا يخالطونها، ولقد تجاوز المؤرخون عندما ذكروا أن هذا اختلاف في اللغة، وليس الأمر كذلك إنما هو اختلاف في اللهجات، أما اللغة فأساس واحد.

ورغم ذلك فإنه مما يستوقف نظرنا أن نرى اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قد عمروا قروناً وبلغوا في المدنية شأواً بعيداً ـ إذا قيس بحالة العرب في الجزيرة ـ وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم، ودينهم على العموم كان أرقى من دين غيرهم من العرب.. فهم إما نصارى أو مجوس وهذا كله كان داعياً إلى خصب الذهن وتفتق القريحة بالشعر، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فحولاً من الشعراء.. ولكننا لم نظفر منهم بشعر ذي خطر، فهم مثلاً يحدثوننا عن عدي بن زيد العبادي الحيري وهو شاعر ضعيف كان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان فيه: عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجدي معها، وكل الذي يرويه لنا الأدباء هو رحلة شعراء الجزيرة.. كالنابغة والأعشى وحسان إلى أمراء الحيرة وأمراء غسان.

ولقد كانت الحياة الدينية عند العرب القدماء تقوم على تقديسهم لضروب من الحجارة في سلع وغيرها. ولقد حظيت بعض الأماكن المقدسة بشهرة خاصة، فكانت القبائل المختلفة تحج إلى عكاظ والواقع أن الأسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الرومي بالإضافة إلى البضائع والعروض المادية.

لكن هناك ثلاثة آلهة اشتهرت عندهم أكثر من غيرها، الأولى وهي

«مناة» وكانت معروفة في مكة، لكن عبادتها شاعت على الخصوص بين هذيل، والثانية «اللات» والثالثة «العزى».

ولكن بالإضافة إلى هذه الآلهة اعتقد العرب ككثير غيرهم من الشعوب القديمة بإله خالق للكون «الله» سبحانه وتعالى يعرفون الرب ويشركون بالإله.

كما أن الديانات السماوية التي كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع في بلاد العرب قد ساعدت على هدم الوثنية العربية السابقة.. ففي جنوب الجزيرة بلغت اليهودية في فترة من الزمن مبلغاً من القوة ظهرت آثاره في اعتناق الحكام لها.

أما النصرانية فقد تمتعت في ظل الإمبراطورية بقوة اجتذاب عظيمة لمجرد كونها دين الدولة الرسمي.. ومما لا شك فيه أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال.. وليس من شك في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية.

* * *

تلك هي خلاصة لبعض الأحوال السائدة في شبه الجزيرة قبل البعثة المحمدية.

وقد يكون في خواطري الجديد علي، أو هو الجديد مني، ألفت إليه أنظاركم لعلّ بعضكم يعترف بصحته ولعلّ بعضكم الآخر يطرح حواراً يناقض هذا الصواب، فالحوار فيه النقيض، لكن النقيض حياة للنقيض، خطأ يصلحه صواب، وصواب تتعرف إليه التخطئة لينصب حيلة وينتصب

قوامه، صواباً لا تأخذ منه التخطئة، فالتاريخ الحدث.. الأثر كلمة صامتة نحاول أن ننطقها بقراءة جديدة، وفقه جديد أنتم أيها المستعربون كنتم السباقين إلى فكر التاريخ وفلسفة التاريخ.

سباقون بالجهر، وبالصراحة، وفي هذا لا أكيل الثناء عليكم وإنما أريد ألاَّ يكون كبرياء تاريخ العرب يتنكر للذين يفقهونه ويفلسفونه.

ولست بهذا الثناء عليكم أنسى عالمنا وإمامنا في فلسفة التاريخ العربي الحضرمي التونسي المصري ابن خلدون.. كما لا أنسى أستاذ القومية العربية من سمى نفسه إعجاباً بأبي خلدون.. ساطع الحصري أجاد الحوار مع المؤرخ الكبير.. لا يحرمه الحوار حين يبرز الخطأ من الحب والتقدير للإمام ابن خلدون.. فالحوار فكر مع فكر.. بهذا تعلو ولن يكون ذاتاً مع ذات.. أنانية ضد أنانية، فإن كان ذلك فليسقط التاريخ.

هذه المقدمة أتبعها بمقدمة ثانية عن لمحة موجزة عن الأمة العربية في عصور التاريخ السحيقة.

فإذا كان طوفان نوح هو التطور الثالث طبيعياً، أبرز أراضين، وأغرق أراضين، وخسف بحضارات، فإن العرب هم ورثة نوح.. أصحاب التطور الحضاري من ولده سام، فهم الساميون الأكثر اعتزازاً بالسامية، لا يحاربونها وإنما هم يحاربون من أقحموا أنفسهم على السامية من الذين تهودوا من هؤلاء الأشكناز الذين لم تلدهم إسرائيل.. قد نسميه تجاوزاً التطور الثاني لا الثالث لنعطيكم أنتم كمستعربين قيمة التطور الحضاري الثالث. أرجو ألا يرتفع إصبع يذكرني بحضارة الرومان واليونان، فلا أريد أن أنسى ذلك أو أتناساه، ولست متعسفاً حين أضع حضارة اليونان والرومان جزءاً كقبس من التطور الثاني لحضارة الإنسان صناعة العرب،

جاءت حضارة اليونان والرومان قبساً منها.

فالفراعين والكلدان والآشوريين والأنباط وعاد وثمود وفينيق وكنعان ـ هؤلاء عرب هم أصحاب التطور الثاني واليونان جاؤوا معاصرين لبعض هؤلاء أو متأخرين عن بعض هؤلاء.

فحين أذكر هذه الشعوب العربية حول النهر.. نهر النيل، نهر الفرات، نهر بردى، نهر الأردن.. في اليمن الخضراء.. في شطف الصحراء.. أعتبر أن كل هذه من العرب.. وكانوا بكل ما تمكنوا به وبالرسالات والأنبياء.. كانوا أول إرهاص لهذا الإسلام، فالعرب بكل ما لهم وما عليهم كانوا الإرهاص.. أعدهم الله لأن يكونوا وفي أحقاب السنين على دائم من الحضارة، وتعدد الديانات، ونبوغ الرسالات، مقدمة لهذا الدين، حمله العرب أول من حمله، ثم حملته الشعوب الأخرى التي أسلمت فكانت عربية الوجدان بلغة القرآن وتعاليم القرآن.. مسلمة الإيمان بتعاليم القرآن وشريعة الإسلام.

هذا الإرهاص الكلي، وباعتباره التكوين للوجدان العربي وفكره وحضارته.. قد جاءت بعده إرهاصات كثيرة منها ظاهرة السلب، والانتفاء من الانتماء، وكثير من الإيجاب.. الاحتفاء بالانتماء، فكيف كان ذلك؟

* * *

فأدهر العرب في جزيرتهم فلم يصحروا، اندفعوا موجات موجات، لا ينتقلون بشراً إلى الأمراع حول النهر.. وإنما نقلوا كل فكرهم ووجدانهم إلى بيئات خضراء، إخضرت بها حضارات ورثت حضارات وأنبتت حضارات.

فالهجرة من الأمراع إلى الصحراء غير واردة. قال ذلك العلماء، وإنما

الصحيح أن هجرة العرب كانت من الأرض التي أدهرت إلى الأرض التي أمرعت، لكن وقد التصقوا بالأرض لم يدعوا الجزيرة فراغاً، بقيت بقايا منهم في بيوت الشعر، كانت الملجأ لهم حين تعضهم شعوب غازية، يهاجرون من بيت الشعر، ويتهاجرون إليه.

إن بيت الشعر هو عظمة الإرهاص لمعجزة الإسلام.. تصوروا كم من المهلكات التي سقطت على بيت الشعر.. جدب، وأمراض ودماء.. الخ هذه الواوات. وبقي بيت الشعر المدد الولود يحفظ على الشام عروبته، وعلى العراق عروبته، وعلى اليمن كيانه، ويمد أفريقيا بمدد عرّبها.

فقد قال الإمام بن باديس، شيخ الجزائر، الرجل الأول في تعليم الجزائر الثورة على الاستعمار.. قال: لئن قيل إنهم خربوا، فلنقل إنهم عربوا.. يعني موجة بني هلال وبني سليم. فموجة الفتح التي استمرت في إمبراطورية الخلفاء، وإمبراطورية أمية، وإمبراطورية العباس، تبعتها موجات من الجزيرة لم تذهب للنعجة وإنما كانت حملة قومية بوازع سياسي لم يسأل عنه تاريخ المعز إلى الآن. أزعم أنها على يقين أن موجة بني هلال وبني سليم كانت عن تخطيط بين هاتين القبيلتين وبين المعز لدين الله الفاطمي.. لها آثارها وبها تأثيرها.

أكثر الذين كتبوا عن العرب، ومن المسلمين بالذات وقعوا في خطأ ابن خلدون.. يزعمون أن العرب كانوا قبل الإسلام لا شيء، وأن الأعراب بعد الإسلام هم لا شيء.

والحق أن هذا خطأ، نظروا إلى أحد الوجهين من العملة ولم ينظروا إلى الوجه الثاني.. استمر في تعديد السلبيات، وما خطر على بالهم أن خلفية هذه السلبيات كانت إيجابيات.

قالوا:

إن العرب كانوا قبائل تسيل بينها الدماء في حروب قبلية.. خطأ.. أن يكون في أرض واحدة شعب واحد يتوزع قبائل يقتل بعضه بعضاً.. هذا وجه الدنيا. أما الوجه الآخر فشيء آخر..

إن حروب القبائل أزعم وأنا على يقين أنها كانت إرهاصاً لمعجزة الإسلام.. لرسالة سيدنا محمد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.. فالدين الجديد.. الرسالة المحمدية، رسالة الإسلام.. لا بد لها من رجال يعتقدونها.. يحمونها.. ينشرونها..يتحضرون بها ليرسلوا الحضارة الوسيط إلى بني الإنسان.

هذه الحروب القبلية.. كانت أكاديميات عسكرية، تعلمت القبائل المتحاربة، هذه الحروب البغيضة، التعامل مع السيف والرمح والاحتفال باقتنائه، والتجارة به. فقد كانت عند بعضهم ذخيرة من هذا السلاح إما أن يتمولوا بها.. أو أن يمولوا قبيلتهم بها.

أدرع العباس بن عبد المطلب مثلاً السلاح كل السلاح عند صفوان بن أمية إلى غير هؤلاء.

إن قوساً واحدة.. قوس حاجب بن زراره .. صنعت حرب ذي قار.. حتى إذا جاء الإسلام، وجد الفوارس.. قادة الجيوش، فهل كان في الإمكان لو لم تكن هذه الحروب المعلمة، أن يكون في الإسلام وللإسلام قائد مثل خالد بن الوليد؟. أركان حرب مثل القعقاع بن عمرو؟. وفاتح الشرق مثل قتيبة بن مسلم؟ فاتح الغرب مثل عقبة بن نافع؟ فاتح الأندلس مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد؟ تعلموا في الجاهلية حتى جاؤوا إلى الفتح كانوا الأساتذة يعلمون الأجيال بعدهم.

والانحياز إلى الصحراء يظهر للشاغبين على العرب أنه بداوة، بينما هو ورغم الحروب القبلية، كان تكتلاً حضارياً.. لم يكن للفرس أن يتجاوزوا الحيرة، ولم يكن للرومان أن ينفذوا إلى بادية الشام، ولم يكن للفرس ولا للأحباش أن يستقروا في اليمن.

وكان تكتلهم في الجزيرة إرهاصاً لهذه المعجزة الإسلامية، وحين سطع نور هذا الدين، وجد في هذه المنطقة الجبلية ميدان النجاح.. صدع النبي محمد بالرسالة على الصفا، فنفقه مما جرى إرهاصين، فحين بشرهم وأنذرهم كان من ردود الفعل أن تجتمع قريش على كلمة واحدة، تصده وترده، لكن هذا الاجتماع انفرد في اللحظة الأولى بموقف أبي لهب المنكر للرسالة، فلو لم يقف أبو لهب عم النبي هذا الموقف المنكر حل به مع قريش لأجمعت قريش أمرها على الإنكار بكلمتها الموحدة تصد وترد.. لكن كلمة أبي لهب «تباً لك.. ألهذا جمعتنا».. أطفأت غلواء قريش كأنهم قالوا اتركوه إلى عمه، وجه العملة الرديء.. إنكار أبي لهب، وجه العملة الإرهاص، موقف أبي لهب فرق كلمة قريش، تركت الرسول العظيم لعشيرته الأقرب، فلم تشارك عشائر قريش أول الأمر في كلمة واحدة.. أعطت المتنفس ليسلم السابقون الأولون.. ينازعهم عمه أبو لهب، يطفئ النار بما سلب، يناصره عمه أبو طالب، يقاوم ثأرهم بما أوجب.

وهذا الموقف في مكة وهي سلبى كل السلب تحارب قريش رسول الله بالأذى والإنكار والتعذيب للمستضعفين.. كان عملاً رديئاً، لكن الوجه الآخر للدنيا كان عملاً مفيداً.

لماذا؟

لأن وكما ذكرنا من أن قريشاً تركت الأمر بين أبي لهب ينازع الرسالة

المحمدية، فإن العرب كل العرب تركت قريشاً تنازع الرسالة المحمدية.. فكأنهم أرادوا.. ما دامت مكة قد حاربت هذه الرسالة فلا داعي لأي تكتل منا يحارب الرسالة في مكة.

فقد يخلق هذا الصراع بيننا وبين قريش حين نبادر إلى أي تحرك ضد مكة.

كان تأخر العرب لأن تحارب هذه الرسالة إرهاصاً للنبوة.

ألستم معي في هذ الفكر؟. أرحب بمن يستريح لهذا الفكر ولا أجفل ممن يناقض هذا الفكر.

* * *

وإرهاص آخر يتبع إرهاص المتحاربين والمتحاربين والمستنكرين على الصورة التي شرحت بإرهاص آخر كان أساسه المعتقد والمعتقد والعقيدة.

سطع نور الإسلام، وقبائل العرب في جزيرتهم، في نجدهم وحجازهم وتهامتهم وسرواتهم وثنيون.. لهم آلهة من حجر أو شجر.. أو حتى إله من عجوة التمر، كما هو إله عمر في الجاهلية.

هذه الوثنية في العرب أزعم أنها من الإرهاص للإسلام.

كيف كان ذلك؟

فلو كانت قبائل العرب نصرانية.. لناصرها الرومان، وجاءها المدد من الشام، ولو كانت يهودية لتعثر اقتناعهم بالإسلام.. كما هي الحال فيما وقع في الواحات العربية.. المدينة خيبر وما إلى ذلك من وادي القرى..

لو كانوا نصارى أو يهوداً أو لو كانوا وثنيين مجوساً من أتباع زرادشت أو ماني.. لوجدوا النصير ولوجد الإسلام العسير، ولكنهم كانوا وثنيين..

لديهم ملامح ووراثات من ملة إبراهيم، فانفتح وجدانهم إلى قبول العقيدة الإسلامية يسر فيه بعض العسر.. ليس عمق العقيدة لديهم، وإنما سببها زعامات خافت على نفوذها إذا ما انضوت تحت راية الإسلام كالذين ادعوا النبوة أو الذين منعوا الزكاة.

إن هبلا الوثن كبير الآلهة في مكة الذي سقط يخرج من جوف الكعبة كان وثناً، رديئاً أن يعبد، ولكنه من الوجه الآخر، كان حرزاً للعربي أن يتنصر أو يتهود، كان إرهاصاً لمعجزة الإسلام تدخل فيها قبائل العرب الوثنية.

إن اليهود في الواحات، كانت العسر كل العسر، فما تنفس الإسلام حتى أجلاهم وإن نصارى تغلب قد مكثوا طويلاً فلم يسلموا إلا بعد لأي.. فطليحة الأسدي الوثني ادعى النبوة وما أسرع ما انهزم حتى أسلم، وفقة التغلبي النصراني انهزم مع طليحة.. فما أسلم حتى أهلكه خالد بن الوليد وما زالت تغلب تبقى على نصرانيتها إلى زمن طويل.

إن القومية العربية حين أصبحت شعوبية عربية في عهد بني أمية، كان لها وجهان.. الوجه الحبيب إلى العرب، والوجه البغيض إلى الشعوب المسلمة قد غربها العرب فحملت لهم مذلة اختفت ثم ظهرت.

لم تكن إحساناً على العرب إلا حيناً من الدهر تسعين عاماً، ولكنها كانت إحساناً لانتشار الإسلام، وتشبثت الشعوب بحبائله، تدافع عن نفسها به، فبالإسلام انتصبت شعوبية هذه الشعوب إلى هدم القومية لنصرة ذاتها بانتصار الإسلامية، فأظهرت العباسيين فانقلب الأمر على حرمان العرب من كل سلطان.. حلفاء عرب بفكر إسلامي ينتصر بغير العرب، فمن سيئات الشعوبية إذلال العرب، ومن بعض محاسنها انتصار الإمبراطورية العباسية

لتنتشر حضارة الإسلام برجال من أعراق غير عربية لكن اللسان الإمبراطوري العظيم.. لسان العرب هو الذي لم ينهزم.. فكل هؤلاء الرجال العباقرة من غير العرب كانوا عرباً.. عرباً تكلموا العربية، فكروا بأسلوبها، كتبوا بها.. فالحضارة الإسلامية صناعة مسلمة بوجدان عربي، بلغة عربية، ليس هذا إرهاصاً إنما هو معجزة، ليست معجزة العرب وإنما معجزة الإسلام.

إن الإسلام ليس دين عبادة فحسب وإنما هو حرية الوجدان والفكر في انطلاقة لاعتناق ما هو حسن، واجتناب ما هو سيئ، فلم يتنكر المسلمون إلى علم الصين والهند واليونان والرومان.. أخذوا كل ذلك فأعطوا على ذلك.. ليس هذا إرهاصاً وإنما هو معجزة.

* * *

تقدم إليكم الأثر الاجتماعي وكيف كان المظهر السيئ له عائد حسن، فالقتال والوثن والخلاف.. كل هذا مهد كإرهاص لمعجزة الإسلام.. غير أن هناك الدعامة والأساس، أساس سرمدي هو وحدة الأرض، فالأرض عربية كأنما طوفان نوح وأبناء سام الذين هم الخلاصة التي جاءت بالشعوبية العربية، فالشعوب العربية هي الأولى بوراثة السامية لا غيرها.

إن وحدة العرق في الغالب في وحدة الأرض كان إرهاصاً للإسلام، فاتصال الأرضين التي عمرها العرب سهل قبولهم للإسلام حتى إن الاستعمار الروماني والفارسي كانا من هذه الأسباب التي انتصر بها الإسلام كما انتصر عليها، فالشعب العربي في الشام، في العراق، في اليمن، في مصر في أفريقيا، وجد وهو في ثورة على المستعمر الغوث في الفتح الإسلامي.

فالوجه الرديء للاستعمار له وجه آخر هو حرب الشعوب عليه قبلت

الغوث حين فتحت الأرض الموحدة انفتح قلب ساكنها العربي لهذا الإسلام.

وحدة الأرض عامل كبير، فرغم صعوبة وسائل المواصلات كانت وحدة الأرض هي القريبة التي سهلت صعوبة المواصلات إلى قرب الاتصال.

وهناك عامل أساسي أيضاً بعد وحدة الأرض هو وحدة اللغة.. لهجات الشعوب العربية كانت قبل هذا التوجيه للغة كأنها لغات متغايرة، وجاء الأمر قبل الإسلام إرهاصاً في الأسواق العربية أهمها سوق عكاظ تجتمع القبائل، يتسع الحوار، تتصافح القربى، تتعارف الرجال، تتوحد اللغة.. كانت وحدة اللغة تمهيداً لفهم القرآن جاءت بيانية فصيحة في أمة بيانية فصيحة.

إن وحدة اللغة عامل أهم كان رديفاً لتأثير القرآن، يعرفونه، يفهمون لغته، متوحدين في هذا الفهم بلسان واحد عربي مبين، فكان من السهل أن تدخل لغة القرآن مسامع الوجدان الموحد بلسان واحد.

* * *

تقع الأمة العربية الآن في خطأ الانعزالية.. كل شعب يؤرخ لشعبه، مصر تنعزل بتاريخها مستقلة به عن العرب، العراق.. لبنان.. تونس.. الخ ما هنالك.

فراعين، فينيقيون، كلدانيون، آشوريون.. إن هذا الانفصال أو الانعزال.. تجزئة لتاريخ أمة العرب، بينما كل هؤلاء عرب، ليس برهاني وحدة اللسان، وإنما برهاني وحدة الأثر، فالإثارة العربية في الجزيرة وعلى الخليج تناغينا بأنها المدد لآثار الآخرين، أو الامتداد لها.. ذلك ما يأتي به الزمان عندما نتعاون نحن وأنتم على كشف المخبأ.

زارني أستـاذ تاريخ مصري في يده بحث عنوانه «الاستعمار الآشوري» فألهمت ساعة في الحوار معه.. أقول له إن كلمة الاستعمار حديثة، وكلمة الاستيطان أحدث وأرى أن تسمية انسياح الآشوريين أو الهكسوس أو الفينيقيين أو الكنعانيين من أرض عربية إلى أرض عربية.. أن تسمى بالاستعمار. فالاستعمار تسلط أجنبي، والعربي حين يأتي بلداً عربياً ولو بصورة غزو فإنما يعمر أرضه، ويتآخى مع إنسانه فيذوب فيه.

إن دعاة الفرعونية، والفينيقية، يزعمون أمرهم لو انتصروا أن يعدوا الفتح الإسلامي لمصر أو لبنان أو تونس استعماراً.. قياساً على وصف الآشوريين والهكسوس بالمستعمرين.

من هنا كانت الدقة في عظمة التسمية الإسلامية، تسمية ضم الأراضي العربية في وحدة العقيدة ووحدة اللغة والوجدان فتحاً.. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

الفتح العظيم.. حتى الترجمة لكلمة غستاف ليبون إعراباً عن هذه الدقة في التسمية.

أنا لا أعرف كلمة غستاف ليبون بالفرنسية وإنما أعرف الترجمة «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب» أو الكلمة الأخرى.. «لقد فتح العرب في ثمانين عاماً أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة عام وأكثر من ذلك».. لهذا أدعو الشعوب العربية أن تفقه تاريخها.. تاريخ أمة واحدة، لكل شعب امتيازه لكل شعب جهده.. لكل شعب مجده، لكن التاريخ واحد والأمة واحدة.. ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

فالخلاصة أن العرب حملة رسالة.. بناة حضارة.. صناع سلام.. يحتفلون بالصداقة يحترمون حاضرهم، ويعملون لمستقبلهم.. فما أكثر ما

تبرأوا من الحقد، وما أكثر ما تجرعوا من الحقد.

العرب بالإرهاص وبالمعجزة كانوا وما زالوا قوة تؤمن بالحق، وتخضع لقانون الحق، وتريد أن تكون أمة تعمل للسلام، لا تغتال أرض أحد، ولا تستغول في دماء البشر، وإنما تريد سلامة الناس من الناس.

كأنها بهذه الفلسفة إنسان الإنسان، لا تلوموني إن فخرت بأمتي فكلكم فخور بأمته..

العرب أعراق والعروبة استعراق

ـ وحين رست السفينة على الجودي، فاستغرق أبونا سام يزرع بنيه في الأرض الوسط ـ جزيرة العرب ـ فأبناؤه الذين حافظوا على العرق واستحوذ عليهم الاستغراق في الأرض.. جعلوا من وادي النهرين، والأرض الممرعة غرب النهرين، والأرض اليانعة: اليمن السعيد.. جزيرتهم كأنما هم حين تعربوا أعربت الأرض عن عروبتها، فالإنسان العرق، واللغة العراقة، والأرض الاستعراق، والزمان المغرق في القدم.. كل هؤلاء لا يمكن إلا أن تكون التسمية لهم: العرب إنساناً، والعربية لغة، والعروبة أرضاً، ولا غير ذلك!

* * *

وتأتي من كل هذا ـ حين تفرع أبناء قحطان (يقظان بن أرفخشد) إلى فروع شتى ـ أن تستأصل العرق العربي في أقوام، ولن أقول قبائل؛ فمن بيان القرآن الكريم أن سمى قوم عاد قوم ثمود، كما سمى دون إضافة «قوم» فرعون: أصحاب الرس (الأنباط).

قوم امتد لهم قوام في العصر السحيق: عاد ثمود، الفراعين،

الكنعانيون، الفينيقيون، الآراميون، المعينيون، الحميريون، إلى آخر ما هنالك، فاستقروا على أرضهم العربية يستعرقون فيها، حتى إذا أحسب أن اسم (العراق) كان من هذا الاشتقاق.

وطال الأمد، وليس في كل هؤلاء إلا أنهم العرب في أعراقهم.. لا دخيل ولا مستعرب.

* * *

وحين كثر النسل، وتتابعت هجرة الموجات راحلة من الجدب الذي حل بعد المراع.. إلى ما جاورها من الأرضين الممرعة حول النهرين في العراق، وإلى النهر في مصر، فإذا الاختلاط بالقادمين من الجوار، أو مع الساكنين في الأرض التي رحلوا إليها بدأت العروبة تطغى على اسم العرب، فالعرق قد اختلط، أو قد تطور في الأرض التي سكنها، فإذا الاستعراق عروبة، أعني بذلك أن العربي اليوم إنساناً لم يعد صاحب العرق المصفى في كل الأقاليم العربية من الخليج إلى المحيط، وإن بقيت صفوة العرق متأصلة في اليمن والصحراء، فالعرب العرق قد أصبحوا الآن: العروبة الاستعراق، فالأرض فعلت ذلك حين اتسعت، واللغة فعلت ذلك حين توسعت، والتاريخ المشترك فرض ذلك والمصالح المشتركة تدعو إلى ذلك، والمصير المشترك يحتم ذلك!

وفي الأثر: (أنا عربي ولسان أهل الجنة عربي).

وفي أثر آخر: (من تكلم العربية فهو عربي).

فبلال وسلمان، وابن المقفع، والجاحظ، وابن الرومي، وأبو نواس.. أقسم أنهم عربيون عربيون.. حين عشقوا «مجنة» كبلال. حين كان «سلمان» من أهل البيت. حين صارت اللغة العربية مشرقة في بيان ابن

المقفع، والجاحظ.. مترفة مترفة في شعر ابن الرومي وأبي نواس ومهيار، فمن ينكر على هؤلاء أنهم عربيون؟!

* * *

ولا أنسى «شوقي» فإنه من هؤلاء!

هكذا القرآن، هكذا اللغة، وهكذا الأرض.. فالذين يكتبون العربية اليوم، ويعيشون في وجدان القارئ العربي في الدار البيضاء وفي بغداد.. في دمشق وفي مكة، لا يقدرون بحال أن يعتزلوا العروبة، وإنما هم خذلوا أنفسهم، كأنما «عودة الروح» يعالجها النزع بخرافة «عودة الوعي».

* * *

لكن الذين اعتزلوا قد أوضحوا أنفسهم، فما أسرع الفضيحة إليهم، ولكن يدعون العروبة، ثم هم يتعاملون معها بالفراق والشقاق.. هؤلاء لن يكونوا إلا وقد أنهكهم العقوق، فمن يدعي أنه معك، ثم يكيد لك في الخفاء شر من الذي يعلمك أنه ليس معك!!

* * *

العرب.. نسب وسبب وحسب!

بهذا العنوان الذي سجع فيه حرف «الباء» ولم يكن القصد التزاوج بالسجع، وإنما القصد إجراء الحوار بين النسب والسبب والحسب! فكل من هؤلاء قد يكون وثيق الصلة بالآخر، وعوناً له وانتصاراً به، وقد تأتت ظروف ووقائع فرقت بين الأحبة.

فالنسب: العزة والحمية والفخار.. قد أصبح قاتلاً، فكل ما جرى على العرب من فرقة وشتات، وشرب الدم واستساغة القتل، كان النسب هو

فاعله.. فالقاتل الأول في الأمة العربية هو النسب، كأنما قابيل وهابيل قد أخذ العرب عنهما ثلاثة أرباع التركة.. فإذا ما فتحنا أعيننا على فقه التاريخ نجد أن «عثمان بن عفان» قتيل النسب لا قتيل الفتنة، فالذي أشعل نارها أقرب الناس إلى عثمان بن عفان.

والعبشميون، والهاشميون، والأمويون، والعباسيون، كلهم أب واحد، نسب واحد.. تباعدوا عن السبب، وأرادوا أن يضيفوا إلى شراسة النسب حين تشرسوا به أن يصنعوا لأنفسهم حسباً جديداً، فقد أبكوا السبب ـ أعني الوحدة في العقيدة تمنع أن يكون قتال بين أبنائها، والوحدة في الأرض تحرم على أبنائها أن يمزقوها أشباراً.. كل فريق فرح لما لديه.. ووحدة المصير إن بقيت قرونها الثلاثة مصونة بإمبراطورية «أمية» وإمبراطورية العباسيين في عهد القوة التي كانت لها.. فإنها في إثني عشر قرناً التي بعد مزقها هذا النسب القاتل إلى دويلات وسلاطين لم تقو على صد التتار والصليبيين والمذاهب المنحرفة، حتى إذا شن الاستعمار حرب الاستغوال والاستقلال وجد أن العرب أمة منهوكة القوى، متفرقة الرأي يطحنها طحناً.

سواء كان استعماراً مباشراً بفرقة من الجيش، وافتراق من الشعب، وارتفاق من العملاء، أو كان ـ وفي هذا العهد الجديد ـ على صورة من دعوى الصداقة، كأنما هو النزح.. قد كان متحاً بالدلاء، بأيدي المستعمرين، أو أصبح منحى من أيدي الأصدقاء والحلفاء!

هذا النسب وما فعل، فإذا السبب يقول: أنا العقيدة، أنا الوحدة.. سقتكم بذلك إلى الفتح العظيم.. تسوقتم بي الحضارة فانساق الشر بي إلى بعيد، لكن النسب عطلني!

وجاء الحسب.. مآثرها أكثرها في وجدان العربي فهل سمعتم أن عربياً

نصرانياً طائياً اسمه «أبو زيد» كان مع صوان النسب.. الحفيظ على السبب.. المقاد بالحسب، فتى الإسلام والعرب الذي استغول في أطراف العراق والفرس: المثنى بن حارثة الشيباني، فحين سل سيفه في مواجهة الفرس، قال له عشيره النصراني «أبو زيد»:

ـ «ما تراني أصنع اليوم»؟!

فشمخ ابن ربيعة الفرس يكلم الطائي بن قحطان.. يقول له:

ـ «قاتل على أحسابك»!

فإذا «أبو زيد» يقاتل، ويقتل.. لا أجد كلمة أقولها عنه إلا كلمتين: كلمة رسول الله محمد بن عبد الله بن مضر الحمراء حيث قال عليه الصلاة والسلام:

ـ «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، أو الرجل الكافر» كما قال.

أما الكلمة الأخرى، فكلمة الإمام «الحسن البصري».. مات جار له، لعلّه كان يهودياً أو نصرانياً، فشيع جنازته.. عاطفة المسلم على الذمي، ثم قال.

ـ «اللَّهم ارحمه برحمة أهل دينه».

وكأنما «الحسن البصري» قد اقتدى برسول الله ﷺ، فقد كان جالساً يوماً ما في جمع من أصحابه، فمرت جنازة، فقام ذو الخلق العظيم يحترم الموت، فقالوا له: إنه يهودي، فقال عليه الصلاة والسلام:

ـ «أوليست نفساً»؟!

فاحترام النفس سبب، وهو في الوقت نفسه حسب.

ـ ثم قال الحسن أيضاً: كان واحد من أصحاب الحسب والنسب قد ارتد عن السبب، فادعى النبوة، فلما هزم ورجع إلى الإسلام.. كان حسبه

أن كان عظيماً حين صار على خلق حسن.. فارساً في القادسية أوصى عمر بن الخطاب، قائد القادسية «سعد بن أبي وقاص».. قال له:

ـ «عندك اثنان: طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي يكرب الزبيدي.. لا تقطع أمراً دونهما»!

مع أن كلاً منهما ارتد، لكن السبب أسقط النسب، والحسب أعز السبب!

وسار الجيش الفاتح إلى «نهاوند» فانتدبوا طليحة الأسدي يسبر الطريق أمام الجيش، فغاب طويلاً، وظنوا به الظنون.. حسبوه قد ارتد يذهب إلى العدو.. فلما أقبل عليهم يصافح قائده «النعمان بن مقرن» علم عن سوء الظن فيه، فقال كلمة الحسب:

ـ «أوتظنون بي الظنون.. تحسبونني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم»؟!

هكذا.. الرجال كانوا، فأين هم الآن؟!

إني لأغمض عيني، ثم أفتحها على كثير، ولكن لا أرى أحداً

* * *

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب!

إن النسب لا يعاب إلا إذا كان هو القاتل، وإن السبب لا يعق لأنه الموحد، وإن الحسب لا يجفى لأنه الحلية والفخار!!

وحري بنا أمام هذا الموضوع أن أنشد قول «الرصافي»:

وإن لهاشم في الدهر مجداً بناه لها الذي هشم الثريدا

فدعني والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا

فخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسباً جديدا
وشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتم ذكروا الجدودا

مصر.. الرباط والمتنفس

ـ كثيراً ما حاولت أن أشدد النكير.. أرفض به خصومة الوقت، لأكون شديد الحرص على الإبقاء.. لا تتأثر بخصومة الوقت علاقة الزمن، فالخصومة.. الوقت بين الزعامات لا تلبث إلا أن تزول.. بالمصالحة، أو الموت، أو حتى الاغتيال!

إن الأمة العربية تمر في مرحلة ـ الآن ـ أقسى وأنكى من المراحل التي ذاقت مرارتها من قبل، فمرحلة الوقت اليوم أشد وطأة من موجة التتار وسعار الصليبيين وطغيان الاستعمار.

مرحلة اليوم: أنها بين المطرقة والسندان.. مطرقة اليهود، مطرقة الاستقطاب لإحدى الإمبراطوريتين. أما السندان فهو تجرع الغصة تلو الغصة، كأنما الأقاليم العربية قد عادت إلى الحروب القبلية. ولعلّ هذه الغصص بهذا الخلاف والافتراق والشقاق هي الأشد شراً من طغيان اليهود، وسيادة الاستقطاب.

وحين رفضنا خصومة الوقت لم نكن في سلامة من الخوض في خصومة الوقت.. إنكاراً لعمل دعا إلى خصومة الوقت، ولكننا اليوم في حاجة إلى أن نبدأ في تجديد العلاقة.. علاقة الزمن لنكون الأمة الواحدة، لا بشعار إمبراطوري، ولكن بمشاعر الحب والتضامن ننبذ الخلاف.. نعطي الفرصة للشعوب أن ترفض خصومة الوقت لتعتنق الصداقة مع المصير.. مصير الأمة الواحدة.

من هنا.. أريد أن أتكلم عن «مصر ـ الأرض والإنسان» لأعطي تاريخ العلاقة ـ الزمن حقها:

إن مصر حين تسلم زمام الأمر فيها فاتحها «عمرو بن العاص» اعتنقت الإسلام، وحين طرقت أبوابها موجة بني هلال وسليم من شرق المدينة المنورة، وعالية نجد أصبحت مصر قد أمسكت بالعرب العرق، والعروبة الاستعراق.. كأنما الأرض العربية عروبة «أحمس» امتد بها الزمن لأن تكون عروبة القرآن، ولو لم تفتح مصر لاهتز الإسلام في الشام من حملات رومانية يقودها القيصر، لكن الجناح الأيمن ـ مصر ـ قد حمى الإسلام الجناح الأيسر ـ الشام.

وكانت لفتة مني قبل أعوام مضت في كلمة قلتها مراراً، فأول مرة كانت أمام أمين الحسيني ورياض الصلح وعزت دروزة وبشير السعداوي في المدينة المنورة، وفي صالة جماعة المحاضرات، وبعد سنوات قلتها أمام شكري القوتلي، في الصالة نفسها، وآخر مرة قلتها أمام الملك سعود يرحمه الله، وأمام جمال عبد الناصر يرحمه الله في حفل أقمناه نحن السعوديين في فندق هيلتون بالقاهرة.. والكلمة هي ذات شطرين:

ـ «لئن قدس الدين الإسلامي مكة والمدينة وبيت المقدس، فقد قدس العرق والدم والتاريخ والمصير: دمشق وبغداد والقاهرة، وكل شبر من أرض عربية.. من مخاضة عمرو بن العلاء في الخليج، إلى وطأة القدم ـ قدم عقبة بن نافع على المحيط».

أما الشطر الثاني، فقد قلت أمام الملك والرئيس في خطاب ألقيته أمامهما:

ـ «من المدينة المنورة ـ قاعدة الفتح الأول ـ بلدك يا صاحب الجلالة

تفرعت للفتح قاعدتان: قاعدة في دمشق تمتد إلى الكوفة، وقاعدة الفسطاط.. امتدت إلى القيروان، إلى فاس، إلى قرطبة. قاعدة دمشق شرق منها الفتح ولأسباب لم يغرب، أما قاعدة الفسطاط فغرب منها الفتح وغرب»!

لم أقل ذلك استجداء لعاطفة، أو استرخاء من عاطفة، وإنما هو الاعتلاء بالعاطفة.. فحين يفرغ وجدان العربي من عواطف الحب، فإنه أول من يهلك نفسه بالبغضاء!!.

ولنتأمل.. لو أن شعب الجزيرة العربية كلها بالمسجدين، وبنجدها وتهائمها وسراتها قد تجرع من الأحداث التي جرت عليه البغضاء واعتنق الأحقاد على الذين أجروها عليه لكان غير جدير بالأمومة وبالأبوة.. أبوة التاريخ واللغة والدين والأعراق.. إنه لا يعيش البغضاء للشام بما فعل الأمويون في الحجاز، وفي المدينة المنورة ومكة المكرمة بالذات، وإنه لا يعيش الأحقاد على العراق بما فعل المنصور من قتل أبناء عمه في المدينة المنورة، وفي فخ، وفي الكوفة، وبما فعل المعتصم حين أرسل الأفشين وبغى يدكون نجداً دكاً.. تذوب قبائل، وترحل قبائل، ولو أنه يعيش الأحقاد لما غفر لمصر ما صنعه محمد علي، ولما كان لجمال عبد الناصر، ولما كان العون لأنور السادات قبل العبور، وأثناء العبور، وبعد العبور!

لقد كلفنا تراثنا وميراثنا حين شرفنا بأن نحب.. بأن نسقط البغضاء، نعيش فترة مع خصومة الوقت اضطراراً، ولكننا نعيش بصداقة الزمن دهرنا الطويل!

وهكذا.. كانت هذه الجزيرة أما لإنسانها الذي ذهب للجهاد وللفتح، وكان العراق والشام ميادين الموجة بعد الموجة للفتح شرقاً وغرباً، وكان

المغرب هو المصب يغترف من المشرق ليستوعب، ليمثل عطاء جديداً، فمن هنا نربأ بالمغرب (كله) أن يستمر في الشقاق.. فعبرة الأندلس أرجو أن لا تعبر المضيق.. إلى الأرض التي عبرت المضيق فأعطتنا الفردوس المفقود!

* * *

أما مصر، فبما ذكرنا قبل تحقق فيها معنى الرباط: جيش يسير للفتح، وجيش مسيرته أن انتصر على التتار، وانتصر على الصليبيين، وأعان على هزيمة الاستعمار، والرجاء فيه: أن يكون له عبور بالعودة إلى حظيرة الأمة العربية حين تعبر إليه عواطف الشعوب العربية!

وكلمة الرباط، ليست من عندي. فهناك أثر رواه السيوطي، ومعه آثار أذكرها استجداء للحب، وإسقاماً للبغضاء، وهذه الآثار إن ضعف لها سند أو اختلف لها متن، فواقع مصر فيه التصحيح لها:

فالأثر الأول هو: لا يزال أهل مصر في رباط إلى يوم القيامة.

والأثر الثاني هو: إذا فتحتم أرض القبط فاتخذوا منها جنداً كثيفاً سيكون من خير أجناد الأرض.

والأثر الثالث هو: إذا فتحتم أرض القبط فاستوصوا بهم خيراً، فإن لهم رحماً وقرابة.

تلك آثار على أن مصر «دار رباط» فلولا الرباط فيها لما كان الانتصار على التتار والصليبيين ومن بعدهما.

أما مصر المتنفس، فحين ضاقت أرض بالأئمة من الحجاز، وبالعترة من أهل البيت وجد الجميع المكان الذي أحاط وحفظ وأعز واعتنق مذاهب

الأئمة، وحين عض الأفشين نجداً سرت موجة بني هلال وسليم وزغابة، فوجدت الملجأ في مصر وكانت جيش النصر للمعز ينتزع شمال أفريقيا من سلطان بربري ليكون السلطان عربياً.

أما الصورة الأخرى للمتنفس، فإن الكثيرين من الذين يمسهم الضيم في أرضهم يهاجر بعضهم إلى مصر، وإن بقي لا يستطيع الكلام عن الظلم الذي أحاط به، فلا يجد إلا مصر ينفس عن نفسه بالكلام عليها، وحتى السباب يتلمظون على أن يسمعوا سبة لهم من زعيم، كأنه يعطيهم التنفس ليبدأوا السباب.. يفرجون به عن كروبهم، فلا تجد شاعراً أو كاتباً يستطيع أن يقول كلمة في إقليمه، ولكنه يجد المجال واسعاً أن يقول الكلمة عن إقليمه في شخص الإقليم المصري!.

* * *

الحريق شرق السويس والغريق غربه!

الإنسان في كل أدوار حياته، وفي ما طبعه الله عليه مساير لسنن كونية.. منها التزاوج والازدواج، فالتزاوج هو حياة الحياة به تتكاثر وتنمو بالتناسل والثمار ـ من كل زوجين اثنين.

من هنا يحمد التزاوج، لكن الازدواج ليس في طبيعة الإنسان كغريزة وإنما هو التطبع بالاكتساب.. نحمد منه الازدواج المتناظر، وحتى الازدواج المضاد كالسماء والأرض، والليل والنهار، والبحر والبر.. إلى آخر ما هنالك من هذه الازدواجية التي تتناظر.. نظير يقابل نظيراً.

لكننا قد وقعنا اليوم في ازدواجية التناحر: شرق وغرب وجنوب، ففي الشرق إمبراطورية الكرملين، وفي الغرب إمبراطورية البيت الأبيض، في الشمال شعوب أطلقوا عليها صفة التقدم، لأن التعريف بذلك قد حدده الرخاء وألزمت به

الصناعة. وجنوب وصفوه بالتخلف لأنه فقير.. مع أنه مصدر الغنى للشعوب الشمالية التي فوق خط العرض ٣٠، فلولا ما يستورده الشمال من الجنوب من الطاقة والغذاء.. لما كانت صناعة في الشمال، ولما كان هذا الترف.

إن هذا التحديد الاقتصادي برقعة للسلوك الإنساني، فشعوب الشمال المتقدمة هي التي وضعت الإنسانية من زمن غير بعيد، وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية في موضع الخوف والهلاك. من هنا ـ وبالأسلوب الذي تسير عليه شعوب الشمال التي تعلن اختلافها المذهبي كمادة لتخويف شعوب الجنوب، وإلا فشعوب الشمال وإن لم تكن في أمن من الخوف فإن لديها المناعة من التخويف.. لأنها تعقل كيف تصون الأمن بينها ـ لهذا أريد أن أقلب الجغرافية الاقتصادية شمالاً وجنوباً إلى جغرفة تحدد أسلوب صانعي الشر والحرب والتخويف.. أجمع كل الشمال في حد واحد، وهو أنه تحده من الغرب: شمال الأورال، إلى ساحل المحيط الهادي غرب الولايات المتحدة وكندا، ويحد من الشرق: أيضاً من جبال الأورال إلى ساحل المحيط الهادي غرب الولايات المتحدة.. فهذا التحديد لا يخرج الاتحاد السوفيتي من هذه الازدواجية التي تنال من شعوب الجنوب وتفترس كل ثرواته كل ثرواته، وتستغل كل ثرواته، ثم هي لا تعطيه العوض.. تأخذ المادة الخام، وحين تدفع القيمة للمادة الخام تسترجع قيمة لما تبيعه من السلاح!

* * *

ولدينا نحن العرب ازدواجية ـ آسيويون وأفريقيون ـ تحكم الحد بينهما قناة السويس، كأنما العرب شرق السويس نظير للعرب غرب السويس، فتارة يكون هذا الوضع صانع حب.. جامع تراث، تمتد به العنعنات

الحماسية، وحين يشتد الأمر وتضيق الأنفاس يبتعد النظير عن النظير، ليكون هذا الابتعاد أكثر شراً من التضاد.. كما هي الحال الآن!

فالحريق بدأ يشتعل شرق السويس، والغرق بدأ المتعة لمن هم غرب السويس! أفليست السلامة متعة؟!

وأكثر ما يتمتع به غرب السويس الآن هذه المهادنة بين شعوبه.. صنعها حكامه، فهل هي عن المهادنة.. جاءت من سأم الخلاف برجوع الأخ إلى أخيه، أم هي فرض التناظر يستريحون حيناً حتى يروا ما يحل شرق السويس، أم هو سلطان فرض استقطابه على الذين تبرعوا بطرح المهادنة؟!

فالتربص بالتناظر، والخضوع لانتظار الطوارئ، والاستماتة في متعة السلامة، وفرض الاستقطاب.. كل ذلك لا يتعدى أن يكون غرقاً، كأنما هو الازدواج بين الحريق والغريق.

ولكن.. من المستفيد من هذا الحريق، ومن ذلك الغريق؟. هل هي إسرائيل وحدها في المشرق، أم هما الإمبراطوريتان يستعجل كل منهما أن تذبح البقرة في المشرق لتسلخ البقرة بعد في المغرب؟

إن إسرائيل ليست وحدها التي تستفيد، بل هما إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكرملين، فالأولى تزعم أن لها أصدقاء فتأتي إسرائيل بكل ما تفعل من التدمير والطغيان تدمر هذا الزعم لتبقى الولايات المتحدة بلا أصدقاء، كأنما إسرائيل ـ أرادت أو لم ترد أو أنها قصدت أو لم تقصد ـ أن تعطي إمبراطورية الكرملين ما تريد، وأن تحرم الولايات المتحدة ما أرادت، فأشعلت الحريق، فإذا الولايات المتحدة لا تصنع شيئاً تصون به مصالحها أو حتى تبقي على أصدقائها.. ذلك أنهم قالوا حين تساءلوا عن

من أدخل الاتحاد السوفيتي إلى مناطق نفوذه في الأرض العربية شرق السويس وغرب السويس. مع أنه ينبغي على عقول أمريكية أن تسأل نفسها: أليس الاتحاد السوفيتي أصبح داخل الولايات المتحدة بهؤلاء اليهود الصهيونيين؟!

فلئن كانت إسرائيل عطاء للاتحاد السوفياتي، فإن ذلك ما فرضه اليهود على الإدارة الأمريكية.

إن نفوذ الاتحاد السوفياتي قد لبسه اليهود في داخل الولايات المتحدة، فعقدة فيتنام، والخوف وطلب الأمن.. كل ذلك قد أرجف بالشعب الأمريكي كما أرجف الإدارة الأمريكية، وكل ذلك أيضاً عطاء للاتحاد السوفياتي من داخل الولايات المتحدة.

إن الحريق شرق السويس لن يحرق هذه الأرض وحدها، وإنما نيران هذا الحريق ستأكل ـ أول ما تأكل ـ الصناعة في الغرب، وإنتاج الغرب، والبقية الباقية من نفوذ الغرب.

أفلا يوجد عقل أمريكي يبصر شعبه يرفض هذه الاستكانة لما يصنعه اليهود داخل الولايات المتحدة؟!

أحسب أن الأزمة كلما اشتدت سيجد الغرب القوة التي يبصر بها الولايات المتحدة.. لا لينقذ الأرض العربية، وإنما لينقذ نفسه وصناعته، ثم الولايات المتحدة من سلطان اليهود!!

وقالها طليحة.. فصدقها خالد

أو تظنون بي الظنون.. تحسبونني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم؟!

هذه الكلمة قالها طليحة الأسدي.. أسلم ثم ارتد وادعى النبوة، فإذا الهداية بعد أن هزم تقوده بسلسلة إلى الجنة.. فارساً في القادسية، لا يقطع سعد أمراً دون مشورته، ثم يسير إلى فتح الفتوح «نهاوند» يسبر الطريق تحت قيادة ابن عمه النعمان بن مقرن كلاهما من عالية نجد أعتلت بهما العالية، وحين ظنوا به الظنون لأنه تغيب طويلاً أن يأتي بخبر الطريق فحين عاد رائد القوم، وسمع بهذه الظنون قال: «أوتحسبون أنني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم»؟!

هكذا قالها الفارس كأنما هو، وبالفتح العظيم قد مزق ملك «جمشيت» و«أنوشروان» ليلتئم ملك الإسلام في إيران، لتحظى حضارة الإسلام بالرجال الذين تناولوا العلم الملقب بالثريا فما أشد ما أنكر عرب الجاهلية سلطان فارس وما أشد حب العرب في الإسلام للمسلم في فارس ولكن ومن المحزن أن نقول لكن.. إلا أن الواقع يأبى علينا أن نستكين لظلم رجال في فارس «إيران» فهم فوق أن ظلموا أنفسهم بالحب انقلب إلى بغضاء لم تعد أن توقد النار الوثنية، وإنما عادت نار الحقد على العرب الذين حملوا

إلى إيران الإسلام. فلئن كانت هدية فارس ابن سينا والفارابي وأبو حنيفة وابن المقفع والجاحظ وأبو نواس ومهيار فإنما الصحيح هو أن هداية الإسلام وسلطان اللغة العربية، وانفتاح الوجدان المسلم، إشراقة العقل بكل ذلك ما كان كله إلا هدية العرب لفارس.

ـ حين أستعرض ذلك فاخراً غير ناكر، شاكراً غير كافر فإني حين ذلك أصرح «واشقوة الإسلام ببعض من يدعيه» أتحبون أسرة عربية وتصبون البغضاء على كل العرب؟ ليس ذلك من التشيع في شيء وإنما هو الشعوبية بكل شيء.

ـ إن البحرين جارة كلها سلم لكم، كما كانت كلها سبيل الإسلام إليكم، أفتتآمرون عليها؟! تسخرون أغيلمة صعاليك، كأنما صداقتكم مع أبناء السبي «اليهود» هذه التي أقول ما طرأت جديدة؟ فالإمبراطور كان صديق يهود اختفت في حومة الثورة وذر قرنها في حمأة الثأر.

ـ هل تعلمتم من أبناء السبي، أو من إليهم أو من هم معكم من الذين قد بلغوا من الحطة التي تبرأ منها طليحة الأسدي؟!

ـ وكشفت دولة البحرين جريمة التآمر، فإذا الملك خالد بن عبد العزيز يمسك بعمق التاريخ وحمية العربي ونصرة المسلم لأخيه، فإذا هو يقول ليفعل ما قال «أنا لست أقل من طليحة» فلن أترك قومي العرب لهؤلاء الأعاجم وإذا أخوه الأمير فهد ولي عهده يصافح النجدة كأنما هما طليحة الأسدي والنعمان بن مقرن، وإذا هما يكلفان وزير الداخلية أخاهما نايف بن عبد العزيز، يصل إلى البحرين، يقول «إن كل الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، جيشاً وحرساً شيباً وشبانا، قوة وثروة كلها معدة تدافع عن نفسها لأن البحرين هي نفسها لأن كل الخليج هو ذاتها».

ـ ولم ينفع تكذيب إيران، فمقترف الجريمة لا يترفع عن الكذب.

ـ إن الملك خالد بن عبد العزيز قد وطن نفسه أن يكون معتزاً بشرف المسؤولية، وتكليف الحماية، والحفاظ على الذات أن يكون المصدق لكلمة طليحة، لا يترك قومه العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم.. كأن الأسياف المسلطة استعرضت بها شماريخ اليمامة قد ابيضت تبرق على شماريخ السراة وحزون تهامة.

يقول شاعرهم:

إن تتهمي فتهامة وطني أو تنجدي يكن الهوى نجد

ـ فصون الوحدة للكيان الكبير هي في تمام الاتحاد مع كل شعوب الكيان الأكبر.. كيان العرب جميعاً.

ومع الرئيس فرانسوا ميتران

أيها الرئيس، إن أول بلد تزوره في العالم العربي «المملكة العربية السعودية» تلك قيمة نرحب بها.. وإن جاءت وفاء تحيي بها أول رئيس دولة عربية زار فرنسا وهو الملك خالد.

فالترحيب بك كان في تلك الخطوات الكريمة التي قابلت فيها الملك خالد بن عبد العزيز.

إن زيارة الملك خالد تحمل التحية مرتين: مرة حيا بها الشعب الفرنسي.. يسقط بها الأراجيف التي أحاطت.. تزرع الشكوك في موقف جديد تنهجه فرنسا.. تغير موقفها من العالم العربي.

والمرة الثانية هي التحية لك انتحرت بها كل الأراجيف حولك كأنما

الملك خالد وكأنما ولي عهده سمو الأمير فهد قد أعلنا للدنيا كلها أن موقف فرنسا لم يتغير.. بل وفي ظلال هاتين الزيارتين التأكيد على أن مواقف فرنسا مع العالم العربي لن تتغير.

وها أنت تعطي هذا التأكيد حقه من الصدق.. تنمو به الصداقة، فالشعب العربي السعودي.. بل والشعوب العربية لا تطلب من أصدقائها الانحياز إليها ضد إسرائيل، وإنما تطلب من الأصدقاء جميعاً ومنك بالذات أن تنحازوا إلى مصالح شعوبكم.. تسقطون عواطف «جيمولية» التي خاض بها حرباً ضد العرب حليفاً لإسرائيل.. وتتسع صدوركم لما اتسعت به الكلمة كتبها «ليون بلو» حيث التفت إلى الشرق يوم اغتالوا غاندي فكتب الرثاء كلمة مجنحة «اليوم انتحرت الأرض» لفتة من زعيم اشتراكي احتفظ بها الشرق علامة على أن التوأم على التوأم. وها أنت مثل «ليون بلو» بل وأكثر إيجابية منه تلوي عنق كلمة شاعر الإمبراطورية البريطانية «كيبلانك» الشرق شرق.. والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان فأنت اليوم تلتفت إلى الشرق مرة أخرى تزور المملكة العربية السعودية مشرق النور للإنسانية.. فباريس مدينة النور تنورت حين كانت الواسطة تأخذ عمر «البرنات» الحضارة الوسيط.. حضارة العرب المسلمة.. المسلمة.. فنحن العرب الأمة الوسيط، توسطنا ونحن وسط الأرض.. إن أعطي الإنسانية ما أخذناه من حضارة الصين.. سكراً بلورناه.. فقد كان في الصين مازال سائلاً وقرطاساً كتبنا عليه الحضارة.. وتوسطنا الأرض فأخذنا حضارة الهند، فالرقم الحسابي اليوم هندياً استعرب كما أنكم عبر الأندلس أخذتم الرقم الحسابي العربي عربياً تغرب.. وتوسطنا الأرض فأعطيناكم حضارة الإغريق والرومان.. فالفلسفة والقانون عطاؤنا لكم.. فلو لم نكن أمة الوسيط لما كنتم الأمة الواسطة. تلك علاقة التاريخ في أعماق التاريخ.

أيها الرئيس!!

حين أسقطت المخافة من أول لحظة اقتعدت فيها عرش الجمهورية أعطيت الطمأنينة ليس للعرب وحدهم وإنما لحلفائك وشركائك في الغرب كله وحتى الولايات المتحدة، فقد كان ظنهم أن الاشتراكين ينحازون إلى الشيوعية مع أن الصدق مع التاريخ يثبت أنكم كحزب اشتراكي ومعكم حزب العمال ومعكم الرأسان في الاشتراكية الدولية كرايسكي وبرانت لم تقدموا المذهب على الوطن.. فعندكم أنتم الاشتراكيين الاشتراكية في خدمة الوطن على العكس من الشيوعية تلغي الوطنية والقومية للإغراء بالشيوعية.

من هنا.. كنتم أشد قوة تحجزون اليسار الماركسي من أن يستغول في غرب أوروبا.. بهذا كله لم نجد غضاضة في أن نكون أصدقاء.. والصداقة التي نريدها ليست عاطفة.. شاعرة.. وإنما هي عقل يتحرك لحماية الشعوب.. شعوبنا وشعوبكم.. من الفوضى والطغيان والعدوان وتسخير الإنسان آلة تحرق عواطفه وينتحر عقله.

أيها الرئيس!!

لا بد من أنك اطلعت على المبادئ الثمانية التي أذاعها على الدنيا كلها صديقاً وخصيماً صاحب حق أو حليف عدوان أن هذه المبادئ قد وضعت إطار كامب ديفيد في وضعه المتأزم الذي لا ينفرج إلا بأن تمارس أنت وأصدقاؤك.. تقول للولايات المتحدة إن إطار كامب ديفيد ولعبة الحكم الذاتي ينبغي أن لا تكون سرمدية السياسة الأمريكية، فسمو الأمير فهد قد وضع البديل.. تلك إيجابية من سموه وخسارة أن تقابل بالسلبية من الولايات المتحدة الأمريكية التي تزعم أنها تريد السلام وجريمة أن ترفض

هذه المبادئ ترسيخاً لرغبة الاتحاد السوفيتي الذي لا يريد إلا أن يكون الوضع في الشرق الأوسط على حاله.. لا سلم ولا حرب.. سلاح مكدس ويد معطلة.

أيها الرئيس!!

إن العرب اليوم وفي مقدمتهم المملكة العربية السعودية قد ملكوا الرشد حين يلتفتون إلى التعامل مع الأصدقاء ولا يلتفتون إلى ما تقدم من هؤلاء الأصدقاء من الاستعمار وما إليهم..

إن فرنسا كان ماضي العرب معها أنهم حاقدون عليها لأنها استعمرت الشمال الإفريقي والشام وتآمرت بتحقيق وعد بلفور حين انساقت وراء نقض العهود بمعاهدة «سايكس بيكو» كل ذلك كان في وجدان العرب من قبل.. أزاحوه الآن جانباً كما أزحتم أنتم أحقادكم على البريطانيين الذين هزموا لويس الخامس عشر وسجنوا نابليون في الجزيرة النائية غرب أفريقيا في ظلمات الأطلسي وحين حرضوا على حرق «جان دارك» تناسيتم ذلك فكنتم أصدقاء السلام في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

وتناسيتم أيضاً أحقادكم على الألمان التي زرعتها حرب السبعين وهزيمة الحرب الأولى والثانية فإذا فرنسا وألمانيا مركز الثقل في السياسة الأوروبية.. كذلك نحن نتناسى لأن تعمير الحاضر وصنع السلام ورد الطغيان بناء للمستقبل.. وأنتم كنتم أول الصديق لشعب الولايات المتحدة.. ولعلّ الولايات الآن تثوب إلى رشدها فلا تكون أول دولة أوروبية تتناسى الصداقة وتحاذر من الخصومة.

أيها الرئيس!!

إن المملكة العربية السعودية لم تبخل بصداقتها لكم في أيام المحنة.. وهي ترحب بصداقتكم الآن..

ولك التحية أخيراً.

صـور:

ـ وكثير منا لم يعرف أن أول قنصل لفرنسا أيام الدولة العثمانية بجدة كان الضابط الصغير فأصبح الجنرال الكبير «كاترو».

ـ ومن الصور الطريفة ما ترجمه أديب إسحق عن نابليون بونابرت قال أديب إسحق:

قالوا لنابليون ذات عشية:

إذا كان يرقب في السماء الأنجم

هل بعد حكم الأرض من أمنية

قال أرقب كيف أفتتح السماء

وترجم أديب اسحق كلمة نابليون (فتش عن المرأة)

فقال:

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها من النساء تأتت

ـ وتحدث النمر كلمنصو قال:

كنت في حديقة أستروح ومررت بجانب سيدة ومعها ابنتها سألت الابنة أمها تشير إلي: من هذا؟ فقالت الأم: هذا النمر كلمنصو منقذ فرنسا.

فقالت الابنة: مثل جان دارك فقالت الأم.. نعم.. فإذا البنت تقول لماذا لم يحرقوه؟ يعلق كلمنصور بعد ذلك فيقول.. وهأنذا أنتظر الإحراق.

ـ وكان نابليون يراقب الصحيفة وأخبارها فجاءه المحرر يطلعه على خبر فإذا فيه لقد انتصر الإمبراطور على أعدائه بشرذمة من الجنود فصرخ الإمبراطور احذف هذا الإمبراطور لا يحتاج إلى مجد. أكتب لقد هزم الإمبراطور أعداءه بجيش جرار لا قبل به.. ذلك أن الإمبراطور يحتاج إلى الهيبة فالمجد لبسه.

من شاعر الربابة إلى الإذاعة

هكذا العربي.. لم تتغير حماسته نحو الأبطال، ولا يعني أن يكون البطل من صناع تاريخه، فقد أصبح «البطل» في مشاعر العربي اليوم هو هادم تاريخه!

أيام شاعر الربابة.. كانت الحماسة تغمر مشاعر العربي لأبطال الملاحم في تاريخنا.

شاعر الربابة هو المخرج، والممثل، أما المسرح فهو المقهى.. بفلوس قليلة يدخل العربي إلى المسرح، فريق مع أبي زيد الهلالي، والآخرون مع ذياب بن غانم، وفريق مع «خليفة الزناتي».. حتى يصبح فريق مع «خليفة الزناتي».. حتى يصبح المسرح حلبة صراع بين زغابة، وزناته وهلال!

ولعلّ في تمثيلية أخرى عن «عنترة»، أو «ذات الهمة»، أو غيرهما تتوزع الحماسة كما توزعت في ملحمة بني هلال.

* * *

كان ذلك حياة في وجدان العرب، ولكن شاعر الربابة قد انتهى،

وكاتب القصة اليوم ليس عربياً.. يكتبها كل برلمان في الديمقراطيات أيام الانتخابات. كل العالم العربي اليوم يسمر أذنه على المذياع.. بعضهم يريد أن يبقى «بيجن» ومنهم: ياسر عرفات. وبعضهم يريد «بيريز»، كما كان العرب من قبل.. أي الحرب العامة الأولى: منهم من أنصار حزب المحافظين، وفريق يعلن آماله في حل القضية على حزب العمال، كما هو الشأن في فرنسا: الراديكاليون، اليساريون.. إلى الديجوليين، والاشتراكيين، فحين نجح حزب العمال برئاسة «رمساي مكدونالد» في العشرينات.. فرح كثير من الزعماء العرب لأن تغييراً في السياسة البريطانية سيحدث، وتفاءل الذين تستعمرهم فرنسا بأن أي خطوة إيجابية من حزب العمال ستتبعها خطوة إيجابية من فرنسا.. حتى إن سعد زغلول يرحمه الله، كان لديه هذا التفاؤل بحزب العمال، فذهب يفاوض.. حتى إذا عاد قال: (خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز)!.. وخصوم سعد يتهمونه بأنه لم يخسر صداقة الإنجليز في يوم ما!

هكذا العرب.. مع شاعر الربابة كانوا يفتشون عن بطلهم، أما الآن فينتظرون بأسلوب التفاؤل، أو على طريقة (القعدية) من الخوارج أن يأتيهم الإنصاف والعدل من إحدى الإمبراطوريتين!.

* * *

والكلمة قالها فعالها

وتحدث صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز فإذا حديثه موجه إلى الدنيا كلها.. كأنما هو قد قال لجميع الأطراف معتدياً ومعتدى عليه للعدو ومتربصاً بعدوان وعميلاً يركب كاهله المعتدون فكل هذه الأطراف غربية وشرقية عربية ويهودية أسمعها بكلمته ما يعنيه تحرك المملكة

العربية السعودية تصنع به سلاماً وترد به عدواناً كأنما التصدي فيها هو مقابلة للتحدي.

إن حديث الأمير فهد قد جاء في حينه حين تحركت الكلمات على بعض الأفواه تطري موقف المملكة العربية السعودية والذي وقفته متصدية لعدوان إسرائيل على بيروت على العمارات والأمهات والأطفال ورغيف العيش والشجرة والحانوت عربدة عن غطرسة تتظاهر بها إسرائيل تستعرض عضلات القوة التي لم يصنعها يهودي وإنما أمدها بذلك أمريكي يمارس ازدواج الصداقة فهو صديق لليهود حين يمد إسرائيل بكل القوة الطاغية ويضع صداقة العرب على الهامش حتى تم للاتحاد السوفياتي أن يضع أقدامه وأسطوله تحيط بالمصالح الأمريكية وتحط من قدر الغرب كله فالموقف السعودي قد أعطى تحركاً للسلام يتقدم به، فرغم أنف إسرائيل قد اعترفت ضمناً بمنظمة التحرير تبادلتا إطلاق النار ثم أطاع كل منهما النصيحة في وقف إطلاق النار.

إن المملكة العربية السعودية لا تتوارى خلف البرقع ولا تتستر، فهي تعلن صداقتها للولايات المتحدة صابرة تتصبر لعلّ عقلاً أمريكياً في وزن عقلية مورغانتو وهنري فورد وفورت برايت، يعرف مساوئ اليهود يقول كما قال أولئك ما لكم ولهؤلاء المهجرين من الشرق.

إن المملكة العربية السعودية حين تصبر على مضض نحو هذه الصداقة فهي تطبق المثل العربي (صديقك من صدقك، لا من صدقك) ويعني ذلك أنها تقبل على الصديق إن أحسن وترفض أي عمل يشين موقفها من هذه الصداقة، أما إسرائيل ـ بل ـ وكل اليهود فإنهم ينحرفون عن هذا المثل فهم لا يصدقون مع الصديق ولا يصادقون فإنهم كما تقول العامة «كل يوم

يريدون معروفاً جديداً» حتى إنهم قد أسقطوا هيبة الولايات المتحدة.

ومرة أخرى فإن المملكة العربية السعودية طبقت المثل العربي في تعريف الصداقة والصديق فإنها تسير مع المثل الإفرنسي (صادق صديق صديقك ولا تعادِ عدوه فهذا من شأن كلبه وخادمه)، فالمملكة العربية السعودية ليست تابعاً ولا مستقطباً فهي تصادق الولايات المتحدة ولن تعادي أعداءها.

أما إسرائيل، أما اليهود فقد عكسوا مسيرتهم نحو هذا المثل الإفرنسي فهم لا يصادقون صديق الولايات المتحدة مع أنهم يدّعون أنهم أصدقاؤها وهم لا يعادون أعداءها، فلو برز عقل أمريكي كعقلية الجنرال ايزنهاور لقال لشعبه.. إن هؤلاء الإسرائيليين يطغون بسلاحكم فهم أصدقاء بهذا العدوان للاتحاد السوفياتي لأن كل طغيان من إسرائيل على العراق أو على لبنان أو كل عدوان سبق هو الذي مهد للاتحاد السوفياتي أن ينغص العيش على المائدة في البيت الأبيض.

إن سمو الأمير فهد لم يكن إلا رائداً لم يكذب قومه فهو حين أعلن المبادئ الثمانية وضع مجلس الأمن وهيئة الأمم والجامعة العربية والسوق المشتركة ومنظمة التحرير أمام الوضوح يتضح به الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الجميع إيجاب لا يتخفى وراء كامب ديفيد وإيجاب لا يخشى أي إمبراطورية ما زالت تستفيد من هذا الحريق شرق السويس كأنما هذه المبادئ الثمانية منطلق ثوري ينبغي على العرب ـ وهم كل الثائرين ـ وعلى الغرب وهم كل الموتورين أن يعلنوا بصراحة ترحيبهم بهذه المبادئ، فأي تحفظ عليها من أي جهة لم يكن إلا عطاءً سخياً لإسرائيل ومعذرة تطير بجناحين إلى البيت الأبيض.

إن إطار كامب ديفيد لم يكن مطلباً عربياً وإنما كان إملاءً أمريكياً من إملاء يهودي، فالحكم الذاتي ترسيخ للاستعمار اليهودي، فكل يوم تخرج إسرائيل على الدنيا ومداد توقيع مناحيم بيجن لم يجف على ما جاء في إطار كامب ديفيد قد أعلن ضم القدس العربية المسلمة، وهو اليوم ينقل الوزارات إلى القدس ويزرع المستعمرات، فقد استحال إطار كامب ديفيد طريقاً ممهداً لعربدة إسرائيل، أما سلامة مصر فلم تكن إلا سلامة لإسرائيل، فلقد جربت إسرائيل شن الحرب على مصر واحتلت سيناء مرتين فأجلاها في المرة الأولى الجنرال الكبير ايزنهاور وأجلاها في المرة الثانية النصر في العبور.

* * *

وقال أحدهم: لقد وفقت المملكة العربية السعودية في وقف إطلاق النار فلماذا لم يعلن ذلك في وقته؟ فكان الجواب هو ما قاله يوماً ما رئيس وزراء حينذاك الدكتور عبد العزيز حجازي: ليتنا نمارس وقار الصمت كما تمارسه المملكة العربية السعودية، فلو لم تعلن بعض الألسنة هذا الموقف في واشنطن لما أعلنته المملكة العربية السعودية لأنها فيما تصنع من مناصرة إخوانها لا تبيح لنفسها الفخار بما صنعت، فأي كلمة فاخرة ينطقها بلسان ناصر أخاه إنما تحمل التجريح لهذا الموقف وإن لم يتأذ من ناصره، فالفخار بذلك منّ واستعلاء وابن عبد العزيز لا يحب أن يحمد بما لم يفعل ولا يفخر بما فعل، وقد وجدت أن إعلان ذلك ضرورة لتوضح بعض التأويلات التي قد تفهم من خلفيات الأغلال في العاصمة الأمريكية فحين أعلن الأمير فهد ذلك أوضح موقفه وموقف الولايات المتحدة التي استجابت لنصح الصديق لصديقه، كما أوضح أن منظمة التحرير وقد استجابت لنصحه قد أعلنت للدنيا كلها أنها تتصرف كحكومة مسؤولة وكثورة عاقلة وكجهاد مقدس.

ولست أتهم أن إعلان هذا الموقف قبل أن تعلنه المملكة وقبل أن يضع الأمير فهد النقاط على الحروف أن ذلك تملّقٌ للولايات المتحدة بإطراء الصداقة السعودية أو أنه المجاراة للسعودية.. وفي يقيني أنها حملة مصطنعة على الولايات المتحدة، فمن خلفيات هذا الإعلان أن من أعلنه يقول للولايات المتحدة لولا إطار كامب ديفيد لكنت الحري السباق قبل السعودية في أن أسعى لوقف إطلاق النار.. لكن إطار كامب ديفيد قد حرمني ذلك كأنما هو العتاب للرئيس ريجان، أو المن أو ما إلى ذلك.

فالدعوة الملحة هو أن تسير الأمة العربية تحتضن هذه المبادئ تطلب السلام على أساسها وتخوض الحرب لتأسيسها.. فإذا ما أنصف العرب أنفسهم وتوحدوا في هذا الموقف تجد السوق الأوروبية المشتركة متنفساً من ضيق كامب ديفيد وتجد الولايات المتحدة وسيلة بها تضغط على إسرائيل ويجد الاتحاد السوفياتي أن من الإبقاء على نفوذه أن يكون مع هذه المبادئ ليصدق مع منظمة التحرير ومع أصدقائه.

وحين ذكرت إيزنهاور فإني أعجب من الجنرال ألكسندر هيج.. ألا يكون على مستوى إيزنهاور.

مبادرة أَمْ.. مناورة؟

بعد خطوة أو خطوتين من احتلال الاتحاد السوفياتي للأفغان، وإبان بوادر الوضع المتأزم في إيران، وما يذاع عن ما هو متوقع للخليج.. سواء عن مطامع الاتحاد السوفيتي، أو ما يذاع عن موقف دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة من العزم على توزيع القوة سريعة الانتشار للدفاع عن الخليج، فأمام هذا الواقع، أو هو من إيحاءاته.. دعا الاتحاد السوفياتي، وبلسان الرئيس بريجنيف وحين زيارته للهند، إلى عقد مؤتمر لمناقشة

القضية الفلسطينية تحضره جميع الأطراف المعنية، ومن بينهم: منظمة التحرير!

فهل هذه الدعوة من الرئيس بريجنيف مبادرة تتعانق مع تصديق الواقع لها، أو تستجيب لها الأطراف المعنية، بما فيها منظمة التحرير.. بما فيه إسرائيل، أم هي مناورة كعامل مخدر تتصرف به العواطف، أو تتحول به منابر «هايد بارك» العالمية عما صنع الاتحاد السوفياتي في الأفغان؟! فأغلب الظن أنها ليست مبادرة، فلا الواقع يؤيدها.. لأنها ليست في قوة مؤتمر جنيف الذي أزمن مرضه، إذا كانت به بقية من حياة، أو الذي أصبح في الهالكين.

ولعلّي أطرح سؤالاً أنتزعه من واقع الأطراف المعنية: فهل كل الأطراف عرباً وإسرائيليين، وكذلك الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.. مجمعون على أن يكون هذا المؤتمر؟!

أكاد أشك في أن هناك إجماعاً، بل إن اليقين يعطي المعلق أن يقول كلمة يحدد فيها أن هذا المؤتمر مناورة لا مبادرة، فهو لن يعقد، وما استجابت له كل الأطراف. صمت مطبق من أقاليم صديقة الاتحاد السوفيتي، ومن منظمة التحرير، ومن إسرائيل والولايات المتحدة.

غير أن بعض هؤلاء الأطراف، وقد زار كل منهم موسكو، أذاعوا التحييد لعقد مثل هذا المؤتمر في بيان مشترك أذيع من موسكو، ولكن طرفاً آخر قد زار موسكو بعد هؤلاء ولم نسمع أنه شارك في تحبيذ هذه الدعوة لعقد المؤتمر.. ذلكم هو الرئيس الشاذلي بن جديد، فبعد أن أذيع ما وافق عليه المحبذون، وتلاهم في الزيارة: الشاذلي بن جديد، فلم يكن مع أولئك المحبذين.

فهل هذا الصمت من الأقاليم الصديقة للاتحاد السوفياتي ومنظمة التحرير.. وضع قد خطط له لجس النبض؟ فإذا ما كان هناك إجماع للترحيب به كانوا مع المرحبين، وإن لم يكن أصبحوا من غير المتورطين!

ولعلّ صمت الشاذلي بن جديد يحتمل أن يكون رفضاً منه، أو أن يكون إشارة لتحديد موقفه مع الذين لم يرحبوا به.. بينما هم في موقف واحد معه.

* * *

إن هذا المؤتمر مستحيل أن يعقد، فأول ما يتطلب له أن يتم التفاهم على من يكون حاضراً فيه، فلا إسرائيل ستحضره إذا ما حضرته منظمة التحرير، ولا منظمة التحرير ستحضره إذا ما حضرته إسرائيل.. بينما هذا المؤتمر هو لمناقشة الوضع بين إسرائيل والعرب عامة، وبين إسرائيل ومنظمة التحرير خاصة.. فأصبحت الدعوة لهذا المؤتمر غير ذات موضوع، لأن طرفي الخصام والحرب والنزاع لن يكونا على مائدة واحدة، وإنما الدعوة إليه هي استهلاك ليس محلياً في الاتحاد السوفياتي، وإنما هو «حلولي» في العالم العربي.. يتلقى هذه التصريحات، كأنما هي تعبير عن ردود الفعل منه، فالبعض حين قبلها.. قبل رد الفعل، والذين صمتوا، أو الذين يرفضون تأخروا عن الفعل.. فالفعل مع هذا المؤتمر أو ضده ينبغي أن يكون إجماعياً إذا كان العرب أمة واحدة، وإذا كانت القضية قضية أمة واحدة!

* * *

وقالها سعد للقصاب والشهبندر

وقرأت التعليق المهذب.. كتبه صديقنا الأستاذ «أكرم زعيتر» في مقاله

الأسبوعي الذي نشر يوم الجمعة ٢١ ـ أغسطس ـ يوم حريق المقدس.

وقد أتحفني بثناء أحمده له، وإن بطّنه بنقد لا أتحرج منه، بل إن حمدي له أكبر من ثنائه عليّ.. لأنه فتح الباب على مصراعيه.. أدخل منه لتأكيد هذه الكلمة التي قالها سعد زغلول، فترة معينة من تاريخ مصر.. أيام جهادنا ضد الاستعمار الإنجليزي، وهي ـ ومن تاريخ مصر ـ لم تكن ولن تكون كلمة تنغلق بها مصر على نفسها، معزولة عن الأمة العربية.

إن «سعد» لم يقل هذه الكلمة عفواً، أو إحماضة يتفكه بها مع عبد الرحمن باشا عزام، فأنا لم أسمعها من «عزام باشا» وقد تشرفت بلقائه كثيراً في الطائف وجدة، وعلمت منه الكثير، ولكني لم أسمع هذه الكلمة منه، ولم يكن فيما تحدثت به إليه، أو بما حدثني به يرحمه الله داعٍ لبحث هذه الكلمة ـ قالها سعد ـ

وحين ذكرت ذلك.. أنسبه لسعد زغلول ـ يرحمه الله ـ صفر زائد صفر يساوي صفراً، ويعني بها جاداً لا مازحاً: إن مصر في ذلك الوقت كانت صفراً.. جردها الاستعمار من قوة، وأن العرب أصبحوا صفراً. هذا ما يعنيه سعد، ولكن.. ممن سمعتها، وهو.. لمن قالها؟!

ففي شهر رجب من عام ١٣٤٦هـ وصل إلى المدينة المنورة الزعيم السوري الشيخ «كامل القصاب»، ومعه صديقه: مراد بك الاختيار، فكامل القصاب كان يومها مديراً للمعارف في المملكة العربية السعودية.. وصل إلى المدينة يتفقد مدرستها، ومراد الاختيار ضابط مدفعية سوري معروف. وفي بيت الشيخ «عبد القادر شلبي» الطرابلسي اللبناني.. كنا جلوساً نسمع القصاب يتكلم، وسوريا في تلك الأيام مشغولة (بالقضية!) فقال:

ـ ذهبت أنا والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فاستقبلنا سعد زغلول،

وتحدثنا إليه، نعرض عليه أنه ينبغي لثورة ١٩ أن لا تخبو، فلا تموت بالمفاوضات، ولدينا المدد لك من السلاح تمسك به الثورة المصرية، فرد علينا سعد بكل الصراحة والصرامة: لا نريدها ثورة مسلحة.. إن ما تعرضونه لن يفعل شيئاً، فصفر زائد صفر يساوي صفراً!!

ولعلّ هذه الرواية عن القصاب قد رواها الشهبندر لأعضاء حزبه، فلا أستبعد أن كثيراً من تلامذة القصاب والشهبندر يزكون شهادتي هذه!

أما العفوية التي تقول عنها، فسعد أبعد ما يكون عنه، فالزعامة تسترخص حين توصف بهذه العفوية.

أما مزاحه مع «أبي عوف» عبد الرحمن عزام، فلم يقصد بها المزاح، وإن جاءت في قالب المزاح.. بل لا أحسبني إلا أني على اليقين من أن عبد الرحمن عزام ـ العربي صليبه.. صاحب العزوة، هو و «حمد باشا الباسل» العربي صليبه، قد ألحا على سعد أن لا يقول هذه الكلمة!!.. فأصبح وهو في شموخ زعامته، يرفه عن هذين العربيين بهذه الصورة التي رويت عن عزام باشا.

وبعيد أن أصدق أن «عزام باشا» لم يسمع العتب من صديقه عبد الرحمن الشهبندر، ولكنه حين رواها ـ كما ذكر الأستاذ أكرم ـ أحب أن يثبت عروبة مصر، كما كان ذلك حبه وهواه وعمله وجهاده.. فأنكر على سعد إنكارها.. يخفف من وقعها على أهل الشام!

إن التاريخ أكبر الفجائع فيه أننا أغرقناه بالثناء وبالمعاذير، حتى أصبح من يرتكب الجريمة والخطأ يرضى لنفسه ذلك، لأنه سيجد من يسترضيه من المؤرخين!!

إن «سعد زغلول» أقول فيه الكلمة التي قالها «ابن تيمية» شيخ الإسلام، وهو ينتقد ابن حزم..

ـ قال ابن تيمية: (وأبو محمد كبير عندنا، ولكن الحق أكبر منه) وكذلك أقول عن سعد ـ بقية الناس من فصحاء الكلمة، وصناع المجنحات ـ أقول: وسعد كبير عندنا، ولكن الحق والتاريخ أكبر منه!

ولعلّي لا أظلم «سعداً» حين أذكر كلمة للعقاد ـ المفتون بزعامة سعد ـ في كتابه: سعد زغلول.. أبان فيها الفرق بين زعامة العزوة والقبيلة.. زعامة الصعيد، وبين زعامة العاصمة، أو الوجه البحري كله، قال العقاد في كتابه ذاك، أروي ذلك بمعناه فإني لم أحفظ النص:

ـ قال: حين اجتمع الأربعة الزعماء في مالطا يوم نفاهم الإنجليز وهم: سعد زغلول، حمد الباسل، محمد محمود، إسماعيل صدقي، قال سعد: نفينا، فماتت الثورة في مصر، ووافقه إسماعيل صدقي على ذلك، فإذا شمـوخ العربي الصليبة زعيم الصعيد «محمد باشا محمود» يقول: «لئن لم تثر القاهرة فستثور أسيوط»!.

فإذا ـ ولد علي ـ العربي الصليبة.. يشمخ بأنفه فيقول:

ـ لئن لم تثر القاهرة، فستثور الفيوم! ذلكم «حمد الباسل».

وفعلاً، كانت الثورة في أسيوط، وكانت الثورة في الفيوم، لم ينكرها العقاد واعترف بها «فكري أباظة» في: الضاحك الباكي!

إن محمد محمود، وحمد الباسل، وعبد الرحمن عزام، بعزوة سلين، وأولاده علي، والهوارة، والأشراف، والحميدات، والحميريين في المنيا وفي الجيزة هم الأكثرون.. هم عروبة مصر!!

فالصحيح أن سعداً قالها.. يرفض العون من الدمشقيين، فالمعذرة له، ليست بقولة المزاح، وإنما كان ذلك إملاء الظروف.. حتمت على زعيم الثورة أن لا يشعر الإنجليز بتكتل العرب حوله، فذلك يسلط الإنجليز أكثر، فأحب لمصر أن تنفرد بجهادها في المفاوضات.. فالمعذرة هي في الخضوع لضغط الظروف، لا للمزاح، ولا حتى للاعتذار من عبد الرحمن عزام!!

* * *

وأريد أن أزيد على الأستاذ «أكرم زعيتر» بأن الوفد المصري لم يحفل بالعالم العربي ولا يعرف عنه شيئاً، لقد فقد هذه المعرفة حينما انفصل عنه عبد الرحمن باشا عزام، وحمد باشا الباسل.. حتى إن المؤتمر الوفدي، وقد أريد منه أن يتكلم عن العرب، لم يجدوا غير العقاد يتكلم عن ذلك، ومع احترامي لأستاذنا العقاد.. كان يعرف القومية العربية.. أما حين اشتعلت وتكوّنت الحكومات العربية، واشتعلت الثورة في سوريا وفي فلسطين، فإن العقاد لم يكن يعنى بذلك!

ولعلّي أذكر الأستاذ «أكرم» بما تحدث به أمين الحسيني ـ مفتي فلسطين ـ وما شافهني به «عز الدين الشوا» في أوتيل مكة بأجياد.. لقد ذهب أمين الحسيني، ومعه وفد من فلسطين، ومنهم عز الدين الشوا، إلى لندن يفاوضون من أجل قضية فلسطين، وكان من المصادفات أن الوفد المصري برئاسة النحاس باشا، المكوّن من الوفد ومن أعضاء الجبهة، كانوا في الوقت نفسه في لندن يفاوضون الإنجليز في مجريات (معاهدة الشرف والاستقلال ـ معاهدة ٣٦) فاجتمع النحاس باشا مع السيد أمين الحسيني، فقال له:

ـ (يا سماحة المفتي.. ما تحل المشكلة مع اليهود.. يا أخي عاملوهم كما عاملنا الأقباط) يحسب أن اليهود أقلية كالأقباط، وأنهم من أهل فلسطين، كالأقباط من أهل مصر!!

أفيدل ذلك على معرفة النحاس بقضية فلسطين، أم الأمر غير ذلك؟!

* * *

ـ وأذكر الأستاذ «أكرم» أيضاً بموقف إسماعيل صدقي رئيس الوزراء حين ذاك.. ينفذ أوامر الملك فؤاد، وبموقف الوفد المصري برئاسة النحاس ضد المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس، وحتى الأزهر بقيادة «الأحمدي الظواهري».. كلهم كانوا ضد المؤتمر الإسلامي في القدس، ولم يحضره من مصر إلا «عبد الرحمن باشا عزام» فرداً مستقلاً.. لم يسأل عن غضب السراي، وإسماعيل صدقي الذي سلط عليه «سليمان فوزي» صاحب الكشكول.. يشغب عليه وهو يخطب في المسجد الأقصى، فإذا العربي الصليبة ـ ابن عم عبد الرحمن عزام ـ مثقال باشا الفائز، شيخ بني صخر يسل سيفه يريد أن يدرك سليمان فوزي لعرقبه حماة لعزام، ولم يحضره ـ أيضاً ـ من مصر إلا «محمد علي علوبة باشا» ممثلاً للأحرار الدستوريين.

فهل بعد ذلك ـ يا صديقي أكرم ـ لا نؤكد أن «جمال عبد الناصر» هو الذي لوى عنق التاريخ، فقال لمصر: أنت عربية، مادة في الدستور!!

الجنرال فرانكو

وأخيراً مات الجنرال الرئيس فرانكو. رجل شغل الدنيا حياً وحين صارعه الموت.. شغل أوروبا في حياته.. شطرها أقساماً ثلاثة.. النازية والفاشية أعني هتلر.. وموسوليني كانوا معه.. والشيوعية أعني ستالين كانت ضده.. وبريطانيا العظمى الإمبراطورية اختارت لنفسها الحياد.. كأنها ليست دولة غير أوروبية كما هو زعمهم حين يحجبون الخير إذا ما ملكوه عن أوروبا بينما هم يدفعون الشر عنها.. اقتنت الثروات فاغتنمت فلم تشرك دولة أوروبية بما حصلت عليه وإن أعانت بالوقوف عن الحركة ضد الدول الصغيرة الأوروبية التي تشاركها الاستعمار بينما هي تحركت.. فخاضت حروباً طاحنة يتسع استعمار ألمانيا أو يتورط استعمار فرنسا..

من هنا كان موقف الحياد كأنها تمارس تنفيذ كلمة شيوخ القبائل «سلط القوم على القوم فقايدها على أهلها!!..».

فالرئيس فرانكو كان محور تاريخ ليس لأسبانيا وحدها وإنما في أوروبا وفي المغرب العربي.. والسؤال: كيف كان ذلك؟.

إن فرانكو كان ضابطاً قائداً لجيش إسباني في المغرب حارساً لاستعمار أسبانيا وفي الوقت نفسه يقوم بحراسة الاستعمار كله فكل جندي لأي دولة مستعمرة هو حارس لاستعمارها لا يحرسها لحساب دولته فحسب وإنما هو

وبموقف غير مباشر يقف حارساً لاستعمار الآخرين، فرغم التناقض على نزح الخيرات فإنهم في ردع المالكين سواء.. فلو نجح الخطابي عبد الكريم في الريف ـ يرحمه الله ـ لعانى الاستعمار الإفرنسي وما إليه تحركاً يسبق التحرك الأخير.

أما محوره ـ أعني محور الجنرال فرانكو في المغرب العربي المسلم فإنه حين زحف بجيشه.. يسحبه من هناك يدخل به أسبانيا يسقط نظاماً ويقيم نقيضاً فإنه قد أعطى المغرب فرصة التنفس فالتحرك.. فلا أدعي خطأ أن الجنرال فرانكو كان بهذا الزحف من المغرب إلى إسبانيا هو الذي أتاح للشمال الأفريقي بعض الفرص للتحرك.

وللجنرال ديجول أن ينفض يده من الاستعمار.. لا أدعي أن عمل الجنرال فرانكو كان هو السبب لصراع العقيدة والقومية العربية.

فالشيوعية لن يستقيم لها أمر في الأرض العربية ما دام محراب يتلى فيه قرآن ومنبر تعلو عليه كلمة الله أكبر ومئذنة كلها الله أكبر ومسجد يصلي فيه المكبرون..

فاليمين العقائدي عند الجنرال فرانكو والوراثة الأندلسية والمعيشة المغربية كلها أصلت فيه أن يحارب الصهيونية والاعتراف بإسرئيل وأن يكون صديقاً للعرب، فالعراقة في التاريخ لأسبانيا كما هي لأثينا.. كما هي لدلهي جعلت كل هؤلاء.. وبحكم هذه العراقة ألا تعترف بإسرائيل.

من هنا هرع العظام يعزون في وفاته وفي اللحظة نفسها يهنئون النظام العتيد ـ اليمين ـ بتتويج الملك جوان..

إن الجنرال فرانكو حبسوه نازياً فاشياً، قد يكون هذا لأنه من أهل اليمين ولكنه كان أسبانياً لم يلعب به هتلر ولا موسوليني بل هو الذي لعب

بهم لعبته في الانتصار على الشيوعية وكانت اللعبة الكبرى في موقف الحياد في الحرب العالمية الثانية مما كان له انتصار الحلفاء..

ولعلّ السياسة البريطانية قد عرفت هذا كله فحين سئل أحد دهاقنتهم: ومع من تقف أسبانيا؟ هل تكون عوناً للفاشية والنازية ضد الحلفاء؟

فقال هذا البريطاني: إن أسبانيا ستكون مع الذين لن تتلطخ أيديهم بدماء أبنائها، إنها لن تكون نازية فاشية. ولن تكون شيوعية لتكون بذلك عوناً لبريطانيا، فرمت بريطانيا برجلها وزير خارجيتها اليهودي «صموئيل هور» أنزلته من وزارة الخارجية ليعمل سفيراً في إسبانيا موظفاً في وزارة الخارجية فحرس موقف الحياد لأن فرانكو حرص على الاستمرار في موقف الحياد حتى إذا انتصروا رجع «صموئيل هور» يحمل لقب لورد بن.. كان بريطانياً ويهودياً فلم تغيره هذه الازدواجية لأن الصهيونية واليهودية في كل مكان كانت مع الحلفاء.

إن أوروبا قد لعنت الجنرال فرانكو حياً وأخذت قبل مرضه بأيام تلاعنه تسأله متى يموت قالوا إن الجنرال لا يريد أن يموت!.. ولكنه مات.. رجل تاريخ.. وعظيماً في أسبانيا.. ومحترماً لدى العرب.. حتى موقفه في الصحراء كان غير عسير ولعلّه هو صاحب التيسير فيه.

وجاء بكم من البدو

حين يصل هذا المقال إلى قرائه في صبيحة يوم السبت ـ الثاني والعشرين من أغسطس ـ تنقلب الآهات التي شعر بها العرب تعبيراً عن ألم.. سواء افتعلوه أو انفعلوا به، كانوا في يوم الجمعة قبل السبت قد طلب منهم أن يتذكروا حريق القدس، فسمعوا وقرأوا حتى إذا نفضوا غبار الذكريات رجعوا وكأن المسجد الأقصى لم يحرق! فلقد أصبحت الذكريات

المريرة في وجدان طلاب السلامة ملهاة.. وقتاً لقتل الوقت.

إن هـذه الذكـرى التي لا أصفـها ومع حال العرب معـها إلا كـما قال «الحارث بن حلزة»: أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء.

من مناد، ولا مجيب، وتصهال خيل، فخلال ذاك رغاء!

إن هذا البيت الثاني قد قلبناه هكذا لأنه التصوير الصحيح للواقع الآن!.

ومن أحرق المسجد الأقصى في يوم ٢١ أغسطس من عام سجل في التاريخ، ولم يسجل في الذاكرة؟!

الإجابة تقول: إنهم اليهود ـ بنو إسرائيل ـ ذلك عملهم المباشر حين أشعلوا النار، ولكن «أورشليم»: بيت المقدس.. المسجد الأقصى.. القبلة الأولى.. مسرى النبي والخطوة الأولى في معراجه.. قد احترق قبل هذا اليوم، فالنار التي اشتعلت تلتهم المسجد قد تكون ناراً مقدسة، لو أنها أحرقت مع أعمدة المسجد القلوب المسلمة، والوجدان العربي.. فكثير من النيران في كثير من المذاهب عليها سمة القداسة.. كالنار التي آنسها موسى على الطور.

إن الذين أحرقوا المسجد هم الذين مزقوا العالم العربي. العرب أنفسهم مزقوا أنفسهم، فأعطوا للاستعمار أن يمزقهم، وعطاؤهم اليوم للاستقطاب، فاليهود ليسوا وحدهم الذين أشعلوا النار.. الإنجليز أشعلوه بوعد بلفور، وبإسقاط الخلافة، وباستعمار مصر والعراق، وفلسطين. وفرنسا كانت المشعلة للنار حين استعمرت سوريا ولبنان، وحين أرادت أن تسرمد استعمارها للشمال الأفريقي!

كل هؤلاء أحرقوا بيت المقدس..

فهل عمل اليهود عمل حضاري، أم هو همجية بربرية؟!

إن الإجابة تحتاج إلى تفصيل دقيق في فقرات تأتي بعد:

ـ **أولاً**: إن الاستعمار ـ كل الاستعمار ـ لم يكن عملاً حضارياً ولو مارسته دولة عريقة أو حديثة في الحضارة، فغزو الشعوب بربرية كموجة «اتيلا» و «جنكيزخان» وإن برقعوها بدعوى التمدين.

ـ **ثانياً**: إن ألمانيا شعب حضاري.. خرج من همجية الجرمن إلى حضارة القرن العشرين، ولكن النازية بالدمار الذي فعلته، لم تكن في كل ما فعلت حضارية.

وإيطاليا: قد تكون أقدم عراقةً من ألمانيا في الحضارة التي ورثتها عن إمبراطورية الرومان. ولكن غزو ليبيا والحبشة واحتلال الصومال.. لم يكن كل ذلك عملاً حضارياً، فالفاشية بربرية، وكذلك القول عن الاستعمار الفرنسي، والاستعمار البريطاني، والحماقة اليابانية في حربها ضد الصين، والتحامق السوفياتي ضد العالم الآن.. كل ذلك عمل بربري بوسيلة حضارية.

ـ **ثالثاً**: من هنا.. كان الإدعاء بأن إسرائيل اليهودية تمارس غزواً حضارياً.. تدمر به حضارة الأمة العربية، وفي طليعتها حضارة مصر، كما هي كلمة جمال عبد الناصر ـ يرحمه الله ـ إن وصف إسرائيل اليهودية بالحضارة، وإنها تريد فرض حضارة الغرب.. وصف فضفاض يأخذ التاريخ على جمال عبد الناصر، فهو أول من أذاع بالكلمة البلغاء المشهورة على المنبر: إن إسرائيل تمارس غزواً حضارياً لتدمير الحضارة العربية كلها لتحل بعد ذلك حضارة الغرب.. بينما الواقع أن اليهود لا حضارة لهم، لأنهم بدو أصحاب عير، وحتى ما يوصف به الغرب بأنه

يتمتع بحضارة، فذلك أيضاً وصف فضفاض، فالغرب الآن يعيش المدنية بكل وسائل العلم، فإذا لم تدمر هذه المدنية في حرب نووية سيكون ما بنته حضارة فيما بعد.

ـ **رابعاً**: اليهود لا حضارة لهم لأنهم بدو، فهذه الكلمة من الآية الكريمة، وفي سورة يوسف وعلى لسانه وقد آوى إليه أبويه، قد وصفت اليهود بأنهم بدو: (جاء بكم من البدو)، فالقرآن وصفهم بأنهم بدو والبدوي، لم يصنع حضارة. فالعرب في الجاهلية ـ أعني العدنانيين ـ لم يصنعوا الحضارة إلا في عهد الإسلام حين زالت غشاوة البداوة، فاستقطبوا العلم وتوحدت الأمة مسلمة صنعت الحضارة الوسيط.

ـ **خامساً**: وقد جاء بكم من البدو، فكم كان عدد الإسرائيليين، ومن أين جاؤوا؟ حين جاء الرسول يعقوب إسرائيل إلى مصر، ورحب به ابنه الصديق يوسف يستقبله عزيز مصر.. لم يكن مع يعقوب عليه السلام إلا ست وثمانون نسمة.. هو والأسباط، وبعض من كان معه من رجال ونساء وأطفال، فهذا العدد القليل الذي جاء من البدو.. من وادي عربا قرب بئر السبع، أو من الأوجال، أو من بادية «حران»: (الحميمة) هذا العدد لم يصنع حضارة، مع أنه المرحلة الثانية من بداية بني إسرائيل، فالمرحلة الأولى: هي في عبور الجد الأعلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل يعبر النهر إلى فلسطين.. يهجر بلده «أورالكلدان». يحارب الصابئة عبدة الكواكب.. ينشر كلمة التوحيد، فلم يكن إلا وحده ـ أمة وحده ـ عاش في مدينة الخليل، بينما مدينة «أورشليم» كانت مدينة قائمة وليس فيها قدم لأي إسرائيلي.. لأي عبراني. وعاش إسحق عليه السلام على هامش الأرض في جوار أهلها الكنعانيين والآراميين.. حتى إذا نمت أنسال إسرائيل في

مصر تكون من هذه الأنسال شعب قد بلغ يوم عبروا البحر بالمعجزة ـ أكرم الله بها رسوله النبي موسى عليه السلام ـ كان عددهم حين ذاك قد بلغ أكثر من ستمائة ألف.. بهذا العبور تكوّن الشعب الإسرائيلي اليهودي، ولعلّي أخالف المؤرخين حين أقول: إن تسميتهم «بالعبرانيين» لم تكن عن عبور النهر شرق الجزيرة العربية، وإنما كان هذا الوصف ينطبق كل الانطباق على عبورهم البحر بأثني عشر طريقاً فتحها الله لهم وهم يفرون من فرعون.

ـ **سادساً**: وعبروا فمكثوا في سيناء يحنون إلى عبادة العجل.. يشقون العصا على طاعة موسى وهارون.. يهلكون في يوم الظلة.. يتيهون أربعين عاماً، فعز عليهم أن يقتنوا البعير، فأصبحوا المجتمع الحماري، وأدنى أنواع البادية يعيشون في مجتمع حماري (كالصلب والغجر) وبكل الأسماء التي تطلق على البهوميين جميعاً، ففلسطين لم تكن أرضهم، وبيت المقدس «أورشليم» لم تكن مدينتهم وحين تهيأ لهم سلطان طالوت، ومنح الله القوة لداوود، وتفرق أمر الكنعانيين والآراميين.. استطاعوا أن يحتلوا فلسطين، فكان ملك داوود، وملك سليمان، ملكاً حضارياً بلغ القمة، ولكن.. لم يكن ذلك البناء الحضاري لملك سليمان من صنع أي يهودي، بل كان ذلك منحة الله للنبي الرسول سليمان.. يقيم بناءها من سخرهم الله لسليمان الطير والجن والمردة والفعلة من الآراميين.. حتى بناء الهيكل لم يرفع أي يهودي لبنة فيه، وحتى ضاقوا بسليمان ينتظرون موته لحظة بعد أخرى ليتخلصوا من قيد الطاعة والإيمان.. ليكونوا شعباً فاسداً عابثاً، حتى إذا توفاه الله فأخفى عليهم موته حيناً، فلما علموا هتف الهمجية في أفئدتهم فرحة بموت سليمان.

هكذا اليهود.. كل عملهم في إسرائيل، وطغيانهم على الإنسان والأرض، لم يكن عملاً حضارياً، وإنما همجية بربرية.. نازية فاشية وتترية.

التحايل على التحول

ولا شك، ودون ما ريب، أن سلوك اليهود أول تاريخهم، وفي كل تاريخهم، وحتى الآن لا يكسبون المواقف ولا يمارسون الظلم، ولا يتعاملون بالمال إلا بأسلوب التحايل.. يتظلمون أحياناً حتى لو صنعوا السبب الذي يظلمون من أجله، ويبكون أحياناً، فالدموع من أمضى أسلحهتم يسرقون بها عواطف الناس، كأنما الحبل من الناس يفتلونه فتلاً بالمسكنة، فإذا هم، وقد أخذوا من التحايل كل ما يريدون حتى إذا وصلوا إلى قوة يملكونها، أو قوة خدروها فأعانتهم، كانوا صناع الجبروت والطغيان.

وهكذا صنعوا في فلسطين، فقد اكتسبوا بالتحايل وعد بلفور، والاعتراف بالدولة باسم إسرائيل.. مع أن إسرائيل الجد يعقوب الرسول النبي بريء من طغمة هؤلاء اليهود، بل المتهودين الذين هم ليسوا من نسل يعقوب، وإنما هم خرز أشكناز، تتريون وسلافيون، فإسرائيل بريء منهم.. فإن هؤلاء بدأوا الآن المرحلة الثانية من مراحل التحايل حين شعروا بأن لدى الولايات المتحدة بعض التحول ليس لصالح العرب، وليس هو ضد إسرائيل، وإنما هو لصالح الولايات المتحدة نفسها، فهم يتحايلون الآن على أن لا يتم التحول، ولا يهمهم أن تتردى سياسة الولايات المتحدة بإسقاط الهيبة، ونفور الأصدقاء، وتعطل المصالح، والشك في الدول الغربية من ناحية تذبذب السياسة الأمريكية. يظنون الآن في أول الأمر أن

السياسة الأمريكية غير قادرة على صون مصالحها ومصالح الغرب.. ذلك لأن التحايل اليهودي إذا ما استطاع أن يضعف من التحول أو يمنعه، فإن الغرب ـ كل الغرب ـ وحتى الولايات المتحدة، يجدون أنفسهم بلا أرض تصادقهم تكون ملجأ للتسهيلات، ولا صديق ينتصر لهم ولو لم يكن معهم، وإنما ليس هو عليهم. كل ذلك يصنعه التحايل الإسرائيلي، كما هو صنيع التحامل الإسرائيلي طغياناً على العرب.

* * *

لقد بدأ هذا التحايل حين شعرت إسرائيل بأن الولايات المتحدة قد ضاقت بطغيانها على لبنان وعلى العراق.. كأنما سياسة الولايات المتحدة تسأل نفسها: أليس من الوفاء لإطار كامب ديفيد ـ أكسبها السلامة من مصر ـ أن لا تضع الولايات المتحدة ومصر في الموقف الحرج؟!

لقد أبى مناحيم بيجن أن يذهب إلى الولايات المتحدة قبل أن تعيد إرسال الطائرات التي أوقفتها مؤخراً، وليس ذلك من عجرفة الضعف، وإنما هو من قوة الإضعاف لسياسة الولايات المتحدة.. تسلطت بها اليهودية العالمية الصهيونية داخل المؤسسات الديمقراطية، كأنما الديمقراطية في الولايات المتحدة أصبحت الدكتاتورية على الإدارة الأمريكية!

وأرسلوا الطائرات، وتقدم بيجن بجرعة التحايل.. يتفضل ويمتن على الولايات المتحدة حين يجعل من الأرض التي احتلتها إسرائيل مستودعات لذخيرة الجيش الأمريكي، كأنه لا مكان للتسهيلات، ولا أرض لحلف الأطلسي تكون فيها المستودعات!.

ـ ما هو المهم لهذه المستودعات.. يخزن فيها عتاد الجيش

الأمريكي.. لماذا لا يكون العطاء الموافقة على وجود قواعد للجيش الأمريكي لدى إسرائيل؟!

إن العون بالمستودعات كذبة على التاريخ، وتحايل على الإدارة الأمريكية، ليعطي الفرصة لأنصار إسرائيل في الولايات المتحدة أن يشتد ضغطهم على الإدارة الأمريكية، ولقد قلنا من قبل، وبصورة من التحدي: أن بيجن، وكل رئيس وزارة إسرائيلي لن يمنح الولايات المتحدة قاعدة لديه، فذلك حرب ضد الاتحاد السوفياتي كأي قاعدة في حلف الأطلسي، وإسرائيل لن تكون في موقف تنتصر به الولايات المتحدة ويغضب الاتحاد السوفياتي، فهي في فلسطين تطير بجناحين: جناح يتجه من واشنطن إلى تل أبيب، وجناح اتجه من موسكو إلى تل أبيب.

ـ وهل هناك تحول في سياسة الولايات المتحدة؟!

نعم، فإن بعض ما يذاع على لسان الرئيس ريجان، ما كتبته بعض المجلات، إشارة إلى وجود تحول ليس ضد إسرائيل، ولا لصالح العرب، وإنما هو لصالح الولايات المتحدة.

ولا أريد أن أبشر به، ولا أملك التحذير منه، وإنما كل ما أعرضه هو في ما تصنعه إسرائيل من التحايل، وما يذاع عن الولايات المتحدة من التحول.

* * *

ـ وسؤال: من الذي صنع التحول؟!

صنعه العرب الذين يملكون وضع الولايات المتحدة أمام حرمانها من المصالح، فقد قال الرئيس ريجان: إنه يشعر بتحسن العلاقات مع العرب

المعتدلين، ويصنع هذا التحول أيضاً: الموقف الضاغط على العرب، والذي أوجب على الغرب أن يضغط به بصورة أو بأخرى على الولايات المتحدة، وقد أبرزت فرنسا هذا الضغط بصورة جلية حين قابل وزير خارجيتها «ياسر عرفات» ويصنع هذا التحول أيضاً: الموقف الضاغط، بل والسافر على الولايات المتحدة من سياستها، وهو ما يمارسه الاتحاد السوفياتي.. غرب الهيملايا، وشرق أفريقيا، وأواسطها، وحتى غربها وجنوبها الغربي..

كل هذه العوامل الضاغطة أحسب أن الولايات المتحدة مضطرة إلى أن تنفذ كلمة الرئيس ريجان: (لا ينبغي للولايات المتحدة أن تنحاز إلى إسرائيل، أو أن تنحاز إلى العرب).. هذه الكلمة من ريجان مفتاح التحول إن صحت، بل هي مفتاح جديد للحفاظ على صداقة العرب للولايات المتحدة، فكل ما يريده العرب أن تكون إسرائيل في موقف المطيع للولايات المتحدة، على أساس أن الولايات المتحدة لا تستعصى سياستها أمام إعطاء العرب الحماية من طغيان إسرائيل.. ليس بجيش أمريكي، وإنما بقوة سلاح يشتريه العرب بالمال الوفير.. يعين الولايات المتحدة على اعتدال ميزانها التجاري لتكون قوة الدولار هي القوة الأقوى أكثر من الصواريخ، فإذا ما اعتدلت سياسة الولايات المتحدة، وأنكرت على إسرائيل تدخلها في سياستها.. تفرض عليها أن لا يتبع سلاحاً للعرب، فحين ذاك يمكن لأي عربي أن يصدق هذه الأنباء التي تقول: إن هناك في سياسة الولايات المتحدة تحولاً!

ولا أدري.. هل ينجح التحايل، أم يستمر التحول؟!

ذلك ما يتضح بعد زيارة بيجن لريجان، وبعد أن تتم الزيارات الأخرى، وإن غداً لناظره قريب!!

جروميكو يستقبل شامير

بعض الذين سمعوا هذا الخبر عجبوا كيف يستقبل جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفيتي: شامير وزير خارجية إسرائيل!

واتجه العجب منهم يسألون: هل استأذن «شامير» الولايات المتحدة، أو هل عند منظمة التحرير الفلسطينية علم بهذا الاستقبال ونتيجة الاجتماع؟!

وفي يقيني أنه لا معنى لهذا العجب، لأن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي بكل القوة التي تملكها إمبراطوريته لا يسأل عن من يرضى، أو من يغضب، فالإمبراطوريات أكبر من أن تستأذن الأصدقاء.

واليهودي «شامير» قد اتخذ هذا الموقف في أكثر من تصرف، فهو أيضاً لا يسأل عن رضا الصديق أو غضبه، بل ربما أراد بذلك إغاظة الصديق، وليس ذلك بالأسلوب الذي يتخذه بعض الساسة فيقولون: دعونا نصادق الاتحاد السوفياتي كأسلوب للحرب ضد الولايات المتحدة. أو يقول الآخرون: دعونا نصادق الولايات المتحدة لعلّها تساندنا ضد الاتحاد السوفيتي!

* * *

فـ «شامير» ليس كذلك، بل ربما أنه سيقول للولايات المتحدة: ألست الحريصة على ضمان الأمن لإسرائيل، فمن السهل أن تصونيه ضد العرب، وحين قابلت وزير خارجية الاتحاد السوفياتي أردت باسم إسرائيل أن نخفف العبء عنكم، لأن ضمان الأمن من الاتحاد السوفياتي ينبغي أن يكون من الاتحاد السوفياتي نفسه، فمن الصعب أن يمارسوا نوعاً من المواجهة ضد الكرملين لضمان أمننا!

وهذه الحجة قد لا تنطلي على الولايات المتحدة، ولكنها شديدة الرغبة

إن كانت، لأنه من الناحية الأخرى سيعطي العرب فرصة التفكير في مدى الصدق في موقف الاتحاد السوفياتي معهم.

وهكذا تتلاحق الأحداث مسرعة اليوم وستكون مذهلة غداً، فالكل يتحرك ويلهث.. لا سؤال عن الأخطاء، ولا إدراك للصواب، ولا معرفة يجد فيها الإنسان نفسه في مكانه يصارع الأحداث. قد يكون في لحظة مع الشرق، وفي لحظة مع الغرب، كأن العلاقة بين الإمبراطوريتين قد اتخذت أسلوب المكايدة.. ذلك تصرف العاجزين، وذلك ـ مرة أخرى ـ سلطان الأقوياء!

* * *

إن استقبال جروميكو لشامير ليس فيه الجديد، لأن اعتراف إمبراطورية الكرملين بإسرائيل واقع كالتزام، أما عودة العلاقات أو الإبقاء على قطعها فذلك إعلان.. لعبة تلعب بها سياسة الأقوياء على الضعفاء، فالاعتراف التزام دولي، أما العلاقات فشيء آخر!

إن إمبراطورية الكرملين تعترف بإسرائيل، ولا يؤثر في ذلك قطع العلاقات.

وإمبراطورية الكرملين ـ مرة أخرى ـ موصولة العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن دون اعتراف بدولة فلسطينية، أو حتى في تحديد معنى الوطن الفلسطيني!

ولعلّ تأخر إعلان دولة فلسطين قد تأتّى من حسن العلاقات مع الاتحاد السوفيتي!

سوء العلاقات مع الولايات المتحدة لا يعطل إعلان دولة فلسطين،

ولكن بالتأكيد: حسن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي هو المعطل الأول والأخير.

ولقد قلنا من قبل: إن العالم الشيوعي بقيادة إمبراطورية الكرملين قد جامل العرب بلعبة قطع العلاقات مع إسرائيل، فالعرب قد خسروا بهذا الأسلوب. أما إسرائيل، والعالم الشيوعي فقد ربحا به ومنه، لأنه أسقط الأعباء، فلو كان لكل دولة من دول «وارسو» سفير في إسرائيل لكلفهم ذلك نوعاً من المشقة حين يحدث بعض الانشقاق بين أصدقاء هذا العالم الشيوعي من العرب.. حين يتصل تساؤلهم عن مواقف السفراء لدى إسرائيل.

أسقط الاتحاد السوفياتي هذا العبء فارتاح وأراح إسرائيل.

* * *

ولا يفوتني أن أذكر ما تحدث به الرئيس معمر القذافي يطلب من رومانيا حين زارها أن تقطع العلاقة مع إسرائيل تبعاً لحلفائها في العالم الشيوعي، كأن قطع رومانيا للعلاقات في تصور هذا الزعيم العربي ضربة قاصمة لإسرائيل، لكن رومانيا لا تريد أن تخسر ما كسبت، وليس ذلك كسبها وحدها وإنما سوء الظن يعطيني أن أقول: إن رومانيا بما كسبت.. كان ذلك كسباً لحلفائها بصورة أو بأخرى.

حين تقطع رومانيا العلاقات، فإن إسرائيل ستكسب كثيراً، لأن بعض مواقف الرئيس «شاوشيسكو» قد أقلقت إسرائيل، حتى إنها نظمته في سلك واحد مع المستشار «كرايسكي»!!.

بيجن رئيس عصابة إسرائيل

لقد كنت مع «ياسر عرفات» ومع كل الذين يحبذون بقاء «بيجن» رئيساً لوزراء إسرائيل لأنه قد أوصل الوضع في الشرق الأوسط كله إلى ذروة الشر، ولا أقول إلى حافة الهاوية، فحافة الهاوية مطلب الإمبراطوريتين، أما ذروة الشر فمخافة الإمبراطوريتين.

ثم.. إن «بيجن» بكل ما صنع في لبنان، وفي بغداد، وبكل السخرية أو التسخير لإطار «كامب ديفيد» قد أخرج أصدقاءه وأخرج أصفياءه.. فالولايات المتحدة قد وضعها في الموقف الحرج.. إذا كان ما نظنه فيها صحيحاً، أو أنه، ولا أدري، قد أوصلها إلى الطريق التي تخرج به.. تعلن أنه لا أصدقاء غير إسرائيل.. تعلن بصراحة ـ التي اضطرها مناحيم بيجن ـ أنها مع إسرائيل ولو اقترفت إسرائيل إسقاط معاهدة السلام.. ليقول ناطق أمريكي: إسرائيل قد حجزناها عن مصر، وحجزنا مصر عن إسرائيل، وكلاهما معنا.. بل إن منطق الاستحواذ عليهما أن يكون هناك بعض التفريق بينهما، ليكون كل من إسرائيل ومصر في حاجة إلينا!!

حين تكون النتيجة على هذه الصورة من مناحيم بيجن فهو في اختيار الثائر العربي: أن يبقى رئيساً لحكومة إسرائيل!

أما «بيريز» فسيحاول التحذير بأسلوب آخر.. يمد حبل المفاوضات.. يسترخي عضلات الطغيان في لبنان.. يكيل الوعود للحكم الذاتي، كأنه يعطي العرب جرعة مسكنة، ويعطي بيجن فرصة ممكنة و «بيريز» يعمل لـ «بيجن» كما أن بيجن قد عمل لبيريز، فهذا التساوي في نتيجة الانتخابات هل هو عمل برلماني حر، أم هو توزيع المقاعد لتوزيع التصرفات.. تفعله هذه العصابة اليهودية؟!

إن من الحماقة أن تتعامل الدول، وأخص منها الدول الغربية التي تلقى بعض زعمائها الصفعات من مناحيم بيجن، مع إسرائيل على أنها دولة.. مع أنها عصابة!

إن الرواية لم تتم فصولها.. وقد يبدأ الفصل الثاني بعد الخامس من أغسطس في كامب ديفيد، أو في أي «كمب» آخر!

حوار بين مناحيم وشمعون

وأخذتني غفوة.. آمنة من نعاس، أصحو بها.. تستريح نفسي من أكدار اليقظة، فكثيراً ما تكون الإغفاءة صحو وجدان، وكثيراً ما تكون اليقظة كدراً يكرب الإنسان.. فالغفوة جرتني إلى وادي عبقر، فانحدرت أستبطن الوادي السحيق العميق في تاريخ الأمة العربية، كأنني طسم وجديس قد استأثروا بوادي عبقر.. يبقى في تعريف النبوغ والنابغين أثراً من حضارة كانت الأساطير حقيقتها.. حتى إذا ضاع من أعماقها التاريخ نسفوا الحقيقة التي هي واقعهم الآن، فصاغتها الدنيا عليهم أساطير. فكارثة ـ أيما كارثة ـ أن يصبح واقع العرب اليوم أسطورة. فطسم وجديس أغرقتها رمال نجد وكوارث الطبيعة، لكن بقاء وادي عبقر هو كالبقاء لأرم ذات العماد التي دفنتها الرمال، فإذا بالقرآن يعطينا صورة عنها: (ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد).

تلك الحقيقة.. عميقة في التاريخ، لا تبهرجها الأسطورة، ولا يخفض من شأنها أنها غير منظورة. وصحوت من الغفوة، فإذا بي أرى جماعات من بني الإنسان: شيباً لم يأكلهم الدهر.. قد جمعهم المصير الواحد في قبورهم والتفت إلى ناحية فوجدت ثلاثة من مصاصي الدماء في ركن بعيد.. يجري بينهم هذا الحوار، هم: مناحيم، وشمعون، وناعوم.. يهود

وضعت أسماءهم العبرية لأردهم إلى التلمود زارع البغضاء.. قاتل البشر.. ماسخ الإنسان اليهودي. «البروتوكولات» ما هي إلا ترجمة عصرية لما دعا إليه التلمود.

ـ قال مناحيم يخاطب شمعون: أنتم في حزب العمل قدتم إسرائيل بأسلوب الحرب فخضتم حروباً عدة، لم تحرزوا انتصاراً فيها وإن حققت هزائم على العرب، فالنصر ينبغي أن يكون له امتداد، ولكنه قد ضاع منكم ومازال مهدداً بالضياع. إنكم لم تعرفوا أن اليهودي لا ينتصر بالحرب وإنما النصر له هو أن يخضع السلام للحرب. صنعتم لإسرائيل الكثير ولكن هذا الكثير بدأ يلاحقه الزوال. جلوتم عن سيناء مرتين، فالنصر لكم فيها قد ضاع، واحتلالكم للضفة الغربية وغزة مازال مهدداً بأن لا يبقى!

ـ قال شمعون: زرعنا فأكلتم، وماذا زرعتم أنتم يا بيجن لنأكل؟!

ـ قال بيجن: نحن جئنا على أنقاضكم فخلصنا إسرائيل من بقاء مصر دولة محاربة. فالسلام بين إسرائيل ومصر لم يكن فيه أي انتصار لمصر، أو انتصار للعرب، وإنما فيه كل الانتصار لإسرائيل. لقد زرعنا وعد بلفور إسفيناً شطر العرب شطرين: مشرقي ومغربي.. شرق السويس وغرب السويس، ولكننا بالسلام مع مصر عمقنا هذا الانشطار فأصبحت مصر برزخاً لا يتخطاه المغربي إلى المشرقي، ولا المشرقي إلى المغربي.

ـ قال شمعون: وكيف استطعتم ذلك؟!

ـ قال بيجن: الذين ينظرون إلى ظواهر الأمور يحسبونه عطاء أمريكياً أو عطاء سوفيتياً، مع أن الحقيقة التي تشبه الأسطورة أنه عطاء العرب لنا، فأخذناه، وظلم لمصر أن يكون هذا العطاء لنا منها وحدها، بل هو عطاء العرب جميعاً لنا. الخوف منا جعلهم يتفوقون بحجة أن ذلك هو الحرب

علينا. قالوا إنهم سيرموننا في البحر فتبرأ جميعهم من ذلك، بينما كثير منهم لازالوا على هذا الرأي.. يعترفون بالقرار ٢٤٢ وفيه الاعتراف بإسرائيل ويرفضون المقترحات السعودية بحجة أنها تتضمن الاعتراف بإسرائيل!.. أي منطق هذا، لكنه الأسلوب الذي يرضينا وإن تظاهرنا بالغضب منه. إن عدم الاعتراف بإسرائيل يعني أنهم سيرموننا في البحر، فما لهم يتبرأون من ذلك؟!

* * *

ـ قال شمعون: وهل صحيح أنكم ستجلون من بقية سيناء نهائياً؟

ـ قال مناحيم: نعم، ولم لا.. إن احتلال سيناء كلفنا الكثير.. انسحبنا أول مرة بضغط أمريكي وانسحبنا في المرة الثانية حين هزمنا بالخطوات المنتصرة في العبور وبسلاح سوفياتي، فماذا ينفعنا البقاء في سيناء وقد أصبحت مصر بمعاهدة السلام في معزل عن الحرب، وفي نطاق السلام؟ فذلك هو الذي نرضاه. إن سلامة إسرائيل من الحرب مع مصر عطاء لقوة الحرب ضد الآخرين.

ـ قال شمعون: إن أستاذك هتلر قال «المعاهدات قصاصة من الورق» فهل تضمن بقاء مصر بعد الجلاء عن سيناء على الوضع الذي يرضيك، وقد أصبحت مصر الآن قوة متطوعة لا تستغني عنها الولايات المتحدة، فلو أعادت مصر لنفسها نظرة جديدة لأمكن لمصر وبعون الرأي العام العالمي، وبيقظة عربية جامعة، وباضطرار أمريكي أن تضع معاهدة السلام قصاصة ورق، فإن بقاء الاحتلال للضفة الغربية وقطاع غزة منطلق لأن تعيد مصر ما تأخذه من تفوق موقفها إذا ما قالت: الجلاء عن الضفة الغربية وقطاع غزة، وإلا فلا سلام؟!

ـ وهنا صرخ ناعوم (جولدمان) فقال: إن عليكم وأنتم حكام إسرائيل أن تعرفوا أن العرب لن يتركوا مصر طعاماً للسلام معكم، فإن خالفوها اليوم فإنهم وبصورة وبأخرى سيعودون إلى التضامن.. سواء بيقظة من الزعماء، وبصرخة حاسمة من الشعوب. فالشعوب لا تقبل الضياع لنفسها، وقد انتهى عهد التقديس للزعماء؟

* * *

ـ قال مناحيم: أنا لا أنكر على حارس الكهنوت اليهودي ـ ناعوم ـ نظرته البعيدة، ولكن قسوة الزمن الآن أبعدت هذه الخواطر، فإسرائيل قد أسرعت حين شطرت العرب إلى شطرين.. بعضهم اتجه إلى موسكو، فاضطرت واشنطن أن تتجه إلى البعض الآخر. هذا ما يجعل الوفاق بين العرب بعيداً!

ـ قال ناعوم: حين اتجهت الولايات المتحدة إلى بعض العرب، فإن ذلك سيقلل من فرص اتجاهها لإسرائيل، وحين ذلك تصبح إسرائيل موقف المستجدي بدون استعلاء، فقد سئم الشعب الأمريكي هذا الاستعلاء.

ـ واستطرد ناعوم يقول: إنكم لم تعرفوا قوة اليهود بعد، فاليهودي ليس حامل سلاح وإنما هو صاحب فكر مدمر، فكل ما صنع اليهود في التاريخ لم يكن بقوة الذراع، وإنما بالفكر المدمر. إن العالم يتهم اليهود بأنهم يملكون المال، وهذا مبالغ فيه، فامتلاك المال قد يكون فيه الخطر على صاحبه، إن اليهود يملكون السيطرة على المال.. سواء ملكوا الكثير أو القليل، فكل سيطرتهم على ما يملك الآخرون. كل الأساليب الاقتصادية، والتجارية والبنكية.. حتى أسعار البترول لا يملكها اليهود، وإنما هم يفرضون سلطانهم عليها.. يحركون الرخاء بها، والحرب

والاستغلال وخفض العملات وارتفاع الأسهم وانخفاضها. قوة اليهود في السيطرة على المال كله.

* * *

وصحا شيخ كبير.. حبر من أحبار اليهود اسمه «عبد الله بن سلام» صاحب رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: أنتم اليهود أهل بهتان.. قلتها لرسول الله، وأنتم اليوم في عرض الهلكة.. أهلكتم الكثير من بني الإنسان وتمارسون الهلاك للعرب، ولكن هلاككم، وفي أرض فلسطين، سيكون بيد العرب إن آجلاً أو عاجلاً.. ذلك حين ينقطع العون من هذه الحبال التي تمتد إليكم.. ابتداء من وعد بلفور إلى الجسر الجوي، وإلى أن يقول الشعب الأمريكي: كفى تخريفاً بالالتزام الخلقي، فالاتحاد السوفياتي قد أصبح الخطر على الشرق الأوسط أكثر من الخطر على غرب أوروبا.

إن سلاح حلف الأطلسي ينبغي أن يكون ضد سلاح وارسو في غرب آسيا وشرق أفريقيا، وقد بدأت الولايات المتحدة تصحو من التخدير اليهودي!.

ـ قال شمعون نحن شعب يهودي يلبس شعوبية أمريكية.. نجد الوسيلة التي نخدر بها الولايات المتحدة حينما نقول للاتحاد السوفياتي: تعالَ ننتصر بك لتنتصر في بولندا، ولئلا تهزم في الأفغان، وليكون كاسترو في غرب آسيا وشرق أفريقيا في قوة كاسترو في كوبا.

ـ قال بيجن: الدموع سلاحنا الأخير، والشموع زغاريدنا الآتية، فلا يأس، فإن الخوف الذي يحكم العرب الآن قد جعلهم لا يصدقون الولايات المتحدة!

إسرائيل.. مجمع الأحقاد الأربعة!!

إسرائيل اليوم مجمع الأحقاد الأربعة، فقه نستقرئه من التاريخ.. تاريخ اليهود مع الإنسان كل الإنسان.. ومع العرب بصفة خاصة..

أريد أن أستنفر قارئاً أشدد به أزري إذا ما سمعني بتصويب ما رأيت.. لو أعرف به قدري إذا ما أعانني على تخطئتي فيما أردت.. فالموضوع سهل، لأن الفكرة أحضرت نفسها.. والموضوع صعب.. إذا ما غابت الفكرة عن قارئ يقرأ وهو واقف لا يستريح ليستكنه.. ولا يريح بطرحه ما يستكين.. أعني بالطرح الترك كما هو أصل الاستعمال.. أبتعد عن الطرح والعرض.. كما هو المستعمل الآن اقتباساً من لغة أجنبية.

إن بني إسرائيل.. القبيل اليوم كانوا يتمتعون قبل الإسلام بحقد واحد.. على العرب. أولاً وعلى الأمم ثانياً.

هو حقد قبلي.. حقد على الميراث.. مفصل في التلمود.. وإن اتضح بعد في البروتوكولات.. كان هذا الحقد على الميراث مقدمة لنجاح بني إسرائيل ضد قبيلتين من العرب. على يد الرسول النبي موسى في المرحلة الأولى.. وبسهم النبي الرسول.. سهم داوود في المرحلة الثانية.

برسالة موسى وملك داوود وسليمان أضيف حقد ثانٍ.. فعله الدين. في يدهم التوراة. فانتصروا على الفراعنة بالانفلات منهم.. وانتصروا على الكنعانيين بالحرب.

هم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم.. وقد تحقق لهم بعض ذلك.. برسالة موسى والأنبياء بعده حتى ملك داوود وسليمان.. ولم يكن انتصارهم على الفراعنة والكنعانيين شيئاً أوجد الحقد في العرب الآخرين.. استقبلوه إيواء

وحماية.. حتى جاء الإسلام.. يمجد انتصارهم على الفراعنة والكنعانيين.. لأنه ليس انتصار الحقد في نظر الإسلام.. ولأن الإسلام لا يراها معركة على الميراث.. لأنه وهذه عقيدته يرى ذلك نصراً لعقيدة التوحيد.. نصراً لرسالة الأنبياء.. ولأن الإسلام هو المبدأ الصالح.. ورجاله هم الصالحون فليس في حسابه عراك مع اليهود على الميراث.. فالأرض في مبادئ الإسلام.. يرثها عباد الله الصالحون.

وقد تحقق هذا على سرمدية القرون.. تحقق به أن العرب وبإسلامهم هم ورثة أبيهم إبراهيم.. لا بني إسرائيل. فبنو إسرائيل فسقوا عن الدين وحرفوا التوراة. وانحرفوا بالتلمود. يكبر الحقدان معهما، حقد عنصري.. وحقد ديني.

كان هذان الحقدان هما الأساس في سلوك اليهود مع العرب في كل الأحقاب، وكانا أيضاً هما الباعث لنقمة كالوا لهم العذاب في كل مراحل العذاب الذي ذاقوه.. حتى إن هذين الحقدين يستمرئان التعذيب كعامل يتصاعدان به.

وجاء حقد ثالث.. بهذا الدم المغولي الخزري.. الوالد الطبيعي لكل الإسرائيليين أصحاب الدولة الآن.

فالمغولية لا تنكر أحقادها وما فعلت بالعرب.. وما كادت لهذا الإسلام من عهد بابك الحزمي الخزري إلى عهد «هولاكو» و«جنكيزخان» و«تيمورلانك» والبقية التي تمت حقدها بالشعوبية في كثير من ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم إلى آخر الحاقدين.

هذا الحقد المغولي هو مفتاح العلاقة مع السلافييت. إن كانت الجفوة

لسبب أو لآخر فستكون الصفاء للسبب الأصيل دم مغولي لعلّه أكثر الدماء انتشاراً في السلافيين.

الجفوة ستار العلاقة مع السلافيين.. ففي السلافيين حقد مغولي على الغرب.. ولكن الحقد المغولي.. هذا الثالوث.. لكي يعطي ثماره لإسرائيل.. ولأنه بعيد عن المغولية الأم «الصين» فإنه في حاجة إلى حقد رابع لا يصلح أن يكون سلافياً لأن السلافية لا تملك الطريق لجني الثمار منه.. فما هو الحقد الرابع؟!

إنه الحقد الآري.. فالحرب الصليبية أساسها آري.. والاستعمار.. وكل الأفاعيل التي صبت الشر على العرب ما جاءت إلا عن طريق هذا الحقد الرابع.

إن الحقد الآري.. قد مارس ألواناً شتى في صب العذاب على الأرض الوسط بين الأرضين.. أرض العرب.. قد مارس القتل للجنس الوسط بين الأجناس.. جنس العرب، قد مارس الفتنة يحدثها في الدين الوسط.. دين العرب.. هذا الإسلام.

كل هذا عرفه الحقد المغولي في إسرائيل الخزرية فاستنام للآرية يتوج أحقاده الثلاثة بهذا الحقد الرابع حقد الآريين.

أحقاد أربعة تجمعت فاستكملت في إسرائيل. لتكون عادية مستعدية طاغية معانة.. يبكون في مجلس الأمن على قتلى إسرائيل.. على ضفة القناة لأن حقد الآرية.. بحقد المغولية، بحقد اليهودية، يضحك بهذه الدماء التي أريقت وتراق الآلاف من دماء العرب.

حقد لم نتعلم بعد منه.. كيف نزرع الحقد لنحصد النصر.. لنجني

الثمار.. لن يكون ذلك إلا أن نضرب فوق الأعناق، نقطع منهم كل بنان.

هذه فكرة في عرض سريع.. فهل أجدني في يوم.. أمزق اللثام عنها في تفصيل هذه الأحقاد، لعلّي بذلك أزرع حقداً كهذا الحقد الذي يزرع كل يوم في أفئدة الفدائيين؟

.. ما فصلناه من الأحقاد الأربعة في يهود.. في إسرائيل اليوم أن نكيل الصفعة له بهذه السماحة في الإسلام.. سماحة ليست من عمل البشر.. ولكنها عهد النبي محمد الإنسان، أوحي إليه أن يضع كل الأحقاد تحت قدمه.. كأنما الإنسان وقد أرهقه الحقد.. جاءه الإسلام بالتسامح حتى مع الحاقدين اليهود، وبالسلام لكل إنسان.

هذا نص نقتطفه من عهد النبي للأنصار والمهاجرين ولليهود.. نظام به السلامة للجميع، وأعطى السماحة للجميع.

قال ابن هشام.. ٣٥٠: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني مساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحصر على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه (فتك) وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا،

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأتم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا إثم، وإنه لا تجار حرموا إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساد فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة».

أين كان الصواب؟!

لا يبعثر الفكر العربي إلا كاتب أو خطيب يفترض رأياً من عنده أو يفترض رأياً من الأبعدين عن عقائدنا وأرضنا فيسعى كل منهما إلى تأكيدها ما يزعم يفرضه فرضاً علينا في الدندنة التي يستمرئ ذكرها كل يوم. أو كل أسبوع.. حتى أصبح ذلك الوهم له مكان الصدارة ليس في تفكيرنا فحسب وإنما في تخطيط التنفيذ وفي بناء العلاقات.. وحتى في عقد المعاهدات.. وإلى أكثر من حتى، جازف المعتدون لذلك لا بمستقبل الأمة كلها كما هو واقع الآن.

هذه المقدمة لا بد لها من شرح.. مثلاً قامت العلاقات بين الاتحاد

السوفياتي وبين بعض الأمة العربية على أساس خاطئ كنا نحسبه صواباً.. أو بعبارة أدق كانوا هم يحسبونه الصواب، ولا أعني بذلك العلاقة المذهبية، فتلك تعلق بعض الأفراد لم يستطيعوا أن ينجحوا في فرض زعامة. بل إن العقيدة والتقاليد وكل التراث والتراب هي التي تطرد زعامة مثل ذلك. ولن يبقى على هذه الأرض من وجدان هذه الأمة إلا ما هو فيها ومنها ولها.

أما ما أريده فهو الحجة أو السبب التي صدقوا أنها هي تنظم العلاقات مع الاتحاد السوفيتي. فقد أشاعوا فينا أن الاتحاد السوفياتي ما سمح ولن يسمح أن تجاوزه على حدوده القريبة دولة فقد حال من قبل أيام الإمبراطورية القيصرية أن تكون ألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا قريبة من حدوده فقد وقف دون أن تذوب الدولة العثمانية حينما أراد في أكثر من مرة أن يذيبها في حجره فلم يتمكن من ذلك لأن بسمارك ودزرائيلي وفي مؤتمر برلين بالذات قد أرجع الإمبراطورة كاترينا عن حدود الدولة العثمانية. إنه يحول دون تمكنهم، وقد حالا دون تمكنه.. حتى حينما غلبت روسيا الإمبراطورية على أمرها فرضخت لمعاهدة (سايكس بيكو) التي ضمت الأرض العربية جاءت النزعة الروسية على يد الشيوعية تفضح هذه المعاهدة يعلمها العرب، فأصبحت كأنها الأساس في معاركهم ضد ختل الخلفاء واستغلال الاستعمال هكذا كان حينما كانت الحدود الجغرافية هي السبب في الخصومات والحكم في المعارك.

أما الآن فمن الخطأ الذي وقعنا فيه مع الأسف بقاؤنا على هذا التصور، فقد أشاعوا فينا أن الاتحاد السوفيتي سيعين العرب ـ كل العون ـ لئلا تكون الولايات المتحدة قريبة من حدوده ونسينا أن الاتحاد السوفياتي

لم يحرك ساكناً ضد تركيا وهي دولة من دول حلف الأطلسي مع أنها الأقرب لحدوده..

وإني لأجد الجرأة في نفسي لأقول. إن الاتحاد السوفيتي في استراتيجيته التي لم تكن جديدة بعد الوفاق وإنما هي قبلة من زمن بعيد.. بل لعلّها الأساس في دعم الوفاق بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، ففي يقيني أن الاتحاد السوفياتي يريد لحمايته من الصين ولتثبيت أقدامه في أكثر من بلد ـ يريد ويعمل لتحقيق ما يريد أن تكون الولايات المتحدة هي القريبة من حدوده.. تحمي واجهته فهو لا يخشاها كقوة لأن المواجهة بينهما مستحيلة.. وإنما هو يرجوها كقوة رادعة عنه هجمات الصين.. فلهذه الاستراتيجية تعمد الاتحاد السوفياتي أن يثير العرب ضد الولايات المتحدة تحت ستار الحرب مع إسرائيل.. بينما هو المعين لإسرائيل والناكث بالوعود لا يعطي أسلحة متطورة.

هذه سياسته.. تكون الولايات المتحدة قريبة من حدوده سواء بالدول التي هي في حلف الأطلسي أو في الحلف المركزي.. أو مع إسرائيل.

ولا أدري هل الذين يدرسون المتغيرات اليوم قد تطرقوا إلى هذا الفهم.. أم أني من دعا في السياسة وفي استقراء التاريخ.. لا يقوم برهان عندي دعا صواب ما ذكرت.. فلئن ألبسوني هذا الظن منهم لازالوا يلبسون على أنفسهم، وهناك ظاهرة، فقد سمعنا أن أكاديمية البحث الروسية قد أكدت أن العالم العربي ليس لديه مزاج يقبل الشيوعية.. كأنهم قد نفضوا أيديهم من الدعاية لمذهبهم.

هذا الخبر أهو الجديد على الاتحاد السوفياتي.. أم أنه معروف من زمن بعيد..؟

في أغلب الظن أنهم يعرفونه من قبل.. وما أذاعوه إلا وفاقاً في أيام الوفاق يطمئنون الطرف الثاني في الوفاق من ناحية.. ويثيرون بعض الأفراد من العرب على إخوانهم.. كل هذا من المتغيرات تسقط القيمة الجغرافية.. وتبقى المنفعة الاستراتيجية.

والأمر في هذا كله لا يحتاج إلى برهان. فالبراهين كثيرة فإن وجود الولايات المتحدة في غرب أوروبا هو الضمان ومحدد الاستمرار لوجود الاتحاد السوفيتي في شرق أوروبا.. وإن وجود الاتحاد السوفياتي في البحر الأبيض ضمان لاستمرار وجود الأسطول السادس في البحر الأبيض.. وبالعكس أيضاً.. وإن وجود الولايات المتحدة في الشرق الأقصى في الفلبين واليابان بالذات، ضمان لوجود الاتحاد السوفيتي في منغوليا. ليس على حدود الصين فحسب، وإنما في أرض صينية.. وإن وجود الاتحاد السوفياتي في بقاع من آسيا غرب الصين هو ضمان لوجود الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفي الشرق الأدنى.

إن وجودهما متلازم فأسقطوا من حسابكم الاستراتيجية الجغرافية.. وضعوا في حساب المتغيرات الاستراتيجية الإمبراطورية.. هما قوتان لا تخاف إحداهما الأخرى، وإنما تحمي إحداهما الأخرى.

خسرت المذاهب.. وكسبت الإمبراطوريات

في الواقع الملموس أن اليسار المتطرف.. أو بالصراحة الواضحة.. الشيوعية العالمية.. لم يكسبا شيئاً.. خسرا معركة الشيوع والذيوع في الشرق الأدنى. وفي الشرق الأوسط.. ولا أجازف حينما أقول: أنها خسرت نفسها في الشرق الأقصى ما عدا الصين.

لماذا؟

إن ذلك لم يكن عن غفلة.. وإنما هو العمد من هؤلاء الساسة كسبوا الإمبراطورية بهذا الخسران لمذاهبهم.

كيف؟

حينما تأزمت الحالة في كوريا.. غابت روسيا عن مجلس الأمن فكسب القرار الأمريكي معونة الدول التي اشتركت في حرب كوريا فوقعت الحرب الكورية ميدانها كوريا.. وشعرها الغلاف المذهبي.. والفائدة المكتسبة تمكن الإمبراطوريات الثلاث من الوقوف قوة تجاه الأخرى تنصب حبلها.. تكسب تجربة السلاح..

هذا الكسب ما كانت تأخذه الرأسمالية الملعب ولا الشيوعية المذهب.. وإنما الذي أخذته إمبراطورية كل منها.

فهل غاب الروس أم أنهم انخذلوا لأنهم خافوا؟

لا أحسب الخذلان كان في حسابهم ولا أظن الخوف كان الحاجز لهم.. وإنما هو أعطاهم الفرصة الخصم والمناقض أن يخوض حرباً يقفون وراءه ليربحوا موقفاً جديداً يجعل خصومهم يعرفون ما لديهم من قوة دون أن يجازفوا بسمعة في معركة خاسرة.. ويرون أن يدخلوا حرباً مكشوفة لا يعرفون مصيرها.. فالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.. ومن جانب آخر.. الصين الشيوعية.. كل منها خاض هذه الحرب الكورية لحساب الإمبراطورية وليس لحساب المذهب.

وحرب فيتنام هي على الصورة نفسها.. وإن اختلفت الأساليب.. كسبت إمبراطورية البيت الأبيض تجربة السلاح.. وعمل المصانع وإبقاء الشعب ـ كل الشعب ـ في وضع الجنود لئلا يناموا بعد الحرب العالمية الثانية.

وكسب الاتحاد السوفياتي تجربة السلاح وإشعال العمل في المصانع وموقف الندية للولايات المتحدة..

فالمذهب ليس محسوباً حسابه وإنما قيمة الإمبراطورية دفعوا لها الثمن من دم الشعوب التي شنت عليها الحرب.

ومشكلة الشرق الأوسط هي أيضاً على الصورة نفسها.. عمل الاتحاد السوفياتي على أن تقع.. ولا يهمه في ذلك أن تنتشر الشيوعية في المنطقة. وإنما كل همه أن يتسع نفوذ الإمبراطورية في المنطقة.. أسطول روسي يشارك الأسطول الأمريكي.. وأساطيل الأطلسي في البحر المتوسط.. تجارب جديدة لمفعول السلاح.. موقف النديد للولايات المتحدة.. فكلما كان الأمريكان أن روسيا وراء فريق يحارب في هذا الشرق كان من حقها على نفسها.. أو من واجبها.. أن تنصب حبالها بكل القوة لتنصر العدو المحارب للعرب.. حاجزه للنفوذ الروسي أن يستغول أكثر..

إن الاتحاد السوفيتي ليس من الغفلة أن يجزع من خسران المذاهب لأن من الذكاء لديهم ما أكسبهم نفوذ الإمبراطورية.. إمبراطورية الكرملين وإن بكين قد بلغت من الذكاء ألا تتورط في فيتنام كما تورط في كوريا فيعطيها ذلك لومة الإمبراطورية المذهب ضاع والإمبراطورية كسبت، ولا يهمنا في هذه المنطقة أن تكسب الإمبراطورية.. أن تخسر المذهب وإنما المهم رغم كل ذلك.. هو أن حزب اليسار المتطرف في العالم العربي أنهم الخاسرون من تعلقهم بهذا المذهب، فالمنطقة العربية بأسسها وتقاليدها طردت هذا المذهب والقومية بحماستها وأصالتها ولا تخضع لمذهب يحارب القوميات كما يحارب الدين.

إن اليسار المتطرف قد خسر نفسه وليس هذا بمهم وإنما هو جلب كثيراً من الخسران على المنطقة.. جعل إمبراطورية البيت الأبيض تتذرع بوجود تخشاه على مصالحها.. وجعل إمبراطورية الكرملين تستغل وجوده لتزيد نفوذها.. وجعل إسرائيل تعمل ما تريد على يد هذا اليسار المتطرف في العالم العربي كان يعمل لها العملين فعله هو وردود الفعل منها..

لقد قلنا من قبل إن حرب المبادئ قد انتهت بين الإمبراطوريات وإنما هي المصالحة تقوم الآن لمصالح الإمبراطوريات. فليس هو استجداء أمريكياً الذهاب إلى موسكو. وليس هو استعطافاً أمريكياً زيارة بكين وإنما هو في الوفاق بعامل الندادة للتعايش السلمي بين الإمبراطوريات.. والاستغوال الإمبراطوري على كل الشعوب.

وليست هذه الكلمة تنديداً بالإمبراطوريات وإنما هي تذكير لهذا الإنسان المتطرف بأنه جالب الخسران لكل المنطقة.. وواهب الكسب للإمبراطوريات.

* * *

التاريخ يعيد نفسه

حين تتشابه الأحداث، فيعطي حاضرها صورة من ماضيها.. يقول المؤرخ: إن التاريخ يعيد نفسه. ولكن هذه الإعادة لا تعني أن تكون الصورة لأي حدث حاضر طبق الأصل لهذا المثل قوة الاستمرار، فالتاريخ زمان وإنسان. فالزمان يبتسم لأي حدث.. سواء كان مجداً وحضارة صنعها الإنسان، أو كان الحدث كارثة أو مأساة صنعها الإنسان، أو صنعت عليه. هو بالحروب والمذاهب وصراع المبادئ يصنع تاريخاً، وهو بالكوارث الطبيعية صنع عليه التاريخ، أو صنع به!

إن الزمان ابتسم ابتسامة عريضة حين اكتشف الإنسان النار، أو حين

صنع إدريس أول إبرة خاط بها ثوبه، ولكنه ضحك حين قتل قابيل هابيل، فمن طبيعة الزمان أنه ليس عابساً يضحك لأنه شمس في النهار وقمر في الليل.. فالوضوح طبيعته، أما الإنسان فأكثر التصاقاً بالعبوس حتى البكاء، ومن الغريب أنه يبكي حتى في الفرح.. إذا ما صفق لبناء حضري تدمع عين صانعه ويبكي الآخرون حسداً أو تأكيداً أو غيرة من صانع هذا البناء الحضاري، فالإنسان من التجاوز القول بأنه صانع الكارثة، وإن تقدم خطوات نحوها.. فالكارثة مصنوعة له، قبل أن تكون مصنوعة به.

* * *

إن الزمان أعطانا صورتين من تشابه التاريخ، فالصورة الأولى في حكاية عن حدث قرأناها للأمير شكيب أرسلان أيام كارثة التتار على بغداد، فبعد أن دمر التتار الحضارة والكتاب في العراق، يقول الأمير شكيب أرسلان: إن الرعب قد أخذ الأفئدة من عشرين رجلاً عربياً انحشروا في قاعة ترتعد فرائصهم خوفاً من القتل، فبينما هم على هذه الحال دخل عليهم تتري لا يحمل البلطة، وليس معه أي سلاح.. مجرداً من أي قوة في يده، لكنه لم يتجرد من قوة الرعب في أفئدة هؤلاء العشرين.. طوله يبلغ أشباراً، ولو وضعته أمام جرة فول لكان أشبه ما يكون بها عرضاً وطولاً، دخل القاعة على هؤلاء العشرين. قال: أنتم هنا. سأذهب أُحضر البلطة أقتلكم جميعاً، وتركوه يذهب ليعود يقتلهم، مع أن واحداً منهم أو اثنين لو قاما إليه لأمسكا به وقتلاه وبعد أن ذهب زال الرعب عن واحد، فقال: نحن عشرون نصبر حتى يأتينا ليقتلنا؟ فلنقتل ونحن نقاتله، أما أن ننتظر القتل كالدجاج.. دعوني أكمن وراء الباب أتلقفه وأمسك به ولتقوموا كرجل واحد تقتلونه بالبلطة التي يحملها. كانت هذه الكلمة من أحدهم قد أزالت

غشاوة الرعب وحتى إذا حضر هذا التتري المتملظ على الدم أمسكوا به وقتلوه ونجوا!

أفليست هذه الصورة من الماضي لها الشبيه في تاريخنا الحاضر.. سواء في عام ١٩٤٨، أو ما بعده فيما صنعه الخزري التتري الآخر «مناحيم بيجن» من قتل الفلسطينيين.. كأنما كل العرب أكلهم الإرهاب، وكأنهم إلى اليوم يتآكلون بالرعب!

* * *

ليس السلاح، وليست الإمبراطوريات، وإنما هو الإنسان إذا قتل الرعب في نفسه يستطيع أن ينتصر، فما أكثر الراغبين اليوم.. يمدون أيديهم إلى العرب، ولكن العرب توزعتهم الرغبات المتلاحقة من كل صوب، كأنما الرغبة في الانتصار هي صانعة الهزيمة.. لأن الوسيلة الأولى في الانتصار أن تقتل الرعب.. أن تقتل الخلاف.. أن نستنشق عبير الأرض.. دم الشهداء يفوح منه كرائحة المسك.. شهداء اليوم، وشهداء الأمس.

فهل زكمت الأنوف أن تشم العبير؟!

إن التاريخ قد أعاد نفسه: بالأمس «تتري» غزا بغداد، واليوم تتري خزري أشكنازي ضرب المفاعل الذري في بغداد.

ـ أما الصورة الثانية فالتشابه بها كان على صورة من الإيجاب بالحدث، وعلى صورة من السلب في معالجة الحدث، فقد اقترح وزير خارجية بريطانيا، وسموا هذا الاقتراح مبادرة كشأنهم في تضخيم الاقتراحات!.. اقترح على السوق المشتركة خطة لعقد مؤتمر على مرحلتين من أجل الأفغان، وأقرت دول السوق هذه المبادرة، ورحبت بها الولايات المتحدة، وذهب الوزير الخطير يحمل هذه المبادرة يستقبله وزير خارجية الاتحاد

السوفياتي «جروميكو» وتكون النتيجة أن الاتحاد السوفياتي قد رفض هذا الاقتراح أو هذه المبادرة.. ذلك أن هذه المبادرة تحمل في طياتها عامل الرفض لها.. كما المؤتمر الذي اقترحه الاتحاد السوفياتي من أجل فلسطين، فهذه المبادرة قد أقصت الأفغان، فكيف يقبل الاتحاد السوفياتي ذلك؟!

أنا لا أتهم هذه المبادرة بأنها كانت استهلاكاً محلياً، ولكن الاتحاد السوفياتي بعامل الرفض فيها قد أهلكها عالمياً، كما الولايات المتحدة أهلكت اقتراح الاتحاد السوفيتي عن عقد مؤتمر من أجل فلسطين!

هذه الصورة في الوقت الحاضر.. أين الشبيه لها فيما مضى؟!

* * *

إن الأيام دول. ففي الوقت الحاضر شن الاتحاد السوفياتي الحرب على الأفغان، ولم يجد رادعاً، وفي الماضي القريب شنت الإمبراطورة «كاترينا» وهي تلعب بقادة جيشها وشعبها ـ الحرب على الدولة العثمانية.. حتى وصل الجيش الروسي على أبواب الآستانة ـ اسطنبول ـ عاصمة الخلافة العثمانية، فإذا بريطانيا أيام عز الإمبراطورية يقوم رئيس وزرائها «دزرائيلي» يذهب إلى برلين. يستقبله بسمارك. يعقد المؤتمر في برلين، وبقرار كان كالإشارة سحبت الإمبراطورية «كاترينا» جيشها ورجعت لا تحقق غرضها.

فالصورة موضوعها الاتحاد السوفياتي في الحالين، ولكن النتيجة اختلفت، لأن «بروكسل» اليوم غير «برلين» الأمس!!

واإسـلامـاه . . !

وأضاءت في سجل التاريخ صرخة نادت بها الهاشمية لطمت في عمورية، فقالت: وامعتصماه. . فإذا تاريخ الأمة يضحك لا بأشداق فارغة، وإنما بسيوف بتارة لامعة، فإذا ابن الرشيد أحمد المعتصم يقول: لبيك.

أضاءت في سجلات التاريخ هذه الكلمة حين امتلكت الأمة الإسلامية قوة صنعت التاريخ، وتاريخاً صنع للقوة أن يعطي رجلاً واحداً هذه القيمة، ولكنها بعد، ضاعت في أحقاب التاريخ لأنه لم يعد هناك الرجل الواحد، وإنما تفرق الرجال أشتاتاً، بعضهم صدق من عاهد الله عليه، وبعضهم عجز أن يكون على مثال يذكره التاريخ.

واليوم ـ وأنتم حول الكعبة ملوكاً ورؤساء، قد وضعكم هذا الاتجاه أمام القبلة وكأنكم الرجل الواحد، فالعبرة والحصيلة إذا ما عاهدتم الله أمام بيت الله ألا يسجل لكم في تاريخ الإسلام إلا أنكم الرجل الواحد، كأنما قوة المعتصم لم تعد قوة إنسان أمام هذا البيت، وإنما هي قوة الله، يمنحها لكم عندما يكون الأساس، كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

لقد كان الرجل الواحد خالد بن عبد العزيز فحين دعاكم ولبيتم كان معكم وبكم، وأنتم معه وبه، لن تكونوا إلا الرجل الواحد. . كل منكم بلسان الرجل الواحد لا يقول: وامعتصماه، وإنما يقول: يا الله، وإنما يقول واإسلاماه.

كلمة قالها فارسي، شامي، مصري، عربي، العبد مرتين، استرقه السراق ثم باع نفسه من أجل جلنار، فإذا هو بعد ومن قبل، الملك مرتين، كان طفلاً من بيت ملك فأصبح رجلاً ملكاً قد تربى تربية مسلمة تجرعها جرعة جرعة من يد سلطان العلماء. . المعز بن عبد السلام. . كان معه في

عين جالوت إن لم يكن بالحضرة المباشرة فهو بحضور الوجدان، فحين حمل التتار كبعض حملات أعدائكم اليوم، صرخ الملك المظفر قطز ـ رضي الله عنه ـ صرخة ارتجت لها الأرض فانهارت تحت أقدام الأعداء، فإذا هو يحوز النصر في اليوم الخامس من أيام الإسلام كلها، بدر، اليرموك، القادسية، حطين، عين جالوت.

إن القبلة تدعوكم أن تقولوا: والإسلاماه.. فإن لم تقلها يَضِعْ منا الرجل سواء كان فرداً أو جماعة، لا تخافوا القلة، فالقلة في المؤمنين كثرة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، الرسالة على الصفا كانت الرجل الواحد محمداً عليه الصلاة والسلام، والهجرة كانت الرجلين محمداً وأبا بكر، وفي المسيرة إلى المدينة كان الثلاثة محمد وأبو بكر وعامر بن فهيرة، فهل هناك قلة أقل من هذا؟ ولكنها فيما منحها الله انتصرت على الأكثرية وأعطتكم الكثير، فلا تستقلوا كثيركم اليوم، وحين تصدق النيات، ويلتزم العزم مسيرة الجهاد يمنحكم الله النصر.. ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ (محمد: ٧).

المدينة تستقبل الملك

المدينة المنورة: مأرز الإيمان. دار الهجرة قاعدة الفتح الأول.. أعلنت فرحتها بالملك خالد بن عبد العزيز، كما أعلن أبوه الملك عبد العزيز من قبل فرحته بها.

فرحت بالملك خالد.. يشد الرحال إلى مسجدها.. يصلي فيه، ثم هو يسلم على رسول الله، هي فرحت بذلك، وهو أشد فرحاً به.

وفرحت به على صورة أخرى: صوَّاناً لأمنها. حفيظاً على إيمانها. خادماً لحرمها يفيض بالخير مقدمه الميمون بفتح المشاريع العمرانية بناء

وماء، فإذا هي كعادتها تفرح بالكمال، لأنها بفضل الله عليها صانعة الكمال.

من هنا فرح عبد العزيز المجمع بها، ففي اللحظة الأولى التي تسلم فيها أميرها ابن عبد العزيز الأمير محمد ـ أخوك أيها الملك ـ تم كمال البناء للكيان الكبير.. كأنما المدينة نادت عبد العزيز تقول له: ها أنا قد تم بي الكمال لك.. تؤسس هذا الكيان الكبير.. ترد لي الاعتبار. كنت لأكون اليوم معصومة بك فكل العطاء الذي أعطيته ـ إن لم ألق له شاكراً ـ يكفيني أني نشرت الإيمان والفتح، فإذا كثير من المشركين والكافرين في كل أقطار الدنيا قد زرعوا لي الحب في قلوبهم فحين يتجهون إلى القبلة، وحين يعلو خطيبهم منبراً.. لا ينسون مع أنّى لهم، فينالني بعض الذكر منهم حينما يصلون ويسلمون على رسول الله الذي عز دينه بالهجرة إليّ وارتفع مكان قبره في ترابي على كل أرض.. فاخراً به، شاكراً لأنعم الله عليه وعلي، فالمعدن النظيف نبعه من تراب نظيف، ولست أنت ولا أبوك إلا من أعراق هذا التراب النظيف.. نسباً وحسباً وعقيدة.

ولعلّي ـ وأنت تعيش أياماً في ربوعي تمدني بحياة جديدة ـ ينبغي أن لا أنسى لأذكرك برحمة أبيك لأهلي وعمراني فأحب بكل الجهد أن لا يهدر دم، وأن لا يخرب بناء فأنت أيها الملك ـ تعرف بمن حوصرت المدينة؟! في قباء كان «فيصل الدويش» شاهراً سيفه وسلاحه.

وفي العالية كان أخو حسنة «عبد المحسن الفدم» رديفاً للدويش حاجزاً له رقيباً عليه بأمر عبد العزيز لئلا تكون جامجة من الدويش.

وزاد لبوك هذا الاحتياطي احتياطياً أقوى حينما أرسل إبراهيم النشمي يحاصر المدينة من السافلة «العيون» يخيم في بستان الزهرة.

لقد سألت إبراهيم النشمي ونحن في الخرج وكان صديقاً لي: كيف أبحت لشباب المدينة ورجالها أن يأتوا إلى مخيمك يحملون إلى المدينة سكراً وتمراً وأرزاً وقمحاً، ففي كل ليلة يذهب أكثر من ثلاثين أو خمسين رجلاً يحملون الأرزاق إلى المدينة.. ينفرج بها شديد الحصار كيف فعلت هذا؟!

ـ فقال: ما فعلته عن أمري، وإنما كان ذلك عبد العزيز أمرني أن أرخي الحصار ليطول الدويش.. حتى تصان المدينة من هتكة يهتكها!.

سمعت ذلك فأكبرت عبد العزيز، ذلك عمل الأبطال قادة شعوب الذين يقيمون الممالك.

هذا الخبر لا يعرفه كثير أو قليل من أهل المدينة ولا من غيرها.. أعلنه تحية لك ولأبيك..

والمدينة عجيبة.. جماعة للقبائل جماعة لأسماء الأرض حولها.. أفلا تذكر يا صاحب الجلالة قبل سنوات أكثر من العشرين، وقد سألتني:

ـ هل المدينة نجدية أم حجازية؟

ـ فقلت لك: إنها نجدية حجازية تهامية، فإن شرق منها راكب إلى الشرق في أول شبر منها كان في نجد، وإن غرب راكب منها كان في أول خطواته يعلو سفوح الحجاز «السراة» وإن شمأل راكب منها فخطا خطوات إلى السافلة فقد اتهم.

من هنا.. كانت الهجرة إليها، فقبائل العرب كلهم حولها: غطفان وأسد وتميم ومزينة في نجدها وأسلم وغفار ومن إليهما في حضن حجازها، وفي شمالها، جهينة وبلى وعنزة وفي جنوبها ما تفرع من أنصارها

وخزاعة وقريش ولحيان وهذيل. وهكذا المدينة.. فرحت بك، كما فرح بها أبوك..

وأسأل الله أن يديم عليكم ـ آل سعود ـ هيبة السلطان وأن يديم لكم هذا التفوق فلا تسألوا عن الشاكرين والناكرين، فقد تعود هذا البلد أنه عطاء بلا حدود ولا يهتم بالجحود فكم أعطى، وكم جحدوا!!

قمرية في «لاهور»

لم أسافر منه حتى إلى الحج.. فلم يتيسر لذلك السبيل، وكتبت الرحلة إلى الهند في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢هـ. ركبت سيارة «لوري» ليست هي سيارة البريد.. وإنما هي سيارة قريب لنا مسافرة إلى جدة تذهب إليها أنتظر أياماً حتى تصل الباخرة (علوى) لتقل آخر فوج من الحجيج المسلم في الهند.

وصرعتني رائحة الدخان من (الشكمان.. كان محزوقاً يرسل دخانه وسط السيارة.. فلم أستطع أن أكتم أنفاسي أو أغلق رئتي.. لا أشمه.. لا أتجرعه.. فقد استطاع أن يلفني جسداً داخله، يرغم على الاستنشاق.. أصارع بها إغماءة، فأستلقي على حجر الشيخ محمود شويل ـ يرحمه الله ـ فيتلطفني لا أسقط أرضاً بين أرجل الراكبين أو لا أحشر بين أكياس تمر، أرسلها صاحب السيارة هدايا إلى أصحاب له في جدة.

واسترحنا في (آبار بن حصاني).. كأني بها الجنة المريحة، أستجم فيها من هول الدوخة وأحس فيها راحة النفس أتطلع إلى جبل يستعرض كأنما يريد أن يتناول الساحل أمامنا تذكرته.. عرفته، إذا هو (الأبواء).. يسمونها اليوم (الخريبة).

الأبواء. الأبواء. لها جرس ليس في الأذن.. وإنما في الوجدان من

حنين محمدي يتذكر محمداً. يتذكر طفولة أحمد النبي، عليه الصلاة والسلام، يتذكر كيف كان شعور (محمد) الطفل يوم دفنت أمه أمامه في الأبواء.

ماذا صنعت (أم أيمن)؟! أي كلاءة من السماء كانت تحيط البشير النذير؟! ترعاه. تحميه. بوسائل البشر المنظورة في شخص الحاضنة (بركة الحبشية) أم أيمن. أم أسامة. وترعاه وتحميه بالشيء غير المنظور ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (الضحى: ٦).

سرحت. أتذكر الأبواء في يومين. يوم اليتيم. ويوم الفتح. تذكرت الصحاب في حملة جهد.. في غزو وفتح. في مشقة من عبادة.

كل ذلك يعرض الصورة في جو العراك المؤمل الذي انتصر فيه بالعبادة وانتصر أناس بالعمل والعون (لقد فاز بالأجر المفطرون اليوم) وانتصر الكل بالفتح المبين.. وكان الجزاء قد أعطاه الله لمحمد في صورة عملية كأنما القول له، أتذكر يا محمد وأنت طفل ماتت أمك ودفنت بالأبواء لتذكر اليوم ما أوصلك إليه الله. وكأن هذه السورة قد نزلت تحكي الصورتين ﴿وَالضُّحَىٰ. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١ ـ ١١).

كأنما الصورة في الأبواء في الحالتين تفسيرهما هذه السورة الكريمة إذا اتحدت الأوضاع في الوجدان بين الحالتين حال اليتيم في الطفولة، وهذا يكون فيه محمد الرجل الإنسان، العظيم، النبي، الرسول القائد الهادي الفاتح، الرحمة.

أحسب أن كثيراً من الآيات إذا ما عرضت الصورة المجسدة لأسباب نزولها في حال الواقعة وحال المتلبسين اللابسين لأسبابها أمكن تفسيرها تفسيراً رائعاً، يأخذ بلب المؤمن تتجسد أمامه كل المشاعر، حركة في وجدان، تحركاً لإنسان.

وفسرت السورة فارتعشت نفسي حتى لم أسأل عن الدخان الخانق، دخان مادي، لأني أعيش النور.. من ذكري الحب، والإيمان والمجد لأرتفع ولترتفع عندي قطعة من بلدي، (آبار بن حصاني) كأبهى مكان، وأحلى بقعة.

(آبار بن حصاني) يسميها أمين سعيد في كتابه (الثورة العربية) (آبار بن حسان) أخذا عاجلاً عن اللغة الإنجليزية. نقلاً عن «لورنس» ومن إليه. لا يشعر بأنه قد حرف لأنه لم يألف المكان. وإنما هو ألف عما كان فيها فريق من الضباط العرب العراقيين أمثال نوري السعيد وجعفر العسكري ومولود مخلص ـ يرحمهم الله ـ كان هناك روما للثائرين كما حدثني مولود مخلص نفسه. أرخ «لورنس» فأخذ العرب تاريخهم من أفواه الأجنبي.

(آبار بن حصاني) يجعلها (فيلبى) النقطة التي يمر بها مدار السرطان. جنوب المدينة غرباً وشمال مكة غرباً هو يخطئ الذين يجعلون المدينة المنورة على مدار السرطان ٢٣°/٥ درجة عرضية.

ظهيرة حلوة في (آبار بن حصاني) تفيأت فيها ظلال النجيلات. أنام على (النجم) حتى لقد رأيتني أسترجع نفسي من وحشة الأبد النفور إلى أنس الدواجن والحضري. فالتدجين حضارة الحيوان والحضارة تدجين الإنسان. أو تهجنه يتفاعل مع الأحياء يصنع الحياة قسراً حيناً وطواعية حيناً آخر.

وسرنا نقطع النفوز في (آبار الشيخ) في الأصيل. تبرد فيه الرمال. تسير عليها العجلات. لا (تغرز) أي لا تنغرز في الرمل. تذوب حوله أجسامنا ندفع السيارة إلى المشي. نعين قوة (الماتور) لا يستطيع أن ينقل العجلات إلا بسرعة دائرة على نفسها. لا تجد الأرض الصلبة تدور عليها. ولم (نغرز) (فالسواق) كان جيداً. والجودة طبيعة في سائق الأمس. لقلة السيارات وندرة السواقين. فالقلة جودة. والندرة أجود. سائق الأمس هو السيارة كلفة وتكليفاً. وتسييراً. وشغلاً. وإصلاحاً لأنه لم ينعم بما ينعم به سائق اليوم.

كان سائق الأمس قوة تحرك السيارة أما اليوم فمترف يتنعم طريق مسفلت سيارة مترفة (أوتوماتيك) واستعداد مريح. القوة في أولئك كان حديداً. والترف في هؤلاء (نيكل) براق. السائق كان هو (الماتور) أما اليوم فالسائق هو (الحلية)!!

الحال من بعضه. فرجل الأمس عضل ومشقة. وعرق. ورجل اليوم حضارة وترف. ذلك يحقق المطالب. يحفر الأرض بالأظافر. ويرضى بكوز ماء من شربة (منحسة) أما اليوم فالأرض. تحفر لنا. بأسلوب العلم والآلة. ونشرب الماء المثلج. يحفظ في الثلاجات. (الترامس) وحتى المقاهي استبدلنا فيها كلمة (شربة يا واد). بكلمة أخرى (هات ثلاجة) يعني قارورة ماء مركز بالثلج.

كانوا الحديد والفخار. فأصبحنا القوارير والحرير. ومع هذا فالرضا هناك. والقلق هنا. الرضا والقناعة في رجل الأمس. والسخط والتشهي والأماني والقرف في رجل اليوم.. طبيعة العصر.

ونزلنا في جدة. في ضيافة الأفندي الشيخ حسين نصيف. فأكرمنا كما

هي عادته. لم تكن هناك (أوتيلات) تخفف عن الناس ألا يزحم الآخرين. ميزة ألا تزحم أحداً ألا تكرب أحداً. ولكن الفضيلة في أن تشبع من المودة إذا ما نزلت ضيفاً على كريم. حتى إذا ركبنا الباخرة (علوى) أصبحت كعلبة (السردين) قد كبست الأجسام فيها كبساً. وأخذت الباخرة تترنح. من ضربات الأمواج. وابتلعنا الدوار. الكل مسمر في سريره. لا يستطيع أن يتحرك. لا يطعم طعاماً. ولا يذوق شراباً ولكن الشيخ محمود كأنما قدَّ من حديد. كأنما هو عمود أسمر. قد نحت من صخيرات (سلع) أو من حجر الجرانيت لم يأخذ دوار. لم يستلق على سريره. فقد صادف ذلك أيام صيامه الموقوف. كل اثنين. وكل خميس فصام. وقام يسلق دجاجة يعدها لإفطاره فأوقد (الدافور) ووضع القدر عليه. وبينما هو كذلك جاء هندوكي من عمال الباخرة يهزه. يكلمه. يشير إلى الشمس بأنها كفت. تكلم الهندوكي وهو يرتجف ويقول: الله. الله. هو لا يعني الشمس. وإنما يعني الله حقيقة لأنه لا يؤمن بالله رباً خالقاً. ويشرك به آلهة آخرين. وترك الشيخ محمود الدجاجة والحياة الدنيا. وقام يصلي صلاة الكسوف يقرأ البقرة وآل عمران وقض يتأرجح يميل مع الدوار لم يصب رأسه وإنما يحرك رجله لكنه سمرها كأنما قوة الوجدان في الصلاة قد قهرت قوة التحرك في الجسم.

وانكفأت القدر. واندلق المرق، سقطت الدجاجة على الأرض فلم يعرها المصلي التفاتاً. ولم أستطع القيام لأنقذه لأني كنت عديم الحركة في الجسد. لأتحرك معه. وأنا ساكت أسرح بالقيمة التي اغتصبها مني. وهو يصنع ما صنع. حتى لقد شمخ أرى إنساناً غير هذا الصديق. تبلغ به الحدة في القول أحياناً مبلغاً ينكره الناس عليه. وأكمل صلاته. ورفع دجاجته يغسلها ليضع عليها ماء مرقاً جديداً (تنوة) كأنما هي (تنوة القهوة) أو كأنما

هي (تكحيلة الشاهي) يدغش بها طالب (البراد).

لم أتذكر شيئاً حينما وصلنا إلى الهند، كل القارة كانت الإمبراطورية كدولة واحدة. تحكم بعشرات من الإنجليز يحكمون الملايين. وسرنا شوطاً طويلاً نزعتني فيه المادة من إلهام الذكريات.

ولكن الفجر قد بزغ. والصبح قد تنفس. يعيد الذكرى تهزني هزاً حينما أسمع صوتين: صوت المؤذن. وتغريد القمري. كانت قمرية تغرد على فنن. وأحسبني أعجبت بكلمة (تغرهد) أكثر من (تغرد). غرهدت القمرية فانتزعتني إلى مكان آخر. كل المكان (قباء). وكم لقباء من ذكريات تذكرت فجراً في (قباء) الحبيبة في الجزع على حافة (رانوناء). سمعت في القمري فسرقت نفسي من حمأة المادة إلى حمى الذكريات. بكيت ساعتها وأنشدت:

رب ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شجو هتفت في فنن
فبكاي ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقني
غير أني بالجوى أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

بكيت. فلو أني وجدت طائرة (البوينج) ساعتها لطرت عليها أرجع إلى المدينة المنورة أسمع قمريتي تغرد على نخلة. لا على شجرة ضخمة في (لاهور).

وأقام الشيخ الصلاة. وسمعت الضجيج في هؤلاء المبكرين. يهتفون. (لا إله إلا الله. محمد رسول الله) وهنا تذكرت السورة التي بعد سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ كأنما قد انتظم سباق السورتين يعذر تاليهما إذا ما وصلهما ببعضهما كأنما هي سورة واحدة هي سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أقرأوها معي: ألا

ترون النسق فيها قد اتسق مع السورة قبلها؟! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ١ ـ ٤).

أليست هذه بعد الضحى فيها المن من الله تعالى؟ رحمة منه بهذا اليتيم في (الأبوء) يرتفع ذكره في (لاهور) يجيء اسمه بعد اسم الله. في شهادة لا يتم الإسلام إلا بها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله).. تذكرت ارتفاع الذكر يصل إلى مداه إلى الهند. وإلى أبعد لتكمل الصورة في نظري. تضع الأبواء. تضع مكة. تضع المدينة. كشيء له قيمة حينما تتحد الأوضاع في أسباب النزول. في روعة المعاني. نفهمها من هذا القرآن الكريم.

ورجعت إلى وقاري أعد نفسي كأنما هو النذر أذهب إلى قباء أصلي ركعتين في مسجده ليطلع فجره علي أسمع فيه صوت القمري. وسمعت القمري في (قباء) بعد في فجر يوم جمعة. وفي الجزع نفسه فلم يكن شجياً كذلك التغريد في (لاهور) لأن هذا كان واقعاً ملموساً، أما ذلك فواقعة حركت الخيال أشعلت الذكريات. والخيال والذكريات أمتع لذة. وأقوى تأثيراً من الواقع. ليكون الواقع اليوم هو الممتع غداً حينما يصبح ذكرى. هذا الواقع أشعر بلذته وأنا أكتب لأنه أصبح ذكرى. فما أمتع الذكرى في القلوب المحسة الشاعرة. تعيش عليها. زاد معركة. رفيق حياة. مثار حنين. عزاء كرب. بينما هي كرب وجدان. في تنفس مشاعر. في لظى حب جديد. الذكرى تتجدد. في مذكر يستجد. فالذكريات في يقيني تفسير يتسع له ما ذكره الأستاذ مأمون الشناوي نقلاً عن (فولتير) قال فولتير: الجراح القديمة تغني والجراح الجديدة تبكي.. ليس هذا تفسيراً للذكريات.. وليست الذكريات تفسيراً له؟

ـ صورة:

وعلى ذكر التفسير لسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أذكر ملحة طريفة سمعتها من شيخنا مهذب نفوسنا. شيخ المدينة العلامة الحبر (الألفا هاشم) رحمه الله حضرت أسمع عليه درساً في التفسير. مع تلامذته من قومه. السود الطوال. من قبائل الفلاتة ومن ولد (عقبة بن نافع الفهري) فقد كان سيدهم سواء في المدينة أو في مالي..

قال رحمه الله: يفسر قوله تعالى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الضحى: ٤) فاستعرض التفسير الراجح المشهور ثم عرض تفسيراً آخر. قال: وفسر بعضهم هذه الآية: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ (المدينة) خير لك من الأولى (مكة) سمعت ذلك وضحكت. أعتز كمالكي مدني بهذا الشيخ لم يخرج عن مذهب إمامه. أمام دار الهجرة فأعلن القول المرجوح. كأنما هو يرجحه. إنه تفسير ظريف يدغدغ العواطف. ولا يحجب به الفضل. لأي من المسجدين الكريمين. الحرمين الشريفين.

وكنت معك في أزمتين صنعت لي فيهما لذتين. فصنعت أنا لنفسي سعادتين. ثم أرجعتهما المميين. ثم عادتا تسترجعان في النفس والعقل فكرتين. أسطرهما على قرطاس تسود عليه الحروف بينما هي البيضاء حينما تحدثت أنت وحينما سمعت أنا وإذ أكتب الآن. حديثك عن الحب وعن صنع كل شيء في الازدواج المثنى، من الأزمة، واللذة، والسعادة والألم، والفكرة عشت أحلم في يقظة الهوى، كأنما (توفيق البكري) قد عاد حياة يفيض في عقله الذي أشاعوا فيه الجنون أو أشاعوا عنه لوثة العناد. في عرف الذين لا يرغبون أن تقال لهم الكلمة: لا.. قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم منذ اليوم يقظاناً أو كأنما (مي) قد عادت تعقل كنه

الحديث معها. لا كنه الحديث عنها لأنها لا تطيق استكناه التحدث بالتوافه عن الآخرين. ولا تقبل من الذين إذا ما ذكر اسم واحد منهم أشارت بأنفها تمسكه بأصبعيها كأنما هي تفلة من الأنف. إسقاطاً للقيمة. واعتزازاً بالتقييم.

لقد أشعت الألم من سعادة الأمل. وأشعلت الأمل من تسعر الألم. في هذا اللقاء المفاجئ لم تصنعه أنت ولم ترده واحدة. وإنما صنعته العواطف المتراسلة عن بعد. بأسلوب أن لا قصد. أن لا عمد بطريقة التلبث. أو التلبانية كأنما هو النداء المشع من بطارية يتراسل أصحابها بطريق الإشارة. كأنما هم تلامذة (مورس) أو (ماركوني).

ما الذي ساقك أن تقف؟! ما الذي ساقها أن تمشي؟! ومن الذي سير الواقف؟! ومن الذي أوقف السائر؟! كأنما تسمرت الأقدام لا لتبصم الأرض بأرجل. وإنما لتضع البصمات على قلبين تدفقا فرحاً. مدفوعين إلى مصيرهما المحتوم. ليكون نور البسمة من نار الدمعة. في إشراقة المواعيد. في آلام التملك. من ألم الفقد. تقبض على النادر الثمين بين أصابعك. ثم إذا أنت تتركه يفلت من يدك. لأنك غير قادر على اقتناء الحلية النادرة وإن ملكتها ففرق بين القينة والمملوك. تضن بها ألا تعيش لك. بك. فيك. فدعها لتعيش فيك بس. لا لك. ولا بك. فالقدرة على الالتصاق. ليس لها ضمان الإمساك بالنادر الثمين. إنك تدعها تعيش في ألم حرمان من عيشها في أزمة الوجود. من عيشك في الحيرة. بين ألم الحرمان وأزمة الوجود.

تاريخ وذكريات

وجاعت الحرة

ـ وجاعت الحرة فلم تؤكل بثدييها. وذابت ملابسها فلم يؤكل عرضها. فقد أمسكت بمغزلها ومنسجها تغزل الصوف وتنسج على القماش ما يحلو به فإذا هي تعيش الكفاف «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»..

وليست الحرة هذه واحدة من الأمهات وإنما كان واحداً من الآباء.. فقد كان في بلد عربي حين كانت بلده تخوض أزمة مع هذا البلد.. ما كان ينوي الإقامة غريباً عن بلده فظرف من القرف وظروف العلاج قد وضعته هناك فإذا هو في يم من الأيام وقد يعرفونه من مخالطة بعض الصحفيين. وحين ألقى خطاباً في حفل كبير بين الأكرمين من الرجال بينما هو كذلك جاءه رجل له قدر يستطيع أن يتكلم باسم السلطان في بلده: قال أنت تقيم هنا الآن وتريد أن تطول إقامتك ونحن نعرف قدرك سنعطيك مبلغاً من المال يكفي لإعاشتك أنت وأسرتك.

فقال الرجل: هل أنا أجير عمالة أم هو ثمن مبادئ؟

فقال المتكلم بلسان السلطان «من ده على ده»..

فأجاب: إن كان المال أجر عمالة فإني أرفض ذلك وإن كان ثمناً للمبادئ فأنا أشد رفضاً له.. فإن المبادئ لا تستأجر ولا تشترى.

وتخوف أن يبقى فإذا هو يعود لبلده. فلم يكن مرحلاً منه ولم يكن عاقاً له. ولا أدري كيف من يظن به العقوق لبلده. لترابه. لأهله. أن يظن به الوفاء لبلد آخر وأهل آخرين..

كان الرجل المستأجر الذي رفض هو كاتب هذه السطور.

وعدت إلى بلدي فإذا صديق امتلأ كرشه بما أطعمته وجبته بما أسعفته.. يعرض علي أن أمارس مهنة خسيسة. عرفت بعدها لو أني أطعته لكتب تقريراً إلى طرف آخر يضعني فيه موضع الجاني والخسيس.

لكن الإغاثة جاءتني من الصديق الذي ملاك أخلاقه الاستقامة محمد عمر توفيق فإذا هو يشد أزري يرشحني مديراً لتحرير جريدة البلاد في معية الشيخ حسن عبد الحي قزاز أيام كان رئيساً لتحريرها. فرضيت واستفقت من الوحشة وإن وجدت بعض الاستيحاش من الذين أنكروا علي أن أكون أجيراً أو هم تنكروا لحسن قزاز أن أكون معه فلقيت منه ما يشرح الصدر وتطمئن إليه النفس.

وبعدها. وجرت أمور وأمور وأستشهد بقول الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم اللَّه وإني بحرها اليوم صال
كل شيء مصيره لزوال غير ربي وصالح الأعمال

* * *

وتحدث إلي الأستاذ فؤاد شاكر يرحمه الله قال ما كنت أعلم أنك هكذا. فلقد سألت الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله وهو في مصر. فقلت له: كيف يقبل الزيدان أن يكون أجيراً عند حسن قزاز وعنده رصيد خمسة ملايين ريال.

فأجابه الشيخ محمد سرور تغمده الله برحمته يقول له:

«أسكت زيدان ما يعرف يسرق يومه عيده فلا تصدق ما يقال»..

وحكاية الخمسة ملايين ريال أشاعوا أني أملكها في أكثر من متحدث. وفرحت بذلك على حد قوله «لأن أكون الرجل المحسود. خير أن أكون الرجل المشفق عليه. فعلى أقل تقدير أنك تكون بهذه الإشاعة محترماً. والرجال في حاجة إلى الاحترام وليسوا في حاجة إلى الحب»..

فلقد أسلم الرجال أو الرحال الحنفي ثم ارتد يتبع مسيلمة وقتل زيد بن الخطاب أخا عمر ثم عاد إلى الإسلام. والإسلام يجب ما قبله. فإذا هو في حضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر أبو حفص الفاروق عبقري هذه الأمة: إني لا أحبك فقد قتلت أخي زيداً.

فقال الرجال: وهل ينقص ذلك من حرمتي أو عطائي شيئاً فقال عمر باسم الإسلام: لا..

فقال الرجال: إنما تبكي على الحب النساء..

أدب

الشاعر والناثر!

ـ الشاعر:

ومات «الشاعر» الذي استطاع أن يكون: شاعر الشباب في عصر شوقي!

ومات «الناثر» الذي يصوغ الكلمة.. يعبر بها عن السياسة في أسلوب مجنح، كأنما هو قد انتزع إلى عصره أسلوب «سهل بن هارون» و «ابن الزيات» و «ابن العميد»!.

الشاعر كان: أحمد رامي.. عاش البؤس فلم يرهقه، وإنما هو أرهق البؤس بترف الوجدان. استعصى على المرض. نال من ومضة الجمال فاستحال الجمال إلى جلال.. ذلك أن الوجه تعبير ظاهري، أما الوجدان فهو التعبير الحقيقي.

شاعر الشباب: ما نال هذا اللقب لأنه تزعم جيلاً من الشباب يدخل في زمرة «أبولو»، وإنما ناله يستأهله لأنه عبر عن أماني الشباب في أغاني الشباب، فأثرته «أم كلثوم» ذيوعاً، وأثراها شيوعاً.

أحمد رامي: لم يتبطر لأنه أزاح الكدر، فكثير من إعلان البطر تعبير

عن الكدر! فإذا هو المتواضع ـ تواضع الكبرياء ـ ليس فيه اتضاع الأدنياء.

وتلاقينا في فندق «كارلتون» بالقاهرة، وكان حاضراً هذا اللقاء لفيف من الأصدقاء، ومنهم: ياسين طه، وأحمد فتحي يرحمه الله. وجرى الحديث عن مصر، فإذا بي أقول له: ما من أمة أراد أن يبطش بها الزمن بالمغيرين من الإنسان والمتغيرين من الأبناء.. إلا ومصر قد بطشت به!

فإذا دموع عينيه تنساب.. شاعرة من فؤاد شاعر.

ـ النـاثـر:

أما «الناثر» الفحل.. فحولة التزاوج بين العقل الراجح والعاطفة الراسخة..

عرفناه حين كان عقلاً وعاطفة مع جمال عبد الناصر، فحين أرادوه عاطفة دون عقل ذهب قعيدة البيت، يكفيه ما ناله.. ما استأهله من إكبار العالم كله له: سياسياً واضح الهدف. مصرياً اتضحت به أهداف مصر. عربياً ما عق ولا انشق!

هو من جيل ثروت رغم أنف الشتائم للسابقين، ولا أقول من جيل لطفي السيد.

و «ثروت» هو بطل استقلال مصر.. لا يسأل عن الغوغاء، فأعطى مصر التاج والعرض والسفارات والوزارات في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وكل ما جاء بعده حتى معاهدة ٣٦ كان نموذجاً مكبراً من تصريح ٢٨ فبراير!

قلت «ثروت»، لأن وزراء الخارجية في مصر الذين يعتد بهم التاريخ ستة: عبد الخالق ثروت، واصف غالي، حافظ عفيفي، عبد الحميد بدوي، محمود فوزي، إسماعيل فهمي.

من هنا.. كان محمود فوزي عظيماً حين كان مثل هؤلاء، أو حينما كان هؤلاء مثله!

الناثر «محمود فوزي» لا زلت مغتاظاً منه، فقد أغاظني وأنا شديد الحب له.. حينما انتزع مني الإعجاب به أكثر.. ذلك يوم خطب في مجلس الأمة المصري، وكان رئيسه أنور السادات، يحمل على شاه إيران ـ الإمبراطور الثاني في الشرق الأوسط بمقياس الفجيعة به أو منه كما هي الفجيعة من إمبراطور إسرائيل!

وقف محمود فوزي، كأنما هو عبر عن أسلوبه الثائر بهذه العبارة المجنحة.. يسمعها أنور السادات:

ـ «لقد شاه وجه الشاه»!!.

ما انتزعها من كانت قبله، وإنما هو قد انتزعها من كلمة النبي عليه الصلاة والسلام ـ رسول الوحدة والتوحيد ـ يوم قالها في حنين في وجه هوازن: (شاهت الوجوه).. كأنما محمود فوزي قد شبع من التراث، فأثرى لسانه باللغة، واغتنى وجدانه بالحب، وارتفع عقله بالثقافة.

خسارة.. أن يعيش الرجال يقدمون كل خير لأمتهم، ثم يقتل الرجال في حياتهم عقوقاً لما قدموا من هذا الخير!!.

إن محمود فوزي مات وهو حي، ومن عظمته أن يعيش وهو ميت!.

علي حمد اللَّه

ومضت أيام كنت في غيبة عن بلدي. ومضت أيام كنت فيها أعيش في بلدي.. فلم أسمع خبر موت الصديق الذي أعزني بصداقته حيناً من دهري في المدينة المنورة.

ولم أسمع الخبر إلا قبل يومين من الصديق السيد ياسين طه.. فحين سمعت الخبر منه عاتبته إذ لم يخبرني.. لأني أعرف مدى صداقة أهل السيد لهذا الفقيد.. ما تقدموا بها إليه أولاً.. وإنما هو الذي تقدم بمواقف الشهم كأنه العزوة لهم كما كان العزوة لي..

هذا الصديق كان شهماً ما أبعده عن النذالة.. بذل مالاً كثيراً حملته الشهامة عليه.. وبذل عزماً كبيراً دفاعاً عن الصديق.. كأنه شيخ القبيلة لا يطيق أن يأكل مع نسائه.. فإذا عز رفيق يتناول الغداء معه أو العشاء.

عزاء.. وكلام عن النقد

قال الشاعر صديقك أحمد فتحي يرحمه الله.. وأنت تعرفه.. حريف الحرف العربي.. وصانع الكلمة المترفة ناطقها بزخرف المهندسين وزركشة المترفين الواثقين من قيمة هذه اللغة الشاعرة.. لغة قومك العربانيين.. القوم السراحين.

قال: إن عندكم الشاعر الوحيد.. وسماك.. وقلت هو الشريف وأنت مهيار؟!.

فقال: لا تحاول.. فلن أجزع من ذلك.. لا يجزعني أن أكون المولى لسيد من هوازن كما كان مهيار المولى لسيد من هاشم.

وقلت له: ولن أكون الحاتمي يتعقب سقطات أحمد بن الحسين المتنبي فأنا بينكما رهين المحبسين يعجبه معجز أحمد ويتغنى بذكرى حبيب.. وترنم بعبث الوليد.

وسكت الفتح أحمد بالموت لا يتكلم عن مجد شاعرنا.. لأتكلم اليوم عن الحزن في قلب شاعرنا. لك العزاء.. ومن بارئك السلوان هو جل جلاله بارئ النسمة.. خالق الموت.. مانح الغفران والسلوان.

كلمة قلتها لا تقدم ولا تؤخر ولكنها تعبر عن المشاركة في الوجدان.. جهد البشر لا يستطيع أن يرد مالاً يقدر عليه بشر.

كنت أسير وأمشي بجانب أستاذنا أحمد أمين يرحمه الله وهو يطعم اليتامى في المدينة المنورة فسألته: وماذا صنع صديقك الزيات بعد فقده «رجاء» فقال: لقد دمعت له عين وانفطر منه فؤاد.. ورعف قلم وصبر إنسان..

ثم التفت إلى اليتامى يتلو هذه الآية بغنته الجميلة.. أخذ يتلوها وعيناه تدمعان ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

وتركته لأجد في هذه الآية برهان طريق وصراط سلوك. وتذكرت حافظ إبراهيم وأنا أكتب لك.. تذكرته يسأل المازني: ما بالنا لا نجيد كما أجاد ابن الرومي في رثاء ابنه؟!. ولا نطيل كما أطال؟! إنا نتحفز لنرثي عظيماً قد جاوز السبعين.. فلا نتجاوز السبعين بيتاً.. في قصيدة نرثيه بها.. وابن الرومي قد جاوز هذا العدد إلى أكثر في رثاء طفل ولده محمد؟

وأجابه المازني إجابة مترفة فارهة: إنك ومن إليك ـ يعني حافظ إبراهيم ـ ترثون رجلاً قد حددت أعماله في سنين عدة وانقطعت الآمال فيه فلا مجال للشعر والخيال لأن الواقع قد تحدد وانحصر.. أما ابن الرومي فإنه قد انطلق بالحزن على غاليه يرثي آمالاً تتجسد في خيال عن الطفل يكون منه كل العطاء.. كل الأعمال المجيدة.. فمن هنا اتسع لابن الرومي ما ضاق علينا.. خياله طليق وآماله لا حصر لها.. وخيالنا حبيس.

واقتنع حافظ.. فهل أجد في شاعرنا السرحان ابن الرومي يصوغ آلامه دامعة في حياة لنا تتسع بما نقرأ له؟

ليس في هذا عزاء لك.. ولكنه كسب للفكر العربي كله.. يجبر شاعره أن يبكي ليعلم ويعد ويفتن.

ولك العزاء من أب يعرف قدر الأبناء وحزن الأبناء وحزن الأدباء يا صديقي الباكي!. وشكراناً موفوراً إن صبرت.. وإنك لمن الصابرين بعون الله.. يرحم غاليك ويرحمنا معه. في الموت ما أعيبا وفي أسبابه كل أمر رهن بطي كتابه.

وعن النقد يتكلم.. أثار الصديق الودود سباعي أحمد عثمان في كلمة لي نشرها في الصفحة الأدبية التي يحررها من جريدة المدينة في عددها الصادر يوم الجمعة الماضي. هذه الكلمة قد نسيتها.. ولا أحمد له أن ذكرني بها وإن كنت أحمد له أن ذكرني بخير.

كلام إنشائي.. أرسلته ولا أدري متى كأنما فيه غفلة معلم الصبيان حينذاك.. على حد تعبير الجاحظ.

أما ما أقوله عن النقد فكلام يطابق الواقع الآن.. إن النقد ليس هدهدة ولا دغدغة ولا تدليلاً وإنما هو «الدغدغة بفهر تهرس به رأس الواضع قبل الموضوع». فالنقد الموضوعي أو النقد الباني مثل أخلاق الكتب لا ينطبق والمثال الواقع أو حتى المطلوب.

إن النظر إلى ما قيل لا يدفع إلى النقد.. فالقرية لرائحة الشواء أو طريقة «سنوسكين سنو مقص» لا يأتيان إلا إذا عرفنا من قال.. فالنقد لمن قال لا إلى ما قيل.

وليس هذا التفريق من عندي.. وإنما هو قبس من التفريق.. قد جاء على لسان العقاد فهو لا ينظر إلا إلى من قال.. ومن هنا جاءت قسوته حتى بلغت حد الهدم على كل الذين نقدهم.

وصحيح ذلك.. إنك لا تستطيع أن تنال ما قيل إلا إذا نلت من قال.. ولقد عرفها المازني بعد زمن.. كتب مقالاً بعد عهدي به إلى أكثر

من الثمانية والعشرين عاماً التي حدد بها السباعي عثمان عمر ذلك المقال.

كتب المازني يتبرأ من النقد ويتوب منه لأنه هدم لا بناء فيه.. نشر ذلك في البلاغ.. وحكى قصة ذلك الروماني في الموتور الذي لم يستطع أن يصنع فناً فذهب إلى المكان المقامة فيه أروع التماثيل يمسك فأساً بيده يحطمها.. لا لأنها الأصنام كما حطمها إبراهيم عليه السلام وإنما لأنها عمل بارع لن يستطيع أن يصنع مثله فأحب أن يهدمه.. فعرف إبراهيم المازني من هذه القصة أن النقد هدم فتبرأ منه.

والنقد بذلك على ما فيه من سوء يمسك عصا المؤدب.. يمنح الواغلين.. لا يستحون من الجهل.. ثم هم يستملحون التصدي ليقال عنهم، هؤلاء يعرفون..

أنت حر أن تباهي بجهلك وأن تضاهي العالمين.. لكن القبح أن تجلس بين الرجال تناقض المعرفة والعلم بالجهل الذي تتيه به أو تضاهي.

والمباهاة والمعاناة من شأنك أن تلبسهما أثواباً تغطيك.. أما إذا ما وقفت تنزع الأثواب عن غيرك فهذا شيء تدري بعد ماذا يصنع بك.. على الأقل يقهقه الساخرون.

فسوق الكلام

وفي أكثر من مرة نشرت هذا الأثر من علامات الساعة فشو القلم أي تفشي القلم بكثر الكاتبين والمتكلمين والقوالين فلم يعد القلم كلمة على قرطاس فقد انتشر انتشاراً واسعاً في هذا العصر أكثر من انتشاره في أي عصر مضى. الصحافة جريدة ومجلة والكتاب والإذاعة والتلفاز والندوات والمحاضرات ووكالات الأنباء وخطباء المنابر ومعارك الساسة والإعلان عن السياسة. كل ذلك يجري على لسان القلم، فالقلم هنا تعبير عن الكلمة وما

يضرنا ونحن في هذا الكيان الكبير أن تنتشر الكلمة إعراباً عن الوعي إعلاناً عن الثقافة تعليماً وحواراً ينتصر بكل ذلك الحق ويزهق به الباطل، فلا خير من فشو الكلمة الآن ولا مناص من أن يأخذ القلم حقه من الانتشار ولكن الضير كل الضير والإرهاق كل الإرهاق والضيم كل الضيم أن تهتز الأقلام مشرعة على القراطيس وأن يصول الكلام على المنابر لا تسمع إلا فسوق الكلمة ولم أقل فسوق القلم ذلك أن القلم لم يكن فاسقاً وإن كتبوا به الفسوق، أما الكلمة فإذا ما أصبحت فاسقة تعرت من لباس الفضائل إلى التمرغ بأحوال الرذائل. فلقد انتهى الهجاء بين الشاعر والشاعر بين القبيلة والقبيلة. وتمطت أقلام تصول على المنابر وعلى صفحات القراطيس بالهجاء فسوقاً من الكلام كأنما الحياة قد حرمته الحياة وتعامت عنه العيون وتغطرست عليه الشفتان. فأي معنى لأن أسب الماضي وأي معنى لأن أتبذل في الحاضر كأنني أتراقص مع القلم أمام علبة ليل؟.

إن السباب بين قلم وقلم قد يكون فيه التشفي ولكن ليس فيه الشفاء. فالخصومة التي أمرضت بين اثنين ولهذين الاثنين لن تنال العافية بالسباب بل تزيد وتزيد أمراض التشفي حتى يعز الشفاء وليست الخسارة من سباب على شتم وإنما الخسارة هي أن تشير الأصابع إلى المجتمع تقول: لقد تبطروا فتسافهوا ولقد آمنوا من الخوف فتسابوا وقد رحموا من الجزاء فاستمرأوا وأن يصنعوا الهوان لأنفسهم ولمجتمعهم حتى إنهم يمدون ألسنتهم ساخرين يقولون ها نحن نفعل ذلك بلا رادع، فالذين يتسابون على المنابر لم يجدوا من شعوبهم من قال لهم تحلوا بالوقار وتجنبوا أن تضعوا بينكم حرب الفجار والقارئون أو هم الكاتبون على قراطيس أخرى إما أنهم أصبحوا الشامتين أو أنهم أصبحوا الخائفين.

إن فسوق الكلام يزرع الأحقاد، فإذا لم نجد التقويم لإنصاف القيم فإن هذا الداء وقد استنصر يتأتى على الشفاء كاتب يطعن في نسب قبيلة دون أن يرجع إلى كتاب في الأنساب وكاتب لو عاب نفسه بما صنع لما عاب غيره.

قبيح من الإنسان أن ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

اتقوا فسوق الكلام فإن كانت لهم سوق نافعة اليوم فإنها ستكون الكاسدة غداً.

علـــم

الثقافة تسخّر العواطف

العلم عقل يحجر على الإنسان أن تتبعثر له عاطفة..

والثقافة فؤاد.. يتسع بكل الحب بالمؤثرات الثقافية، كأنما الثقافة رحابة الوجدان.. تتقبل بكل ما تقرأ كل ما يرفضه تاريخ العلم، أو علم التاريخ، فلا ترضى إلا أن تقتنع بكل ما يرضي، أو بكل ما يغضب.

ولست بهذه المقدمة أضع قانوناً، وإنما أشرح تجربة كانت علي.. أعيش فيها. وكنت بها أحيا حياتي الثقافية.

فحين ثارت الحرب العامة، ولم تكن لدي روافد ثقافية، فكل ما أنا فيه: العلم البسيط بأني عربي، فلم تكن عاطفتي إلا وهي الراغبة تشتعل حماستها، لأن ينتصر العرب، فانعدام الثقافة حرمني أن أقف على الحياد بين دولة الخلافة: العاصم لجماعة الإسلام، وبين ثورة العرب: المحارب من أجل القومية.. الرافض للتتريك.

وحين ثارت الحرب العامة الثانية، وأصبحت أنهل من روافد الثقافة.. أعبها عباً، من كل ما يرد إلينا مترجماً عن اللغة الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الألمانية.. فقد حفل تاريخ ثقافتنا العربية من بداية الخمسينات منه بما

ينشر في «المقتطف» و «الهلال» و «المختار» والصحف اليومية، وبما ترجمه لنا: فتحي زغلول، وعادل زعيتر، وعجاج نويهض، وشكيب أرسلان.. حتى الذين ترجموا لنا روايات الجيب.

كل ذلك جعل لأي مصدر ثقافي مكانة في الوجدان.. فرغم الاستعمار واستغواله واستغلاله.. تحملنا عواطفنا أن نفرق بين فرنسا في الشام، وفرنسا في باريس، وبين إنجلترا في مصر أو بغداد وما إلى ذلك وبينهما في لندن..

هذا التوزيع في مشاعر الوجدان.. بغضاء لهم كمستعمرين، إعجاباً بهم كمصدر للثقافة، هو من صنع الثقافة.. لا أقول إنها بعثرت العواطف، وإنما أقول إنها سخرتها! فرنسا في الشام: صفقت لسلطان الأطرش حين اعتلى سطح الدبابة الفرنسية.. أتغنى بقول أبي ماضي:

فيا لك أطرشا لما دعينا لِثأر كان أسمعنا جميعاً

وحين دكت جيوش هتلر الأرض الفرنسية، وأطفأت النور في باريس بكيت على مدينة النور. أضحك منهزمة في دمشق، وأبكي مهزومة في باريس.. أي تسخير أكثر من هذا؟!

وما كرهت الألمان، ولكني لم أكن نصيراً لهتلر، فرغم وعد بلفور، وزرع اليهود في فلسطين.. جزعت أيما جزع على أن تهزم بريطانيا، فأي تسخير للعاطفة أكثر من هذا؟!.

شماتة حين تهزم وهي المستعمرة ـ بكسر الميم ـ وإشفاق أن تهزم في أرضها. ذلك صنع الثقافة.

* * *

أما العلم، فهو في هذا الحوار بيني وبين شيخ لا أحسبه قرأ كتاباً، أو جريدة كان هتلرياً متعصباً. يصفق على صراخ البريطاني من قنابل هتلر، وحين وصل «رومل» إلى العلمين يطل على الإسكندرية ومرسى مطروح، قلت له:

ـ «افرح يا سيدي.. بكرة يصل للقاهرة»!.

ـ فقال وهو يصرخ: «لا.. لا، مصر فيها الله يحميها»!.

ـ فقلت له: ألست تريد انتصار هتلر؟!.

ـ قال: اسمع يا ولد.. أنا أريد انتصار هتلر على بريطانيا التي أذلتنا.. يذيقهم مر العذاب الذي أذاقوه للشعوب.. من أجل فلسطين لا أحزن على تهديم لندن. لعلّ الأمهات البريطانيات يلدن بعد الهزيمة ساسة يحترمون الشعوب ويحرمون أنفسهم أن ينزحوا ثروات الشعوب، وإلا فأي شأن لي بهتلر ينهزم أو ينتصر؟ عواطفي المبعثرة تتوزع كما ذكرت، وعلمه البسيط حصره في عاطفة واحدة.. لا يتبعثر بها عقله، بل إن عقله قيد عاطفته في نطاق قومه وآمال قومه!.

من هنا.. لا أتنكر للثقافة، فاتساع الوجدان على الدنيا كلها علم بها، ولكني أدعو إلى ضوابط: أولها أن يزاوج القارئ بين الثقافة الموروثة ـ أعني التراث ـ والثقافة الوافدة، فثقافة التراث قيد على القاريء يحرمه من رؤية العالم بكل ما فيه، والثقافة الوافدة انطلاقة بالقارئ.. تسخر عواطفه حتى إنها لتبعثرها. فتسخير العاطفة أو بعثرتها هو الباب المفتوح لتقبل كثير من ما يرزح تحته المثقف حتى لا يكون لنفسه إلا بعض الوقت، وحتى يحرم قومه كل الوقت!.

ولست بهذا أجور على الثقافة، وإن جارت علي، فالأمر في ذلك إلى

قول المتنبي:

يهـون علـينـا أن تصاب جسومنـا وتـسـلـم أعـراض لـنـا وعـقـول

التمايز.. لا التمييز بين الجامعات

قرأت خبراً يقول: لقد صدر الأمر بمساواة جامعة الملك عبد العزيز بجدة بجامعة الرياض.. حين قرأت هذا الخبر لم أهتف له لأني استوحشت منه. فمنطوق الخبر فيه شيء مما يوجب الاحتفال به. وفيه شيء أوجب الوحشة منه.

فالمفهوم أن جامعة الملك عبد العزيز في وضع هو الأقل من جامعة الرياض فألزم ذلك صدور هذا الأمر. كأنما هو التمييز لجامعة على جامعة. وذلك غير صحيح ولا هو المطلوب فيما يلزم به هذا الكيان الكبير وحدة في الأرض والدولة والقصيدة قبل ذلك والإنسان بكل ذلك. ومن أجل ذلك. ولا أحسبني أقرر غير الواقع والمؤكد.. ذلك أن الدولة ـ كل الدولة ـ في هذه المملكة العربية السعودية من أعلى مستوى.. الملك. ولي العهد. مجلس الوزراء. وزير التعليم العالي. ليس عندهم ذرّة من هذا التمييز.

وكل ما هو مطلوب لهم وللجامعات ومنه. وللشعب كله. هو التمايز والتسابق لا التمييز لا التفريق وكل ما أعرفه أن واقع الجامعة ـ أيّ جامعة في أرضنا ـ هو الذي يحدد ما هو مطلوب لها. ما هو مطلوب بها. ما هو مطلوب منها. فقد يكون فرع في جامعة الرياض على مسمى واحد مع فرع بجامعة الملك عبد العزيز.. غير أن التوسع في هذا الفرع في إحدى الجامعتين يعطيه من مطلبه الكثير. فعدد الطلاب وعدد الفصول وقيمة السنوات والظروف الطارئة والآمال المتوقعة في أي جامعة هو امتياز حققته.

استأهلت به.. أن تعطي أكثر من جامعة واقعها من هذا كله لا يسأل الدولة أن تعطيه مثلما أعطت الجامعات تلك. فمثلاً. جامعة البترول قد تعطي الكثير كمطلب لما هو واقع من التوسع وما إلى ذلك.

ولن يكون هذا تمييزاً لها كجامعة سعودية على جامعة الملك فيصل مثلاً. وقد تطلب جامعة الملك فيصل في ناحية أو إلى فرع أكثر مما تطلبه جامعة أخرى. فالتمييز ما كان ولن يكون. والتمايز هو المطلوب.. كل على قدر ما يحتاج. كل بالقدر الذي يمتاز به.

من هنا أدعو إلى نبذ ورفض أي خبر تُشتمُ منه رائحة التفريق والتمييز. فهل كان افتتاح تحضير البعثات والمعهد العلمي والمدارس الأخرى في الحجاز تمييزاً له عن بقية السراة وكل نجد. وكل الخليج؟!.

لا. ثم لا. فلم يكن ذلك تمييزاً وإنما هي الظروف والواقع. وحين تأسست وزارة المعارف ـ وقد كان وزيرها سمو ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز ـ ثم له وبه نشر التعليم وتأسيس المدارس في كل بقعة سواء على تاريخ السراة أو في مدن وقرى اليمامة والقصيم والإحساء. فحين افتتحت مدرسة في حائل. فتحت مدرسة في محائل. وفتحت مدرسة في ظهران الخليج. ففتحت مدرسة في ظهران الجنوب. وحين فتحت مدرسة في الليث فتحت المدرسة في العقيل وتثليث. وحين فتحت مدرسة في وادي الرمة فتحت مدرسة على وادي الحمض. وحين فتحت مدرسة في مرج فتحت المدرسة في وادي بيش.

هكذا توحد العلم. وهكذا انتشر بلا تمييز وإنما هو التمايز. ولعلّي في هذا أدعو إلى طرد التربص والاقتناص لخلفيات الأخبار.

طـــب

التطبيب في البادية أو النار والعطار

ـ العربي المسلم هو صانع تاريخ الإنسانية الجديد بالحضارة الأصيلة للإسلام:

كم خطر على بالي أن أكتب بحثاً مطولاً أو حديثاً مطولاً أو مقالة عن التطبيب عندنا نحن في البادية في السنوات الماضية الكثيرة، يوم تركنا هكذا إلى صحرائنا، إلى باديتنا، إلى مدننا التي كانت أشبه ما تكون بالقرى منقطعة عن بعضها، فلولا صلة الحج لانقطعت صلتنا بالعالم كله، هكذا أفصح التاريخ على دعوة الإسلام من اللحظة الأولى على حراء، واحتفل التاريخ بالفتح المبين والفتح العظيم بصنع العربي المسلم حينما توحد تحت كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فصنع التاريخ كله، ليس للعربي الزاحف للهداية، وليس للمسلم الذي واكب الزحف، وليس للعالم المسلم من كل أرض مسلمة، وإنما هو صانع تاريخ الإنسانية الجديد بالحضارة الأصيلة لهذا الدين الحنيف.

الإنسان في حاجة إلى النار

ـ فالإنسان في حاجة إلى النار لم يعرفها إلا بعد أن رآها، والنار لا أستطيع أن أقرر أن مكتشفها واحد لأن الإنسان كحيوان كان يسير في حياته

البدائية بالتهدي عرف الكثير بالتهدي، عرف الطعام القاتل والطعام الصالح، عرف حبة القمح، عرف الفاكهة، فهو ابن الغابة وابن الغيث وابن النهر، فالنهر والغابة والغيث كلها كانت معلمة له تنبت له الزرع، يشخب الضرع فاقتنى الحيوان واعتنى بأن يتكتل في قرية وأن يتجمع في قبيلة وأن يصير إلى شعب وأن يصير إلى أمة وهكذا التهدي علمه الكثير فلماذا لا نقول إن صاعقة أحرقت شجرة فشبت النار فعرفها، لربما احترقت غابة، لربما ارتطم حجران نبع منهما شرار فعرف النار، فالنار لعلّها معرفة الإنسان كله في كثير من أماكنه من قارات، حين عرف النار بدأ بعد معرفة ما يأكل أصبح يعرف النور على أشكال شتى ما أضعفها، ما أقلها.

قناديل الزيت كانت لمبات كشافة

كانت قناديل الزيت لمبات كشافة أشياء ضعيفة حتى جاءت الكهرباء، من هذا كله خطر لي أن أجعل التهدي بالنسبة للتطبيب، وأجعل التجربة عندما أكتب بحثاً عن ذلك لعلّ بعض الباحثين في الجامعات يعنى به فيعطينا نظرية هذه العمليات التي قامت بالتجربة، ولقد قالوا إن هناك من تطورات المدنية فيما قرأنا من قديم ثلاثة اكتشافات، وأنا لا أقول اختراعات، فلا خلق ولا اختراع ولا إبداع إلا الله وإنما هي اكتشافات كما تعلمنا من المفكر الجزائري «مالك بن نبي» حينما قال إن كل ما يسمونه اختراعاً وهكذا إنما هو معالجة الطبيعة بقانونه، يعرف الإنسان قانون ذلك الشيء كالبخار مثلاً قانون الحركة وهو يسبب الحركة فإذا هو تضخم في الحركة سارت القطارات وغيرها، أريد أن أصنع التهدي كهداية لشرح نظرية هذه العمليات التي قامت بالتجربة لهذا سميت موضوعي أو أعلنته «النار والعطار» فالطب كان عندنا ناراً وعطاراً، آخر الدواء الكي ـ الشفاء في ملعقة من عسل فيه شفاء للناس كنص القرآن.

الإنسان والوصول إلى هدفين

ـ وهكذا الإنسان وصل بالتهدي إلى هدفين أريد أن أذكر طرفة ذلك أن الأمريكان بقيادة ماك آرثر عندما كانوا يحاربون اليابان لينقذوا الشرق الذي يتكوّن من سنغافورة وماليزيا وإندونيسيا والفلبين وما إليها فقد استولت اليابان على تلك البلاد في جزائر سليمان في المحيط الهادي فرقة من الجيش الأمريكي أكل بعض الجنود كثيراً من الأعشاب فأوجعتهم أو سممتهم فأبرقوا إلى البنتاجون ـ وزارة الحرب ـ ووزارة الحرب ليست جنرالات فقط وإنما علماء ومهندسون وهكذا، إمبراطورية واسعة لا بد أن يكون فيها كل شيء لأي شيء، سألوا لقد أكلنا بعض الأعشاب فأصبنا بأوجاع أو بتسمم أو هكذا فكان الجواب مضحكاً وعملياً في الوقت نفسه، قالوا لفرقة الجيش الموجودة في جزائر سليمان «كلوا مما تأكله الحمير» ليس لديهم علم أو وقت يبين أي نوع من الأعشاب يأكلون ولم يعطوا فرقتهم الهداية ولكنهم أعطوها التهدي، التهدي عندما يقلدون الحمير والحيوانات، كلوا مما تأكله الحمير، ذلك أن من شأن الحيوانات كالأغنام والخرفان والأبقار والحمير أو غيرها عندما يطرح لها أي طعام أو أي عشب أو أي علف تشمه أولاً وترفض ما تخافه أو تحذره وتأكل الصالح.

قانون ابن سينا وتذكرة داوود

ـ بهذا التهدي وصل الإنسان إلى كثير من أعمدة المدنية والحضارة، وهكذا كنا في جيلنا والجيل الذي قبله وإلى ألف سنة وأكثر، لا أعتقد أنه قد وصل إلى جزيرتنا قانون ابن سينا أو تذكرة داوود الأنطاكي أو أخبار الرازي أو أخبار ابن النفيس من هؤلاء العلماء الذين امتلأت بهم الدولة العباسية وبلاد فارس والشام ومصر وغيرها.

الكي بالنار

فالكي بالنار والسفوف من العطار عملية حققت التجربة في الانتفاع بها والتطبيب بها والعافية والشفاء.

أريد نظرية علمية

فأنا أريد أن أشرح هذه العمليات للباحث في الجامعة لعلّه يضع نظرية لها ويضع أسباباً لنجاح الكي في المكان الفلاني للداء الفلاني للمرض الفلاني، أطمعني في ذلك ثلاث خطوات خطوة في جامعة الرياض بكلية الطب فتحدثت عن النار وعن بعض الأمراض والأدوية، لعلّ بعضهم انتفع ولعلّ بعضهم رفض، وأطمعني بعد ذلك الابن الصديق الدكتور البروفيسور عبد الله باسلامة، فقد دعاني وأخذ مني نوتة كبيرة جداً، قائمة بما أتحدث عنه حول النار والعطار والكي والسفوف والأدوية، وأطمعني أكثر من ذلك الدكتور فؤاد زهران فقد سمعته في الإذاعة يتحدث حيث قال إنه ينبغي للجامعة أن تتفرغ للأبحاث فالأبحاث عالمياً في تقدم كبير جداً، كل يوم اكتشاف، كل يوم تحسين، كل يوم تطور، فالذي يقرأ المجلات الطبية أو المجلات العلمية يجد زحمة شديدة جداً من هذه الاكتشافات وهذا الإبداع، فالعلم في تقدم كأنما هم في سباق مع الحياة، أو كأنما هم يريدون إنقاذ الأحياء من كل ما يعوقهم أو يمرضهم، فجامعة الملك عبد العزيز ممثلة في الدكتور عبد الله باسلامة والدكتور فؤاد زهران أطمعوني أن أتحدث عن النار والعطار.

ثلاثة اكتشافات كبيرة

كما قلت إن هناك ثلاثة اكتشافات كبيرة قرأت عنها قديماً هي اللاسلكي أو التلغراف والنسبية والكهرباء، فقد قرأت مقارنة لعلّ ما قالوه الآن قد تغير

لهذا التطور ولعلّه حدث أكثر مما أقول أو انقلبت الآية في بعض ما قالوا، ولكني أذكر أن ماركوني أسس نظريته في اللاسلكي أو التلغراف وأن نظريته ذات قوانين أسس عليها اكتشافه أي إن هناك نظرية تحققت بها علمياً، أما النسبية وهي نظرية إينشتاين فهي نظرية لا تزال قائمة على الأوراق في الدفاتر وليست هناك نظرية بارزة لها سوى بعض التبريرات حتى إنهم قالوا إنه لولا نظرية إينشتاين لما كان انشطار الذرة والقنبلة النووية وما إلى ذلك.. ومع هذا كله فليس هناك عملية قائمة بذاتها أبرزت نظرية النسبية.

الكهرباء لا قانون لها!

الكهرباء قالوا إنها عملية بلا نظرية، يعني ليس هناك قانون لها، ومعنى ذلك أنه لو قامت حرب مدمرة وقضت على كل معلم من معالم الحضارة لأمكن وجود النظرية في كهف من الكهوف أو تحت حجر من الأحجار فيمكن على أساسها أن يبرز التلغراف واللاسلكي مرة ثانية.

ونظرية النسبية ليست هناك عملية تمثلها، فلو ذهبت النظرية لانتهت النظرية. ولكن قد توجد في دفتر من الدفاتر في أي مكان.

ومصابيح كهرباء أديسون

أما الكهرباء خصوصاً المصباح الذي صنعه أديسون لو زال ودمر ولم يجد الإنسان الآتي بعد نوعاً من المصابيح يصنع مثلها لما وجد نظرية تقوم عليها صناعة المصباح.. لعلّ هناك نظرية تحققت للمصباح وهناك عملية تحققت للنسبية فأنا أريد أن هذه العمليات: الكي بالنار والسفوف من العطار أرجو أن تتحقق لها نظرية ثم هي معالم حضارية قامت عليه جماعة في هذه الجزيرة أو كل الجزيرة بدون تحضير أو روافد من الخارج قد يكون التلقي من شامي عرف الكي لهذا الداء أو مصري عرف الكي لهذا الداء أو عراقي

أو حجازي أو نجدي أو كذا فكما يتناقل الخبر بالرواية يمكن التطبيب بالكي والنار يتناقل من الناس.

التضخم في الطحال

أذكر مثلاً أنني كنت أعاني من تضخم في الطحال وتعب والدي في علاجي ولا يعرف له كياً أو سفوفاً ولا شيء فإذا برجل أسود لعلّه كان من الموالي وكان أردنياً جاء فاشتهر بأنه يعالج الطحال. عالجني فعلاً.

قطع الوريد بين الخنصر والرسغ

هل تعرفون كيف عالجني، في نهاية الخنصر المرتبط بالرسغ هناك عرق قطعه، لعلّه الوريد، قطع الوريد ووضع يدي في ماء دافئ. أصبح الدم يخرج في هذا الماء الدافئ لمدة ليست قصيرة، وحماني على الشريك أو الفطير في الجمر مع الزيتون فإذا أنا قد انتهى مني تضخم الطحال وكأنما الطحال قد أفرغ دمه من هذا الوريد.

أنور المفتي يعجب

عجب من ذلك الدكتور أنور المفتي عندما زرته في عيادته للكشف الطبي علي وشرحت له الوضع كله من الإصابة بتضخم الطحال وأريته ولا تزال هذه العلامة في يدي فاتني أن أصورها لعلّي أصورها الآن مع الصور التي أدفعها مع هذا الحديث لتعرفوا هذا الوريد ومكانه فلا يزال أثر قطع الوريد في إصبعي هذا كما رآه الابن أيمن حبيب أريته للابن أيمن الذي تلقى التسجيل مني فهو واضح ولكني لعلّي آتي بصورة، لأتحدث عن الوسائل مثلاً.

علاج الفتاق بالكي

الفتاق.. معروف بأنه تمزق يصيب الأطفال ويصيب الرجال، من الغريب أنه يعالج بالكي.

كان والدي يرحمه الله يأتيه المصاب بالفتاق وهم كثر كثر بالمئات في أكثر من خمسين سنة أو ستين سنة أنا عاصرت منها أكثر من عشرين أو ثلاثين سنة.. يأتيه الناس وكان يضع المسمار في النار فإذا احمر كواه بين خنصر القدم وفي الحفرة التي تنتهي بين الخنصر والبنصر في القدم كوية بسيطة، وكوية ثانية يرتفع الفتاق.

ليسوا فقط من عامة الناس

ـ ليس هم من العوام أو البادية بل الكثير من المتحضرين ومن كبار السن أنا شاهدتهم، وأذكر قصة.. جاء الدكتور معاذ رئيس البعثة المصرية إلى التكية المصرية وكان ناظرها إسماعيل لطفي شاباً متحضراً أصيب بالفتاق فبواسطة السيد محمد صفوت أخذه إلى أبي وكواه فارتفع فقص القصة على الدكتور معاذ.. أنكرها فأراه الكي وأراه وكشف عليه وقال نعم كان هنا فتاق فارتفع الفتاق.

عملية تشافى منها المئات والمئات

ـ لماذا الكي يكون في هذا المكان بين خنصر القدم والبنصر في تلك الحفرة التي بين الأصبعين؟. عملية تمت تشافى منها مئات ومئات وأنا فعلاً قد عالجت خمسة أشخاص مصابين بالفتاق قبل سنوات أكويهم في نفس المكان وقد عافاهم الله.. هذه العملية أريد أن تبحث.. يكشف على المكان الذي كواه.. ولو جربها بعض الأطباء ليعللوا لنا هذه النظرية ويعطونا نظرية لهذه العملية.

وعلاج اليرقان بالكي

هناك اليرقان ـ الصفراء ـ رأيت مئات الأشخاص يأتون وجوههم كالهرد.. كالكركم أصفر اللون، العيون صفراء.. الطبيب يعرف الصفاري والناس يعرفون الصفاري واليرقان.. قد رأيت مئات من الناس يتشافون بالكي، والكي أيضاً في نهاية الإبهام ـ الأصبع الكبير في اليد ـ في الحفرة والتي يسميها البعض حفرة النشوق.

اليد الأخرى في النشوق

أغرز يدك الثانية في الحفرة كالصورة الموجودة الآن.. لعلّي أضع عليها رقم ٢ كوية بسيطة بالمسمار وكوية أخرى يتشافى المريض باليرقان مئات من الناس شيبان أنا قد تعاملت قبل سنوات قبل أن تكثر عندنا المستشفيات والأطباء العارفون.. كويت ١٦ شخصاً شفاهم الله.. يعني الشفاء مائة في المائة.. منهم رجل بلغ فوق السبعين وهو أخونا وصديقنا يونس بن حمد.. لقيته مرة في سوق حراج مكة عند السبع أبيار وهالني الاصفرار عليه.. قلت له يا عم يونس تعالى لي بكرة الصبح على الريق أكويك.. فجاء العم يونس.. فحميت المسمار على النار وكويته باليد.. فشفاه الله.. ١٦ شخصاً أكثرهم حي إلى الآن.. هذا بالنسبة للكي بالنار.

الكي لعلاج ذات الرئة

نأتي إلى ذات الرئة.. لو كشفت لكم عن جسمي لوجدتم فيه أكثر من ثلاثين أو أربعين كية.. لأني أصبت بذات الرئة مرتين.. مرة وأنا طفل لا أكاد أعرف طريقي بل لم أر إلا صفحة وجه أمي.. ماتت ولا أعرف وجهها ولا شكلها.. لقد جاء الذي يكوي وكان مشهوراً.. رجلاً عظيماً اسمه جزي الظاهري، من الظواهر.. والظواهر مراوحة من ربع بن نحيت

في نجد وفي الحجاز.. كواني فلم يمض أسبوع إلا وشفاني الله، وأصبت وأنا عمري دون الثلاثين في ذات الرئة أيضاً في الخامس من شهر رمضان.. لم أخرج ولم أنزل للفطور.. طلع إلى المجلس والدي يسأل عني.

هي بنت الكلب

ـ قال افتح فمك.. فتحت فمي.. وجد زراقاً بين الثنايا في لحمية اللثة.. فقال هي «بنت الكلب» يتكلم بلهجته الصعيدية لأن والدي من صعيد مصر.. هرع إلى سلامة الريفي «وجزي الظاهري» مات يرحمه الله.. بقي سلامة الريفي كواني ست أو سبع كويات كان فيها الشفاء.

من الغريب أنه يخطط لهذا الكي في مواقع معينة عنده.. أحب للباحث الطبي أن يعرف أنه لا يزال هناك من يمارس الكي على ذات الجم كولد سلامة الريفي أو غيره في البادية.. أحب أن يعرف الأطباء الأماكن التي يحصر فيها الالتهاب الرئوي.

شربت مرق الديك فأصبت بنكسة

ـ كما قالوا مرضت في الخامس من رمضان ولعلّي كدت أتماثل للشفاء فجاءت أختي الكبيرة بديك سمين.. تبغي لي العافية.. سلقته لي وشربت المرق.. أصبت بنكسة المصاب بذات الرئة يمنع عن الدهن وعن السمن وعن اللحم وعن كل شيء.. لا يأكل إلا فطيراً على الجمر وعسلاً.. فهي أعطتني المرق طبعاً أنا مللت العسل والفطير وكنت شرهاً ساعتها.. شربت المرق فانتكست وأصابتني إغماءة وكان على رأسي أستاذنا السيد ماجد عشقي وصديقنا علي حمد الله يرحمهما الله وأقبل صديق نحبه وهو يعرف

السيد ماجد مقدار ما أحب هذا الشخص فقال فلان فلان.. فصحوت من الإغماءة وأنا أشعر بوخزة بجانبي الأيسر.. كان أبي ينتظر خبر موتي.. ولا أنسى أن جاء الدكتور سعيد مصطفى والدكتور الخاشقجي فأعلنوا اليأس من شفائي، أرسلوا لأبي طلع رأني صاحياً فهش وبش.. قلت وخزة بجانبي الأيسر أحضر الكانون في الحال لأن سلامة الريفي مشغول بالحصاد ولا يأتي إلا إذا أدى مهمته الأولى.. وتناول المهمة والدي، وهو يعرف الكي على الفتاق وعن اليرقان وغيرها سواء كان تعلمه من صعيد مصر أو تعلمه من البادية هنا لأنه كان عشراؤه وأصدقاؤه غالبيتهم من البادية كانوا من حرب أو جهينة أو مطير.. فالمدينة ترتادها هذه القبائل.. شب النار.. احمر المسمار.. وضع الرماد يعلم مكان الوخزة التي أشرت إليها فكواني ولم أشعر بصوت لأن كل كوية يكوي بها المصاب بذات الرئة تشعر بطق إذا أصابته النار. لا تقولوا هذا تخريف.. إنه واقع.. قلت له ما أصبت فأعاد المسمار مرة أخرى.

سمعت «طق» فقال قم سالم

حدد الموضع.. كواني فإذا بي أسمع «طق» سمعته قال «قم سالم» في ٥ رمضان مرضت وفي ١٩ رمضان خرجت إلى المدرسة وكنت أستاذاً فيها، بالجنبين بالتهابين.. كويت أكثر من كوية.. رأى الأخ أيمن الكوي.. هذا هو في الزند في الرقبة هنا في الذراع لو كشفت لوجدت كمية كبيرة من الكوي ولكن العاقبة مطلوبة ولا بأس بالنار.

الحطابي الذي كوى الحجيلي

ـ أرجو من الباحث في كلية الطب أن يسأل من يتعاطى هذا الكي..

مرض صديقنا الأستاذ محمد سالم الحجيلي الذي كان مدير المالية بالمدينة ورئيساً لمؤسسة النقد شفاه الله وأمد في عمره مرض مرضاً خطيراً جداً زرناه وزاره الدكتور مصطفى والدكتور محمد الخاشقجي فخرجا من عنده يائسين وركبني اليأس وبعد أن خرجنا وعلى وجه الفجر هبط من جماعته الحجلة حطابة ينزلون عندهم فأحد الشيبان من هؤلاء الحطابة رأى محمد سالم الحجيلي وقال هي «ملعونة الوالدين» كواه كيتين في الرأس فإذا محمد سالم الحجيلي الذي قرر الأطباء موته يعيش إلى الآن بكيتين في الرأس، أنا أصبت بهذه الحمى فكواني والدي هكذا.

الذين ماتوا والذين عاشوا

في أبها انتشر التيفود.. فكل الذين طببوا بالطب الحديث من الأطباء الموجودين هناك ماتوا.. عمر مهدي، حسن طه.. ماتوا ولكن الأستاذ عبد المالك الطرابلسي وغيره الذين طببوا بطب البادية.. بشربة العسل والسمن وكووه، أحياء إلى الآن.. الأطباء عندنا الآن يمنعون أي طعام لمرضى التيفود.. صحيح أن حمى التيفود الآن أصبحت لا شيء بالمضادات الحيوية.. من مركبات المايسين.. وما إليها طببوا بالكي.. في أبها يطببون بالكي.. لو ذهب دكتور إلى أبها وسأل هل مات أحد الذين يتعاطون الكي، لعرف ولهدانا بنظرية عن الأسباب التي سببت ذلك.. أصبت بداحوس في إصبعي.. تآكل إصبعي.. فرغ القيح بدواء العطار.. ملوخية ناشفة، وغيرها.. يعني لصقات يضعونها ويطببون بها.. يستوي الداحوس وينفقع ينزل القيح لكن بقي الأصبع كأنه ميت.. فوالدي يرحمه الله كواني على ظاهر يدي وأنا صغير عمري ١٢ سنة في اليمنى بعد ذلك وأنا كبير في اليسرى.. وانتهى بالشفاء.. ما السبب؟ أنا مستعد عندما يتفرغ أستاذ

للبحث أن أعرض جسمي للكشف.. أريه مكان الكي.. إذا لم يقتنع بالصور المنشورة أريه مكان الكي في اليرقان ومكان الكي للفتاق ومكان الكي للحمى وما كانوا يعرفون أن يفرقوا بين التيفوس والتيفود والملاريا والصفراء وغيرها.. أي حرارة أو سخونة يقولون حمى.. يعالجونها بالكي.. غريب جداً أن تتنوع الحميات لكن كيف تتشافى بالكي في الدماغ.. هذا يحتاج إلى البحث.

صبغة ريح لشفاء مرض العين

شخص من الشبان كان يسبح في البركة كثيراً.. وكانت صفعة من الهواء أصابته بنقطة بيضاء في عينه.. جن أبوه.. لا يوجد أطباء عيون.. كنا نعيش في عدم.. لكنه راح للعطار جد حمزة أطلني يرحمه الله.. أعطاه صبغة ريح.. قال له حط على نقرة العين وصله وبخر له بصبغة الريح.. أقسم إنه بعد ثلاثة أيام زالت الغشاوة البيضاء التي على عينه.

الفلفل الأسود.. الطبيب الأبكم.. الكمون، النانخ.. اليانسون، زيت حبة البركة.. كان واحد قال أنا بردان قلت له اشرب شربة عدس تدفيك وإلا أنا أعطيك قطرتين على الماء من زيت حبة البركة وتشوف كيف تسخنك.. زيت حبة البركة من أحسن الزيوت لدهان ألم الروماتيزم.. للتدفئة.. ولهذا اعتدت وأنا أذهب إلى أوروبا في الشتاء في البرد أن آخذ معي قارورة زيت حبة البركة.. الحبة السودة أدهن بيها.. أنام دفيان لا أسأل على البرد وما يسببه.

الشربة النبوي ما هي؟

لو دعونا طبيباً يصل إلى الشلبي العطار أو إلى أي عطار من القدامى في مكة سله عن الشربة النبوي.. عن النشرة.. عن اللبان الذكر كيف ينفع

للكحة.. عن البندق لازم يدقق قشره ويسخن في الحليب.. القشر يترسب واللباب يصعد فوق الحليب كأنما القشر أثقل من اللباب.. يشرب الإنسان البندق بالحليب يتطهر الحلق من الكحة.

تذكرة داوود وعلاج الكحة

لعلاج الكحة هناك تذكرة داوود ما قرأتها مع الأسف وإنما كان يقرأها أستاذنا ماجد عشقي.. أخبرنا تعرفون أن المجروح كالمصاب بحجر أو المصاب بسكين نبع منه الدم ـ يعطبونه بعطبة.. يعني يطهرونه بعطبة.. خرقة يحطونها في النار.. إذا كان مفقوشاً يكبسون له كبسة بن.. لكن أحسن من هذا كله «بيت العنكبوت» يسميه كما أخبرني أستاذنا ماجد عشقي.. داوود الأنطاكي برغ الساعة.. جربناه فعلاً.. بوضع بيت العنكبوت على الإصبع المجروح ثاني يوم ينضب الجرح كأننا أعطيناه دواء ذا مفعول كبير.

أريد من الطبيب أن يتحقق من بيت العنكبوت.. يحلله لعلّه بنسلين، لعلّه أقوى من البنسلين، لعلّه من مركبات السلفا، لعلّه من مركبات الميوسين وهو أقرب ما يكون إلى البنسلين أو إلى الميوسين أقرب من السلفا.

معالجة الجرب بالزرنيخ

الكبريت والزرنيخ عرفه الناس يعالجون به الجرب.. يعالجون به جراحاً كثيرة.. لا أريد أن أنسى إلى الآن بعض الذين يصابون بكسر في أرجلهم أو ذراعهم لا يؤمنون بالأطباء وإنما يذهبون إلى المجبر البدوي.. كيف يجبر.. كيف يفعل.. كيف يعرف؟.

يمكن معرفة كيف يعالجون الأمراض

ـ ممكن وصفهم وعرضهم على الطبيب هؤلاء المتطببون لكي يعرف كيف يعالجون.. يدرس هذه الحالات.. فيه ظاهرة لهذا التجبير كان يفعلها الدكتور أمين رويحة وهو طبيب ممتاز سوري تخرج من ألمانيا كان يجبر الكسور ليس بالأخشاب وإنما بشرائح القماش.. يسخن المستكة.. ويدهنها فيها ويضعها على الكسور.. كذا عرف أهل مكة وبعض إخواننا أنه أكثر من مكسور رجل أو ذراع طببوا بطيبان ليست من الخشب وإنما بشرائح من القماش معبأة عليها المستكة.. السخنات كلها ما كانت موجودة عندنا.. مرة أصبت ببنت الآذان «التهاب اللوز» أصيب بها السيد أبو الهدى رفاعي فتوفي.. لعلّها كانت دفتريا أو غيرها.. لكنهم قالوا «بنت الأذان» أصيب بها ياسين الرواق وانتشرت في المدينة «معاون أمير المدينة» أبرقوا للأمير فيصل يرحمهم الله جميعاً.. أرسلوا له سيارة.. جابوه في جدة وفي مكة اتعالج.. أنا أصبت بهذا انسد حلقي.. ما أقدر لا أبلع ماء ولا أكل.. رحت للطبيب.. الدكتور محمد علي الطرابلسي رحمة الله عليه دهنني بشوية صبغة يود.. ما سوى شيء وأنا واقف كده وما سوى شيء.. جن والدي هو ما يعرف يكوي هذه الأشياء فإذا به يفطن إلى عجوز.. «أم سحلي» امرأة قصيرة جاءت.. قالت عندكم نخالة.. قلنا لا.. قالت عندكم لبه.. قلنا لها عيش ناشف... دقته وسخنته في النار وحطت شوية رماد وفلفل أسود فيه... لخبطته... حطته على خرقة وعملت لبخة على حلقي.. فما كادت تبرد اللبخة إلا انفك حلقي كأن اللوزتين خرج منها دم وفقت في الحال... بلعتني بيضة مسلوقة وإلى الآن زال الألم... لبخة يعني انتيفرجستين بدوي..

منديل في ماء ساخن على ثدي امرأة

الدكتور سعيد مصطفى مرة مرضت إحدى النساء بالتهاب في الثدي.. لا زال يضع عليه ثلجاً يبرده.. فليس هناك ثلج في المدينة.. ما كان فيه ثلج ولا ماكينة ثلج ولا شيء.. شراب بارد يطبب فجاب منديل أو منشفة خفيفة من الشاش غطسها في ماء ساخنة فايرة.. حركها قليلاً.. حطها على الثدي.. طبعاً سخونة شديدة جداً إذا عرضها للهواء أصبحت كالثلج على طريقة الشراب والدوارق في المدينة تكون حارة لكن متى ما هب عليها الهواء تبرد.. أتحدى أي إنسان الآن أن يروح في العراء ويتروش.. إذا ما مات من النفاضة تعيب عليه.. في المدينة هكذا الدوارق والمشارب تبرد بهفة السموم عليها.. هذا الدكتور سخن الخرقة ووضعها على الثدي كأنما وضع عليها ثلج.. ومريض آخر لا أريد أن أسميه أصيب بإسهال يقول صديقنا السيد ياسين إسهال متدارك حاول أن يعالجه بكثير من السفوف والعلاجات الأخرى.. ما أفاده.. لكن لعلّه قرأ في تذكرة داوود أو في قانون ابن سينا أو في أحد كتب الطب لأنه كان رجل يعلم نفسه، متصل بالقراءة بالمجلات وبالكتب القديمة.. تعرفون ماذا صنع ليتشافى هذا الرجل من الإسهال المستديم.. جاب حنة بلها بالماء لمدة ساعتين.. ثلاثة.. صار يعطيه حقنة شرجية بماء الحنة.. وانتهى الإسهال.

التعامل مع الحنة والحرمل

ـ أريد من الطبيب أن يتعامل مع الحنة ويشوف نتائجها.. كما أريد منه أن يتعامل مع الحرمل.. أنا أعرف شخص تسمم.. جماعة من الأشقياء بلعوه من معجون أفيون أو حشيش تسمم.. كاد يقضي عليه.. شخص من الأشخاص قطع كم قطعة من الحرمل وفوره على النار سقاه لهذا

المتسمم.. دقائق وأسهل وإذا هو بعد نصف ساعة زي الحصان.. تعاملوا مع الحرمل.

كما تعامل الدكتور قناوي مع بذر الخلة وأعطاكم الخلين كما تعامل أطباء مع الملح وكان الكثير ممن أصيبوا بضربة شمس يدهنونهم بالملح ويحطون في أذنهم ملح يغسلون رأسهم بالملح.. كان كثير من المصابين بضربة الشمس والأشياء هذه كلهم يتشافون لما يحطون في أذنهم ملحاً ويصكون لهم رأسهم بالمفتاح.. هذه عملية قد تكون نفسية لكن الملح هو المؤثر.

إبر الملح في الصيدليات

الآن أنتم عندكم في الصيدليات إبر ملح.

تعاملوا مع الحرمل ومع العشب.. مع الشيح.. كانوا يعرفوا واحد مجروح ما يتعافى جرحه.. يقولوا والله لحمه حلو.. ما كانوا يعرفوا مرض السكر.. يعرفوا أن لحمه حلو.. كانوا يسقوه الشيح.. الشيح موجود في الهدى مقطر.. قليل من الشيح يضعوه في الماء يشربها.. سمعت أنهم في الشام قد صنعوا الشيح إبراً أو علاجاً للسكر ولا أريد أن أؤكد هذا الخبر.. الثوم تعاملوا معه أيضاً لتقشيع البلغم فخصائصه كثيرة.. عبد الوهاب القنواتي الصيدلي الكبير في دمشق كتب عن هذا في المجلة وكتب عن خصائص التوم شيئاً كثيراً.. ممكن طلب هذه المجلة ليدرسها بعض الأطباء للبحث.

الطب الهندي تعلمنا منه الكرات.. أي أكلة بيض دايما ندخل فيها الكرات.. المطبق لازم معاه كرات البيض المطجن يطجنوه بالكرات.. لماذا الكرات.. يظهر أن البيض قال فيه ثقل عسير الهضم.. الكرات يعمل

تخفيف.. النفساء يأكلون ليجفف الرحم.. إذا تعاملوا مع الكرات وعرفوا ما فيه من الأشياء فقد تعامل العلماء في الغرب وغير الغرب مع العطار.. فقطرة العين لما تسأل العطار ما تقدر تقول له قطرة زنك تقول له توتياء زرقاء أو توتياء بيضاء.. يعني قطرة الزنك.. صحيح الأول كان يكبسوها بالمرة تبقى محرقة كثيراً، الغرب الآن أخذ التوتيا من علمكم القديم وقطرها بالماء المقطر ١٠٪ أو ١٥٪ فقطرة الزنك هي التوتياء البيضاء والزرقاء.

الرمل في العين ثم الكحل

تسأل العطار الأول عن العين كانوا يقولون العين فيها رمل يحكونها إما بالجنزارة أو بحجر جهنم.. ايش الجنزارة.. أنتم تعرفونها الآن إنها سلفات النحاس.. فيها قطرات موجودة سلفات النحاس وإن أغرقتها قطرات السلفا الآن والكبريتية الآن.. حجر جهنم يجيبوا وصلة كقدر الإصبع وتعقد العجوز تحك عن الولد علشان تندر له الرمل من عينيه.. متعب.. مكرب.. مبكي.. الطب الحديث خفض حجر جهنم سواه ١٠٪ و ٤٪ أو ٥٪ وهو نترات الفضة.

إذاً الجنزارة سلفات النحاس وحجر جهنم نترات الفضة والتوتياء زنك.. وفي الحديث تراب أرضنا به شفاء.. ريق بعضنا شفاء لمريضنا.. لا تنكروا ذلك أنتم على قمة العلاج الذي قضى على السعال الديكي وقضى على التيفود من عفن الخبز ففيه أشياء كثيرة عندنا أنا أسجلها الآن لتكون دليل بحث عمليات أريد أن تقوم عليها نظريات.. ما في تعب أن تبحثوا وتخرجوا للناس شيئاً من علم.. كما قلت إن الدكتور قناوي أتعب نفسه وأعطاكم من بذر الخلة الخلين.. أما السنة مكِّي كشربة لماذا لا تبحثونها.. الحنظل لما يحطوها في النار ويدعسها الإنسان بكعبه يسهل..

ايش التأثير هذا.. نسيت أقول لكم الخاطر مع الكي.. يأكل الإنسان رز بايت.. أشياء باردة تحدث سوء هضم عنده يصاب بقيء أو إسهال لا يكووه في رأسه أو في المعدة في الكعب بالنار يكووه كويتين على طول يخف.. بعض الأطباء من زملائكم تعاملوا بها.. إذاً إسألوا الكعب واسألوا النار.. لماذا يكون الشفاء من هذا الموقع؟.. هل أطيل أم أنا انتهيت؟.. كذلك من علاجات التسمم الليمون بنزهير.. يسموه ترياق بعض الفواكه مثل المشمش والتين وبعض بذور الفواكه.. كل هذا لا تسألوني أنا الذي عندي أعطيته لكم، لكن ممكن الإنسان يزور العطار. يجيب البدوي اللي يكوي عن كذا وكذا كثير.

خسر الإصبع وكسب حياته

يقال إن بدوياً كان راكباً ناقة مر في أشجار تطاولت أغصانها وناقته أمامها غصن بالليل أراد أن يزيل الغصن فلما وضع إصبعه لكي يزيله عن وجهه إذا به ثعبان قرصه ايش سوى؟؟.. بالبديهة البدوية.. بالذكاء سل الخنجر في يده وقطع الإصبع.. السم راح مع الإصبع المقطوع.. جاب شوية تراب حطه فوق صباعه.. خسر الإصبع لكنه كسب حياته.

شراب يزيل أثر قرصة العقرب والثعبان

بجانب القرية حقل به عقارب كثيرة ما فيها خطر أبداً ليه تقرص الواحد على طول فيه شراب يزيل الخطر.. كذلك بعض الأفاعي فيه شراب لها كأنها هي أمصال يجب البحث عن هذا.

الثوم يضعونه على قرصة العقرب

ما دمنا على ذكر العقارب فالثوم يضعونه على قرصة العقرب كعلاج وكذلك يمكن الفصادة محل الحجامة.. الآن كل شيء بطل.. نحن تعبنا

من أمراضنا.. كانت لعيني الشمال شعرة وأنا في مكة قبل عام.. وفي المستشفى الدكتور زكي الورع طبيب العيون بمستشفى جياد وإذا بالمنقاش يعملها لي.. قلت له يا دكتور المستشفى هنا.. إذا كان بالمنقاش أروح لقملة معوض وإلا لواحد حلاق.. أتعرف الذي أزال ذلك وأريد أن أذكره وأسجل له الفضل الدكتور الإنجليزي لانجنيتو.. جاء فتح المستشفى وأصبح يعالج البادية كلها.. كفاهم شر السفر للخارج.

أنا عالجني بالكهرباء خلال دقائق إلى الآن لم ترجع إلي الشعرة.

وعلاج مرض العيون

وما دام ذكرت لانجنيتو بالنسبة لأمراض العيون يجب أن أذكر بالثناء الدكتور الجاوي الذي كان في بيت هولندا في مكة بسوق الليل أيام احتلالها لأندونيسيا بيت الجاوا.. هذا الطبيب تغص عيادته بالبادية.. كانوا يتعالجون من الزهري.. يسمونه الشجر.. يعالجهم بستمائة وستة إبر الزرنيخ ويأخذ جنيه ذهب أو كم ريال.. تعرفون أن هذا الدكتور الجاوي قد قضى على ٦٠ أو ٧٠ في المائة من أمراض الزهري. ولعلّه من الأسباب القوية التي علمت البدوي من البادية ألا يشك في الطبيب وأن يزور الطبيب. فقد كانوا يهربون من الطبيب الآن تصوروا كلما دعت وزارة الصحة إلى التطعيم من الكوليرا أو الجدري وجدت المستشفيات والعيادات بالشعب كله.. يمكن الذوات أو الأرستقراطية الجديدة أو القديمة يأتي لهم الأطباء في البيوت أو ما يعبأوا بذلك.. إنما الشعب أو الطبقة الدنيا هي التي تأتي لتأخذ التطعيم ضد الكوليرا أو غيرها بأطفالهم وأولادهم.. ففيه وعي صحي.. الوعي الصحي أعطانا كثيراً من الفوائد.. الآن ما فيه عور عندنا لأن الجدري انتهى والنظافة أصبحت حقيقة لأن النظافة أزالت العور والكثير من أمراض

العيون.. على إقبال الشتاء تمر تلاقي واحد حاطط خرقة مصبوغة بصباغ أحمر على عينه يداريها من الشمس لأنه كان ما في نظارات.

نسأل اللَّه الشفاء والعافية

وهكذا يعني شاهدنا من التعب والمر نسأل اللَّه الشفاء منه والعافية.

أما جيلنا هذا فتعالوا يا مستشفيات ويا رحلات ويا لندن وأسبانيا ويا.. ويا.. احمدوا ربكم على ما أنتم فيه من نعم الآن.. اشكروا ربكم.. أما نحن فلا نقول إلا الحمد لله.. والإملاء قد ينسيني.

زمزم وما فعلت

ما أذكر، فلقد نسيت زمزم وما فعلت. وزمزم كما بالحديث (طعام طعم وشفاء سقم) ماء زمزم لما شرب له، فلقد مرض صديقنا السيد ياسين طه، بمغص قال الأطباء إنه كلوي تعاطى الدواء الموصوف له، أتعبه كثيراً، ذهبت معه إلى الدكتور صادق، طبيب التكية المصرية في مكة، ولعلّه شك بأنه المغص الكلوي ولم يتيسر الكشف بالأشعة فإذا الدكتور صادق يقول للسيد ياسين اشرب زمزم ولا تشرب غيرها، وخف المغص كثيراً وليس القصد أن أذكر ذلك وإنما هي العجيبة التي أدهشت الدكتور أنور المفتي الطبيب النطاسي البحاثة يرحمه الله، أجرى الكشف على السيد ونظر في الأشعة فإذا هو يندهش. يقول للسيد ياسين، هل أجريت عملية في الكبد لا أجد أثراً للعملية. كيف شفيت. من هذا الخراج في الكبد انظر ها هو قد تكلس. بأي علاج تكلس. قال السيد ياسين لم أتعاط بأي علاج، ولم تجر لي أي عملية، كل ما صنعت أني أكثرت من ماء زمزم ولو عاش الدكتور أنور المفتي لأجري بحثاً عن زمزم وأنتم خلف لهذا السلف، فابحثوا عن ماء زمزم وما فيه أبعدوا عن أذهانكم كلام المرجفين وابحثوا

عن زمزم ومائها كيف تم بها الشفاء، كيف يتم بها الغذاء.

وحادثة أخرى، في مدينة ضباء كان السيد هاشم عشقي مديراً للاسلكي والسيد ياسين طه مديراً للمالية وأخذ العشقي يقود الأتريك فانفجر وكبت النار في وجهه وأحرقته كل وجهه قد التهب ناراً، وفتشوا عن علاج حالاً، لا طبيب ولا علاج فإذا واحد من أهل ضباء يدلهم على عجوز أسرعوا بها فجاءت ولم تلبث أن قالت للخادم معها اذهب جيب العجينة الخميرة التي في البيت، جاء بالعجينة المخمرة، وكانت أحضرت قطعة من القماش نظيفة فصلته على وجه هاشم عشقي وأخذت العجينة ووضعتها عليه، وربطت وجه السيد هاشم وقالت لا تفكوها إلا بعد ثلاثة أيام، وجاءت تفكها بنفسها فإذا الجلد الظاهر من وجه السيد هاشم أصبح قشرة ملتصقة بالعجينة كأنما قد قشر أو سلخ وإذا وجه السيد لا أثر فيه للنار، كان أسمر فلم يبيض وجهه، ورأيناه بعدها كما نعرفه من قبل، وليس في وجهه أي قطعة من الحريق، اسألوا وابحثوا عن العجين الخمير كيف يكون شفاء من الحريق، فلا يترك أثراً، أرجو أن تعرفوا أني ما بالغت وما كذبت، وما قصدت إلا أن يتحقق ما يريده الدكتور عبد الله باسلامة وما وعد به الدكتور فؤاد زهران.

ونسيت أن أذكر علاجاً آخر من ضمن الحمية عن ذات الرئة سواء في حالة المرض أو في دور النقاهة فإضافة العسل ولا غيره وإلى الفطير على الجمر ولا غيره يضاف إلى ذلك الماء المغلي فلا نشرب إلا هذا الماء ويضاف إليه ويوضع في الوعاء.. قارورة.. أو غير ذلك والأفضل القارورة ملعقة أكل أو قليلاً من الشب الأسود المسحوق تترسب ولكن الطعم تذوقه في الماء قلت لسلامة المريض لماذا هذا الشب الأسود قال: يا وليدي يطرح البلغم.. ولديكم الآن في الصيدليات أنواع من الأدوية لهذا الغرض..

صنـاعـة

كلمة عن رابغ . . ؟!

وعجيب أمر هذه الأرض في جزيرتنا، فكل قرية أو مدينة، وكل فدفد أو سهل، وكل الجبل والوادي قد حف بشيء من الثناء علينا، وبكثير من الدعاء بالبركة علينا. . كأنما العربي قبل الإسلام، وقد تغنى بالأطلال، إنما يعرب عن حب الطلل البالي. . كأنما هو يريد أن يكون الطلل القديم جديداً في وجدانه. . وتطور هذا التغني بالطلل والحب للصحراء، والراحة إلى الوادي، والعيش في ظلال النخلة، إلى تعريف مسلم. . فهجر ونجران واليمامة ويثرب قد كانت في وجدان رسول الله ﷺ وهي الأرض ذات النخلة. المكان الذي سيهاجر إليه. . يصف النبق ثمرة سدرة المنتهى بأنها كبيرة كبيرة كقلال هجر. . هجر هي المنطقة الشرقية الآن ـ ويرحب بوفد نجران، وتعطيه اليمامة بالحصار الذي فرضه ثمامة بن أثال الحنفي. يمنع حنظلة اليمامة عن قريش، فإذا هو عطاء اليمامة، تضيق قريش، بالحصار. . يأتون يستشفعون برسول الله. . أن يأمر ثمامة وهوزه بن علي، ألا يمنع حنطة اليمامة عن مكة. . وكأنما فتح خيبر كان زلزالاً في نفوس المشركين لا يرون إلا أنه السبيل إلى فتح مكة والبركة لوج والعقيق ووادي القرى. . كل ذلك الحب للوطن. . فهل أجد كل أهلي أن يحبوا كل قرية. كل

مدينة. بل كان التراب في هذا الكيان الكبير.. نعم، لقد أعطى الملك خالد ـ أطال الله بقاءه وولي عهده الأمين فهد ـ البرهان لهذا الحب.. تعمر الجبيل كأنها للفينيقيين.. هناك الجبيل ذهبتم عن الجبيل تحسبونها لا تعمر بعدكم فها نحن العدنانيين من ربيعة الفرس قد بدأنا نبني الجبيل مدينة صناعية.

وكان العطاء لينبع مثل ذلك.. فقد قال لقضاعة (جهينة ويلي) لقد عشتم في أساطير القحطانيين وتعيشون الآن بما نصنع لكم في حقيقة واقعة يصنعها تفوق هذا الكيان الكبير.

وإذا اللفتة الكريمة من خالد وأخيه.. وفي أيام الحج تلتفت إلى رابغ.. يوضع حجر الأساس لصناعة البترول.. لتكون تحلية الماء لتزرع النخلة.. لتكون رابغ ثغراً ثالثاً على البحر الأحمر.. يضاف إليه ثغر رابع وخامس في الليث والقنفذة.. وكأنما التوفيق حالف التوقيت.. أو أن التوقيت جاد به التوفيق. فرابغ الميقات كأنها باب مكة يحرم من سمائها الحجاج، وعلى ثبج البحر إن مرت السنون وكذلك من كل مار بها كأنما رابغ الميقات قد وقت لها عطاء الميقات في هذه المصانع والمصفاة. وكأنما إذ كانت ميقاتاً استصرخت الوفاء للحرم ومن الذين حول الحرم. وهل تستأهل رابغ الوفاء؟ نعم. بل إنه حقها يحتمه التاريخ يلزم به التفوق.. يعطي وحدة الكيان الكبير التمايز بهذا العطاء لا التمييز.. فالدولة واحدة والأرض واحدة، والعطاء واحد. ولن يأتيني رجل لم ينزع الفولة منه بعد.. يفخر بقرية على قرية. وبمقاطعة على مقاطعة. وبواد على آخر.. فخرنا بالجميع وللجميع.

فالدولة الواحدة والكيان الكبير الواحد حتم أن يتوحد كل فؤاد بالحب الكبير والعميق لكل ذرة من هذا التراب.

وهل لرابغ وفاء ساهمت به في دعم هذا الكيان الكبير؟ نعم.. لقد كان ذلك يوم كانت الثغر المستقبل للأرزاق تأتي من الهند ومن بومباي بالذات يرسلها أعيان القصيم ومن أعيان عنيزة الذي رسخت له قدم التجارة في الهند إبراهيم الفضل صالح الفضل كبير بيت الفضل في الهند وفي عنيزة وفي جدة.

وكان هنالك ثلاثة رجال من أبناء المدينة المنورة.. أبناء القصيم. أبناء عنيزة.. عبد العزيز الخريجي يرحمه الله ومحمد الخريجي أحسن الله إليه وناصر العبد الله العقيل كانوا بما لديهم من مال يستقبلون ما يرسله إبراهيم الفضل.. يمدون مكة وجيش الملك عبد العزيز يرحمه الله بالأرزاق.. فإذا كل نجد وكل الحجاز لا يخشون جوعاً من حصار.. ولكن من أرباح لهم أن تكون رابغ كذلك؟ ذلك الرجل الكبير الشيخ إسماعيل بن مبيريك أمير رابغ فقد كانت تحت إمرة آل مبيريك لا يقصيهم منها أحد في عهد الدولة العثمانية وفي عهد الأشراف وحتى هذا العهد الوفي لإسماعيل بن مبيريك.

إن إسماعيل بن مبيريك عرف بنظرة سليمة أن يكون صديقاً للملك عبد العزيز.. ولم يقتصر مسعى ابن مبيريك على أن يضع رابغ ثغر التأمين والأمان.. فحين امتن عليه الملك عبد العزيز يرحمه الله تقديراً لوفائه أن يكون الأمير لقبيلة حرب فهو حربي من الغوانم يستكثر بابن عسب البيت الكبير في حرب.. ولم يستغول بسلطة زبيد.. لم يأخذ هذه أمارة على حرب مأخذ المستأثر بها. الجافي لأشياخ هذه القبيلة.. بل كان كل مسعاه

أن يبعد كل وحشة في نفس هؤلاء الرجال. فقد كان يقربهم إلى جلالة الملك عبد العزيز ليستأنسوا بعطفه وليعرفوا من هو؟..

فيأخذ الشريف أحمد بن منصور أمير حرب قبله.. ووكيل أمارة المدينة أيام حكم الحسين بن علي يرحمه الله.. يصحبه للسلام على الملك عبد العزيز فإذا هو يلقى التكريم كما لقي أخوه عبد المحسن من قبل وكذلك فعل مع ناصر بن بنيان أمير اللهبة. كما أنه حين لجأ إليه الشريف عبد الكريم بن بديوي أحد أمراء جهينة وأمير الأشراف ذوي هجار احتضنه فأكرمه وأعز شيبته.. وحين أخذ بيد شيخ بشر ومعبد من بني عمرو من حرب ليقدم السلام على الملك عبد العزيز.. كانت هناك ملحة طريفة أرويها للتاريخ.. فقد تبسط الملك عبد العزيز يرحمه الله.. يؤنس الوحشة في الرجال.. فسأل محمد بن حمادي: (أنت أكبر والا إسماعيل؟) فاستمهل ابن حماد قليلاً كأنما يطلب الرضا عن الإجابة فقال: (إسماعيل أكبر بعطفك، وأنا أكبر بعدلك) فاستحسنها الملك عبد العزيز وما غضب إسماعيل بن مبيريك. فأصحاب الأقدار والقيم يعرفون القيمة لهؤلاء أصحاب القيم.

إن رابغ اليوم ستكون متنفساً لجدة.. ستكون زاخرة بالعمران. وعساني بعد، أن أطلب من معالي وزير الزراعة عبد الرحمن آل الشيخ أن يزور رابغ يبشر السيل فيها لعلّه يستحسن أن يكون هناك سد.

ولعلّي في النهاية أكمل بعض الجغرفة التاريخية لثغرنا الحبيب رابغ.

رابغ: بعد الألف باء موحدة. وآخره عين معجمة: وادٍ يقطعه الحاج بين البرداء والجحفة دون عزور، قال كثير:

أقول وقد جاوزت من صدر رابغ نهاية غبرا يفرغ الأكم لها
أألحى أم صيران دوم تناوحت بتريم قصراً وأستحث شمالها

أرى حين زالت عبر سلمى برابغ وهاج القلوب الساكنات زوالها
كأن دموع العين لما تخللت مخارم بيضا، من تمنى، جمالها

تمنى: موضع، وقال ابن السكيت: رابغ بين الجحفة وودان، وقال في موضع آخر: رابغ واد من دون الجحفة يقطعه طريق الحاج من دون عزور، وقال الحازمي: بطن واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب، وقال الواقدي: هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة؛ قال كثير:

ونحن منعنا يوم مر ورابغ من الناس أن يغزى وأن يتكنفا

يقال: أربغ فلان إبله إذا تركها ترد أي وقت شاءت من غير من يجعل لها ظماً معلوماً، وهي إبل مريفة أي هاملة، والرابغ: الذي يقيم على أمر ممكن له، والرابغ: العيش الناعم.

أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

أقرأ الورقة من الخلف

الكلمة ينطق بها إنسان، على أي مستوى وفي أي موضوع، لها منطوق تحدده الألفاظ كما أن لها مفهوماً على طريقة اللازم والملزوم، تتحدد بالإشارة الناطقة ومضة على الشفاه حركة بأي عضل في الوجه، أو أن ذلك قد يكون بعد.. حين لا يعطى المنطوق أي معنى لواقع الكلمة، وإنما العطاء هو للمفهوم.. فمن ذلك مثلاً:

إن عبارة طرد الخبراء السوفيات، وما استملحت كملة (طرد) وإنما العبارة المهذبة أن يقال الاستغناء أو الإخراج لهؤلاء الخبراء.

إن هذا الاستغناء عن الخبراء السوفيات في مصر كان فيه الفخار ـ أسبغه الرئيس أنور السادات يرحمه الله على تصرفه، ولعلّ الواقع كان يعطيه ذلك.. غير أن قراءة الخبر من خلف الورقة كمفهوم، قد اتضح به أن الاتحاد السوفياتي بناء قوي.. إمبراطورية كبرى، لم تهتز لذلك وإنما هي ابتزت به، فقد قالت للذين تستقطبهم: انظروا كيف خرج الخبراء بهذا العدد الوفير من مصر بكلمة واحدة دون أن يكون لذلك رد فعل إمبراطوري، ويعني ذلك أن أي خبير يوجد لدى دولة صديقة لا يعتبر جندي احتلال، فكما فعلت مصر يمكن للدولة الصديقة التي لديها خبراء أن تخرجهم منها حين تريد!.

وهكذا ابتزت إمبراطورية الكرملين، وبعد إخراج هؤلاء الخبراء من مصر، موقف لدى من يعدون أصدقاء لديها، فكثر الخبراء في أكثر من إقليم صديق للاتحاد السوفياتي. فالإمبراطورية الكبرى تدخل من باب الصداقة، ولن تخرج من أي باب آخر، لأن (الصداقة) لدى الإمبراطوريات اسم مهذب عوضاً عن (العملاء) فإعلان الصداقة خدعة، وتسخير الصداقة هو استثمار الخدعة.. فلو تحرك الصديق عن العمالة لكان مصيره مصير (حفيظ الله) وقد قلنا من قبل: إن الإمبراطوريات تقتل العملاء إذا رفضوا أن يكونوا أصدقاء، وتغتال الأصدقاء إذا رفضوا أن يكونوا عملاء..

ـ **ومنطوق آخر**: فالواقع في ما صنعه وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق (دالاس) هو حرمان مصر من بناء السد العالي وإذلالها. أما المفهوم من هذا المنطوق، فهو أن تتحرك العداوة في مصر. تتعامل مع الاتحاد السوفياتي ليمكن الولايات المتحدة، ولو على المدى البعيد، أن تنال من مصر معاهدة السلام مع إسرائيل، والمسيرة على إطار كامب ديفيد وليمكن بعد للولايات المتحدة أن تجري في سماء مصر مناورة (النجم الساطع).

إن ضغط (دالاس) ومن بعده، وإن أعطى إمبراطورية الكرملين مناطق نفوذ، فإنه قد أعطى الولايات المتحدة ما تريد، وذلك: سلامة إسرائيل من مصر وشل الأمة العربية حين تباعدت مصر عن أمتها العربية، أو حين ابتعدت الحكومات العربية عن مصر.

ـ **ومنطوق ثالث**: وهو موقف إسرائيل من القوة المتعددة الأجناس.. ترفض أن تشترك بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا في هذه القوة التي سترابط في سيناء.

إن المنطوق يعني أنها لا تثق بدول أوروبا الغربية، بينما المفهوم أنها تماطل بوجود هذه القوة، مع أن وجودها كان في صالحها لا في صالح مصر.. تريد بهذه المماطلة أن لا تجلو عن بقية سيناء، فهي قد أعلنت تخوفها من تحول الرئيس (محمد حسني مبارك) عن موقف أنور السادات معها، فهناك منطوق سخيف وخبيث، فقد قالوا في إسرائيل أن إطلاق بعض المسجونين المصريين من كتّاب وساسة، تخشى إسرائيل أن يكون خطوة في هذا التحول.

غير أن المفهوم الصحيح، هو أنها لا تخشى خطى التحول ولا تتوقعه الآن، ولكنها تريد إفساد الأوضاع في مصر، فليبق السجناء، وليسجن زعماء.. لتشغل الرئاسة المصرية بهذا الخلل في داخلها، تستمرئه إسرائيل لفرض بعض ما تريد!

وبقيت الكلمة للولايات المتحدة.. هل تخضع لرغبة إسرائيل، أم أن التزامها كدولة ثالثة موقعة على إطار كامب ديفيد يدعوها لأن ترفض أي اعتراض من إسرائيل؟!

ـ صـــور:

بعد مؤتمر فاس.. أتوقع أن يكتب تاريخ تصنعه الشعوب العربية ويتصانع معه الذين يشعرون بأن الحريق الذي أشتعل في فلسطين قد أصبحت شرارته تحوم حول سماء الشعوب العربية كلها.

ـ قال أحدهم: لئن لبس الرئيس أنور السادات يرحمه الله حيناً أو بعض حين صلف (أحمد باشا عبد الغفار) ومن إليه، فإن الأمل أن يلبس الرئيس محمد حسني مبارك شرف (عبد العزيز باشا فهمي) يلتزم بهذا الشرف، ولا

يصاب بالقرف الذي يدعوه أن يقول (إن معدتي لا تهضم عثمان أحمد عثمان)، (إن إطار كامب ديفيد ثوب فضفاض) (حنانيك يا بيغن).. كلمات حفظت عن عبد العزيز باشا فهمي، الرجل النظيف، عن سعد زغلول وعن الدستور وعن حسن نشأت، قلبناها على الصورة التي تقدمت.

قلعـــة صفـــد

تعجزنا الظروف الحاضرة، والوقائع غير المنتظرة، وما إلى ذلك مما يحرم الكاتب نفسه أن يقول للأعور أمامه: أنت أعور.. فيلجأ الكاتب إلى الاجترار من التاريخ القديم يجتر أمثلة فاضحة، يتضح به أن الليلة أشبه بالبارحة، أو أن التاريخ يعيد نفسه، ورجعت إلى أمثلة التاريخ، فوجدتها في (قلعة صفد) ففيها عقوق السلطان وجهاد الإمام واستبساله.

إن مدينة (صفد) لها حظ غريب، فهي من مدن (الجولان) ويمكن القول إنها من فلسطين، وقد قال ياقوت الحموي: إنها في جبل عامل من جبال لبنان، ويعنى بجبل عامل: جبل الشيخ.

فهي إن كانت سورية كواقعها الآن، أو فلسطينية، أو لبنانية، فإنها بهذا التنويع لموقعها تعبير صريح عن وحدة الشام.. تقسمت بين زعامات الطوائف، كما هو الحال في العالم العربي كله، فالتاريخ أعاد نفسه حين أصبح العرب طوائف كما مضى في القديم.

إن (قلعة صفد) سلمها السلطان الصالح إسماعيل بن العادل للعدو الذي احتل ما حولها، فإذا الشيخ الإمام ـ سلطان العلماء: عبد العزيز بن عبد السلام، الفقير من دنياه، الغني بالاتجاه إلى الله، الغني بشجاعة المجاهد..

فقد جهز بالثورة على.. السلطان إسماعيل، يهز كرسيه هزاً، فلم يعبأ الشيخ بغضب السلطان.

وقد حاول السلطان استرضاءه.. يذهب ليزوره وقد كان الشيخ مريضاً، وكانت رجل الشيخ مريضة ممدودة، وحين دخل السلطان لم يكفها ولم ينهض، فزاد غضب السلطان، وأرسل له كيساً من المال.. ذهباً يسلب النفوس الضعيفة التي تبيع أوطانها بالمال، أو التي تبيع نفسها، كأنما هم السماسرة يحتالون في جمع المال.. يسلمونه إلى عدو يزعمون أنه الصديق.

فالمال أصبح هو اللعبة.. كان لعبة المستعمر، واليوم هو لعبة المستقطب.. جاءوا للشيخ بالمال فرفضه، وألحوا عليه، فقال الكلمة المؤمنة المجنحة:

(لو مددت يدي.. لكففت رجلي)..

وأبى الشيخ إلا أن يستخلص الأرض من عدوه، فإذا هو ببصيرة المؤمن يأخذ العبد مرتين.. الملك مرتين.. القتيل مرتين.. العاشق مرة واحدة، وإذا هذا العبد الملك (المظفر قطز) يوم كان رقيقاً في الشام يلبس لباس حلاق.. يدخل السجن ويطلق سراح الإمام..

وما زالت بصيرة الشيخ مع قطز.. حتى كان يوم (واسلاماه) يوم عين جالوت.. يقود (قطز) النصر وعين الشيخ إلى السماء، فإذا التتار ذهبوا كأنهم هباء، فخلص الشيخ الأرض من عدوه، ولكن.. بقي في الأرض ﴿خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩).

أفلسنا نعيش (الغي) اليوم.. من هذه الغواية التي أعادت العرب إلى

دويلات الطوائف. إن السلطان إسماعيل مثل للعقوق وضعف النفوس وجبن القادة.. أما (العز بن عبد السلام) فشجاعة الإيمان، وإيمان الشجاعة.. أكسبته مواقف كان فيها بطلاً مسلماً فالإسلام كان قوميته.. لم يقل: أنا شامي لا شأن لي بمصر، وحين تمصر لم يقل: أنا مصري لا شأن لي بالشام.. فالعقيدة واحدة، واللغة واحدة.. والأرض واحدة، والأمة واحدة، ولن يبقى التاريخ جامداً تصنعه الطوائف، فسينتصر التاريخ بعد زوال هذا التيه بجيل من الشعوب العربية يقول: لا هوان.. يكفينا فرقة واختلافاً وتظاهراً بشجاعة الرفض ورفض الشجاعة..

ـ قلعة صفد: مثل في التاريخ القديم، فما أكثر الأمثلة في هذا التاريخ الحديث..

ـ صـــور:

الرئيس بريجنيف ذهب إلى بون، كأنما هو يعلن للدنيا كلها أن إمبراطورية الكرملين هي التي تملك صنع السلام، فلقد اغتنم الفعل المسترخي من الاتحاد السوفياتي في أكثر من موقع كفرصة يعلن فيها مسعاه إلى السلام.

فإذا عاصمة ألمانيا الغربية تحفل به.. تعلن اتجاهه لتحقيق السلام بين أوروبا والاتحاد السوفياتي، فالفرصة التي سنحت له هي من صنع ردود الفعل تخرج بها على الدنيا إمبراطورية البيت الأبيض، والفرصة الساغة ـ مرة أخرى ـ هي في استثمار هذا التخلخل في حلف الأطلسي يقر نشر الصواريخ متوسطة المدى تحت ضغط الخوف الملوّح من الاتحاد السوفياتي والتخويف الذي تهدد به الولايات المتحدة حكومات الأطلسي تقول: نعم

ازرعوا الصواريخ، وشعوب أوروبا الغربية تقول: لا، فكانت هي الفرصة لبريجنيف.

ولكنني ألمح ظاهرة استربت منها، فحين زيارة بريجنيف لبون، صرحت فرنسا بأنها ترحب بوجود الصواريخ في أوروبا.. مع أن فرنسا موقفها مع حلف الأطلسي يبعد بها عن هذا التصريح العاجل، ولكن الاسترابة أتتني من أنه ربما فرنسا قد رأت في زيارة بريجنيف لبون قوة معنوية للشعب الألماني قد يؤثر على الوفاق بين فرنسا وألمانيا، أو أنه يبعث الحياة في العداوة التاريخية بين هذين الشعبين، فأرادت فرنسا أن تقف هذا الموقف، تحتضن الرغبة الأمريكية.

إن بريجنيف قد أعطى استراحة في (تشاد) كما هي في القرن الإفريقي، كأنه أمهل أصدقاءه أن يتريثوا، فإما أن يتحقق السلام.. ينسب إلى مساعي الاتحاد السوفياتي، وإلا فالزمن طويل.. يمكن إعطاء الإشارة للأصدقاء أن يستأنفوا ما استرخوا به الآن.

كأنما التلويح بالقوة سريعة الانتشار التي زعم الرئيس معمر القذافي أنه سيشكلها.. علامة بأن تكون البداية بها نهاية الاسترخاء، فالاتحاد السوفياتي إن لم يَدَّعيها، فلا ينبغي أن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعامة، فلا بد أن يكون الاتحاد السوفياتي وراءها.

ـ من باب رد العجز على الصدر ذكرت الملك المظفر (قطز) فقلت إنه العبد مرتين، والملك مرتين، والقتيل مرتين، والعاشق مرة واحدة. كأن خاله الملك جلال الدين، فهو من بيت ملك، ثم أصبح ملكاً ـ أحد سلاطين المماليك في مصر، فهما مرتان، وسرقوه هو وابنة خاله (جلنار) وفي سوق النخاسين باعوه، فكان عبداً رقيقاً.. استرق في دمشق.. فلم

يجد وسيلة للوصول إليها إلا أن يبيع نفسه.. يعود إلى الرق مرة ثانية.. وأسعدته الأيام فأصبح ملكاً ومعه حبيبته.. ذهبت قسوة الأيام وجاءت قسوة الصديق فاغتاله الظاهر بيبرس بعد انتصاره في (عين جالوت) ولم يكتف (بيبرس) بقتله اغتيالاً، فقتل تاريخه حتى أصبح (بيبرس) أكثر شهرة من (قطز) فهو بهذا القتيل مرتين.. قتيل الحياة وقتيل التاريخ..

أما العشق، فقد كان لـ (جلنار) ولعلّي لا أجازف إذا ما قلت إن قيمة الملك المظفر (قطز) في التاريخ لا تقل عن قيمة (صلاح الدين) فصلاح الدين شوان انتصر في (حطين) وفتح بيت المقدس فإنه لم يجهز على كل الصليبيين.. أعني الصليبي المحتل والصليبي المسخر.. أما (قطز) فقد أجهز على التتار.

هل عاد جـي موليه؟

لا أدري كيف أبدأ الحوار مع وزير خارجية فرنسا كلود شيسون.. تعليقاً على تصريحه الذي ناقض فيه سياسة فرنسا في اتجاهها نحو الأمة العربية.

أريده حواراً.. أتجنب فيه النقد لأخرج من توتر الأعصاب، ومن الانفعالات لردود الفعل، فالعالم العربي قد أخذ موقفاً لا تتوتر فيه الكلمات من ردود الفعل، فقد سمعوا تصريح وزير خارجية فرنسا ولم يحفلوا بالرد عليه.. انتظاراً للوقت الذي ستسفر فيه الأحداث عن قريب غير بعيد، فلعلّه لن يتأخر عن أول مايو من هذا العام.

لقد هزأ وسخر ببيان البندقية الذي صدر عن الدول التسع، ومن بينها فرنسا، حتى كانت الشتيمة من تل أبيب واحتضنتها إذاعة لندن، لأنها ما كانت ولن تكون هذه الإذاعة صهيونية، كما وعد إسرائيل بأن فرنسا ستبيع السلاح لها كما تبيعه لحكومات الشرق الأوسط جميعها كأنما هو خرج عن الموقف النظيف ـ موقف فرنسا قبل فوز الاشتراكيين ـ فعلى أساس هذه المقدمة أتناول الحديث معه وعن تصريحه بأسئلة أطرحها أكاد أجزم بأنها الأسباب التي حولت الموقف الفرنسي لأن يكون مع إسرائيل، كما كان معها رئيسه الأسبق (جي موليه).

ـ **سؤال**: هل كان من برنامج الحزب الاشتراكي أن يتخذ الخطوات المخدرة للأمة العربية يتطرى معها، يستقبل الزائرين منها، ويقبل الرئيس ميتران أن يزور بعض الحكومات العربية. أم كان هذا الموقف الجديد قد دعت إليه أسباب.. أشرحها كما يلي:

ـ **أولاً**: هل كانت زيارة بريجنيف لبون، والتخوف من العلاقة الجديدة بين بون وموسكو ـ كما ذكرنا في مقال سابق ـ أحد هذه الأسباب التي جعلت فرنسا (تتأمرك) سريعاً، وتتهود أسرع..؟

ـ **ثانياً**: أم أن توطيد العلاقات بين ميتران والشاذلي بن جديد، قبل أيام استغنت فرنسا عن توطيد العلاقات العربية، أو حتى بترول العرب الآخرين، فلعلّ بترول الجزائر يغنيها عن بترول الآخرين..؟

ـ **ثالثاً**: أم أن النهاية لمؤتمر فاس على تلك الصورة سبب قوي أقنع فرنسا بأن تتحول عن العالم العربي الذي لم يعد عالم نفسه، فلعلّ مؤتمر قمة فاس لو نجح لترددت فرنسا كثيراً أن تكون على هذه الصورة: تتهود بها مع إسرائيل، كأنما هذه النهاية لمؤتمر فاس قد دعت فرنسا لأن تكون في هذا الموقف؟

إن هذه الأسئلة أطرحها، وهي ليست مني، وإنما كانت من رجل له قيمة، كلما تحدثت إليه عن مثل هذه المواضيع، وجدت عنده الفهم الدقيق.. كأنه متخصص في استيعاب السياسة العالمية والعربية..

وكأنما فرنسا قد بدأت تتلاعب بهذا التصريح في حلبة، وهي العالم العربي، ولست غاضباً ـ مع أنه لا قيمة لغضبي ـ من تصريح وزير خارجية فرنسا في تل أبيب، وإنما الغضب من هذا التلاعب.. يحاول به المتحدث الرسمي باسم قصر الجمهورية أن يثبته من حيث أراد نفيه، أو يتنافى بهذا

التعليق مع جزء من هذا التصريح، ليكون الإثبات لما بقي منه أقوى، ينفي بعض الكلمات، ولكنه لم ينف عزم فرنسا على بيع السلاح لإسرائيل.

إن الكلمات تذهب مع الريح، ولكن بيع السلاح هو أخطر موقف ضد العرب تقفه فرنسا. إن فرنسا قد تحقق لها ما أرادت.. ذلكم هذا الترحيب المتواضع والصارخ في وقت واحد من إمبراطورية البيت الأبيض التي أشارت بتصريح وزير خارجية فرنسا، (وتلطف) تخشى عليه.. لا من العالم العربي. فذلك عندهم محسوب حسابه، وإنما من شريكات فرنسا في السوق المشتركة.. مع أن الخشية يجب أن تكون لدى واشنطن، لأن دول السوق المشتركة، أو هي الأهم من دول حلف الأطلسي قد فاض بها الصبر من كل ما صنعت الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة قد تستغني عن بترول العرب بما لديها، وفرنسا قد تستغني كما قلنا ببترول الجزائر عن البترول العربي. أما ألمانيا وإنجلترا ومن إليهما، فهم في حاجة إلى البترول العربي، رغم وجود بترول بحر الشمال..

* * *

ـ صـــور:

والشيء بالشيء يذكر: فينبغي أن أتنفس قليلاً، لأنشد أبياتاً من الشعر، جادت بها قريحة شاعر مسيحي.. عروبته أرسخ وأشد عراقة من عروبة بعض اللبنانيين الذين يقتلون أنفسهم باسم الطائفية.. حرباً على العروبة.

هذا الشاعر هو (الشاعر القروي) رشيد سليم الخوري. نظم هذه الأبيات يوم كان مهجرياً في (سان باولو) بأمريكا الجنوبية. إنها قطعة من رثائه لملك العراق (فيصل بن الحسين بن علي) يرحمهم الله:

وقالوا مليك العرْب في الغرب مكرم فقلت: لقد بات المليك مهدَّدا

يمدون للتسليم في (لندنٍ) يداً ويخفون للتسليح في (نينُوا) يدا
نصحتك لا تمدد إلى أبرص يداً ولو أمطرت كفاه دراً وعسجداً
لأمر يلاقيك الفرنجي باسماً فزد حذراً ما زاد ذئب تودداً
تراه صحيح الود، وهو سقيمه كما تكسب الحمى الخدود توردا

سمع شاب تصريح وزير خارجية فرنسا فقال:

إنها دعوة يخطو بها بعض العرب خطوات نحو الاتحاد السوفياتي.

ـ قلت له: وما يدريك؟ إن ذلك هدف من أهداف الاشتراكية، أو هو الهدف الصحيح لليهودية الصهيونية!

الفرص والوقت مع إسرائيل

ما أكثر عطاء العرب لإسرائيل، فكل الفرص، وكل الوقت تكسب منهما إسرائيل مكاسبها: احتلال الأرض، وإذلال الإنسان العربي حين أعطاها أن تستذله.. فإسرائيل العصابة ـ ولا أقول الدولة ـ تتربص ساكنة، فلا تحركها إلا الفرص التي يمنحها العرب لإسرائيل. فهل أستطيع أن أعدد هذه الفرص؟

قد أعدد بعض ما أستطيع، لا كل ما أعرف.. فهل أجدولها مرقمة كالآتي؟ نعم:

ـ **أولاً**: حين أعطت بريطانيا وعد بلفور لم تكن في فلسطين إلا أقلية يهودية فإذا هي ـ أعني بريطانيا ـ تعين مندوباً سامياً يهودياً وبريطانيا في الوقت نفسه، اسمه (هيربرت صموئيل) فكان هو القوة التي بدأت تزرع اليهود في فلسطين.. أمسك بالفرصة الواحدة وهي أنه شطر فلسطين شطرين تحت زعامتين: زعامة أمين الحسيني، وزعامة راغب النشاشيبي، فإذا هما في الخصومة والعداوة قد أعطيا (صموئيل) كل القوة لأن تكون إسرائيل.

ـ **ثانياً**: وانتصر أمين الحسيني، فإذا هو خصيم لكل الزعامات العربية.. سرمدي الزعامة كأن فلسطين وأنسابها ما كانا ولن يكونا إلا

أمين الحسيني. ومن بين هذا العطاء أن حرم الإنسان الفلسطيني أن يكون ثائراً.. حتى (عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني) لم يكونا إلا بطلين في الشهداء بتضحية الواحد منهما وبلا قوة مستمدة من الإنسان الفلسطيني.

ـ **ثالثاً**: وطلعت زعامة جديدة يتخطى الحدود إليها أو بها (أحمد الشقيري) خطيب مفوه، أرسل الكلمة التي ألّبت دول الدنيا على فلسطين (سنلقي بإسرائيل في البحر) لقد نسي (أحمد الشقيري) أن أباه (أسعد الشقيري) كان أحد الذين قادوا إلى مشنقة (عالية) شهداء العرب على مشانق (جمال السفاح) القائد التركي..

ـ **رابعاً**: وجاءت الفرصة الذهبية: تخلي بريطانيا عن الانتداب، فأعطت إسرائيل فرصة أن تكون دولة، كما أعطاها العرب في تلك اللحظة يوم أن جيشوا جيوشهم في حرب مع اليهود عام ٤٨م، جيش عربي يريد أن تكون (غزة) له وجيش عربي يريد أن تكون فلسطين كلها له وجيش عربي يقول قائده: (ماكو أوامر) وجيش عربي ينتظر أن تتم الوحدة في (سوريا الكبرى) في تلك اللحظة، وضابط العلاقات في الجيش السعودي وقد جلس إلى اللواء محمد نجيب والضابط طبال يقول لهما: إننا نستطيع أن نحتل تل أبيب، فالهزائم تلاحق اليهود، فقال محمد نجيب: افرض أننا احتلينا تل أبيب فسيأتي، وبأسرع ما يمكن، جيش عربي يخرجنا منها (..).

ـ **خامساً**: ورفضوا التقسيم، فكانت فرصة إسرائيل أن تحتل النقب، وأن تسفك الدماء في (دير ياسين) وأن تشرد الألوف من الفلسطينيين.

ـ **سادساً**: وتعلمت إسرائيل شيئاً جديداً. كسبته من الفرص التي

خاضت تجاربها مع مصر، فلقد حاربت مصر فاحتلت سيناء في العدوان الثلاثي، ثم جاءت عزمة (إيزنهاور) وسقوط إيدن ـ أسقطته امرأة مصرية اسمها جنان الشواربي، فانجلت إسرائيل عن سيناء، لأن.. الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد أعطيا إسرائيل أنه ليس في إمكانهما أن تخنق مصر وأنه ليس في صالح الولايات المتحدة أن يعود السلطان لبريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط.

وفي المرة الثانية ـ عام ٦٧م ـ وبالفرصة التي أتاحتها المؤامرة الدنيئة من الإمبراطوريتين احتلت إسرائيل سيناء، وأحكمت الخناق على مصر: قفل قناة السويس تقيم (خط بارليف) تستغل آبار البترول تزرع سيناء بعملية علمية غطاء يحجب الماء عن الرمال بغطاء من الرمال ينبت عليه الزرع، فاستمرأت إسرائيل احتلال سيناء بمؤامرة دنيئة أخرى بين الإمبراطوريتين، هي: أن يبقى الوضع في سيناء، وفي الشرق الأدنى كله في حالة استرخاء لا حرب ولا سلم.

ولكن إسرائيل قد أرغمت على الجلاء عن سيناء بالعبور، مع أنها بقيت تحتل الضفة الغربية وغزة والجولان.

ـ **سابعاً**: وجاء العبور نصراً للعرب يحمل في طياته النكسة للعرب، فقد اكتفى (أنور السادات) يرحمه الله بهذا النصر ليذهب إلى القدس وليكون إطار (كامب ديفيد) ومعاهدة السلام، فإذا هي الفرصة الكبرى لإسرائيل أن تلاعب العالم العربي كله حين تلاعب العرب بأنفسهم.. رفض وصمود هو الجمود، فأصبحت إسرائيل لا تسأل عن أي جريمة ترتكبها لأنها ترفض أن تسمع أي سؤال.

ـ **ثامناً**: وانعقد مؤتمر بغداد ليبتعد العرب كلهم عن مصر، لأن مصر

بقيادة (أنور السادات) قد أبعدت نفسها بمعاهدة السلام، إجماع عربي أعطى الفرصة لإسرائيل ألا وهي أن تكون مصر وحدها، وأن يكون العرب أشتاتاً، فبعد لحظات من مؤتمر بغداد، كان العراق وحده، وكانت سوريا وحدها، وكان العرب الآخرون يصرخون.. يدعون إلى التضامن، إلى الوحدة في الصراع لحماية المصير وما كنت أجرؤ أن أقول: أن يطرح المشروع العربي السعودي في مؤتمر بغداد بديلاً عن إطار (كامب ديفيد) لولا أني سمعت حديث الأمير (عبد الله بن عبد العزيز) أن مؤتمر بغداد قد أعلن أنه ضد الاستسلام وهذا أحسن ولكنه لم يعط البديل.

ـ **تاسعاً**: وقد جاء البديل في هذا المشروع العربي السعودي، فإذا الذين قبلوا القرار ٢٤٢ وهو أحد الدعائم لهذا المشروع، قد رفضوا بصورة أو أخرى المشروع السعودي فانفرط عقد مؤتمر القمة في (فاس) وحين أعلن الرئيس (حافظ الأسد) المبرر لتأجيل مؤتمر القمة والتحرك نحو المشروع السعودي فاجأتنا إسرائيل بتنظيم القانون.. تحتل به الجولان، فلو أن مؤتمر القمة قد نجح وتبنى كل العرب هذا المشروع العربي السعودي لحرمت إسرائيل فرصة أن تصنع ما صنعت اليوم بالجولان.

ـ **عاشراً**: لكني ألمح فرصة جديدة، قد تكون في يد العرب الآن، وهي أن الرئيس حسني مبارك قد أصبح في موقف حرج إلى ما لا نهاية.. يعرب به أن السلام مع إسرائيل كذب، وأن الجلاء عن سيناء من صالح إسرائيل، فهي حين احتلتها في المرتين تريد أن تخنق مصر.. تتجنب أن تكون في حرب معها، وما دام أن مصر الآن وبمعاهدة السلام قد أعطت إسرائيل الأمن، فلا معنى لبقائها في سيناء.

ـ **حادي عشر**: فهل بعد ذلك تبقى المفاوضات بشأن الحكم الذاتي، أم أن كل ما يقال عن الحكم الذاتي ما هو إلا فرصة لإسرائيل وغصة تغتص بها كل فلسطين، فأي حكم ذاتي يمكن أن يطمئن إليها بعد أن احتلت الجولان، وبعد أن احتلت الجولان، وبعد استحواذها على القدس كلها؟

إن إسرائيل العصابة لا تؤتمن على عهد، ولا تحترم ميثاقاً، فكل دم الإنسان وأرض الإنسان ينبغي أن يهدر في عقلية اليهود وبجرائم اليهود.

أما الرأي العام العالمي، فقد ضجت منابر (هايد بارك) تعلن مخالفة إسرائيل للقانون، ولا شيء يفيد من هذا أو يردع إسرائيل، ما دام (ألكسندر هيج) كل ما صنعه أنّ (تَهَيَّج) كأنه خطيب أخذه الحماس عن منبر (هايد بارك) أنه يعاقب ليبيا لأنها تخالف القانون الدولي أما إسرائيل، وهي في كل يوم تخالف القانون الدولي، فلا تصنع الولايات المتحدة شيئاً حتى إسقاط الهيبة لها حين لم تستأذنها إسرائيل، كما قال هيج ـ فيما صنعت في الجولان ولو بحكم ما تمليه المعاهدة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

لكنهم اليهود.. قد أصبح الشعب الأمريكي في قبضة أيديهم. فإن ألكسندر هيج وإن تهيج لازال يحسب الحساب لليهود.. يحرمونه من أن يكون رئيساً للولايات المتحدة بعد ريجان كما هو طموحه وكما هي أطماعه.

كل الفرص مع إسرائيل، وكل الغصص يتجرعها العرب.. أكثرها من صنع أيديهم..

ـ صـــور:

(هربرت صموئيل) المندوب السامي الأول في فلسطين.. قد أصبح بعد أن عاد إلى بريطانيا رئيساً لحزب (الأحرار) خليفة لـ (غلاديستون) ولـ (لويد جورج).

استرخاء موسكو وتوتر واشنطن

ـ لعلّي أستعير فهماً من إجابة طرحها جمال عبد الناصر يرحمه الله حين سأله سعيد فريحه لماذا أنت تحمل على الغرب بهذه الصورة؟.

فقال جمال: لقد فاتهم أني تعمدت إثارتهم.

من هذا أفهم ما أطرحه عن الاسترخاء الذي كثيراً ما تلجأ إليه موسكو.. تخطو خطوة عدوان تلوح ببعض القوة، فإذا الغرب كله متوتر الأعصاب، ترسل التصريحات تلو التصريحات، وتعقد المؤتمرات لمجابهة ما خطت به موسكو بأسلوب مشوب بالاسترخاء، مغلف بالتحدي.

إن الاسترخاء نتيجة تفكير عميق، وإعداد موجه، أما التوتر فصورة من التصدي لم تكمل له العدة، أو أنه مجرد كلام لا ينفعل به الاستعداد البالغ القوة كالامتلاك والمعطلة عن الاستعمال احترازاً من أن تكون المجابهة ساخنة. فاسترخاء موسكو يسخن الحرب الباردة وتوتر الغرب ـ والولايات المتحدة بالذات ـ يبقي الحرب الباردة في موقف الذي يقبل كل تحرك من الاتحاد السوفياتي دون مواجهة ودون مجابهة.

ـ حصار برلين في أعقاب الحرب العالمية الثانية: فعل الاتحاد السوفييتي على صورة مسترخية وتوتر الولايات المتحدة انفعال ساخن، كأنما الولايات المتحدة أرادت أن تلقي درساً على موسكو بينما الدرس الصحيح

هو ما فعلته موسكو: بنت السور وعزلت ألمانيا الشرقية، كأنما هو قد ابتدأ الفاصل الذي تقرر فيه شطر أوروبا إلى شطرين.

وكان من ذلك الشطر (بولندا) ألقوها في أحضان الاتحاد السوفياتي فأي معنى لهذا التوتر الآن ضد الاتحاد السوفياتي، ويفتعلون الظنون بأنه سيحتل بولندا.

إنها في أحضانه.. تحت سلطانه، لا يحاربها الآن بسلاح، وإنما كل حربه أن تنشطر بولندا إلى شطرين، فيتهالك الشطران، وأن يسلط عليها التقتير الاقتصادي.

ـ والمثل الآخر: كان التوتر بالغ الشدة في حرب فيتنام ـ مارستها الولايات المتحدة ـ وينتصر الشعب الفيتنامي بالعون من الاتحاد السوفياتي، وعلى طريقة مسترخية، فإذا الولايات التي أرادت أن تقصي الشيوعية عن فيتنام تنسحب من فيتنام بخسارة بمعارضة الشعب الأمريكي..

حتى قالوا إن الشعب الأمريكي يعيش عقدة فيتنام.

والطريقة المسترخية من الاتحاد السوفياتي جعلته اليوم يحتل فيتنام كلها، ولم يخسر شيئاً بل كسب الأرض والإنسان والمذهب.

ـ والمثل الثالث: في ترك الحرب الأفغانية يشنها الاتحاد السوفياتي يطول بها الزمان على طريقة من استرخاء القوة المعتمدة، كما هو عمل الاتحاد السوفياتي مع الحبشة ضد إريتريا مع أنجولا ضد جنوب إفريقيا، قد خطط بالاسترخاء أن يمتد زمن الهلاك للشعب الأفغاني والأرتيري والأنجولي وإفريقيا الجنوبية.

لقد بسط نفوذه على هذين الأرضين، ولا يريد أن يوصف بألفاظ

التمجيد. ولا يهمه شيء من ألفاظ التنديد.. المهم هو هلاك الإنسان، والأهم هو أن يضع الغرب كله، والولايات المتحدة في حالة عصبية من التوتر.. يزرع الخوف في شعوب أوروبا وفي شعوب صديقة الولايات المتحدة.

والأنكى من ذلك أن أصدقاء الاتحاد السوفياتي أو عملاءه لديهم شعور يسقط عنهم الخوف، فهم كزعماء لا يخافون على حياة الشعوب ولا على تقاليد الشعوب ولا على تراث الشعوب، فهذا الوضع قد أعطى الاتحاد السوفياتي وأصدقاءه أن لا يبالوا بما يصنعه التوتر في الغرب، فقد يطفح الكيل، وتكون الكارثة.. حتى أن موسكو قد أذاعت خبراً تتهم خبيراً أمريكياً بأنه عرض عليها أن لا تكون حرباً نووية.. تتجه من واشنطن إلى موسكو، أو تتجه من موسكو إلى واشنطن.. فإن أريدت الحرب النووية أن تشتعل، فلتكن داخل شعوب أوروبا، كأنما هلاك أوروبا هو الحل الوحيد في طلب هذا الخبير، أو هو في اتهام الاتحاد السوفياتي.. هو الحل الوحيد لأزمة التوتر وفاعلية الاسترخاء. ولعلّ هذا الخبر كذبة أو لعلّه اقتراح مجنون.

ـ صـــور:

بعضنا صفق لسلطان الاشتراكية في أثينا، حتى قال واحد من هذا البعض أن أثينا ما زالت أثينا.

وبعضنا لم يصفق لهذا التحول في اليونان، فمنظمة التحرير قد اعترفت بها الاشتراكية اليونانية كأنما هذا كله هو مجد اليونان في صداقتها بالعرب.. مع أن اليونان وإسبانيا والهند كشعوب عريقة الحضارة أبت أن تتنكر للأمة العربية، فلم تعترف بإسرائيل، ولم تصوَّت في هيئة الأمم

لصالح إسرائيل، فاعتراف الاشتراكية بالمنظمة مظاهرة.. تريد الاشتراكية أن تكسب بها عاطفة عربية.

وبعض الذين صفقوا أيضاً لهذه الاشتراكية.. توقعوا أن يكون حرمان حلف الأطلسي من بقاء اليونان عضواً فيه.. يلزم الولايات المتحدة أن تمد تركيا ومصر والآخرين بالمدد الأكثر والأقوى.. تعويضاً عن خسارتهم في اليونان.

لكن الامتحان هو لموقف إسرائيل، فهل ستعطي إسرائيل للولايات المتحدة مكاناً للقواعد التي ستسحب من اليونان، أم إنها لن تعطي ذلك..؟

فأنا على يقين أن هذا الموقف سيفتح الأعين الأمريكية على ما ستفعله إسرائيل.

وأنا على يقين ـ مرة أخرى ـ أن إسرائيل لن تمنح شبراً من الأرض لقاعدة أمريكية.. لا لأنها تخشى الاتحاد السوفياتي أو حلف وارسو، ولكن لأنها لا تريد أن تفقد العون الخفي من الاتحاد السوفياتي لها، ولأنها تخشى أن القواعد لحلف الأطلسي، أو لجيش مستقل عن هذا الحلف للولايات المتحدة.. يحملها أن لا تخطو خطوة عدوان إلا بالإذن من الجيش المرابط فيها، ويعني ذلك أن الامتناع عن الإذن لها بأن تفعل حاجز لها، أو أن إعطاء الإذن معناه أن الولايات المتحدة أو حلف الأطلسي متورط في هذا العدوان من إسرائيل بالعون المباشر، وإن كانت وما زالت تناصر عدوان إسرائيل بطرق غير مباشرة.

ـ لقد جاء اغتيال أنور السادات في وقت توحد فيه (يوماه) يوم عبوره

في السادس من أكتوبر العاشر من رمضان ـ ويوم رحلته إلى القدس في الثامن من ذي الحجة.

فكيف اقترن يوم مجده بيوم جلب السخط عليه؟

عجيب.. أن يقترن يوم السادس من أكتوبر ـ يوم العبور ـ مع يوم الرحلة إلى القدس. فكيف تمت المفارقة ـ المقارنة؟ للتاريخ كُتِبَ ذلك، ولا لشيء آخر..

ـ دعا الرئيس محمد حسني مبارك وسائل الإعلام المصرية أن تكف عن أسلوب المهاترات والسباب. يريد أن يستريح، بل ويريد أن يعلن أن الحرب الكلامية ضد مصر أو من مصر والحرب الساخنة بتحريك الجيوش من مصر أو ضدها، ما هو إلا عطاء لإسرائيل إن لم تماطل في الانسحاب من بقية سيناء، فإنها ستماطل حتماً في بقية المفاوضات التي لا أريد أن أسميها، فكل عربي ينبغي أن يرفض (حكاية) الحكم الذاتي.

لقد فسر (شامير) ذلك حين قال، والمفاوضون المصريون في تل أبيب:

ليس الحكم الذاتي هو في تقرير المصير لألف ومائتي فلسطيني، فليست الضفة الغربية وغزة موطناً للفلسطينيين، فإن وطنهم في شرق الأردن.

إن هذا الموقف من إسرائيل هو الذي دفع حسني مبارك أن يستصرخ العرب والمصريين أن يسكتوا عن السباب ليسكتوا عن رفع الحرب، فأي حرب تشن على مصر معناها: شل قوة مصر أن تفرض ما تريد على إسرائيل.

لمســـات
ورفعنا لك ذكراً

وسلطت الخيال. أغوص في أعماق التاريخ، فوجدتني أجمع بين يديَّ رجالاً أربعة. كل منهم دعا إلى الإيمان بطريق أو بآخر.. فإذا بي أسمع لما يقول ذو القرنين. المصعب بن الحارث اليماني، كما أسمع لحامورابي، وأخناتون، وسقراط.

وتخيلت أن كلهم قد اجتمعوا في صعيد واحد..

قال مصعب بن الحارث ذو القرنين: لقد وصلت بجيشي وبعقيدتي إلى مطلع الشمس كأنما الدنيا كلها قد انطوت بين يدي. فلم يبق لي تأثير ولا متأثر بما زرعته فيهم ولهم. حتى السد الذي بنيت كثرت عنه الأقاويل.. فلئن اعتقد بعضهم أنه وجد فقد كابر الآخرون بأن لا يوجد.. بينما ـ وبعد زمن سحيق ـ ولد بين جبال فاران خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله.. سيد ولد آدم ولا فخر.. فنزل عليه الوحي فكأنما النور الذي سطع بكلمة الله (اقرأ) والذي أنار الكون بكلمة الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١ ـ ٢) قد أضاء الدنيا كلها.. فكان بها التأثر والتأثير.. فاستمد إنسان الأرض الهداية بكلمة التوحيد..

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) وانتشر دينه، وسمت بالقرآن لغته،

وتحضرت شعوب بتعليمه، كل ذلك قد رفع به ذكر محمد.. بينما ما صنعته أنا لم يبق منه شيء.. ولولا فضل الله عليّ.. ذكرت في قرآنه.. لنسينا التاريخ.. بل إن الذين تعسفوا على التاريخ سلبوا اسمي ذا القرنين، ومنحوه للإسكندر المقدوني ـ وما دروا أن القرآن الكريم قد أعطى للأرض العربية وأنسابها أن يذكر تاريخها عبرة وعظة لمن يعتبر ومن يتعظ.. وثناء على الخيرين الذين سبقوا ليكونوا قدوة وأسوة..

وقال حامورابي: أنا صنعت شريعة لا تنكرها مكارم الأخلاق، أردت أن أنظم البابليين على طريق واحد. فحين سطع نور محمد كان حظي من ذلك مثل حظك. لم يبق من شريعتي إلا أن تذكر في التاريخ، لأن شريعة محمد هي الأكمل. وهي النعمة. ولو أن أحداً في زماني تعرض لشريعتي بخلاف لأعملت فيه السيف. ولكن الإسلام حين ألغاها حمدت الله أن منَّ على قومي بالشريعة الأكمل والنعمة العظمى.

وبدأ أخناتون يتكلم فقال: لقد دعوت إلى فكرة التوحيد، حسبت أن قومي سيتخذونها عقيدة لهم، فلي فضل الدعوة. ولكن قومي ظلوا وثنيين.. فجاء الإسلام في فتحه العظيم يوطد دعائم التوحيد، والشريعة الأكمل، فإذا أنا لا أتكدر من الإلغاء، وإنما أنا سعيد بأن ما دعوت إليه قد تأكد.. ليس في قومي فقط وإنما على كل الأقوام..

وقال سقراط: أنا مثلك دعوت للتوحيد فلسفة أريد للإنسان أن يرتفع بها إلى فوق. فإذا الإغريق ما زالوا غارقين في الوثنية. لكن البشرى قد جاد بها الله بهذا الدين المحمدي، لكني أكثر حظاً منك، فقد بقيت أستاذ فلسفة.. والأنكى أني مدين لعلماء الإسلام أنهم كانوا الوسيط في أن يبقى لفلسفتي شأن في الفكر الإنساني.

وصحوت من غفوة الخيال والتخيل فإذا بي أقول: أنت أيها اليمني يا ذا القرنين.. قد استولت في الأرض بقوة الجيش.. فلم يبق لك ذكر هناك.. بينما الإسلام قد تحرك على صورتين: صورة الفتح بالجيش في الأرض التي تعرفه دنياه من قبل. في الأرض التي تفهم لغته من الخليج إلى المحيط. فكل تلك الأرض أرض عربية. وتلك الشعوب شعوب عربية.. عادية.. كنعانية، فينيقية، فرعونية، وحتى بربرية.. لها عراقة العلم بدين أبي الأنبياء إبراهيم ومن بعده من الرسل.. والصورة الثانية وفي الأرض التي وصلت إليها بجيوشك لم يكن الفتح العظيم فتح سيف إلا فيما قل.. في أطراف الجزيرة، وأطراف المغرب. فكان القبول للدعوة بالدعوة. فاستقر الإسلام في تلك الشعوب من شرق الكوفة إلى كشغر، ومن شمال فاس والقيروان إلى قرطبة (الأندلس) وكذلك حامورابي لم تكن شريعته إلا قبساً لم يستطع أن يغمر دنياه بالنور.. وكذلك أخناتون وسقراط انحصرا في الفكرة الواحدة فانحسرت شعوبهما عنها.

وهنا سمعت صوت النداء (الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وإذا بصوت آخر يقول: لقد حاولت أن تفسر قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤) قلت: لعلّي قد أرضيتك وأنه ليتم الرضا أن تعرف أن وعد الله حق. إن الرسول النبي موسى عليه السلام كانت دعوته يوم سار في الوادي المقدس طوى حتى وصل إلى الطور وكلم الله تكليماً ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي. وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ (طه: ٢٥ ـ ٢٨) كان ذلك طلب الرسول النبي موسى عليه السلام، فاستجاب الله له. أما الرسول النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد منَّ الله عليه بذلك ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ١ ـ ٤) شرح صدره لقبول التكليف فكان من أولي العزم،

وشرح صدره ينتزع الملكان خط الشيطان، ورفع ذكره حتى اليسر فقد منّ الله بعد كل عسر.. أما عقدة اللسان فقد براه الله منها. فالقرآن هو البيان، والرسول محمد لسان مبين صاحب جوامع الكلم. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤) ففي الأذان يذكر اسمه خمس مرات، وفي الإقامة مثل ذلك. وفي الصلوات الخمس تسع مرات في كل تشهد.. فأي تكريم من الله رفع به ذكر عبده ورسوله خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين. ثم ما أكثر الآيات في الثناء عليه ﷺ.

بولندا بعد بغداد

إن التبرير الأمريكي للغارة اليهودية الإسرائيلية على بغداد.. تخترق الأجواء العربية لا تحترم قانوناً.. ولا ميثاقاً.. إن هذا التبرير وعلى لسان الرئيس رونالد ريجان، فيه اعتذار عن إسرائيل للبقية الباقية من الأصدقاء للولايات المتحدة، وفيه الإنذار لهؤلاء الأصدقاء بالذات، وفيه الإباحة تجترم على القانون والميثاق، وعلى كل المنابر في (هايد بارك) في عواصم الدنيا كلها.. إباحة صريحة تدعو الاتحاد السوفياتي بعد أن احتل الأفغان أن يحتل بولندا.

فما دامت المشاعر الصادقة ـ كما هو زعم التبرير ـ أباحت إسرائيل أن تدمر المنشآت النووية في العراق، فإن الدعاوى المعلنة من الاتحاد السوفياتي ـ برر بها احتلال الأفغان ويبرر بها احتلال بولندا ـ هي أكثر صدقاً من مشاعر الطغاة، لأن يفعلوا ما دعا إليه التبرير الأمريكي.

إن بولندا في مواقف الاتحاد السوفياتي معها تدعوه لأن يباشر عملاً عسكرياً يرد به العصيان على المذهب الشيوعي، والسخرية بإمبراطورية الكرملين، وما سيحدث من هزات في حلف وارسو.. فكل هذه المبررات تدعو الولايات المتحدة لأن يكون صادق المشاعر في اتخاذ أي عمل عسكري ضد بولندا.

من هنا اتهم التبرير الأمريكي بأنه أراد التخلص من أي موقف له ضد الاتحاد السوفياتي في بولندا.

ولعلّ الولايات المتحدة الأمريكية حين اعتذرت عن إسرائيل وأعطتها هذا التبرير.. أعطت لنفسها تبريراً آخر تعتذر به عن تخليها نحو الأفغان، وعن تخليها نحو بولندا.

أما الإنذار، ففيه الإيعاز لأصدقاء الولايات المتحدة في غرب أوروبا. وفي الشرق الأوسط كأنما تقول لهم: إني سوف لا أتورط بأي تحرك ضد حلف وارسو، وبأي تحرك ضد إسرائيل فأي حرمة الميثاق بعد هذا.

إنه لا ميثاق، وإنما هو توثيق العلاقة بالطغيان، فمن الوهم أن يظن أي معلق على الأخبار.. يعطي نفسه أن الولايات المتحدة، والرئيس ريجان بالذات، قد أحرجته الغارة الإسرائيلية على بغداد، أو أن غزو بولندا سيحرجه أيضاً، ولعلّي أزعم صادقاً أن الولايات المتحدة لم تحرج بذلك، وإنما هي ستخرج على الدنيا بكسب جديد: طاعة مفروضة أكثر على حلف الأطلسي. تطوع أكثر من أصدقاء الولايات المتحدة، فإنها بهذه الإباحة وهذا التبرير تعطى الاقتسام الأرض. وصيانة المصالح التوزيع بينها وبين الاتحاد السوفياتي للأرض والأقاليم، ولنفسها صون المصالح كما تزعم.

فمن الوهم أن توصف الولايات المتحدة بالغفلة، أو أنها تتصرف بحماقة القوة.. لأن الصحيح أنها تتصرف على صورتين: صورة الاسترضاء للاتحاد السوفياتي، وصورة الاستحواذ على ما تريده من الأقاليم، فإن تبرقعها بدعوى فوضى الحرية، وحرية الفوضى.. ما هو إلا ستار كثيف قد وجدنا فيه ثغرة أطلت علينا، وهي أن الولايات المتحدة قد استطاعت أن

تبرر الطغيان، وأن تلغي الميثاق، وأن تجعل من مجلس الأمن منبراً من منابر هايد بارك!!

فـرنسـا:

حين تولى السلطة الحزب الاشتراكي، وفاز بالرئاسة فرانسوا ميتران. تخوف حلفاء فرنسا وأصدقاؤها، فأسرعت ألمانيا وبريطانيا، وحتى الولايات المتحدة تريد أن تعرف ماذا سيصنع (فرانسوا ميتران) هل يعطى للشيوعيين دوراً، هل سيكون أكثر تطرفاً من الديجوليين أم أنه يمثل الوسط بين ذلك؟..

وتخوف العرب الذين بينهم وبين فرنسا عقود وصداقة: هل يخرج عن الديجولية الصديقة لهم ليكون (جي موليه) آخر؟

كل ذلك خطر في بال الأصدقاء والحلفاء، فإذا الرئيس ميتران يسرع ليعلن أن فرنسا في عهد ديستان، ولكن ضربة المفاعل النووية الذرية في بغداد قد خططت لها إسرائيل أن تكون في عهد الرئيس ميتران لتلقى على فرنسا أزمة من الشكوك.. خصوصاً وأن فرنسا لم تزد في الاحتجاج والتنديد عن أي دولة لم تكن صاحبة التنفيذ، والعون لإقامة المفاعل النووية في بغداد..

ولعلّي أستعيد كلمة (إميل زولا) إني أتهم.. وذلك لأن الضربة تمت وليس هناك خبير من فرنسا، أو من إيطاليا، أو من الاتحاد السوفياتي إلا هذا الخبير الواحد.. لعلّهم أغفلوا أمره، أو أنه لم يبال بما حذروه، وإلا فكيف تفرغ هذه المؤسسة من هذه الكثرة من الخبراء؟ إن الكثيرين في العالم العربي يودون أن تتوطد العلاقة بينهم وبين فرنسا، لكنهم ـ وقد

عرفوا مكائد اليهود ـ يخشون على فرنسا أن تجازف ببعض علاقتها مع العرب إرضاء لليهود..

* * *

ـ صـــور:

إن قرار مجلس الأمن بهذه الصورة التي افتضح بها مجلس الأمن لم تنقذ به الولايات المتحدة إسرائيل من قرار يريده العرب يحتم على الموقعين المقاطعة لإسرائيل وقطع العون عنها، فإسرائيل قد أنقذت نفسها مراراً وتكراراً بالسخرية من هذه القرارات، وإنما هي أنقذت حليفتيها: بريطانيا وفرنسا.. فصعب عليهما أن يكونا مع العرب ضد إسرائيل، وصعب عليهما مرة أخرى أن تنكشف علاقاتهما الوطيدة مع إسرائيل أمام العرب، فلئن جزع العالم العربي من الموقف الأمريكي، فإن بريطانيا وفرنسا، وقد أنقذنا من الحرج، فرحتان به.

هكذا كما قالوا: (إن بريطانيا ليس لها أصدقاء، وإنما لها مصالح)، فمصالحها أن تبقى إسرائيل طاغية على العالم العربي، ومصالحها أن يبقى العالم العربي أمام طغيان إسرائيل في حاجة إليهما!!

ـ تناثرت الأخبار فقالت: إن مهندسين خبيرين إسرائيليين قبل مدة زارا إحدى المؤسسات النووية في الولايات المتحدة، فأبيح لهما أن يدرسا كيف يمكن التدمير لأي مفاعل ذري، وتتهم الأخبار حين أذاعت هذا النبأ بأن إسرائيل أعطيت الفرصة بهذه المعلومات فتعاملت به مع المفاعل الذري ببغداد، وتلمح الأخبار بأن القنابل التي دمر بها المفاعل كانت كل قنبلة تزن خمسة أطنان (خمسة آلاف كيلو من قوة التدمير، قذفت بها الطائرات التسع

بالصواريخ الموجهة تحمل هذا الوزن الثقيل من بعد ٤٠ كيلومتراً عن بغداد.

أفليس في ذلك العون كل العون لأن تفعل إسرائيل ذلك؟

وخبر آخر يقول: إن البرازيل، وقد كان بينها وبين العراق عقدة يمدها بالأورانيوم، قد حملت طائرتان عراقيتان خمسة أطنان من الأورانيوم أو أكثر فلم تصلا إلى العراق.. تعرضت لها خمس طائرات من طراز (اف ٥) فإذا الطائرتان العراقيتان بما حملتا تذوبان في بلد إفريقي.. أسقطتا، وعادت الطائرات المغيرة إلى قواعدها سالمة.

فماذا يعني هذا الخبر؟

مخطط بعيد المدى.. واسع المدى.. ولن ينتهي به طغيان إسرائيل، بل هناك الجديد والجديد من الطغيان.

منحة التوقيت.. نعمة التوفيق

أيها الملك خالد بن عبد العزيز..

كيف تمت زيارتك لبريطانيا وفرنسا وإسبانيا في وقت واحد..

وفي توقيت محدد.. صاحبه التوفيق..؟

ولماذا لم تتقدم بها من قبل.. أو لم تؤخرها إياها.. أو لماذا لا تكون كل زيارة من هذه الزيارات.. غير منتظمة في سلك واحد؟

كل هذه الأسئلة.. يمكن الإجابة عليها.. بأنه التوفيق والتفاؤل بالتوفيق، وإن كان فيه راحة النفس فإنه لا يعطي الأسباب التي دعت لأن تكون هذه الزيارات كما هي وأن تأتي النتائج منها كما عزمت أن تكون على صورتين:

فأولاً: أن تضع أمام لندن وباريس ومدريد كل الحقائق سواء استجابوا لها كلها ـ أو سوَّفوا الاستجابة لبعضها.

فأنت أيها الملك.. رائد شعب.. لا تكذبه، فما عهد منك إلا الصدق.. وأنت تعرف هذا الحريق في فلسطين من أمد بعيد، فلم تعد فلسطين هي التي يلتهمها الحريق وحدها وإنما قد اتسع ليأكل من حولها وما حولها.. وكيانك الكبير.. جزيرتك العربية.. قريبة قريبة من هذا الحريق..

ثانياً: ولعلّك سمعت منهم جميعاً على تفاوت المواقف بينهم بعض ما ترفض.. فإن لم تكن في مائدة مفاوضات.. فإنك قد كوّنت لديهم بطرح الحقائق، ورفض المواقف، ما تريد أن يكون أسلوب التعامل معهم ومنهم.. والتي إن لم تزهق بها الحقيقة.. فإنها قد عطلتها أن تكون في نطاق التحديد لموقف العرب ضد موقف إسرائيل.

إن طرح الحقيقة أمانة.. والمبدأ الأول للحفاظ على الأمانة هو رفض الأباطيل.. وهذا ما قد فعلت.

أيها الملك..

بكل التواضع وبكل الصراحة.. وبكل الثقة بألا يفسر ما كتب الآن إلا أنه الحقيقة التي أطرحها في هذه النقاط.. ولكن ما هي..؟

فأولاً: إن الحريق في فلسطين.. أرضنا المباركة الطهر لم يعد قضية الفلسطيني وحده سواء كان داخل فلسطين تحت الاحتلال أو خارجها. باسم النضال أو المقاومة.. أو تحت الضغط بأسلوب التهجير وتفريغ الأرض.

لم تعد قضية فلسطين قضية الفلسطيني وحده، ولم تكن قضية فلسطين إلا قضية العالم العربي كله، فقد انحصرت القضية الآن في هذه الظروف كمسؤولية وكحريق في الإنسان الفلسطيني أولاً.. وفي الإنسان العربي حول فلسطين في الشرق الأدنى أولاً.. لأن الحريق واستعمار اليهود أول ما يحرق سوريا.. لبنان والأردن والعراق والمملكة العربية السعودية.. إمارات الخليج واليمن..

فالمسؤولية لإطفاء هذا الحريق.. هي مسؤولية الفعل لا التظاهر بردود الفعل.. فلا ينبغي لنا نحن الذين يمسهم هذا الحريق.. أن نضع القضية

في غير أيدي هؤلاء الذين بدأ الحريق يشتعل حولهم..

إن الذين من قومنا العرب غرب السويس قد ابتعدوا عن الحريق.. فصلتهم حواجز ليس أولها إطار كامب ديفيد وإنما هذه الحواجز هي:

ـ السلام مع إسرائيل.

ـ وجود قوة من العسكر في سيناء من عدة دول لن يكون منها إلا أن تحجز مصر عن إسرائيل ولن تكون حاجزاً لليهود عن مصر.. فالتجربة في قوة الطوارئ في لبنان قد قالت لنا ذلك.

أما بقاء السكون في الجولان.. فليس من عمل قوة الطوارئ وإنما هو من طوارئ الظروف وما بعد مصر غربها محجوز كيف نتناول منه العون لإطفاء الحريق؟

وليست مسؤولية شرق السويس.. جزيرة العرب وما إليها. مسؤولية افتئات على الزعامة الفلسطينية وإنما هي مسؤولية الدفاع عن الذات عن الأرض وإنسانها.

فالغارة على العراق أليست هي من فعل هذا الحريق..؟

إنه لا رادع لهؤلاء اليهود.. إلا أن يضع المحترقون الأمر في أيديهم.. فكل ما فعله الكلام ذهب مع الريح..

أيها الملك:

لست أنا من هواة الطوالع.. ولا من قراء الفنجان وإنما هو الاستقراء من خلال الأحداث ومن تجربة العربي طوال هذه السنين.

لقد زرت هذه العواصم في وقت لم يقتصر الحرج على العالم العربي وإنما الحرج كل الحرج تعيشه دول السوق الأوروبية المشتركة تخاف أن

تفرض أعمال إسرائيل عليهم حرباً في الشرق الأدنى يخسرون بها مصالحهم إن لم تنلهم ذراع طويلة ذراع حلف وارسو.

إنك بهذه الزيارات قد أعطيتهم الفرصة أن يقولوا للولايات المتحدة.. كما قلتها أنت مراراً لها كفى من عطاء اليهود.. هذه المناصرة لها تنصرونها في كل عربدة تمارسها فيما حولها ولعلّهم في هذه العواصم يسألون: هل مهمة المندوب الأمريكي (فيليب حبيب) وهو شامي الأعراق قد تأمرك ـ أن يدعو سوريا لرفع الصواريخ..؟

لماذا لا يكون البحث شاملاً.. يقول لإسرائيل لكي لا تكون صواريخ في سوريا يجب أن يتم الجلاء عن الجولان؟! أن يتم الاعتراف بمنظمة التحرير، أن يتم الكف عن العربدة في لبنان، أما أن يقتصر.. الأمر على رفع الصواريخ سام فذلك من أخطاء العم سام.

أيها الملك:

بعد ضربة إسرائيل لبغداد كان للعرب موقف هو المطالبة بفرض العقوبات على إسرائيل، ذلك طلب. عادل لكنه غير واقعي.. ولن يردع إسرائيل ومستحيل أن توافق عليه الولايات المتحدة.. فلماذا نطلب المستحيل؟

وكل الجهد الذي بذلته بريطانيا وفرنسا. المطالبة بإدانة إسرائيل وتعويض العراق، فما أشد ما تُرتَخَص به كرامة الشعوب. لماذا لا يكون المطلب العربي هو: إصدار قرار من مجلس الأمن يفرض على إسرائيل تنفيذ قرارات مجلس الأمن إلا من تلك القرارات التي حظيت بتوقيع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حينما يطلب العرب ذلك.. تجد مبادرة البندقية مجالاً لها.. تضع إطار كامب ديفيد في موضعه تعطي منظمة

التحرير فرصة التفكير في بعض الإيجابيات.. ترغم إسرائيل على احترام القرارات.. لم يعد التنديد ينفع.. فقد أصبح التنديد هو سبيل التبديد.

ـ صـــورة:

قال لي أحدهم: لماذا تأمن إسرائيل من أي تصرف يحرجها من الإدارة الأمريكية خصوصاً وقد أغارت على بغداد فلم يكن في ذلك إحراج للولايات المتحدة؟

قلت: إن إسرائيل ليست دولة.. حتى الزعامة في داخلها ليست هي الزعامة التي تخطط لعربدة إسرائيل وتأمر بتنفيذها. إن الزعامة في نيويورك هي التي تخطط لإسرائيل وتأمرها بأن تنفذ.. ثم إن هؤلاء اليهود داخل الولايات المتحدة يملكون الوسائل الثلاث التي تحسب الإدارة الأمريكية حساباتها:

أولاً: الأكثرية الصهيونية في الكونجرس سواء كانت عقائدية أم مأجورة. فهي تفرض على الولايات المتحدة الأمريكية التأييد وغفران تلك التصرفات التي تحرج الولايات المتحدة، فمن ذلك ما تحدثوا به حين كان المفاوض الإسرائيلي في البنتاجون يطلب عتاداً وسلاحاً، فحين عرف بعض الاعتراض من رجال البنتاجون قال المفاوض اليهودي ولعلّه كان (رابين) قال: وافقتم أو لم توافقوا على طلباتنا فإننا سنأخذها بقرار من الكونجرس.

ثانياً: إن اليهود الصهيونيين وأنصارهم يملكون أن يحدثوا ووترجيت أخرى.

ثالثاً: إنهم يملكون أن يسخروا زوالد آخر. كل ذلك اليهود قادرون عليه.. أما العاجز فشعب الولايات المتحدة.

ـ صورة أخرى:

وإن قامت لندن تستقبل الملك.. قالوا بخ.. بخ.. وإن قالت باريس.. مرحى مرحى فإن مدريد لن تقول.. إلا أهلاً وسهلاً.. ابتسامة للتراث.. عرفان بحضارة العرب.. حنين للتاريخ.. أنين مما مضى من التاريخ..

أهلاً وسهلاً تقولها مدريد.. باسم الأندلس ولن تقولها لليهود.. بل إن مدريد.. رفضت ضغوط السوق المشتركة صاحبة مبادرة البندقية التي تطلب منها الاعتراف بإسرائيل. إن الصداقة لإسبانيا صداقة عراقة.. يمتد بها الوقت ولا يتنفس بها التوقيت.

تجارة السلاح.. بلطجة

وانتهى عصر القراصنة.. عصر السلب بالقوة، واستعمال القوة للسلب والقتل، حتى الاستعمار القديم كان القراصنة هم الرواد.. يعطلون التجارة في البحر ويسرقون الإنسان يبيعونه عبداً.

من كان يفعل ذلك؟

كانت تفعله الشعوب الأوروبية؟

وانتهى عصر الاستعمار للشعوب الآسيوية والإفريقية، فإذا ما رستْ سفن القراصنة على الجزر.. عرضوا الخرز الملون، والأقمشة الملونة، يضحكون بها على شعوب الجزر ليأنس شعب الجزيرة.. كأنما الخرز والثياب شباك الصياد، سلاح الحرب الباردة في يد القراصنة. وانتهى عصر الاستعمار القديم الذي تجدد باسم: تنمية الحضارة في الشعوب، أو تمدين الشعوب. ذلك الاستعمار الذي اغتنت به أوروبا كلها. يملكون أرض الشعوب بصكوك، أملاك التاج تاج الإمبراطورية. إلى آخر ما هنالك من أساليب البلطجة.. فإذا أوروبا التي استغولت تستعمر آسيا وإفريقيا أصابها الجشع والتكالب باسم المنافسة بالحربين المدمرتين، كأنما هو العقاب.. فكل ما كسبوه من نزح الثروات خسروه بل كانت الخسارة أكبر من دماء الملايين التي قتلتها أوروبي يقتل أخاه.. حتى جرت المنافسة والتناحر إلى أن دمر (هتلر).. الإمبراطوريتين فـ (هتلر) الذي هزم في ألمانيا.. هو الذي

انتصر في حقيقة التاريخ. أزال بالنصر الذي حازه ما حاق به من الهزيمة كبطل، لأن الهزيمة له كانت تحمل خلفياتها الهزيمة للإمبراطوريتين. كما نشأت بعد: الصورة المذهلة.. أحاقت بغرب أوروبا اليوم، فهي تعيش الخوف من الاتحاد السوفياتي الذي هو من صناعة (هتلر) أيضاً.. كما أنها تعيش الكرب تلو الكرب من تأرجح العلاقة بينها وبين الولايات المتحدة.

فهذه الصورة من تلك المراحل جعلت غرب أوروبا وشرقها والولايات المتحدة تمارس التعويض عن الهزيمة لترفض الخوف من الاتحاد السوفياتي.. فأخذت أن تستبدل الخرز الملون والأقمشة الملونة بشيء اسمه: السلاح المتطور، فقد أصبح الإعلان عن هذه الأسلحة (موضة) ذات موديلات تستحلب بها ثروات الشعوب التي ما غلبت على أمرها بطغيان إسرائيل وبالصراع على الحدود، وباشتعال الإقليمية إلا بما فعله غرب أوروبا وما استأنفت فعله الولايات المتحدة بعد.

يبيعون هذا العام سلاحاً متطوراً: (ميج كذا وعشرين) و (اف كذا وستة عشر) صواريخ سام صواريخ هوك.. إلى آخر ما هنالك، حتى إذا اشترى باذل المال سلاحاً متطوراً بالأمس، فإنه ـ وقد منع عن استعماله أو حتى عجز أن يخوض حرباً لخلاص وطنه ـ تغريه إعلانات السلاح المتطور الجديد لأن يشتريه مرة أخرى.. كأنما كل ما اشتراه بالأمس لم يعد سلاحاً متطوراً مع أنه ما اشتراه إلا لأنه كذلك.

إن الإعلان عن تطور الأسلحة يحمل الإغراء والتخويف. والإغراء ولع بالجديد، والتخويف من أن تعطى إسرائيل سلاحاً أكثر تطوراً من السلاح الذي عند من اشتراه للحرب ضد إسرائيل.

أفليست هذه بلطجة.. تطور بها أسلوب القراصنة؟..

فإلى متى تصبح أوروبا الغربية والولايات المتحدة مصدر تخويف

للإنسان بهذه الإعلانات عن تطور الأسلحة وضخامتها..؟

إن جزءاً مما تمتلكه أي دولة أوروبية ـ سواء كان ما يملكه حلف وارسو أو ما يملكه حلف الأطلسي كافٍ لتدمير كل منهما الآخر، فالكثرة في السلاح المهلك أشبه ما تكون بعارضة أزياء تغري بصورتها كتمثال ليشتري ما يعرض في المتجر الذي يريد الاقتناء ويحرم من الاستعمال. إن كل هذه الإعلانات عن قوة التدمير في الأسلحة لا تقصد منه الولايات المتحدة تخويف الاتحاد السوفياتي، كما أن الاتحاد السوفياتي لا يقصد منه تخويف الولايات المتحدة وإنما هو التعامل بينهما كمنافسة تجارية.. فلو لم يكن هذا الأسلوب لما استطاعت كل منهما أن تبيع السلاح المتطور.

هكذا.. السياسة أصبحت بلطجه، وتجارة السلاح أصبحت بلطجة.. وما زالت الشعوب.. المظلومة تخضع نفسها مضطرة لهذا الأسلوب.

إن أوروبا ومن إليها.. لا ننكر عليها أنها ارتقت بالإنسان في سلم المدنية والعطاء من كل ما هو مترف، من كل ما هو الميراث لحضارة قادمة.. لكن أوروبا ومن إليها لا تنكر على نفسها أنها أمسكت بهلاك الإنسان من بداية عصر الاستعمار إلى بداية عصر البلطجة، كأنما هذه الازدواجية في أوروبا ـ وإن جرت الخوف على آسيا وإفريقيا ـ فإنها ستجعل من أوروبا وهي اللقمة الأولى.. يلتهمها السلام المتطور الذي يصنعونه للتجارة، ليصبح بعد هو صانع الهلكة لهم.

لكن.. لماذا تخضع الشعوب لإغراء الإعلانات؟..

إن ما نملكه من السلاح الآن، لو ملك الزعماء أن يخوضوا الحرب به، لكسبوا النصر. ذلك أن قوة السلاح في يد إسرائيل ـ تنقصها القوة البشرية ـ أما السلاح في يد العرب، إلى أي صورة كان، فإنه الأقوى من

سلاح إسرائيل.. إذا ما جندت القوة البشرية لا تخاف الموت حتى تكسب الحياة..

إن إسرائيل لا تستطيع أن تحارب في عدة جبهات، كما قالوا ذلك عن ألمانيا، ولكن جبهات المواجهة لإسرائيل ـ التي تبعثرت بالفرقة ـ هي السلاح القوي في يد إسرائيل.

صـــور:

قال لي: إذا ابتعدت عن طريق ما تكره أو من تكره، استراح بالك. ولكن.. حذار أن يكون هذا الابتعاد خدعة، فالكسب ـ كل الكسب ـ أن تصر على الابتعاد عن ما تكره ومن تكره، وتفرض عليه أن لا يكسب منك غرة.. ثغرة يدخل عليك بها.

وإن ابتعد عنك من تحب، أو ما تحب.. فتلك خسارة ينبغي لك أن تحاول الاقتراب، لأن.. للإنسان وللأرض وللتراث يعطيك القوة لأن تنصره على من ابتعد كارهاً لك أو من بعد وأنت كاره له.

ألم تكن اليد العليا عطاء وعوناً مجالاً لفسوق الكلمة!

فلم تعد الأوضاع العربية تطيق الجحود.. حتى أن بعضهم يتبرأ من فضيلة أن يكون أخي.. أن أكون أخاه، إلى رذيلة فسوق القلم، تحطم وشائج القربى.

إن كثيراً من حرب السلاح بين عربي وآخر قد اندملت جراحها، ولكن فسوق الكلمة هو الحرب التي لا تلتئم جراحها!

ـ إسرائيل ـ وعلى لسان وزير خارجيتها ـ قال: إنه لا خلاف بينا وبين الولايات المتحدة من أجل بيع السلاح للعرب.

إنه بهذه الكلمة قد أوضح أن كل الضجة التي تثيرها إسرائيل حين تعلن الولايات المتحدة عن بيع صفقة من الأسلحة لدولة عربية وتأخذ إسرائيل بالصراخ والاحتجاج فإن ذلك يعني أن كل ما تثيره إسرائيل ما هو إلا إعلان رديف يتمسك من يشتري السلاح بإتمام الصفقة، كأنما تدعو العرب بهذا اللجاج إلى أن يشتروا الأسلحة.

بلطجة في الإعلان!!

الـدوامـــة

لم يخطر على بالي، وقد تعايشت مع التشاؤم حيناً والتفاؤل حيناً آخر والخوف من المأساة بل وحتى الرعب من الكارثة.. أن أضع العرب تحت عنوان الدوامة.

ما كنت أتصور ذلك، لولا أن عربياً من شرق السويس قد لفحته نار الحريق، فأخذ يسألني إلى متى نعيش في هذه الدوامة..؟ إقليم حرب على إقليم، الوحدة افتعال.. تبدأ بالخطأ وتنتهي بالجريمة، والتضامن صرخة في واد؟

ـ قلت له: لقد أحسنت أن وضعتنا في الدوامة، لأن الدوامة زوبعة في البحر، لا تصعد بنا إلى فوق، وإنما تنحدر بنا إلى القاع.. ليكون القاع مقبرة قضايانا، ولكي نخرج من الدوامة يجب أن نصنع كل ما يمكن لتستحيل الدوامة إلى زوبعة، فالزوبعة فيها الارتفاع إلى فوق كأنما هي ملت القاع، فضاقت به، فاتسع لها مدى الارتفاع.

والزوبعة التي أعني ليست هي في إغراء الشعوب أن تقول: لا.. تخاطب الزعامات، وليس منها أن تتراشق الشعوب السباب والهجاء للذين أدخلوها في هذه الدوامة، وإنما هي في انتظار الجيل الجديد، فهو الذي سيكون الزوبعة.

ولأضرب مثلاً من التاريخ: حين كان العرب قبائل ينظمون الخرزات لزعامات تتوالى ملك آكل المرار ـ والد امرىء القيس ـ أو ليكون (زهير بن جذيمة) سلطاناً تتحدى به العدنانية سلطان القحطانية في الحيرة أو دمشق. إلى آخر ما هنالك من هذه النزعات.. تتضح بها رغبة القبائل، كما هي رغبة الشعوب.

حين كان الأمر كذلك بقيت زعامات تصدت للإسلام الذي وحد العرب وفتح بهم الفتح العظيم، والحضارة الوسط.. هذه الزعامات هي جيل (أبي جهل) جيل (أبي بن سلول) و (الأسود العنسي) و (مسيلمة الكذاب) وقفت تحارب مجد العرب في الوحدة التي أظلها الإسلام، فلما اشتعل الهلاك في رقاب (أبي جهل) ومن إليه ـ قتلا في الحرب المنتصرة ضد الجمود، ضد نزعات الخلاف والفرقة ـ نبغ جيل أبي بكر، وعمر، وعلي، وخالد فقادوا الزوبعة ضد الفرقة والضلال ونهضوا بالفتح العظيم والوحدة الأعظم.. فإذا القبلية تزول وإذا الإقليمية تتهذب، وإذا القومية تتراوح مع العقيدة، فليست العقيدة نفوراً من القومية لأنها أحاطتها بسياج من الاعتدال، فإذا القومية قد أحالت العقيدة إلى انتصار.

فمشكلة الدوامة الآن أن جيل (أبي جهل) قد أصبح صاحب السلطان ـ (زعيماً وشعباً) فانتظر يا صاحبي أن يبزغ الجيل الجديد.. ينصهر في الدوامة.. يخرج سبيكة ذهبية صافية تضيء بها أعمال الزوبعة، فإذا لم تكن الزوبعة قاتلة الجيل الغارق في الدوامة فإن الدوامة حين ذاك لا تزال تبتلعنا إلى القاع.

أما إن جاء الجيل الجديد، فإنه هو صانع الخروج من الدوامة.

ومن المحزن أن هذه الدوامة ليست في أعماق البحر، وإنما هي على

سطح البر، لا زالت تثير كأنها الأعصار.. تحثو الرمال والتراب في وجه من أبصر وتبصر ليعيش فيها من لا زال مبصراً بلا بصيرة. وسكت صاحبي، ثم قال:

ـ إنك قد فضحتنا حين أوضحتنا.

ـ قلت: آخر الدواء الكي.

* * *

ـ صـــور:

أصدقاء الولايات المتحدة أصبحوا من المشفقين عليها حتى أنهم ـ لعمق هذا الإشفاق ما أعلنوا الغضب على تلك النقاط التي نشرتها جريدة (الواشنطن بوست) كتعليمات محددة عن خط السياسة الأمريكية.. يتزعمها من اتهم بهذه التعليمات: الجنرال (الإسكندر هيج). فالخلفاء جبناء مارسوا الشجاعة فلم يغضبوا من هذه التصريحات.. حتى وزير خارجية بريطانيا الذي أشبعه من السباب، هز كتفيه ساخراً كالأسلوب الإنجليزي.

والآخرون من الأصدقاء.. لم يغضبوا أيضاً، ذلك أنهم لا يعبأون بالشتائم بل إن في هذه الشتائم ثناء.. كأنه البرهان على ثباتهم، فلو مالأوا لما نالهم سبابه.. فالكريم صادق الموقف يرى في سباب الخصم هزيمة لهذا الخصم، وفيه انتصارهم المعنوي.

وهناك نظرة أخرى على صورتين:

ـ **الصورة الأولى**: أعطت إمبراطورية الكرملين باباً تدخل منه حين تقول لأصدقائها: هذا وجه أمريكا، فماذا تنتظرون بعد..؟

ـ **الصورة الأخرى**: هي أن حرية الفوضى أو فوضى الحرية جعلت

الذين يريدون إسقاط هيبة الولايات المتحدة وإحداث الفجوة بينها وبين الحلفاء والأصدقاء ينشرون هذه الأقوال: لا ينالون بها من (الإسكندر هيج) وإنما قد نالوا من سمعة الولايات المتحدة ما يريده كل خصيم لها.. فهل هذه الأقاويل قد تعلمها من أستاذه (كيسنجر).

أغلب الظن أن (هيج) كان مخلب القط في يد الهر الصهيوني: دكتور كيسنجر.

ـ أصبح التنافس الآن بين الولايات المتحدة وفرنسا كأنه الصورة المثلثة، فهناك تنافس بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على غرب آسيا وشمال إفريقيا وشرقها. وجاءت فرنسا الاشتراكية ثالوثا غير مقدس.. تبتعد عن التنافس مع الاتحاد السوفياتي وتقترب خطوة خطوة للتنافس مع الولايات المتحدة. تتقرب من الشمال الإفريقي كله، فإذا الولايات المتحدة تسرع لتحول دون هذا التقرب.

زيارات على مستوى عالٍ للمغرب. مدد لتونس من السلاح.. فإذا فرنسا التي كادت تجفو الشرق الأوسط ـ إلاّ إسرائيل ـ بدأت تتراجع نحو الشرق الأوسط. وهنا يتخذ التناقض بينها وبين الولايات المتحدة صورة ترضى عنها أمريكا، لأن صداقة فرنسا مع الشرق الأوسط تجد فيها العون ضد تنافسها مع الاتحاد السوفياتي.

أما بقية الدول الغربية فستكون وراء فرنسا إن كسبت ووراء الولايات المتحدة إن كسبت، ولعلّها تكسب من الموقف المضاد للاتحاد السوفياتي. ويعني ذلك أن التنافس على المصالح في الشرق الأوسط هو إبقاؤه داخل الدوامة أيضاً.

الحقـــد . . لا الغضـــب

في مسيرة الأمة العربية وتاريخها . . ابتداء من نبوغ القومية الطورانية، سخر الاتحاديون حين خلعوا السلطان عبد الحميد، الدولة العثمانية إلى هذه القومية الطورانية، فكانت الضربة الأولى التي تلاحقت بعدها ضربات أجهزت على الرجل المريض: الدولة العثمانية.

وغضب العرب ـ لا لأن دولة الخلافة في طريق الزوال ـ وإنما لأنهم يرفضون التتريك: والمسيرة في إطار داخل الطورانية ـ فنبغت القومية العربية في القطرين الوحيدين الشام والعراق فإذا اليمن كلها بعيدة عن ذلك، ونجد وما إليها بعيدة كذلك . . أما الحجاز فلم تكن القومية العربية هي التي استمالت (الحسين بن علي) إلى الثورة ضد الدولة العثمانية، وإنما هو وازع التخلص من سلطان الدولة . . سوء كانت العثمانية أو الطورانية. كل هذا أصبح العامل الذي أعطى بريطانيا وفرنسا أن يعلن كل منهما العطف على القومية العربية.

ففي فرنسا انعقد مؤتمر باريس . . تألف من القوميين الشاميين على الأكثر، فإذا فرنسا تكاد أن تعلن عملها بأن سوريا ولبنان في عاطفة فرنسا وحمايتها.

وبريطانيا: سال لعابها أن تستحوذ على القومية العربية . .

تحالف ثورة العرب، ليكون في هذا الاستحواذ ترسيخ وجودها في مصر.

وتوج الاستعمار البريطاني والفرنسي مخططه بالمعاهدة الغادرة (سايكس بيكو) فوقع أكثر من إقليم عربي في قبضة الاستعمار.. إضافة إلى الأقاليم التي كانت راضخة له في الشمال الإفريقي. كل هذا أثار الغضب من الشعوب العربية. ولكنه لم يرسخ الحقد، فالغضب ثورة عابرة.. أما الحقد فالثروة السرمدية للثورة الدائمة.

لو عرف العرب قوة الحقد ـ يمارسون ما يمليه ـ لانصرفوا عن الغضب.. فالغضب قد خسروا به الكثير.

إن جمال عبد الناصر كان حقداً.. وعبد الكريم الريفي كان حقداً.. ولكن حقدهما لم يدم، فإذا الغضب هو المسيطر.. يذهب في وقته فلا يستمر زمان به.

من هنا.. فالذهاب إلى مجلس الأمن، أو إلى هيئة الأمم، أو الركون إلى الرأي العام العالمي ما هو إلا فعل الغضب. ليس من فعل الحقد.. فالحقد يملي على العرب أن لا يمارسوا الشكوى وأن لا يمارس بعض من يدعي الصداقة لهم تهدئة الغضب بالعون الرخيص.. إنه الرخيص في نتيجة ما يفعلون في مناصرة العرب، والثمين الغالي بما يدفعه العرب.. يستجدون به هذا العون الرخيص..

فالحقد الذي أدعو إليه، ينبغي أن يكون أممياً، من الذين يرزحون تحت ظل الاحتلال أو من الذين يستصرخون أنفسهم حين يمارسون الترضية لهؤلاء الأصدقاء، يمنحونهم العون الثمين والغالي من ثرواتهم ومن صبرهم.

حين يكون الحقد أممياً تسقط الإقليمية، وحين تسقط الإقليمية يؤدي الحقد عمله: أمة عربية واحدة.

الحقد يخضع الزعامة المقام..تعمل حريصة على الشعوب القيم، والأرض القيمة، والمبادئ القيمة. إن الزعامة الإقليمية حين تربعت على المقام تنتهي إذا لم تكن حريصة على القيم، وأول القيم أن يكون العرب أمة واحدة.

بالأمس غضب العرب من أجل الجولان فصرخوا بالشكوى، ثم هم الآن في حالة غضب من أجل ما هو واقع بين سوريا والأردن.

فالغضب أعطى لبعض العرب أن يصفوا العراق بالخطأ ضد حربها مع إيران.. بينما الأممية بالمعابة على تاريخ أي زعامة تقف مع إيران ضد العراق.. فالخطأ لا يعالج بالجريمة! والحلف مع (منغستو) عمل غاضب من صانعيه.. أحدث رد فعل غاضباً من منكريه.

وهكذا.. يكسب أعداؤنا من هذا الغضب، وما زلنا في خسران لأن خسارة الحقد هي التي تعطي إسرائيل ومن إليها، وكل الغرب والشرق إليها، مكاسبها ومكاسبهم.. هي.. تكسب الأرض وتحجف بحقوق الإنسان، وهم يكسبون ما ينفقه العرب قيمة السلاح وواردات وما إلى ذلك.

إن الزعامة المقام تحاسب على إجحافها بالقيم.. تسقط قيمة الأمة العربية، ليخضع تقييم هذه الأمة إلى كلمات في (هايد بارك) العالمي الذي نسميه: الرأي العام العالمي.

ـ حـــوار:

قرأت من (الشرق الأوسط) قبل أيام في بريد القراء: نقداً حلواً لكاتب اسمه (هاشم الطيب) حلاوته في مرارته التي شعر بها وأشعرني كذلك.. يسألني: لماذا أجحف بالجزائر حين كتبت مقالاً بعنوان: هل عاد جي موليه، فوصفت ابتعاد فرنسا عن شرق السويس بأنه لربما كان ذلك بسبب أن الرئيس (ميتران) قد اتفق مع الشاذلي بن جديد على صفاء.. العلاقات وتزويد فرنسا بملايين الأطنان من البترول الجزائري.

يحسبني أضع الجزائر ـ التي مازال دم المليون شهيد يضحك في أعماقي ـ في موضع الاتهام. لم يكن ذلك إلا الجريمة إن كنتها، فالجزائر الثورة والزمن والعروبة والإسلام هي فوق سوء الظن فلقد عشت يمتلئ وجداني بفقر الجزائر يوم أن بذلت الدم، وأعيش الدم، لا يفرغ وجداني إذا ما اغتنت الجزائر تبني عمرانها، وتصحح وجودها العربي بالعودة إلى تفصيح لسانها العربي..

الجزائر فوق الاتهام، أما فرنسا.. فأحسبني أساير التاريخ حين أضع الجمهورية الاشتراكية الآن أنها قد بدأت ترسيخ وجودها وعلاقاتها مع الشمال الإفريقي ومع مصر.

حتى أنها تترضع ليبيا بكل الوسائل، فهي الآن تعود إلى عهد الوفاق الودي، كأنما وزير خارجيتها (كلودشيسون) يبدو وكأنه الصورة الجديدة لوزير خارجيتها صانع الوفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا، وهو (المسيو دي لاكاسيه) فلقد تعبت فرنسا قبل عهده من حرب التناحر والتنافس بينها وبين بريطانيا.. حرب الأسطول الفرنسي في (أبي قير) هزيمة الأسطول الفرنسي في الطرف الأغر (طرف الغار) فاقتنعت بالسلامة.. تترك لبريطانيا مصر وترسيخ أقدامها في تونس والجزائر والمغرب.

فلا شك عندي أن فرنسا قد عادت إلى الصورة السابقة من الاتفاق الودي.. فلا سوريا ولا لبنان أصبحت تهمها، بل كل همها شرق السويس.. أن تكون صديقة لإسرائيل.

وبعث إليَّ الأستاذ «جمال البطل» الصحفي المخضرم يعاتبني: كيف أجور على العبور وهو النصر الكبير، فأضعه في نطاق الخداع؟!

لقد غاب عنه أني ما طرحت هذه الأسئلة إلا لأثير التاريخ الذي يتكتمونه! وإلا.. فإن الرئيس الراحل أنور السادات حينما يصح أن مناحيم بيغن قد أراد بعكمة «خدعتنا» يعني العبور، فذلك فخار أنور السادات ومجده.. قد استطاع بالخدعة أن يحرز هذا النصر! ولا زلت أتساءل.. ليضع العالمون النقاط على الحروف، فاليهودي يحرف الكلم عن مواضعه.. فالخدعة له كانت براعة، وإرسال الكلمة منه كانت تفريغاً للانتصار وإثارة للحوار!!

ـ صورة:

ـ إن الإشارات المتلاحقة عن عودة العلاقات بين القاهرة وموسكو أمر له دلالات كثيرة: تشبث مصر في موقفها كدولة من دول عدم الانحياز. إعطاء دول أوروبا الغربية تنفساً مريحاً حينما يطمئن الشرق الأوسط إلى نوع من الخروج عن الاستقطاب.

وأكثر من ذلك وأعمق: أن لا تجد بعض الأقاليم العربية مطاوعة التحرك بأسلوب أو بآخر ضد مصر.

قد يكون ذلك من الاتحاد السوفياتي أسلوباً من الاسترخاء، ولكنه من مصر الأسلوب الصحيح الذي يعطيها فرصة انتصاب القامة في أي تحرك منها، مع أي دولة غربية، والولايات المتحدة بالذات!!

قالـــوا . . وقلـــت

قالوا: وفي التاريخ عبر . .

ـ قلت: وما أكثرها في تاريخ الأمة العربية وليس المهم كثرة الكم في العبر، وإنما المهم أن أسأل: أين من يعتبر؟

فإن الشام كلها أصبحت وسط الحريق، وفي التاريخ عبرة . . لم تتحول إلى أسوة، تكون بها القدرة. فالشام ـ كلها ـ كانت تحت استعمار روماني . . توجوا عليها ملكاً عميلاً، فإذا الفتح العظيم يرسل الناهض به (أبو بكر الصديق) جيوشاً أربعة إنقاذاً للإنسان من كل ما يذله ويهينه سواء كان اعتقاداً أو احتلال أرض، يفرضه سلطان أجنبي، وقد رسم لكل جيش أن يفتح إقليماً من أقاليم الشام . . وإذا الإمبراطور قيصر وقادة جيشه قد تجمعوا في مكان واحد لئلا تتبعثر القوة أمام قوة العرب المسلمين من جزيرتنا العربية ـ عدنانياً، وقحطانياً ـ وصدر الأمر من الخليفة أن تواجه الجيوش الأربعة المسلمة التجمع للجيش الروماني. وكان الأمر اليومي (كونوا في مكان واسع المطرد ضيق المهرب) ويعني ذلك أن يلزم الجيش الروماني أن يسير إلى مواقع الجيوش المسلمة . . كأنما هي وضع الجيش المسلم في المكان الذي اختاره ليكون على استعداد في صد الهجوم، أو المبادرة بالهجوم . . فأيما جيش ـ حتى في العصر الحديث ـ ينبغي أن يكون

على استعداد حسب ما تقتضي به الظروف بصد الهجوم أو ببدأ الهجوم. جيوش.. أربعة تحت قيادات تفرقت، يقاتلون متساندين:

وجاء البطل (سيف الله أبو سليمان خالد بن الوليد) جيشاً خامساً مدداً للجيوش الأربعة، فسير الوضع، واغترف من كل المعرفة التي جاد بها الوضع لتلك الجيوش، فإذا هو يقول الكلمة يسمعها القادة الأربعة: أبو عبيدة، عمرو بن العاص، يزيد بن أبي سفيان، العدنانيون القرشيون وشرحبيل بن حسنه القحطاني، قال لهم خالد الكلمة وهي موطن العبرة.. الداعية إلى القدوة، قال:

ـ (إنما أنتم فيه كل أمير على جيش، تقاتلون مساندين، هو شر على الإسلام أقوى وأشد من شر الروم عليكم، لتجتمع على أمير واحد، كجيش واحد، وليتولى الإمارة كل واحد منا يوماً بعد الآخر ودعوني أكن أميركم اليوم).

وتوحدت الجيوش، وكان النصر في اليرموك، وكان ما بعده من الفتح.. فرحل الرومان بغير رجعة إلى الشام، فالقدوة هنا: أن تكون الشام ـ المحترقة الآن بنار الضيم ـ أن تكون في الوحدة جيشاً وسياسة وقيادة.. أما إن بقيت الفرقة (كل حزب بما لديهم فرحون) فذلك الشر، أقوى من شر إسرائيل، أو هو الذي يعطي إسرائيل أن توزع شرها على أقاليم الشام. شيء من الإيمان.. من رحمة الشعوب.. من تقديس الماضي المجيد بالفعال، لن تكون فعال إلا بتحديد الهدف والوحدة للوصول إلى الهدف.

وعجيب أن تكون الشام، وهي أول من دعا إلى القومية والوحدة موضوعاً أعطى الفرصة وهي الغصة أن أكتب عن هذه العبرة، وأن أدعو إلى القدوة.

وأي عبرة ظاهرة للعيان من أن تكون فلسطين محتلة ولبنان يحترق..؟

وفي الوقت الذي تضم فيه إسرائيل الجولان أصبح إقليمان من أقاليم الشام: البلقاء (شرق الأردن) وسوريا في حرب غير معلنة.. كأنما كل ذلك هو المدد لإسرائيل.. صانع الامتداد لها يعطيها القوة تمارس طغيانها أكثر من القوة التي تمدها بها الولايات المتحدة.. فمدد عربي بالخلاف، ومدد أمريكي بالسلاح، ومدد بشري من الاتحاد السوفياتي.

ـ وقالوا: إن سعد حداد الخائن المرتد الذي تتطرى الإذاعات فتدعوه (المنشق) أذاعوا عنه نبأ بأنه سيكون كتيبة من اللبنانيين، ولعلّهم من شيعة لبنان، أو من المارونيين. ستكون هذه الكتيبة رداً على تطوع الأردنيين مع العراق ضد إيران.. فهل هذا صحيح؟

ـ قلت: ليس المهم أن يكون هذا الخبر صادقاً أو كاذباً، فما أكثر العبث من هذا المنشق الخائن، ولكن المهم أن نسأل عن صدق هذه الفجيعة، فقد قال ناشر الخبر: إن كل التسهيلات ستمنح لهذه الكتيبة اللبنانية.. ترسل إلى إيران عبر سوريا (..) فهل سوريا على اتفاق مع سعد حداد.. لأن يكون سعد حداد متمتعاً بهذه الازدواجية.. تعينه إسرائيل على حرق لبنان، لأنه ـ وبصراحة ـ يقود فرقة مرتزقة تعمل لحساب إسرائيل كما أنه ـ إن صح الخبر وهو إرسال الكتيبة عبر سوريا ـ قد متَّعته سوريا بهذه المنحة، ولو كانت هي الواحدة.. يدعو إليها عون إيران، فإنها الناسفة لمواقف قوة الردع في لبنان ضد سعد حداد.

فهل بلغ الشتات العربي أن يكون القاتل لوحدة الشام وللقومية العربية، كأنما دمشق قد عادت عبشمية.. تحارب العراق، ثم انقلبت شيعية تحارب موطن الشيعة في العراق.. تنتصر بها الشيعة في إيران..؟

ـ قالوا: إن العرش في المملكة الأردنية هاشمي علوي قد تحمس للقومية فأرسل المتطوعين عوناً للعراق، ولم يسأل عن المذهب في إيران.. مع أنه ما قام مذهب الشيعة إلا حباً لأهل البيت وللعترة النبوية..

ـ قلت إن العرش الهاشمي في الأردن ـ وإن اعتز بالنسب فإنه بعيد عن المذهب. ذلك أن الملك الهاشمي في الأردن من ذرية الحسن لمعاوية أسقط حق بنيه، وإنما الإمامة في مذهب الشيعة ـ ما عدا الزيدية ـ محصورة مقصورة على الحسين بن علي وبنيه.. فكل حسني لا يصلح أن يكون إماماً أو صاحب ولاية على الشيعى، وموقف العرش الأردني موقف قومي.. ينتصر به السبب، ولا ينتفي به النسب.

ـ وقالوا: هل الشروط الثلاثة التي أملاها وزير الإعلام السوري (أحمد إسكندر) على إسرائيل هي البديل عن المشروع العربي الذي أعلنته المملكة العربية السعودية، وجرى ما جرى نحوه في مؤتمر فاس؟

ـ قلت: كانت الخطوة في مؤتمر فاس أن قالوا: (لا) وجاءت الخطوة الثانية تفسيراً لكلمة (لا) في مؤتمر فاس.

فمن الزعم الذي لا يحتمل الوقوف على قدميه أن تكون هذه الشروط المملاة، والجولان في قبضة إسرائيل، بديلاً عن المشروع العربي السعودي. ذلك أن الدنيا كلها، والأكثرية من الأمة العربية، قد احتفلت بالمشروع العربي السعودي.. فهو البديل الحق عن إطار كامب ديفيد، ليس فيه شيء من غطرسة الإملاء، وإنما فيه كل الشيء.. تتضح به المسيرة نحو تقرير الواقع.. نحو إقناع كل نصير إسرائيل، ليعرفوا أن الأمة العربية تريد السلام وتعمل له، فالإملاء ما أحلاه، وما أغلاه لو أننا اكتسحنا إسرائيل في الجولان.

ـ وقالوا: ألم تسمع تصريح السيد العراقي (نعيم حداد) يدعو به العرب إلى أن يحتضنوا عودة مصر إلى التضامن العربي؟

ـ قلت: صعب أن نخضع المصير إلى تقلبات الظروف، ولكن.. مرحباً بالضيم يدعو العربي إلى أن يعود إلى أخيه العربي، وهذه الدعوة قد انفتح مجالها بحسن الظن في مصر.. حين تغيرت القيادة..

ـ صـــور:

وقرأت ما كتبه الصديق الأستاذ (أكرم زعيتر) فأسعدني أن وجدت التصويب لما أخطأت فيه، ولعلّه لا يعرف أنني أفرح بالخطأ يهديني إلى الصواب. لقد صوب أن الأبيات من الشعر هي لـ (نسيب عريضة) فوجدتني أستعيد إلى الذاكرة صدق هذا التصويب، فقد مضت على حفظنا لها سنوات طويلة تربو على الخمسين عاماً.. لكن الأحلى من الصواب أن أتحف قارئه بنشرها كاملة.

أما نسبتي الكلمة (صناعة الموت) لياسين الهاشمي، فلم أكن مخطئاً ولا مفترياً، وإنما حفظتها إذ قرأتها في مجلة (الفتح) لصاحبها الكاتب الكبير العربي الهاشمي: محب الدين الخطيب هو الذي نسبها لياسين باشا الهاشمي، أما سامي شوكت، فما عرفته إلا منك.. ذلك أن كل الأبواب التي كانت توصلنا بالعالم العربي، لم تكن مفتوحة وإنما كانت المجلة الفتح.. هي الفتح وذكرت أن (بكر صدقي) هو قائد الانقلاب، ونسيت زعيم الانقلاب، أو أنك تجاوزت أن تذكره وهو (حكمت سليمان) وإليك معلومة حفظناها من مجلة الفتح.

فقد ترجم له محب الدين الخطيب، قائلاً: إن حكمت سليمان هو الأخ لمحمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني الذي أسقط السلطان عبد

الحميد وأقام السلطان محمد رشاد، وهما ـ حكمت ومحمود ـ شركسيان استعرقا في العراق، لأنهما كانا من موالي داود باشا الذي استقل بالعراق منفصلاً عن الدولة العثمانية، وضرب باسمه عملة كتب عليها:

ـ (يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض).

فانتصرت عليه الدولة العثمانية ونفته إلى الحجاز، وكانت كما أعتقد أن الداوودية في مكة والداؤودية في المدينة منسوبة إليه. وبقي محمود شوكت وأخوه حكمت في العراق عظيمين فمحمود له الصدارة في اسطنبول، وحكمت له مقامه في بغداد ـ معلومة ليست لك، وإنما هي للقارئ.

هل العرب أمة

لقد عشت متفائلاً.. أرقب الفجر الجديد لأمة واحدة ـ أمتي العربية ـ وكنت أستمد هذا التفاؤل من الماضي القريب يوم كان العرب قبائل في الصحراء، يحيط بهم الاستعمار الروماني في دمشق.. يتستر في ظلال ملوك من العرب.. أعني الغساسنة أبناء جفنة، ويوم كانوا يحاطون بالاستعمار الفارسي ـ يتستر في خلفيات الملوك المناذرة في الحيرة ـ يوم أستغول الاستعمار الفارسي في اليمن، وقبله الحبشي، فلقد كانت جزيرة العرب محاطة بسلطان الإمبراطوريتين، لكن لقبلي من وادي القرى، وفي سفوح رضوى إلى حدود الحيرة، وإلى حدود اليمن، كان يتعلم صناعة الحرب إرهاصاً للوحدة بكلمة التوحيد كانت القبائل لها أيام ما أطولها، وما أثقلها.

اشتعلت فيها الحروب القبلية، لكنهم ـ والقبلي في الحرب مع أخيه ـ ما كان مسخراً لاستعمار الفرس عن طريق الحيرة، ولا لاستعمار الروم عن طريق دمشق.. ففي النجود والتهائم والسروات، كل القبائل كانت في فرقة الوحدة إن تحاربوا، وفي وحدة الفرقة إن حاربهم أجنبي.

لقد هتف كل العرب يوم انتصر (هاني بن مسعود) في ذي قار على الفرس، وكان خير من رحب بهذا النصر العربي القرشي الهاشمي رسول الله

(اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا).

كانت صرخة قومية، وحين كانت إرهاصاً للإسلام الذي وحد العرب بعد، لم يجف عربي قوميته، ولم يتجاف عن إسلامه، فقد هذب الإسلام القومية لأنها سلاحه.. فقد أعز العرب وبهم اعتز، فهل أجور على قومي اليوم فأقول: لماذا تصبحون آلة للابتزاز ووراءكم تاريخ طويل صنعه الوجدان الموحد، والسيف المتحد، والشطف الحافز، والعقيدة قبل كل ذلك، وهي بكل ذلك.

إن هذا التفاؤل بالماضي لا أسجله فخاراً أو استنكاراً، وإنما أتمسك به استدراراً من وجدان أي عربي يغضب لحقه.. لا يحارب إسرائيل بالاتحاد السوفياتي، ولا يحارب الاتحاد السوفياتي بالولايات المتحدة وإنما الحرب هي أن لا يفكر العربي في الموت، فإن في الموت حياة. أما ما نحن فيه الآن، فالموت يأخذنا إليه جرعاً بالمذلة في أعقاب الخامس من يونيو ٦٧، يوم الهزيمة التي أردنا أن نخفف من وقعها فسميناها نكسة.. في أعقاب ذلك اليوم ألقيت محاضرة في جدة، فطرح على شاب هذا السؤال:

ـ كيف انتصر العدو، ولا يبلغ عدده المليونين على مائة مليون عربي؟

ـ وفي غمرة الحماسة قلت: لم تنتصر إسرائيل على مائة مليون عربي، وإنما انتصرت على ثلاثة عشر زعيماً عربياً.

فهل لا زالت إسرائيل تملك هذه الوسيلة في النصر.. أم مساعي الائتلاف بعد الخلاف.. ستنجح، ليمكن للعرب أن يحاربوا إسرائيل بوحدة الكلمة وتوحيد القرار وصناعة الموت؟ ليكون عرب اليوم في مستوى عرب الأمس، فإن لم يكونوا فالذهاب إلى الأمس؟. لست متفائلاً، والعرب يخوضون حروباً أهلية: حرب ساخنة بين الجزائر والمغرب وموريتانيا،

وحرب تطحن الأعصاب وتسيل منها الدموع بين دمشق وبغداد، كأنما دمشق التي جل مصابها في بغداد.. وتحوم في سماء العراق ما هي إلا حرب غير معلنة من إسرائيل على العراق.. تعطل قوة العراق للذب عن حدودها وسمائها من غارات إسرائيل، كأنما هو عطاء إسرائيل لإيران.. فقد أصبحت العراق تحارب في جبهتين.

والحرب الكلامية. تارة تشتعل نارها ولا يترمد أوراها، إن سكتت يوماً فالأحداث المفتعلة تثير النار الكامنة وراء التستر بدعوى الألفة.

إن فلسطين لم تعد هي القضية وحدها.. فالعرب كل العرب حول إسرائيل هم القضية فإهدار وغطرسة أن تبقى الكلمة في أي محاولة يتخذ بها القرار ضد إسرائيل في يد زعيم واحد ينبغي للعرب ـ كأكثرية ـ أن لا يتركوا قضيتهم في يد زعيم واحد.

* * *

ـ صـــور:

قبل أكثر من أسبوع سمعت من إذاعة القاهرة أن القافز على الثغرة.. اليهودي وزير الحرب في إسرائيل (اريل شارون) قد عاد من جولة بين دول إفريقيا، وقدم تقريراً إلى الكنيست ثم لم يشرحوا لنا من هي الدول الإفريقية، ومن الذي رفض أو استجاب لعودة العلاقات، ليتخذ العرب موقفاً مع المنظمة الإفريقية. ولقد دعاني أن أطرح هذا التساؤل تصريح جاء من السينغال، يقول: إن السينغال لن تعيد علاقاتها مع إسرائيل، ويعني ذلك أنه قد طلب من السينغال أن تعيد العلاقات مع إسرائيل.

ولكن من الذي طلب من الدول الإفريقية ذلك..؟

أكاد أتهم، وأنا على صواب، أن الذي طلب ذلك الولايات المتحدة وفرنسا.

صناعة الموت كثيراً ما أرددها، وهي ليست كلمتي.. إنها كلمة (ياسين باشا الهاشمي) القائد العربي، كأنما تأخر عن زمانه فجفاه أبناء زمان شغلوا بالحاضر، فألهاهم عن أن.. يعرفوا للزعيم الصادق حقه. عاش للعرب وللعراق بالذات، فمات غريباً في بيروت. إذا عد نجباء العرب فإن (ياسين باشا) أحدهم.

رب ثأر، رب عار، رب نار حركت قلب الجبان
كل ذي فينا، ولكن لم تحرك ساكناً إلا اللسان
كفنوه وأدفنوه وأسكنوه هوة اللحد العميق
فهو شعب ميت ليس يفيق

وآخر قال:

ماذا تخافين في البيداء يا بقر إن كنت تخشين من سكين سفاك
فالموت غير الذل طوباك

أتراهما نظرا إلى لبنان، إلى فلسطين، إلى الجولان؟

ازدواج السلوك..

لم تعد القوة في دولة عظمى حفيظة على الأخلاق مع أن قوة الرجال تحميهم من ازدواج السلوك فالضعفاء والمارقون الانتهازيون.. يحتم عليهم ما هو عليهم ما هو فيه أن يكونوا على سلوك مزدوج. غير أن القوة التي تمسك بها دولة عظمى لم تعد حامية الأخلاق، كأنما العجز عن استعمال القوة هو الضعف.

هذه المقدمة.. فتح آفاقها أمامي ما قاله الأمين العام للجامعة العربية (الشاذلي القليبي) فقد وصف سياسة الولايات المتحدة أنها ذات وجهين، فأسلوب الولايات المتحدة في فرض العقوبات على الاتحاد السوفياتي وبولندا مغاير لما تتخذه من أسلوب في مجلس الأمن.. ترفض أن توقع عقوبات على إسرائيل.

لكن ينبغي لي أن أطيل الشرح. ففرض العقوبات على بولندا والاتحاد السوفياتي محاولة لإخفاء الضعف من عدم القدرة على استعمال القوة. ذلك أن منع القمح عن الاتحاد السوفياتي مرهون بحركة يقوم بها الزراع الأمريكان، ليأتي بعد التصريح من الحكام العسكريين في بولندا بأنهم سيلغون الأحكام العرفية، فيأتي الفرج أو الانفراج للقوة العاجزة عن الاستعمال أن تلغي الحظر وكل العقوبات، لأن الوعد ـ ولو كان كاذباً ـ

سيكون المبرر لهذا الإلغاء. أما فرض العقوبات على إسرائيل فمطلب عسير على الولايات المتحدة.

ولم نعد في موضع الغفلة الآن.. نحسب أن إسرائيل دولة بينها وبين الولايات المتحدة متناقضات. إن إسرائيل العصابة، ما هي إلا جزء من الولايات المتحدة، هي عصا الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وعلى العرب، فكيف نطالب الولايات المتحدة أن تفرض العقوبات على نفسها؟

لقد قلت من قبل: لا تقولوا إسرائيل، وإنما قولوا الولايات المتحدة.. فازدواج السلوك مظهر (كوموفلاج).. أما الصحيح. فإن هذا التصرف ضد بولندا أو مع إسرائيل ما هو إلا وحدة السلوك. والظاهرة التي يجب أن نتكلم عنها تلزمني أن أطرح هذا السؤال، فالحكومات الممثلة في مجلس الأمن.. لماذا يتأرجح موقفها إلى الأمن. هل هو الخضوع للولايات المتحدة. أم هو الرغبة في أن لا يفرضوا عقوبات على إسرائيل؟.. لأنهم لم يزالوا على صورة من (جي موليه).. و (إيدن) و (ادياور) وإن تعددت الأساليب.. يريدون دائماً أن يكون العرب في حاجة إليهم.. عطاءً سخياً من حقول البترول، وعطاءً أكثر سخاء لشراء السلاح..

إن إضعاف إسرائيل في نظر الغرب يحرمهم من القوة التي يفرضونها على العرب، وإعلان الصداقة من بعضهم قد كشفته فرنسا ببيع السلاح لإسرائيل. وفرض العقوبات يعري موقفها أمام العرب، والمراوغة بعدم بيع السلام من ورثة (ادياور) عطاء لإسرائيل أكثر من عطاء الماركات التي دفعها ادياور.

إن الولايات المتحدة لا أتهمها بالغفلة ولا بالعجز، فاليقظة علمتنا أن نعرف كل تصرفات الولايات المتحدة.. مخطط تنفيذها، كل تصرف أو

موقف له وقت معين.. لقد جمدت الولايات المتحدة التعاون الاستراتيجي مع إسرائيل وألغته إسرائيل، مع أن إسرائيل ليست في حاجة إلى هذا التعاون والولايات المتحدة هي كذلك، فلا زالت الولايات المتحدة تصرح كل يوم بأنها ملزمة بالحفاظ على أمن إسرائيل.. فلماذا لم تعلن ـ وهي الإمبراطورية التي تنادي بحقوق الإنسان وأنها المحافظة على السلام ـ أن تصرح بأنها مسؤولة عن أمن الشعوب العربية من عدوان إسرائيل؟

إنها لم تفعل ذلك، لأن هذا يعني: الانفصام.. يعرف منه أن إسرائيل ليست الولايات المتحدة..

التعاون الاستراتيجي:

نسبوا إلى الحكومة السورية تهديدها بأنها إذا لم تصوت الولايات المتحدة إيجابياً على فرض العقوبات ضد إسرائيل، فإنها ستلجأ إلى تعاون استراتيجي مع الاتحاد السوفياتي.

ويقيني.. أن الاتحاد السوفياتي لا يريد أن يتعجل ذلكن فإنها ستلجأ إلى تعاون استراتيجي مع الاتحاد السوفياتي.

ويقيني.. أن الاتحاد السوفياتي لا يريد أن يتعجل ذلك، من طبيعة الاسترخاء، فلم تنضج التفاحة بعد.

ويقيني ـ مرة أخرى ـ إن الولايات المتحدة تتظاهر بأنه تهديد لها، بينما هو الرغبة الأكيدة منها ومن إسرائيل أن تسير سوريا في هذا الطريق. لتجد الولايات المتحدة أن عداوة سوريا قد بلغت الذروة، فتعطي نفسها حق التصرف بأسلوب عدواني.

فالتخطيط للعدوان هو رغبة إسرائيل ومن إليها، وليت إسرائيل تمضي

في عدوانها، ليتم لسوريا والاتحاد السوفياتي أن يواجهوا العدوان، فلم يعد الاتحاد السوفياتي يصبر أكثر مما صبر على هذه الانفعالات.. تمارس ضده في بولندا.

إن العالم الآن في حاجة إلى أن تقوم الحرب سافرة بين الإمبراطوريتين، فأي محاولة من دول أوروبا الغربية لتهدئة الوضع بين الإمبراطوريتين لن تنجح، فاليهودية تسيطر على الإدارة الأميركية لها الرغبة ـ كل الرغبة ـ أن يدمر الوفاق وأن يشتعل الشقاق بين الإمبراطوريتين لدمار الإنسان..

إن أوروبا فازعة من هذا الموقف، لأن أي حرب حول لشرق الأوسط ستكون هي الحرب نفسها في أوروبا.. يتناولها الاتحاد السوفياتي عن قرب ولا تستطيع الولايات المتحدة النجدة في حرب تقليدية، وبعيد أن تكون حرباً نووية.. ويعني ذلك: إن غرب آسيا وشرق إفريقيا وأوربا كلها الميدان للحرب القادمة، والسبب ـ كل السبب ـ رغبة أمريكا في أن تحافظ على أمن إسرائيل، وأن لا تحافظ على أمن العرب.

بولنـــدا:

مفارقة عجيبة: لقد ثارت الحرب العامة الثانية من أجل بولندا، فهتلر غزا (دانزج) فأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب، ووقفت الولايات المتحدة لا تغيث من هم أصدقاؤها. أريد من ذلك أن تتحطم الإمبراطوريات لتكون الولايات المتحدة هي الإمبراطورية الوحيدة، ولكن اليابان أسرعت بدخول الولايات المتحدة الحرب.. حين ضربت الأسطول في (هاواي).

أما اليوم، فإن الولايات المتحدة هي التي تفرض العقوبات على بولندا والاتحاد السوفياتي، وتزرع الخوف في أفئدة حلفائها.. حتى أنهم لم

يطيعوها في أن يحذو حذوها في فرض العقوبات ولقد فات الولايات المتحدة أن تكون الإمبراطورية الوحيدة، لأن (ترومان) و (اتلي) قد صنعا للاتحاد السوفياتي أن تكون الإمبراطورية الثانية.

أليست مفارقة.. أن تكون بولندا القاسم المشترك في الحرب العالمية الثانية وفي الموقف المتأزم الآن.

إن بولندا بكل ما صنع الاتحاد السوفياتي فيها لا يؤثر على مصالح الولايات المتحدة، بل إن تعرضها لهذا الموقف قد أسقط من هيبتها، ولكن إسرائيل هي التي نالت وتنال من مصالح الولايات المتحدة.

والمفارقة الأخرى: حينما جزع ألكسندر هيج من موقف حلفائه ـ لا يستجيبون لرغبته قال: إن من يحملون السلاح ولديهم القوة يتعمدون إثارة القلاقل ويلغون المعاهدات والاتفاقات ولا يخضعون لأي قانون، فينبغي لنا أن نردع تلك التصرفات.

إن هذا التصريح يتمتع بازدواج السلوك، فأي حكومة في الدنيا كلها قد مارست انتهاك حقوق الإنسان ورفض قرارات هيئة الأمم المتحدة والسخرية بأي قانون أكثر من إسرائيل؟

أليس ذلك ازدواج السلوك كما قلنا؟ وإنما هو فعل الولايات المتحدة يشفع له كمبرر أن لا تكون رادعة لما أرادت. مفارقة غير مفهومة لأي ناظر غافل ومفهومة للذين يعرفون أن الولايات المتحدة توافق سلفاً على كل ما صنعت إسرائيل.

ـ صـــورة:

قرأت فيما قرأت أن كلمة وردت قالها (مناحيم بيغن) بكل الغضب،

يبرر ما صنع ويصنع مع أنور السادات من إحراج وشغب في مفاوضات (كامب ديفيد) قال يوجه كلامه لأنور:

ـ (لقد خدعتنا)..

فماذا يعني ذلك؟

هل هناك اتفاق كان بين أنور السادات وإسرائيل قبل العبور، فلم يستطع أنور السادات أن يفي به، لأن الجيش وقادته عندما وجدوا الفرصة مواتية للانتصار لم يتقيدوا بما يأمر به أنور السادات أولاً؟ من هنا تأزم الموقف ضد أنور السادات وضد إسرائيل ليكون الجسر الجوي المبرر لينقذ أنور السادات ما اتفق عليه.

فلم يكن أنور السادات قد خدع إسرائيل، وإنما النصر المواتي هو الذي خدع الاثنين، فكانت أزمة القادة، وصبر من صبر، ونفر من نفر. فهل أجد لذلك عند الصابرين؟ لتصدق الأقاويل التي كتبت، وليظهر كذب الأقلام التي صفقت وطبلت.

السؤال مطروح والتاريخ أمانة.

الإرهـــاب

إذا ما قام مفلوق أو صعلوك بخطف طائرة ابتزازاً أو انتقاماً.. قالوا إنه إرهابي.. وإذا ما قام رجل من المقاومة الوطنية يغتال غاصباً.. ينسف سفارة إسرائيلية، يقولون: هو إرهابي.. أما ما تفعله الإمبراطوريتان من إرهاب الدنيا كلها، فلا يصفونه بالإرهاب.. مع أن ما تمارسه إمبراطورية البيت الأبيض من هذا العون لإسرائيل، هو الإرهاب المزدوج.. تصب إسرائيل إرهابها على العرب. وتصب الولايات المتحدة العون للإرهاب اليهودي.. فهل نظلم الولايات المتحدة إذا ما قلنا إن الإرهاب اليهودي في فلسطين ما هو إلا إرهاب أمريكي.

إن مناحيم بيغين، زائد كاسترو، يساوي: بريجنيف زائد ريغان.

وما تمارسه إمبراطورية الكرملين بالأسلوب المسترخي في غرب إفريقيا وشرقها، وفي الأفغان، وفي بولندا وبالتخويف لأوروبا الغربية، وبالتسلط المستتر في فيتنام.. ما هو إلا قمة الإرهاب العالمي فالإمبراطوريتان هما: الإرهاب كل الإرهاب.

ويظن بعض أناس أن إحداهما ـ يتبادل المواقف ـ تصب الإرهاب على الأخرى، بينما هما في كل ذلك يصبان الإرهاب على الإنسان كله.

وحق النقض، أو الفيتو، في يد الولايات المتحدة، ما هو إلا قمة الإرهاب.. أباح لإسرائيل أن تعربد وأن تضم الجولان.

إن هذا في نظري هو الإرهاب الدولي، أما ما يفعله الأفراد، أو ما تناضل به المقاومة فليس من الإرهاب في شيء.. إذا ما قيس بإرهاب الإمبراطوريتين.

مصـريـات:

هذه المصريات تنتظم بها فقرات.. واحدة تلو الأخرى، يتنفس بها الكاتب ولا ينافس.. كلمة حفظناها لأحد بقية الناس في المملكة الأردنية اسمه (بهجت التلهوني) قال قبل سنوات مضت..

ـ لتحتل إسرائيل ما يمكنها أن تحتله من الأرض العربية حولها، لتبق مصر.. فإن بقاءها تمارس الحرب ضد إسرائيل، يحقق النصر وانتزاع الأرض التي احتلتها إسرائيل.

ولنا تعقيب على ذلك في صورتين:

ـ أولاً: إن مصر وحدها ما استطاعت أن تنتصر على الصليبيين والتتار إلا حين كانت الشام معها.. فـ (حطين) شامية مصرية، والمنصورة شامية مصرية. وما استطاعت مصر أن ترد الاستعمار الإنجليزي إلا لأن الشام كانت معها، فقد حصرت الشام في ظل العثمانيين لا تمد يد عون، وحين استعمرت مصر سهل الأمر على الاستعمار أن يعطي وعد بلفور، وأن تستعمر فرنسا سوريا، وأن تستغول بريطانيا في العراق.

والشام لا أعني بها أنها سوريا فقط، وإن كان هي القوة الشامية الآن.. فالشام في ميراث الفتح المسلم حدودها من رفح إلى الفرات، ومن الإسكندرية إلى معان. هذه الشام، أما التقسيمات الإقليمية فافتضاح عربي..

من هنا حرصت إسرائيل مع الولايات المتحدة وبمعاهدة السلام وبإطار

كامب ديفيد أن تفصل شرق السويس عن غرب السويس، ليمكنها أن تختطف أرضاً عربية بين فترة وأخرى في غيبة مصر عن الصراع وفي صراع مصر مع تكاليف كامب ديفيد!

فهل كان (بهجت التلهوني) إلا صاحب فراسة، حين قال كلمته تلك، وحين فجعته الأحداث بهذا الفصام والانفصام بين الشام ومصر؟!

ـ فيما يبدو أن هذا الوضع، وقد أبعدت مصر وتباعدت الشام، فيه درس كبير يعطي العرب فرصة التفكير في أن لا يحركهم ضم الجولان فحسب، وإنما ينبغي أن يتحركوا ضد هذا الفصام والانفصام بين شرق السويس كله وغرب السويس كله.. كأني أتفاءل بأن في باطن هذه النقمة نعمة إذا ما تخلت الزعامات عن (الأنا) لتعتنق الـ (نحن).

سينـــاء:

ما سينا.. ما هذه السيرة المستفيضة لها في التاريخ، واسمي من التاريخ ثناء القران ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه: ١٢). الطور. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤)، الجبل.. تأتي المعجزة بالنتق له يصبح دكا.. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣). ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ (النور: ٣٥) ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (النور: ٣٥).

كل هذا لسيناء؟ وتزداد سيناء بأن تكون الملجأ لعيسى بن مريم على الطور.. كأنما كل الأراضي العربية حفتها البركات: في الحجاز المسجدان ـ القبلة والكعبة ـ والنور والإيمان.. فلسطين الأرض المباركة. دمشق فيها الربوة ذات القرار والمعين.

ما هذا.. تكون الأرض مباركة مقدسة إلى هذا الحد، ويبقى إنسانها يدنس بالاستعمار وبالطغيان؟

ذلك وقت.. فإن الأرض ستقتل الدنس. لأن القداسة لا تقبل الدناسة.

سيناء: اسمها مشتق من اسم القمر، فالقمر هو السناء والسنى.. هي أرض القمر حتى لا أحسب أن اسم (صان) للشمس في اللغات الأوروبية هو من (سان) اسم القمر. كما أن اسم (أستار) مستعجم مأخوذ من اسم (عشتار) الكنعانية، الفينيقية العربية.

سيناء: عرف الاستعمار أنها البرزخ يصل شرق السويس بقرب السويس، فحاول أن.. يفصلها من زمن بعيد.. يوم عرض نتاجها على الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري فقد أراد الإنجليز حرباً على الفرنسيين واسترضاء للأمير ليستغلوه، فعرضوا عليه أن.. يكون ملكاً على سيناء، فأبى إيمان الأمير المجاهد، فإذا هو يقول لهم: هل سيناء من أملاك التاج البريطاني حتى تمنح لي؟ إني أرفض ذلك، فأنا لا أحارب الاستعمار في الجزائر، لأداهن الاستعمار في سيناء.

وجاءت كامب ديفيد ـ واغفروا لي هذه الصراحة ـ فأقول: إن سيناء قد دولت بتلك الجيوش التي يكذبون على التاريخ فيقولون إنها للمحافظة على السلام.

ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث ـ بعد الثورة وفي أعقاب الكلمة التي قالها لطفي السيد لجمال عبد الناصر يرحمهما الله ـ (إن مصر من عهد قمبيز لم تحكم بمصري حتى جئت أنت).

كل ذلك، وطول هذه المدة التي أربت على الثلاثين عاماً.. سلبوا المصرية عن (محمد علي) وبنيه، كما سلبوها عن صلاح الدين والمماليك ومن إليهما.. حتى جاء (أحمد بهاء الدين) فمصر (محمد علي) وأعطاه حقه من تاريخ مصر.

إن المصرية الأعراق لا يتمتع بها إلا (الأب شنودة) و (كمال الملاح) و (مفيد فوزي) أما المصرية الاستعراق.. فحق لكل من نشأ على تربة مصر أن يكون مصرياً كامل المصرية خصوصاً وإن أعطى لمصر مجداً في تاريخها، وتاريخاً من أمجادها.

إن العرق لا يستقيم معه.. ما يفرضه الوطن، فكم من عريق أصبح الوطن به غريقاً. كأبي رغال، ويوسف خنفس مثلاً، وابن العلقمي مثلاً.

التنكر لجمال عبد الناصر.. إما بصورة الانتقام وهم الذين خالفوا مبادئه أو الذين غضبوا من التأميم وما إلى ذلك، وإما على صورة من النذالة والسفالة، حين يتنكر له بعض الذين أنعم عليهم وأوصلهم إلى المراتب العليا.. فلا الانتقام دافعهم، ولا الثأر وازعهم، وإنما هي العمالة.. إرضاء لإسرائيل وترضية لبريطانيا وفرنسا، وتملقاً للولايات المتحدة، وإسقاطاً لعلاقة الاتحاد السوفياتي.

إن من يفعل ذلك لا أسميه، وإنما كل الأصابع قد أشارت إليه.

ـ صـــورة:

واستعملت الولايات المتحدة حق الفيتو.. ذلك شأنها، بل إن من مصالح الجولان أن تفعل الولايات المتحدة ذلك، لينقطع أمل العرب في قرارات (هايد بارك).

لكني أطرح سؤالاً: ألا يحق للعرب أن يسألوا الدول التي تم بها تمرير القرار.. يعرض للتصويت.. يرفض بالاعتراض الأمريكي.. تتستر وراء الرفض دول أوربا الغربية.. يحق على القرار، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي أن ينقذ ما وافق عليه طواعية ونصراً لحلفائهم من العرب، فهل نضمن أن الاتحاد السوفياتي الذي وافق على القرار يطبقه فيعاقب إسرائيل بمنع الهجرة إليها من يهود الاتحاد السوفياتي؟

واستقـــام التـاريـخ

واستقام التاريخ فلا ثغرات ولا فجوات.. فحين أعلن وزير التعليم العالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ أمر الملك خالد يعيد إلى جامعة الرياض اسمها الأول الذي أطلق عليها يوم أن أنشئت (جامعة الملك سعود) فلم يكد يسمع المحتفلون وهم كثر من كل الكيان الكبير هذا الخبر حتى ضجت القاعة بالتصفيق ولم يكن ذلك تكلفاً ولا انقياداً غوغائياً وإنما كان كل واحد من هذا الجمع الغفير قد امتلأ وجدانه ليس بالوفاء فحسب ولا باللفتة الحانية فقط. وإنما كان ذلك قراراً يضع الأمر في نصابه يعلن أن الدولة تريد أن يستقيم التاريخ وأن يتوحد الجمع في الأسرة الواحدة الكريمة وفي كل أسرة لا ينبغي أن تتفرغ أهواؤها كأنما القرار صدر به هذا الأمر دعوة لأن تكون الوحدة في هذا الكيان الكبير مطلباً قومياً ودعامة دينية وترسيخاً تاريخياً. فالملك سعود يرحمه الله ابن هذه الأسرة المالكة. كان هو الرياض وكانت الرياض هو. كما هي نوازع هذه الأسرة الملكية فالكيان الكبير كله هي وما هي إلا الحفيظة على قيم هذا الكيان الكبير.

إن الملك سعود كان حريصاً على أن تكبر الرياض بالعمران فإن هو يجد من كل من حوله ومن كل من معه العون على ذلك والرغبة في أن يتوج عمران الرياض بأول جامعة تنشأ في الرياض وكان لزاماً أن يطلق اسم

جلالته عليها. صرخة الحق في أن يكون للجامعة اسم تعرف به كما أن تأسيس جامعة الإمام محمد بن سعود صاحب السيف في نصر الدعوة صرخة حق تعطي لجد هذه الأسرة حقه في أن يذكر اسمه على مدى التاريخ.. وضجت القاعة بالتصفيق كأنما نسمة من الدرعية عانقتها نفحات من (حراء) من دار الأرقم بن أبي الأرقم أيوب الأنصاري من المسجد الذي أسس على التقوى من أول محراب في هجر فنادت تعانق اليمامة التي اشمخرت في شعر ابن كلثوم. فكأنما اشمخرت حاضنة الدعوة السلفية. حاضنة أول جامعة. أو كأنما ضجت القاعة بالتصفيق تسمع النداء من حجر ثمود يناغي حجر اليمامة من أرم ذات العماد يسأل هل عادت إلى اليمامة طسم وجديس. إن زرقاء اليمامة دعت فرعون ذا الأوتاد تقول له (أعطني ابناً من أبنائك أرتفق به ليؤسس في يمامتي جامعة جديدة) فإذا مصر ينبعث منها ابنها عبد الوهاب عزام أو كأنما الملكان في بابل قالا لكلية العلوم في الجامعة أنتم أبناء الذين لا زالوا وهم في بيوت الشعر وحول الوديان يعرفون علمي عن البروج والإفلاج.

لقد ذاب هذا العلم في أكثر من وطن عربي ولكن نجداً كلها تعرف هذا العلم تزرع النخلة والحنطة في مواسمها التي خلقها الله.

كأنما كلية العلوم تريد لها ألا يذوب العلم القديم التراث في هذه العلوم الجديدة فلم يكن هذا الجديد إلا من علومنا القديمة.

لقد كان الملك سعود شديد الرغبة في أن يتم عمران الرياض فكانت الحلية على هذا البناء ـ الجامعة ـ ولقد غضب مرة فأبرق إلى وزير المالية حينذاك محمد سرور الصبان يشتد عليه بأمره ألا يتأخر عن أي مدد يطلب لتعمير أي بناء في الرياض.

وجاء الدور العظيم للملك فيصل فإذا الجامعات تترى واحدة بعد أخرى، يدعم الجامعة الإسلامية في المدينة يؤسس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية يؤسس جامعة البترول والجامعة التي باسمه في هجر (البحرين) أو الإحساء.

إن الجامعة الإسلامية قد أمرت أن أقترح إنشاءها بأمر الملك سعود كأنما ذلك لتوعية الذين كثيراً ما يقولون (لا) حتى إذا تم الإنشاء كانوا خير من قال (نعم) إن الملك فيصل قد وضع الأسس لأن ينشر العلم وكيف صابر فأنشأ مدرسة الثغر والمدرسة الأولى للبنات لقد كان شغوفاً أن نكوّن جامعة حريصاً على أن تصبح جامعات.. فله كلمة سجلها في دفتر الزيارات يوم زار لندن أول مرة فسجل هذه الكلمة في سجل الجامعة ولا أدري هل هي أكسفورد أو كامبردج أم غيرها كتب (إني لأرجو أن تكون جامعة في بلدي على غرار هذه الجامعة) كأنما هي دعوة استجاب لها الله.

أما الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد فقد كان كثير الاحتفال شديد العناية والرغبة في أن ينشر العلم في كل بقعة من الكيان الكبير، فمن حظ هذا البلد أن كان هو الوزير الأول للمعارف، فلئن أسس الملك سعود والملك فيصل ما أسسوا من الجامعات والمدارس، فإن الأمير فهد قد أعطى كل جهده لأن يرتفع البناء، ولأن تكبر الجامعات، ولأن تنتشر المستشفيات، فلا تجد بقعة في هذا الكيان الكبير إلا وفيها المدرسة من الألف إلى الياء كأنما هو قد شعر بالجوع الذي كنا فيه، فمثلاً وفي أواخر الخمسينات يوم كانت موازنة الدولة لا تبلغ الخمسين مليون ريال طلبت المدينة المنورة أن يكون فيها فصل ثانوي بينما هي تشهد اليوم مدارس ومدارس وجامعات وكليات وأذكر إن لم أكن قد نسيت أن أول موازنة لعام

٣٧٣هـ لوزارة المعارف كانت ١٧٤ مليون ريال فابتدأ التوسع حتى أن.. واجب الوفاء لمآثر الرجال ينبغي أن أذكره ـ إن وزير المالية حينذاك محمد سرور الصبان قد دعا الممثل المالي في وزارة المعارف يقول له: إن سمو الأمير فهد طموح حريص على التوسع في نشر المدارس، فلا تقل إن البند لا يفي قل (نعم) واطلب مني الدعم أُوَافِكَ به حالاً.

ومن استقامة التاريخ أن أستعرض كيف تمت جامعة الملك عبد العزيز في جدة. كان الأسلوب أن يتم الأمر بالهوينا حتى يحين الوقت لمن يقول لا. لمن كان مثلي من خائري العزيمة أن يقول بعد ـ نعم ـ كانت الدعوة لأن تؤسس بالتبرعات فلم يتقدم الكثير من الذين أعطاهم إلا من أن يكونوا أثرياء الجيوب، فقراء القلوب وإنما تقدم للتبرع بالمبلغ الكبير حينذاك محمد أبو بكر باخشب، فلئن امتلأ جيبه فلم يكن حين جاء البلد فارغ الجيب. أما الرجل الثاني فعبد الله السليمان وزير المالية السابق أحد البنائين فقد تبرع بالأرض اعترافاً بالخير الذي رُزِقَ.. وبذلا من الخير الذي أُعطي.

وجاء الملك خالد صادق النية حسن الطوية لم يقل لأي خير (لا) فوضع حجر الأساس.. للجامعة تعانق الرياض الدرعية ودعم الجامعات فإذا هو يبرز كريماً بخلقه وحبه لمكة ويؤسس فيها جامعة أم القرى. كل هؤلاء لم ينسوا أن أباهم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله قد أقام لهم الوحدة الأنموذج فإذا هم كلهم يضعون النماذج من الوحدة كأنما هي لبنات يتوطد بها الكيان الكبير وبناء الأسرة الكريمة أسرة الملك والأسرة كلها من الشعب، فهم للشعب ومن الشعب. ذكر أن بدوياً مسه ضيق فقال يتحدى من أضامه (لا تحدني على قصاي أنا أقول لابن سعود يا ولد عمي وأنت في حماه يردعك أن تجور).

حديث الأمير فهد

وتحدث الأمير فهد ولي العهد إلى طلاب جامعة البترول والأساتذة حديثاً هاماً أحاط بكل شيء، لكن فقرة واحدة أخذتني أريد التعليق عليها.

فقد قال سموه ما نصه كما نشر في صحيفة البلاد:

(إن من حسن حظ المملكة في هذه الفترة أن تدفق البترول من أرضها في هذه الظروف الصعبة التي كانت تعيشها، ولو تدفق في وقت غير هذا الوقت لربما دخلت المملكة في عداد الدول المحتلة طمعاً في ثروتها).

إن هذه الكلمة صادقة كل الصدق، فعبر عن الاستعمار المتكالب على ثروة الأرض تعبيراً رقيقاً، غير أن الحجب والخفاء لهذه الثروة دفينة الأرض فلم تظهر إلا بعد أن أطاح هتلر بالاستعمار القديم وأنقذت الشعوب نفسها من الاستعمار الحريص على النزح من ثروات الشعوب.

فهل كان هذا الإخفاء إلا من نعمة الله أولاً لتفيض نعمته بعد فأعطى الملك عبد العزيز الخطوة ألا يظهر البترول إلا في وقته أم أن الملك عبد العزيز كما سمعت قد اغتنم المقالة التي وردت في تقرير لخبراء بريطانيين بأنه لا بترول لديكم فأرخى حباله. ثم حانت الفرصة لأن تمنح الامتياز لشركة أمريكية. فلما عاتب الإنجليز قال لهم: إن تقاريركم هي حرمتكم ذلك..

والفرصة الأخرى لإقصاء الإنجليز أنه كان لديهم بترول العراق وبترول إيران حتى إذا خافوا عليهما قال تشرشل (إن بريطانيا لا تستطيع أن تحمي مصالحها في الشرق الأوسط فجذبنا الولايات المتحدة إلى حوض البحر المتوسط تكون لها مصالح ونحمي مصالحنا) كل هذا من حظوة العبقرية عند عبد العزيز رحمه الله. فقد كان سمو الأمير فهد حصيفاً في هذه

الكلمة لا يعتذر عما مضى فبذلك تسير الظروف ونحمد الله على ما نحن فيه. كما أن عند جيل التجربة نكثر من الحمد والشكر.

محمد صقر وإبراهيم شاكر

وتعودت أن أذكر محاسن موتانا فقد مات الصديق قبل أيام واسمه محمد أحمد صقر أبوه أستاذنا وأستاذ جيل. كان هذا الطفل محمد صقر مع أبيه في مدرسة واحدة وأبوه في الفصول العليا وهو في الفصول الأولى، مفارقة قل أن تحدث، المدرسة اسمها دار المعلمين أسست في المدينة المنورة في بيت في الساحة (دار جونه) يملكها بيت مظلوم باشا في القاهرة. الوكيل عليها السيد أحمد صقر التلميذ في هذه المدرسة والمفارقة الأخرى أن السيد محمد أحمد صقر كان تلميذاً في فصل واحد ومن زملائه طفل في سنه اسمه عبد الحميد بدوي. أعني عبد الحميد باشا أستاذ الفقه القانوني وأحد مفاخر مصر. ذكر ذلك طه حسين يوم استقبله مجمع اللغة.

كان السيد محمد أحمد صقر أكبر مني سناً من لدات عبد الحق النقشبندي وعلي حافظ. كان ذكياً رضياً لا أذكر أنه أساء إلى أحد، أترحم عليه كتبت عنه أسجل اسمه في ثبت الوفيات، إبراهيم شاكر لم أعرفه في شبابه ولكني سمعت أنه كان ملء البصر كأنما الحظوة قد لازمته شاباً وكهلاً وشيخاً لم ينتقص من قدره أحد ولا نغص على أحد في شبابه. كان نظيف الثياب نظيف العرض كأنما جمال الخلق قد زاده جمالاً لم أكن في حل أن أكتب الكثير عنه، ففي ذلك يتشابك تاريخ ولكن ومن تمام الحظوة له أن كان قران الصداقة بينه وبين حسين العويني يقترن بكلائه من الملك عبد العزيز البطل يرحمه الله ثقة بهما لأنهما قد استأهلا ذلك فإذا كلاءة تعطيهم عون عبد الله السليمان يرحمهم الله جميعاً فإذا هو وإن أثرى لم تثر به

سائله البخالة، فما أشد أركامه لأصدقائه القدامى لم يكن غريب الأطوار وإنما كان غريب الأسفار عمر طويلاً فلعلّه لم يمت وقد نيّف على التسعين، لا أريد أن أزيد فالذين كانوا له احترموا أنفسهم عن الاستجداء كما السيد مصطفى عطار والذين كانوا به كان يكرمهم عن هذا الاستجداء يرحمه الله.

هل امرأة ثالثة

تلفنت إلي سيدة.. وبدأت تسألني:

ـ سمعت في حديثك المتلفز ثناءك وإعجابك بالجارية التي قالوا إنها قتلت بالقباقيب فأريد منك أن تعطيني السبب الأصيل الذي سحرك لأن تثني عليها وتعجب بها، كأنك قد أردت أن تسقط الألفاظ المهينة التي يتسافه بها بعض الكاتبين على من يستأهلون الإعجاب كله لا الإهانة؟

ـ فأجبتها أكتب عن (شجرة الدر) الآن:

وقرأ صديق ما ذكرته عن السيدة (جنان الشواربي) فدعاني أن أشرح ما تدعو إليه القيم التي صانتها هذه السيدة، فقلت له:

ـ إذن.. هما امرأتان، صنعتا في التاريخ النصر لمصر وللعرب جميعاً، فهل أجد امرأة ثالثة الآن تعطينا نصراً جديداً.. تملي على الرجال أن لا يختلفوا، كما ملتا على النضال أن يسود بسيف الرجال وصفح الأمهات؟

إن (شجرة الدر) جاءت النقيض لـ (كليوباترا) فإن (كليوباترا) سخرت مصر لدواعي عشقها بينما شجرة الدر أقصت حبها ساعة الكرب. ووهبت كل شيء فيها ومنها لتنتصر مصر. (شجرة الدر) جارية من بين المماليك الذين أكثر منهم الأيوبيون.

فكانت جارية ملك حين حظيت عند سيدها فأعتقها وتزوجها، أو أنها

حين ولدت ابنه (خليلاً) أعتقها ابنها: كانت مثل زوجها دمشقية تمصرت، فالبلد الإسلامي حينذاك كان أرضاً واحدة.. أمة واحدة رغم أنف ملوك الطوائف.

كانت ذكية تعرف موطئ قدمها، فأصبحت ذات سلطان في حياة زوجها، ولعلّها كانت.. القوة التي معه.. صانت بها وحدة الجيش، وأعفت المماليك الطامعين إلى السلطان من الخلاف فلم يكونوا في وحدة إلا بها ولها ومعها. فرساناً أعطوا للملك الصالح أن يصمد أمام الحملة السابعة الصليبية، فحين كتب إليه (لويس التاسع) مهدداً بأن يجتاح مصر الشوكة التي هزم بها (صلاح الدين) الصليبيين، فأجابه الملك الصالح يرد التهديد بالتهديد، حتى قال المؤرخون: إنها التي شدت من عزم السلطان أن لا يخضع للتهديد.

ونزل الصليبيون بقيادة (لويس التاسع) من سفنهم الكثيرة، يحتلون شمال الدلتا عن طريق دمياط، يصلون إلى المنصورة.. فإذا (الملك الصالح) بجيشه يكون في ميدان المعركة كل ذلك عمل السلطان. وكانت (شجرة الدر) وراءه، ولكن السلطان فاجأه المرض، فإذا هي أمامه تمسك بزمام السلطان، وتدير أسلوب الحكم.. حتى إذا مات ـ والصليبيون يستغلون ـ أخفت موته. تصدر المراسيم بتوقيعه، فقد كان خطها خطه، كأن السلطان الكبير حي لا يعرف موته إلا هي وقليل من الرجال.. مستهم جمرة الحب لمصر أن يكونوا مثلها. واحتدم القتال.. حتى وصل الصليبيون إلى أبواب القصر، ولكن شعلة العزم في وجدان (شجرة الدر) أعطت الـ (ظاهر بيبرس) يقود مماليك البحرية.. يردون حملة الصليبيين إلى الوراء، وإلى وراء الوراء.. ويشتد عزم الجيش كله ومعهم كرديف تلامذة

أحمد البدوي كان كل شعب مصر كان في المعركة، فلم يقل المصري العريق في المصرية لـ (شجرة الدر) أنت غير مصرية، ولا (الظاهر بيبرس) أنت عبد شركسي، فالمصري العرق لم ينتصر في تلك اللحظة إلا بالمصري الاستعراق. فتسافه ساقط أن يقول لأحدهم: إن صلاح الدين ليس مصرياً، والمماليك الملوك لم يكونوا مصريين. أفلستم اليوم تنادون (صفية زغلول) العظيمة امرأة العظيم ـ بـ (أم المصريين) مع أن أباها (مصطفى باشا فهمي) تركي لا يحسن العربية؟

إن هذا التناقض لا يعترف به التاريخ، فـ (شجرة الدر) مصرية.. أعرق من (يوسف خنفس) ومن كل خوان لمصره.

وانتهت المعركة، فقد أسرت (شجرة الدر) الملك الفرنسي (لويس التاسع) سجنته في دار ابن لقمان:

دار ابـن لـقـمـان عـلـى حـالـهـا والـقـيـد بـاقٍ والـطـواشـي صـبـيـح

وكثر الأسرى من الصليبيين، فإذا فرنسا كلها تستجدي إطلاق الملك من السر.. تفتديه بالمال الكثير.. وإذا الحروب الصليبية قد دمرت وصلاح الدين نال منها ما نال و (شجرة الدر) نالت كل منال. وأعلنت موت السلطان وأوفت بالعهد لابنه (طوران شاه) ولكنه حين عقها قتله رجالها فباعها الجيش بالملك وضربت العملة باسمها، ونودي على المنابر باسمها.. لكن ذلك لم يدم إلا ثمانين يوماً، لأنها عرفت أن الخلاف يتسعر، والطامعون يتكتلون ضدها، فتزوجت المملوك الملك (عز الدين أيبك) تنازلت له عن السلطان، ولكنه بعد أن استبد على الجيش بسلطانها وأخذ يستبد عليها ثار في وجدانها الحافزان الخوف على المقام والخشية

على القيمة.. ما رضيت أن تحرم السلطان عليه وأبت أن ينال من أنوثتها بالزواج عليها، فتآمرت عليه وقتلته.. حتى ثار عليها ابنه علي، بإيعاز أمه، فدخل الجواري عليها في الحمام يتكاثرن.. يقتلها بالقباقب.

أهكذا يكافأ النصر..؟

لكنها النزوات والشهوات تحط من قيم العظيم، يرحم الله شجرة الدر.

ـ أما (جنان الشواربي) فأعجبت بها، ولم أعرف عنها إلا ما ذكره الأستاذ (محمد حسنين هيكل) في إحدى مقالاته التي كان يكتبها في (الأهرام) تحت عنوان (بصراحة). لكن الخبر البسيط الذي أعلنه (هيكل) عن هذه السيدة الجليلة.. العربية الأعراق المصرية الاستعراق، وجدتني أهضمه لا مثله.. من الصورة التي كانت عليها وألجأوها إلى أن تكون بعيدة عن خوض معركة.. فحين اشتدت الأزمة. وسألوا عن امرأة تكون بها النجدة، قالت (جنان) أنا المصرية لا أتأخر عن نجدة بلدي ولو سلكت طريق المهلكة ولسان حالها يقول تعبيراً عن الوضع الذي كانت فيه: إن الأفراس التي افترست، والقيمة التي افترشت، والفدادين التي أممت، والألقاب التي ألغيت، والحرمان الذي صب علينا كل ذلك إن أهدروه، فإنه لن يهدر قيمة وطني مصر في عقيدتي وفؤادي وعملي.. ارتفعت أن تخضع للضيم لأنها أرادت أن تسهم بأن لا تضام مصر، فماذا فعلت؟

لقد كانت (بورسعيد) معرّضة للسقوط في يد الإنجليز والفرنسيين في لحظة بعد أخرى يترقب (أنتوني ايدن) خبر سقوطها، فطلب محافظ بورسعيد من قائد المعركة جمال عبد الناصر يرحمه الله أن يمده ببعض المال ليشتد أزر المقاومة ولتصمد بورسعيد، فالتفت جمال عبد الناصر يسأل: من يوصل هذا المال؟ الجميع صمتوا عن الجواب حتى رجال

الثورة، وقالت (جنان) أنا فاتمنوها على أربعين ألف جنيه تحملها في حقيبتها. تشق الطريق من القاهرة إلى بورسعيد.. تقف أمام ضابط إنجليزي، يخضعها للتفتيش فتأبى لا بالعصيان المتمرد فذلك لا يفيد.. وإنما بالمارد الذي في وجدانها.. قالت: هذا عيب إن خلق الجنتلمان الإنجليزي لا يسمح بتفتيش حقيبة امرأة. أثارت في الإنجليزي وازع الخجل. وكذلك فعلت مع الضابط الفرنسي، فإذا هي في بورسعيد تسلم المحافظ المال يشتد أزر المقاومة وفي تلك اللحظات وبورسعيد صامدة يقف (أنتوني ايدين) رئيس الوزراء في الإمبراطورية العجوز يعلن سقوط بورسعيد، وإذا هي الكذبة، فبورسعيد لم تسقط، وإنما الذي سقط هو (إيدن) فقد أراد (إيدن) بما صنع في (البريمي) وبالعدوان الثلاثي، والكذبة في بورسعيد أن يمثل دور (وليم بت) فأنبت بلا رجعة، تصدق كلمة (خرشوف): (إن السد البريطاني قطع ذيله في حرب السويس).

لكن بقي سؤال: كيف وصل إلى مسمع (جنان) نداء النجدة، هل كانت ذات صلة بجمال عبد الناصر، أو بأحد رجال الثورة، أو بمحمد حسنين هيكل بالذات؟ لا بد أن بعض ذلك قد كان، فهل عند (محمد حسنين هيكل) شرح يوضح هذه العلاقة أنصافاً للتاريخ أن لديه الكثير عن مواقف صادقة لبعض الذين كانوا في وضعها المضيء، فما خضعوا للانتقام ولا للشماته، وإنما كانوا في هذه المعركة خيراً من بعض الذين ذاعت لهم أسماء أنهم كانوا فيها.

إن (جنان الشواربي) عربية صليبية.. جدها شيخ قليوب، ففي الأجزاء الأولى من (الجبرتي) يسميه (أبو الشوارب) وفي الأجزاء التالية يسميه (الشواربي) أصله من أرض الحجاز. أعراقه.. في الجبل الأشم (رحقان)..

الجناح الأيمن على وادي الصفرة، الذي يسمى الآن (الفقرة) تحت سفحه (المسيجيد) فهي أحمدية، حربية من هذا البلد.. بلدنا: الكيان الكبير. ومفارقة كأنما الشيء بالشيء يذكر، كنت أستاذاً في دار الأيتام المدينة المنورة، لي مقام في المدرسة فزار المدينة (صلاح الدين بيك الشواربي) وزار دار الأيتام وقد كان عضو مجلس الشيوخ المصري فأخذت بيده إلى فصول المدرسة، وقلت لتلامذة الفصل هذا صلاح الدين بيك الشواربي جاء يزوركم، فوقف تلميذ ـ لعلّه لم يبلغ الثانية عشرة من عمره واسمه محمد أحمد الأحمدي لا أدري أين هو الآن ـ فقال باسماً فاخراً (يا أستاذ.. الشواربي منا أحمدي من ربعنا) فابتسم صلاح الدين وقال: أملي أزور (المسيجيد) أرى بعض آبائك! وهكذا يحن العرق إلى العرق، والدم إلى الدم، فهل يتعلق المصير.. ينتظر امرأة ثالثة؟

والعربي القديم يقول في صداقة الدم للدم، وعداوة الدم إلى الدم:

ولو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين

ويعني ذلك: إن دم الصديق يجري نحو دم الصديق، ودم العدو يبتعد عن دم العدو.

مؤتمر القمة.. والإمبراطوريتان

أيما كاتب احترف التعليق على الأحداث لا يلتفت إلى الإيجابيات ـ ثناءً وتقريظاً ـ كأنما الثناء على مؤتمر القمة الإسلامي ليس من عطاء الذين أنصفوا أنفسهم فأشادوا بالمؤتمر فحسب، وإنما هو ـ وأعني الإيجاب ـ عطاء من الكاتب نفسه، فلا يحتاج إلى أن يمارس التعليق الإيجابي، وإنما هو يجعل همه أن يدير حواراً مع السلبيات.. لا ليقرر الحقائق، وإنما لينكر التعسف المفروض.

مؤتمر القمة الثالث المنعقد في مكة، أول القرار الصائب الصادر عنه هو أن انعقاده بالكثرة الكاثرة من القادة المسلمين، لم يتأخر عنه إلا الذين أخروا أنفسهم، ثم إن القرارات التي أشاعوا أنها مائعة أو أن المؤتمر فاشل قبل أن يعقد لم تكن صادرة عن فهم للأوضاع العالمية وإنما حصروا أنفسهم في أوضاعهم هم فهل كانوا يطلبون من المؤتمر أن تصدر قرارات عنه بشيء من صرامة الإعلان للحرب المقدسة، أم كانوا يتصورون أن قرارات غير التي صدرت تصاغ بصيغ تشتمُّ منه رائحة الانحياز إلى دولة عظمى... يفرح الذين استقطبوا لها، بينما الآخرون يريدون منه الانحياز إلى الدولة العظمى الأخرى التي استقطتهم.. كأنما هم أرادوا من المؤتمر أن يكون صورة من مؤتمرات عدم الانحياز؟!

ومن الواضح الجلي أن قرارات المؤتمر صورت الواقع، وحذرت من الوقوع في أن يكون مستقطباً لإحدى الإمبراطوريتين.

ولئن كان موضوع المؤتمر هو وحدة التضامن في الدفاع عن فلسطين ـ وقد سمي المؤتمر باسم فلسطين ـ والدفاع عن الأفغان، والدعوة إلى إنهاء الحرب بين العراق وإيران التي أصبحت غير حرب محلية لأن من عقابيلها أن كانت حرباً عطلت الجهد الإسلامي عن التحرك عن قضية فلسطين، فما أصدق قول الوسيط الدولي رئيس وزراء السويد السابق بالم: إن هذه الحرب بين العراق وإيران تركت قضية الشرق الأوسط توضع على الرف.. لا لانشغال العالم الإسلامي والعالم العربي بها، وإنما لانشغال الدنيا كلها عنها، فهي ليست من المباسطة بأن تترك دون أن يتعرض لها مؤتمر القمة الإسلامي، وقد أطال أمدها انصراف إيران عن الحضور إلى المؤتمر، فلئن كانت الحرب مواجهة بالسلاح، فأي ضير لو كانت المواجهة في قاعة المؤتمر؟!

فالقرارات ـ إذن ـ أكثر دقة وأشد صواباً من قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن ودول عدم الانحياز وما إلى ذلك، ثم إن انعقاد المؤتمر بهذا الجمع الكبير شل قوة عالمية.. ما أحرى أن تكون هي القوة الثالثة ليكون ما يسمى: العالم الثالث ـ الجامع للدول النامية ـ عالماً رابعاً، أو قوة رابعة، فالقمة الإسلامية إبراز لقوة جديدة تستهدف التحدي، وتتصدى، وليس في مخططاتها أي تحرك للتعدي، إنها قوة عطاء لا قوة استجداء، فوجود هذه القوة قرار لن يكون مانعاً ولن يكون فاشلاً، وعجيب أن تعلق الصحف الأجنبية تشيد بخطورته العالمية، وأن تعلق وسائل الإعلام بلغة عربية التقليل من خطورة هذه القمة في مواجهة الأوضاع الحاضرة في هذه

الدنيا، ولئن كان الموضوع إبراز القوة الإسلامية لمواجهة التحدي، فإن الموضوع المستهدف هو موقف هذه القمة تجاه الإمبراطوريتين إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكرملين، فلم يعد خافياً أن هاتين الإمبراطوريتين هما اللتان تشكلان جبهة المواجهة أمام هذه القمة.

فإسرائيل ليست هي الولايات المتحدة والولايات المتحدة ليست هي إسرائيل. تواجه العالم الإسلامي والشعوب العربية بالعدوان والطغيان، ولم يدع المؤتمر إدانة الولايات المتحدة في عدوانها المستمر تمارسه إسرائيل، كما أنها تمارس الموقف المتأرجح والمتخاذل أمام طغيان الاتحاد السوفياتي.. كأنما كان الوفاق مؤامرة يبيح للاتفاق أن يكون مقامرة.

ولم يقف أصدقاء الولايات المتحدة في المؤتمر إلا مع هذه الإدانة للولايات المتحدة، لأن صداقتهم لحقوقهم هي الأولى لأن يكونوا معها ولها، وإن صابروا وصبروا على تصرفات الولايات المتحدة، فقد أشبعت الكلمات نفسها حملة على الولايات المتحدة وما توقيناها ولا خفناها.

وبقي الموقف تجاه الاتحاد السوفياتي، فإذا الوضع بدل أن يكون وضع الاتحاد السوفياتي في موضع الإنكار عليه والحملة ضده ـ حذوك النعل بالنعل ـ مع الولايات المتحدة.. أباح كثير من المتكلمين أن يقرظوا الاتحاد السوفياتي، كأنما هم صكوا آذانهم عن سماع الصرخات.. صرخات الدماء التي تنزف في الأفغان، وكأنهم تناسوا تلك اللطمات على وجوه الفواطم والزينبات والعائشات من أمهاتنا وبناتنا.

كل ذلك كان باسم الصداقة للاتحاد السوفياتي، ولن أجازف بأي كلمة حين لا أتنكر لهذا الأسلوب، بل كانت الحرية التي أعطيت لهؤلاء مظهراً صحيًّا أبرزت قوة المؤتمر لتتضح الأمور، ولتعلن المواقف.

ولست أجازف ـ مرة أخرى ـ حين أعتذر عن صداقة هؤلاء للاتحاد السوفياتي، فقد سبقهم تشرشل حين قال: «في سبيل بريطانيا أحارب الشيطان»، فهؤلاء العرب حينما صادقوا الاتحاد السوفياتي يعذرون حينما يحالفون الشيطان!

ولكن كانت محالفة تشرشل مع الشيطان محالفة صادقة لم يتشيطن الشيطان فيها على تشرشل، فقد حقق هذا الحلف هزيمة هتلر. أما الصداقة مع الاتحاد السوفياتي الآن، فهي صداقة من طرف واحد هم العرب الذين صادقوه، ولم تكن صادقة من الاتحاد السوفياتي.

لماذا أقول ذلك؟!

إن صداقة الاتحاد السوفياتي لم يكن مظهرها ومخبرها إلا بيع السلاح بالقيمة المدفوعة فوراً، وحسن أن يمتلك العربي السلاح، ولكن الأسوأ من هذه الصداقة أن يمنع الصديق البائع للسلاح صديقه من استعمال السلاح!

فإسرائيل تكيل الضربات للبنان، ولعلها تتربص بنا أن نضرب مكاناً آخر، والسلاح مكدس لا تستطيع يد أن تتحرك به.

فأية صداقة هذه؟!

إن طغيان الولايات المتحدة طغيان سافِرٌ ويمكن مقابلة هذا السفور بتصرف سافر لم يستنكف المؤتمر عن إعلانه، أو عن التحرك به في الظرف المواتي، أما صداقة الاتحاد السوفياتي، فطغيان مبرقع، ولأفترض أن منظمة التحرير قد أعلنت قيام دولة فلسطين، فمن هم الذين سوف لا يعترفون بها؟ سترتفع أصوات بالإجابة تقول: إن الولايات المتحدة لن تعترف بهذه الدولة، وإن دول الجماعة الأوروبية كلها لن تعترف بهذه الدولة وهذا صحيح، ولكن... هل تضمن هذه الدولة الفلسطينية حين تقوم أن يعترف

بها الاتحاد السوفياتي كما اعترف في اللحظة الأولى بقيام دولة إسرائيل؟

إني أتحدى من يزعم أنه يتوقع اعتراف الاتحاد السوفياتي، فأي صداقة هذه؟

وليس هذا دفاعاً عن الولايات المتحدة، وإنما هو الوضع الصحيح لأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي شرطيان في الصدق والصداقة مع إسرائيل كأنهما في موقف واحد.

إن إسرائيل تتمتع بتأييد الاتحاد السوفياتي أكثر من تمتعها بتأييد الولايات المتحدة بالقوة البشرية التي تهجَّر إليها، وبالصمت المطبق يمارسه الاتحاد السوفياتي فلا يقول لإسرائيل في إنذار يوجه إليها: «حذار من هذه الحرب كل يوم تشنّينها على لبنان» بل إن القصف المتقطع من المقاومة على إسرائيل فيه مظهر من إباحة الاتحاد السوفياتي استعمال السلاح المشترى منه ليعطي إسرائيل الفرصة لأن تكيل الضربات إلى المقاومة.

ـ كمال حسن علي:

والتعليق يلاحق التعليق.. فبعد أن سمعنا إذاعتي القاهرة وصوت العرب تشغبان على مؤتمر القمة... تصفانه بالفشل، قلنا قولة الضب للأرنب حين خطف الثمرة منه الثعلب: ظالم انتقم لنفسه!

فحين لم تُدْعَ مصر إلى المؤتمر، لم يقف نظامها الحاكم يرحب بالخير لأنه لم يكن شريكاً في صنعه، وبعد ذلك وإن عذرنا الإذاعة أو الصحافة، فإنه لا يمكن أن نعطي وزيراً في حكومة مصر هو الجنرال كمال حسن علي وزير الخارجية أي عذر في أن يضع حكومته المسلمة وشعبه المسلم في الموقف المناوئ لقرارات الإجماع المسلمة. فقد صرح بأن مؤتمر القمة

الثالث فاشل... لم يقرر إعطاء السلاح للأفغان.. لم يحذ حذو مصر في مناصرة الأفغان، كما أنه لم يعجبه أي قرار من هذه القرارات، وقد ازدحمت نفسه بمواقف القذافي، فأراد من المؤتمر المجمع أن يكون المفرق.

ولماذا لا يكتفي بما أذيع ونشر؟!

لعلني أتهمه، وأنا على يقين من ذلك، إنه الترضي لإسرائيل، وإعطاؤها الطمأنينة لموقف مصر، كأنه يقول لزميله شامير: نحن لسنا مع مؤتمر القمة الإسلامي، فلا تخشوا من جانبنا شيئاً!

ولم يكن هذه الاتهام جزافاً، فإن الجنرال ومن إليه يسعون جهدهم لترضية إسرائيل.. حتى في بعض ما يذاع من الأغاني.

شيء ما عرفناه عن مصر أيام الاستعمار... حتى الزعامة التي اتهمت بمجاملة الإنجليز من عهد عباس إلى عهد فاروق، ومن عهد سعد إلى عهد توفيق نسيم وزيور.. كانوا غير حريصين على ترضية الإنجليز، ويظهر أن الجنرال يقول لإسرائيل: لن نؤخذ بعيداً عنكم حتى بخطاب ريجان إلى الملك خالد.

ومن غرائب المصادفات أن يكون وزير خارجية إسرائيل من الطغمة العسكرية وأن يكون وزير خارجية مصر جنرالاً سابقاً كما وزير خارجية أمريكا هو أيضاً جنرال سابق!!

ـ ألكسندر هيغ:

لقد صرح وزير خارجية الولايات المتحدة ألكسندر هيج بقوله: إن الاتحاد السوفياتي يمارس الإرهاب الدولي.

كلام نصدقه، وحتى نصفق له، غير أننا نسأل قائد حلف الأطلسي السابق الذي كان حريصاً على سلامة الجناح الأيمن لحلف الأطلسي... نسأله: هل هو الاتحاد السوفياتي الذي يمارس الإرهاب الدولي وحده، أم أن الولايات المتحدة قد مارسته قبله ولا زالت تمارسه بالعصا الغليظة حسب تعبيره ـ بإسرائيل ـ أفليست إسرائيل في احتلالها الأرض العربية، وبناء المستعمرات والسخرية بإطار كامب ديفيد إلا إرهاباً دوليًّا مؤيداً من الولايات المتحدة؟!

فلئن كانت كوبا يد الاتحاد السوفياتي في هذا الإرهاب، فإن إسرائيل هي يد الولايات المتحدة في هذا الإرهاب.

لعلي أعتذر إلى ألكسندر هيج إنه لم يقل ذلك، وإنما قولوه، فما أكثر ما يتقول اليهود على هؤلاء الزعماء، وليس في هذا العذر لألكسندر هيج، أو الاعتذار عنه، وإنما هو التهكم برجال يسخرون لليهودية بهذا الأسلوب.

الإنسان يعيش مرحلة الغضب

كل ما في العالم متوتر.. لأن كل من في العالم غاضب.

فالإنسان ـ في أي مكان يعيش اليوم في مرحلة الغضب، ومن الغريب أن مادة الحرب ـ أعني كل السلاح ـ أصبح بيد الإنسان غاضباً لأنه لا يتحرك، فقد عطلوه ليكونوا هم الغضب كله.. فتعطل السلاح أغضبه.. يريد أن يتفجر، ولكن غضب مالك القوة عاجز على إرضاء السلاح.. إن إسرائيل غاضبة على الولايات المتحدة من أجل تسليح المملكة العربية السعودية، وليس هذا الغضب المتسعر في اليهود جديداً، فاليهودي غاضب على الإنسان ـ كل الإنسان ـ في كل وقت، ولكنه الآن ـ أعني الإسرائيلي اليهودي الصهيوني ـ قد شرع غضبه على الولايات المتحدة.. كأنه يضعها في طاعة الموظف لدى الصهيوني.

والولايات المتحدة غاضبة على الاتحاد السوفياتي، وعلى جيوب أخرى لا تعلن غضبها عليها وإنما هي الولايات المتحدة غاضبة على أوروبا الغربية.. على صورة من العتب، أو على الصورة الأخرى وهي التبرؤ من الذنب، فالحال في أوروبا ينبغي أن لا يحسب أنه من عجزها الذاتي وإنما هو من تعجيز الولايات المتحدة لها.. يوم قسمت أوروبا، وأغضبت فرنسا، وأعطت الاتحاد السوفياتي أن يكون في هذا الموقف المتفوق.

والولايات المتحدة ـ أيضاً ـ تتجرع الغصص من غضب إسرائيل عليها، ومن غضبها على الشرق الأقصى، ومن غضب الشرق الأقصى عليها.

ودول أوروبا الغربية غاضبة على نفسها.. تكره أن تكون عاجزة، وليست لديها قوة أن تخرج من العجز إلى قليل من القوة، وهي أيضاً غاضبة على الاتحاد السوفياتي ومغضبة له، وغاضبة على إسرائيل، ومغضبة على العرب، ولا تكاد تترضى الولايات المتحدة حتى تجد ما يغضبها. أما العرب فكل غضبهم على أنفسهم حتى لقد تعاونوا بصورة من الإرضاء لإمبراطورية الكرملين وإمبراطورية البيت الأبيض، وحتى لقد تهاونوا أن لا يتعاونوا في إظهار غضبهم على العدو المحيط بهم والمثبط لعزائمهم، والمنفرد بالطغيان عليهم (إسرائيل).

أما الثورة الفلسطينية، فهي التي لا تمارس إلا الغضب، ولا تنفعل إلا بإغضاب أعدائها، ولكن بعض ما يحرجها يخرجها من إعلان الغضب بعض الأحيان.. سواء على الذين يصبون طغيانهم علناً، أو الذين يفرضون سلطانهم بغير إعلان.

والحل؟..

هل أتشاءم إلى درجة أن أعيد الكلمة في صورة نشرتها من قبل.. قلت فيها: كانت الحرب العالمية الأولى ترفاً لألمانيا، وطغياناً استعمارياً، وكانت الحرب الثانية ضرورة ألمانية فقد ضيقوا عليها كل مجال وتوقاً استعمارياً من الإمبراطوريتين: فرنسا وبريطانيا، واندفاعاً لفرض السلطان من الولايات المتحدة، وفرصة تفوق بها الاتحاد السوفياتي.

أما هذا الغضب ـ يعيشه الإنسان اليوم ـ فهل هو في حاجة ملحة لأن يخوض حرباً ثالثة مدمرة..؟

أخشى أن الغضب سيجر العالم إلى هذه الحرب الفاشلة.. تهلك بها الحضارة، ويقتل فيها الإنسان، وتعيش العمارات إذا ما تعاملوا مع القنابل النيترون.. كأنهم قد افترضوا على الإنسان أن لا قيمة لحياته، فالقيمة لدى الدول الصناعية هي أن تبقى العمارات ويموت الإنسان.

ـ اليسار واليمين:

ظهر أسلوب جديد يتعامل به اليسار ضمن اليمين.. هو: إن اليسار قد اتخذ من اليمين المتطرف، ومن شعاراته سلاحاً يحارب به اليمين، ويعني ذلك أن اليمين المتطرف قد أشعل الحرب.. أمسك بسلاحها اليسار حرباً على اليمين المعتدل.

تكتب مقالاً تعبر فيه عن نوازعك من خلال مبادئك التي تنتمي بها إلى العالم الحر فيغضب كاتب يساري.. يشن حرباً ـ لا بسلاح الماركسية كمبادئ ـ فهو يريد أن ينتصر عليك وأنت ولا غيرك فلا يوجد سلاح يحاربك به إلا أن يتعامل مع شعارات اليمين المتطرف يرسل كلمات من التراث.. يلبس ثياب الدفاع عن الإسلام. يستشهد بالآيات، لأنك حين تكتب عن العالم الآخر إنما تساند النصارى واليهود.. تجامل الأعداء. يخضعك إلى هذه المذمة بسلاح أنت مالكه وصاحبه.

أسلوب جديد: التظاهر بشعارات اليمين لمحاربة اليمين.

وليس غريباً على اليسار أن يلجأ إلى أي سلاح، إنما العجيب أن اليمين يقف مواقف يتخير فيها الأسلحة النظيفة، والكلمات الرقيقة والاتهامات المبرقعة باسم التسامح، أو بدواعي الصبر بينما اليساري يمتلك كل الحيل، يشعل الحرب عليك إذا ما كنت يمينياً.

وأول مصادفة عرفت فيها كيف استعمل الشيوعي التحدث عن الإسلام

ـ كنظام عدالة وإنصاف للشعوب ـ كانت بعد مغرب يوم قبل أكثر من أربعين عاماً في بيتي بالمدينة المنورة، وما كنت أدري ما الذي حبسني عن الخروج من البيت قبل المغرب، ولكن.. لم أشعر إلا والشيخ محمود شويل أحد علماء المدينة المنورة السلفيين ومن أهل الحديث يطرق الباب ومعه مسلم من الهند من أهل الحديث كما يدعي.. طويل القامة، عظيم الهمة، فرحبت بهما، وأخذ هذا الرجل الهندي يتحدث عن الإسلام كنظام التكافل والعدالة وسيادة الشعب، ثم تحدث عن قيمة السنة النبوية والحديث الصحيح، ومن أعجب ما قال: إنه يقدم موطأ مالك أمام دار الهجرة على الصحاح حتى صحيح البخاري لأن الموطأ متواتر في نظره.

فأخذ في كل هذا الحديث، وأعجبني ثناؤه على إمام دار الهجرة، كل هذا وليس فيه ما يريب أنه مسلم من أهل اليمين.. حتى إذا شعر أني قد ملت إليه، وأن الشيخ محمود شويل قد أعجب به خرج بالحديث إلى موضوع آخر، فقال: إن رسول الله محمداً عليه الصلاة والسلام وأبا بكر وعمر كانوا ثورة ضد الرأسمالية والإقطاع.. أنصفوا الشعوب أعطوا المستضعفين السيادة، إنهم قد حكموا طوال حياتهم وهذا ما فعله لينين وستالين.. يحكمون طول حياتهم، فهم قد قلّدوا أبا بكر وعمر، ثم إن الشيوعية، ماذا ترون فيها.. إنها صورة من الإسلام بالتكافل والعدالة وسيادة الشعب، وحين تولى عثمان بن عفان أقصى الشعب عن السيادة وأعطى السلطان للأرستقراطية، فلما قتل وتولى علي أعاد سلطان الشعب، وما انتصار معاوية إلا انتصار الأرستقراطية والرأسمالية.

هكذا بدأ يدعو للشيوعية من خلال التوطئة بالثناء على الإسلام فهل أحترمه بعد ذلك..؟ لقد غضبت وغضب الشيخ محمود شويل، وقمت ناهضاً أفتح له الباب، ولعلّ الشيخ محمود شويل فتح له باب (العنبرية) يوم

كان وكيلاً لأمير المدينة المنورة آنذاك عبد العزيز بن إبراهيم ليخرج إلى غير رجعة.

وهم اليوم يمارسون معنا بأسلوب أو بآخر كتابة المقالات وتدبيج الرسائل.. يكتبون بشعارات اليمين حرباً على اليمين.

وبقيت كلمة.. وهي أن اليمين المتطرف حينما لا يكون انضباطياً وتعم الفوضى صفوفه، فإنه يفتح الباب.. يدخل منه اليسار كأنما اليمين المتطرف كما هو سلاح المقالات يصبح بالفوضى التي يحدثها سلاحاً يتسلط به اليسار على سلطان الحكم..

ـ صـــورة:

مواقف الرجال، كان كل منهم أمة واحدة.. فرداً بلا نصير، وقفوا أمام الطغاة.. أجدني أذكر بعضهم حسب التسلسل الزمني، فطاغية التتار في أول زحف دهس أوروبا كلها تحت قدميه (اتيلا).. لم تعجزه أوروبا كلها ولكن أعجزه رجل واحد هو (البابا الإسكندر) كان ذلك قبل الإسلام ـ طمع (اتيلا) أن يحبو الباب بين يديه فامتنع البابا وسار (اتيلا) يريد أن يخضع البابا يذله، وحين أقبل (اتيلا) عليه لم يعبأ البابا به.. بإيمانه ورجولته استطاع أن يذل الطاغية.

والعز بن عبد السلام.. لم يخضعه السلطان إسماعيل في دمشق بالذهب والتخويف، وإنما الإمام أخضع السلطان.. وضع المعرة على كل الخونة في صفحات التاريخ.

ومرة ثانية أخضع العز بن عبد السلام التتار في عين جالوت بالكلمة المؤمنة والإسلاماه.. في صرخات قائدها العظيم الملك المظفر قطز وكثير غير هؤلاء وقفوا أفراداً على صورة أمة فأنقذوا الأمة.

الأمن . . العقدة الجديدة

علماء النفس، أو الأطباء النفسانيون جعلوا من الإنسان عجينة يقرطسونها قوالب. يضعون على كل قالب من هذه العجينة التي كانت إنساناً، فإذا هم يصنعونها يضعون عليها أسماء شتى يدعون بها العقد: مركب النقص: مركب الكمال ـ عقدة أوديب أو عقدة الذنب. . إلى آخر ما هو موجود في هذه الكتب.

ثم هم أضافوا إلى تلك العقدة عقدة استجدوها هي: عقدة فيتنام.

لعلّهم معي أضيف عقدة جديدة تضم إلى ما قرروا أو أضافوا، وهي: عقدة الأمن، ولعلّها ليست نقيضة لعقدة الخوف، وإنما هي بصورة التبرقع والتستر على التعامل مع الألفاظ. إن عقدة فيتنام لم تكن بدافع إنساني، وإنما هي عن الحشرجة التي غص بها حلقوم الشعب الأمريكي. . لأنه ألف الانتصار، فغص بالهزيمة.

من هنا. . جرعوه، يزيدون النكسة في هذه الحرب نكسة نفسية وإلا. . فإن عاطفة الإنسان قد تعذب ضميره من سفك الدماء، يرى فيها أنه قد عذب الكثير فانتقم من هذا العذاب صبه على الفيتامين حين وضع نفسه في العذاب النفسي.

إذا كان هذا الواقع، فأين العقدة من قنبلة هيروشيما ونجازاكي؟ لقد

أهلكت الإنسان لكن الانتصار أسقط أي شعور بعقدة..

إذن، فعقدة فيتنام ليست ندماً ولا تعذيب نفس، وإنما هي انتكاسة ولدت انتكاسة جديدة هي ما أسميه.. عقدة الأمن.

فالاتحاد السوفياتي.. كل تصرفاته بدوافع هذه العقدة: عقدة الأمن.. يعربد كيف يشاء لأنه في أمن من أن تشن عليه الولايات المتحدة حرباً، فقوة الردع في يديه ليست هي الرادعة له.. يأمن بها فلا يعطي الأمن لغيره ـ ما عدا الولايات المتحدة فإن قوة الردع التي تمتلكها، وإن كانت رادعة للاتحاد السوفياتي، فإنها رادعة على صورة أقوى للولايات المتحدة نفسها.

فالشعور بالأمن لدى الاتحاد السوفياتي دافع إلى هذه العربدة في العالم.

كما أن الشعور بالأمن لدى الولايات المتحدة هو الدافع لأن تمارس لا عربدة قبل الاتحاد السوفياتي.

أما الآن، فعقدة فيتنام أو انتكاستها.. جاءت عقدة الأمن رديفاً لها.. تردع الولايات المتحدة أن تحذر الاتحاد السوفياتي ليمتنع عن هذه العربدة، فقد أصبحت عقدة الأمن رادعة للولايات المتحدة، فهي لا يهمها إلا أمن نفسها ولديها كل الضمانات التي تجعلها تطمئن إلى هذا الأمن.. كما الاتحاد السوفياتي أيضاً لديه كل الضمانات التي تجعله في حماية هذا الأمن.

والحصيلة من هذا كله: عقدة الخوف تملك الدنيا كلها.. حتى حلفاء الولايات المتحدة بينما عقدة الأمن هي التي أخافت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أن يتحرك أحدهما ضد الآخر. ولو بالإشارة، أما الصواريخ المنتشرة في أوروبا، والأساطيل المتقابلة في أعالي البحار، فهي لترسيخ الخوف في العالم، كما هي ترسيخ الأمن للدولتين الأعظم..

تتعاملان بالأمن على صورة من الخوف، كل منهما مع الأخرى.. وتتعاملان بالتخويف مع الدنيا كلها. إن القوة التي صنعت الأمن لهما.. لعلّها في عاطفة مجنونة تكون هي صانعة الخوف لهما دون العالم، فالإنسان بعد لم يطق الاستمرار.. يعيش المخافة، وشعب كل من الإمبراطوريتين قد يحطم حاجز الأمن، لأنه يشعر حين ذلك أن الركون إلى الأمن استرخاء أما الخوف فهو العقدة الطبيعية، والقفزة الطبيعية لبناء الأسرة والقبيلة والشعب والأمة فالخوف حافز، والأمن معجز..

شيكاغو

ـ حين زرت الولايات المتحدة أول مرة.. كان في برامج الزيارة أن أرى شيكاغو، فلها سمعة في شرقنا العربي من خلال الأخبار والروايات، كمأوى لكثير من المهاجرين العرب وكبؤرة أجرام، وكان هناك المضيف الذي رتبته الجهة المكلفة بإعداد برنامج الزيارة ومعي المترجم وهو أخ فلسطيني اسمه (فؤاد قرى) ونزلت في الأوتيل، وجاء المضيف يسوق سيارته، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، فيه شموخ، أو أنه العزوف عن مخالطتي وتشعب الحديث.. يتكلم فأسمع، وأقول فيسمع.. حتى إذا اشتد الحوار قال: إنكم تزعمون بأنكم ستلقون إسرائيل في البحر. قلت، وقد عرفت فيه العزوف فإن لم أحسبه يهودياً فهو صهيوني: لم يكن هذا زعماً وإنما هو أمنية.. قد لا يكون في طاقتنا اليوم أن نفعل ذلك، ولكن من يخطئنا إذا ما استطعنا ذلك، فلو إن كندا قد ضمت الشاطئ الأيمن من نهر سان لورانس واستحوذت على شلالات (نياجرا) ألا تحاربون كندا وتملأون النهر بالجثث الكندية، أو لو أن المكسيك اختطفت قطعة من أرض كاليفورنيا.. ألا تلقون بالغزاة في البحر، ولماذا ضربتم هيروشيما ونجازاكي

بقنبلة ذرية.. أليست اليابان قد غزت الأسطول فدمرت بعضه في (بيرل هاربر) ولم تحتل أرضاً؟ كل شعب لا يلام إذا دافع عن أرضه وعرضه، ولكني أدع التاريخ يتكلم، فبعد زمن ليس بالقصير سنجدكم في الولايات المتحدة تغرقون اليهود في المحيط لأنهم احتلوا الأرض، فهم يحتلون الآن.. فيكم الإنسان الأرض.. عقله وتفكيره واتجاهاته.. ففي زمن القصير بعد سنجد الشعب الأمريكي يتحرك كما تحرك الإسبان من قبل والألمان بعد. إن النازية لم تظلم اليهود فاليهود أفسدوا ألمانيا ودمروها، وسترون الفساد وسيقول الشعب الأميركي كلمته. وغضب، فلم أعبأ بغضبه، ولكني قصرت مدة الإقامة في شيكاغوا.

ـ صـــورة:

حرص الاستعمار أن يغري كثيراً من الشباب في الأراضي التي استعمرها.. يغريه، أو حتى يختطفه من آبائه كما اختطفوا الملك فاروق، ليتعلموا في لندن، أو باريس، أو روما. يحسبون أن من يتعلم لديهم من هؤلاء الشبان سيكون أداة طيعة في أيديهم لترسيخ استعمارهم بينما الأمر قد انعكس، فإذا الذين تعلموا في الإمبراطوريات المستعمرة هم الذين خاضوا حركات الاستقلال: نهرو، غاندي، ليبولد سنغور. نيكروما. محمد محمود. عباس فرحات. أحمد بن بيلا وغيرهم كثيرون.

وقد لخص ذلك على صورة أخرى أستاذنا توفيق المدني ـ المجاهد الجزائري ـ حين قال: بعثنا بعض الشباب إلى روسيا فرجعوا أميركاناً، وبعثنا آخرين إلى أمريكا فرجعوا روساً.. فذلك حين عرفوا أن روسيا ليست مثلاً أعلى، وإن أميركا ليست مثلاً أعلى، أما المثل الذي يعلو بهم ويعتلون به هو وطنهم.. هي أمتهم.. تقاليدهم.. عقائدهم..

أوروبا وعقدة الذنب

حين أسقطت اليابان قنابلها تضرب الأسطول الأميركي في (بيرل هاربر) كنت في مجلس أزور شخصية لها وزن، وكان في المجلس شيخ من أشياخنا له وزن أيضاً، فإذا هو يقول:

ـ اليوم.. أنا سعيد بأن تضرب دول شرقية أسطول دولة غربية.

قال ذلك شماتة أو تشفياً أمام سلوك الغرب كله في هذا الشرق استعماراً، وإذلالاً وتفريقاً وتشريداً، إلى آخر ما هنالك كأنه جسد الماضي والحاضر في مشاعره حين قال كلمته. ولكني أزحت الماضي والحاضر من مشاعري، فاستيقظ المستقبل كأنما مشاعري تسأل: وكيف يكون الحال إذا ما انتصر المحور، وهزمت دول الحلفاء، وكيف يكون الحال حين تبسط اليابان سلطانها على الشرق؟

فحركت في أن أجيب.. فقلت: في واقع الأمر ليس هناك مشرق محدد، وليس هنالك مغرب كذلك، فهي المشارق والمغارب، فكل خط من خطوط الطول هو مشرق لمدة أربع دقائق بالنسبة لخط طول إلى المغرب، ثم.. إن العلاقة بيننا وبين أوروبا علاقة ثقافية، ونسبة من العقيدة الدينية، فالأوروبي تؤاكله، تتزوج من نسائه، أما اليابان ومن إليه فمجوسية بعيدة عن ثقافتنا وعن عقيدتنا.

ـ وأخذ يدير الحوار.. إذ قال: أنا معك فيما قلت، وإن كانت مثالية وأن تتعاطف مع.. الغرب على هذه الصورة. إن واقع الغرب مع آسيا وإفريقيا يوجب علي وعليك أن لا تكون معه فهزيمة بانتصار المحور على بريطانيا وفرنسا تزيح الاستعمار وتسقط الإمبراطوريات، ولئن أصبحت ألمانيا وإيطاليا دولتين تستأنفان استعماراً جديداً لهما، في ذلك الموقف الصعب ضد آسيا وإفريقيا، ولكنهما ـ أعني آسيا وإفريقيا ـ لربما تجد أن المخرج بنوع جديد من التعامل مع ألمانيا وإيطاليا واليابان.. لعلّه نوع جديد من الاستعمار.

ـ فقلت له: أنا لا أريد أن أكون كأحد عجائز الرباط (نحس دائر ولا نحس مستعمر).

ـ فلعلّ بريطانيا وفرنسا حين تخرجان من الحرب بالسلامة تصابان بالضعف.. تهتز الإمبراطوريتان ويزول الاستعمار.

ـ قال: إنك معي الآن مائة في المائة، فسواء انتصر المحور أو لم ينتصر، فعلى حد أمانيك فإن هذا الانتصار للمحور قد أسقط الإمبراطوريتين وأزال الاستعمار. قلت: كأنك بهذا كله تسبغ على هتلر مزايا، وهو أنه قد هزم كألماني، وانتصر كإنسان فهتلر عظيم إلى درجة أنه قد أسبغ على التاريخ تطوراً جديداً. هدم إمبراطوريات وأقام إمبراطوريات.

ـ قال: دعنا من هذا الحوار، وحتى لو ضعفت الإمبراطوريتان، فإنهما ـ ومع الأسف ـ تملكان من القوة ما تستطيعان به فرض الاستعمار الجديد على آسيا وإفريقيا.

هذا الحوار قد جرى في تلك اللحظة، فما هو الواقع الآن؟ الواقع.. إنه بعد الحرب العالمية الثانية، مارست بريطانيا وفرنسا. ومن إليها.. حتى

ألمانيا المغلوبة، الأسلوب الجديد في ممارسة الاستعمار الجديد، فإن الاستعمار القديم لم تكن غايته التوسع في احتلال الأرض أو الطغيان على الإنسان فحسب، فالغاية الأولى هي عملية النزح من خيرات آسيا وإفريقيا وثرواتهما وعرق إنسانهما. وجاء الاستعمار الجديد تحقق به هذه الغاية.

الاستعمار القديم: إمساك السلاح بيد المستعمر. يحتل به الأرض ويستعبد الإنسان وينزح الثروات.

والاستعمار الجديد: هو في خلق المشاكل في كل من آسيا وإفريقيا لتكون الحروب المحلية لتتفوق أوروبا، ولتكون عملية النزح ببيع السلاح.

فالغاية واحدة، ولكن.. جاءت الأزمات المتلاحقة، فإسرائيل التي صنعتها بريطانيا واحتضنتها فرنسا.. ورضخت ألمانيا تعينها بملايين الماركات تحت ضغط عقدة الذنب، ولا زالت الولايات المتحدة في خط متوازن تحفظ من إسرائيل. بل وتنتصر لطغيانها.

إسرائيل هذه أصبحت هي التي تعرض عملية النزح مما يسمى المصالح إلى الجفاف، إلى العدم، فأصبحت أوروبا تعيش الآن عقدة الذنب، فقد اتضحت لها الحقيقة حين انقلبت إسرائيل كعامل لضمان مصالح الغرب.. إلى عامل تضيع به مصالح الغرب، وتتحقق به مصالح الاتحاد السوفياتي.

فإسرائيل لا تصادق الزمن، وإنما صديقها الوقت.. سنوات مع أوروبا، سنوات مع أمريكا وبدأت السنوات للاتحاد السوفياتي.

إن الزمن قد ضاع من دول الغرب، فهي تعيش الوقت الصعب.. بكل الكرب بين إذلال التبعية للولايات المتحدة، وإذلال الخوف من الاتحاد السوفياتي. كل هذا قد أيقظ عقدة الذنب في دول السوق المشتركة كلها، فما من دولة منها إلا ولها نصيب وافر من إشعال الحروب، واقتراف

الذنوب.. لا تسأل عن إنسان آسيوي ولا إنسان إفريقي، كلهم مادة لنهب السلاح.. سواء كان سلاح حرب ضدهم، أو سلاح حرب يشترونه. عقدة الذنب.. ضغط اليهود بها على ألمانيا، فأعانت.. حتى أن إسرائيل اليوم تطلب المزيد من العون.. تريد أكثر من ٢٥٠ مليون مارك. كأنها الجزية فرضها انتصار الحلفاء على ألمانيا.

عقدة الذنب.. تضخمت، فلم تعد قاصرة على الشعور بما أذنبوا على القارتين، وإنما هم أضافوا إلى ذلك ذنباً آخر حين وافقوا على شطر أوروبا شطرين: شطر يستعمله الاتحاد السوفياتي.. وشطر في فلك الولايات المتحدة. حتى ألمانيا شطروها شطرين.

والصورة واضحة.. هذا الموقف مع بولندا، فحين احتل الاتحاد السوفياتي الأفغان زعمتم أنكم تحاربونه اقتصادياً، واليوم قد افتضحت الكذبة، فصرحتم بأنكم ستحاربونه حرباً اقتصادياً على صورة قوية.. كأنما الأفغان وقد ملأتم الدنيا صراخاً معها لم تكن كبولندا.. ذلك أن بولندا غصة في الحلق إن دانزج أشعلت الحرب العالمية الثانية، فهل تجازفون ضد الاتحاد السوفياتي.. لا لتكون الحرب العالمية الثالثة، وإنما ليتحرك حلف وارسو فتطلبون من الاتحاد السوفياتي المعذرة والمغفرة.

إن كل ذلك.. تتحمل به دول أوروبا الغربية الرزايا والإذلال، كأنما هو العقاب لما صنعوا من قبل، فهل بقي أمل في أن تكفر أوروبا الغربية عن ما أذنبت نحو العرب؟ فلولا العرب في الحرب العالمية الأولى لتأخر انتصار الحلفاء إن لم اقل بهزيمة الحلفاء، ولكن الغطرسة والجبروت، وفي بريطانيا بالذات قد سمحا لها بأن تخون العهد، فتمزق العالم العربي، وتمنع إسرائيل وعد بلفور.

هل بقي أمل مرة أخرى أن تقف دول أوروبا الغربية موقفاً صلباً لا تضغط به على إسرائيل وحدها، وإنما تضغط على الولايات المتحدة.. ليس بعامل إنقاذ العرب، أو الوفاء لهم وإنما بإنقاذ أنفسهم من الدمار.

حين تضيع منطقة الشرق الأوسط، فعلى صناعة الدول الغربية السلام.. فإن إسرائيل والاتحاد السوفياتي أشد نكاية على بريطانيا وفرنسا ومن إليهما من النازية والفاشية.

كانت بريطانيا وفرنسا في مواجهة النازية والفاشية تملكان من القوة ما تحملنا به الضربات وما حقق الانتصار بعد. أما اليوم، فالقوة ليست كما هي بالضبط. إن القوة تكمن في قول الدول الغربية للولايات المتحدة. لقد كنا في الحربين ـ الأولى والثانية ـ في حاجة إلى الولايات المتحدة. أما اليوم ـ وتجاه حلف وارسو ـ فإن الولايات المتحدة في حاجة لنا نحن دول الغرب، فحين نتخلى أو نغلب تتحقق المأساة، إن لم تكن الكارثة بشعب الولايات المتحدة.

فبيد الولايات المتحدة الآن، كما هو في أيديكم، إن تمتصوا عقدة الذنب لتريحوا أنفسكم من الدمار حين يسقط غرب آسيا.. كشرق افريقيا في يد الاتحاد السوفياتي.

ـ صـــورة:

لكي تكون نظيفاً في أعين الناس.. ينبغي أن تكون لابساً القذارة من قمة رأسك إلى أخمص قدميك. فكثير من ناس اليوم يتمرغون في الأوحال، ويكرمون لابس الأقذار.

رسالتان وخبران

الكاتب ـ محترف التعليق على الأخبار ـ يستقرئ ظواهر ليفقه بواطنها، ففي خلال الأيام الماضية أذاعت وسائل الإعلام خبراً عن رسالتين.. أرسل إحداهما رئيس اللجنة العسكرية في الكونجرس الأمريكي، وأرسل الثانية عضو الكونجرس عن ولاية تكساس والرسالتان اختلفتا في المطلب، واتحدتا في السبب الذي دعا إليهما.

فالرسالة الأولى ـ وأحسب أن لها قوة القرار ـ قدمها رئيس اللجنة العسكرية في.. الكونجرس إلى الرئيس ريجان ينصح الإدارة الأمريكية بأن لا تتورط بإرسال جيش أمريكي إلى منطقة الشرق الأوسط.. يدعو أن تعدل الولايات المتحدة عن ذلك لتعتدل مع دول الشرق الأوسط.. فلا تمنع عنها ما تطلبه من عتاد وأسلحة لتكون قوية تدافع عن حياتها وثرواتها ومصيرها..

فهذه النصيحة، ولها قوة القرار لأنها صادرة من لجنة في الكونجرس، تحمل في باطنها الرد على الأعضاء الستة الذين طلبوا من الإدارة الأمريكية أن تمتنع عن تزويد المملكة العربية السعودية بما طلبت من معدات رديفاً تقوّي بها الطائرات التي اشترتها. فالأعضاء الستة لهم دوافعهم الشخصية، فلا يقوى مطلبهم أن يكون على قوة من نصيحة اللجنة العسكرية.

وفي وضع آخر، فإن مطلب اللجنة العسكرية في الكونجرس، أحسب

أن فيه الكثير من التصدي لمقاومة الضغط اليهودي الصهيوني، ظاهرة ـ إن صح حسن الظن بها ـ تعني يقظة رجال من الكونجرس يدفعون بها ضغط الصهيونية لعلّ في ذلك ما يعطي الولايات شيئاً من ثبات الهيبة، وبعضاً من عودة الاحترام.. لكن التخابث في بعض من الفهم يحمل عليه سوء الظن، وهو أن الدعوة لئلا ترسل الولايات المتحدة جيشاً وأسطولاً كما هو واقع الآن حول الشرق الأوسط لا تعني إلا حماية إسرائيل من ضغط أمريكي يلزمها به التصرف للدفاع عن الدول العربية التي من أجلها تزعم الولايات المتحدة أنها الحامية لها حين تكون حولها الأسطول والجيش، فقد يحرم الوجود الأمريكي على هذه الصورة تحرك إسرائيل.. تعبث كما هي الآن في أكثر من أرض عربية.. إن حسن الظن له ما يبرره، وإن سوء الظن له ما نحاذر منه.

أما الرسالة الثانية: وجهها عضو الكونجرس عن ولاية تكساس إلى الرئيس ريجان يقترح تعديل الدستور بالنسبة لمدة الرئاسة، فهو يرى أن مدة الأربع سنوات لا يتسع للرئيس فيها أن ينفذ ما برمجه، ثم إنها تشغل الرئيس بتفهم الضغط عليه أو محاولة إرضاء هؤلاء الضاغطين الذين يمارسون ذلك بوعد منهم أن يصوتوا ضده إذا لم يوافق على ما طلبوه أو ما وعدهم به حين انتخبوه، ثم هو يطلب أن تكون المدة لمرة واحدة. ست سنوات.. لا يعاد انتخاب الرئيس، فلعلّه يتمكن من عدم الانصياع إلى الضغوط والانصراف إلى تنفيذ برامجه التي وعد بها، فقد يضطره الواقع لأن يسير على برامج يلزمه بها واقع التحركات سواء داخل الولايات المتحدة أو من خارجها، فقد تكون هذه الرسالة في ظاهرها لا تحصل على النجاح، ولكن باطنها يوحي بأن رجالاً من الكونجرس أو من الشعب كله

قد أحسوا بخطورة الضغوط من اليهودية الصهيونية، فأحبوا أن يقطعوا الطريق عليها بعدم الترشيح للرئاسة مرة ثانية، فلا زلت أحسن الظن بالبواعث التي حملت عضو الكونجرس من تكساس أن يقترح هذا الاقتراح.

أما الخبران، فأولهما ما أذاعته إسرائيل من أنها عقدت اتفاقاً مع الاتحاد السوفياتي يرحل المهجَّرين من اليهود على الطائرات رأساً من الاتحاد السوفياتي إلى إسرائيل.

هذا الخبر واضح في مظهره، وأحسبني أحلل بعض بواطنه، فإن الاتحاد السوفياتي كان يرسل المهجَّرين.. يفسح لهم الطريق إلى النمسا ـ مثلاً ـ ويعني ذلك أنه لا يتعامل مع إسرائيل، فحقوق الإنسان كما هي الترضية للولايات المتحدة تحمله أن يُهجّر اليهود ويظهر أنه لا شأن له في المكان الذي يذهبون إليه.. يعني أنه بريء من عون إسرائيل في القوة البشرية.

كان ذلك فيما مضى.. أما اليوم فقد انقشعت البراقع، فأصبح التهجير بالقوة البشرية رأساً إلى تل أبيب.

إنها العلاقة الواضحة التي ظلت تتخفى عن العالم العربي قبل حرب ٦٧، غضبه الصارخ على إسرائيل.. بقطع العلاقات الدبلوماسية معها، لقد حمدت الله أن كتبت أكثر من مرة، فقد قلت: إن قطع العلاقات موسكو مع تل أبيب ليس إلا التذرع بأعذار للعالم العربي.. يقول لن أكون وسيطاً بينكم وبين إسرائيل، فليس بيني وبينها علاقات، فهو لا يطلب السلامة من ذلك، فهو في القوة فوق، وإنما كل مطلبه: السلامة لإسرائيل مع وساطته، وقد فرح العرب.. بقطع هذه العلاقات بينما هي العطاء لإسرائيل، والإقصاء لأي عطاء للعرب.

والسؤال هو: كيف تمت الاتصالات بين تل أبيب وموسكو ليتم الاتفاق على هذا التهجير.. هل هناك اتصال سري بين إسرائيل والكرملين، أم هي صفقات القمح المطلوبة الآن.. ترسلها الولايات المتحدة مقابل هذه العاطفة النبيلة كما يتظاهرون بها يغيثون الاتحاد السوفياتي مقابل هذه العاطفة النبيلة كما يتظاهرون بها يغيثون الاتحاد السوفياتي مقابل طاعته.. يهجر اليهود لإسرائيل عملاً بحقوق الإنسان؟..

لا أدري بأي وسيلة تم هذا الاتفاق، ولم يعد الجري وراء الوسائل نافعاً، فالجميع كلهم لإسرائيل، وكلهم حرب على العرب.

لكن السؤال الثاني: أين هي المواقف المعلنة من أصدقاء الاتحاد السوفياتي ضد هذا التهجير؟ لقد تكلموا كثيراً ضد الظلم الذي تمارسه الولايات المتحدة عوناً لإسرائيل فأين هو الكلام ضد هذا الظلم.. يمارسه الاتحاد السوفياتي حرباً على العرب؟

أما الخبر الثاني، فقد جاء على صورتين: صورة من القدس حين تم التفاهم بين مندوب الولايات المتحدة وإسرائيل على كيفية وضع الجيوش المتعددة الجنسية في سيناء ليست للرقابة وإنما لمنع أي تحرك من أحد الجانبين ضد الآخر.. تمنع مصر أن تتحرك، ويقال ـ كما التصريح الثلاثي الكاذب، كما قوة الطوارئ في لبنان ـ هي لمنع إسرائيل من التحرك ضد مصر. أما الصورة الثانية، فقد جاءت من إعلام مصر.. تقول إن المندوب الأمريكي قد وصل إلى القاهرة ليجري المفاوضات حول وضع هذه الجيوش لمباشرة الكيفية التي تجلو بها إسرائيل عن البقية التي في حوزتها من سيناء في إبريل القادم من هذا العام.

فالخبر من إسرائيل: إنها قوة دائمة، والخبر من مصر: إنها قوة مؤقتة،

فلعلّي ـ وبكل المرارة ـ أكثر تصديقاً للخبر من إسرائيل، فأي فرق بين قوة إسرائيل على خط بارليف وبين قوة جيوش أوروبية في سيناء تمنع تحرك مصر.. تنسف معاهدة التضامن الدفاعية التي كثيراً ما تحدثت مصر عن التزامها بها. تدافع عن أي قطر عربي يتعرض لطغيان. لقد نسفت هذه الجيوش هذا التضامن، فالدعوى بأنه باقٍ هي تمويه، فلقد مات بمعاهدة السلام بين إسرائيل والحكومة المصرية.

ـ صـــورة:

وأصبحت السيدة مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا لساناً يتحدث بالنيابة عن الولايات المتحدة حين أعلنت أنه لا بد من وجود قوات أوروبية ـ تعني حلف الأطلسي ـ تنتشر خلف الخليج لتحميه من عدوان إمبراطورية الكرملين حتى أنها تمسحت بفرنسا.. تؤكد أن وجود أسلحة من حلف الأطلسي في الخليج واقع تضامناً وعوناً للقوة الأمريكية المنتشرة هناك.. حتى قالت: إن لفرنسا قوة القوة البريطانية. فهل ذلك من بريطانيا أو حتى من فرنسا هو العون للولايات المتحدة وللدفاع عن الخليج.. أم هو الخوف من الولايات المتحدة أن لا تستحوذ على المنطقة فتحرم دول السوق المشتركة من الطاقة حين تتحكم فيها، وحين تسيطر على طرق المواصلات؟

كأنما الصورة التي قلتها من قبل: إن احتلال الاتحاد السوفياتي للأفغان، ما هو إلا العطاء للولايات المتحدة ومن إليها لتنتشر جيوشها.. لا لتحمي وإنما لتستحوذ وتستغل.

الفن ملكة.. والتوحيد امتلاك

قبل أن يعرف غيرنا الأندية والحفلات، أو المؤتمرات كنا نعرف الأسواق التي يرسل الفنان فيها فنه، ليجد شكراناً وثناءً.. ليجد مجداً على صورة من تقدير الشعر والفن. عرف غيرنا الحلقات لمهارات الديكة أو مصارعة الثيران.. وعرفنا الفن شعراً، ومثلاً رائعاً، وحكمة مشهورة، وقولاً مأثوراً.. كل ذلك صقل اللسان وأشرق به البيان.

فالأسواق ما هي إلا مؤتمرات لا تصدر فيها قرارات. ولا تعقد بتآمر.. وإنما هي الكلمة وقتها تسير راكضة إلى ميدانها.. ينقلها الرواة فتصقل الألسنة لتكون امتلاكاً لأصحاب الملكات بعد.

فالفن على أي صورة وبأي تصور ملكة.. موهبة.. استعداد.. يكبر ويزهو ويزدهر بالامتلاك فكراً، وإعداداً، وعدة، وبامتلاك الآخرين له.

فالفن ملكة يصبح امتلاكاً لمقتنيه، لحافظه.. لمقتديه.

الفن الملكة حين يمتلك القوة من ذاته، والقوة المكتسبة من كل الذوات المحيطة به يجد في ذلك امتلاكه.

إنه الملكة التي تمتلك نفسها والقوة المحركة لها.. وإنه الملكة التي يقتلها امتلاك غيرها لها، في الأسواق العربية، في الإيحاءات التي تكتنفها

بدافع تسير بحوافز ذاتها. بنوازع الجاهلية كانت ملكات الفنانين المكايدة لكل ذلك. أو بدافع المكايدة لغير ذلك.

إن الفن الملكة يسير على هواه، فالنابغة الذبياني حكم لم يرسم خطاً لشاعر.. يعني أنه تجنب الامتلاك بالتوجيه، وملك نفسه أن يكون شاكراً بالثناء والإطراء. ولا يعني هذا إلا أنهم في الجاهلية كانوا خيراً منا الآن في عدم الحجر على الملكات، فجاء فن اسمه (ديوان العرب) اسمه (موسوعة اللغة) اسمه (البيان).

أما اليوم، فتعقد المؤتمرات على صورة من التآمر.. كل الفنانين ناثرين وشاعرين يعطونك الصورة، تتخيل فيها أنهم في مهارشة الديكة.

إن الحصيلة في (عكاظ) التي تقررت كعيون الشعر ليس فيها من مهارشة الديكة ولكن فيها شيء من صولة الفارس، ونبالة الكريم. وفضائل الأخلاق.

فليقل الشاعر هناك هجاء لكن الحكم وذوق الرواة، ومطلب الجماعة لا يعطيه التفوق وإنما يعطيه الوضع لصورة صورها الفنان لا أكثر ولا أقل.. كم من مؤتمر عقد.. كانت الشتائم فيه من مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة.

اقرأوا ما صدر.. لا تجدوا إلا ثلباً لشعب عربي من شاعر عربي وناثر أو خطيب.. كان الهجاء في الأسواق على مستوى الأفراد ضد الأفراد، ولكنه في هذه الأيام وفي أكثر من مؤتمر كان ثلباً أممياً.. كان الشاعر قد أمم بالتوجيه ـ أو بعبارة أخرى ـ قد صار شعوبياً يثلب شعباً من أمته.

إن التشيع لشعب من شعوبك ضد شعب آخر من هذه الشعوب لا تميز

الخطأ من الصواب ما هو إلا الشعوبية الجديدة في هذه الأمة. كل البلاء من التوجيه الملقن.. كل البلاء من التوجيه المداجي ـ أعني أن بعضهم يوجه نفسه مداجاة لوجهة يعلمها ـ يترضى بها فريقاً اليوم يأتي بعد ذلك يتوب بين يدي شعب أكبر السفهاء عليه.

لكي تنجح المؤتمرات الأدبية ينبغي أن يكون لها سوق واحدة.. في مدينة لا تخضع لتوجيه، ويصدر ميثاق شرف من سلطان كل دولة أن لا تعذب قائل الكلمة الفن إذا ما خالفت وجهة نظرها.

لا ينمو الأدب بالتوجيه.. لأن التوجيه امتلاك وتسخير..

الفن لا يسخر..

الفن فكر.. كل فنان يفكر وليس كل مفكر فناناً.

فزعم الزاعمين أن الفنان لا فكر له يخرج الشاعر من زمرة المفكرين.. يطرد الأدب من ميدان الفكر.

حينما يكون الشاعر فناناً لا يكون مقلداً.. وحتى راسم الطبيعة ذاقت ملكاته الجمال فعبر عن هذا الذوق بفكر ملأ وجدانه.. احتوى مداركه فقسر على أن يمسك الريشة ليعطي الثورة التي ملكها بالملكة.. وليس هذا بالتقليد وإنما هو ألصق بالتخليد.

ليكن صاحبنا شاعراً أو فناناً بدون فكر ليكون بهذا قد أخرج نفسه ليضعها في حاجة إلى رعاية مالكي الإشفاق..

بين انفراد الزعامة وانشطارها

هل في استطاعتي أن أرزأ التاريخ، ونحن نعيش اليوم أرزاءه؟

نعم.. سأستطيع، لأن الصدق مع التاريخ، والصداقة للأمة العربية يبيحان لي أن لا أخسر الصداقة والصدق، فالأمة العربية لا أستطيع أن أقول إنها تعيش الآن بين الشهوة من زعيم يريد الانفراد بالزعامة، وفي الوقت نفسه يحارب انشطار الزعامة، فالانفرادية معناها السلطان المفروض منه، وانشطار الزعامة عامل يحول دون أن يكون إمبراطوراً.

فالأمة العربية تعيش هذه الأزمة الآن، ومن الغفلة أو التغافل أن نضع تبعة هذه الأرزاء على أجنبي مستعمر أو استقطب أو مارس الطغيان، فالأرزاء.. العربي صانعها لنفسه.. أليس هذا بالجديد، فمن فجر التاريخ إلى عصر هذا التاريخ عاشت الأمة العربية، شعوباً تارة تحت سلطان الزعامات، وقبائل تارة تحت الرضوخ إلى التزعم.

فهل أجد مؤرخاً يعطيني أن الشعوب العربية عادية وثمودية وكنعانية وفينيقية وآرامية وكلدانية قد عاشت أمة واحدة تحت ظل وحدة واحدة.. تسير مسيرة واحدة متحدة المطامع والمشاعر والأهداف؟

إني أستطيع أن أقول: ذلك لم يتحقق إلا في حالة واحدة لم تدم إلا

أربعين عاماً في ظل الإسلام، فالإسلام بقيادة النبي محمد ﷺ ثم الخليفتين أبي بكر وعمر قد وحدا الأمة العربية على مبدأ واحد، وعقيدة واحدة، وتحت سلطان واحد.. حتى إذا.. كسر الباب وظهرت الفتنة انشطرت الأمة العربية تقودها الفتن.. لم تكن باسم القبيلة أو الأمر وإنما كانت باسم المذهبية.

وحتى في عهد إمبراطورية (أمية) لم يذق سلطانها الراحة من الخوارج كمذهب. ومن الصراع بين النزارية والقحطانية، وكذلك العباسيين، فقد انشطرت الأمة.. شطر في بغداد وشطر في قرطبة.

وهكذا نام التاريخ، ليصحو على وضعنا الآن. ولأضرب أمثلة: فحين استطاع جمال عبد الناصر أن يقود الزعامة العربية في مصر.. صفق ـ أول ما صفق ـ لعبد الكريم قاسم، ولكن انفراديته بالزعامة حاربت انشطار الزعامة، فقد بلغ عبد الكريم قاسم إلى مكانة الزعيم، فإذا دمشق تخشاه أعني عبد الكريم قاسم ـ وبصراحة دمشق وبغداد ما زالتا تحملان أثقال الخصومة، فالوحدة بين دمشق والقاهرة.. زعموا أن ظاهرة الأمر منها هو إعداد القوة ـ قوة مصر والشام ـ.. لمواجهة إسرائيل، بينما إن الخفية في يقيني هي خشية دمشق من بغداد. حين ضعف أمر عبد الكريم قاسم انحلت الوحدة بين دمشق والقاهرة، وقد قلت كلمة في مجمع من المصريين في القاهرة: إن الوحدة العربية غاية وهدف وضرورة، ولكن الخطأ في الوحدة بين دمشق والقاهرة هو السباق مع الزمن، فالوقت كان ضدها، أما الانفصال فقد كان جريمة.. لعلّ السبب فيه هو انفراد الزعامة، ولعلّ الحافز إليه السعي بإلحاح لإقصاء الانفرادية ولقتل أي زعامة تنشطر عن الزعامة الكبرى.

وهكذا.. فالوحدة لم تعد ذات موضوع بعد الانفصال، وكل محاولة للوحدة كانت تسخيراً من الراغبين في انفراد الزعامة، ثم صارت سخرية من الذين رغبوا فيها أول الأمر، ثم رهبوا منها تالي الأمر.

والاتحاد.. ظن الراغبون فيه أنه سيكون بديلاً عن الوحدة على صورة من التراضي.. يسقطون به إعلان الانفرادية.

فالاتحاد بين أنور السادات والقذافي وحافظ الأسد لم يدم إلا وقتاً محدوداً حين استنفد أنور السادات أغراضه منه، وحين تباعد الآخران بعض الوقت عن توطيد الاتحاد. فكيف استغله الرئيس أنور السادات؟

كان ذلك حين أصر عليه مستغلاً أن خصومه داخل الاتحاد الاشتراكي واللجنة المركزية ضد هذا الاتحاد، فقد كان انفصال الوحدة درساً قاسياً لمصر، فأصر أنور السادات، وبقوة هذا الاتحاد استطاع أن ينتصر على خصومه لأن الرأي العام في شعوب الاتحاد وفي غيره كان قوة لأنور السادات.

ومن ناحية أخرى، فإن خصومه ـ كعلي صبري مثلاً ـ كان صديقاً للاتحاد السوفياتي، ولعلّه كان يعتمد على دفاع الاتحاد السوفياتي عنه لينصره على أنور السادات، ولكن المصادفة أو التخطيط جعل الاتحاد السوفياتي لا ينصر علي صبري، لأن الفائدة المرجوة له من هذا التكامل في صورة الاتحاد بين القاهرة ودمشق وطرابلس، وعلى أساس من معاهدة الصداقة بين موسكو والقاهرة.. كل ذلك أعطى الاتحاد السوفياتي بعض الظن بأن مناصرة علي صبري لا تفيد بقدر ما يستفيد من مصر الصديقة له. أي من أنور السادات، ومن حافظ الأسد وهو يخطو خطوات إلى هذه الصداقة ومن معمر القذافي الذي سيسير إليها. من هنا استطاع أنور

السادات أن ينتصر باسم الاتحاد، وبتلكؤ الاتحاد السوفياتي عن.. مناصرة علي صبري رغم وجود الخبراء والعسكريين، فكانت هذه المصادفة، أو كان هذا التخطيط مفيداً لأنور السادات، وجالباً للأرزاء على الأمة العربية.. سواء كان بأسلوب الاستقطاب أو بأسلوب التسهيلات، أو بأسلوب الصداقات.

أفليس رزءاً كبيراً أن يكون انفصال الوحدة العربية جريمة جرَّت أثقالها على العرب إلى الآن، وأن يكون الاتحاد أداة لأرزاء ما زالت تعيش في أثقالها الأمة العربية؟

إن التاريخ يجب أن يُكْتَب بصدق.. عاطفة يحرسها عقل يحجر انسيابها، وعقل تواكبه العاطفة، فالإسراف بالتعامي عن الأرزاء، ولا تطرف يذكر المحاسن، دون أن نذكر الأخطاء جالبة الأرزاء..

ـ صـــورة:

كان شعار الاتحاد بين دمشق والقاهرة وطرابلس (صقر قريش) يوضع على العلم.. مع أن الصقر لم يكن شعاراً عربياً من فجر التاريخ إلى دهر التاريخ، فالشعار العربي هو النسر تجدون صورته على قصر البنت في حجر ثمود، ولعلّ الكنعانيين والفينيقيين قد أعاروه إلى قبائل الجرمن في الحرب البونية التي انبهم تاريخ أسبابها وكيف سميت فاتضح الآن أنها كانت الحرب بين العرب الكنعانيين والفينيقيين، وقبائل الجرمن ومن إليهم حتى مدينة (بون) اسماً عربياً سميت به بون الألمانية باسم (بون) العربية اليمانية بين صنعاء والحديدة.

أما الصقر فقد حرصت عليه دمشق تفرضه على الاتحاد لأنها تلبس في تاريخها الفخر بصقر قريش عبد الرحمن الداخل، كأنما دمشق وقد نشأ فيها

عبد الرحمن الداخل هي التي فتحت الأندلس أو عمرت الأندلس.. إن لها بعض ذلك كقيادة، ولكن مسيرة الجيش الفاتح لشمال إفريقيا والأندلس كانت من الفسطاط، فقبائل الأندلس لم تكن شامية وإنما كانت شامية ـ إفريقية ـ من الجزيرة كلها حتى حضرموت.

من الشرم إلى بغداد إلى هايد بارك

في شرم الشيخ الأرض المصرية التي ما زالت تحت الاحتلال الإسرائيلي فرض مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل أن يجتمع مع الرئيس محمد أنور السادات. هكذا أراد بيجن مع أنه كان يمكن أن يتم الاجتماع في العريش مثلاً الأرض المصرية التي تحررت ولكن الأسلوب الحضاري قد جمع بينهما، بصرف النظر عن شهور القطيعة التي تمت بينهما، كان ذلك أعني الأسلوب الحضاري حينما بلغت الأزمة أشدها بين إسرائيل وسوريا كما هو الظاهر مع أنها في الحقيقة طليعة أزمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

وقد أدى الأسلوب الحضاري دوره كلاماً حضارياً في أذن بربرية فإذا هذه الأذن البربرية تغير على بغداد بأسلوب همجي بربري.. لا شيء من أساليب الحضارة فيها، تدمر المفاعل النووي في بغداد في توقيت أفرض أن إسرائيل لديها الوسائل الذاتية في أن تعرف زوال أي مانع في الدفاع عن المفاعل ثم عرفت أن بغداد لن تحاط علماً بغارة إسرائيلية كل وسائل الدفاع والإعلام.. لا. لم تعلمها بغداد.. فإذا هم يعلمونها لإسرائيل أن مخابراتها أعجز من ذلك ولكن من براث الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها في تعطيل أي وسيلة إعلام، كل ذلك أعطى إسرائيل فرصة التوقيت الصحيح..

فمخابرات الولايات المتحدة ما زالت في مخابرات إسرائيل ابتداءً من تصرفات السفينة (الحرية) في حرب ٥ يونيو ١٩٦٧م وبالأقمار الصناعية عن الثغرة (الدفراسوار) في حرب رمضان ١٩٧٣م إلى يوم الأحد الذي ضربت فيه إسرائيل المفاعل النووي تضعه فرنسا وإيطاليا.. تتركانه بلا حماية للدفاع عنه.. ولكي تتبرقع التصريحات الأمريكية وتسير معها تصريحات القاهرة فتقول إن من الذين يعملون في هذا المفاعل ومع الإيطاليين والفرنسيين خبراء روس وفي عرف هذه البرقعة أن الضرب للمفاعل هو جائز لأنه ضرب الخبراء الروس أو ما يصنعه الخبراء الروس.. هكذا انقلب الأسلوب الحضاري إلى أسلوب بربري من شرم الشيخ إلى بغداد.

فهل يتصور أحد أن الإعداد لضرب المفاعل الذري كان بعد الاجتماع بشرم الشيخ.. أم أنه مخطط من قبل افتعل إرهابيو مناحيم بيغن التستر عليه فلم يعلنه في شرم الشيخ بل إني أبرئ أنور السادات أنه كان يعلم لكن الشيء الذي يجب أن يقال هو أن التعامل مع إسرائيل كدولة خطأ كبير تنجم عنه جرائم كثيرة لأن اليهودية الصهيونية وإسرائيل اليهودية من فجر التاريخ إلى دهر التاريخ كانوا عصابة إجرام.. عذبوا أباهم يعقوب كادوا لأخيهم يوسف الصديق عليه السلام وعلى أبيه السلام.. كذبوا على أبيهم إسحق حينما زعموا أنهم دلسوا عليهم فسرقت أم يعقوب النبوة والرسالة من الرسول النبي إسحق كأنما الرسالة النعمة الهبة من الله مادة تسرق.

هذه العصابة من الخطأ من تأتي منه الجرائم أن يزعم أنه يمكن التعامل معه بأسلوب حضاري، فكذبة كبرى أن لإسرائيل حضارة أتحدى أن يقال ما هي وكيف وأين..؟

وأعلنت إسرائيل أنها دمرت المفاعل الذري فإذا الدنيا كلها (أصبحت هايد بارك) صرخات اعتراضات تنديد، حتى الذين أشعلوا أمامها الضوء الأخضر.. وحتى الذين تضربهم في لبنان وفي سهل البقاع كلهم لم يقل إلا كلاماً.. كأي مكروب يقف في هايد بارك يلقي خطاباً إن تنفس به، فقد أعطى التنفس للوزارة البريطانية، فهذه الدنيا التي استحالت إلى هايد بارك إنما تعطي إسرائيل استراحة.. فالكلام لا يؤخر أي عمل إجرامي لإسرائيل وإنما يجعلها تتقدم تعربد كل يوم.. وحتى هيئة الأمم ومجلس الأمن ما هما إلا منبران في هايد بارك.. فزرفات القبائل وعدت العراق بالعون، أما إطار كامب ديفيد فقد أضاء الضوء الأحمر أمام مصر حجزها فأعجزها أن تقول كلمة العون.. فالضوء الأخضر أمام إسرائيل والضوء الأحمر أمام مصر والمظلة القائمة أمام العرب جميعاً.. فلا أحمر.. ولا أخضر.. ولا أبيض ولا يصح لي أن أقول إن هناك ضوءاً أسود مع أنه هو الواقع.

ولكن أليس في عمل إسرائيل بصيص من الأمل أحسبه قريباً حين جبل التيه بصحوة الصناديد أو هلاك الصناديد فلم يعد الإنسان العربي هو القضية. أو هو المحارب من أجلها. فالأرض هي القضية، سينقذها جيل ما بعد التيه.. ما بعد الصناديد، حين جاء جيل داود أخرج جالوت وداود القوم الجبارين.. وحين سطع النور على حراب محمد وجيل محمد هلك الصناديد فإذا العرب أمة عظيمة نشرت دينها في إمبراطوريات هكذا ينبغي أن نصبر حتى ينقضي زمن التيه.

وفي هايد بارك صرح لسان أمريكي يسأل هل هذه الغارة بالطائرات الأمريكية مخالفة للقانون الأمريكي.. ولقد أجاب عليه قبل.. حين قال يوم

ضربت الطائرات الجنوب اللبناني.. إن الولايات المتحدة ما زالت غير عالمة بأن ضرب الجنوب كان بسلاح أمريكي.

وسؤال.. أليس في هذا التوقيت حساب أن تكون في رئاسة فرانسوا ميتران.. ولم تكن في رئاسة جيسكار ديستان وأن تكون بعد شرم الشيخ وفي إبان أزمة الصواريخ بينها وبين سوريا.

توقيت محسوب حسابه إن لم تعط إدارة الرئيس ريجان له الضوء الأخضر، فإن دهاقنة الكونجرس من أنصار اليهود هم الذين أعطوا الضوء الأخضر لإدارة الرئيس.

من المؤامرة إلى المغامرة

ما هي المؤامرة.. ومتى بدأت، وكيف حققت أغراضها؟ وأين هي المغامرة، وكيف ستكون؟

أطرح هذا السؤال.. أستقرئ تاريخاً. فالمؤامرة صنعها بالتخطيط غضب الرضا أو رضا الغضب.. صنعها الحلفاء أيام الحرب العالمية الثانية ضد تسليح مصر حين أعلنوا غضبهم من فرحة الرضا بموقف مصر حين أعلن زعماؤها كلهم: (تجنيب مصر ويلات الحرب). إلا زعيم واحد، هو الدكتور أحمد ماهر أصر على أن تدخل مصر الحرب وما كان يقصد العون للإنجليز، فلعلّ مصر تعرف أن (أحمد ماهر) تعرض لحكم الإعدام من الإنجليز في حادث السردار. كل زعماء مصر جنبوا مصر ويلات الحرب: موقف فيه إنقاذ مصر في ما ظهر لهم.. بينما هو قد جرد مصر من القوة، ومن الموقف المطالب بالحق. وفي الجانب الآخر سلح الحلفاء شرذمة من اليهود زعموا أنها دخلت الحرب معهم، فإذا مصر التي حرموها من التسلح قد خاضت حرب ٤٨ ضد إسرائيل التي أمسكت بالسلاح عوناً من الحلفاء.

لقد كان مخططاً رهيباً أن تحرم مصر من السلاح، وأن يمسك اليهودي السلاح، فهل أجد أن التاريخ يسجل هذه الغفلة، أو هذا التغافل.. نفذت به مؤامرة الحلفاء على العرب جميعاً؟

وهناك في العراق.. حين بدأت الثورة ضد الإنجليز بزعامة رشيد عالي الكيلاني. ظن كل الأصدقاء للإنجليز أنها ثورة ما كان ينبغي أن تكون تشغل الإنجليز عن حرب المحور بينما المؤامرة والمخطط الرهيب قد أعلن غضبة الرضا عن ثورة العراق ليُجْهز على القوة العراقية، لأنها لو بقيت لتغير الوضع عام ٤٨.

إن الرضا عن ثورة العراق، وما صنعه الإنجليز في العراق هو الذي وضع العراق في الموضع المعروف سنة ٤٨، فلماذا؟

لأن الذي أجهز على ثورة العراق هو (الجنرال غلوب) بجنود عرب، وإن الذي فتح لـ (غلوب) أن يجهز على ثورة العراق هو الموقف الأردني المضطر لذلك انتصاراً للعرض الهاشمي، فالعراق سنة ٤٨ ومعروف موقفه من أسبابه أن لا يكون للأردن شأن في فلسطين، فمصر خاضت الحرب بسلاح فاسد، والعراق وقف أمام الحرب بقوة لم تتقدم، وأن تتأخر، والبقية معروفة.

كل ذلك كان نتيجة المؤامرة التي أعطت للحلفاء ولإسرائيل أن يقطفوا ثمارها في انتصار اليهود، وتأسيس دولة إسرائيل سنة ٤٨.

فلو أن مصر التي أعلنت شعار (تجنيب مصر ويلات الحرب) سارت مع أحمد ماهر، فأعلنت الحرب مع الحلفاء، لأجبروا الحلفاء أن يعطوهم السلاح، كما أعطوا اليهود، كما أعطوا الهنود. إن مصر لم تتجنب ويلات الحرب.. فكذبة كبرى أن يقال ذلك، فلقد كانت في الميدان.. تضرب بالطائرات وبدلاً من أن يكون المصري جندياً.. كان الألوف من المصريين عمالاً وراء الخطوط وفي داخل الخطوط.. فالأرض ما تجنبت ويلات الحرب، وأرزاق مصر كانت مدد الحرب وسماء مصر تحلق فوقها

الطائرات.. حتى وصلت الحرب إلى حدود مصر في العلمين.. كل الزعماء قالوا: لا حرب، وزعيم واحد قال: لا بد من الدخول في الحرب وحتى الرئيس محمد أنور السادات، ولم يكن أيامها زعيماً، ولم يكن ذا شأن.. كان أحد المصفقين لعدم دخول مصر الحرب.. بل أعلن ولاءه للمحور ولألمانيا بالذات، وما قصة فراره هو وحسين ذو الفقار صبري، وخضوعه لزعامة عزيز علي المصري بالشيء الخفي حتى إنه أعلن أيام رئاسته الحالية، وقبل مدة، الحملة على أحمد ماهر.. لأن أحمد ماهر أراد أن يورط مصر في دخول الحرب.

وانتهت المؤامرة بخسران العرب والكسب لإسرائيل.

فأين هي المغامرة الآن؟..

إنها في هذا الخبر ـ نسب إلى الرئيس محمد أنور السادات ـ بأنه لا يمانع في أن تكون مصر عضواً في حلف الأطلسي.

أليست هذه مغامرة.. تخرج بها مصر من دول عدم الانحياز وتفتح الطريق لأصدقاء الاتحاد السوفياتي من العرب أن ينضموا إلى حلف وارسو؟

فلعلّ بوادر التحركات من بعض أصدقاء الاتحاد السوفياتي ـ إن لم تطلب الانضمام لحلف وارسو الآن ـ فقد أعلنت تخوفها من انضمام مصر لحلف الأطلسي.. لتصبح المغامرة أشد من المقامرة، ولعلّ فيها الإحراج ـ كل الإحراج لبعض أصدقاء الولايات المتحدة، ولست مع الذين اعتذروا بأن الرئيس محمد أنور السادات قد أراد إحراج إسرائيل التي لن تدخل حلف الأطلسي، ولن تعطي تسهيلات لجيش الولايات المتحدة.

لقد اعتذروا بذلك، وفاتهم أن إسرائيل لن تغضب الاتحاد السوفياتي بالانضمام إلى حلف الأطلسي، فهي الآن كما هي قبل في أحضان الاتحاد

السوفياتي وإن كانت ما زالت تغرف من ترسانة وثروات الولايات المتحدة.. هي تريد الأمن بالاتحاد السوفياتي، وهي أمينة من غضب الولايات المتحدة لأن الكونجرس معها ويعتذر لها بأن ضمان الأمن السوفياتي لإسرائيل هو بقاء على حياتها التي تضمن بقاءها الولايات المتحدة.

ـ صـــورة:

أليس من الملاحظ أن الهجوم على أي أرض.. على أي شعب.. من أي دولة عظمى أصبح طليقاً لا يردع؟

بينما الدفاع، حتى لو هوجمت دولة عظمى، لا تستطيع أن تواجه هذا الهجوم بالدفاع حتى عن أراضيها، فالهجوم طليق والدفاع مقيد.

لقد غزا الاتحاد السوفياتي الأفغان، فالدولة العظمى وحلفاؤها الذين يرون الخطر ماثلاً على مصالحهم لم يستطيعوا التحرك بالدفاع عن هذه المصالح.. حتى أن منع القمح الذي حسبوه من عدة الدفاع أصبح مباحاً للاتحاد السوفياتي.

ولو هاجم الاتحاد السوفياتي بولندا أو أي دولة من دول حلف الأطلسي، فإن الدفاع معطل تحال القضية إلى هيئة الأمم المتحدة، إلى مجلس الأمن.. إلى المفاوضات فالنتيجة.. إن قوة الردع أطلقت الهجوم وقيدت الدفاع لتعود الدنيا كلها غابة الظفر والناب.

ـ صـــورة:

ولعلّي أضيف حلية تزخرف (المؤامرة والمقامرة) بالنسبة لقيمة مصر، فقد حارب بهذه القيمة ونستون تشرشل.. حين أعلن صرخته يهدد

موسوليني بالذات، فقال: لئن ضربت القاهرة أو أثينا، فسأضرب روما ضرباً مركزاً.

كان بهذه الكلمة محارباً وحضارياً في الوقت نفسه.. هدد بضرب حضارة روما وهو من المقدسين لها إذا ما ضرب تراث الإسلام والفراعين واليونانيين.

لقد أسقطوا بالمؤامرة أن لا تحمل مصر السلاح، فإذا هم يتخذون من قيمة مصر السلاح.

الجولان يتهم سهل البقاع

حين تتراكم النكسات واحدة بعد الأخرى نتيجة لتراكم الهزائم.. يجتر الإنسان انتحار الوقت، يلتمس المعاذير، يجري وراء القوة التي لا يباح له استعمالها.. يبيح لنفسه أن يعلن الشجاعة ـ شجاعة الصابرين ـ بينما الخوف هو اليقين في وجدان المتبعثرين.. لكن انتحار الوقت لا ينتحر به الزمن، فلئن أضاع الإنسان العربي الوقت، فإن الأرض لا يؤثر فيها ضياع الوقت لأن الزمن معها.. لأن اللغة وحدتها.. لأن المصير واحد، فما يصيب الهضبة في الجولان.. تصرخ من مصابه شماريخ السراة (الحجاز) وتلال النجود والقمم على الأطلس والأوراس، والفن والتاريخ مكتوب في عظمة الذين صنعوا للزمن حياة وللتاريخ وتاريخ الحياة.. في الأثر الذي نسيه الوقت واحتفظ به الزمان.

فالأرض لا تتغير.. لا تعرف أن تتمذهب، ولا تستورد الفكر.. لأن الوفاء منها حفيظ على الفكر العربي، كما هي قد حفظت لسانها وتقاليدها وأعرافها من أن تتغير.. تبلور كل ما لديها بالتطور، فلن تخضع لغيبة التاريخ، فإن في كل ذرة من ترابها صحوة التاريخ.. فإن لم يتكلم إنسان (الجولان) بلغة الصاروخ، ولسان المدفع.. فإن.. (الجولان) قد صرخ يتهم البقاع، فالهضبة يعيش بها السهل، وحامية السهل تسأل البقاع أعني سهل البقاع ـ فقالت هضبة الجولان:

ـ أيها السهل، وأنت جزء مني وأنا جزء لك، قد استبشرت يوم أن نصبت الصواريخ على أرضك صفقت لها تدافع عني، وحين قهرت صواريخك طائرات الاستكشاف اليهودية زغردت أبشر نفسي بقرب الخلاص، وحين رفعت إسرائيل صرخات الشياطين تطلب من الولايات المتحدة أن تكون الوسيط يطلب من دمشق أن تزيل صواريخها.. كأنما الدفاع عن الأرض من هجمات إسرائيل لا يرضي الولايات المتحدة بينما أسلحة الهجوم في يد إسرائيل لا تسعى الولايات المتحدة لكبح جماحها. بل هي تسعى لأن تزيد قوة الطغيان قوة تلو الأخرى، فسلاح الدفاع ينبغي أن يزول، وسلاح الهجوم في يد اليهود يجب أن يبقى.

وأرسلت الولايات المتحدة رجلاً أعراقه من أعراقك ـ أيها السهل ـ تأمرك، لا يحمل إلا الولاء للعلم الأمريكي، على العكس من اليهودي المتأمرك يحمل الولاء لإسرائيل قبل الولاء للعلم الأمريكي. وكل ما سعى إليه هذا المندوب (فيليب حبيب) ليس وقف القتال في لبنان، بل هو أن تزول الصواريخ من سهل البقاع.

من هنا تتهم هضبة الجولان سهل البقاع بأنه الوسيلة التي اغتنمتها إسرائيل فرصة ضمت بها الجولان.. عجزت أن تحطم الصواريخ، وعجز (فيليب حبيب) أن يرغم دمشق، فالتفتت إسرائيل تنتقم بضم الجولان.. أفليس الاتهام قائماً على أن هذه الزوبعة التي أثارتها الولايات المتحدة ضد أصدقائها الأعزاء الإسرائيليين مناورة؟!

تتظاهر الولايات المتحدة بأنها لا تعلم عن خطة إسرائيل.. حتى إنها جمدت معاهدة التعاون العسكري الذي يتخففون، فلا يقولون العسكري وإنما يقولون الاستراتيجي.

وحين جمدت هذا التعاون ـ كأسلوب مؤدب مع إسرائيل ـ أعلن مناحيم بيغن إلغاء هذا التعاون براعة في المناورة، مع أنها كذبة في التاريخ.. لأن هذا الاتفاق سيعود.. وقد بدأت طوالع العودة له في الكلمات الرقيقة التي أرسلها الجنرال (اسكندر هيج) وزير خارجية الولايات المتحدة: (إن الخلاف لا يؤثر على الصداقة فكثيراً ما يختلف أعز الأصدقاء). انتهت هضبة الجولان إلى أن تقرر بعبارة صريحة.. صارخة في أذن العرب: لا تفرحوا بالموقف الأمريكي.. فإسرائيل لن تضيع صداقة الولايات المتحدة بل هي تملي على الولايات المتحدة ـ بالكلمات الوقحة التي أسمعها بيغن للسفير الأمريكي ـ أن تعلن الصداقة المتحدة لإسرائيل.. فقد كان السفير الأمريكي وهو يسمع إهانات بيغن لا يهتز غضباً منها بل هو الفرح بها، لأنه يهودي يحمل الولاء لمناحيم بيغن، أكثر مما يحمل الولاء لرونالد ريغان.

فضم الجولان هو الانتقام من الصواريخ على سهل البقاع، ولئن قيل إن الولايات المتحدة. قد صوتت على القرار.. يطلب مجلس الأمن من إسرائيل أن ترجع عن هذا القانون، فذلك ليس بشيء.. فإن الولايات المتحدة هي التي صاغت القرار ٢٤٢، وإن تقدمت به بريطانيا ثم وقَّعته الولايات المتحدة ولم تصنع الولايات المتحدة أي تحرك لتنفيذه، فتوقيع أي قرار من الولايات المتحدة وضد إسرائيل مفوض فيه أن لا يتم له تنفيذ، فالتوقيع حبر على ورق. ومعذرة إلى وزير الخارجية (اسكندر هيج) فلعلّه يعرف ـ إن لم تكن من الأصدقاء الأعزاء فإن صداقة العرب صداقة الأوفياء.. لم يأخذوا من أمريكا أي عطاء، وأي قطعة من السلاح يدفع ثمنها قبل شحنها.. بينما الأصدقاء الأعزاء يمنح لهم السلاح ضد الأصدقاء الأوفياء بلا ثمن..

ـ زياد أبو عين:

أيها الفتى العربي: قرأت التاريخ، فامتلأت نفسك بأن تلب النجاة لدى الشعب الأمريكي إن التاريخ قد مضى يوم كان الشعب الأمريكي يملك حماية اللاجئين الفارين من العذاب لأن الشعب الأمريكي برواده القدامى لجأ إلى الأرض الجديدة فراراً من العذاب، فأعلن ثورة على ضريبة الشاي ويطلب الحرية.

كل ذلك ذهب بسبب سلطان اليهود على هذا الشعب، فما أكثر ما تفتح أبواب الهجرة لليهود، وما أكثر أن يحرم لاجئ من الحماية.

خدعك التاريخ، فإذا الطغمة من اليهود يفرضون سلطانهم على القضاء فلا تسلم لإسرائيل بمنطق الساسة، وإنما سلموك بحكم القضاء، إنهم لم يهدروا قيمتك وإما أهدروا قيمة القضاء الأمريكي.. فلعلّ قاضياً من أبناء الرواد أصحاب القبعات العالية والياقات المنشأة يداري وجهه منك خجلاً، لأنه لم يعد قادراً على أن يحمي المعذبين!

ـ زياد: أرادوا لك الموت، وما علموا أنهم كتبوا بك ولك الحياة.. في دموع الأمهات، وحنان الأرض.

الموت تعلمت صناعته فقتلت الذين احتلوا أرضك، وحين تقتل ستحيا روحك في حوصلة طير أخضر، لأنك شهيد، فالعار مركب الأشرار، ومطية الطغاة.

لا تجزع.. لأنك حياة حين تموت، ولأنك الموت لحياة الذين كفروا بالحرية وإغاثة المعذبين يوم تقتل لن يكون إلا يوم زينة، تتزين بك فلسطين الأرض وإن لبس السواد بعض إنسان الأرض.

ـ نزار قباني:

أخي في العروبة نزار قباني: لئن اختلفنا في الوسائل، فإننا لم ولن نختلف في اعتناق السخرية من كل الوسائل التي ينتحر فيها الوقت.

نزار.. كم دمعة أرسلتها من عينيك حين تسعرت جمرات الحزن في وجدانك.. تبكي على أبنائك؟

لقد بكيت من أجل لبنان كثيراً، ولا أزال الجبل والأرض التي تعيش أشجاره وتنمو أعشابها بدموع الباكين على لبنانه (أخنوع): لبنان.. جنة الله في أرضه.. بكيت، فإذا لبنان يأبى إلا أن يبكيك من فعل بنان.. لعلّه تشيع للخميني، أو لعلّ إيرانيين قتلتهم الشعوبية وسخرهم الطغيان لأن يغتالوا الدمع في عينيك.. تتحجر محاجرك كأنهم أرادوا أن يحرموا لبنان من بكائك.

قتلوا (بلقيس) وهي ليست من بنات سبأ.. ولا من أمهات صنعاء، وإنما هي من بنات بابل ما غمدان، ما بابل، ما الأهرام، ما حجر ثمود، ما البتراء، إلا الأرض التي أنبتت (بلقيس) بلقيس الملكة في سبى.. بلقيس الملكة على وجدانك كأنما بلقيس تعلمت من هاروت وماروت أن تحصنك برقى، هي السحر الحلال في شعرك.

أنت يا نزار ـ تعيش الموت الآن، لأن حياة الحياة من نور بلقيس، قد أخفتوها الآن، لكن (بلقيس) مع بلسم الزمان ستجعل منك في حياة جديدة نزاراً يطغى على الطغيان.. يقول لأهل فارس الذين تناول العلم منهم رجال أمسكوا بالعلم المعلق بالثريا.. تقول لهم عزائي أيها الفرس حين مات في وجدانكم الفردوسي والخيام وأبو نواس حسرتي عليكم تعيشون في فوضى النسيان.. زرعه في وجدانكم شعوبي قد مسخ التشيع الحب، فأحاله إلى

بغضاء فأول الكافرين بالبغضاء الأئمة الذين تشيعوا لهم، فجعفر الصادق أول ما أسقط.. أسقط البغضاء.. لكن ابن سبأ اليهودي قد باض وفرخ في وجدانكم الآن.

وكأنما بقية من أبناء السبي اليهودي لا زالوا فيكم يؤثرون.. أتحسبون أنكم قتلتم الحب في فؤادي..؟ فلئن كان نوراً بالأمس فقد اصبح ناراً اليوم.

ـ نزار، لك العزاء في هذه البابلية، كأنما بعلبك قد مدت يدها إلى بابل فأغرفت غرفة من بردى: (تصفق كالرحيق السلسل) تمتزج بدجلة، لتكون أنت عنوان العناق بين الشام والعراق..

بالمبادرة أهتم.. ولها أهتم

حين طلعت علينا دول أوروبا الغربية ـ سواء كان اسمها الدول التسع أو السوق المشتركة في الجماعة الاقتصادية ـ بالمبادرة لحل قضية الشرق الأوسط، تبرعت بالكلام الكثير.. ليس أوله البيان الأول، وليس آخره بيان البندقية، بل ومن أواخره هذه الزيارات المتلاحقة لوزير خارجية هولندا ـ الرئيس الآن لوزراء الدول التسع ـ للاستطلاع، كأنه لم يكتف بزيارة سلفه.. رئيس السوق الآن، ثورن، وتلاحقت التصريحات.. لا بد من ضم منظمة التحرير إلى المفاوضات، ولا يعتبر هذا اعترافاً بمنظمة التحرير.

من هنا أضع الاهتمام طريقاً إلى الاتهام.. فلن يقتصر الاهتمام على الإيجابيات فحسب بل إنه أشد ما يكون احتفالاً بالسلبيات، فالحوار مع الاتهام ـ كنقد السلبيات ـ هو في النتيجة يحمل الحرص على الإيجابيات.

وتدعو دول أوروبا الغربية بما تسميه المبادرة لصنع السلام بين العرب وإسرائيل.. فهل المفاوضات صالحة لصنع السلام..؟

إنها لن تصنع السلام بحال من الأحوال، وها هي مفاوضات الحكم الذاتي بين هذا المثلث صانع إطار كامب ديفيد ـ الولايات المتحدة، ومصر، وإسرائيل.. لا زالت في مكانها لم تتقدم خطوة، بل تأخرت خطوات. فإسرائيل لم تخضع لأي نوع من المفاوضات بل إنها أخذتها

فرصة حين سلمت ـ كما تصورت وكما هو الواقع ـ من تحرك مصر ضدها، لأن مصر ـ إن لم تعلن اكتفاءها بالسلامة من إسرائيل ـ فإنها تعلن أكثر من ذلك أنها صنعت السلام مع إسرائيل، فاستمرأت إسرائيل ذلك.. تتعثر بتصرفاتها هذه المفاوضات. تضم القدس، تتوسع في بناء المستعمرات، تعارض تسليح مصر، وتستمرئ مثل هذه الأزمات المتلاحقة بين زعامات الشرق الأوسط. كل ذلك يعني أن المفاوضات مطاولة للزمن وقتل للوقت وحياة لترسيخ إسرائيل في فلسطين كلها.

من هنا ـ يقوم الاتهام لهذه المبادرة التي تريد المفاوضات مع إسرائيل تدعو الدول العربية سواء في الجبهات المواجهة أو الحكومات الممدة للمواجهة ـ وتصر على أن تكون منظمة التحرير شريكاً في المفاوضات، فظاهر هذه الدعوة يعني أن المبادرة ايجابية مع العرب.. مع أنها سلبية كل السلب أمام استحالة المفاوضات، وأمام مطاولة الزمن.. تتمتع إسرائيل بكل الترسيخ تعمل ما تشاء في الأرض المحتلة، فالمفاوضات مستحيلة على ثلاث صور:

أولاً: عدم اعتراف إسرائيل بالمنظمة يستحيل معه الجلوس على مائدة المفاوضات.

ثانياً: عدم اعتراف منظمة التحرير بإسرائيل.. يستحيل معه جلوس المنظمة على مائدة المفاوضات مع إسرائيل.. لأن أول خطوة في المفاوضات هي أن يعترف كل طرف بالآخر.

ثالثاً: عدم جدوى المفاوضات ـ تسير بها أي حكومة عربية ـ مع هذه المبادرة حسب ما تدعو إليه دولة السوق المشتركة.

فهذه الاستحالة عطاء لإسرائيل وحرمان للعرب وإقصاء لمنظمة

التحرير. ويحملني على هذا الاتهام تجاربنا المريرة مع دول الغرب: لجان قبل نهاية الانتداب. فسح المجال لليهود أن يستعمروا الأرض. الاعتراف السريع بدولة إسرائيل، المعونات المتلاحقة مالاً وسلاحاً وتأييداً لإسرائيل.

كل العطاء لإسرائيل من دول الغرب، وهذه المبادرة ـ كما قلت سلفاً ـ عطاء لإسرائيل، أفليس هذا الاتهام له ما يبرره؟

وقد سمعت وأنا أزور في نفسي الكتابة عن هذا الموضوع تصريح عبد المحسن أبو ميزر، فرغم العبارات الطرية في هذا التصريح، فإن في ظلالها وخلفياتها الاتهام الذي أضعه الآن لأنه ـ بعبارة رقيقة ـ يطلب أن تكون دول أوروبا جادة وصادقة، وطلب الشيء يعني أنه غير موجود، فلا الجد ولا الصدق موجود الآن، وإنما كل الأمر: تصريحات..

وكم كنت عجلاً حين فرحت بهذه المبادرة أول الأمر.. من ناحية أنها تأليب للرأي العام العالمي، ونكد متواصل على إسرائيل. حتى لقد قلت في غفلة الفرح: إن أوروبا بدأت تنصرف عن إسرائيل..

لقد كنت حينذاك من الفرحين، وصدق الله العظيم، في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦).

وحين استفقت من غفلة الفرح.. تذكرت قول مثقف كريم، لا أود أن أذكر اسمه حيث قال: إن العرب الآن يتجرعون من الغرب كلاماً ومبادرات يتصرفون بها كأنها عمل (لدني).. هم صانعوه، مع أنه مصنوع لهم ـ أعني للعرب.. يتجرعونها جرعات مسكنة.. يتخذونها المخرج ـ كما قلنا من قبل ـ قد أنامتهم هذه الجرعات.

وبعد الاتهام.. أريد أن أقول لأصحاب هذه المبادرة: لماذا

المفاوضات وكلكم وقَّع على قرارات مجلس الأمن.. تتركونها حبراً على ورق لا تعلنون رفضها بينما أنتم بمبدأ المفاوضات الذي تدعون إليه قد رفضتم كل قرار وقَّعتموه؟!

لماذا لا يكون مؤتمر تدعون إليه يحضره الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وأنتم تصدرون قراراً بتنفيذ قرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة بحكم الميثاق، وحقوق الإنسان، وعدم امتلاك الأرض بالقوة. قوة القانون والميثاق بين أيديكم.. لماذا تعطلونها بالمفاوضات.. أنتم تعرفون أن إسرائيل لن ترضى بالمفاوضات، فهي التي لم تخضع للقرارات.. كيف ترضى بهذه الدعوة؟

ولكن مصالحكم، وترسيخ السلام تدعوكم ـ إن كنتم صادقين ـ أن تفرضوا تنفيذ القرارات على إسرائيل، أم أنكم وقعتموها وقلتم لإسرائيل: التوقيع منا معذرة، وعدم التنفيذ منك تصرف لا نعارضه..؟

يكفي أن تذيقوا العرب هذه المرارة. ولقد فجعت من عربي يصادق الاتحاد السوفياتي حين قال: لا تستجد الغرب بالكلمات ولا تفرح بالتصريحات، فإسرائيل لن تعبأ بالكلام ضدها.. بل هو في صالحها تسترخي به عضلات العرب، ويشتد به طغيانها، ثم قال ـ وهذا هو المفجع ـ ينبغي أن تعرف أنه لولا الاتحاد السوفياتي لكان الوضع في غرب إيران وما يليه غير ما هو الآن. أفبعد هذا نصدق هذه المبادرة، ونفخر بالبرلمان الأوروبي.. إلى آخر ما هناك من هذه الترهات؟

إن كل ما فعله الغرب والولايات المتحدة أعطى للاتحاد السوفياتي فرصاً ما كان يحلم بها وجرعت الغرب غصصاً ما أشد عجزه أن يقاومها.

ـ صـــورة:

طلعت علينا أثيوبيا وعدن ببيان تدعوان فيه إلى مؤتمر قمة بين دول الخليج ودول البحر الأحمر لضمان الأمن فيهما. وقد كان هذا البيان بعد إعلان التكوين للمجلس الأعلى لدول الخليج. كأنه معارضة له، أو محاولة للنيل منه.

وكعربي ـ غير ذي شأن ـ أرحب بهذا الاقتراح كل الترحيب، فأمن الخليج وأمن البحر الأحمر مطلب عربي لشعوبه ولكل الشعوب العربية ولكن.. لا بد أن تثار من طرف أثيوبيا وعدن ومن إليهما رفض التسهيلات في الصومال وفي عمان وفي غيرها كمصر ـ مثلاً ـ وأقول:

إن ذلك حسن لا يمانع فيه من أعطى التسهيلات لكنه بالمقابل سيطلب من أثيوبيا وعدن ومن وراءهما إقصاء القواعد السوفياتية من أراضيهما، فإذا كانت التسهيلات مرفوضة لدى هؤلاء فإن القواعد والخبراء من الروس والكوبيين الذين يقتلون الصوماليين والأريثريين يجب أن يكون جلاؤهم في اللحظة الأولى التي يمكن فيها منع التسهيلات.

فلديكم القواعد والجيوش والسلاح من الاتحاد السوفياتي وتطلبون من حكومات عربية أرادت أن تحمي نفسها منكم برفض التسهيلات.

أليس هذا سلوكاً عجيباً غير مفهوم، ولا أدري بماذا يوصف؟

كل ما أدريه أن هؤلاء يتعاملون مع الشعوب العربية معاملة يضعون شعوبهم في موضع المغفلين أو العاجزين.

هيئة الأمم.. لا ديمقراطية ولا ميثاق

وكما خربوا عصبة الأمم فقد مارسوا التخريب لهيئة الأمم، وإن اختلفت الصور، وإن اختلفت الأسباب، فقد اتحدت الغايات.. فالذين خربوا عصبة الأمم يضعون التبعية على النازية والفاشية، بينما أسلوب بريطانيا وفرنسا مع عصبة الأمم، وتحت ستار من ظلال الديمقراطية هما المخرجان لهيئة الأمم بالضغط على ألمانيا ألا تجد رقعة تتوسع فيها، وبالإجابة لإيطاليا أن تحتل الحبشة لتكون درعاً واقياً لبريطانيا أن تبقى في السودان ومصر، وأن يبقى لها الجيب في الصومال.. كما هو كذلك لفرنسا بالنسبة لجيبوتي والصومال.

وبالإشارة الصريحة إلى كل شعوب إفريقيا.. إذ تقول بريطانيا وفرنسا: لقد عرفتمونا، فلو لم نكن المحتلين لكم لاحتلتكم ألمانيا، أو لاحتلتكم إيطاليا كما هي الصورة الآن فيما يمارسه الاتحاد السوفياتي في القرن الإفريقي والأفغان، وفيما تمارسه بعض الحكومات العربية مضطرة أو مختارة: تعطي الاتحاد السوفياتي مناطق نفوذ.. تبيح الولايات المتحدة للاتحاد السوفياتي ذلك لأنها تستفيد منه أن تستقطب مناطق أخرى باسم الحماية للذين رضوا بذلك أو باسم الدفاع عن مصالحها.

فالصورة ـ إذن ـ أيام عصبة الأمم، هي الصورة الآن في عهد هيئة

الأمم. فلا ديمقراطية ولا ميثاق.

إن الميثاق الذي أصبح في خزانة مكاتب الأمم المتحدة، وليس في أرشيف كثير من أعضاء هيئة الأمم المتحدة.. إن هذا الميثاق، وكان ينبغي أن يعرفه كل إنسان، أستطيع أن أؤكد أن كثيراً من مندوبي الدول في هيئة الأمم لم يقرأوا الميثاق، فقد أصبح أثراً حضارياً لا يصل إليه أحد.. مكتوب على إضبارته: ممنوع الاطلاع عليه، أو حتى الزيارة له. الميثاق.. تهدر باسمه حقوق الإنسان ـ إذا ما كان الإنسان عربياً في فلسطين، وترتفع الصرخات تدافع عن حقوق الإنسان ـ إذا كان يهودياً في الاتحاد السوفياتي. وهكذا أهدر الميثاق، وبقيت الديمقراطية.. فأين هي..؟

إن هيئة الأمم لا يتصور أي إنسان إلا أنها برلمان لدنيا الإنسان كله، وتعنى كلمة البرلمان أنه ـ أعني البرلمان ـ الحصن الحصين للديمقراطية. لأن الديمقراطية تخضع الأقلية التي تعارض القرار إلى الطاعة لتنفيذ هذا القرار، فلو أصدر البرلمان البريطاني بالأكثرية ضد أقلية قراراً، فإنه ملزم بتنفيذه. لا طاعةً لسلطان الحكم بل لأن هذا المعارض هو صاحب القرار، وإن اعترض عليه.

هيئة الأمم المتحدة لا يمكن إلا أن تكون البرلمان يحمي الديمقراطية ويطبق أحكامها، فتصبح كل دولة في الهيئة ـ وإن عارضت القرار ـ ملزمة بتنفيذه، وكما قلنا، ليس طاعة لسلطان الحكم وإنما لأن هذه الدولة المعارضة هي صاحبة القرار كما هو حكم الديمقراطية، لأن الأقلية وإن عارضت فإنها خارج البرلمان.. هي واضعة القرار.

فأين ذلك الآن في هيئة الأمم..؟

لقد تمكنت الولايات المتحدة أن تلعب بهيئة الأمم بالنسبة لإمبراطورية

الصين.. كما لعبت بالنسبة لقضية فلسطين، فكل أساليب الضغط حجزت هيئة الأمم المتحدة أن تعترف بالصين صاحبة المقعد الخامس وذلك بحق الرفض (الفيتو) يوم أن شكلت هيئة الأمم في ظل الميثاق الذي لم يطبق إلا مرة واحدة.. هي تشكيل هيئة الأمم.

أقصت إمبراطورية الصين مخالفة للديمقراطية، وتحت ضغط الظروف الديكتاتورية. بممارسات الاتحاد السوفياتي استطاعت الولايات المتحدة أن تعق الصين الوطنية لتستجدي المصالحة مع إمبراطورية الصين بأسلوب ديكتاتوري.. مارسته خارجاً عن حدود هيئة الأمم.. أعني أنها لن تسأل عن هيئة الأمم حين رفضت الصين واستجابت للصين.

وحين صوتت هيئة الأمم تصدر قراراً بالاعتراف بإسرائيل دولة.. لم تكن نتيجة التصويت.. ديمقراطية في سلوك الولايات المتحدة، ولم تكن كذلك إلا أنها غير عابئة بأحكام الميثاق، فالميثاق لا يعطي إسرائيل في أرض ليست لها أن تكون دولة فيها.

اشترت الولايات المتحدة الأصوات، ولا ننسى أن صوت (ليبريا) قد اقتنصته الولايات المتحدة اقتناصاً بمساعي شركة (فاير ستون) للكفرات.. التي تنتشر مصنوعاتها (الآن) في العالم العربي، وبعض الصحف لم يتورع عن الإعلان لمصنوعاتها.. مع أن الواجب يقتضي أن تكون أول شركة تخضع للمقاطعة العربية.

ولا يفوتني أن أترحم على سليم اللوزي، فقد نشر مرة أو مرتين إعلاناً عن مصنوعات (فاير ستون).. وحين ذكرته بذلك في كلمة كتبتها أحسبه لم يستمر في النشر.

وهكذا تكونت دولة إسرائيل بأسلوب ديكتاتوري تحت ستار من الديمقراطية، كالأسلوب الديكتاتوري الذي أعطى وعد بلفور لليهود كأنه منحة من بريطانيا.

وفي هذه الأيام، وبالأمس القريب.. صوتت هيئة الأمم على قرارات خمسة بالنسبة لفلسطين ومنها القرار الذي يعطي الفلسطينيين تكوين دولة فلسطينية، فإذا الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا.. يصوت كل منهم ضد هذه القرارات..

فأين حقوق الإنسان.. وأين الميثاق.. وأين الديمقراطية..؟

إن الولايات المتحدة معروف موقفها.. تقودها الصهيونية، وتقاد بإطار (كامب ديفيد).. فتشكيل دولة فلسطينية نسف لإطار كامب ديفيد، ولكن.. ما الدافع لبريطانيا، ولألمانيا وهما دولتان من الدول التسع التي أصدرت أكثر من بيان، وحاولت أن تتمطى بالبندقية.. تعلن للعالم العربي أنها جادة في صنع السلام في الشرق الأوسط.

إن ألمانيا تخاف عقدة الذنب.. تخشى أن ترهق بالأكاذيب الصهيونية.. أو هي قد انقادت لأمر الولايات المتحدة، ولكن بريطانيا لما تشعر بعد بعقدة الذنب. ثم هي ليست مع الدول الصناعية تخشى أي خسارة من بترول الشرق الأوسط، أو لعلّها تعرف عن العرب أنهم لا يمارسون أي ضغط عليها بالنسبة لامتناعها عن التصويت ضد هذا القرار، أو لعلّ المؤكد جداً أنها في اكتفاء ذاتي لا يخضع لأي ضغط بترولي، فعندها الكفاية من بترول بحر الشمال، فلئن كان هذا أو ذاك، فإن الحصيلة هي إهدار الديمقراطية في هذا البرلمان العالمي (هيئة الأمم)، فلو كانت الهيئة ديمقراطية حقاً لألزمت الذين عارضوا أو الذين لم يصوتوا أن يخضعوا

لهذا القرار، لأنه كما قلنا سابقاً هو قرار ديمقراطي تصنعه الأقلية التي عارضت مثل الأكثرية التي وافقت.

ومن المفارقات أن ترفض الولايات المتحدة قرار تكوين الدولة الفلسطينية بينما مندوبها وهو رئيس مجلس الأمن، قد أعلن بصوت جهير: الموافقة على قرار مجلس الأمن.. يأمر إسرائيل بعودة رئيس بلديتي رام الله وحلحول وقاضي الخليل، وليس في ذلك التناقض في موقف الولايات المتحدة وإنما هو التوافق، فالتصويت ضد القرار من هيئة الأمم هو نفسه الموافقة على قرار مجلس الأمن آنف الذكر، لأن تكوين دولة فلسطينية هو ضد إسرائيل، أما التصويت لعودة رئيسي البلديتين فهو مع إسرائيل.. لأن عودة الرئيسين تطرية وتوطئة لنجاح المفاوضات بالنسبة للحكم الذاتي.. يعني أن ذلك دعم لإطار كامب ديفيد. أما قرار هيئة الأمم فتقويض لإطار كامب ديفيد.

بولندا وفلسطين

ويأتي الكلام بعد.. عن موقف الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي في بولندا، وموقف الاتحاد السوفياتي ضد الولايات المتحدة في فلسطين والجولان.

إن الولايات المتحدة تهز الاتحاد السوفياتي هزة كبيرة بالنسبة لبولندا.. حتى أصبح الإنسان يخشى أن تكون الكارثة.. بينما إن لدى الاتحاد السوفياتي ورقة ناجحة هي فلسطين، فلماذا لا يهز الولايات المتحدة هزة كبيرة؟

يقول: إنكم تعارضون ضد أن أخضع بولندا إلى واقعها الشيوعي وموقعها من حلف وارسو بينما أنتم لا تخضعون إسرائيل ضد ما تمارسه

في فلسطين وما تعرض به مصالحكم في الشرق الأوسط. أنا صديق لحكومات عربية. بل وحليف لبعضها، وصديق لمنظمة التحرير، فباسم كل ذلك أدعو الولايات المتحدة أن تكف عن عون إسرائيل، بل أن تضغط على إسرائيل، وإلا فسأحاول أن أكون ضد إسرائيل كما هو موقفكم ضدي في بولندا.

ولكن الاتحاد السوفياتي يعرف الولايات المتحدة ومن إليها بالنسبة لبولندا ويصون عواطفه مع إسرائيل فلا يقول كلمة ينتصر بها حتى للجولان، فإسرائيل تزمع أن تضع تشريعاً تملك به الجولان كما فعلت مع القدس، وأمام الاتحاد السوفياتي موقفان: موقف كواجب قانوني ـ لا أخلاقي ـ مع معاهدة الصداقة مع سوريا يصدر إنذاراً لإسرائيل كما هي سابقته في إصدار الإنذار ضد من يعتدي على اليمن الجنوبية، يقول لإسرائيل: حذار، حذار أن يصدر هذا التشريع فإني سأطلق جيش سوريا بكل العون مني لتدافع عن الجولان. هذا الموقف لا يمارسه الاتحاد السوفياتي لأن مصلحته في أن لا يكون ذلك، فقد يقول للولايات المتحدة: إذا صح أن وافقتم على ما صنعت إسرائيل في بيت المقدس وما ستصنعه في الجولان، فكيف تنكرون عليَّ أن أضع تشريعاً أحتل به بولندا؟

فمصلحة الاتحاد السوفياتي أن يحتج بما تفعله إسرائيل في الجولان ليفعل مثلها في بولندا، ولا أدري كيف تنسى الولايات المتحدة ودول أوروبا أنها هي التي أعطت الاتحاد السوفياتي أن يحتل نصف أوروبا، وأن يدمر المجر. وأن يضرب تشيكسلوفاكيا، وأن يعطي نصف كوريا، وأن يترك له الحبل على الغارب في فيتنام، وأن لا يتحرك أي صوت ضده في القرن الإفريقي وفي أنغولا، وأن يموت تحرك الصوت ضده في الأفغان.

تلك أساليب الغرب، وأسلوب الولايات المتحدة التي قلنا من قبل لبعض رجالها: إنها ورثت الإمبراطورية البريطانية حتى في كل تخطيطها السياسي، وممارساتها، تخضع أقاليم كثيرة لنفوذ الاتحاد السوفياتي لتخضع لها أقاليم كثيرة باسم الوفاق، وبصراحة باسم الاتفاق غير المكتوب.

إن الديمقراطية والميثاق قد انتحرا في هيئة الأمم المتحدة.

الإسكندر هيج

بوادر يسمعها الناس تدل على أن الرئيس ريغان قد أقصى أي يهودي أن يكون وزيراً للخارجية. من هنا جزعت الأكثرية الديمقراطية في الكونغرس من اختيار قائد حلف الأطلسي السابق وزيراً للخارجية، فقد كانت هذه الديمقراطية تأمل أن يعود كيسنجر إلى وزارة الخارجية مرة ثانية، فقد أعطى الحزب الديمقراطي نفسه أن يفرض على إدارة الولايات المتحدة أن يكون سفيرها في إسرائيل يهودياً، وأن تقصي (أثرتون) الوسيط الأول في مفاوضات الحكم الذاتي لتعين بدلاً عنه (شاؤول لينوفيتش) وقد نسبوا إلى الإسكندر هيج بالأمس أنه يرحب بمفاوضة أو مقابلة الفئة المعتدلة في منظمة التحرير.

ولا أدري هل تستمر هذه المبادلة لتكون سياسة ريغان تعود بالولايات المتحدة إلى الحفاظ على صداقة العرب.. أم لا؟

تفريغ الأرض.. والأحلاف

الإمبراطورية الغازية تمارس اليوم تصرفاً جديداً، كأنما هي عدلت عن إحراق الأرض إلى إحراق الشعوب. سواء صبت عليهم الأسلحة الكيميائية، أو كل المهلكات، أو أنها تحرق أفئدتهم لتفريغ الأرض منهم.

لقد مارست إمبراطورية البيت الأبيض حربها في فيتنام، فأحرقت الزرع والضرع، ولم يلجأ الفيتنامي إلى أن تفرغ أرضه منه، ولكن إمبراطورية الكرملين ـ هي في حاجة إلى الزرع والضرع ـ أجبرت الفيتناميين أن يفروا من أرضهم لأنها تكسب من وراء ذلك أموراً ثلاثة:

ـ **أولاً**: حين تفرغ الأرض من سكانها تستطيع فرض إرادتها على البقية الباقية.

ـ **ثانياً**: تكسب الذهب الذي يشتري الفيتنامي الهارب من أرضه سلامة الخروج بما يدفعه من الذهب.. يدخل في الجيب الأيمن للحكومة الشيوعية في فيتنام ليدخل في الجيب الأيسر قيمة ما يسمونه السلاح.. يدخل في جيب الاتحاد السوفياتي.

ـ **ثالثاً**: حينما تفرغ الأرض من إنسانها يتوفر الزرع والضرع أرزاً بآلاف الأطنان. ولبناً ولحوماً.. يستهلكها الاتحاد السوفياتي.

فالأمر في تفريغ الأرض من سكانها انتزاع، ليس للأرض وحدها بل

لاستعباد إنسانها، والنزح من خيرات تلك الأرض الولود للزرع والضرع.

ولم يكن ذلك خط إمبراطورية الكرملين في فيتنام وحدها.. بل هو تخطيطها في القرن الإفريقي.. تفرغ الأرض من سكانها لا لتنتصر إثيوبيا وإنما ليبتلع الاتحاد السوفياتي كل الخيرات وليضع أصدقاء الولايات المتحدة أمام الخوف، فالخوف سلاح الاستعمار الجديد والخائفون يصبحون وكأنهم الحمر المستنفرة فرت من قسورة.

وفي الأفغان.. لا يباح الاتحاد السوفياتي أن يجهز بقوة مدمرة يحتل بها كل الأفغان، فكل همه الآن: مطاولة المجاهدين، لا ليعطيهم الفرصة، وإنما هو يوقت لمزيد من الهاربين من طغيانه. يكسب فراغ الأرض من سكانها.

إن تفريغ الأرض هو قمة الطغيان، ولكن العجيب أن تقف دول كثيرة مخدرة بعواطف تساعد الاتحاد السوفياتي على تفريغ الأرض.. يؤسسون المؤسسات باسم المعونة للاجئين.. تفتح كل دولة أبوابها تستقبل كل هؤلاء الفارين من طغيان صب عليهم فليس عندي إحصاء للملايين التي فرت فوجدت دولاً في الشرق الأقصى وفي المغرب وفي أمريكا تستقبلهم. تصنع للحنان لكنه في الواقع من صناعة العون للطغيان، فلو رفضت هذه الدول استقبال اللاجئين لكبر الخزي على الاتحاد السوفياتي، ولأصبح هؤلاء الذين لا يجدون ملجأ قوة ولو بالتشغيب على طغيان الاتحاد السوفياتي.

ولا أدري كيف يصطنعون هذه العواطف وهم يمارسون الذبح بالقطارة وبالجرعات على شعوب أرضخوها للمجاعة ولطغيان إسرائيل سواء في إفريقيا أو في غرب آسيا وما إلى ذلك أنه حين يستقبلون اللاجئين يمنحون

الفرصة لأن يستغوي الاتحاد السوفياتي.

إن الاتحاد السوفياتي صادق في كذبه علانية لا يمارس تمريغ العواطف، بينما أولئك كاذبون في صدقهم لأنهم يمرغون أنفسهم تحت غبار العواطف.

وكوبا.. أليس من العون لها أن تستقبل الولايات المتحدة ألوف الهاربين من كوبا..؟ وكيف اتسعت سفارة بيرو لأن تسع الألوف؟.

كذبة سوداء مارسها كاسترو ليفرغ الأرض من هذه الألوف.. يستريح منها ومن شعبها إذا صدقنا أنها تمارس الشغب ضده.. فلماذا لا نفترض أنهم معلمون من كاسترو.. يمهد لهم الفرار ليكونوا في فلوريدا قريباً من كوبا.. يشغبون على الولايات المتحدة، ولا أدري هل أصف ذلك بالغفلة أم هي خطة بعيدة المدى تتعامل فيها بعد مع كوبا.. إما بتسليح هؤلاء اللاجئين، أو باتخاذهم حجة تمارس بها ضغطاً أو حرباً على كوبا.

ذلك حسن ظن، مع أن كل التصرفات تحمل على سوء الظن.

الأحـــلاف:

وأثبتت الأيام أن الأحلاف كذبة كبرى، فالحلف لدول الشرق الأقصى أصبح كلاماً لا عملاً، ففيتنام وكمبوديا تعيشان الهلاك، وحلف الشرق الأقصى يتناوم بلا حراك.

وفي شرقنا الأوسط اهتزت الدنيا العربية ضد حلف بغداد، ثم خرجت بغداد من الحلف، وأقاموا بعده الحلف المركزي بين إيران وباكستان وتركيا وأسقطت إيران هذا الحلف، وخاضت الحرب القائمة الآن.. سواء الحرب المسلحة بينها وبين العراق، أو الحرب الأقسى بينها وبين الولايات المتحدة

فإذا هذا الحلف الذي سقط وكان ينبغي أن لا يسقط بسقوطه التزامه الجوار الدعامة الأولى لتأسيس الحلف. لكن الجوار قد تجنب التزامه، فتركيا أكثر تعاطفاً مع العراق والباكستان تركت الانحياز لأي من الطرفين، يعني ذلك أن الحلف المركزي كان ألعوبة استعمارية وليس حاجة لتلك الدول التي انتظمت في ذلك الحلف، وأخشى ما أخشاه أن نفاجأ بأن حلف الأطلسي سيكون مصيره مثل مصير الحلف المركزي. أما حلف وارسو فبعيد أن يسقط إلا إذا أسقطته الشعوب، فقد بدا المنجل عاجزاً عن جث الجذور، فهو لا يستطيع إلا أن يقطع الفروع والأوراق، فالأحلاف كذبة سوداء.

العلم والشيوعية:

كم خدعنا بأن الحرية قاتلة الشيوعية.. لأن الحرية التي يزعمونها الآن لم تكن حرية الشعوب وإنما حرية السياسة يستقطبون الشعوب باسمها كاذبين بالتعامل على أساسها، فأصبحت لا تعطي أي مقاومة للشيوعية، لأن الحرية عند هؤلاء بلغت حد الفوضى، فالأمر كما قلت من قبل هو في الواقع: حرية الفوضى وفوضى الحرية.

ولكن العلم هو القاتل للشيوعية، فقبل القرن العشرين كان الإنسان مسيَّراً بفكر الأديب.. والفيلسوف، فانتشر الإلحاد وانتصرت الشيوعية، ولكننا في أواخر القرن العشرين الآن قد بدأ العلم يتحرك لمعرفة حقائق الوجود، وحقيقة الإيجاد، والاطلاع على الأسرار التي أودعها الله في هذا الكون. فالعلم يكتشف كل يوم عجائب تعطي الإنسان سمو التفكير، وبراعة التفكر ويعني ذلك أن العلم هو مانع الحرية، وعندما يصبح العلم متحرراً، والعالم غير مقيد فإن أفكار الفلاسفة وترهات المهرطقين تصبح بعيدة عن أن تفرض سلطانها.

أفليس أن هؤلاء الذين يسمونهم _المنشقين على الشيوعية ـ سواء في الاتحاد السوفياتي وغيرها ـ هم العلماء؟

فالجهل مطية للطغيان، والعلم هو الحرية حرباً على الطغيان. انتظروا ما سيفعله العلم والعلماء فهل أنتظر من الأمة العربية أن لا تتآخى بفكر الفيلسوف والأديب لتستقطب التفكير العلمي حينما تخرّج الجامعات علماءها؟

ـ صـــورة:

يحسبون أن من البراعة تغيير المسميات واللعب بالأسماء.. ليخففوا من وقع الاسم الصحيح، فالحرب بين إيران والعراق يسمونها: النزاع. أو يكذبون للتشغيب فيسمونها: حرب الخليج، ويسمون المجاهدين (المتمردين) والمعارضين: (المنشقين) ويسمون الهزيمة: نكسة. ويسمون الموت: قتلاً. ويسمون الزلازل: هزة.

وهكذا.. سخّروا اللغة العربية بهذه المترادفات كأنهم يسخرون منها.

ما زال الصراع عبشمياً . . هاشمياً

كأنما أيام العرب في الجاهلية الأولى قد أبقت رواسبها في أعصاب العرب جميعاً، فلعلّهم ورثوا من الحرب القبلية أن لا تموت هذه الحرب بينهم، فلقد بقيت حية تثور ثائرتها كل حين فلم تسكن هذه الثائرة إلا في سنوات تعد على الأصابع في حياة رسول الله ﷺ، ثم في حياة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكأنما تلك الأيام في الحروب القبلية ـ البسوس وداحس والغبراء والفجار ـ هي التي تحقق الكلمة. التاريخ يعيد نفسه، فقد استحالت تلك الأيام على صورة من الصراع بين العبشمي والهاشمي والعباسي والعلوي. . فقد أقصى تأثير الدين المجمع، وبقي المؤثر هو الحماسة للعصبية والتذرع بالإقليمية. والتحرك بالمذهبية. ذلك يفسر كلمة: التاريخ يعيد نفسه، وليس معناه أن تكون الأحداث على صورة واحدة، وإنما هي الأسباب والوسائل والنتائج بعدها ـ هي التي على الصورة الواحدة: شلل في المسيرة، تفتيت للوحدة، صراع يرهق الشعوب، والكاسب فيه أعداؤنا.

والسؤال أطرحه: هل التوتر بين دمشق وبغداد، وبين دمشق وعمان، وبين الجزائر والمغرب إلا صورة الصراع العبشمي والهاشمي تشعله الإقليمية. . تقدح الزناد للحرب المذهبية كأنما نعيش اليوم مع ثورات

الخوارج وشهوات العملاء، ولقد كان الأمل حين سقط الاستعمار أن تكون الشعوب العربية الأمة الواحدة في عواطفها لصيانة وحدة أرضها لمحاربة أعدائها. ولكن.. ما زال العدو الإسرائيلي يصنع باسمه كحرب عليه هذا التوتر الإقليمي بين العرب جميعاً كأنما إزاحة إسرائيل لم تكن الوسيلة إليها إلا أن يكون العربي حرباً على نفسه، ومن الغريب أن تكون هذه الحرب ضد إسرائيل.

منطق غير مفهوم: فمحاربة العدو تقتضي أن يتحد المحاربون، ولكنهم اليوم يعلنون الحرب ضد إسرائيل كلاماً، ويصنعون النصر عليه فعلاً منهم بالانفعال ضد أنفسهم، وهو في النتيجة رد فعل ضد إسرائيل وإنما هو الافتعال لتفعل به إسرائيل كل طغيانها.

وطرح عليَّ صديق سؤالاً: هل هذا التوتر بين دمشق وبغداد من صنع دمشق..؟

ـ قلت: لا أدري.. كل ما أدريه أن دمشق هي أول من أنهض القومية العربية حتى لقد استأثرت بها دون غيرها، وجعلت همها الدعوة للوحدة العربية، كان (ساطع الحصري) قد عاشت دمشق تحت تأثيره، فمن الغريب أن تنقلب العبشمية في دمشق إلى الهاشمية وأن تنقلب بغداد العباسية، فالعلوية إلى عبشمية، كما الغريب أن تنقلب عمان الهاشمية في نظر دمشق العلوية إلى عبشمية.

رجعية إلى أيام العرب الأولى تمارسها التقدمية.

وطرح سؤال آخر، فقال: هل تريد من دمشق أن تفتح الجبهة الثالثة على حدودها ضد الأردن؟

ـ قلت: لئن كان التخطيط دمشقياً بحتاً فإني لا أتصور أن يغامر الجيش

الدمشقي بفتح هذه الجبهة الثالثة: جبهة الجولان، والجبهة في لبنان، ثم الجبهة ضد الأردن.. فما أعرفه عن أي قائد في جيش لا يغامر هذه المغامرة، فسوريا كإسرائيل ـ كما قالوا ذلك في ألمانيا ـ لا تستطيع أن تحارب في جبهتين، فضلاً عن إيجاد جبهة ثالثة، فقد أفترض أن هذا مستحيل إذا كان التخطيط سورياً بحتاً. وحتى لو ضمنت سوريا أن لا تتحرك إسرائيل مستغلة للموقف لا دفاعاً عن الأردن فإن الجبهة الثالثة قد تحرم من تأييد فريق من الجيش السوري يبقى في مواجهة إسرائيل في الجولان استعداداً للدفاع ضد إسرائيل، كما أنه يحرم المدد من الجيش المرابط في لبنان.

إن إسرائيل الفرحة.. تهاجم سوريا لو أرادت، أو تشغل الجبهتين بمرابطة الجيش السوري فيهما.. أما لو كانت هذه المغامرة من تخطيط مفروض على دمشق فلا بد أن يكون المبرر له هو ضماناً من الذين يفرضونه أن لا تتحرك إسرائيل ضدهم ويمكنهم أن يفرغوا الجبهتين من الجيش مقابل الانتصار على الأردن.

افتراض ليس بالبعيد أن يكون، لكن بقي حساب المكسب والخسارة، فلا سوريا ستكسب من هذه الحرب ضد الأردن، ولا الأردن لو انتصر يكسب منها ـ فالخسارة واقعة على الطرفين، وهي أكثر ما تقع على نسف القضية الفلسطينية نسفاً كاملاً، فلئن قالوا إن الحرب بين بغداد وطهران قد عرقلت القضية الفلسطينية، فالحرب بين دمشق وعمان لن تكون عرقلة فحسب بل القضاء الكامل على فلسطين وعلى آمال الأمة العربية.. والليالي من الزمان حبالى، وأيام العرب في الجاهلية وبعد عهد الخلفاء مليئة بهذه الخلافات التي مزقت وأخرت، فلولا ذلك التمزيق لما كانت إسرائيل.

الإعـــــلام

وحمدت للإعلام العربي أنه لم يعبأ بما نشرته محطة لندن عن المعركة الشديدة بين بعض الوفود العربية ومندوب الولايات المتحدة في لجنة حقوق الإنسان. فإذاعة لندن نشرت هذا الخبر كأنها تشغب على الولايات المتحدة وأعطته التفصيل الكامل..

قالت: لقد وقعت مشادة حادة بين بعض الوفود العربية وبين مندوب الولايات المتحدة في لجنة حقوق الإنسان المنعقدة في سويسرا. فقد قال المندوب الأمريكي مؤكداً العلاقة السرمدية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، كأنه الزواج الكاثوليكي، فغضب العرب وتلاحوا وما كانت تقصد إذاعة لندن التشغيب على الولايات المتحدة من العرب جرعة ترتفع بها البغاضة وأن تجرع أصدقاء الولايات المتحدة من العرب جرعة تغص بها الصداقة، فهي أرادت أن تدق إسفيناً في العلاقات الأمريكية العربية تزيد أحقاد الخصوم، وتحرج صبر الأصدقاء، فإذاعة لندن إذاعة يهودية صهيونية.. تحدث الرجفة في أعصاب العرب.

حمدت للإعلام العربي أنه لم يحفل بهذا الخبر لأن الاحتفال به يصبح الأمر بالنسبة للعربي كموقف العصفور أمام صياد العصافير، فقد أخذ الصياد بقطع رقاب العصافير، فحين هبت ريح دمعت عيناه من التراب قذفت به الريح، فإذا عصفور مسكين يقول لصاحبه: انظر إلى حزنه علينا.. إنه يبكي. فقال عصفور حصيف: لا تنظر إلى دموع عينيه وانظر إلى فعل يديه. فينبغي للعربي أن لا يحفل بالتصرفات المحمومة، وإنما ينبغي أن يعمد أمام الفعال المذمومة فلم يعد القول من أي أمريكي موضوعاً يؤبه به.. لأن الفعل أقسى وأقسى.. فالعبرة بما تفعله الولايات المتحدة.. لا بما يقوله رجالها.

مؤتمر عدم الانحياز

قد ينشر هذا المقال في اليوم الذي تنشر فيه قرارات مؤتمر عدم الانحياز، فلا ينبغي لأي معلّق أن يسبق الأحداث، ولكن تعليقي ينصب على ما حدث: لقد طالب بعض الأعضاء بتعليق عضوية مصر في مؤتمر عدم الانحياز لأنها تدور في فلك إطار كامب ديفيد مع أنه من الحق أن يكون التعليق: لأنها لم تعد دولة غير منحازة، فقد انحازت بكل قوتها إلى الولايات المتحدة.

فإذا صح هذا عن السبب في تعليق عضوية مصر، فلماذا لا يطلب بعض أعضاء المؤتمر من طرف آخر تعليق عضوية كوبا وهي مائة في المائة منحازة إلى الاتحاد السوفياتي؟

لا أقول هذا دفاعاً عن مصر. ولكنه الدفاع عن مبدأ عدم الانحياز.

ثم الأدهى والأمرّ أن يقابل أعضاء المؤتمر مندوب الأفغان بالأحضان دولة لم تعترف بها أكثرية من أعضاء المؤتمر. حكومة مستعمرة للاتحاد السوفياتي تقتل شعبها. باعته رخيصاً إلى إمبراطورية الكرملين، فكيف يستقبل؟ حتى لو قال وبكل العجرفة: إنه لا يعارض في حضور الأمين العام للأمم المتحدة، فهل هو الخضوع لنفوذ السوفيات أم هو التجني على مبدأ عدم الانحياز؟ كلام غير مفهوم في عرف المبادئ. وإنه لمعلوم في التعارف مع الطغيان.

تحذير بكين ونصيحة تونس

قد لا يخطر على بال كاتب حين يسمع تحذيراً من أي جهة أو نصيحة من جهة أخرى تتعلق بالأحداث الواقعة أن يعلق عليه متفائلاً أو متشائماً أو حتى متناقضاً. ولكن التحرك من جهة أخرى قد واكب التحذير والنصيحة.. يطرح سؤالاً ملحاً يدعو الكاتب أن يعلق خصوصاً. وإن كل إنسان في هذه الأرض يخشى التحذير ويستجيب للنصيحة ويشرح التحرك المواكب لهذين الوضعين.

إن بكين ـ الإمبراطورية ـ في أكثر من مرة حذرت، بل وأنذرت دول أوروبا الغربية أن لا تتراخى علاقاتها بالولايات المتحدة لأن هذا التراخي يعطل حلف الأطلسي ويعطي القوة لحلف وارسو، فدول أوروبا الغربية حتى تسترضي علاقتها بالولايات المتحدة في سبيل أن تطلب السلامة من الاتحاد السوفياتي فإنها تضع نفسها في خطوات آتية يمارس فيها الاتحاد السوفياتي إخضاع غرب أوروبا إلى الاستسلام ينبغي أن تتوثق علاقات الولايات المتحدة مع دول أوروبا.. ليس بحكم الميثاق لحلف الأطلسي وإنما بحكم أن تسلم أوروبا وأن تسلم الولايات المتحدة لتكون بعد: السلامة للصين.

تحذير لمن يكن صريحاً في وضع التبعية والمسئولية على الطرف الذي

استرضت به هذه العلاقات، فهل دول أوروبا الغربية هي التي أخطأت الطريق أم أن تصرفات الولايات المتحدة هي التي لم تمش على الطريق؟ فكثير من تصرفاتها مع دول أوروبا الغربية فيها شيء من فرض التبعية، تصرفات مفاجئة، خطوات تكاد تضيع بها مصالح أوروبا الغربية.

كل هذا أعطى دول أوروبا العذر.. تسير خطواتها على هذا الموقف المتأرجح، فهي لا تستطيع أن تصبر على فرض التبعية، وتعرف دون الاحتفال بتحذير الصين مدى الضرر الذي يتأتى من استرخاء العلاقات مع الولايات المتحدة، فعلى الصين الإمبراطورية المسموعة الكلمة لدى واشنطن أن تبعث هذا التحذير إلى البيت الأبيض. فالصرخات في الإذاعة ليست كالصرخة في تقرير تبعثه بكين إلى البيت الأبيض.. لعلّها فعلت الفعل منها إلى أجل تجرها الأحداث إلى أن تسمع تحذير الصين بعد فوات الأوان، فالكلمة التي كانت تقولها إمبراطورية بريطانيا: (إن بريطانيا قد تفوتها الفرصة، ولكنها هي التي تقتنص الفرص لتجعل من قوتها الفرصة الناجحة).

أو كالشعار الآخر لإمبراطورية بريطانيا أيضاً: (بريطانيا تخسر المعارك وتكسب النصر). إن هذين الشعارين قد ماتا، فالفرصة إن لم تقتنص يصبح فواتها فرصة النصر للعدو المتربص أو صانع الأحداث اليوم، وخسارة المعارك هي التي تكسب النصر، وكم هي المعارك التي خسرها الغرب كله، وكسب النصر فيها الاتحاد السوفياتي.. ليس أولها كوريا وفيتنام وليس آخرها القرن الإفريقي والأفغان وحتى جمهورية تشاد.

هذا التحذير من الصين ـ مرة أخرى ـ يرحب به التحرك الأمريكي بلسان كيسنجر، فهو في رحلته التي يريد أن ينفخ بها القوة في النمر من

الورق على حد تعبيره.. هي مواكبة وتلبية لتحذير الصين.

وبقي موقفه من نصيحة تونس، فلقد أرسل الرئيس الزعيم الحبيب بورقيبه نصيحة إلى العرب وإفريقيا ودول السوق المشتركة، وهي نفسها دول حلف الأطلسي: أن تتعاون كمثلث قوي في حل مشكلة الشرق الأوسط، وحل الأزمات الاقتصادية، وبعبارة أصح أفهمها من نصيحة أنه أراد أن يشكل قوة ثالثة بين قوة الاتحاد السوفياتي وقوة الولايات المتحدة، وهذا رأي فصيح، فهل يقف كيسنجر معه أم ضده؟

فالذين عرفوا عن كيسنجر بيهوديته وصهيونيته قبل أمريكيته.. يعتقدون حقاً أن كيسنجر أول من يرفض نصيحة بورقيبه مع أنها في النتيجة هي نفسها تحذير الصين، فهذا الموقف المتأرجح في ظاهره أنه ضد العرب، ومن ظلاله أنه فرض للتبعية على دول الغرب، من نتائجه العقوق للولايات المتحدة.

إن الولايات المتحدة لا تستطيع باستقرار الحوادث التي تمر بالعالم الآن إلا أن تكون قوية بحلفائها وأصدقائها وبرفع بالظلم الذي مارسته بكل الغطرسة والقوة ضد العرب. لم يصنع ذلك الشعب الأمريكي كله، وإنما صنعه للولايات المتحدة، كيسنجر ومن إليه. لقد جاء كيسنجر من رحلة المكوك، وعمل بالجسر الجوي وبدهاء السياسة ومكر اليهود (لقد تركت العرب نمراً من الورق).

ولكنه لم يترك العرب نمراً من الورق، وإنما ألجأ الولايات المتحدة لأن تكون فيلا ضخماً لا.. يستطيع التحرك أمام الدب الروسي، فلو كان العرب قد تركوا لوضع إسرائيل في الموقف الضعيف لما استطاع الدب الروسي أن يقهر الفيل الأمريكي..

إن عبارة (الفيل) ليست لي، إنما هي لأمريكي صحفي كبير اسمه (والتر ليتمان) فقد قال عن حرب فيتنام:

ـ هب أن الولايات المتحدة فيل كبير والفيتناميين نمل كثير، إنه قد يدهس ألوفاً من النمل ولكن بعضاً من النمل إذا ما ركب جسمه ودخل خياشيمه وأذنيه فإن هذا الفيل سوف لا يتحرك ليطأ نملاً آخر..

إن كيسنجر قد وضعته صداقة ألكسندر هيج أو تملقه للرئيس ريجان أن يفتعل هذه الرحلة ليضع العالم أمام معركة جديدة هي القديمة، ويعني بذلك أن كيسنجر في عهد نيكسون هو كيسنجر نفسه في عهد ريجان.

ولعلّي أقول إن ألسكندر هيج قد ابتلع الطعم، فصداقته للبيت الأبيض هي التي تطعمه أن يكون كيسنجر رأياً نافعاً له، وبهذا قد تعيد رضا الحزب الديمقراطي عنه، فرغم أن كيسنجر جمهوري الحزب فإنه في عاطفة الحزب الديمقراطي: اليهودي الصهيوني.

مأساة أن يكون مصير الإمبراطورية في يد الذين يلبسون الولاءين: ولاء لليهودية ولإسرائيل ولو تعارض مع الولايات المتحدة.

إن نصيحة بورقيبة توجب على الذين نصحهم ـ إفريقيين وعرباً ـ أن يعلنوا قوتهم ويستعينوا بقوة أوروبا الغربية التي ما كان ميلها لهم عن عاطفة وإنما لأن الإفريقيين والعرب يملكون من الموارد ما أجبر دول أوروبا أن يتميلوا إليهم. فالسياسة لا مكان للعواطف فيها، والكلمة البريطانية كشعار لا تختص بها السياسة البريطانية وحدها، وهي: (إن بريطانيا ليس لها أصدقاء، وإنما لها مصالح) والغرب كله ليس له أصدقاء وإنما له مصالحه، ومصالحه في يد العرب ثم في يد إفريقيا.

القرار رقم ٢٤٢

إن بعض الأصوات الهامسة أنكرت على مؤتمر القمة الحادي عشر في عمان أن يعلن رفضه للقرار ٢٤٢ لأن هذا القرار في نظر الهامسين قد رضيت به بعض دول القمة، وإن البعض الآخر سيطاوع لو نفذ لأنه يضع التبعية في قبوله وتنفيذه على دول المواجهة التي قبلته. وقالوا إن في هذا تناقضاً.. مع أنهم لو التفتوا إلى ما تقرر في مؤتمر الرباط لوجدوا أنفسهم أنهم عاشوا هذا التناقض طوال المدة ما بين مؤتمر الرباط ومؤتمر عمان، وكيف كان ذلك؟ إن مؤتمر الرباط حين قرر خروجاً من الأزمة التي عاشها الفلطسينيون أن الممثل الشخصي هو منظمة التحرير الفلسطينية.. يعني أنه جعل قضية فلسطين لا يتكلم بشأنها ولا يقرر أمراً إلا منظمة التحرير، وهذه المنظمة ترفض القرار ٢٤٢، فعلى ذلك أصبح قرار مؤتمر القمة في الرباط حين وضع المنظمة في هذا الوضع الكريم قد ألغى دون إعلانٍ القرار ٢٤٢، وإلا، فكيف يصبح أن تكون منظمة التحرير الرافضة لهذا القرار هي المسؤولة عن فلسطين.. بينما القرار لم يذكر منظمة التحرير، بل قرر مصير فلسطين: جلاء عن الأرض التي احتلت بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧م، فالذين اعترفوا بهذا القرار قد أقصوا المنظمة والمنظمة ـ بحكم هذه المسؤولية ـ قد رفضت القرار..؟

ومع هذا.. فحكومة الأردن التي يتوجه الهمس إليها بأنها تناقض موقفها قد أعطت لنفسها أن لا يزدوج السلوك بين الاعتراف بالقرار والاعتراف بمنظمة التحرير، مع هذا ـ أيضاً ـ فإن إطار كامب ديفيد قد تجافى مع القرار وأجحف بالمنظمة، ومع هذا ـ مرة ثالثة ـ فالهامسون لم يتحركوا لينفذ القرار.. بل كل تحركاتهم أن فرضوا سلطانهم على منظمة التحرير. فالقرار ٢٤٢ ـ كما قلنا من قبل ـ قد أُلغي في مؤتمر الرباط. فالازدواج في السلوك أن لا يعلن رفضه في مؤتمر عمان.

ليوبولد سنغور

زعيمان.. أتمتع باحترامهما، بلغا القمة في النضال والفكر، وهما نهرو، وليوبولد سنغور لكني أخذت على نهرو أن فكره لم يعطه الفرصة لأن يصنع التسامح مع المسلمين.. بينما كانت هذه المؤاخذة على ليوبولد سنغور، غير أنه وقد امتدت به الحياة قد بدأ يصنع الكثير من التسامح، لكن المؤاخذة تنصب كل الانصباب على الملايين المسلمة في الهند أنها لم تتقدم خطوة لأن تنصف نفسها مما يصيبها، فلو أنها ـ أعني الأكثرية المسلمة ـ اتبعت خطة غاندي في شيء من العصيان المدني والمقاومة السلبية لأجبرت نهرو ومن بعده أن يجنحوا إلى التسامح، فالمسلمون في الهند قوة فكرية وبشرية، فقد قلت للدكتور مجيب مدير الجامعة الملية: ليس ضعفكم في أنكم أقلية، بل تلك الأقلية هي القوة لو استثمرتم كل قوتكم في تبصير حكّام الهند أن يحققوا نظرية الدكتور ذاكر حسين ـ المفكر المسلم ـ حين قال لي يوم تشرفت بزيارته في القصر الجمهوري: إننا نريد أن لا يكون في الهند حاكم أو محكوم، فقلت له: إن هذا هو الصعب، وليست الصعوبة في وضع الإدارة وإنما الصعوبة بهذا التعصب يفرض على الحاكم أن يكون حاكماً وعلى المتعصبين أن يكونوا محكومين.

أما المؤاخذة على ليوبولد سنغور، فهي لا تنصب عليه وحده، وإنما على بعض مشايخ الطرق.. طوعوا الأكثرية المسلمة أن لا تنصف نفسها، ولكن ـ ومع هذا كله فإن ليوبولد سنغور قد حقق للسنغال استقلاله وناضل عن إفريقيا، وناصر قضية فلسطين، وأعطى درساً في أن لا تبقى الزعامة سرمدية.

من الإرهابي.. ومن القاتل..؟

في حوار مع بعض الأصدقاء.. أخذنا نحلل تصريح الرئيس ريجان، فقد قال: (الإرهابيون يقتلون اليهود والنصارى).

وطبيعي أن يدور الحديث حاداً.. يسألون: من هو القاتل.. ومن هو الإرهابي..؟ فمن حق هؤلاء الذين تحدثوا أن أجيب على هذا السؤال.. لا أتجنى فيه على التاريخ ولا أستجدي المؤرخين، وقد كان تعليقي حينذاك على هذا الحوار الحاد أن قلت: ـ في الأيام المقبلة سينعقد مؤتمر قمة بين الثلاثة الذين صنعوا إطار كامب ديفيد، فالتاريخ يقول: إن بيجن إرهابي قديم، ولم يزل إرهابياً جديداً، والرئيس محمد أنور السادات ثوري تقدم العهد عليه، أما الرئيس ريجان فيستطيع بحكم المهنة أن يكون إرهابياً وأن يكون ثورياً، وأن يكون سياسياً، وقد استطاع في هذه الفترة التي لم يكمل بها شهراً من الزمان في البيت الأبيض أن يكون إرهابياً بكل التصريحات التي يكيلها كيلاً ضد العرب وضد المسلمين، وأن يكون ثورياً بما يذيعه للشعب الأمريكي من تنظيمات اقتصادية وتصريحات ضد الاتحاد السوفياتي، وأن يكون سياسياً في خطابه عن مؤتمر القمة الإسلامي، وفي استرضائه لحلفائه في أوروبا الغربية، وفي تعلقه للصين ولليابان. إنها ازدوجية السلوك، وبعد هذا تأتي الإجابة على السؤال المطروح.

ـ هل المسلمون من أيام الفتح العظيم إلى الحرب ضد الصليبيين وضد

الاستعمار والتي يخوضونها الآن دفاعاً عن أنفسهم ضد الشيوعية واليهودية، كانوا القتلة أم كانوا الراحمين والمعمرين..؟

ففي اللحظة الأولى التي سارت فيها جيوش الفتح لتخليص الشام من إمبراطورية الروم.. قال لهم أبو بكر الصديق: (لا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تقطعوا شجرة وستمرون بأقوام حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم من أجله)، هذا الأمر اليومي من القائد العام فيه التكذيب الصريح لكلمة الرئيس ريجان حين وصف المسلمين والعرب بأنهم قتلة.. ولعلّه لا يقتنع بهذا التكذيب، فهناك تكذيب آخر، فقد شهد شاهد من أهلها وهو المؤرخ العظيم (غوستاف لوبون) حيث قال:

(لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب).

كما أن التاريخ يعرف أن لولا العرب والمسلمون لما استطاعت الولايات المتحدة أن تصنع مدفعاً أو أن تصعد إلى القمر. فالعرب والمسلمون صناع الحضارة الوسيط التي صنعت من الغرب كله. والولايات المتحدة بالذات، شعوباً حضارية.. تمتلك ناصية المدنية الآن.. فالحضارة الوسيط ليست قاتلة وإنما كانت الحياة.

وتأتي الإجابة على صورة أخرى: أليس الصليبيون ـ وهم نصارى ـ كانوا قتلة؟ ومحاكم التفتيش هي التي قتلت المسلمين واليهود، والمذابح التي جرت في فرنسا يذبح فيها الكاثوليكي المسيحيين من (الهجنوت) أتباع لوثر وكالفن. والمذابح في إيرلندا اليوم من صنع المسلمين أم صنع البروتستانت والكاثوليك، والحرائق في الفنادق، والاغتيالات في الشوارع في غرب أوروبا والولايات المتحدة لم يصنعها إلا مسيحي يقتل المسيحي. والنازيون، وهم مسيحيون، كم قتلوا من اليهود؟

ثم.. كم عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى والثانية، ولم تكن إلا حرباً شنها النصراني على النصراني؟

واليهود.. لم يمارس المسلمون والعرب سفك دمائهم طوال معيشتهم في الأرض العربية والأرض المسلمة، وإنما هم صناع الفساد والخراب..

والنتيجة: إن الرئيس ريجان، وإن مثَّل بعض أدوار التاريخ، فإنه بحاجة إلى أن يتعلم التاريخ من جديد.

ولا أدري.. هل من صالح الولايات المتحدة، أو من سياستها أن تمارس هذا الإرهاب على العرب والمسلمين، مع أنها في حاجة ملحة لأن يكونوا مع المسلمين والعرب إذا كانوا صادقين في محاربة الاتحاد السوفياتي، فهل أقول: إن الحقد الكنسي وحقد الحاخامبين حقد غريزي في هؤلاء..؟

أما موقفهم مع الاتحاد السوفياتي فموقف أقرب إلى الدعاية، كأنما هم والاتحاد السوفياتي قد اتفقوا أن تكون حرب السلاح.. يمارسها الاتحاد السوفياتي والإرهاب بالتصريحات المتلاحقة عن شرعية بناء المستوطنات.. عن المسلمين بأنهم قتلة، إلى آخر ما هنالك.. تمارسه الولايات المتحدة.

منظمة التحرير

وكيل وزارة الخارجية البريطاني قبل أيام زار أقطاراً عربية، وفي دمشق اجتمع مع منظمة التحرير، وبعد ذلك صرح: بأن منظمة التحرير، كما هو في بيان البندقية من حقها أن تكون شريكاً في المفاوضات. ثم قال: ولكن بريطانيا لا تعترف بمنظمة التحرير لأن بريطانيا لا تعترف إلا بالدول.

من هنا اذكره.. كيف اعترفت بريطانيا بالوكالة اليهودية، وهي لم تكن

إلا منظمة ـ لا دولة، فمنحتها وعد بلفور، وزرعتها بإباحة الهجرة إلى فلسطين؟.. حتى أن بريطانيا من حرصها على ترسيخ الوكالة اليهودية في فلسطين لتكون دولة بعد قد وضعت رجلاً من كبار رجالها وهو اليهودي الصهيوني واسمه (هربرت صومائيل) مندوباً سامياً في فلسطين، فدعم الوجود اليهودي وفتت الوجود العربي يبعثره في الزعامات التي كان الصراع بينها وهو المسمار الأول في هذا الإسفين الذي شطر العالم العربي إلى شطرين، ومزقه إلى أقاليم كزعامات. إن هربرت صومائيل بعد أن استنفد أغراضه أصبح في بريطانيا رئيساً لحزب الأحرار خليفة لـ (غلادستون) و (لويد جورج).

لقد اعترفت بريطانيا بالوكالة اليهودية، ولم تكن حينذاك دولة، وترفض الاعتراف اليوم بمنظمة التحرير.. لقد كانت في حاجة إلى الوكالة اليهودية لبعثرة الأمة العربية، ولكنهم اليوم لو عقلوا لعرفوا أنهم في أشد الحاجة إلى منظمة التحرير إذا كانوا صادقين في صنع المبادرة الأوروبية.

المـــأزق

الذين صنعوا إطار كامب ديفيد أعلنوا على الدنيا أنه المخرج.. يصنع السلام. ومضت الأيام، فإذا المخرج أصبح مأزقاً. كل الضيق فيه على الرئيس أنور السادات، فمناحيم بيغن بدأ يخرج من المأزق، وشيمون بيريز قد يستطيع أن لا يكون داخل المأزق أما الرئيس ريغان فيستطيع الخروج كمناحيم بيغن إذا ما أعلن أنه لا يستطيع الضغط على إسرائيل أكثر من ذلك.

أما الرئيس أنور السادات فقد بدأ يفتش عن مخرج، إذ وجد بصيصاً من الأمل في البرلمان الأوروبي، ولكن البرلمان الأوروبي، والمبادرة

الأوروبية لن يستطيعا أمام عصيان إسرائيل ومواقف الولايات المتحدة أن يكونا جادين في صنع أي شيء، فالدول الأوروبية الآن في موقف المستجدي لا موقف المتحدي، وقد استجدى الرئيس السادات الدول الأوروبية لضمان السلامة من إسرائيل وليس لضمان السلام.

فدعاهم إلى وضع جيوش من أوروبا في سيناء.

فالوضع مع الرئيس أنور السادات هو: الخروج من مأزق إلى أكثر من مأزق.

البترول . . قوة طاغية

عنوان خطير أمام القراءة السريعة . . إذا ما أسرعت النظرة إليه تقول: إن البترول قوة وطاقة ـ أمر معروف لا جدال فيه فلماذا أضعه عنواناً لكلمة أكتبها؟

والإجابة . . هي أني لا أريد البحث عن طبيعة المادة، وإنما هو الاستقراء لطبيعة الفعل للبترول كقوة العرب، ولطاقة الانفعال به كقوة لمن يستهلكها . . للذين تتعطل مصانعهم إذا ما حاول المنتج أن يمنعه عنهم. فالمادة ـ أي مادة في طبيعة هذا الكون ـ قد أودع الخالق فيها قوة الفعل المدد، وقوة الانفعال الامتداد. فمثلاً: يحدد المصنع أن السيارة قوتها كذا حصاناً، أما طاقتها فكذا طناً . . من هنا فالبترول يخضع لهذا القانون كمادة طبيعية، ولكنه كمادة بحصيلة الانتفاع منها تحمل قانوناً آخر من عطاء الانتفاع بها . . أي أنه ليس من قانون القدرة الذاتية، بل إنه من تقنين الذين ينتفعون بها سواء من القيمة التي تدفع ثمناً لها، أو من القيمة التي تنفعل بها المصانع، وينتفع بها المستهلكون . .

إن البترول بقوة الثمن أعطى لأرضه وإنسانها أمرين:

ـ أمر تحركت به إلى إقامة العمران . . إلى الخروج من التخلف.

ـ والأمر الثاني: أبرز الأرض إنسانها كقوة عالمية يحسب حسابها، أو

تصبح في منطقة الإغراء سواء بالتسلط عليها. باستغواء من حولها.. يجرعونهم البغضاء للأرض وإنسانها، فالحرب عليها بالألسنة اليوم، ولا أستبعد أن تكون الحرب بالأسنة بعد اليوم، فالشرهون الجياع إلى الثروة يستقطبون الذين استغواهم.. كما أن الذين ما زالوا يتمتعون بالعطاء لهم من البترول يتظاهرون بالخوف عليه من الاتحاد السوفياتي، ويخفون الخوف منه.. لأنهم لما يقاوموا الخوف عليهم بعد، وما زالوا يصنعون أن يكون الخوف منه.

مواقف غير مفهومة للعرب، وللولايات المتحدة بالذات، فقد يكون من المفهوم أنهم على استعداد لمقاومة الخوف عليه، لكنهم ـ ومع الأسف ـ ما زالوا يمارسون كل الاستعداد بموقفهم مع إسرائيل ليكون الخوف منه.

والذين امتلأ وجدانهم بالغواية، وأعني بهم الأقربين ولا شأن لي بالأبعدين، فهؤلاء في كل مؤتمر يدعون إلى مقاطعة بترولية تصب على الغرب وعلى الولايات المتحدة.. مع أنهم لو كانوا من المنتجين الذين يستغل إنتاجهم من استغواهم فإنهم لا يطلقون ألسنتهم كما يطلقونها الآن.

إن قطع البترول عن الولايات المتحدة أو الغرب لا يعني إلا القضاء على قوة الفعل للبترول، فالمقاطعة حرمان لأرض البترول وإنسانها من القوة التي جعلت الدول التسع الأوروبية تحاول أن تجد حلاً، ولو كان الحل ليس في طاقة الدول الغربية.. فالولايات المتحدة ما زالت تلعب بسلوك الدول التسع في هذا المجال، وإطار كامب ديفيد ما زال شبحاً يقصي الدول الغربية عن عطاء الحل.

أما الاتحاد السوفياتي، فالضغط منه إلى حد الشراسة يعجز دول الغرب، وحتى الولايات المتحدة على أن تضغط على إسرائيل، كما هو

معجز لأصدقائه أن يتحركوا إيجابياً أو سلبياً مع تحرك الدول الغربية، أو ضد إسرائيل، فبقاء العرب في المواجهة لإسرائيل الذين تمتلئ مستودعاتهم بالسلاح، قد غلت أيديهم إلى أعناقهم، لا يحاربون طغيان إسرائيل حتى على لبنان، وما قبل لبنان.

إن البترول أصبح مرفقاً عالمياً.. وقوة عالمية للأرض وإنسانها.. فيه عطاء أن نحارب به بقوة الفعل لا بتعطيل الفعل، ثم.. أليس هناك بترول غير بترول الخليج، أم أن بعض الأقربين يتعمدون التناسي حتى تكون المآسي؟

ـ العنـــف:

في مساء اليوم الذي أملي فيه هذه الكلمة.. سمعنا تصريحاً لوزير خارجية أميركا الجنرال الإسكندر هيج.. يحذر الاتحاد السوفياتي أو يدعوه إلى ترك العنف في بولندا ـ مثلاً ـ أو في الأفغان، أو في غيرهما على يد الذين يسلطهم.

وعجبت من هذه الازدواجية.. يطلب من الاتحاد السوفياتي أن يمتنع عن العنف.. بينما الجنرال الإسكندر هيج ـ كوزير لخارجية الولايات المتحدة ـ لا يحذر نفسه ليدعو إسرائيل بالكف عن العنف.. حتى إن المنصّب لنفسه في تحقيق التاريخ لا يكون ظالماً للولايات المتحدة إذا ما قال، بل وإذا اعتقد أن العنف الذي تمارسه إسرائيل في لبنان الآن، وفي فلسطين والجولان ما هو إلا عنف الولايات المتحدة.. تصرخ من عنف الاتحاد السوفياتي.. وتبتسم لعنف إسرائيل.

أليست هذه ازدواجية في السلوك، فإن زعموا أن غطرسة القوة تخفيها،

فإن شراسة الظلم تبديها، فلو لم أكن مظلوماً كعربي لما خطر في بالي أن أجرح موقفاً للولايات المتحدة، ولكن أليست الازدواجية هي من تجريح الولايات المتحدة لنفسها؟

ـ السلاح

وانفرجت النفس العربية قليلاً حين أعلنت الإدارة الأمريكية أنها قد وافقت على إتمام البيع للأسلحة المتطورة، وطائرات الاستكشاف للمملكة العربية السعودية، فلم تلبث بعد لحظة من الانفراج إلا أن تشعر بالضيق حين أذاعوا أكثر من ذلك على الكونغرس، وحين أذاعوا أكثر من ذلك أن ثلاثين عضواً من الكونغرس نعتوهم أنهم من اليهود قد قابلوا الإدارة الأمريكية محتجين على هذه الصفقة.

فهل التخطيط لبقاء الصداقة وإعطاء القوة للأصدقاء يخضع لاعتبارات دفاعية أكثر من الاعتبارات السياسية.. أم أن الاعتبار ولا غيره هو للخضوع لليهود، ولإسرائيل؟ مع أن الحجة للإدارة الأمريكية قد نوهت بالأسباب التي دعت الرئيس ريغان أن يوافق على بيع الصفقة.. لأنه في عرف الدفاع عن المصالح الأمريكية هو العطاء للأصدقاء.. يملكون القوة للدفاع عن أنفسهم، عن أرضهم، عن بترولهم. وبالتالي هو قوة دفاع عن المصالح الأمريكية.. بل هو قوة عطاء للولايات المتحدة من ناحيتين: من ناحية الثمن المدفوع، ومن ناحية التوفيق لأن لا تتورط.. الولايات المتحدة في ما تزعمه من إعداد قوة الانتشار السريع. فبيع السلاح.. مال في خزانة الولايات المتحدة، أما عطاؤه لإسرائيل فنزح من ثروة الولايات المتحدة وعطاء آخر هو توفير النفقة على الولايات المتحدة.

وإذا كانت الإدارة الأمريكية التي ترتكز على مخططات البنتاجون قد

استوعبت أن القوة في يد الأصدقاء هي لمقاومة أي تحرك من الاتحاد السوفياتي ضد هؤلاء الأصدقاء، فإن ذلك ما هو إلا العون للولايات المتحدة، كأنما الولايات المتحدة تضيف قوة إلى قوتها أما عطاؤها لإسرائيل فقد أسقط كثيراً من هيبة الولايات المتحدة وقوتها، ثم إن هذه القوة في يد الأصدقاء.. قد تقول إسرائيل واليهود معها إنها لن ترد الاتحاد السوفياتي وهم يعرفون أن الاتحاد السوفياتي لن يباشر غزواً بقوته الذاتية كجيش يدفعه الاحتلال فما فعله في الأفغان هو عن طريق العمالة والعميل، وكذلك إذا ما حاول أن يتحرك ضد الخليج وما إليه، فإنه لن يباشر ذلك غزواً بجيوشه، فالأصدقاء له أصبحوا في وضع كماشة شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ويمكنه أن يثير ببعض هؤلاء الأصدقاء حرباً أهلية، فالقوة في يد المملكة العربية السعودية لا شك أنها قادرة على مقاومة تحرك أي عميل أو أي صديق للاتحاد السوفياتي.. حتى تعطي الوقت للولايات المتحدة إذا كانت صادقة في التحرك ضد مطامع الاتحاد السوفياتي.

ولعلّي قد اجترأت كثيراً بهذا التوضيح أو هذا التجريح، لأني أردت أن لا أكون كالنعامة.

الفيتـــو . . ومـاليـه

الفيتو ـ أو حق الرفض ـ امتياز كان وضعه في الميثاق أمراً فرضته الإمبراطوريتان المنتصرتان، فأعطتا لنفسيهما أن تكونا مالكتين لسلطان الدنيا . . تفرضان امتناعهما عن أي قرار من مجلس الأمن فإذا مجلس الأمن لم يعد بعد إلا مجلس الخوف أو التخويف.

فالفيتو . . ديكتاتورية إمبراطورية ترفض رأي الأكثرية لتفرض رأيها، فالموقف السلبي قد يظن أنه ليس رأياً، مع أنه لا فرق في أن يكون الرأي إيجابياً أو سلبياً، فالدول الخمس أخذت هذا الامتياز، ولعلّ بريطانيا وفرنسا والصين كان عطاؤه لها تسولاً من باب جبر الخاطر، أما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة فلم يكن ذلك عطاء. وإنما كان ذلك أخذاً. قسراً قد زيَّناه جرعة حين شاركا الدول الثلاث معهما . . كأنه التبرير لموقف ظالم. وتعامل الاتحاد السوفياتي مع الفيتو، وكان أكثر ذلك رداً على مواقف الولايات المتحدة ومن إليها، وكثيراً ما صفق العرب لما رفضه الاتحاد السوفياتي.

أما الولايات المتحدة فكثيراً ما رفضت قرارات ضد إسرائيل، فإذا إسرائيل لا تصفق لذلك لأنها لا تحسبه عطاء من الولايات المتحدة وإنما هو أخذ من إسرائيل وعطاء من اليهودية الصهيونية داخل الولايات المتحدة.

وإذا الهوة تتسع بين العرب والولايات المتحدة، فالفيتو كسب منه الاتحاد السوفياتي كثيراً. وخسرت الولايات المتحدة الكثير. ولكن حق الفيتو الذي أعطى الكسب للاتحاد السوفياتي لم يغيّر من الواقع في العالم العربي شيئاً. الرفض لقرار رفض للقانون، ولكن الواقع تنصره الولايات المتحدة بغير قانون، ويكسب منه الاتحاد السوفياتي بالتقنين العربي.. لا يمكنه إلا أن يغض الطرف عن أي موقف للاتحاد السوفياتي قبل غزو الأفغان ولا يسكت له لسان يعلن النكران لمواقف الولايات المتحدة.. سواء عن رفضها القرار، أو فرضها الطغيان.

وانتهى الفيتو، فلم تعد الدول الخمس، وعلى الأخص الإمبراطوريتان روسيا والولايات المتحدة، في حاجة إليه.

يجمعون على القرار لأنهم لا يريدون التظاهر برفضه، فهناك الرفض الواقع من الذين يصدر ضدهم القرار.. لا حاجة لإشهار أنفسهم رافضين، فإسرائيل وجنوب إفريقيا والاتحاد السوفياتي وغيرها أصبحت تمارس الرفض بلا قانون وضد القانون.

أفليس من الحقيقة أن نقول: إن إسرائيل سخرت من هيئة الأمم ومجلس الأمن.. بل وسخرتهما أكثر من سخرية هتلر وموسوليني بعصبة الأمم؟

فالنازية والفاشية هما الآن تلبسهما إسرائيل.

إن النازية والفاشية بقوة ليست لها، دائماً هي عطاء السكوت عنها من الاتحاد السوفياتي وأخذ هذا العطاء قسراً من الولايات المتحدة، فهتلر وموسوليني كانا بالقوة الذاتية يسخران من عصبة الأمم.. أما إسرائيل فلم يكن ذلك من قوتها الذاتية، وإنما من عطاء أوروبا كلها والولايات المتحدة

التي ورثت سلطان أوروبا المستعمرة، فأحالته إلى نوع من الاستقطاب بأنواع من الاستثمار، فإسرائيل ما هي الآن إلاَّسمسار لبيع السلام، فوجود إسرائيل على هذه الصورة صنع من يشتري السلاح، ومن يبيع السلام، والتاجر لا يفرط في السمسار.. إلا إذا وجد سماسرة آخرين.. كما هو الحال في سلوك الاتحاد السوفياتي الآن، فقد أصبح سماسرته كثيرين.. لكن السمسار المحترم لديه مازال هو إسرائيل.

لقد مات الفيتو في مجلس الأمن، ويعيش الفيتو الآن في كل مكان.

ـ الهند وباكستان:

حين زار الأمير سعود الفيصل وزير خارجية المملكة العربية السعودية الهند صرح يدعو الهند وباكستان إلى موقف استراتيجي موحد يصون أمن الدولتين، ويردع المتربصين بهما من الشرق إلى الشمال.

وحين زارت السيدة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية دعت إلى مثل ذلك، بل وكانت صريحة حين أنكرت على الهند أن تقتني السلاح وترفض أن تفعل ذلك الباكستان بل إنها ـ بعبارة خلفية ـ أنكرت على الهند موقفها من غزو الأفغان.

فأي تعليق أبدأ به؟.

إن تصريح الأمير والرئيسة.. تذكير بواقع يضر، وطلب لوضع ينفع، ولكن.. لماذا تقف الهند هذا الموقف من الباكستان، وحتى البنغال، وحتى الأفغان؟

فاستنباط الحكم على الواقع ينبغي أن لا يحصر في وقائع جدت بعد تقسيم الهند إلى دولتين، ثم انقسام القارة إلى ثلاث دول، وإنما هو

الاستقراء لما قبل هذا الواقع فلو لم تكن هناك عقد ورواسب لما كان الخلاف على كشمير، ولو لم تكن التعقيدات بين شرق الباكستان وغربه لما احتدم الواقع حتى أن النظرة المجردة تحسب أن كل ذلك هو السبب، بينما الأسباب كثيرة من عقد الماضي ورواسبه، فقد عرفها غاندي.. فأحب لقارة الهند أن تمسك بيد المنبوذين، طاهرة لا نجسة، واجب أن يكون الهندوكي والمسلم الهندي مواطنين في أرض واحدة فاغتالته العقد بين هندوكي مثله.. فالهنادك في الهند أنكر عليهم أنهم تجرعوا الغصص من سلطان المغوليين والباتان، فنقموا عليهم أنهم المسلمون كأنما هم حمَّلوا الإسلام كل ما تجرعوه من الغصص.. تنكروا للمغولين والباتان كمسلمين ولم يتفطنوا إلى أن الإسلام يحرم الطغيان، ولا يرضى بالظلم.

لقد نقموا على النواب أمراء الإقطاع المسلمين، مع أن هؤلاء النواب لم يكونوا أكثر شراً من المهراجات أمراء الإقطاع، غفروا للمهراجا ما لم يغفروه للنواب.

وحتى أن المسلمين في الهند أضافوا لأنفسهم عقدة جديدة ضد العرب، فالعقدة في الهنادك ضد الإسلام، والعقدة الجديدة في مسلمي الهند أيام الاستعمار كانت ضد العرب لأنهم فتحوا السند، ولا لأنهم شكلوا إمبراطورية في الهند تمزقت في إقطاعيات مسلمة، وإنما لأن العرب حالفوا الإنجليز فأسقطوا ـ كما زعموا ـ دولة الخلافة، فقد اعتقدوا أن دولة الخلافة هي التي ستخرج الاستعمار الإنجليزي من الهند، وأن العرب حين حالفوا الإنجليز والفرنسيين رسخوا الاستعمار في الهند.

ولعلّ هذا الحكم ليس من عندي، فقد سافرت إلى الهند زائراً بصحبة الشيخ محمود شويل فأحببنا أن نزور شيخ الشيوخ السيد حسين أحمد

المدني.. شيخ (ديوباند)، فهو صديق للشيخ حينما كان من خيار علماء المسجد النبوي.. حتى أن الأمير شكيب أرسلان لم يعجبه في مسجد المدينة إلا رجلان عالمان: هما حمدان بن الونيس الجزائري، وحسين أحمد الهندي المدني.

زرنا السيد حسين وتناولنا العشاء عنده، فلما أخذ يودعنا قال:

ـ أنتم العرب أصبحتم مطية الإنجليز.. أعطيتم لهم القوة أن يرسخوا قدم استعمارهم في الهند.. لأن حربكم ضد دولة الخلافة، ولأنكم طريق المواصلات قد صنعتم ذلك.

وسكت الشيخ محمود شويل، فقلت للشيخ حسين أحمد:

ـ إنا نحن العرب نقول إن استعمار الإنجليز للهند، لأن الأرض العربية طريق مواصلات، هو الذي حمل الإنجليز أن يستعمروا أرضاً عربية، وأن يشطر العالم العربي إلى شطرين بإسرائيل، فمن الحق أن ندفع حملتك بأن وجود الإنجليز استعمروا الهند قبل أن تكون لهم قدم في أي شبر عربي.

فهذا العالم الجليل ـ وهو عربي العرق ـ قد أخذت منه العقد الجديدة هذا المأخذ.. وفي رحلة ثانية.. زرت جامعة (علي قر) فإذا بي أسمع أن الدكتور عبد العليم ـ زميل الدكتور ذاكر حسين في تأسيس الجامعة الملية التي صنعت النادرة وما أحسبها تتكرر بعد حين جمعت بين نهرو، ومحمد علي جناح ـ كان الدكتور عبد العليم مدير الجامعة (علي قر) بعد، فإذا بي أسمع أنه يقول: إن الهند لم يعرفها العرب، ولا علاقة لها بالعرب عرفت ذلك فقابلته، وجرى حوار نحو هذا الحديث.

ـ كيف تنكر يا دكتور أن العرب لا يعرفون الهند، وأغلى السيوف هي الهندية القضب، وأجمل البنات من اسمها (هند) والطيب من العطور

هندي.. أو تنكر أن أرقام الحساب الآن.. التي يستعملها العرب في المشرق هي الأرقام الهندية؟.. إن العرب عرفوا الهند والصين.. من أيام ذي القرنين ـ المصعب بن الحارث ـ ومن أيام محمد بن القاسم الثقفي وبأيام الإسلام بإمبراطورية في الهند، ومن أكبر إلى أورتريب؟

فقال الدكتور: لعلّهم لم يفهموا قولي. أنا أعني العرب اليوم. لو عرفوا الهند لما أعانوا الاستعمار الإنجليزي علينا. (كأنما هو والسيد حسين أحمد في مسلاخ واحدة).

ولكن الظروف تغيرت، والصين تدق الأبواب، والاتحاد السوفياتي قد فتح الباب، فلا يعقل إلا أن يدعوهم سلطان الأرض الواحدة للدفاع عنها.

فتسليح باكستان قوة للهند ضد من يتربص. ولكنها عجزة (نهرو) العظيم.. حين أصر على موقفه من كشمير.

التاريخ دراية لا رواية
وأجمل الحب تزينه الرحمة

بعضهم يقول عن الأديب السعودي محمد حسين زيدان، أنه مفكر لا أديب، وبعضهم يقول إنه موسوعة تمشي على قدم واحدة، هو رجل متواضع، لا يدعي شيئاً من ذلك، يحب القراءة وبصوت عالٍ كي تأخذ الأذن غذاءها من الجرس، وهو إلى جانب ذلك، أديب وكاتب وله خواطره ومحاضراته في تدوين التاريخ.

مندوبة الوطن العربي التقته في هذا الحوار

في مقدمة كتابه (تمر وجمر) يقول الأديب السعودي محمد حسين زيدان (إن التمرة، والجمل والحصان والسيف والجمرة) كانت جميعها مادة الحضارة العربية، وعزة الصحراء وأداة.. الإنسان فيما سجله من بطولات وأمجاد، أو مصائب ومآسٍ كانت جميعها بمثابة مَثَل وأمثولة الأجيال العربية.

وزيدان نشأ وعاش في مكة المكرمة، وتلقى دروسه في النحو، والفقه، والحديث، والتاريخ في المسجد النبوي، وكانت المساجد في ذلك العصر بمثابة جامعات يتخرج منها المرء بأرضية غنية ثقافية وعلمية، وعلى الرغم

من إنتاجه الأدبي المتواصل (تمر وجمر) وهي مجموعة خواطر، بوازع من التحرك في الوجدان، و(سيرة بطل) وهي باقة عطرة من سير صحابة رسول الله، الذين أضاءوا وجه التاريخ أمثال (مصعب بن عمير وسعد بن معاذ، وأنس بن مالك وحمزة بن عبد المطلب، وخالد بن الوليد وغيرهم) وكتابه (محاضرات) عن التاريخ والثقافة الذي ضمنه بحثاً عن المنهج المثالي لكتابة التاريخ القديم والحديث.

هو أيضاً صحفي، عمل لفترة رئيساً لتحرير جريدتي (البلاد) و(الندوة) السعوديتين: ثم تفرغ نهائياً للكتابة في الصحف والمجلات العربية، وتنوّعت كتاباته في الأدب والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وهو اليوم يشغل منصب رئيس تحرير (الدارة) وهي مجلة ثقافية (أكاديمية علمية توثيقية).

ـ الوعي التاريخي:

أما السمة البارزة لاهتماماته فهي دراسة التاريخ، والتعمق في قراءة رواياته المتعددة.. ومقارنتها واستنباط الصحيح منها.. وهو في مجموعة آرائه أو استقرائه، يطرح حواراً والحوار ـ كما يقول ـ يحل الصواب، والنقيض معاً، للتوصل إلى طريقة مثمرة في تدوين التاريخ، تعتمد التحليل والتعليل كمنهج أساسي، ومن مجرد سرد أدبي إلى تحقيق علمي، لتقديم الدور الحضاري العربي والإسلامي للعالم وبيان استمراريته وقيمته الرفيعة. سألته، ما هو المنهج المثالي لكتابة التاريخ في رأيك؟

لقد تميز هذا القرن الذي نعيش نهايته، بيقظة الوعي التاريخي، وتصاعد مستواه وملاحقة التطورات في حياتنا نحن البشر،تلك التطورات السريعة، التي شلت كل جوانب الفكر والعمل. وقد صاحب هذا الوعي التاريخي تقدم في أساليب البحث والاستقراء والتحليل كما واكبته اتجاهات

جديدة في تحليل الأحداث والظواهر الطبيعية والإنسانية، اتسع ـ في رأيي ـ مجال علم التاريخ حتى أصبح اليوم يشمل كل مظاهر الحياة يربط ماضيها بحاضرها، ويتتبع مسارها.. ويستخلص الحقائق حتى يستوعب فهم الماضي والحاضر فهماً شاملاً وجامعاً.

الأوضاع في عالمنا اليوم تحتم أن يكون الإنسان كله مجالاً للبحث التاريخي، أضيفي إلى ذلك، أن كل ما يشهده العالم من تطور وتقدم وطغيان.. أصبح موضوع التاريخ، كما أن لكل مذهب من اليمين إلى اليسار آثاراً ظاهرة على حركة تدوين التاريخ، فمثلاً التاريخ القديم، كما دونه الطبري، وابن عساكر وابن كثير وغيرهم كان عبارة عن استقراء وجمع لقد دونوا روايات موجهة بناءة وفتح أمام المتطلعين والدارسين والمؤرخين طريقاً للنقد، أما المستشرقون فقد أضافوا مفاهيم جديدة إلى تدوين التاريخ تتلخص بألا نتقبل تلك الروايات إلا معللة بأسبابها ونتائجها، أما مسؤولية المؤرخين المعاصرين فهي تدوين التاريخ تحليلاً وتعليلاً، باستقراء وفقه وتسجيل المناقب والتبعات، فالتاريخ الحديث لا يحتاج اليوم إلى رواية، وإنما هو في أمس الحاجة إلى الدراية، والاستكناه والنقد والتبسيط.

ـ ما هي العيوب التي يقع فيها المؤرخون في تدوين التاريخ؟

لقد تحدثت من خلال أحاديثي المكتوبة والمسموعة عن عيوب التستر في تدوين التاريخ القديم، كالإفراط في المدح والإفراط في القومية التي سببت الشعوبية. ثمة كثير من التناقضات في تدوين التاريخ، لأن الانفراد بتاريخ شعب هو جزء من الشعوب العربية يعني ادعاء التفوق على الشعوب الأخرى التي لها التراث ذاته، فمثلاً التاريخ القديم يفخر بأمجاد بني أمية الذين دام حكمهم مدة تسعين عاماً لكن بني أمية في الواقع عرقلوا مسيرة

الإسلام كوحدة، بالإفراط في القومية. والموجة الهلالية هي التي طبعت أرضنا العربية في مصر، وفي ليبيا وفي شمال إفريقيا بالطابع العربي عرقاً ولغة.. ولا شك في أن الكتب دوّنت الروايات التاريخية، وكانت غاية المؤرخين في الماضي، جمال الأسلوب ورقة اللفظ لكن الصورة اختفت اليوم، وأصبح رائد المؤرخ : تحقيق الجانب العلمي لتدوين التاريخ من دون أن يعير اهتماماً كبيراً للشكليات وجمال اللفظ ومهمة الجامعات اليوم في تدريس مادة التاريخ، هي اتباع طريق التمحيص والتدقيق، وليس قبول الروايات وسردها.

ـ عقل وعاطفة :

ـ إذن كيف يمكن للمؤرخ أن يؤرخ في رأيك..؟

بعقل وعاطفة، التاريخ إن كان عاطفة أصبح تدوينها ذاتياً، كالماء، لا طعم له ولا لون أما إذا كان متجمداً فهو أشبه بالصخر، التاريخ يجب أن يدون بإنصاف لمن تحب ولمن تكره وهذا الإنصاف لن يتحقق إلا بمواكبة العقل والعاطفة بالتوازن بينهما.

ـ كيف العمل لتشجيع اقتناء الموسوعات التاريخية والعلمية التي تقدم لذهن القارئ وجبة مبسطة ودسمة، ولترغيب الناس بقراءتها؟

ثمة ملاحظة مهمة، يجب إبداؤها في نشر الموسوعات التاريخية منها أو العسكرية أو غيرها وتتلخص بترجمة الموسوعات الأجنبية المكتوبة باللغة الإنكليزية أو الفرنسية، نصاً حرفياً من دون التأكد من صحة الحقائق الواردة فيها، فمثلاً لقد قرأت في إحدى الموسوعات الصادرة عن أحد البلدان العربية، ولا داعي لذكر الاسم ـ إن المدينة المنورة يحدها جبلان، أحدهما جبل (أُحد) والثاني جبل (عير) لكن صاحب الموسوعة نسي أن ثمة جبلاً

ثالثاً يقع في أقصى الغرب يدعى (الجماء) وهو الغنم الذي لا قرون له، والذي تغنى به الشاعر الأموي سعيد بن العاص:

القصر في النخل والجماء بينهما أشهى من القلب من أبواب جيرونا

هذا الإسقاط في رأيي خطأ فاحش للتاريخ، وثمة موسوعة مصرية نقلت كلمة (العثم) وهو شجر العرعر، سجلتها في الموسوعة العربية (بالإثم) هذا لا يجوز.. لكنني لا أنكر أن ثمة موضوعات عربية قيّمة، تطرح الفائدة بأسلوب مبسط، تستقي معلوماتها من الموسوعات الأجنبية وتقدمها بروح عربية، بعد التأكد من صحة معلوماتها، وعلى الآباء أن يدركوا وحدهم أهمية اقتناء مثل تلك الموسوعات، وإلزام أبنائهم بقراءتها على أن تسهم المدرسة في تعزيز أهميتها. الأستاذ الجامعي اليوم يقرأ كتاباً واحداً يستند إليه في إلقاء محاضرته، وعندما ينتهي منها يلملم أوراقه، ولا يقرأ جديداً وهذا هو عين الخطأ.

ـ وأين الرواية التاريخية. هل إنها مفقودة. أم أنها في أزمة..؟

الأديب فنان يصوّر عواطف الشعوب ومطالبها بالحرف كالمصور الذي يصوّر إحساساته بالكاميرا، والفن عطاء ذاتي لا يستجيب للأوامر، كذلك الرواية التاريخية، هي عمل أديب ومفكر يكتب بحرية، ويفكر بحرية. لكن هذه الحرية وللأسف مفقودة عالمياً، وليس في عالمنا العربي فحسب، وإذا ما توفرت تلك الرواية فإنها تجد سلطاناً يمنعها ويعتقلها لأن المؤرخ أو كاتب الرواية التاريخية أو الشاعر، أو الأديب لكي يكتب عليه أن يستشعر الحرية في نفسه، لكي يفرز حرفاً حراً صادقاً. وبصراحة أقول إن كاتب اليوم لا يعيش في سلام مع نفسه، هو لا يجد نفسه، إما بسبب هيمنة السلطان على الرأي، أو فرض سلطان المعدة على صاحبها.

ـ سلطان المعدة:

هزني من يدي وأضاف. هل فهمت ما أقصد بسلطان المعدة؟ إنه سلطان الحبيب لقد مات هذا السلطان منذ أمد.

ـ لكن ما هو تصورك لخلق مناخ ديمقراطي يمكن أن يسهم فيه الفنان. والشاعر والمواطن على السواء؟..

يا ستنا، اضطراب العالم العربي وصراعاته مع نفسه ومع العالم ولهثان المواطن وراء أمور حياته اليومية، ولدت عند الأديب والفنان عقدة الهروب من الواقع، هؤلاء الناس لهم تميزهم وخصوصيتهم المرهفة، فكيف نطالبهم بأن يتألق الخيال داخل نفوسهم؟ لا يمكن ما لم تستشعر نفسه الطمأنينة.. وهذا لن يتحقق إلا بإبعاد السيف المسلّط على الخيال والواقع معاً، حينما سيقف الأديب صامداً في محكمة النقد العربي.

ـ يقال إن الأديب السعودي متأثر وإلى حد بعيد بالأدب المصري وبأدب لبنان المهجري، ما هو تقويمك لهذه النظرة، ولمسيرة الأدب السعودي حالياً..؟

أنا أولاً، لا أنفي المؤثرات، شرط أن تتبلور وتتكثف لتفرز أدباً سعودياً خالصاً ليس إلا، وفي اعتقادي أن هذا الأدب يمر في مرحلة تطور وعطاء، والدليل على ذلك هذه الوفرة التي نلمحها في نتاج الكتاب والشعراء، وفي شتى فنون الأدب، والملاحظ أن قراءة هذا الأدب تمرّ بغفوة كبيرة، إنه لا يُقرأ إلا في نطاق ضيق، ومن قبل قلة من أبناء القطر العربي نفسه المشارقة مثلاً لا يقرأون للمغاربة، والعكس صحيح وثمة ادعاءات تفوق في الإنتاج الأدبي لمعظم الأقطار العربية، والمصريون هم أقسى الجميع في هذه الناحية، فقراءتهم لأدب الغرب أكثر من قراءتهم لأدب المشرق.. عندما

جاء الدكتور محمد حسين هيكل إلى المدينة المنورة رحبنا به، لكننا قلنا له، نحن معجبون بك، ونحبك. لكن عندما كتبت حياة محمد، أحببناك أكثر، فأجاب بالحرف الواحد، لقد تعلمنا في الغرب، وهبت علينا رياحه الثقافية، فكانت كالرمال على حجر الصلب، ولما رجعنا إلى الوطن، وقرأنا التراث كانت تلك القراءة بمثابة الريح العاتية التي أزالت تلك الرمال من فوق الحجر الصلب، وبقيت قلوبنا الحجر الصلب في مكانه. وقد ردد هذا المعنى الدكتور زكي نجيب عندما زار الكويت فقال: كنت أرى تقليد الأدباء لأبناء الغرب، لكنني عندما قرأت التراث، وجدت أن المثقف هو الذي يقتني تراثه ويستوعب التراث الآخر ليؤلف بينهما، فالتراث هو بمثابة النبع الصافي لحضارة أي أمة من الأمم..

ـ تقصير بالجملة:

لكن.. كيف يمكننا أن نطوع هذا التراث ونتمثله في لغة الحياة المعاصرة؟

الواقع أن المؤلف والأديب مقصران والجامعات مقصرةٌ في تقديم مادة التراث، ومن ثم إسقاطها على حياتنا المعاصرة. ليس ضرورياً أن نقدم هذا التراث بأسانيده (حدثنا وحدثنا فلان)، لا حاجة لذكر هذه التفاصيل، لأن قارئنا اليوم ملوم، يأكله التلفزيون والسينما، وآخر الصرعات (الفيديو) علينا أن نقدم له طعماً شهياً بوجبات خفيفة، يتوفر فيها المبنى الجيد، والشكل الحسن، من دون القضاء على الأصل أو منازعاته، وما يزال التراث (إمبراطورية) مترامية الأطراف، وهو ليس في حاجة إلى إمبراطور قد تكون حاجته إلى فنان يجيد عزفه بمهارة في قلوب الناس.

ـ يقال يا شيخنا زيدان، إن الشعر هو ديوان العرب..

(ولم يدعني أتم سؤالي، بل قال معترضاً).. يجب أن نعرف الملابسات التي قيلت فيها هذه العبارة، لقد قيلت بالفعل، ومن قبل الفقيه عبد الله بن عباس، وفي حادثة من أطرف الحوادث، عندما كان جالساً في ديوان ابن الأزرق زعيم الخوارج. فجاءه رجل يسأله عن قصيدة عمر بن أبي ربيعة الرائية (أنت غادٍ فمبكر) فجلس ابن العباس يرويها ويشرحها، فالتفت ناحية ابن الأزرق وقال له: أسألك في الفقه والدين فتخوض في الشعر؟ فأجاب ابن العباس كلمته المشهورة: إن الشعر ديوان العرب، وكيف تعرفون الفقه والدين، إن لم تعرفوا ديوان العرب.

وصمت لحظات وأضاف، لا يمكن للشعر أن يأخذ مكانته ودوره ما لم يفتح له أبواب الحرية. لقد وصل شعر المتنبي، في حلب أو العراق إلى الأندلس، وكذلك الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وغيرهما. كانت الناس تصفق للكلمة الحلوة وتتذوقها، أما اليوم فدعيني من الناس.

ـ كمفكر، ومثقف.. كيف ينفتح الأديب السعودي على الثقافة المعاصرة؟

أبناؤنا اليوم يتمتعون بمؤهلات كافية، فهم يجيدون قراءة الأدب بلغتين، هما بمثابة دعامتين، تراثه وأدب الغرب، وهو إلى جانب ذلك يقرأ المتناقضات، لأنه بمعرفته للسلبيات تتضح أمامه الإيجابيات.

ـ لسان السلطة:

ـ كصحفي وزميل.. ما هي مميزات الصحافة الناجحة في رأيك؟

أن تلتزم الصدق مع نفسها، والصدق مع قرائها. لا تجور وإن عادت، ولا تذعن أمام المغريات. الصحفي عندما يكون مأجوراً لفعل عليه العفا ـ وللأسف ـ فإن معظم الصحف العربية اليوم هي لسان حال السلطة، وهي

في النتيجة لا تخدع إلا نفسها، فالصحافة وكما اتفق على تسميتها ـ هي مملكة لا سلطان عليها إلا حرية الكلمة.

ـ في حياتك الأدبية والصحفية. من هم الأدباء الذين ارتبطت معهم بصداقة؟

كانت تربطني صداقات متينة ـ ولله الحمد ـ مع معظم أدباء المشرق والمغرب العربي، ومع كل الأدباء المحليين، بعضهم انتقل إلى رحاب الله، وبعضهم ما زالت أواصر المودة والمحبة معه قائمة. أذكر منهم حسين سرحان، حمزة شحاته، وحسن الفقي، ومحمد حسن عواد وعرفت هيكل، والجواهري وبدوي الجبل.

ـ قصة مع عمر:

ـ ثم توقف وأضاف، وعرفت الشاعر عمر أبو ريشة، ولي معه حكاية طريفة لكن ليست للنشر ثم أشار بيده وقال: أغلقي هذه الآلة (آلة التسجيل) (فأذعنت فانبرى بظرف يرويها)، وفي أثناء حفل التكريم الذي أقيم لشاعرنا الأمير عبد الله الفيصل، وحضرها أدباء من البلدان العربية كافة، بمن فيهم شاعر الشام عمر أبو ريشة، ألقيت كلمة ارتجالية قلت فيها: التاريخ يعيد نفسه. لقد كان شاعر الجزيرة العربية يذهب إلى السلطان في دمشق، جرير، والفرزدق والأخطل وكثير و.. وعندما أصبح السلطان في هذه الجزيرة.. جاءت دمشق بشاعرها عمر أبي ريشة تقاضينا ذلك، فأصبحت مقايضة، فارتسم الحزن على وجه الشاعر أبي ريشة ثم انفرجت أساريره وغرق في الضحك واعتبرها دعابة.

ـ وذكرياتك عن الشاعر الجواهري؟

أذكر أنني التقيته في مؤتمر تونس. وهو شاعر على جانب كبير من الظرف والرقة وحسن الحديث وقد اقتربت منه وناديته (أبا فرات) ثم قلت شعراً:

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكمُ على إذن حرام

فتقدم مني بوجه باش، ثم سألته عن حال آل كاشف الغطاء، وهم أخواله. منهم الإمام.. محمد حسين كاشف الغطاء، فالتفت ناحيتي وقال: لقد ذكرتني يا رجل بالنجف، وبرائحة الشيخ والقيصوم. ثم ذكر الشاعر عروة بن أذينه، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء، باكرها النعيم فصاغها بلياقة، فأدقها، وأجلها

ذكر هذا البيت. ثم دمعت عيناه، وقال بصوت أجش (شوها الإنسان العربي) بشروال والله أكبر شاعر متشرد في باريس لا يقرض مثله.

ـ والمرأة يا شيخ زيدان..؟ أين هي من حياتك..؟

أجاب بابتسامة مرهفة، لا تسأليني عنها، بل اسألي قيود الوراثة. المرأة قديسة وهي أم. والأمومة قداسة.

ـ هل كنت تدعو لها ومن خلال كتاباتك السابقة إلى تعليمها وتحريرها؟

بعفوية ساخنة أجاب.. يا ستنا جوى ما يتناسب، حالي كحال لطفي السيد، والذي شارك الشيخ محمد عبده في الدعوة لرفع الحجاب، حين

سئل في إحدى الجلسات، لماذا لم تسفر عائلتك بعد..؟ فأجاب، أنا سفوري بعقلي، حجابي بعاطفتي.

أنا يا سيدتي، أؤمن بالمرأة، لأنها تعرف كيف تحتضن الحب الذي تزيّنه الرحمة، ويحصنه الود والتسامح، إنها الخير وكفى.